من أعلام الصحابيات

رضي الله عنهن



محمد فتحي

من علماء الأزهر الشريف



إهـــــداء2006
دار التوزيع الإسلامية


دار التوزيع والنشر الإسلامية
٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢

من أعلام الصحابيات

رضى الله عنهن

تأليف

محمد فتحى

من علماء الأزهر الشريف

الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع: ١٨٢٨٨/ ٢٠٠٥

الترقيم الدولي: I.S.B.N
977-265-674-4



دار التوزيع والنشر الإسلامية

مصر - القاهرة - السيدة زينب ص. ب ١٦٣٦

٢٥١ ش بورسعيد ت: ٣٩٠٠٥٧٢ - فاكس: ٣٩٣١٤٧٥

مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١

www.eldaawa.com
email:info@eldaawa.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ
وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

[التوبة: ١٠٠]



الإهداء

إلى مَنْ ربياني صغيراً: أمي وأبي

إلى مودتي وسعادتي: زوجتي

إلى من أدعو الله عز وجل لهم أن

يجعلهم من الأبرار: أولادي

المقدمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أفضل رسله، وأشرف دعاته محمد رسول الله ﷺ، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه الهداة البررة الذين علم الله فيهم صدق الإيمان، ونقاء الفطرة، وعظيم التضحية، فشرفهم بحمل رسالة الإسلام إلى العالمين، فضحوا من أجلها، وبذلوا دماءهم وأموالهم فى سبيلها، حتى أدوا الأمانة، وبلغوا الرسالة، ونصحوا لله ولرسوله، فكان لهم فضل على الناس، ودَيْن فى عنق كل مسلم حتى يرث الله الأرض ومن عليها، رضى الله عنهم ومن تبعهم وحمل لواء الدعوة إلى مَنْ بعدهم إلى يوم الدين.

اللهم اجعل عملنا كلَّه صالحًا خالصًا مُتَقبلاً، ولا تجعل للشيطان فيه حظًا ولا نصيبًا، ووفقنا لما تحب وترضى، وارزقنا خير الآخرة والأولى.

وبعد:

فإن صحابة النبى ﷺ - رجالاً ونساءً - هم صفوة هذه الأمة وخيارها، وهم خير القرون، اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه ﷺ، ودعاهم إلى الإيمان فآمنوا، وما كان قولهم إلا أن قالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣]، ورسخ هذا الإيمان فى قلوبهم رسوخ الجبال الراسيات، فبذلوا فى سبيله مهجهم وحُرَّ أموالهم، وتركوا ديارهم وأوطانهم، وتحملوا الشدائد والمحن، وانتصروا لله ولرسوله ﷺ، حتى عز بهم هذا الدين، وقامت بهم دولة الإيمان والقرآن.

ولقد كانت حياة النبى ﷺ وحياة صحابته معه، كلها بطولات فذَّة، وكلها تضحيات رائعة، وكلها مُثُل فريدة، وكلها لله وفى سبيل الله؛ لذلك فإنها لا تزال هى المعين الثَّر الذى تنهل منه الأمة أزكى معانى الخير، وأسمى مبادئ العزة والمجد، وأقوم مناهج التربية والنصح والتوجيه، وأنبل معانى الشرف والفضيلة، ولا تزال أحداث هذه الحياة الكريمة - التى استنارت بها بطون الأسفار على سعتها- شاخصة، تدل الأمة - بل الأمم كلها - على معالم الطريق، وتضع

أقدامها على جادة الصواب، وترسم لها صورة الحياة الفاضلة النبيلة، وتهديها إلى أصول الحياة الحرة الكريمة، فلا تضل ولا تشقى، ولا تزيغ ولا تضطرب، ولا يلتبس عليها السبيل.

وما من صفحة من صفحات حياة الصحابة مع النبى ﷺ إلا والأمة فى أمَسّ الحاجة إلى عمق التأمل فى سطورها، وحسن القراءة لمفرداتها؛ لتعرف كيف تكتب التاريخ لنفسها، ولتدرك كيف تصنع الحياة الكريمة لشعوبها، ولتقتفى منهج النبوة الكريم فى بناء إنسان العقيدة الذى تحيا به الأمم، وتعلو به الشعوب إلى القمم، وترتفع به الرايات وتنتصر بجهاده الدعوات.

ولا يوجد تاريخ أوفر حظًا ونصيبًا من هذه النماذج الحية السامية من تاريخ الإسلام، الذى جاد علينا بجيل ربانى فريد تربى على يد النبى ﷺ، وصُنع على عين الله عز وجل، فكان صدى للقرآن، كما كان الوسيلة التى بها وضحت آياته، فكان التطبيق العملى لحكم الله أمرًا ونهيًا، مما يعنى رفعة تلك النفوس وعلو قدرها وسمو شرفها، والتى وصفها النبى ﷺ بالخيرية فقال: «خير الناس قرنى.....»[(١)].

ولقد ضمت كتب التاريخ وقائع هذه النماذج السامية ومواقفهم، وحفظت أخبارهم وسيرهم، بل عنى سلفنا بهم عناية فائقة، فكتبوا فيهم الكتب المطولة، وألفوا فى أسمائهم وطبقاتهم وتراجمهم المؤلفات الواسعة، وسجلوا فضائلهم ومناقبهم فى كثير من مؤلفاتهم، وخصصوا قسمًا كبيرًا من هذه الأسفار للنساء المسلمات السابقات.

ولقد تتابعت الكتابة فى هذا الفن من الباحثين والعلماء فى هذا العصر وما قبله، وكل يدلو بدلوه حسب عصره وأسلوبه وطريقته.. ثم غدا علمًا اشتدت حاجة الدعاة والهداة والمصلحين إليه فى إيقاظ همم المسلمين، وإحياء عزائمهم، وتحفيزهم على الاقتداء بهم واقتفاء آثارهم، والنسج على منوالهم، وبذل نفوسهم ونفيسهم فى سبيل دينهم.

(١) البخارى فى فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبى ﷺ ومن صحب النبى أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه (٧/ ٥) (٣٦٥١)، ومسلم فى فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (١٦/ ٨٤) (٢٥٣٣).

ولازالت الكتابة فى حياة الصحابة والصحابيات مثلها مثل الأرض السوداء المخصبة يزورها الغيث فتزداد على كثرة التقليب إثمارًا، وكلما حركتها آتتك ثمرًا أخصب وأشهى، أو هى كالشمس تطلع على الناس فى إشراقها كل يوم، وهم لا يزالون منها فى جديد مطلوب وأثر مرغوب.

ورغم كثرة ما ظهر من كتب ودراسات قديمة ومعاصرة عن سير الصحابة والصحابيات، فإننى أعتقد أن الساحة العلمية والثقافية الإسلامية، تتسعُ للمزيد، وأن هذه المادة تعطى الجديد المفيد من الفوائد والدروس للناظرين والدارسين والباحثين.

ذلكم أنها تجدد وتبعث فى حياة الأمة، وتكون أداة تذكير للدعاة، وزادًا للعاملين، ومدرسة للإيمان واليقين لعامة المسلمين، وهذه المادة كذلك تمثل أداة للتربية ومصدرًا للتوجيه السليم الذى يصلح به حال الفرد والجماعة، ولن يصلح حال هذه الأمة، إلا بما صلح عليه أمر أولها..

كما إنها تجعل المسلم يزداد ثباتًا على الحق، وإصرارًا على مواجهة الباطل، عندما يطّلع على مواقف الصحابة وسيرهم.. خاصة وأن المسلم ينشد مثالاً يقتدى به فى كل عمل يقدم عليه فى غناه وفقره وفى سلمه وحربه.. ويتحرى السبيل الذى يسلكه، ويريد أنموذجًا عاليًا يأتم به، وهؤلاء الصحابة والصحابيات عاشوا فى كنف النبى ﷺ، ونهلوا من معينه، وارتشفوا من رحيقه العذب الفياض، واستنارت أرواحهم بنور النبوة وهديها..

يقول عبد الله بن عمر رضى الله عنهما: من كان منكم متأسيًا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ، فإنهم كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، وأقومها هَدْيًا، وأحسنها حالاً، قومًا اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم فى آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم[1].

إن من لم يستفد بعظات الماضى لم يفز بثمرات المستقبل ولم يأمن مخاطره ومهالكه، والعاقل هو الذى يستخلص العبرة من أطوائها، حتى يلحق الآخر بالأول، ويربط القديم بالجديد، والحاضر بالماضى، ويستفيد اللاحق بالسابق، ويمضى الخلف على آثار السلف صفًا واحدًا، ويعرف المتأخر فضل المتقدم فيسير

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم (١/ ٣٠٥، ٣٠٦).

على نفس الدرب وفاءً.. وحبًا لهم واعترافًا بفضلهم، ومن أنبل صور الحب أن نحب مبادئهم، وأن يظل عملهم العظيم حيًا فى ضمائرنا، ودروسًا يصلح الله بها ما أبلت الأيام من عزائمنا.

وإن من المسلمين من يكثر النواح والبكاء على الماضى دون أن يعمل للحاضر شيئًا، والنواح على الماضى لا يحيى ما مات ولا يرد ما فات، والأمم التى تبكى على ماضيها، وتغفل عن حاضرها، أمم تحفر قبرها بيدها، ولكن يجب على الأمة أن تتعلم من سلفها - ذلكم الجيل الربانى الفريد - ليكون حاضرها أزهى وأرقى، فتتربى عليه وتستفيد به.

ولئن كان للمسلمين الأُول الذين حظوا بصحبة النبىﷺ الفضل بعد الله عز وجل فيما ننعم به من نعمة هذا الدين العظيم، فالمرأة المسلمة شريكة الرجل فى ذلك، ساندته فى تحمل أعباء الحياة ومسؤولية نشر هذا الدين الحق وإعلاء كلمته، كما آزرته فى جهاده، وخلفته فى أهله، بل وجاهدت فى سبيل الله بجانبه.. ولم تكن أقل منه ثباتًا فى الدين، ولا أقل تضحية وبذلاً.. ومنذ اللحظة الأولى فى تاريخ الإسلام العظيم والمرأة المسلمة تؤدى دورها، وتدرك عظيم مسؤوليتها وثقل أمانتها، وتقوم بواجبها بإيمان راسخ ويقين ثابت لا يرتاب فى موعود الله عز وجل.

ولما كانت المسلمة المعاصرة غرضًا للسهام الخبيثة الموجهة إليها من أعداء الإسلام، كانت أحوج ما تكون إلى التعرف على نماذج من القدوات من الصحابيات اللائى عاصرن النبىﷺ وعشن معه، وتلقين عنه، وسمعن منه، فملأ الإيمان قلوبهن، وامتزج روح الإسلام بدمائهن.. فتقتدى بهن وتنسج على منوالهن، وتجد فى مواقفهن عزاء لما قد تلاقيه من ابتلاءات ومحن، بل تجد زيادة على ذلك مسرة وسعادة حين تعلم أنها تسير فى قافلة المؤمنات الصالحات اللائى تحملن من الأعباء والهموم ما تنوء بحمله الجبال، فهى لن تكون فريدة فى الميدان، وإنما سبقها من هو خير منها تحملاً وصبرًا وثباتًا، وفى هذا عون كبيرٌ لها.

وهذا الكتاب يتعرض لحياة الصحابيات اللائى ضربن أروع الأمثلة فى الإيمان بالله عز وجل والتصديق به.. فى الحب والاتباع.. فى البذل والعطاء.. فى الجهاد ونصرة الدين.. فى البيعة والهجرة.. فى التطلع إلى الدار الآخرة.. فى الإخلاص والصدق.. فى الوفاء والاستقامة..

فإذا ما قرأت المسلمات المعاصرات أخبار الصحابيات السابقات، تضاءلت نفوسهن أمامهن كما تتضاءل السواقى أمام البحار، فيستصغرن أعمالهن، ويحتقرن حياتهن، وترتفع هممُهنَ، وتطمح نفوسهن، وتتحرك عزائمهن نحو المعالى.. وحادى الركب ينادى:

نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونصنع مثلما صنعوا..

وقد انتهجت فى هذا البحث منهج الدعاة والمصلحين الذين يهتمون باستخراج العبر والعظات الحافزة، واستنباط الفوائد النافعة، وذلك فى صورة سهلة ميسرة؛ لتكون أدفع على العمل، وأدعى إلى التأسى، ولقد ابتدأت فى هذا الكتاب بذكر ما سوى أمهات المؤمنين، فقد أفردت لهن كتابًا خاصًا يحمل اسمهن رضى الله عنهن، وابتدأت هذا الكتاب بذكر ثلة مباركة من الصحابيات الفضليات، ثم سيعقبهن إن شاء الله صحابيات أخريات نتناولهن إن قدَّر الله عز وجل وأنسأ فى الأجل، ومنح الصحة والعافية والقدرة على العمل.

ومما لاشك فيه أن كل عمل بشرى لا يخلو من القصور، ولا يسلم من النقص والخلل، ومن ثم فإنى أرجو من كل قارئ كريم، يرى فى هذا البحث خللاً أو نقصًا أن يدلنى عليه، وألا يبخل علىَّ بنصيحة نافعة، تقوِّم البحث، وتفيد صاحبه، وله إن شاء الله أجر الناصحين، وثواب الدالين على الخير.

هذا وإنى لأرجو أن أكون قد وفقت فيما كتبت وأبنت، فإن يك من صحة وصواب، فذلك الفضل من الله، وإن يك من خطأ فمن نفسى، والخير أردت وما توفيقى إلا بالله، والله أسأل أن يتقبل عملى هذا، ويجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به قارئه وكاتبه وناشره، ويجعله نورًا لى فى حياتى وزادًا بعد مماتى، وأن يرزقنى به شفاعة نبيه ﷺ المختار، وصحبة آله وصحبه الأخيار، إنه جواد كريم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه

الفقير إلى عفو ربه

محمد فتحى

تمهيد

لقد كانت المرأة قبل الإسلام مهضومة الحق، مسلوبة الإرادة، مكسورة الجناح، يعتبرونها مخلوقًا ناقص الأهلية، وكأنها كلٌّ ثقيل على عواتق ذويها، ويكفى لبيان ذلك ما قاله عمر رضى الله عنه فى الصحيحين: والله إن كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمرًا حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم. . . .(١)، فجاء الإسلام ورفع من شأنها، وأعلى من كرامتها باعتبارها بنتًا وأختًا وزوجة وأمًا، وعضوًا فى المجتمع، وقبل ذلك كله باعتبارها إنسانًا. .

فالمرأة فى الإسلام مكلفة كالرجل، مخاطبة بأمر الله عز وجل ونهيه مثله، مثابة ومعاقبة كما يثاب هو ويعاقب، وهى - فى نظر الإسلام - ليست خصمًا للرجل ولا منازعًا، بل هى مكملة له، وهو مكمل لها، هى جزء منه وهو جزء منها كما قال تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وكما قرر الرسول ﷺ: «إنما النساء شقائق الرجال»(٢)، فالمرأة فى شرع الإسلام إنسانٌ مرعيٌّ الحقوق والواجبات لها من الحق ما للرجل، وعليها ما عليه، إلا بما فضله الله سبحانه من قوة الجَلَد، وبسطة اليد، والإنفاق عليها. . وقد أجمل الله عز وجل بأوجز لفظ، وأدق تعبير هذه الحقوق، فقال سبحانه: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وكما قرن الله عز وجل بين الرجل والمرأة فى ادخار الأجر والثواب عنده سبحانه، وارتقاء الدرجات العلى فى الآخرة، قرن سبحانه بينهما فى الفضائل جميعها، ومنها: الإسلام والإيمان والصدق والصبر وغير ذلك، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ

(١) البخارى فى التفسير، باب ﴿تبتغى مرضاة أزواجك..﴾، (٨/ ٥٢٥) (٤٩١٣)، ومسلم فى الطلاق، باب أن تخيير المرأة لا يكون طلاقًا إلا بالنية (١٠/ ٨٥) (١٤٧٩).

(٢) أبو داود فى الطهارة، باب فى الرجل يجد البلة فى منامه، ص (٥٦)، (٢٣٥)، والترمذى فى الطهارة، باب ما جاء فيمن يستيقظ فيرى بللاً ولا يذكر احتلامًا، ص (٣٧)، (١١٣)، وانظر: صحيح الجامع الصغير (٢٣٢٩).

والصَّادقات والصَّابرين والصَّابرات والْخَاشعين والْخَاشعَات والْمُتصدِّقين والْمُتصدِّقَات والصَّائمين والصَّائمات والْحافظين فُرُوجهُمْ والْحافظات والذَّاكرين اللَّه كثيرًا والذَّاكرات أعدَّ اللهُ لهُم مَّغْفرةً وأجْرًا عظيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وأبى الإسلام إلا أن يكفل للمرأة حسن المودة كما كفل لها حسن المعاملة، وأن يوسع لها من حقوق البر والعطف كما وسع لها من أحكام الشريعة، فأوصى المسلمين أن يستقبلوا ولادتها بالرضا، وزجر الذين يستقبلونها على غيظ.. ومن اهتمام القرآن بالمرأة أن أوصى الرجل بها، وأن يغالب كراهتها إذا تغير قلبه نحوها، عسى أن يثوب إلى حبها، أو يكون فى احتمالها خيرٌ له ولها، فقال تعالى: ﴿ وعاشرُوهُنَّ بالْمعرُوف فإن كرهْتمُوهُنَّ فعسىٰ أن تكْرهُوا شيْئًا ويجْعل اللَّهُ فيه خيْرًا كثيرًا ﴾ [النساء: ١٩].

وتتابعت وصايا النبى ﷺ على منهاج القرآن الكريم فى إنصاف المرأة ورعايتها، فكان ﷺ يقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى»[(١)]، وهذه السيدة عائشة رضى الله عنها تقول: جاءتنى امرأة معها ابنتان تسألنى، فلم تجد عندى غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها شيئًا، ثم قامت فخرجت، فدخل النبى ﷺ فحدثته بأمرها، فقال: «من بُلىَ من هذه البنات بشىء فأحسن إليهن، كنَّ له سترًا من النار»[(٢)]، وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو ضم أصابعه»[(٣)]، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها، ولم يؤثر ولده عليها - أى الذكور - أدخله الله الجنة»[(٤)].

(١) الترمذى فى المناقب، باب فضل أزواج النبى ﷺ ص ١٠١١ (٣٩٠٤) وقال: حديث حسن غريب صحيح، ورواه الدارمى فى النكاح، باب فى حسن معاشرة النساء ٢/ ١٥٩، وصححه الألبانى فى سلسلته (٢٨٥).

(٢) البخارى فى الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة ٣/ ٣٣٢ (١٤١٨)، وفى الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ١٠/ ٤٤٠ (٥٩٩٥) وفى هذه الرواية: «مَنْ يَلى..» مِنْ الولاية، ورواه مسلم فى البر والصلة، باب فضل الإحسان إلى البنات ١٦/ ١٧٩ (٢٦٢٩).

(٣) مسلم فى البر والصلة، باب فضل الإحسان إلى البنات ١٦/ ١٨٠ (٢٦٣١).

(٤) أبو داود فى الأدب، باب فى فضل من عال يتيمًا، ص ٨٥٦ (٥١٣٧).

إن المرأة فى ظل الإسلام مصونة محبوبة مكرَّمة، تجد دائمًا الحماية التامة، والرعاية الكاملة.. ذلك أن الإسلام كفل لها حياة الصون والإعزاز والكفاية، ووقاها حياة التبذل والإذلال والحاجة والضياع، مما تلقاه المرأة فى المجتمعات البشرية الضالة الشاردة عن هَدْى الله، إذ ما تكاد البنت تبلغ الثامنة عشرة من عمرها، حتى تخرج من محضن أبويها الدافىء لتلقى الحياة المادية القاسية، الحافلة بالمكاره والمخاطر، وهى فى أشد الحاجة إلى الحماية والحنوّ والرعاية والصون.

إنه الفرق البعيد الشاسع بين تشريع الله الذى جاء لسعادة الإنسان، وتشريع البشر القاصر الذى شقى به الإنسان، ولا بدع أن نجد فى الغرب، نتيجة لهذا التشريع المادى، جيوش المنحلين التائهين من الشبان، وجموع العاهرات من الأمهات غير المتزوجات من الفتيات البائسات الضائعات، وأعداد هؤلاء وأولئك فى تصاعد مستمر على مرّ الأيام(١).

ولقد تمتعت المرأة فى ظل الإسلام بكافة الحقوق المدنية والسياسية والفردية والاجتماعية، لا تختلف بذلك عن الرجل فكلاهما خلق من نفس واحدة.

ففى ميدان العلم، فقد جعلها الإسلام صنو الرجل فى طلب العلم، وهو فريضة على كل منهما، كما قال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»(٢)، وطلب النبى ﷺ من الشفاء بنت عبدالله العدوية أن تكمل ما بدأته فى تعليم زوجه حفصة(٣)، وقد بلغ من عناية النبى ﷺ بتعليم النساء وتربيتهن أن ذكر فيمن يؤتيهم الله تعالى أجرهم مرتين يوم القيامة - أى مضاعفًا - قوله: «أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها، وأدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران...»(٤).

---

(١) شخصية المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام فى الكتاب والسنة، د. محمد على الهاشمى، ص ٢٢٣.

(٢) ابن ماجة فى المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ص٤٧ (٢٢٤) وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجة، والحديث يشمل المسلمات باتفاق علماء الإسلام، وإن لم يرد فيه لفظ (ومسلمة)؛ لأنه إن لم يشملها لفظًا فإنه يشملها معنى.

(٣) أحمد ٦/ ٣٧٢، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٥/ ١١٥ ورجاله رجال الصحيح، ورواه أبو داود فى الطلب، باب ما جاء فى الرقى، ص ٦٥٣ (٣٨٨١).

(٤) البخارى فى العلم، باب تعليم الرجل أمته وأهله ١/ ٣٢٩ (٩٧) وفى النكاح، باب اتخاذ السرارى ٩/ ٢٩ (٥٠٨٣).

ولقد أدركت المرأة المسلمة على عهد النبى ﷺ قيمة العلم، فطلبت منه ﷺ أن يخصص لهن يومًا فلبى رغبتهن، عن أبى سعيد الخدرى قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله: ذهب الرجال بحديثك فاجعل لنا من نفسك يومًا نأتيك فيه تُعلِّمُنَا مما علمك الله، قال: «اجتمعن يوم كذا وكذا» فاجتمعن فأتاهن رسول الله ﷺ فعلمهن مما علمه الله. . . .(١).

ولم تكن المرأة فى جيل الصحابة الفريد تتردد فى استيضاح الحكم الشرعى من النبى ﷺ بنفسها، ولم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى دينهن، كما تقول السيدة عائشة: نعمَ النساءُ، نساءُ الأنصار، لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين(٢).

وفى ميدان الكسب، ليس فى الإسلام ما يمنع المرأة من الاشتغال بالأعمال الحرة، كأن تكون تاجرة أو محترفة لأى حرفة تكتسب منها الرزق الحلال، مادامت تختار لنفسها الأوساط الفاضلة، وتلتزم خصائص العفة، وقد أعطاها الإسلام كافة الحقوق المدنية التى للرجل، وهى لا تقل عنه شأنًا فى ممارستها، وأقر لها حق التملك، وجعل لها ذمتها المالية كاملة غير منقوصة، بينما حرمتها من ذلك أغلب النظم قديمًا وحديثًا، قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣٢]، وشرع الإسلام لهن الوصية والإرث كالرجال، وزادهن ما فرض لهن على الرجال من مهر الزوجية والنفقة على المرأة وأولادها وإن كانت غنية، وأعطاهن حق البيع والشراء والإجارة والهبة والصدقة وغير ذلك.

وفى ميدان الجهاد فقد شاركت المرأة المسلمة فى خير القرون مشاركة صادقة فى نصرة الإسلام والجهاد فى سبيله، وتقدمت للغزو مع رسول الله ﷺ وصحابته فى عديد من المعارك، وقامت بأعمال حميدة مشهودة من إعداد القِرَب وملئها ونقلها، وسقى المجاهدين، وصنع الطعام وتجهيزه، وتضميد الجرحى ومداواتهم، وحمل

(١) البخارى فى العلم، باب هل يُجْعَلُ للنساء يومٌ على حدةٍ فى العلم؟ ١/ ٢٣٦ (١٠١)، ومسلم فى البر والصلة والآداب، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه ١٦/ ١٨١ (٢٦٣٣).

(٢) البخارى فى العلم، باب الحياء فى العلم ١/ ٢٧٦ موقوفًا عن عائشة ووصله مسلم فى الحيض، باب استحباب المغتسلة من الحيض فِرْصَةً من مسك ٤/ ١٣ - ١٦ (٣٣٢).

القتلى إلى خارج أرض المعركة، بل لم تتوان المسلمة فى ساعات الشدة عن حمل السلاح وخوض غمار الحرب إلى جانب النبى ﷺ وصحبه، وسيأتى فى الكلام عن الصحابيات ما يوضح ذلك أيما توضيح.

وفى ميدان السياسة، بايع النبى ﷺ النساء على الإسلام والسمع والطاعة كما بايع الرجال، وكانت بيعتهن مستقلة عن رجالهن، وليست تبعًا لهم، فلا تغنى عن مبايعتهن مبايعة آبائهن وأزواجهن وأوليائهن، ونص القرآن الكريم على ذلك حيث قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢] وفى ذلك كله ما يؤكد على استقلال شخصية المرأة المسلمة وأهليتها لتحمل المسؤولية فى البيعة والعهد وإعطاء الولاء لله ولرسوله ﷺ، وكان هذا كله قبل قرون من اعتراف العالم الحديث للمرأة بحقها فى التعبير عن رأيها المستقل عن طريق الاستفتاء والانتخاب.

ولقد كان للمرأة المسلمة رأيها الذى يؤخذ به فى الشورى والاستشارة، ولا ينسى التاريخ هذا الموقف العظيم لأم سلمة رضى الله عنها وهى تشارك النبى ﷺ على مستوى أعظم الأمور التى تهم الأمة بأجمعها، وذلك يوم الحديبية حين أشارت عليه ﷺ وأخذ بمشورتها، وفعل ما أشارت به.

وفى الجانب الاجتماعى، فقد أعطى الإسلام المرأة كامل الحرية فى قبول أو رفض من يأتى لخطبتها، ولا حق لأبيها أو وليها أن يجبرها على ما لا تريده، وقد قال ﷺ: «لا تزوج الأيم حتى تُستأمر، ولا البكر حتى تُستأذن...»(١)، وهذا من تكريم الإسلام للمرأة، إذ صان إنسانيتها، وحفظ كرامتها، واحترم إرادتها.

ومن تكريم الإسلام للمرأة فى هذا الجانب أن جعل مقام الأمومة فوق مقام الأبوة، ورفع من قدرها - أيضًا - بعد اقترانها بالزواج باحتفاظها باسم عائلتها بعد الزواج لا تتخلى عنه كما هو الحال فى الغرب.

(١) البخارى فى النكاح، باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاهما ٩/٩٨ (٥١٣٦)، وفى الحيل، باب فى النكاح ١٢/ ٣٥٥ (٦٩٦٨)، ومسلم فى النكاح، باب استئذان الثيب فى النكاح بالنطق والبكر بالسكوت ٩/ ٢٠٢ (١٤١٩) كلاهما عن أبى هريرة.

ولقد رفع الله عز وجل قدر المرأة إلى مقام الولاية المتبادلة بينها وبين الرجل، وأشركها معه في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١]، ذكر القرآن في هذا المقام سمات أهل الإيمان، بعد أن ذكر سمات أهل النفاق بقوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ...﴾ [التوبة: ٦٧]، فإذا كانت المنافقات يقمن بدورهن في إفساد المجتمع، بجانب الرجال المنافقين، فإن على المؤمنات أن يقمن بدورهن في إصلاح المجتمع، بجانب الرجال المؤمنين.

ولقد قامت المرأة المسلمة بدورها في عهد النبي ﷺ - كما سيتضح لنا - وما أسمى هذا الدور الذى جعل المرأة في مكانة اجتماعية عالية، إذ جعلها لأول مرة في التاريخ آمرة، وما كانت تُعرف في غير دين الإسلام إلا مأمورة، وقد حفل تاريخنا الأغر بنساء مؤمنات خالدات شوامخ في أقوالهن وأفعالهن ومواقفهن، يصدعن بالحق لا تأخذهن في الله لومة لائم.

وهكذا ظلت المسلمة تعتز بشخصيتها المؤمنة، وتصون نفسها عن أن تنجرف في تيار الباطل مهما كان قويًا.. وما زادتها الأيام وطول الأمد إلا اعتزازًا بإسلامها، واستمساكًا بمنهج ربها..

والآمال معقودة في مسلمة اليوم أن تنهج نهج سلفها، وأن تنسج على منوالها، وأن تتابع سيرها، وأن تأخذ من سيرهن ومواقفهن نموذجًا يحتذى، ونبراسًا يستضاء به، ومثالاً حيًا تحرص على الاقتداء به... متمثلة دور فاطمة، وأسماء، وأم عمارة، وأم سليم، وصفية.. وأمثالهن..

فاطمة الزهراء
بنت النبى ﷺ
رضى الله عنها
(١)

النسب الشريف

فاطمة الزهراء[١]:

أما أبوها: فهــو محمد رســول الله ﷺ، سيد المرسلين، وخاتم النبـيين، وإمام المتقين. وأما أمها فهى الطاهرة خديجة بنت خويلد سيدة نساء قريش.

وأما زوجها: فهو على بن أبى طالب فتى قريش وفارس الإسلام.

وأما ابناها: فهما الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة.

قال الذهبى عن فاطمة: سيدة نساء العالمين فى زمــانها، البضعة النبوية، والجهة المصطفوية أم أبيــها،[٢] بنت سيــد الخلق رسول الله ﷺ أبى القــاسم محــمد بن عبدالله.. القرشية الهاشمية، وأم الحسنين[٣].

---

(١) أسد الغابة ٤/ ٣٧٧ - ٣٨٠، وسير أعلام النبلاء ٢/ ١١٨ - ١٣٤، والاستيعاب ٤/ ٣٧٣ - ٣٨١، وكنز العمال ١٢/ ١٠٥ - ١١٢، وجامع الأصول ٩/ ١٢٥ - ١٣٢، وصفة الصفوة ٢/ ٩ - ١٥، والمطالب العالية ٤/ ٦٧ - ٧٠، وشذرات الذهب ١/ ١٥، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٤٤٠ - ٤٤٢، ومجمع الزوائد ٩/ ٢٠٤ - ٢١٥، والإصابة ٤/ ٣٧٧ - ٣٨٠، وحلية الأولياء ٢/ ٣٩ - ٤٣، والطبرانى فى الكبير ٢٢/ ٣٩٧ - ٤١٢، والمستدرك للحاكم ٣/ ١٥١ - ١٦١، وفتح البارى ٧/ ١٣١، ١٣٢، وسبل الهدى والرشاد ١١/ ٣٧ - ٥٤، والسمط الثمين، ص٢٥٨ - ٢٧٦، وسمط النجوم العوالى ١/ ٤٢٤ - ٤٣٧، والكاشف ٣/ ٤٣١ (١٠٨)، وجمهرة أنساب العرب، ص١٦، ٣٧، ٣٨، والعقد الثمين ٨/ ٢٨٣ - ٢٨٦ (٣٤٢٣) وتاريخ الثقات، ص ٥٢٣ (٢١٠٨)، والطبقات لمسلم ١/ ٢١٢ (٥١٩) ومقدمة مسند بقى بن مخلد، ص٩٢ (١٣٧)، وطبقات خليفة، ص٣٣٠، والأخوة والأخوات، ص٢٢، والمعرفة والتاريخ ٣/ ٢٧٠، ٢٧١ والوفيات ص٢٥ (١١)، والمعين فى طبقات المحدثين، ص٣٠ (٧٢)، وتهذيب الكمال (المصورة) ٣/ ١٦٩١، وتحفة الأشراف ١٢/ ٤٧١ - ٤٧٣، والثقات ٢/ ١٤٤، ٣/ ٣٣٤، ٣٣٥، والمعارف، ص ١٤٢، ١٤٣، وفضائل الصحابة لابن حنبل ٢/ ٧٥٤ - ٧٦٥، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٢٩٤ (٣٥٣٩)، والعبر فى خبر من غبر ١/ ١١، والمقتنى فى سرد الكنى ٢/ ١٦٧ (٦٩٤٦)، وتذكرة الحفاظ ١/ ٤٧، وتاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين) ٤٣ - ٤٨، وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال ٣/ ٣٨٩ (١٢٢)، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٥٢، ٣٥٣، وجوامع السيرة، ص٣٦، وتقريب التهذيب ٢/ ٦٠٩، والذرية الطاهرة النبوية، ص ٦١- ٧٢، وجمهرة النسب، ص ٣٠.

(٢) كانت فاطمة رضى الله عنها تكنى بأم أبيها، الإصابة ٤/ ٣٧٧.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ١١٨، ١١٩.

المولد والنشأة:

ولدت فاطمـة رضى الله عنها فى السنة الخامسة قبل المبعث، وارتبط مولدها بهذا الحادث العظيم الذى ارتضت فيه قريش النبى ﷺ حكمًا فيما اشتجر بينها من خلاف على وضع الحجر الأسود بعد بناء الكعبة.

خرجت فاطمة الزهراء إلى الدنيا فى أكرم بيت وفى ظل نسب شريف لا أعز منه ولا أنقى، وكانت رضى الله عنها رابعة البنات الطاهرات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، فكن ثمرة طيبة لزواج طيب مبارك، واستبشر أبواها بمولدها وفرحا بها فرحًا كبيرًا.

وأمضت فاطمة رضى الله عنها طفولتها سعيدة ناعمة، إذ أن آخر الأولاد يتقلب عادة فى أعطاف الحنان، ويدرج فى أكناف الحفاوة والحُبّ؛ لذا كانت رضى الله عنها ريحانة رسول الله ﷺ يرضى إذا رضيت ويسخط إذا سخطت، ولكن حنان الأبوين الكريمين لم يحل دون تعهدهما لها بالتربية وإعدادها لتحمل المسؤولية، فكانت خديجة رضى الله عنها خير مربية لبناتها إذ تفرغت لتربيتهن، وتركت للزوج الأمين شؤون التجارة وإدارتها، وأقبلت بكل جهدها راعية للبيت حاضنة للبنات..

ورثت فاطمة عن أبيها النبى ﷺ وأمها أم المؤمنين ما شاء الله لها من المكارم والفضائل، حتى غدت منفردة بكريم صفاتها وجميل فعالها بين بنات قومها، بل بنات الدنيا جميعًا.

وما ظنك بفتاة تنشأ بين أبوين كريمين: بين أب يلقب فى قومه بالصادق الأمين، وأم تلقب فى قومها بالطاهرة.. لقد أسرعت رضى الله عنها إلى النمو بفضل ما تهيأ لها من نبل الرعاية وحسن الأدب، وتفتح صباها كما يتفتح الزهر فى المنبت الطيب، وتربت خير التربية، فكانت - مع أخواتها - المثل الأعلى لبنات الأمة.

فى صغرها:

شاء الله عز وجل أن تتربى فاطمة رضى الله عنها فى أحضان بيت النبوة، وتنمو مع دعوة الإسلام، وتشهد أباها منذ بداية الدعوة وهى فى طفولتها المبكرة،

وتعيش مرافقة لهﷺ دون أخواتها جميعًا حتى يجودﷺ بأنفاسه ويلحق بالرفيق الأعلى.

فها هى رضى الله عنها تشهد أباها وهو يدعو إلى دينه، ثم ينذر عشيرته الأقربين، ويسعى إلى محافل قريش مبشرًا ونذيرًا، ويلقى من قومه الكيد والأذى، فترد الأذى عن أبيها، حينًا بيديها، وأحيانًا بدموع عينيها، وماذا تملك فتاة صغيرة لأب عطوف يُؤذى أمام سمعها وبصرها، إلا عبرات تذرفها؟!

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: بينما رسول اللهﷺ قائم يصلى عند الكعبة وجمع من قريش فى مجالسهم إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائى[(١)]؟ أيكم يقوم إلى جَزُورِ[(٢)] آل فلان فيعمد إلى فرثها[(٣)] ودمها وسلاها[(٤)] فيجىء ثم يمهله، حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم،[(٥)] فلما سجد رسول اللهﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النبىﷺ ساجدًا، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة وهى جويرية[(٦)]، فأقبلت تسعى، وثبت النبىﷺ ساجدًا حتى ألقته عنه..[(٧)].

لقد قامت رضى الله عنها فى قوة صبر وشدة عزم كى تدفع عن أبيها وترد الأذى عنه، متحدية هؤلاء الطغاة غير آبهة بهم، وهذا من جميل رعايتها لأبيها، وجميل تربية أبيها لها.

وعن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال: لما مات أبو طالب عرض لرسول اللهﷺ سفيه من سفهاء قريش، فألقى عليه ترابًا فرجع إلى بيته، فأتت فاطمة رضى الله عنها تمسح عن وجهه التراب وتبكى، فجعل يقول: **«أى بنية.. لا تبكى فإن الله مانع أباك»**[(٨)].

---

(١) المرائى: من تعبد فى الملأ دون الخلوة ليُرى.
(٢) جَزور: الناقة.
(٣) الفرث: ما فى الكرش من قذر.
(٤) السَّلا: اللفافة التى يكون فيها ولد الإبل.
(٥) أشقاهم: هو عقبة بن أبى معيط.
(٦) جويرية: تصغير جارية.
(٧) البخارى فى الصلاة، باب المرأة تطرح عن المصلى شيئًا من الأذى ١/٧٠٧ (٥٢٠)، وفى مناقب الأنصار، باب ما لقى النبىﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ٧/٢٠٢ (٣٨٥٤)، ومسلم فى الجهاد والسير، باب ما لقى النبىﷺ من أذى المشركين والمنافقين ١٢/١٥١ - ١٥٤ (١٧٩٤).
(٨) الطبرى فى التاريخ ٢/٤٨٩.

ولقد كانت رضى الله عنها قريبة من أبيها النبى ﷺ حين خرج إلى قريش وقد نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] فجعل ينادى: «يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم.. لا أغنى عنكم من الله شيئًا، يا بنى عبد مناف، لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغنى عنك من الله شيئًا، ويا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغنى عنك من الله شيئا، ويا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مالى، لا أغنى عنك من الله شيئا»(١).

لقد بدأ النبى ﷺ بقومه وقبيلته، ثم ببنى عبد مناف عشيرته الأقربين، ثم عمه العباس وعمته صفية، ثم كانت فاطمة هى آخر من يتخذه النبى ﷺ مثلا فى ذلك الموقف العظيم، وفى هذا عين العظة والاعتبار، فإذا كان النبى ﷺ لا يغنى عن ابنته فاطمة من الله شيئًا إذا لم تؤمن، فهل يطمع غيرها كائنا من كان فى أن يغنى عنه أحد من الله شيئًا؟!

ولقد أراد النبى ﷺ أن يعمق فى قلب فاطمة فى هذه السن المبكرة أهمية العمل لله عز وجل، وأن أحدًا لا يملك لآخر يوم القيامة شيئًا..

وأى منزلة هذه أن يختارها أبوها ﷺ من بين أخواتها جميعًا، بل من أهل بيته الخاص؛ ليؤكد للناس هذا المبدأ: من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه.

***

(١) البخارى فى الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد فى الأقارب ٥/٤٤٩ (٢٧٥٣)، والتفسير، باب ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ ٨/ ٣٦٠ (٤٧٧١).

إسلام فاطمة

يقول الصادق عرجون: وأما بناته ﷺ الطاهرات عليهن السلام: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، فكلهن أدركن الإسلام وأسلمن، وكن مع أمهن سيدة نساء العالمين السيدة خديجة فى طليعة أسبق السابقين والسابقات إلى ساحة الإيمان به ﷺ نبيًا ورسولاً.

وقد روى ابن إسحاق عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: لما أكرم الله نبيه ﷺ بالنبوة أسلمت خديجة وبناته..

وقال الزرقانى فى شرح المواهب: ولم يُذكر بناته ﷺ - أى فى السابقين - لأنه لاشك فى تمسكهن قبل البعثة بهديه وسيرته، والحاصل أنه لا يحتاج للنص على سبقهن إلى الإسلام؛ لأنه معلوم، وهو يقصد بهذا إلى أن ذلك نتيجة لازمة لزومًا قطعيًا لنشأتهن بين أحضان أصدق وأكرم أبوة، وأفضل وأحنى أمومة، يأخذن عن أبيهن أكرم المكارم، وعن أمهن حصائل العقل الذى لا يوزن به عقل امرأة فى السابقين ولا فى اللاحقين(١).

محنة ومحنة:

رأت فاطمة رضى الله عنها ما تفعله قريش بالنبى ﷺ وأصحابه، وتماديهم فى عنادهم وطغيانهم.. ولكنهم لم يفلحوا فى رد المسلمين عن دينهم أو تحويل النبى ﷺ عن دعوته، فماذا فعلت قريش بعد ذلك؟

لجأت إلى سلاح المقاطعة والحصار، إذ أجمعوا على مقاطعتهم وإخراجهم من مكة إلى شعب أبى طالب... واستمر هذا الحصار الظالم ثلاث سنين حتى أصيبوا بالجهد الشديد، وكان دخول النبى ﷺ والذين معه الشِّعب فى هلال المحرم سنة سبع من النبوة، وفرّج الله عنهم فى السنة العاشرة من البعثة.

(١) محمد رسول الله ﷺ، محمد الصادق عرجون ١/ ٥١٢، ٥١٣.

صحبت فاطمة رضى الله عنها أبويها إلى شِعب أبى طالب، حيث عاشت هنالك بين أسوار الحصار المنهك تشاركهما الآلام راضية صابرة، ثم عادت إلى مكة بعد أن انكسر الحصار، وخرج المسلمون بعده أقوى إيمانًا وأشد ثباتًا وأمضى عزيمة، وكذلك يعوِّد الله عباده الصالحين أن يلطف بهم فى ساعات المحنة والشدة، وينقذهم بفضله ورحمته من المآزق الحرجة.

وفاة خديجة:

وبعد أن أذن الله عز وجل بانتهاء الحصار خرجت فاطمة رضى الله عنها منه وقد أثر فى صحتها وإن زاد فى إيمانها قوة على قوة، ولكن أمها خديجة أم المؤمنين خرجت وقد ضعف جسمها بعد أن اشتد عليها المرض، وأوهنت سنوات المقاطعة جسدها الطاهر، وفى السنة العاشرة من البعثة وقبل الهجرة بثلاث سنين، نفذ قدر الله فى خديجة، وأسلمت روحها الطاهرة إلى بارئها، وهى بين يدى النبى ﷺ، وكان يحيط بفراشها بناتها الطاهرات تنهمر منهن الدموع.

ما أشد لحظات الفراق وأثقلها على النفس، ولكن إيمان فاطمة رضى الله عنها عصمها وثبتها، فصبرت واحتسبت أجرها عند الله عز وجل.

الهجرة إلى المدينة:

وظلت الرحى دائرة بين النبى ﷺ والمشركين، إيذاءٌ واضطهاد من جانبهم، وصبر وثبات من جانبه ﷺ، حتى كانت الهجرة إلى المدينة، ولما تمت الهجرة واستقر النبى ﷺ بالمدينة، بعث زيد بن حارثة ومعه مولاه أبا رافع، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم، وأتيا بفاطمة وأم كلثوم..[1].

وما كادتا رضى الله عنهما تخرجان من مكة، وينفصل بهما الركب حتى طاردهما اللئام من مشركى قريش، وباء الحويرث القرشى بإثم اللحاق بهما حتى نخس[2] بعيرهما فرمى بها وأختها إلى الأرض، فسارت بقية الطريق متعبة إلى أن بلغت المدينة، وما تكاد ساقاها تنهضان بها.

(١) الطبرانى فى المعجم الكبير ٢٣/ ٢٤، ٢٥ (٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٢) نخس الدابة، كنَصَرَ وجَعَلَ، غرز مُؤَخَّرَها أو جنبها بعودٍ ونحوه. القاموس المحيط للفيروزآبادى، ص ٧٤٤.

وهكذا خرجت فاطمة رضى الله عنها مهاجرة إلى الله ورسوله صابرة محتسبة، متحملة معاناة الهجرة وآلامها، إن المسلمة تتعلم هنا: التجرد من كل ما تهفو له النفس، ومن كل ما تعتز به وتحرص عليه: الأهل والديار والوطن والذكريات والمال وسائر أعراض الحياة، وأن تتحمل فى سبيل الله عز وجل ما تلاقيه من معاناة وآلام، وأن تبذل من جهدها ومالها، وتتنزل عنه فى سماحة ورضا، دون أن تفرط فى ذرة من إيمانها أو تقبل الدنية فى دينها، إن المسلمات حين يفعلن ذلك تنتصر العقيدة فى نفوسهن، فهل لنا أن نتعلم هذا الدرس من فاطمة بنت النبى ﷺ، وأن نعلو على ثقلة الأرض ومطامعها وأعراضها.

***

الزوجة

خطبة فاطمة:

لما بلغت فاطمة الزهراء رضى الله عنها مبلغ النساء طمحت إليها أنظار الرجال، فكان فى جملة من تقدم لخطبتها أبو بكر وعمر، غير أن النبى ﷺ ردهما ردًا كريمًا.. وكأنما كان ﷺ يريد أن يخص بها عليًا رضى الله عنه.

أراد على أن يتقدم إلى رسول الله ﷺ لخطبتها، ولكنه ظل محجمًا فترة لا يدرى بما يمهرها وليس معه مال، ومما زاد فى إحجامه علمه أن أبا بكر وعمر كانا قد تقدما فى طلبها.

قال أهلُ علىٍّ له: اخطب فاطمة إلى رسول الله ﷺ، فقال: بعد أبى بكر وعمر؟ فذكروا له قرابته من النبى ﷺ، فخطبها، فزوجه النبى ﷺ، وها هو رضى الله عنه يحدثنا فيقول: أردت أن أخطب إلى رسول الله ﷺ بنته، فقلت: والله مالى من شىء قال: وكيف؟ قال: ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها إليه، فقال: وهل عندك شىء؟ قلت: لا. قال: وأين درعك الحُطَمية التى أعطيتك يوم كذا وكذا؟ قال: هى عندى، قال: فأعطها إياها، قال: فأعطاها إياها[1]، فكانت تلك الدرع مهر فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

لقد تجلى فى هذا الموقف المثل الأعلى من النبى ﷺ فى تزويج فاطمة من على حيث البساطة فى تكاليف الحياة الزوجية وتيسير مؤونتها، وضرب لنا علىّ رضى الله عنه المثل للشاب المؤمن حين يقدم على الزواج - وإن لم يكن صاحب مال - معتمدًا على عون ربه له، وحقٌ على الله عز وجل أنْ يعين مَنْ يريد العفاف، وأما فاطمة فقد كانت مثلاً طيبًا للمسلمة التى تحسن اختيار زوجها ولا تنظر فيه إلا إلى إيمانه وأخلاقه لا إلى ماله وحسبه، وهكذا ينبغى أن تحرص المسلمة على صاحب الخلق والدين.

(١) ابن سعد ٨/ ٢٠.

وعلى هذا النحو من البساطة والسهولة، تمت خطبة على رضى الله عنه بفاطمة، وما أجمل أن تبدأ الحياة الزوجية فى هذا الجو الصادق من غير مغالاة أو إسراف، لقد أعلن النبى ﷺ لأصحابه أن خير الصداق أيسره، وأن أعظم النساء بركة أيسرهن مؤونة(١).

وإذا كان أقل النساء مهوراً أكثرهن بركة، فقد كان زواج فاطمة رضى الله عنها مصداق هذه القاعدة الذهبية، ومن بركتها ما تحلت به من حكمة جعلت من الدار جنة ذات قرار ومعين.

عُرْسٌ مثالى:

عقد علىّ رضى الله عنه على فاطمة، وكان ذلك فى رجب بعد مقدم النبى ﷺ المدينة بخمسة أشهر، وبنى بها(٢) عقب مرجعه من بدر، وكانت يوم بنى بها بنت ثمانى عشرة سنة(٣).

وكان زواج على بفاطمة بأمر من الله عز وجل، حيث يقول النبى ﷺ: «إن الله أمرنى أن أزوج فاطمة من على»(٤).

وعن تجهيز فاطمة رضى الله عنها تحكى لنا عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما فتقولان: أمرنا رسول الله ﷺ أن نجهز فاطمة حتى نُدخلها عَلىَ عَلِىٍّ، فعمدنا إلى البيت، ففرشناه ترابًا لينًا من أعراض البَطحَاء(٥)، ثم حشونا مرفقتين(٦) ليفًا، فنفشناه بأيدينا، ثم أطعمنا تمرًا وزبيبًا، وسقينا ماءً عذبًا، وعمدنا إلى عود فعرضناه فى جانب البيت ليُلْقى عليه الثوب ويُعَلَّقَ عليه السِّقاء(٧)، فما رأينا عرسًا أحسن من عُرْسِ فاطمة(٨).

(١) النسائى فى الكبرى فى عشرة النساء ٥/ ٤٠٢ (٩٢٧٤).
(٢) أى دخل بها، والبناء: الدخول بالزوجة، وأصله أنهم كانوا من أراد ذلك بنيت له قبة فخلا فيها بأهله.. فتح البارى ٦/ ٢٣٠.
(٣) ابن سعد ٨/ ٢٢، وانظر: فتح البارى ٦/ ٢٣٠.
(٤) الطبرانى فى الكبير ١٠/ ١٩٣ (١٠٣٠٥) وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٩/ ٢٠٧ ورجاله ثقات.
(٥) البطحاء: الأرض الخالية من العمران.
(٦) مرفقتين: وسادتين.
(٧) السقاء: الوعاء الذى يوضع فيه الشراب.
(٨) ابن ماجه فى النكاح، باب الوليمة، ص ٣٢١ (١٩١١).

وتم هذا العرس المبارك كـأحسن ما يكون كمـا قال جابر بن عبـد الله: حضرنا عرس عليّ، فـما رأيت عُرسًا كـان أحسن منه، حشونـا البيت طيبًا، وأتينا بتـمر وزبيب فأكلنا، وكان فراشهما ليلة عرسهما إهاب كبش.

وماذا عـن جهاز فـاطمة بـنت رسول الله ﷺ؟ كـان جهـازها متـواضعًا غـاية التواضع: خميلة وقربة ووسادة من أدم حشوها ليف ورحاتين وسقاء وجرتين. .[١].

كان هذا هو جـهاز سيـدة نساء العالمـين وكريمة سيـد المرسلين، لا إسراف ولا مغـالاة، ولا تعقيـد ولا إرهاق، بل يسر وبساطة. . فـأين نحن من هذا التيسـير والتسهـيل؟ إن النبى ﷺ يضرب المثل فى زواج ابنته بالفعل لا بالـقول، وبالتطبيق لا بالتوجيه، فما أنفع التربية حين تقوم على الأسوة الحسنة والخلق العملى.

وليمة العرس:

قال النبى ﷺ لعلى بعـدما زوجه: «يا على إنه لابد للعـروس من وليمـة»، قال سعـد: عندى كبشٌ، وجَمَعَ له من الأنصار أصـوعًا من ذرة[٢]، فأولم علىّ على فاطمة، فما كانت وليمـة فى ذلك الزمان أفضل من وليمته[٣]، وإنما كانت وليمة فاطمة رضى الله عنها أفضل الولائم؛ لاهتمامه رضى الله عنه بأمر فاطمة ومنزلتها عنده، يدل على ذلك قـوله رضى الله عنه فى الصحـيحين: فلمـا أردت أن أبتنى بفاطمـة بنت رسول الله ﷺ واعدت رجلاً صـواغًا من بنى قينقـاع أن يرتحل معى فنأتى بأذخر أردت أن أبيعه الصوَّاغين، وأستعين به فى وليمة عرسى[٤].

---

(١) ابن سعد ٨/ ٢٥.

(٢) جزء من حـديث رواه الطبرانى فى المعـجم الكبيـر ٢/ ٢٠ (١١٥٣)، وقال الهيـثمى فى مـجمع الزوائد ٩/ ٢١١ رواه الطبـرانى والبـزار بنحـوه إلا أنه قـال نفر من الأنصـار لعلى رضـى الله عنه: لو خطبت فاطمة. . وقال فى آخره: «اللهم بارك فيهما وبارك لهما فى شبليهما» ورجالهما رجال الصحيح غير عبد الكريم بن سليط ووثقه ابن حبان.

وأصوعًا: جمع صاع، الذى يكال به ويؤنث، وهو أربع حـفنات بكفى الرجل، وهو أربعة أمداد كل مد رطل وثلث.

(٣) ابن سعد ٨/ ٢٣، عن أسماء بنت عميس.

(٤) البخارى فى البـيوع، باب ما قيل فى الصواغ ٤/ ٣٧٠، ٣٧١ (٢٠٨٩) وفى فـرض الخمس، باب فرض الخمس ٦/ ٢٢٦، ٢٢٧ (٣٠٩١)، وفى المـغازى، باب ٧٠٠٠/ ٣٦٧ (٤٠٠٣)، ومسلم فـى الأشربة، باب تحريم الخمر ١٣/ ١٤٣، ١٤٤ (١٩٧٩).

ولقد أراد النبى ﷺ حصول البركة والمغفرة لهما، وانتفاعهما بدعاء الحاضرين، وإدخال الفرح والسرور إلى نفوس الجميع.

دعاء وبركة:

ولما كانت ليلة البنـاء قال النبى ﷺ لعلىّ: «لا تُحدث شيئا حتى تلقانى»، فدعا رسول الله ﷺ بماء فتوضأ منه، ثم أفرغه علىّ فقال: «اللهم بارك فيهما وبارك لهما فى بنائهما»(١).

وتحكى لنا أسماء بنت عميس رضى الله عنها عن ليلة البناء فتقول: «لما أُهديت فاطمة إلى علىٍّ بن أبى طالب لم نجد فى بيته إلا رُمْلاً مبسوطًا ووسادة حشوها ليف وجرة وكوزًا» فأرسل رسول الله ﷺ: «لا تحدثن حدثًا» أو قال: «لا تقربن أهلك حتى آتيك» فجاء النبى ﷺ فقال: «أثَمَّ أخى» فقالت أم أيمن - وهى أم أسامة بن زيد، وكانت حبشية، وكانت امرأة صالحة-: يا رسول الله هذا أخوك وَزوجتَهُ ابنتك - وكان النبى ﷺ آخى بين أصحابه وآخى بين علىٍّ ونَفْسه - قال: «إن ذلك يكون يا أم أيمن» قالت: فدعا النبى ﷺ بإناء فيه ماء، ثم قال ما شاء الله أن يقول، ثم مسح صدر علىٍّ ووجهه، ثم دعا فاطمة، فقامت إليه فاطمة تَعثَّرُ فى مرطها من الحياء، فنضح عليها من ذلك وقال لها ما شاء الله أن يقول ثم قال لها: «أما إنى لم آلك أن أنكحتك أحب أهلى إلىّ» ثم رأى سوادًا من وراء السِّتْرِ أو من وراء الباب، فقال: «من هذا»؟ قالت: أسماء، قال: «أسماء بنت عميس»، قالت: نعم يا رسول الله، قال: «جئت كرامة لرسول الله ﷺ» قالت: نعم، إن الفتاة ليلة يُبْنَى بها لابد لها من امرأة تكون قريبة منها إن عرضت لها حاجة أفضت ذلك إليها، قالت: فدعا لى بدعاء إنه لأوثق عملى عندى، ثم قال لعلىٍّ: «دونك أهلك» ثم خرج فولى، فما زال يدعو لهما حتى توارى فى حُجره(٢).

---

(١) ابن سعد ٨/٢٣.

(٢) الطبرانى فى المعجم الكبير ٢٤/١٣٧ (٣٦٥) وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٩/٢١٢، ٢١٣ رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح، والمصنف لعبد الرزاق ٥/٤٨٥، ٤٨٦ (٩٧٨١).

رُمْلاً: رمال الحصير، الرمال: ما رمل أى نسج، والمراد: أنه كالسرير قد نسج وجهه بالسعف ولم يكن على السرير وطاء سوى الحصير، ونضح عليها: أى رش، ومرطها: كساء من قطن أو صوف أو كتان، وتتلفع به المرأة.

واستجاب الله عز وجل دعاء نبيه ﷺ، فبارك الله فى نسل على وفاطمة، فكان أن رزقهما الله عز وجل بالحسن والحسين سيدى شباب أهل الجنة . .

في بيت الزوجية:

دخل على رضى الله عنه بفاطمة، ولم يكن ذا حظ من المال والثروة، وإنما كان رجلاً فقيراً، لم يرث عن أبيه شيئًا إذ كان أبوه على عظم مكانته قليل المال كثير العيال، غير أنه رضى الله عنه كان أقوى الناس إيمانًا وأكثرهم علمًا وأفضلهم أخلاقًا وأعلاهم قدرًا.

ولما كانت حياة على رضى الله عنه بهذه الخشونة والفقر كان على فاطمة رضى الله عنها أن تقاسم زوجها خشونة الحياة وشظف العيش، وقد فعلت رضى الله عنها فأحسنت، بل كانت خير عون له على واجبات الدين ومتطلبات الدنيا.

في جوار أبيها:

لم يطق النبى ﷺ صبرًا على بُعد فاطمة عنه، حيث كانت بعيدة الدار عنه، فأراد ﷺ أن يحولها إلى جواره، روى ابن سعد عن أبى جعفر قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل على أبى أيوب سنة أو نحوها، فلما تزوج على فاطمة قال لعلى: «اطلب منزلا» فطلب على منزلاً فأصابه مستأخرًا عن النبى ﷺ قليلاً، فبنى بها فيه، فجاء النبى ﷺ إليها فقال: «إنى أريد أن أحولك إلىّ»، فقالت لرسول الله ﷺ: فكلم حارثة بن النعمان أن يتحوّل عنى، فقال رسول الله ﷺ: «قد تحول حارثة عنا حتى قد استحييت منه»، فبلغ ذلك حارثة فتحول وجاء إلى النبى ﷺ، فقال: يا رسول الله إنى بلغنى أنك تحول فاطمة إليك، وهذه منازلى، وهى أسقب - أى أقرب - بيوت بنى النجار بك، وإنما أنا ومالى لله ولرسوله، والله يا رسول الله المال الذى تأخذ منى أحبّ إلىّ من الذى تدع. فقال رسول الله ﷺ «صدقت، بارك الله عليك» فحولها رسول الله ﷺ إلى بيت حارثة[1].

(١) ابن سعد ٣/ ٢٢.

ولقد ظل النبى ﷺ يتعاهدها حتى بعد انتقالها إلى بيت الزوجية، ويكثر من الذهاب إليها، فكان ﷺ إذا سافر كان آخر عهده بإنسان من أهله فاطمة، وإذا قدم من سفره كان أول من يدخل عليه فاطمة(١).

عمل البيت:

عن أبى البخترى قال: قال علىّ لأمه: اكفى فاطمة الخدمة خارجًا، وتكفيك هى العمل فى البيت والعجن والخبز والطحن(٢).

إن عمل البيت فى ذلك الوقت لم يكن بالسهل اليسير، ولم يكن فى البيت خادم ولا مساعد إلا المرأة الفاضلة فاطمة بنت أسد أم على رضى الله عنه، فأراد أن يجمع بين بر أمه وراحتها، وبين صيانة زوجه وتكريمها، فقسم العمل بينهما تقسيمًا وديًا رضى به كل منهما.. ولم يُعرف عن فاطمة الزوجة وفاطمة الأم، إلا التعاون والحب والوئام، على غير ما تجرى به العادة بين الزوجات والأحماء(٣).

إن فاطمة رضى الله عنها فى هذا الموقف تمثل المرأة المسلمة الصادقة التى تطيع زوجها وتبره وتحرص على إرضائه ولو كان فقيرًا معسرًا، لا تتذمر من ضيق ذات يده، ولا تضيق ذرعًا بأعمال البيت.

وكان زوجها بالمقابل يسعى جاهدًا لكسب لقمة العيش وليس فى ذلك ما يضيره، حتى إنه آجر نفسه مرة لامرأة من عوالى المدينة، ومرة أخرى لرجل يهودى ينزع لهما بالدلو، كل دلو بتمرة، وفوق ذلك كان فى الجهاد والدعوة إلى الله عز وجل.

هذه كانت حياة على وفاطمة، قامت على التعاون والمحبة، فلما أفاء الله على رسوله ﷺ وجاءته بعض الغنائم والسبايا، فقال على رضى الله عنه لفاطمة: والله لقد سنوت(٤) حتى قد اشتكيت صدرى، وقد جاء الله أباك بسبى فاذهبى فاسأليه

---

(١) أحمد ٥/ ٢٧٥، وأبو داود فى الترجل، باب ما جاء فى الانتفاع بالعاج ص ٧٠٠ (٤٢٠٩)، والبيهقى فى السنن فى الطهارة، باب المنع من الأدهان فى عظام الفيلة وغيرها مما لا يؤكل لحمه ٢٦/١، جميعًا عن ثوبان مولى النبى ﷺ.

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير ٢٤/ ٣٥٣ (٨٧٣) وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٩/ ٢٥٩ ورجاله رجال الصحيح، وابن إسحاق فى السير والمغازى ٢/ ١٢٥ وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات.

(٣) نساء مؤمنات، د. يوسف القرضاوى، ص ٣٢ بتصرف واختصار.

(٤) استقيت وحملت الماء، وقد كان رضى الله عنه يساعدها فى أعمال البيت ما مكنته ظروفه من ذلك.

خادمًا، فقالت: وأنا والله قد طحنت حتى مجلت(١) يداى، فأتت النبى ﷺ فقال: «ما جاء بك يا بنية»؟ قالت: جئت لأسلم عليك، واستحيت أن تسأله ورجعت، فقال: ما فعلت؟ قالت: استحييت أن أسأله، فأتياه جميعًا، فقال على: والله يا رسول الله لقد سنوتُ حتى اشتكيت صدرى، وقالت فاطمة: قد طحنت حتى مجلت يداى، وقد أتى الله بسبى وسعة فأخدمنا، قال: «والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم..» فرجعا فأتاهما النبى ﷺ وقد دخلا فى قطيفتهما، إذا غطيا رؤوسهما بدت أقدامهما، وإذا غطيا أقدامهما تكشفت، رؤوسهما، فثارا فقال: «مكانكما، ألا أخبركما بخير مما سألتمانى»؟ فقالا: بلى، فقال: «كلمات علمنيهن جبريل تسبحان فى دبر كل صلاة عشرًا وتحمدان عشرًا وتكبران عشرًا، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثًا وثلاثين واحمدا ثلاثًا وثلاثين وكبرا أربعًا وثلاثين»(٢).

فائدة نفيسة:

لقد ألقى النبى ﷺ فى أسماعهما وفى أغوار نفسيهما هذا الزاد الإيمانى والمدد الربانى الذى ينسيهما المتاعب المادية والجسمية، قال ابن حجر: قال القرطبى: إنما أحالهما على الذكر؛ ليكون عوضًا عن الدعاء عند الحاجة، أو لكونه أحب لابنته ﷺ ما أحب لنفسه من إيثار الفقر وتحمل شدته بالصبر عليه تعظيمًا لأجرها، وقال المهلب: علّم ﷺ ابنته من الذكر ما هو أكثر نفعًا لها فى الآخرة. . . وفى الحديث منقبة ظاهرة لعلى وفاطمة عليهما السلام، وفيه بيان إظهار غاية التعطف والشفقة على البنت والصهر، وتعليمهما ما هو الأولى بحالهما من الذكر عوضًا عما طلباه

---

(١) أى: ثخن جلدها، وظهر فيه ما يشبه البثر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة.

(٢) ابن سعد ٨/ ٢٥، ورواه مختصرًا البخارى فى فرض الخمس، باب الدليل على أن الخمس لنوائب رسول الله ﷺ والمساكين وإيثار النبى ﷺ أهل الصفة والأرامل حين سألته فاطمة واشتكت إليه الطحن والرحى أن يخدمها من السبى فوكلها إلى الله ٦/ ٢٤٨، ٢٤٩ (٣١١٣)، وفى فضائل الصحابة، باب مناقب على ٧/ ٨٨ (٣٧٠٥)، وفى النفقات، باب عمل المرأة فى بيت زوجها ٩/ ٤١٦ (٥٣٦١) وباب خادم المرأة (٥٣٦٢)، وفى الدعوات، باب التكبير والتسبيح عند المنام ١١/ ١٢٣ (٦٣١٨)، ومسلم فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التسبيح أول النهار وعند النوم ١٧/ ٤٥ (٢٧٢٧) كلاهما عن على رضى الله عنه، وعندهما: «ألا أدلكما على ما هو خير لكما من خادم؟ إذا أويتما إلى فراشكما فكبرا أربعًا وثلاثين، وسبحا ثلاثًا وثلاثين، واحمدا ثلاثًا وثلاثين، فهذا خير لكما من خادم».

من الخادم، وفيه أن من واظب على هذا الذكر عند النوم لم يصبه إعياء؛ لأن فاطمة شكت التعب من العمل، فأحالها ﷺ على ذلك، كذا أفاده ابن تيمية، وفيه نظر ولا يُتعين رفع التعب بل يحتمل أن يكون من واظب عليه لا يتضرر بكثرة العمل ولا يشق عليه ولو حصل له التعب والله أعلم(١).

وقال ابن حجر أيضًا: ويستفاد من قوله ﷺ: «**ألا أدلكما على خير مما سألتماه**» أن الذى يلازم ذكر الله يعطى قوة أعظم من القوة التى يعملها له الخادم، أو تسهل الأمور عليه بحيث يكون تعاطيه أموره أسهل من تعاطى الخادم لها... والذى يظهر أن المراد أن نفع التسبيح مختص بالدار الآخرة، ونفع الخادم مختص بالدار الدنيا، والآخرة خير وأبقى(٢).

إن النبى ﷺ مع محبته الظاهرة لفاطمة رضى الله عنها ما كان ليرضى لبنته أن تعيش إلا كما يعيش أكثر الناس فقرًا، وذلك ما يريده ﷺ لنفسه ولأهله، حتى لا تشغلهم الدنيا عن الآخرة، وحتى تتمحص أنفسهم لله واليوم الآخر، يقول ابن حجر: ويستفاد من الحديث: حمل الإنسان أهله على ما يحمل عليه نفسه من التقلل والزهد فى الدنيا وإيثار الآخرة عليها، والقنوع بما أعد الله لأوليائه الصابرين فى الآخرة(٣).

لقد طفق علىّ رضى الله عنه- وأحسب فاطمة رضى الله عنها كذلك - يردد كلمات النبى ﷺ، ويقول: فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن رسول الله ﷺ، فقال رجل من أصحابه: ولا ليلة صفين(٤)؟ فقال: ولا ليلة صفين(٥). لقد دل هذا على التمسك الشديد والاتباع الدقيق لهدى النبى ﷺ، ولا أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ فى أوامره وأفعاله وأخلاقه والتأدب بأدبه.

(١، ٢، ٣) فتح البارى ٦/ ٢٥٠، ٩/٤١٦، ١١/١٢٨، ١٢٩، وقال ابن حجر: وقد وقع فى تهذيب الطبرى من طريق أبى أمامة عن على فى قصة فاطمة من الزيادة، فقال: «اصبرى يا فاطمة، إن خير النساء التى نفعت أهلها».

(٤) والمراد بليلة صفين الحرب التى كانت بين على ومعاوية بصفين، وهى بلد معروف بين العراق والشام، وأقام الفريقان بها عدة أشهر، وكانت بينهم وقعات كثيرة... فتح البارى ١١/١٢٧.

(٥) ابن سعد ٨/ ٢٥، وانظر: البخارى فى النفقات، باب خادم المرأة ٩/٤١٦، ٤١٧ (٥٣٦٢).

ولئن كان لموقف فاطمة رضى الله عنها هذا الفضل الكبير، وهذا الأجر والقبول من الله، ففى هذا دليل على أن المرأة وهى تخفف من أعباء زوجها وتعينه وترعاه - لا سيما إذا كان زوجها داعية إلى الله عز وجل يؤدى وظيفة الرسل- إنما تنال من الأجر بقدر ما تعين زوجها وتخفف عنه، وتصبر على حياتها معه وهو يقوم بهذه الأعباء، وإذا استشعرت الزوجة المسلمة هذا المعنى - معنى مساعدة الزوج - فإنها ستجد فى حياتها معه لذة وسعادة، تستشعر فيهما روح الطاعة والعبادة، الذى تدرك به أعلى الدرجات والفوز بالجنات.

بين على وفاطمة:

وقد كان يحدث أحيانًا بين فاطمة وعلى رضى الله عنهما ما يحدث بين كل زوجين من مغاضبة أو ملاحاة، فيبلغ الأمر إلى النبى ﷺ فيهتم له، ويحاول جهده أن ينصحهما بمزيد من الاحتمال. .

روى مسلم أن النبى ﷺ جاء بيت فاطمة، فلم يجد عليًا فى البيت، فقال: «أين ابن عمك»؟ فقالت: «كان بينى وبينه شىء، فغاضبنى فخرج فلم يَقِلْ عندى، فقال رسول الله ﷺ لإنسان: «انظر أين هو» فجاء فقال: يا رسول الله هو فى المسجد راقد، فجاءه رسول الله ﷺ وهو مضطجع قد سقط رداؤه عن شقِّه، فأصابه تراب، فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه، ويقول: «قم أبا التراب، قم أبا التراب»(١).

وعاد علىّ رضى الله عنه إلى بيته وزوجه، وقد عاد معه الود والصفاء، وبهذه اللمسة الحانية من النبى ﷺ - وهى تنفض عنه غبار التراب، كما تنفض عنه غبار الوحشة والجفاء - نسى رضى الله عنه كل شىء، وهكذا تكون الحكمة فى إصلاح ذات البين.

ويومًا دخل رسول الله ﷺ على علىٍّ وفاطمة وكان بينهما كلام. . ولم يزل ﷺ حتى أصلح بينهما، ثم خرج فقيل له: دخلت وأنت على حال، وخرجت

(١) مسلم فى الفضائل، باب فضائل على بن أبى طالب رضى الله عنه ١٥/ ١٨١، ١٨٢ (٢٤٠٩).

ونحن نرى البشر فى وجهك، فقال: «وما يمنعنى وقد أصلحت بين أحب اثنين إلىّ»(١).

إن الحياة الزوجية لا تسير على حال واحدة، فقد تتعرض لهزات وهنات، وأوقات يغضب فيها كل من الزوج والزوجة، والقلوب الزكية هى التى تحسن التعامل مع كل موقف بما يناسبه، ولا تعطيه أكثر من حجمه.. تتعامل معه بالمحبة والإحسان والمعروف، يملكان زمام نفسيهما، ما تندّ منهما عبارة تسىء إلى الآخر أو تجرح مشاعره، لذلك سرعان ما يذوب الخلاف ويتلاشى وتنطفىء نار الغضب، ويعود الاستقرار والهدوء إلى البيت.

والبيت المسلم لا يعطى لوسوسات الشيطان ونزغات النفس بالاً، ذلك أن عقدة الزواج أجل وأكبر من أن تنفصم عراها لخلاف عارض أو سوء تفاهم ناشز، إن البيت الراشد خير من يفهم هذه المعانى الطيبة، وخير من يعمل على ترجمتها إلى واقع مؤنس مبهج سعيد.

غضب النبى ﷺ لفاطمة:

كانت فاطمة رضى الله عنها أحب بنات النبى ﷺ إليه، وكان ﷺ يؤثرها بمزيد حنانه ووده، وقد تجلت هذه العاطفة الأبوية فى أبهى صورها حين استأذنه بنو هشام بن المغيرة أن يزوجوا على بن أبى طالب ابنة أبى جهل، فأبى عليهم، فصعد على المنبر يقول: «إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم إلا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم، فإنما ابنتى بضعة منى يريبنى ما رابها، ويؤذينى ما آذاها».

وفى رواية: «وإنى أتخوف أن تفتن فى دينها.. وإنى لست أحرم حلالاً ولا أحل حرامًا، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله أبدًا» فترك على الخطبة(٢).

(١) ابن سعد ٨/ ٢٦.

(٢) البخارى فى فضائل الصحابة، باب ذكر أصهار النبى ﷺ ٧/ ١٠٦، ١٠٧ (٣٧٢٩)، ومسلم فى الفضائل، باب من فضائل فاطمة رضى الله عنها ١٦/ ٢-٤ (٢٤٤٩) كلاهما عن المسور بن مخرمة، والبضعة: بفتح الباء، وهى قطعة اللحم.. وقال الإمام النووى: قال العلماء فى هذا الحديث: تحريم =

خير زوجة:

لقد عاشت فاطمة رضى الله عنها حياتها مع على رضى الله عنه مثال الزوجة الصالحة المخلصة الحليمة - مع ما فى على رضى الله عنه من شدة وخشونة - الصابرة الراضية - برغم إعسار زوجها وضيق ذات يده - وقد عرف على رضى الله عنه لها فضلها، وقدر لها جهدها فى الحياة الزوجية، وظل يذكر ذلك طيلة حياته، قال مرة لابن أعبد: يا بن أعبد: ألا أخبرك عنى وعن فاطمة؟ كانت ابنة رسول الله ﷺ وأكرم أهله عليه وكانت زوجتى، فطحنت بالرحا حتى أثر الرحا بيديها، واستقت بالقربة حتى أثرت القربة بنحرها، وقمّت البيت - نظفته - حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت تحت القدر حتى دنست ثيابها، وأصابها من ذلك ضر..[1].

قمة الوفاء:

لقد كان رضى الله عنه يحمل لزوجته فاطمة رضى الله عنها وفاءً يعجز القلم عن وصفه، بما تركته من فراغ كبيرٍ فى قلبه، حتى إنه رضى الله عنه ليقف على قبرها ويقول:

مالى وقفت على القبور مُسَلِّمًا ... قبر الحبيب فلم يرد جوابى
أحبيبُ مالك لا ترد جوابنا ... أنسيتَ بعدى خلة الأحبابِ
قال الحبيبُ وكيف لى بجوابكم ... وأنا رهينُ جنادلٍ وترابِ
أكل التراب محاسنى فنسيتكم ... وحُجبت عن أهلى وعن أترابىِ
فعليكم منى السلام ... تقطعت منى ومنكم خُلة الأحبابِ

= إيذاء النبى ﷺ بكل حال وعلى كل وجه وإن تولد ذلك الإيذاء مما كان أصله مباحًا وهو حى، وهذا بخلاف غيره. قالوا: وقد أعلم ﷺ بإباحة نكاح بنت أبى جهل لعلى بقوله ﷺ: «لست أحرم حلالاً» ولكن نهى عن الجمع بينهما لعلتين منصوصتين: إحداهما: أن ذلك يؤدى إلى أذى فاطمة، فيتأذى حينئذ النبى ﷺ فيهلك مَنْ أذاه، فنهى عن ذلك لكمال شفقته على علىّ وعلى فاطمة، والثانية: خوف الفتنة عليها بسبب الغيرة... مسلم بشرح النووى ١٦/٢، ٣.

(١) نساء مؤمنات، د. يوسف القرضاوى، ص ٣٦، ٣٧.

وعاش أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه والأحداث تعصف بالمسلمين، ولكنه لم ينس زوجته الوفية، وإنما كانت دائمًا فى قلبه، يكثر من ذكرها، وكثرة الذكر تدل على كثرة المحبة، وهذا هو قمة الوفاء بعد الموت، ونتعلم هنا من حب على رضى الله عنه لزوجته فاطمة ووفائه لها، كيف يكون الوفاء وصدق المشاعر والتقدير الحقيقى للزوجة، فقد كان رضى الله عنه دائمًا ما يقول:

حبيبى لا يعادله حبيبُ ... ومالى سواه فى قلبى نصيبُ
حبيبٌ غاب عن شخصى وعينى ... ولكن عن فؤادى لا يغيبُ(١)

***

(١) انظر هذه الأبيات فى الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور، للأديبة زينب بنت على بن حسين، ص٣٦٠، ٣٦١.

الأم

لم يمض من الوقت الكثير على زواج على وفاطمة حتى سعدا رضى الله عنهما بالذرية الصالحة التى هى قرة عين لهما، فقد رزقهما الله عز وجل بالحسن فى السنة الثالثة من الهجرة ففرح به النبى ﷺ، ولما جاء النبى ﷺ حنكه، وقال: «ما سميتم ابنى»؟ قالوا: حربًا، فقال: «هو الحسن»[(١)].

وفى السنة الرابعة ولد الحسين رضى الله عنه، فحنكه النبى ﷺ وسماه، وهكذا اختار النبى ﷺ أسماء أولاده اختيارًا وآثرها إيثارًا، فإن للاسم الحسن موقعًا فى النفوس مع أول سماعه.

وقد عق النبى ﷺ عن الحسن والحسين شاتين شاتين يوم السابع، وأمر أن يماط عنهما الأذى...[(٢)]، وكان ﷺ يأمر ابنته فاطمة بأن تحلق رأسيهما، وتتصدق بزنة شعرهما فضة[(٣)].

ولقد تعهدهما ﷺ بنفسه وغمرهما بعطفه وحنانه، وقد كانت أمهما أحيانًا تنشغل عنهما فى أعمال تعوقها عن القيام بواجبها نحوهما، فكان النبى ﷺ ينشغل هو معهما.

وذات يوم كان النبى ﷺ فى سفر ومعه ابنته فاطمة فى صحبة زوجها علىّ، حتى إذا كان ببعض الطريق نزلت بفاطمة نازلة عجيبة، إذ اشتد العطش بطفليها، فأخذا يبكيان بكاءً شديدًا، وسمع النبى ﷺ بكاءهما ففزع لنجدتهما، وأخذ ينادى بنفسه يطلب الماء من أصحابه، ولكن لا يوجد مع الركب قطرة واحدة من ماء، فقال ﷺ لفاطمة: «ناولينى أحدهما» فناولته إياه من تحت الخدر، يقول أبو هريرة رضى الله عنه: فرأيت بياض ذراعيها حين ناولته، فأخذه فضمه إلى صدره وهو

(١) أحمد ١/ ٩٨، ١١٨، والبزار ٢/ ٤١٦ (١٩٩٨) وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨/ ٥٥ رواه البزار والطبرانى بنحوه بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح، والحاكم فى المستدرك ٣/ ١٦٥ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى.

(٢) أبو يعلى فى مسنده ٨/ ١٧ (٤٥٢١)، والبيهقى فى الضحايا، باب ما جاء فى وقت العقيقة وحلق الرأس والتسمية ٩/ ٣٠٣، ٣٠٤، وصححه ابن حبان فى موارد الظمآن، ص ٢٦٠، ٢٦١ (١٠٥٦).

(٣) الترمذى فى الأضاحى، باب العقيقة بشاة، ص ٤٤٢ (١٥١٩) وقال: حسن غريب وإسناده ليس بمتصل.

يضغو[١] ما يسكت، فأدلع[٢] ﷺ لسانه، فجعل يمصه حتى هدأ أو سكن فلم أسمع له بكاءً، والآخر يبكى كما هو لا يسكت، ثم قال: «ناولينى الآخر» فناولته إياه، ففعل به كذلك، فسكتا فلم أسمع لهما صوتًا[٣].

لقد كانت رضى الله عنها تحرص على مصاحبة أولادها فى الأسفار؛ لكى يكتسبوا الصلابة والتحمل وبركة الصحبة فى أسفار العبادة والجهاد.

ولقد كان النبى ﷺ يحبهما حبًا شديدًا، ويفيض عليهما من عطفه وحنانه، وكان ﷺ يدللهما ويداعبهما، وربما ركب الواحد منهما على كتفه وهو يصلى، فيتأنى فى صلاته، ويُطيل سجوده لكى لا يزحزحه عن مركبه[٤]، وكان يقول لهما: «نعم المطية مطيتكما»[٥].

وعن البراء قال: رأيت النبى ﷺ والحسن على عاتقه يقول: «اللهم إنى أحبه فأحبه»[٦]، وفى رواية: أنه ﷺ أبصر حسنًا وحسينًا فقال: «اللهم إنى أحبُّهما فأحِبَّهُمَا»[٧].

ثم رزق الله عز وجل الأبوين الكريمين محسن وزينب وأم كلثوم، يقول الحافظ ابن كثير: تزوج على فاطمة رضى الله عنها فى صفر سنة اثنتين، فولدت له الحسن والحسين، ويقال: محسن، وولدت له أم كلثوم وزينب، وقد تزوج عمر بن الخطاب فى أيام ولايته بأم كلثوم بنت على بن أبى طالب وأكرمها إكرامًا زائدًا، أصدقها أربعين ألف درهم لأجل نسبها إلى رسول الله ﷺ فولدت له زيد بن عمر، وقد كان عبد الله بن جعفر تزوج بأختها زينب بنت على وماتت عنده[٨].

(١، ٢) يضغو: يصيح، وأدلع لسانه: أخرجه، القاموس المحيط للفيروزآبادى، ص ٩٢٥، ١٦٨٣.

(٣) الطبرانى فى الكبير ٣/ ٥٠، ٥١ (٢٦٥٦)، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٩/ ١٨٣، ١٨٤: ورجاله ثقات.

(٤) النسائى فى التطبيق، باب هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة، ص ١٩٧ (١١٤٠)، والحاكم ٣/ ١٦٦، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبى.

(٥) الطبرانى فى الأوسط ٤/ ٢٠٥، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٩/ ١٨٥: وإسناده حسن.

(٦) البخارى فى فضائل الصحابة، باب مناقب الحسن والحسين رضى الله عنهما ٧/ ١١٩ (٣٧٤٩)، ومسلم فى فضائل الصحابة رضى الله تعالى عنهم ١٥/ ١٩٣ (٢٤٢٢) وأحمد ٤/ ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٩٢، والطبرانى فى الكبير ٣/ ٣١ (٢٥٨٢) والأوسط ٩١١٢ (١٣٤٩).

(٧) البخارى فضائل الصحابة، باب مناقب الحسن والحسين رضى الله عنهما ٧/ ١١٩ (٣٧٤٧)، وأحمد ٤/ ١٧٢، والطبرانى فى الكبير ٣/ ٣٢ (٢٥٨٧)، والترمذى فى المناقب، باب مناقب الحسن والحسين رضى الله عنهما، ص ٩٩١ (٣٧٩١).

(٨) البداية والنهاية ٥/ ٢٦٨، وانظر: سير أعلام النبلاء ٢/ ١٢٥.

فضلها

قال الذهبى عن فاطمة رضى الله عنها: سيدة نساء العالمين فى زمانها، البضعة النبوية، والجهة المصطفوية، أم أبيها - كانت كنية لفاطمة رضى الله عنها - بنت سيد الخلق رسول الله ﷺ أبى القاسم محمد بن عبد الله... القرشية الهاشمية، وأم الحسنين.

وقد كان النبى ﷺ يحبها ويكرمها ويُسرُّ إليها، ومناقبها غزيرة، وكانت صابرة دينة، خيرة صينة قانعة شاكرة لله...(1).

مكانها من رسول الله ﷺ:

لقد كانت رضى الله عنها أصغر بناته ﷺ، وأعزهن عليه، وأحبهن إليه، وكانت رضى الله عنها أشبه الناس برسول الله ﷺ فى خَلْق وخُلُق، وكانت آخر من بقى بعده من أولاده، فلا عجب أن يغمرها النبى ﷺ بحبه، ويؤثرها بمزيد حنانه وقربه.

تقول عائشة رضى الله عنها: ما رأيت أحدًا أشبه سَمْتًا وَدَلاً(2) وهديًا برسول الله ﷺ فى قيامها وقعودها من فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وكانت إذا دخلت على النبى ﷺ قام إليها، فقبلها وأجلسها فى مجلسه، وكان النبى ﷺ إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبلته وأجلسته فى مجلسها..(3).

وعنها رضى الله عنها قالت: ما رأيت قط أحدًا أفضل من فاطمة غير أبيها(4)، وعن بريدة رضى الله عنه قال: كان أحب النساء إلى رسول الله ﷺ فاطمة، ومن الرجال على، قال إبراهيم النخعى: يعنى من أهل بيته(5).

(1) سير أعلام النبلاء ٢/١١٨، ١١٩.

(2) سَمْتًا وَدَلاً: السمت: الهيئة، والدل: الحالة التى يكون عليها الإنسان من السكينة والوقار.

(3) الترمذى فى المناقب، باب فضل فاطمة بنت محمد ﷺ، ص ١٠٠٧ (٣٨٨١)، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن عائشة.

(4) ابن حجر فى الإصابة ٤/٣٧٨، وقال: وسنده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الطبرانى فى الأوسط ٣/١٣٧ (٢٧٢١)، وأبو يعلى ٨/١٥٣ (٤٧٠٠).

(5) الترمذى فى المناقب، باب فضل فاطمة بنت محمد ﷺ ١٠٠٦ (٣٨٧٧) وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وسئلت عائشة رضى الله عنها: أى الناس كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ؟ فقالت: فاطمة، قيل من الرجال: فقالت: زوجها، إن كان ما علمتُ صوامًا قوامًا(١).

ولمكانتها ومنزلتها من رسول الله ﷺ، فقد كان يضرب بها المثل فى تقرير أحكام الله وسننه للناس فى الدنيا والآخرة، يقول ﷺ فى شؤون الدنيا: «وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»(٢)، وحاشا لفاطمة بنت رسول الله ﷺ التى تربت فى بيت النبوة أن تسرق أو أن يقع منها ما يوجب عليها الحد، حاشا لها أن تفعل القبيح أو تأتى المنكر، ولكنه مثل يضربه النبى الكريم ﷺ حتى يبقى مثالا خالدًا على كر الدهور ومر العصور فى أن رسالته ﷺ ودعوته إنما هى دعوة العدل والإنصاف لا محاباة فيها لأحد مهما يكن شأنه ومنزلته، إنه المثل الأعلى والنموذج الكامل لعدالة الإسلام التى ينبغى أن تبنى عليها النظم، وتساس عليها الأمم..

ويقول ﷺ فى شؤون الآخرة: «يا فاطمة بنت محمد اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئًا..» وهكذا من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه.

وقد غضب لها النبى ﷺ لما بلغه أن أبا الحسن همَّ بما رآه سائغًا من خطبته بنت أبى جهل، وقال: «إنما فاطمة بضعة منى يؤذينى ما آذاها، وينصبنى ما أنصبها»(٣)، فترك على رضى الله عنه الخطبة رعاية لها، وما تزوج عليها ولا تسرى حتى ماتت.

---

(١) الترمذى فى المناقب، باب فضل فاطمة بنت محمد ﷺ، ص ١٠٠٨ (٣٨٨٣)، وقال: حديث حسن غريب.

(٢) البخارى فى الحدود، باب كراهية الشفاعة فى الحد إذا رُفع إلى السلطان ١٢/ ٨٩ (٦٧٨٨)، ومسلم فى الحدود، باب النهى عن الشفاعة فى الحدود ١١/ ١٨٦، ١٨٧ (١٦٨٨)، وقال ابن حجر: فى هذا الحديث من الفوائد: منع الشفاعة فى الحدود، وفيه ما يدل على أن فاطمة عليها السلام عند أبيها ﷺ فى أعظم المنازل، فإن فى القصة إشارة إلى أنها الغاية فى ذلك عنده، وفيه ترك المحاباة فى إقامة الحد على من وجب عليه ولو كان ولدًا أو قريبًا أو كبيرًا والتشديد فى ذلك، وفيه جواز ضرب المثل بالكبير القدر للمبالغة فى الزجر عن الفعل... فتح البارى ١١/ ٩٨.

(٣) سبق تخريجه ٣٧.

وروى مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت: خرج النبى ﷺ غداة وعليه مرطٌ مُرَحَّل من شعر أسود، فجاء الحسن بن على فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء على فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣][١].

وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال: لما أنزلت هذه الآية ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١].. دعا رسول الله ﷺ عليًا وفاطمة وحسنًا وحسينًا، فقال: «اللهم هؤلاء أهلى»[٢].

سيدة نساء العالمين:

لقد وهب الله عز وجل لفاطمة من الأحوال السنية والكمال ما لم يشاركها أحد من نساء هذه الأمة مطلقًا، وأقوى ما يستدل به على تقديم فاطمة على غيرها من نساء عصرها ومن بعدهن ما ذكر من قوله ﷺ إنها سيدة نساء العالمين إلا مريم[٣]، فعن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال وهو فى مرضه الذى تُوفى فيه: «يا فاطمة ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء العالمين، وسيدة نساء هذه الأمة، وسيدة نساء المؤمنين»[٤].

وعن عبد الله بن عباس قال: خط رسول الله ﷺ فى الأرض أربعة خطوط، فقال: «أتدرون ما هذا»؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة ابنة محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية ابنة مزاحم امرأة فرعون»[٥].

---

(١) مسلم فى فضائل الصحابة، باب فضائل الحسن والحسين رضى الله عنهما ١٥/ ١٩٤، ١٩٥ (٢٤٢٤).

(٢) الترمذى فى تفسير القرآن، باب ومن سورة آل عمران، ص ٧٩٨ (٢٩٩٩) وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

(٣) فتح البارى ٧/ ١٣٢.

(٤) الحاكم فى المستدرك ٣/ ١٥٦، وقال: هذا إسناد صحيح ولم يخرجاه هكذا ووافقه الذهبى.

(٥) أحمد ١/ ٣١٦، والطبرانى فى الكبير ١١/ ٣٣٦ (١١٩٢٨)، وأبو يعلى ٥/ ١١٠ (٢٧٢٢)، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٩/ ٢٢٦: ورجالهم رجال الصحيح، ورواه الحاكم ٣/ ١٦٠ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى.

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حسبك من نساء العالمين: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ، وآسية امرأة فرعون»[(١)].

أصدق الناس لهجة:

ومن فضائلها رضى الله عنها أنها كانت تتصف بصفة هى رأس الفضائل وأسُّ مكارم الأخلاق.. صفة الصدق، فقد كانت رضى الله عنها صديقة تتحرى الصدق، وتلتزم به فى أقوالها وأفعالها، ولا عجب فى ذلك.. فقد كان أبوها النبى ﷺ هو الصادق الأمين.

تقول عائشة رضى الله عنها: ما رأيت أحدًا قط أصدق منْ فاطمة رضى الله تعالى عنها غير أبيها، وكان بينهما شىء[(٢)]، فقالت: يا رسولَ الله سلها، فإنها لا تكذب[(٣)].

وروى أبو عمر عنها قالت: ما رأيت أحدًا كان أصدق لهجة من فاطمة، إلا أن يكون الذى ولدها ﷺ[(٤)].

لقد تحدرت إليها رضى الله عنها أصول العظمة من أبيها ومن أمها فلم يكن غريبًا أن تكون عظيمة، والشىء من معدنه لا يستغرب.

الصابرة:

ومن فضائلها رضى الله عنها أنها رزئت بالنبى ﷺ دون غيرها من بناته، فإنهن متن فى حياته فكن فى صحيفته، ومات هو فى حياتها فكان فى صحيفتها، لما رواه أبو جعفر الطبرى فى تفسير آل عمران من التفسير الكبير عن طريق فاطمة

---

(١) أحمد ٣/ ١٣٥، والترمذى فى المناقب، باب فضل خديجة رضى الله عنها، ص ١٠٠٨ (٣٨٨٧)، وقال: هذا حديث صحيح، ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى ٣/ ١٥٧.

(٢) وكان بينهما شىء: حدث بين عائشة وفاطمة.

(٣) رواه أبو يعلى فى مسنده ٨/ ١٥٣ (٤٧٠٠)، والطبرانى فى الأوسط ٣/ ١٣٧ (٢٧٢١) بلفظ: ما رأيت أفضل من فاطمة غير أبيها، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٩/ ٢٠٤: ورجالهما رجال الصحيح، وذكره ابن حجر فى المطالب العالية ٤/ ٧٠ (٣٩٨٦)، وقال البوصيرى فى الإتحاف: رواه أبو يعلى والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، وأخرجه الحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبى ٣/ ١٦١.

(٤) الاستيعاب بهامش الإصابة ٤/ ٣٧٧، ٣٧٨.

بنت الحسين بن على، أن جدتها فاطمة قالت: دخل رسول الله ﷺ يومًا وأنا عند عائشة فناجانى فبكيت، ثم ناجانى فضحكت، فسألتنى عائشة عن ذلك، فقلت: لقد علمت أأخبرك بسر رسول الله ﷺ؟ فتركتنى فلما توفى سألت فقلت: ناجانى... فذكر الحديث فى معارضة جبريل له بالقرآن مرتين، وأنه قال: «أحسب أنى ميت فى عامى هذا، وإنه لم تُرزأ امرأة من نساء العالمين مثل ما رزئت، فلا تكونى دون امرأة منهن صبرًا» فبكيت، فقال: «أنت سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم» فضحكت، قلت - أى ابن حجر -: وأصل الحديث فى الصحيح دون هذه الزيادة[1] وهو قوله ﷺ: «أما ترضين أن تكونى سيدة نساء أهل الجنة - أو نساء المؤمنين - فضحكت لذلك»[2].

وقال ابن القيم: وكل أولاده ﷺ توفى قبله إلا فاطمة، فإنها تأخرت بعده بستة أشهر، فرفع الله لها بصبرها واحتسابها من الدرجات ما فُضِّلت به على نساء العالمين[3].

المجاهدة:

تقدم معنا أن فاطمة رضى الله عنها شهدت مع أبيها الدعوة فى مهدها، وهو يدعو إلى دينه سرًا، ثم ينذر عشيرته الأقربين، ثم يصدع بأمر ربه، ثم يدخل الشعب فتدخل معه وتذوق معه مرارة الجوع وتشعر بألم المقاطعة والحرمان.. ويتعرض النبى ﷺ لأذى قومه فتزيل عنه الأذى، وتمسح عنه غبار التراب، وتكبر فاطمة مع الدعوة، إلى أن يأتى يوم أحد فتشهد معه ﷺ هذه الغزوة، وفيها شُجَّ وجه النبى الكريم ﷺ، وكسرت رباعيته[4]، وجُرِحَتْ وجْنَتَهُ وشفتُهُ العليا، فكانت فاطمة رضى الله عنها تغسل جراحَه، وعلىٌّ يسكبُ الماء، ولما رأت فاطمة رضى الله عنها أن الماء لا يزيد الدَّمَ إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير فأحرقتها وألصقتها، فاستمسك الدَّمُ[5].

(١) فتح البارى ٧/ ١٣٢.

(٢) البخارى فى المناقب، باب علامات النبوة ٦/ ٧٢٦ (٣٦٢٤).

(٣) زاد المعاد فى هدى خير العباد ١/ ١٠٤.

(٤) الرباعية: السن التى بين الثنية والناب.

(٥) البخارى فى المغازى، باب ما أصاب النبى ﷺ من الجراح يوم أحد ٧/ ٤٣٠، ٤٣١ (٤٠٧٥)، ومسلم فى الجهاد، باب غزوة أحد ١٢/ ١٤٨، ١٤٩ (١٧٩٠).

قال ابن حجر: وأوضح سعيد بن عبد الرحمن عن أبى حازم فيما أخرجه الطبرانى من طريقه سبب مجيء فاطمة إلى أحد، ولفظه: لما كان يوم أحد وانصرف المشركون خرج النساء إلى الصحابة يعينونهم، فكانت فاطمة فيمن خرج، فلما رأت النبى ﷺ اعتنقته وجعلت تغسل جراحاته بالماء. . .(١).

ولم يقتصر جهاد فاطمة رضى الله عنها على غزوة أحد، بل شهدت مع رسول الله ﷺ غزوتى الخندق وخيبر، وفى خيبر قسم لها النبى ﷺ خمسة وثمانين وسقًا من قمح خيبر(٢).

ثم شهدت رضى الله عنها مع النبى ﷺ نصر الله والفتح، فى ذلك اليوم الأغر الميمون الذى كانت بطاح مكة تردد فيه رجع صدى هتاف المجاهدين المؤمنين: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. . ورأت معاقل الوثنية والشرك فى جزيرة العرب تسقط إلى غير رجعة، والأصنام تهوى بيد النبى ﷺ، وهو يقول: «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقًا».

ولاؤها لله عز وجل:

ومن فضائلها رضى الله عنها صدق ولائها لله عز وجل، وقد تجلى ذلك فى موقفها الفذ حين جاء أبو سفيان ليشد عقد هدنة الحديبية ويستزيد فى مدتها، ودخل على علىّ بن أبى طالب وعنده زوجه فاطمة وابنها الحسن غلام يدبُّ على الأرض بين يديها، فاستعطف عليًا وسأله بالرحم أن يشفع له إلى رسول الله ﷺ فأبى عليه. . فالتفت إلى فاطمة رضى الله عنها، وقال لها: يا بنت محمد؟ هل لك أن تأمرى بنيّك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر، فقالت رضى الله عنها: والله ما يبلغ بنى هذا أن يجير بين الناس، وما يجير أحدٌ على رسول الله ﷺ(٣).

لقد دل هذا الموقف الكريم على قوة إيمانها وصدق محبتها وعمق ولائها لله رب العالمين، وهذا شأن المسلمة الراشدة التى تمحض ولاءها لله ولرسوله ﷺ، إذ لا مكان فى نفسها المترعة بالإيمان لعصبية أو ولاء أمام الولاء لله ولرسوله ولدينه.

---

(١) فتح البارى ٧/ ٤٣١.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٥٠.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٨٧، والبداية والنهاية ٤/ ٢٨٠.

الوداع

شهدت فاطـمة رضى الله عنها مرض أبيها ﷺ الأخـير، وكانت تذهب له كل يوم لعيـادته، فيقـوم إليها ويُقـبِّلها كعـادته فى العافيـة، فلما اشتـدت عليه وطأة المرض، خشى عليـها هول المصيبة بموتـه، فزف إليها البشـرى التى تهون من وقع المصاب عليها، قالت عـائشة رضى الله عنها: كُنَّ أزواج النبى ﷺ عنده لم يغادر منهنَّ واحدة، فأقبلت فاطمة تمشى ما تخطئ مشيتها من مشية رسول الله ﷺ شيئًا فلما رآها رحَّب بها فقال: «مرحبًا بابنتى» ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم سارها فبكت بكاءً شديدًا، فلما رأى جَزَعَهَا سـارها الثانية فضحكت، فقلت لها: خصك رسول الله ﷺ مـن بين نسائه بالسرار ثم أنت تبكين، فلمـا قام رسول الله ﷺ سألتهـا: ما قال لك رسول الله ﷺ، قالت: مـا كنت أفشى على رسول الله ﷺ سره، قـالت: فلما تُوفى رسول الله ﷺ، قلت: عـزمتُ عليك بمالى عليك من الحق لما حدَّثتنى ما قال لك رسـول الله ﷺ، فقالت: أما الآن فنعم، أما حين سارنى فى المرة الأولى فأخبرنى أن جبـريل كان يعارضه القرآن فى كل سنة مرة أو مرتـين، وإنه عارضه الآن مـرتين، وإنى لا أرى الأجل إلا قـد اقترب فـاتقى الله واصبـرى فإنه نعم السلف أنا لك، قـالت: فبكيت بكائى الـذى رأيت، فلما رأى جزعى سارنى الثانيـة، فقال يا فاطمة: «**أما ترضين أن تكونى سـيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة**»، قالت: فضحكت ضحكى الذى رأيت(١).

إن حفظ الأسـرار من أجمل الأخـلاق التى تتخلق بها المرأة المـسلمة، ذلك أن هذا الخلق يدل على نضج شخصيتها، ورجاحة عقلها، وقوة إيمانها، وهكذا كانت فاطمة رضى الله عنها حـافظة لسر أبيها النبى ﷺ، فكان خلقًا بارزًا فيهـا وسجية من أجمل سجاياها.

---

(١) البـخـارى فى المناقب، باب عـلامـات النبـوة فى الإسـلام ٦/ ٧٢٦ (٣٦٢٣، ٣٦٢٥)، وفى فـضـائل الصحابة، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ ٧/ ٩٧ (٣٧١٥)، وفى المغازى، باب مرض النبى ﷺ ووفاته ٧/ ٧٤٢ (٤٤٣٣، ٤٤٣٤)، وفى الاستئذان، باب من ناجى بين يدى الناس ولم يُخبـر بسر صاحبه فإذا مات أخبـر به ١١/ ٨٢ (٦٢٨٥، ٦٢٨٦)، ومسلم فى الفـضائل، باب فـضائل فاطمـة رضى الله عنها ١٦/ ٤-٧ (٢٤٥٠).

وإذا كنا نقدر فى فاطمة رضى الله عنها كتمان السر والحفاظ عليه، فإننا نحترم فى عائشة رضى الله عنها عدم الإلحاح ومعاودة السؤال.. وتمر الأيام ويلبى النبى ﷺ نداء ربه وتصعد روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى وتمضى أيام الحزن.. وتلتقى عائشة بفاطمة فتسألها عن هذا السر، فتخبرها به إذ كان متعلقًا بحياته ﷺ (١).

يقول ابن حجر: فيه جواز إفشاء السر إذا زال ما يترتب على إفشائه من المضرة؛ لأن الأصل فى السر الكتمان.

فما أعظم تربية النبى ﷺ التى جعلت فاطمة وأمثالها أمناء على الأسرار بحق!!

واكرب أباه:

عن أنس رضى الله عنه قال: لما ثقل النبى ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة عليها السلام: واكرب أباه(٢)، فقال لها: «**ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم**»(٣)، فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه. فلما دفن قالت فاطمة عليها السلام: يا أنس أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب(٤).

وفى رواية النسائى: أن فاطمة رضى الله عنها بكت على رسول الله ﷺ حين مات، فقالت: يا أبتاه من ربِّه ما أدناه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه(٥).

قال الذهبى: ولما توفى أبوها ﷺ تعلقت آمالها بميراثه، وجاءت تطلب ذلك من أبى بكر الصديق، فحدثها أنه سمع من النبى ﷺ يقول: «**لا نورث، ما تركنا صدقة...**» فوجدت فاطمة على أبى بكر فى ذلك فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت...(٦).

(١) فاطمة بنت محمد ﷺ، أ. عبد الخالق حسن الشريف، ص ١٥، ١٦ بتصرف.

(٢) قال ابن حجر: ويستفاد من الحديث جواز التوجع للميت عند احتضاره بمثل قول فاطمة عليها السلام: واكرب أباه، وأنه ليس من النياحة؛ لأنه ﷺ أقرها على ذلك، فتح البارى ٧/ ٧٥٦.

(٣) المراد بالكرب ما كان يجده ﷺ من شدة الموت، وكان فيما يصيب جسده من الآلام كالبشر ليتضاعف له الأجر.

(٤) البخارى فى المغازى، باب مرض النبى ﷺ ووفاته ٧/ ٧٥٥ (٤٤٦٢).

(٥) النسائى فى الجنائز، باب فى البكاء على الميت، ص ٣٢٢ (١٨٤٣).

(٦) البخارى فى فرض الخمس، الباب الأول ٦/ ٢٢٧ (٣٠٩٢، ٣٠٩٣)، ومسلم فى الجهاد والسير، باب حكم الفىء ١٢/ ٧٦، ٧٧ (١٧٥٩).

ولما مرضت فاطمة رضى الله عنها أتى أبو بكر رضى الله عنه فاستأذن، فقال على: يا فاطمة هذا أبو بكر يستأذن عليك، فقالت: أتحب أن آذن له؟ قال: نعم.

قال الذهبى: عملت بالسنة رضى الله عنها، فلم تأذن فى بيت زوجها إلا بأمره، قال: فأذنت له، فدخل عليها يترضاها، وقال: والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله ورسوله، ومرضاتكم أهل البيت، قال: ثم رضاها حتى رضيت[(١)].

إن فى هذا لدليلاً عظيمًا على صلاح الزوجة العظيمة فاطمة رضى الله عنها؛ وعلى التزامها الصادق بتعاليم هذا الدين وشعائره، إذ لم تأذن لأبى بكر بالدخول عليها إلا بعد أن أذن زوجها، وهكذا ينبغى أن تكون المسلمة فى بيتها..

وفاتها:

مكثت فاطمة رضى الله عنها بعد النبى ﷺ ستة أشهر، وماتت ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان سنة إحدى عشرة، وهى بنت سبع وعشرين سنة أو نحوها، ودفنت ليلاً فى أرض البقيع المباركة[(٢)].

قالت عائشة رضى الله عنها: توفيت فاطمة بعد وفاة رسول الله ﷺ بستة أشهر، ودفنها زوجها على بن أبى طالب ليلاً[(٣)]. قال الإمام النووى: وأما كونها عاشت بعد رسول الله ﷺ ستة أشهر فهو الصحيح المشهور[(٤)].

وكانت رضى الله عنها قد أوصت أسماء بنت عميس بقولها: إذا مت فغسلينى أنت وعلىّ، ولا يدخلن أحدٌ علىّ، فكانت رضى الله عنها أول من غطى نعشها فى الإسلام[(٥)].

وهكذا ماتت فاطمة الزهراء بعد حياة مباركة تركت وراءها ذكرًا حسنًا فى الآخرين، ومثلاً صالحًا للمؤمنات والمؤمنين، جدير بكل مسلمة أن تقتدى بها وتقتفى أثرها...

---

(١) ابن سعد ٨/ ٢٧ وإسناده صحيح لكنه مرسل، وذكره ابن حجر فى فتح البارئ ٦/ ٢٣٣ ونسبه إلى البيهقى وقال: وهو وإن كان مرسلاً فإسناده إلى الشعبى صحيح.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ١٢٨، وانظر: ابن سعد ٨/ ٢٨، والبداية والنهاية ٥/ ٢٦٨.

(٣) الطبرانى فى الكبير ٢٢/ ٣٩٨ (٩٨٩) وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٩/ ٢١١: رواه الطبرانى بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح.

(٤) مسلم بشرح النووى ١٢/ ٧٧.

(٥) سير أعلام النبلاء ٢/ ١٢٨.

زينب بنت رسول الله ﷺ
رضى الله عنها
(٢)

نَسَبُها

زينب الكبرى[١]:

أما أبوها: فسيد ولد آدم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله ﷺ، أكبر بناته ﷺ وأول من تزوج منهن..

وأما أمها: فسيدة نساء العالمين الصديقة الطاهرة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى القرشية.

وحسبها بذلك عزًا وشرفًا وفخرًا..

وأما زوجها: فابن خالتها أبو العاص بن الربيع العبشمى، وأمه هالة بنت خويلد أخت خديجة، وكان يلقب: جرو البطحاء، وقال الزبير بن بكار كان يقال له الأمين، وقال ابن إسحاق: كان من رجال مكة المعدودين مالاً وأمانة وتجارة[٢]، وكان إلى ذلك عريق الأصل، كريم الخصال، نبيل الشخصية، حتى غدا مثلاً للفروسية بكل ما فيها من خصائل المروءة والوفاء، ومآثر الاعتزاز بالآباء والأجداد.

---

(١) ابن سعد ٨/ ٢٠ - ٢٤، ونسب قريش، ص٢٢، والإصابة ٨/ ٩١ (٤٦٤) والاستيعاب ط الأزهرية ١٣/ ٢٤، ٢٥ (٣٣٦٠)، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٤٤ (٧٣٨)، وسير أعلام النبلاء ١/ ٣٣٤، ٢/ ٢٤٦ - ٢٥٠، والتاريخ الصغير ١/ ٧، والمستدرك ٤/ ٤٢ - ٤٦، وأسد الغابة ٥/ ٤٦٧، ٤٦٨، والعبر ١/ ١٠، ومجمع الزوائد ٩/ ٢١٢ - ٢١٦، والمعرفة والتاريخ ٣/ ٢٧٠، وتاريخ الطبرى ١١/ ٤٩٤، ودر السحابة، ص ٢٨٠ - ٢٨٢، والروض الأنف ٢/ ٨١، وشذرات الذهب ١/ ١٢، والعقد الثمين ١/ ٢٧١، ٨/ ٢٢٢، ٢٢٣ (٣٣٥٢)، وجمهرة أنساب العرب، ص ١٥، ١٦، والمعارف، ص ١٢٧، ١٤١، ١٤٢، وتاريخ خليفة، ص٩٢، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٢٧٢ (٣٢٧٤)، والمنتظم ٣/ ٣٤٩ (١١٩)، وجمهرة النسب، ص٣٠، ٥٧، وتاريخ الإسلام للذهبى (السيرة النبوية)، ص ٦٦، وتهذيب الكمال ١/ ١٩١،وفتح البارى ٧/ ٨٥، وسمط النجوم العوالى ١/ ٤١٣ - ٤٢٠، والذرية الطاهرة النبوية، ص ٤٤ - ٥٦، ومروج الذهب ٢/ ٢٩٨، والطبرانى فى الكبير ٢٢/ ٤٢٤ - ٤٣١، والسمط الثمين، ص ٢٧٨ - ٢٨٥.

(٢) الإصابة ٨/ ١١٨، وانظر ترجمته فى: نسب قريش، ص ٢٣٠، ٢٣١، والمعارف ١٤١، ١٤٢، وجمهرة أنساب العرب ١/ ٢٦٩، ٣٠٣، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٢٤٨، والعبر ١/ ١٥، وسير أعلام النبلاء ١/ ٣٣٠ - ٣٣٤، وتاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين) ص ٧٤ - ٧٦، وفتح البارى ٧/ ٨٥، ومشاهير علماء الأمصار، ص ٣١ (١٥٦).

النشأة المباركة:

ولدت زينب رضى الله عنها، قبل البعثة بعشر سنين، وكانت رضى الله عنها بكر أبيها، كما أنها كانت أكثر أخواتها شبها به ﷺ، نشأت رضى الله عنها فى أكرم منبت وأطهر بيت، فرح النبى ﷺ وزوجه خديجة بها فرحًا عظيمًا، وكانت أمها تغمرها بحنانها وحبها، وكان أبوها ﷺ يرى فيها خديجة الزوجة والأم التى أنسته مرارة اليتم وقسوة العدو.

لقد كانت زينب رضى الله عنها ريحانة أبويها، تربت على الطهر والعفاف، والحلم والحياء، والأدب والحكمة وحُسن الخلق.. وكل خصال الخير.. فنشأت أطيب نشأة، وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ [الأعراف: ٥٨]، فأكرم به من منبت، وأعظم بها من نشأة..

إسلام مبكر:

ذكر ابن عباس رضى الله عنهما أولاد رسول الله ﷺ من خديجة رضى الله عنها، فقال: ولدت خديجة لرسول الله ﷺ غلامين وأربع نسوة، القاسم وعبدالله، وفاطمة وأم كلثوم وزينب ورقية، أما إبراهيم فهو من مارية رضى الله عنها، ومات بنوه كلهم فى صغرهم، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن..[1] وكان إسلام زينب وأخواتها مبكرًا، يقول الإمام الزرقانى: والحاصل أنه لا يُحتاج للنص على سبقهن إلى الإسلام؛ لأنه معلوم، وهو يقصد بهذا إلى أن ذلك نتيجة لازمة لزومًا قطعيًا لنشأتهن بين أحضان أصدق وأكرم أبوة، وأفضل وأحنى أمومة، يأخذن عن أبيهن أكرم المكارم، وعن أمهن حصائل العقل الذى لا يوزن به عقل امرأة فى السابقين ولا فى اللاحقين.

فهن عليهن السلام فى قَرَن مع أمهن السيدة خديجة، ينظمهن معها عقْد أسبق السابقين والسابقات إلى الإسلام، والتصديق برسالة أبيهن سيد الخلق ﷺ الذى كان أبًا قبل أن يكون رسولاً، وقد كانت مكارم أخلاقه وعظيم شهرته بها ورفيع صفاته التى تميز بها عن سائر بيئته وقومه بين أيديهن، يرينها رأى البصر والبصيرة، ويسمعن أحاديث الناس عنها، والولد على نهج أبيه وأمه ينشأ[2].

(١) تاريخ الإسلام (السيرة النبوية) ص ٦٥، ٦٦، وتهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٦، والبداية والنهاية ٢/ ٢٧٣.
(٢) محمد رسول الله ﷺ، محمد الصادق عرجون ١/ ٥١٣.

خطبة زينب:

(ومرت الأعوام سراعًا خفافًا على بيت محمد بن عبد الله ﷺ، فَشَبَّتْ زينب كبرى بناته، وتفتحت كما تتفتح زهرة فواحة الشذى، بهية الرُّواء، فطمحت إليها نفوس أبناء السادة من أشراف مكة . .

وكيف لا؟!! وهي من أعرق بنات قريش حسبًا ونسبًا، وأكرمهن أمًا وأبًا، وأزكاهن خُلُقًا وأدبًا.

ولكن أنَّى لهم أن يَظْفَروا بها؟! وقد حال دونهم ودونها ابن خالتها أبو العاص ابن الربيع فتى فتيان مكة.

لم يَمْضِ على اقتران زينب رضى الله عنها بأبي العاص إلا سنوات معدودات حتى أشرقت بطاح مكة بالنور الإلهي الأسنى، وبعث الله نبيه محمدًا ﷺ بدين الهدى والحق، وأمره بأن ينذر عشيرته الأقربين، فكان أول من آمن به من النساء زوجته خديجة وبناته . . غير أن صهره أبا العاص، كره أن يفارق دين آبائه وأجداده، وأبى أن يدخل فيما دخلت فيه زوجته زينب، على الرغم من أنه كان يُصْفيها بصافى الحب ويفيض عليها بخالص الود، ولما اشْتدَّ النزاع بين الرسول ﷺ وبين قريش قال بعضهم لبعض: ويحكم . . إنكم قد حملتم عن محمد همومه بتزويج فتياتكم من بناته، فلو رددتموهن إليه لانشغل بهن عنكم، فقالوا: نِعْمَ الرأى ما رأيتم، ومشوا إلى أبي العاص وقالوا له: فارق صاحبتك يا أبا العاص وردها إلى بيت أبيها، ونحن نزوجك أى امرأة تشاء من كرائم عقيلات قريش . .

فقال: لا والله إني لا أفارق صاحبتى، وما أحبُّ أنَّ لى بها نساءَ الدُّنيا جميعًا . . أما ابنتاه رقية وأم كلثوم فقد طُلِّقتا وحُمِلَتا إلى بيته، فَسُرَّ الرسول ﷺ بِرَدِّهما إليه، وتمنى أن لو فعل أبو العاص كما فعل صاحباه، غير أنه ما كان يملك من القوة ما يُرْغِمُهُ به على ذلك، ولم يكن قد شُرِع بعد تحريم زواج المؤمنة من المشرك)(١).

---

(١) صور من حياة الصحابة، د. عبد الرحمن رأفت الباشا، ص ٣٨٩، ٣٩٠.

محنة الحصار:

تعرضت زينب رضى الله عنها لابتلاءات شديدة، أولها حين قاطعت قريش رسول الله ﷺ ومن معه فى شعب أبى طالب، فكانت هى فى خارج الحصار وقومها وأمها وأبوها يعانون ويتألمون من شدة الجوع حتى بلغ بهم الجهد منتهاه، وسُمع بكاء أطفالهم من وراء الشعب، وأضناهم الحرمان حتى ألجأهم أن يَطعموا ما تعافه النفس.

ولو كانت زينب رضى الله عنها معهم فى الحصار لهان الخطب نوعًا ما، ولكان الألم أخف عليها، ولكنه ابتلاء فى الصميم جعلها تتألم أكثر وأكثر لمعاناة أمها وأبيها..

فصبر جميل:

حتى إذا بلغت الأزمة أشدها ولاقى المسلمون عنتا شديدًا، قضى الله عز وجل قضاءه فى هذا الحصار الظالم فانفك القيد وانكسر الحصار، وخرج النبى ﷺ وخرجت خديجة رضى الله عنها حيث لم تمكث طويلاً حتى ماتت رضى الله عنها، وتبتلى زينب ثانية بفقدها للأم الحنون خديجة رضى الله عنها.

لقد اشتد الابتلاء على زينب وعظم الخطب، ثم هالها تطاول قريش على أبيها، وما كانت قريش لتنال ذلك من قبل.. ثم تتألم رضى الله عنها لأبيها أكثر وأكثر حين يذهب إلى الطائف طلبًا للنصرة، ولكنه ﷺ يرجع وقد أدمى سفهاؤها قدميه الشريفتين بالحجارة..

وتتعرض زينب رضى الله عنها مرة ثالثة لابتلاء أشد ضراوة، حيث هجرة الأب الحنون رسول الله ﷺ وأخواتها الحبيبات إلى المدينة، كيف بها وقد هاجروا وبقيت وحدها.. إنه فراق الأحبة والأهل.. فيا له من مشهد خطير تتقطع له القلوب..

ويأتى على زينب رضى الله عنها ما هو أشد عليها فى المحنة والبلاء حين تدور رحى المعركة فى بدر بين الحق والباطل، فيكون زوجها فى مواجهة أبيها النبى ﷺ.. وتنتهى المعركة بانتصار حاسم للمسلمين، وتصاب زينب هذه المرة فى زوجها، فيأسره المسلمون..

الفداء والهجرة:

ولما بعث أهل مكة في أسراهم، بعثت زينب رضى الله عنها في فداء أبي العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت أهدتها لها أمها خديجة يوم زفتها إليه، فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقة شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذى لها فافعلوا»، فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها الذى لها[1]، وأخذ رسول الله ﷺ عليه وعداً بأن يخلى سبيل زينب إليه؛ لأن الإسلام قد فرق بينهما..

فلما خلى سبيل أبى العاص وخرج إلى مكة، بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار مكانه، فقال: كونا ببطن يأجج - اسم مكان من مكة على ثمانية أميال - حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتياني بها، فخرجا مكانهما وذلك بعد بدر بشهر، فلما قدم أبو العاص مكة أمر زينب باللحوق بأبيها فخرجت تجهز.

مع هند بنت عتبة:

وبينما زينب تجهز بمكة للحوق بأبيها لقيتها هند بنت عتبة، فقالت: أى ابنة محمد ألم يبلغنى أنك تريدين اللحوق بأبيك؟ فقالت زينب: ما أردت ذلك، فقالت هند: أى ابنة عمى لا تفعلى إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك، أو بمال تبلغين به إلى أبيك فإن عندى حاجتك فلا تستحى منى، فإنه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال، قالت زينب رضى الله عنها: والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل، قالت زينب: ولكنى خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك وتجهزت..

(إن هنداً وهى في ألد عدائها لمحمد ﷺ رفضت في مستواها الخلقى أن تؤذى ابنة محمد ﷺ زينب رضى الله عنها، بل زارتها والفاجعة عند هند في ذروتها،

---

(١) أبو داود في الجهاد، باب في فداء الأسير بالمال ٣/ ٦٢ (٢٦٩٢)، وأحمد في مسنده ٦/ ٢٧٦، والحاكم في المستدرك ٤/ ٤٥ وصححه ووافقه الذهبى، وانظر: ابن سعد ٨/ ٣١، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٢٤٦، كلهم عن عائشة.

وقد قتل أبوها وعمها وأخوها وبكرها، زارتها وقدمت لها المعونة، وعرضت عليها المساعدة. . . وقد شهدت زينب رضى الله عنها لها بالصدق، فقالت: لقد علمت أنها ما قالت ذلك إلا لتفعل، إن هندًا فى ذروة الشر، وذروة الحقد، وذروة الألم حيث لم يمض على بدر أكثر من شهر، ولم يدفعها ألمها وحقدها وكرهها أن تنزل هذا الحقد كله ببنت محمد ﷺ بل أكدت لها قائلة: أى ابنة عمى لا تستحى منى، فإنه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال.

فالمرأة كل المرأة مسلمة وغير مسلمة مدعوة أن تتعلم أدب الخصومة من أكبر حاقدات التاريخ هند بنت عتبة)[1].

وعلى الأخت المسلمة الصادقة أن تتوقف طويلاً أمام هذا المشهد، فتتعلم منه كيف تكون صلتها بأختها وكيف تكون علاقتها بها، أعلى المحاسبة ورصد الأخطاء واصطيادها والتشفى والانتقام والانتصار للذات والانسياق وراء الهوى، ومن ثم تقطيع الأواصر وتفكيك الروابط؟ أم على التآخى والتغاضى والتغافر والتسامح وتناسى الأخطاء؟

(إن السيئة إذا قوبلت دومًا بالسيئة أشعلت بين الناس نيران العداوة والبغضاء والشحناء، وأرَّثت الأحقاد والضغائن والكراهية، أما إذا قوبلت السيئة بالحسنة أطفأت نيران العداوة، وأسكتت صوت الغضب، وغسلت أدران الضغينة. . فإذا المتعاديتان تصبحان صديقتين حميمتين، بكلمة طيبة أو بسمة مشرقة من إحداهما، ولعمرى إنه لفوز عظيم، أن تدفع المرأة السيئة بالحسنة، فتقلب العداوة صداقة، والكراهية محبة، ولا تنال هذا الفوز العظيم إلا صاحبة الحظ العظيم الذى أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]، هذا هو خلق المؤمنات الصادقات فى المجتمع الربانى المسلم الذى قام على المحبة والتواد والتسامح. .)[2].

---

(١) هند بنت عتبة، د. منير محمد الغضبان، ص ١١، ١٢.

(٢) شخصية المرأة المسلمة، د. محمد على الهاشمى، ص ٣٧٤، ٣٧٥، بتصرف.

ونتأمل كيف كانت زينب رضى الله عنها كتومة على حاجتها فلم تفصح لهند بنت عتبة عما تريد عمله، وإنما أخذت منها ولم تعطها، قالت: ولكنى خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك وتجهزت، وهذا تصرف سليم على قدر كبير من اليقظة والحذر والفهم.

وفاء الزوجين:

ثم نتوقف ثانية مع زينب رضى الله عنها، فقد كانت رضى الله عنها مثال الزوجة الوفية الودود لزوجها، الحريصة على دوام العشرة معه، ها هى رضى الله عنها تقف إلى جانبه وقت الشدة، بل وترسل فى فدائه ما هو أغلى وأعز من المال.. تلك الهدية التى قدمتها لها أمها الحبيبة الطاهرة خديجة ليلة زفافها بزوجها، والتى تحمل أعز الذكريات وأغلاها.. ومع ذلك تتنازل عنها فداء لزوجها ووفاءً له.

فيا لوفاء زينب العظيم! ونبل موقفها الكريم!

ويقابل زوجها أبو العاص بن الربيع وفاء زوجته بوفاء مثله، فما إن يبلغ مكة وينزل بيته حتى يبادر إلى الوفاء بعهده مع رسول الله ﷺ، فيأمر زوجته بالاستعداد للرحيل، وذلك على كره منه، ولكنه الصدق والوفاء والالتزام.. ومن ثم ينال شهادة فخر واعتزاز فيما بعد من النبى ﷺ.قال عنه: «حدثنى فصدقنى، ووعدنى فوفى لى»[(١)].

قال الحافظ الذهبى: كان وَعَدَ النبىَّ ﷺ أن يبعث إليه زينب بنت النبى ﷺ زوجته - أى من مكة إلى المدينة - فوفى بذلك، وفارقها مع حُبِّه لها[(٢)].

لقد كان أبو العاص يحب زينب حبًا شديدًا، يعبر عنه بقوله:

ذكــرتُ زيـنب لما دركت إرمـــا فقلتُ سُقْيَـا لشخصٍ يسكنُ الحرما
بنت الأمين جـــزاها الله صـالحـة وكلُّ بَعْلٍ سـيثنى بالذى عَلِمَـا[(٣)]

(١) البخارى فى الشروط، باب الشروط فى المهر عند عقدة النكاح ٥/ ٣٢٢، معلقًا، وفى فضائل الصحابة، باب ذكر أصهار النبى ﷺ منهم أبو العاص بن الربيع ٧/ ٨٥ (٣٧٢٩) مرفوعًا عن المِسْوَر بن مخرمة قال: سمعت النبى ﷺ ذكر صهرًا له فأثنى عليه فى مصاهرته فأحسن وذكره..

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٣١، وتاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين) ص ٧٦، وانظر: فتح البارى ٧/ ٨٥.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٣٤، والاستيعاب، ط الأزهرية ١٣/ ٢٦، وابن سعد ٨/ ٣٢، والروض الأنف ٣/ ٦٨.

أما زينب رضى الله عنها فقد كانت سعيدة بقدوم زوجها عليها وهى التى كانت تترقب ساعة وصوله إليهـا، ولكن الفرحة لم تدم طويلاً، لقد انقلبت حزنًا وألمًا؛ لأن الفراق حتما سيقع، وطاعة الله واجبة، وأمره سبحانه فوق كل أمر..

المهاجرة الصابرة:

جاهدت زينب نفسها وهى تتجهز للخروج، واحـتسبت هجرتها وفراقها زوجها طاعة لله ولرسوله، وكأن على لسانها:

الأهـــل والأوطـــان فــــراقـــهم صـــعب
والـــروح والأبـــدان فلـيـــقــبل الــرب
لـــكـــنــه الإيمـــان فــــــداؤه الــقــلـب

فرغت زينب رضى الله عـنها، فقـدم لها حمـوها كنانة بن الربيع أخو زوجـها بعيرًا فركبته، وأخذ قوسه وكنانته، ثم خرج بها نهارًا يقودها وهى فى هودج لها، وتحدث بذلك رجـالٌ من قريش، فخرجـوا فى طلبها حـتى أدركوها بذى طوى، فكان أول من سـبق إليـها هبـار بن الأسـود.. فـروعهـا هبّـار بالرمح وهى فى هودجها، وكانت زينب حاملاً، فلما رجعت طرحت ذا بطنها، وبَرَكَ حموها كنانة ونثر كنانته ثم قال: والله لا يدنو منى رجل إلا وضعتُ فيـه سهمًا، فتكركر الناس عنه[1]، وأتاه أبو سفـيان فى جلة من قريش، فقـال: أيها الرجل، كف عنا نبلك حتى نكلمك، فكفَّ، فـأقبل أبو سفـيان حتى وقف عليه فـقال: إنك لم تُصِبْ، خرجت بالمـرأة على رؤوس الرجال علانيـة من بين أظهرنا وقـد عرفت مـصيـبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد، فـيظن الناس إذا خرجت بابنته إليه علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا أن ذلك عن ذل أصابنا عن مصـيبتنا التى كانت، وأن ذلك ضعف منا ووهن، ولعمرى مـا لنا بحبسها عن أبيهـا من حاجة، وما لنا فى ذلك ثُؤْرَة[2]، ولكن ارجع بالمرأة، حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدث الناس أن قد رددناها، فسُلَّها سرًا وألحقها بأبيها..

---

(١) فتكركر الناس عنه: أى رجعوا وانصرفوا.

(٢) ثُؤْرَة: طلب الثأر.

عادت زينب إلى بيتها مرة أخرى، مضرجة في دمائها، وقد ألقت ما فى بطنها، وشاهدت هند بنت عتبة وقد غضبت من هذه الفعلة المشينة، وقالت لكبار مَنْ حضر هذه الفعلة، أمعركة مع أنثى عزلاء؟ فهلا كانت هذه الشجاعة يوم بدر؟ ثم قالت:

أفى السلم أعيارٌ جفاءً وغلظة وفى الحرب أشباه النساء العوارك[(١)]

لقد عانت زينب رضى الله عنها معاناة شديدة، وتعرضت للإيذاء الشديد، حتى إنها لتصرع وتلقى ما فى بطنها وتهرق دمًا وتخور قواها وتبكى لآلامها.. وصبرت زينب على ما أصابها، واحتسبت كل ما لاقته فى سبيل الله طلبًا لمرضاته ومثوبته عز وجل..

ولما استردت زينب رضى الله عنها بعض قواها وهدأ الصوت عنها، أخذها كنانة بن الربيع على بعيرها، وخرج بها ليلاً، حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه، فقدما بها على رسول الله ﷺ، فكان النبى ﷺ يقول: «هى أفضل بناتى أصيبت فىّ»[(٢)].

وأخرج الطبرانى عن عروة بن الزبير مرسلاً بإسناد رجاله رجال الصحيح أن زينب رضى الله عنها مازالت مريضة من تلك الدفعة التى دفعها هبار بن الأسود حتى ماتت من ذلك الوجع، فكانوا يرون أنها شهيدة[(٣)].

إن الذى تتعلمه المسلمة هنا، أن تصبر على ما يصيبها وينزل بها من نوازل.. وفيما وقع لزينب رضى الله عنها وهى بنت النبى ﷺ عزاءٌ للمسلمين والمسلمات فيما ينالهم من أذى فى أجسامهم أو ابتلاء فى حياتهم، وفيما فعله المشركون مع زينب رضى الله عنها دليل على خلو أعداء الإسلام من كل رحمة وشفقة، فهم لا

(١) خزانة الأدب ٣/٢٦٣، ٢٦٤، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/٦٥٣ - ٦٥٦ والروض الأنف ٣/٦٩.

(٢) الطبرانى فى الكبير ٢٢/٤٣١ - ٤٣٢، والحاكم ٤/٤٣، ٤٤ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبى بقوله: قلت هو خبر منكر، ويحيى ليس بالقوى، وقال الهيثمى فى المجمع ٩/٢١٣: رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط بعضه، ورواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

(٣) الطبرانى فى الكبير ٢٢/٤٣٢ (١٠٥٣)، وقال الهيثمى فى المجمع ٩/٢١٦: وهو مرسل ورجاله رجال الصحيح.

يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة، وهو دليل آخر على تحكم الحقد والغيظ فى قلوبهم على المؤمنين الصادقين الغيورين على دين الله وحرماته.

أبو العاص أسيرًا:

ونستأنف المسيرة مع زينب رضى الله عنها، فقد أقامت عند رسول الله ﷺ، فرق الإسلام بينها وبين زوجها، أما أبو العاص فقد أقام بمكة، حتى إذا كان قبيل الفتح خرج تاجرًا إلى الشام، وكان رجلاً مأمونًا بأموال له وأموال لقريش أبضعوها معه، فلما فرغ من تجارته أقبل قافلاً فلحقته سرية رسول الله ﷺ، فأصابوا ما معه، وأعجزهم هاربًا، فلما قدمت السرية بما أصابوا من ماله، أقبل أبو العاص بن الربيع تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ واستجارها فأجارته، وجاء فى طلب ماله، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى صلاة الصبح فكبّر وكبر الناس معه، خرجت زينب من صُفّة النساء، وقالت: أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فلما سلَّم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس فقال: «أيها الناس أسمعتم»؟ قالوا: نعم، قال: «أما والذى نفسى بيده ما علمت بشىء كان حتى سمعته، إنه ليجير على المسلمين أدناهم» ثم انصرف رسول الله ﷺ حتى دخل على ابنته، فقال: «يا بنية أكرمى مثواه ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له»(١).

وعن عبد الله بن أبى بكر رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ بعث إلى السرية الذين أصابوا مال أبى العاص بن الربيع، فقال لهم: «إن هذا الرجل منا حيث علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاءه عليكم فأنتم أحق به»، فقالوا: يا رسول الله بل نرده عليه، فردوه عليه، حتى إن الرجل ليأتى بالدلو، ويأتى الرجل بالحبل، ويأتى الرجل بالشَّنة والأداوة، حتى إذا ردوا عليه ماله بأسره لا يفقد منه شيئًا، احتمل إلى مكة، فأدى إلى كل ذى مال من قريش ماله ممن كان أبضع معه، ثم قال: يا معشر قريش هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه، قالوا: لا. وجزاك الله خيرًا فقد وجدناك وفيًا كريمًا، قال: فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده رسوله، والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل

(١) البيهقى فى السنن الكبرى ٩/ ٩٥، والحاكم فى المستدرك ٣/ ٢٣٦ - ٢٣٧.

أموالكم، فـأما إذا أداها الله إليكم وفرغت مـنها أسلمت، وخرج حـتى قدم على رسول الله ﷺ[١].

وهكذا أسلم أبو العاص بـن الربيع قبيل فـتح مكة وحَسُنَ إسلامـه، وردَّ عليه النبى ﷺ زوجـتـه زينب بالنكاح الأول[٢]، والتـئم الشمل وعمّ البـيت السعـادة والسرور.

ولك أن تتأمل موقـف زينب رضى الله عنها، فها هى تقف إلى جـانب زوجها مرة أخـرى، فتجيـره وتدافع عنه، ومن قبل تفتـديه بأعز وأغلى ما عندها.. فـيا لوفاء زينـب.. تلك التى تربت فى بيت النبوة! إن هذه هى الأخـلاق، وهذه هى المحبة الخالصـة والمودة الصافية، درسٌ تتعلمه كل أسرة مسلمـة، يمثل مرجعًا لحل مشكلات كثيرة تقع فى بيوتنا وحصوننا المهددة.

لقد ظلت زينب رضى الله عنها وفية لزوجها، مـحافظة على عهدها معه، باقية عليه، حتى إنها لتتدخل فى شؤون الدولة وتجير زوجها، ويقبل النبى ﷺ جوارها ويحترمه، لا لأنهـا ابنته ولكن احترامًا لكل فرد فى المجـتمع المسلم رجلاً كان أو امرأة.

إن صناعـة مثل هـذه المواقف هى التى تولد الحب والود بين الزوجين، وتجـعل البيوت تقر وتستقر، والعلاقة تبقى وتقوى..

ولا يفوتنا إلا أن ننوه بموقف أبى العاص رضى الله عنه الذى يـحمل كل معانى الخير من صدق وأمانة ووفاء.. حتـى قيل بأنه أسلم قبل عودته إلى مكة، وانتشر خبر إسلامه فى المدينة بين الناس، فقـال لهم بعضهم: لماذا لا تأخذ هذه التجارة، **فهى مال المشـركين من أهل مكة؟ فيجيب جواب الأمـين: بئس ما أبدأ به إسلامى أن أخون أمانتى.**

---

(١) الخبـر بطوله فى ابن هشـام ١/٦٠٣، ٦٠٩، والحاكم ٣/٢٣٦ - ٢٣٧ وسـير أعلام النـبلاء ١/٣٣٢، ٣٣٣، ومجمع الزوائد ٩/٢١٥، ٢١٦.

(٢) وقيـل بأن النبى ﷺ ردّ زينب على أبى العاص بـن الربيع بنكاح جديد، العلل ومـعرفـة الرجال لـلإمام أحمد، ص ١١٩ (٥٢٥)، والمسند ٢/٢٠٧، ٢٠٨.

إننا نلمس عند أبى العاص نقاء الفطرة وسلامتها، بكل ما فيها من خير قبل أن يخالطها عبير الدعوة، ثم زادها الإسلام أصالة وعمقًا ونضجًا . . إنها الفطرة النقية والمعدن الأصيل، الذى مثله حديث الرسول ﷺ : «الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا»[١]. إذن فليس غريبًا على أبى العاص رضى الله عنه ما فعل، فكل إناء بالذى فيه ينضح، والزهر لا ينفح إلا الشَّذَا، والأرض الطيبة لا تخرج إلا النبات الطيب، ولله در الشاعر إذ يقول:

وهَلْ يُنْبِتُ الخَطِّىَّ إلا وَشِيجُهُ   وتُغْرَسُ إلاَّ فى مَنَابِتِها النَّخْلُ[٢]

***

(١) البخارى فى المناقب، باب قوله تعالى: ﴿يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خلَقْناكُم مِّن ذكرٍ وأُنثىٰ..﴾ ٦/ ٥٢٥ (٣٤٩٣) (٣٤٩٦)، ومسلم فى الفضائل، باب خيار الناس ١٦/ ٧٨، ٧٩ (٢٥٢٦).

(٢) الشاعر هو زهير بن أبى سُلْمَى.

ذرية مباركة

ولدت زينب لأبى العاص عليًا وأمامة، فتوفى على وهو صغير، وبقيت أُمامة فتزوجها على بن أبى طالب بعد موت فاطمة رضى الله عنها[١].

(وقد وُلدتْ أُمامة رضى الله عنها فى عهد جدِّها رسول الله ﷺ ورضعت الإيمان من أمِّها زينب، وصُنعَتْ على عينها، إذ غذتها بزاد التقوى، وفطمتها على الصلاح، فكانت أمامة كريمةَ النشأة والأصل، ولذا فقد كان عليه الصلاة والسلام يأنس بها ويهش لها، وأحلها من قلبه الشريف مكانًا رحبًا، ومن عطفه حنانًا يروى النفوس ويغذى الأفئدة)[٢].

يشير إلى ذلك مدى اهتمامه ﷺ وحفاوته بها، إذ كان يأخذها معه ويحملها فى صلاته، فعن أبى قتادة، أن رسول الله ﷺ كان يصلى وهو يحمل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ ولأبى العاص بن الربيع بن عبد شمس، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها[٣]، وعن عائشة أن رسول الله ﷺ أهديت له هدية فيها قلادة من جزع، فقال: «لأدفعنها إلى أحب أهلى إلىّ» فقالت النساء: ذهبت بها ابنة أبى قحافة - أى عائشة - فدعا النبى ﷺ أمامة بنت زينب فعلقها فى عنقها[٤].

وهكذا حظيت أمامة رضى الله عنها بهذه المنقبة الكريمة والمزية العظيمة التى ما حظى بها أحد.. فقد كانت رضى الله عنها أثيرة عند النبى ﷺ حبيبة إلى قلبه، يأنس بها ويهش لها.

(١) ابن سعد ٨/ ٣٢، وفتح البارى ٧/ ١٠٧، ودر السحابة، ص٧٢٤، وسير أعلام النبلاء ١/ ٣٣٥.

(٢) نساء من عصر النبوة، أحمد خليل جمعة ٢/ ٣١.

(٣) البخارى فى الصلاة، باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه فى الصلاة ١/ ٥٩٠ (٥١٦)، ومسلم فى المساجد، باب حمل الصبيان فى الصلاة ٣/ ٣١، ٣٢ (٥٤٣)، وفى نسبة زينب رضى الله عنها إلى أمها، أشار ابن العطار إلى أن الحكمة فى ذلك كون والد أمامة، كان إذ ذاك مشركًا فنسبت إلى أمها تنبيهًا على أن الولد ينسب إلى أشرف أبويه دينًا ونسبًا، ثم بين أنها من أبى العاص تبيينًا لحقيقة نسبها، وقال ابن حجر: وفيه تواضعه ﷺ وشفقته على الأطفال، وإكرامه لهم جبرًا لهم ولوالديهم. فتح البارى ١/ ٥٩١، ٥٩٢.

(٤) الفتح الربانى ٢٢/ ٤٢٠ (٤٣٠)، وابن سعد ٨/ ٤٠.

فراقٌ:

بعد أن اجتمع الشمل والتقى الزوجان الحبيبان بعد طول فراق، ومضى عام.. كان الفراق حيث توفيت زينب رضى الله عنها فى مستهل السنة الثامنة من الهجرة متأثرة بمرضها الذى أصيبت به وهى مهاجرة إلى أبيها، وكان الفراق شديدًا على النبى ﷺ وعلى ابنتها أمامة التي تركتها وهى لم تبلغ الحلم بعد، وعلى زوجها الحبيب أبى العاص، فأما النبى ﷺ فقد استودعها الله عز وجل ثم أوصى أم عطية رضى الله عنها ومن معها أن يقمن على غسلها.

قالت أم عطية رضى الله عنها: دخلَ علينا رسول الله ﷺ حين توفيت ابنته زينب فقال: «اغسلنها ثلاثا، أوخمسًا، أو أكثر من ذلك إن رأيتن ذلك بماء وسدر، واجعلن فى الآخرة كافورًا أو شيئًا من كافور، فإذا فرغتن فآذنني»، فلما فرغنا آذنَّاهُ، فأعطانا حِقْوَهُ، فقال: «أشعرْنها إياه» نعني إزاره [(١)].

وقال أنس بن مالك رضى الله عنه: لما ماتت زينب بنت رسول الله ﷺ ظهر من النبى ﷺ حزنٌ ثم سرى عنه، فقلنا: يا رسول الله رأيناك حزينًا ثم سُرى عنك، فقال: «رأيت زينب وضعفها ولقد هُون عليها وعلى ذلك، ولقد ضغطت ضغطة بلغت الخافقين» [(٢)].

وقيل: إن النبى ﷺ نزل فى قبرها وهو مهموم محزون، فلما خرج سُرى عنه، وقال: «كنت ذكرت زينب وضعفها، فسألت الله تعالى أن يخفف عنها ضيق القبر وغمه، ففعل وهوّن عليها» [(٣)].

أما أبو العاص بن الربيع فقد لحق بزينب فى عهد أبى بكر فى ذى الحجة من السنة الثانية عشرة للهجرة، وكان قد أوصى بابنته إلى الزبير ابن خاله العوام بن

---

(١) البخارى فى الجنائز، باب ما يستحب أن يُغسل وترًا ٣/ ١٥٥ (١٢٥٤)، وباب كيف الإشعارُ للميَت؟ ٣/ ١٥٩ (١٢٦١).

(٢) الطبرانى فى الكبير ٢٢/ ٤٣٣ (١٠٥٥) وقال المحقق فى هامشه: أورده ابن الجوزى فى الموضوعات ٣/ ٢٣١، ٢٣٢ وقال: لا يصح من جميع طرقه، وتعقب بأن الحديث أخرجه الحاكم فى المستدرك ٤/ ٤٦ وأبو عوانة فى صحيحه، وتعقب الذهبى ابن الجوزى بقوله: هذا دفع بغير حجة.

(٣) أسد الغابة ٥/ ٤٦٨.

خويلد بن أسد، فزوجها الزبير من على بن أبى طالب بعد وفاة خالتها فاطمة الزهراء، وظلت معه حتى قُتل، فتأثرت رضى الله عنها لمقتله فى مشهد يمزق القلوب، حتى قالت أم الهيثم النخعية تصفَ حزن أمامة:

أشابَ ذؤابتى وأذلَّ ركْبى أمَامةُ حين فارقت القرينا
تطيفُ به لحاجتها إليه فلما استيأست رفعت رهينا

وكان على رضى الله عنه قد قال لأمامة حين حضره الموت: إن كان لك فى الرجال حاجة فقد رضيت لك المغيرة بن نوفل بن عبد المطلب عشيرًا، فلما انقضت عدتها خطبها معاوية رضى الله عنه، فأرسلت إلى المغيرة رضى الله عنه إن كان لك بنا حاجة فأقبل فتقدم المغيرة وخطبها من الحسن بن على فتزوجها منه، وأقامت عنده رضى الله عنها حتى ماتت فى خلافة معاوية، وبموتها رضى الله عنها انقطع عقب زينب بنت النبى ﷺ.

***

صفية بنت عبد المطلب

عمة النبي ﷺ

(٣)

نَسَبُهَا

صفية بنت عبد المطلب(١):

أما أبوها: فهو عبد المطلب بن هاشم جد النبى ﷺ وزعيم قريش وسيدها المطاع.

وأما أمها: فهالة بنت وهب بن عبد مناف سيد بنى زهرة، أخت آمنة بنت وهب وخالة رسول الله ﷺ.

وزوجها الأول: الحارث بن حرب بن أمية أخو أبى سفيان بن حرب زعيم بنى أمية، وكان قد تزوجها فى الجاهلية ثم توفى عنها.

وزوجها الثانى: العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى أخو خديجة أم المؤمنين.

وأولادها: الزبير حوارى رسول الله ﷺ(٢) والسائب(٣) وعبد الكعبة(٤).

(١) طبقات ابن سعد ٨/ ٤١، ٤٢، والإصابة ٤/ ٣٤٨، ٣٤٩، وأسد الغابة ٧/ ١٨٧، ١٨٨ والاستيعاب ٤/ ٣٤٥، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٢٦٩-٢٧١، والمستدرك ٤/ ٥٠، ٥١، ومجمع الزوائد ٩/ ٢٥٨، والطبرانى فى الكبير ٢٤/ ٣١٦-٣٢٢، والبداية والنهاية ٧/ ١٠٧، وأعلام النساء ٢/ ٣٤١-٣٤٥، والسير والمغازى، ص٢٦٤، ٢٦٥، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٢٨٣ (٤٠١)، والمعارف، ص١٢٨، ١٢٩، والثقات ١/ ٣٦، ٣/ ١٩٧، وتاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين) ص٢٢٠، ٢٢١، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٤٩، وكنز العمال ١٣/ ٦٣١-٦٣٣، ونسب قريش، ص٢٣٠، ٢٣٦، وتاريخ الطبرى ١١/ ٦٢٠، ودرر السحابة فى مناقب الصحابة والقرابة، ص٥٣٧، ٥٣٨، والوافى بالوفيات ١٦/ ١٨٩، ونهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب، ص١٣١، وسمط النجوم العوالى ١/ ٣٦٠، ٣٦١، والعقد الثمين ٨/ ٢٥٨ (٣٣٩٦) وجمهرة أنساب العرب، ص١٥، ١١١، وطبقات خليفة، ص٣٣١، والتاريخ الصغير، ص٦٦، وجمهرة النسب، ص١٢٧.

(٢) انظر ترجمته: فى طبقات ابن سعد ٣/ ١٠٠-١٠٣، والبداية والنهاية ٧/ ٢٦٠، ٢٦١، وحلية الأولياء ١/ ٨٩-٩٢.

(٣) صحابى جليل شهد بدراً والخندق وغيرهما واستشهد باليمامة، الإصابة ٢/ ١١، ١٢، ونسب قريش ص٢٣٦.

(٤) المستدرك ٤/ ٥٠.

نشأتها:

نشأت صفية رضى الله عنها فى بيت عبد المطلب بن هاشم جد النبى ﷺ وزعيم قريش وسيدها المطاع، حيث السؤدد والمجد والشرف، فقد كان أبوها صاحب السقاية والرفادة(١)، وقد شرف فى قومه شرفًا لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه وعظم شأنه فيهم..

تأثرت رضى الله عنها بأبيها، فنشأت عزيزة، شجاعة فارسة، تمتطى صهوة الخيل كأبرع الفرسان، وتقاتل بالسيف والرمح كأمهر الشجعان.

لقد تمتعت رضى الله عنها بعراقة المنبت، وأصالة النسب؛ لتضطلع بعبئها الجليل فى أمومتها لأعز الأبناء وأكرمهم.

إسلامها وهجرتها:

قال ابن سعد: وأسلمت صفية رضى الله عنها وبايعت رسول الله ﷺ وهاجرت إلى المدينة(٢).

وقال الذهبى: والصحيح أنه ما أسلم من عمات النبى ﷺ سواها(٣)، هى من المهاجرات الأول، وما أعلم هل أسلمت مع حمزة أخيها، أو مع الزبير ولدها؟(٤).

يقول عبد الرحمن رأفت الباشا: لما بعث الله نبيه ﷺ بالهدى ودين الحق، وأرسله للناس بشيرًا ونذيرًا، وأمره بأن يبدأ بذوى قُرباه، جمع بنى عبد المطلب... نساءهم ورجالهم وكبارهم وصغارهم، وخاطبهم قائلاً: «يا فاطمة

(١) سقاية الحجيج: أى لا يشربون إلا من ماء حياضه، والرفادة: هى إطعام الحجيج أيام الموسم إلى أن يخرجوا راجعين إلى بلادهم.

(٢) ابن سعد ٨/ ٤١.

(٣) عمات النبى ﷺ سوى صفية هن: أروى، وعاتكة، والبيضاء، وبرة، وأميمة بنات عبد المطلب.

(٤) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٧٠، وانظر: تجريد أسماء الصحابة للإمام الذهبى ٢/ ٢٨٣، والثقات ٢/ ١٣٧.

بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بنى عبد المطلب إنى لا أملك لكم من الله شيئًا»(١).

ثم دعاهم إلى الإيمان بالله، وحضهم على التصديق برسالته... أقبل على النور الإلهى منهم من أقبل، وأعرض عنه من أعرض، فكانت صفية بنت عبد المطلب فى الرعيل الأول من المؤمنين المصدقين، عند ذلك جمعت صفية المجد من أطرافه: سؤدد الحسب، وعز الإسلام.

انضمت صفية بنت عبد المطلب إلى موكب النور هى وفتاها الزبير بن العوام، وعانت ما عاناه المسلمون السابقون من بأس قريش وعنتها وطغيانها.

فلما أذن الله لنبيه والمؤمنين معه بالهجرة إلى المدينة خَلَّفت السيدةُ الهاشمية وراءها مكة بكل مالها فيها من طيوب الذكريات، وضروب المفاخر والمآثر، ويممت وجهها شطر المدينة، مهاجرة بدينها إلى الله ورسوله(٢).

إن مفارقة الأوطان وهجران الأهل والصحاب أمر ليس بالهين اليسير على النفس احتماله فى الرجال فكيف بالنساء؟! ولكن هكذا ينبغى أن تكون المسلمة ناصرة لدينها ملتمسة طاعة ربها مسارعة إلى مرضاته.

---

(١) مسلم فى الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ٣/ ٨٠، ٨١ (٢٠٥)، وأحمد ٦/ ١٨٧.

(٢) صور من حياة الصحابيات، ص٢٤، ٢٥.

أم الزبير

لما توفى العوام بن خويلد زوج صفية، ترك لها طفلاً صغيراً هو ابنها الزبير، فرأت فيه عزاءً لها عن زوج فقدته، فنشأته على الخشونة والبأس، وربته على الفروسية والحرب، وجعلت لَعِبَهُ فى برى السهام وإصلاح القسىِّ، فبدت عليه علائم الرجولة والشجاعة مبكرًا، ولكن ذلك لم يمنعها من أن تضربه وتغلظ عليه -وهو صغير- وتأبى عليه اللين أو المهادنة، فإذا رأته أحجم أو تردد ضربته ضربًا شديدًا، فقيل لها: قتلته، خلعت فؤاده، أهلكت هذا الغلام، قالت:

إنما أضربه كَىْ يَلَبْ(١) ويَجُرَّ الجيشَ ذا الجلب(٢)

وقاتل الزبيرُ بمكة -وهو غلام- رجلاً فكسر يَدَهُ وضربه ضربًا شديدًا، فمُرَّ بالرجل على صفية وهو يُحْمَلُ، فقالت: ما شأنه؟ قالوا: قاتل الزبير، فقالت:

كيف رَأَيْتَ زَبْرَا أأقطًا حَسِبْته أم تمرا أم مُشْمَعِلاً صَقْرًا؟(٣)

قال الذهبى: وكانت أم الزبير صفية رضى الله عنها عمة رسول الله ﷺ حازمة فى تأديبه صغيراً، فنشأ على الفتوة والقوة، والصبر والجلد(٣).

(إن أمًا كهذه: صلابة ووعيًا، جديرة بأن تربى ابنها تربية الرجال الأبطال، كانت تريده كذلك، فلم تأخذها العاطفة، ولم يمل بها الحنان إلى الإهمال واللين حتى يكون ابنها كسيرًا ضعيفًا، تميل به الشهوة عن المكارم، وتأخذه نعومة العيش فيضعف عن الحق.

لقد تربى الزبير تربية الرجال الشجعان الأشداء، كانت مدرسة أمه أول مدرسة يتمرس فيها على حياة الرجال، ثم كانت بعد ذلك مدرسة الإسلام، يأخذ منها

---

(١) يلب: يصبح لبيبًا، واللبيب: الذكى العاقل.

(٢) جلَبَ: جلَبًا وجلْبًا: أحدث جلَبَةً، واجتلب الشيء: ساقه من موضع إلى آخر.

(٣) ابن سعد ٣/١٠١، والمُشْمَعِلُّ: الرجل الخفيف الظريف أو الطويل، القاموس المحيط، ص١٣١٩، ١٣٢٠، وانظر: نسب قريش، ص٢٣٠.

ويتربى على يدى رسول الله ﷺ حتى أضحى واحدًا من أعلام الصحابة، من الذروة -العشرة المبشرين بالجنة- فى الإيمان والشجاعة، والبذل والصدق والفضل)(١).

إننا إذا ذكرنا فضل الزبير حوارى رسول الله ﷺ وفارسه، فلنذكر صاحبة الفضل عليه، وهى أمه صفية رضى الله عنها التى قامت على أمره وتعهدته بالتربية وحسن الرعاية، والتى غرست فيه طباعها الغر وسجاياها الحسان، فكان عظيمًا من عظماء الأمة، وبطلاً من أبطالها الأبرار (٢).

وهكذا ينبغى أن تكون كل أم مسلمة تغرس فى أبنائها جميل الصفات ومكارم الأخلاق، وتتعهد بيتها وأولادها. . (إذ هى التى ألقى عليها الإسلام مسؤولية كبرى فى تربية الأجيال وصناعة الأبطال، ومن هنا كثرت الأقوال فى هذا العصر مجسِّدة أثر المرأة فى نجاح الزوج والأولاد فى حياتهم العملية، ومن هذه الأقوال: (فتش عن المرأة) و(وراء كل عظيم امرأة)، (إن التى تهز المهد بيمينها تهز العالم بشمالها). . إلخ، ولا تستطيع المرأة أن تقدم هذا كله، إلا إذا كانت متفتحة العقل، مستنيرة الذهن، قوية الشخصية، زكية النفس، رفيعة الخلق. . .(٣).

---

(١) ذات النطاقين، محمد حسن بريغش، ص٤٤، ٤٥.

(٢) مدحه حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ بقوله:

وإن امرأ كانت صفية أمه ... ومن أسد فى بيته لمُرسلُ
لَهُ منْ رَسول الله قُربى قريبةٌ ... ومن نُصرةِ الإسلام مَجدٌ مُؤثلُ
فكَمْ كُربَةٍ ذَب الزُبَيرُ بسيفهِ ... عن المصطفى والله يُعطى ويُجزلُ
ثناؤك خير من فعال معاشر ... وفعلك يا ابن الهاشمية أفضلُ

انظر: سير أعلام النبلاء ١/ ٥٦، ٥٧، والحاكم فى المستدرك ٣/ ٣٦٣، والبداية والنهاية ٥/ ٢٩٩، ٢٣٠.

(٣) شخصية المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام فى الكتاب والسنة، د. محمد على الهاشمى، ص (١٢٣).

المجاهدة

قال الشاعر:

كُتبَ القتلُ والقتالُ علينا وعلى الغانيات جر الذيول

وقال آخر:

خُلِقنا رجالاً للتجلد والأسى وتلك نساء للبكا والمآتم

بَيْدَ أن صفية كانت غير ذلك، وأبطلت رأى الشاعرين، فلم ترض أن يكون نصيبها جر الذيول عند النصر، ولا البكاء والعويل عند الهزيمة، بل كان همها أن تسهم مع الرجل فى اجتلاب النصر، ودرء عار الهزيمة.

وها نحن نرى صفية رضى الله عنها تتقدم للغزو مع رسول الله ﷺ وصحابته فى عديد من المعارك، وتقوم بأعمال حميدة مشهودة من إعداد القِرَب ومَلْئِها بالماء، ونقلها وسقى المجاهدين، وتضميد الجرحى... فإذا حانت ساعة الشدة شهرت سلاحها وقاتلت قتال الأبطال، وثبتت ثبات الجبال.

فى أحد:

شهدت صفية رضى الله عنها غزوة أُحد، وكانت مع المجاهدين تدافع عن دينها وعقيدتها ضد المشركين، وقامت بمهمتها مع غيرها من النساء، ورأت انتصار المسلمين فى الجولة الأولى حتى غلب الضعف الإنسانى على نفوس طائفة استهوتهم الغنائم وأرادوا الدنيا، وتركوا أماكنهم التى عينها لهم رسول الله ﷺ، فانقلب وجه المعركة، وأصيب المسلمون بشىء غير قليل من الذهول والاضطراب، فقد أُخذوا من حيث لم يحتسبوا، ووقعت ساعة الحرج العَصيبة. فى هذه اللحظات لم ينخلع قلب صفية رضى الله عنها، وإنما قامت وبيدها رمح تضرب به فى وجوه المنهزمين، فقال النبى ﷺ: «يا زبير المرأة»(١).

(١) الإصابة ٤/ ٣٤٩.

لقد أرادت رضى الله عنها أن ترد المنهزمين وتعيدهم إلى صوابهم، فلم تستطع فكادوا يوقعونها ويدوسونها بأرجلهم وبسنابك خيلهم، فرآها النبى ﷺ فأشفق عليها، فقال لابنها الزبير: «يا زبير المرأة» فأبعدها عن تدفق الفارين حتى لا تداس بأقدامهم..

مقتل حمزة:

ولما قُتل حمزة أقبلت رضى الله عنها؛ لتنظر إليه، وكان أخاها لأبيها وأمها، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير: «القها فأَرْجعهْا لا ترى ما بأخيها» فلقيها الزبير وقال: أى أمه، إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعى، قالت: ولم؟ وقد بلغنى أنه قد مُثِّل بأخى وذلك فى الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأصبرن ولأحتسبن إن شاء الله، فلما جاء الزبير إلى رسول الله ﷺ فأخبره قول صفية، قال: «خل سبيلها»، فأتته فنظرت إليه، فصلت عليه واسترجعت واستغفرت له، ثم أمر به رسول الله ﷺ فدفن[1].

وأكْبَرَ النبى ﷺ موقفها الذى يفيض صبرًا وإيمانًا، وخصها بقوله: «لولا أن صفية تَجِد[2] لتركته حتى يحشره الله من بُطون الطير والسباع»[3].

إن حضور صفية رضى الله عنها لدليل على اشتراك النساء فى غزوات النبى ﷺ وإسهامهن بقسط كبير فى الذود عن الإسلام والجهاد فى سبيله، ولم يكن الجهاد بالميدان الواحد الفريد الذى نطق فيه إيمان القوارير وسابقن فيه الرجال، بل كان لهن فى كل ميدان من ميادين الشرف راية وذكر..

وفى اشتراكها رضى الله عنها -مع النساء- دليل أيضًا على جاهزية المجتمع المسلم كله -نسائه ورجاله- فى وقت النفير، وليس غريبًا أن تكون صفية رضى الله عنها فى طليعة من شاركن فى هذه الغزوة؛ لما عُرف عنها من رغبة فى التضحية والجهاد فى سبيل الله.

---

(١) ابن هشام ٣/ ١٧٢، وأسد الغابة ٧/ ١٨٨، والمستدرك ٤/ ٥٠، والبداية والنهاية ٤/ ٤٣.

(٢) تَجِدْ: من الوَجْد، وهو الحزن.

(٣) الحاكم فى المستدرك ٣/ ١٩٦، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى.

صبر واحتساب:

ولقد دل موقفها حين أقبلت على أخيها حمزة، وقد بُقر بطنه، وجُدع أنفه، وصُلِمَتْ أُذنه، ومثل به أشنع تمثيل، على صبرها وإيمانها بالله رب العالمين وتسليمها لأمره، وما زادت على أن قالت: فما أرضانا بما كان من ذلك! لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله.

(إن بعض هذا الصبر لما تضعف العزائم البشرية عن احتماله، وتضيق الذرائع عن الوقوف عند حدوده، ولكن الهدى هدى الله)[1].

لله درك يا صفية! ما أعظم إيمانك! وما أروع صبرك! وما أكبر فضلك! وما أحسن تجملك بالرضا والتسليم على الفقيد الحبيب، تبتغين بصبرك واحتسابك مرضاة الله عز وجل؟

فما أروعه من درس عظيم نتعلمه من صفية الخير التى رباها الإسلام ونشأت على الإيمان، وعلمت بيقينها الوافر وإيمانها الواثق أن ما عند الله خير وأبقى، وهذا هو الصبر الجميل الذى تخلق به هذا الجيل الربانى من المسلمين والمسلمات، فأورثهم ذلك قوة ويقينًا لا حد له.

طاعة وامتثال:

يحكى الزبير رضى الله عنه قوله: لما كان يوم أحد أقبلت امرأة تسعى، حتى كادت أن تشرف على القتلى، فكره النبى ﷺ أن تراهم، فقال: «المرأة، المرأة»، قال الزبير: فتوسمت أنها أمى صفية، فخرجت أسعى إليها، فأدركتها قبل أن تنتهى إلى القتلى، فلدمت[2] فى صدرى، وكانت امرأة جلدة قوية، قالت: إليك عنى لا أرض لك، فقلت: إن رسول الله ﷺ عزم عليك، قال: فوقفت، وأخرجت ثوبين معها، فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخى حمزة، فقد بلغنى مقتله فكفنوه فيهما...[3].

(١) حماة الإسلام، مصطفى نجيب، ص٣٢.

(٢) فلدمت: أى ضربت ودفعت.

(٣) أحمد ١/ ١٦٥، وأبو يعلى ٢/ ٤٥ (٦٨٦) وقال محققه: إسناده حسن، والبزار (كشف الأستار) ٢/ ٣٢٨ (١٧٩٧)، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٦/ ١٢١: وفيه عبد الرحمن بن أبى الزناد وهو ضعيف وقد وثق.

فانظر إلى ما كان من صفية رضى الله عنها حين رضيت وسلمت، وسمعت وأطاعت لأمر النبى ﷺ لها بالرجوع، بينما كانت قبل ذلك تخاطب ولدها الزبير بشدة وتضربه فى صدره، ظنًا منها أنه هو الذى يمنعها من رؤية أخيها حمزة رضى الله عنه، والوقوف عند أوامر النبى ﷺ دليل على قوة الإيمان[١].

بطولة نادرة:

لما خرج النبى ﷺ إلى الخندق جعل نساءه فى أُطم يقال له: فارع[٢]، وكانت صفية رضى الله عنها معهن فيه، قالت: وكان حسان بن ثابت معنا فيه مع النساء والصبيان، قالت صفية: فمر بنا رجل من يهود، فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ وليس بيننا وبينهم أحدٌ يدفع عنا، ورسول الله ﷺ والمسلمون فى نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آت، قالت: فقلت: يا حسان، إن هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود، وقد شُغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه، فانزلْ إليه فاقتله، قال: يغفر الله لك يابنة عبد المطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قالت: فلما قال لى ذلك ولم أر عنده شيئًا، احتجزتُ، ثم أخذت عمودًا، ثم نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتى قتلته، قالت: فلما فرغت منه رجعتْ إلى الحصن، فقلت: ياحسان، انزل إليه فاسلبه، فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل، قال: ما لى بسلبه من حاجة يابنة عبد المطلب[٣].

(١) التاريخ الإسلامى، مواقف وعبر ٥/ ١٤٣، ١٤٤، بتصرف واختصار.

(٢) فارع: هو أحد الحصون المشهورة فى يثرب، أبتناه ثابت بن المنذر بن حرام، والد الشاعر حسان بن ثابت، وكان غربى الحرم النبوى ثم أُدخل فيه.

(٣) ابن هشام ٣/ ٢٦٤، والمغازى ١/ ٢٨٨، والحاكم فى المستدرك عن الزبير ٤/ ٥١، وقال: هذا حديث كبير غريب، وقد روى بإسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبى، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير ٢٤/ ٣٢١ (٨٠٩)، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٦/ ١١٨: رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط من طريق أم عروة بنت جعفر بن الزبير عن أبيها ولم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات.
ومع تصحيح الحاكم للحديث وإقرار الذهبى له، وحفاظًا على حرمة الصحابة، أنقل هنا ما قاله السهيلى فى روضه ٤/ ٢٨١ تعليقًا على هذا الحديث، قال: ومحمل هذا الحديث عند الناس على أن حسانًا كان جبانًا شديد الجبن، وقد دفع هذا بعض العلماء وأنكره، وذلك أنه حديث منقطع الإسناد، وقال: لو =

حامية الظهور:

(إن الموقف لا يحتاج إلى كثير تعليق، ففى تلك الساعات الحالكة والمسلمون فى نحور أعدائهم، والمدينة خالية من الرجال، والأعداء يجتمعون على المسلمين، والموقف كما وصفه الله عز وجل: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١] فى تلك الساعات الرهيبة لا تفقد المرأة المسلمة أعصابها، وتظل متماسكة متحفزة، عندها الاستعداد الكافى لحماية ظهور المقاتلين، حتى ولو تقاعس عن هذا الواجب الرجال)[١].

إن المرأة حين تتصدى لرجلٍ وتزجره، فذاك شىء متوقع، أما أن تقتل رجلاً فى وقت شدة وحرج بالغَيْنَ، والناس من حولها فى فزع واضطراب فذاك شىء عظيم.

ولكن ما العجب فى ذلك وهى مَنْ هى فى الشجاعة والثبات والإقدام، ثم إنها أخت حمزة أسد الله وأسد رسوله، وأم الزبير فارس رسول الله ﷺ، ولم يكن ذلك أول من تقتله فى سبيل الله، بل قتلت قبله رجلاً من المشركين فى غزوة أحد، فكانت أول من قتلت رجلاً مشركًا فى الإسلام[٢].

وعن هذه الحادثة، ذكر الشوكانى نقلاً عن ابن عساكر قال: لما كان من أمر صفية وحسان واليهودى ما كان، بلغنا أنهم ذكروا ذلك للنبى ﷺ قالت صفية رضى الله عنها: فضحك رسول الله ﷺ حتى رأيت أقصى نواجذه، وما رأيته ضحك من شىء قط ضحكه منه[٣].

= صح هذا لهجى به حسان، فإنه كان يهاجى الشعراء كضرار وابن الزبعرى وغيرهما، وكانوا يناقضونه ويردون عليه، فما عيره أحدٌ منهم بجبن ولا وسمه به، فدل هذا على ضعف حديث ابن إسحاق، وإن صح فلعل حسان أن يكون معتلاً فى ذلك اليوم بعلة منعته من شهود القتال، وهذا أولى ما تأول، وممن أنكر أن يكون هذا صحيحًا أبو عمر رحمه الله فى كتاب الدرر له.. اهـ.

(١) دور المرأة فى حمل الدعوة، محمد حسين عيسى، ص٧٠.

(٢) الطبرانى فى الكبير ٢٤/ ٣٢١ (٨٠٩) وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ١١٨/٦: رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط عن طريق أم عروة بنت جعفر بن الزبير عن أبيها ولم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات. وأسد الغابة ١٨٨/٧، والبداية والنهاية ١٠٧/٧.

(٣) در السحابة للشوكانى، ص٥٣٨، ورواه المتقى الهندى فى كنز العمال ١٣/ ٦٣٢ (٣٧٦٠١)، عن الضحاك بن عثمان الحزامى.

حياء المسلمة:

(لعل من السهل جدًا أن تتعلم المرأة كيف تقاتل، بل وكيف تقود طائرة حربية أو حتى دبابة، أو تضغط على زر معين في صاروخ لينطلق نحو الهدف، بيد أن من الصعب أن تحافظ مع هذا كله على كونها امرأة مسلمة، متميزة بخلقها وحيائها، واستطاعت صفية رضي الله عنها أن تفعل ذلك، فقد نزلت من الحصن، وقتلت اليهودي، ولكن حياءها كمسلمة منعها من أن تمسه لتأخذ سلبه: (فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل)، فتركته ودعت إليه رجلاً مثله ليأخذ السلب، إنه الحفاظ على الثوابت والمبادئ التي طالما باعها أناس، وتخلوا عنها بدعوى التحرر والتقدم)[1].

متى يُتعين القتال على المرأة؟

(إن الشريعة لا توجب الجهاد على المرأة؛ لفرط أنوثتها، وضعف بنيتها، فليست من أهل القتال، كما ورد: «ما كانت هذه لتقاتل»، وفي هذا المعنى يقول الفقهاء: ولعجزها عن الجهاد لم يلحقها فرضه، ولأنها عورة مستورة، كما نقل في الأثر.

وفي جهاد الرجال غناء عن تكليف المرأة به، سواء أكانت متزوجة أم عزباء، لكن إن هجم العدو على بلاد الإسلام ودخلها بغتة، وهذه الحال بتعبير الفقهاء، هي: حال النفير العام، يخرج للقتال كل مستطيع من الرجال والنساء والولدان الذين لا يطيقون القتال، ولو لم يأذن للنسوة أزواجهن، ولا للأولاد آباؤهم وأمهاتهم؛ إذ يصبح القتال حينئذ فرض عين على الذين فوجئوا بالعدو، فإن عجزوا عن صد غارة العدو، كان فرضًا على مَنْ بقربهم إعانتهم.

وبهذا التقرير الفقهي، يُعلم حكم جهاد اليهود المغتصبين في فلسطين، وأنه فرض عين على الفلسطينيين جميعًا، وعلى مَنْ جاورهم مِن العرب، ثم المسلمين في المشارق والمغارب.

ويلاحظ أن خروج المرأة للقتال مشروط بمحافظتها على عفافها، والتزامها الستر، كما أنه منوط بالحاجة المتحققة إلى جهادها، بحيث لا يسد مسدها

(١) دور المرأة في حمل الدعوة، محمد حسين عيسى، ص٧٠، ٧١.

الرجال، فإن لم تكن الحاجة داعية إلى جهادها، لم يجز خروجها للقتال، تحرزاً من الفتن والإغراء في الجيش المسلم.

أما خروج المرأة مع الجيش؛ لسقي الماء، وتطبيب الجرحى، وإعداد الطعام للغزاة، وما يتصل بذلك مما لابد منه للمجاهدين، فإنه جائز، والأولى -عند الفقهاء- أن تخرج العجائز للطب والمداواة والسقي دون الشواب، ويبدو أن ذلك لأنه أضمن للسلامة، وأنفى للفتنة مع تحقق المقصود)[١].

ولما كانت غزوة بني قريظة شهدتها رضي الله عنها مع النبي ﷺ، فعن عكرمة قال: لما كان يوم بني قريظة، قال رجل من اليهود: مَنْ يبارز؟ فقام إليه الزبير فبارزه، فقالت صفية: وَاجَدِّي! فقال رسول الله ﷺ: «أيهما علا صاحبه قتله» فعلاه الزبير، فقتله، فنفله رسول الله ﷺ سَلَبه[٢].

في غزوة خيبر:

ولما كانت غزوة خيبر خرجت صفية رضي الله عنها وابنها الزبير رضي الله عنه مع النبي ﷺ[٣]، وأبلى الزبير يومذاك بلاءً حسنًا... أورد ابن إسحاق في سيرته، أن الزبير بن العوام خرج إلى ياسر[٤]، فقالت أمه صفية: يُقتل ابني يا رسول الله! قال: «بل ابنك يقتله إن شاء الله»، فخرج الزبير، فالتقيا، فقتله الزبير[٥]، وكَبَّرت أمه والمسلمون فرحًا بذلك، ثم خص النبي ﷺ صفية رضي الله عنها، بنصيب مما غنمه في غزوة خيبر، يقول عبد الله بن الزبير: ضرب رسول الله ﷺ عام خيبر للزبير بن العوام أربعة أسهم: سهمًا للزبير، وسهمًا لذي القربى لصفية بنت عبد المطلب أم الزبير، وسهمين للفرس[٦].

(١) صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، د. محمد فوزي فيض الله، ص٤٢٨، ٤٢٩، وانظر: المستفاد من قصص القرآن، د. عبد الكريم زيدان ٢/ ٢٦١.

(٢) المغازي ٢/ ٥٠٤.

(٣) قال الواقدي: وخرج مع رسول الله ﷺ من المدينة عشرون امرأة، أم سلمة زوجته ﷺ وصفية بنت عبد المطلب... المغازي ٢/ ٦٨٥.

(٤) هو أخو مرحب اليهودي والذي تصدى له محمد بن مسلمة وقتله.

(٥) السيرة النبوية ٤/ ٤٢، والبداية والنهاية ٤/ ١٩١، والمغازي ٢/ ٩٥٧.

(٦) النسائي في الخيل، باب سهمان للخيل، ص٦١٢ (٣٥٩٥).

صفية بعد النبى ﷺ

لما توفى النبى ﷺ أظلمت المدينة بموته، وكادت قلوب أصحابه رضى الله عنهم أن تتمزق حزنًا عليه، وكان من أشد الصحابة مصابًا وحزنًا وألمًا صفية عمته رضى الله عنها، ووقفت ترثى النبى ﷺ بقولها:

عينُ جودى بدمعة وسهود ... واندبى خير هالك مفقود
واندبى المصطفى بحزنٍ شديد ... خالط القلب فهو كالمعمود[1]
كدتُ أقضى الحياة لما أتاه ... قدرٌ خُطَّ فى كتاب مجيدِ
فلقد كان بالعباد رؤوفًا ... ولهم رحمة وخير رشيد
رضى الله عنه حيًّا وميتًا ... وجزاه الجنان يوم الخلود[2]

ومما رثت به النبى ﷺ أيضًا:

عين جودى بدمعة تسكاب ... للنبىِ المطهر الأواب
واندبى المصطفى فَعُمى وخصى ... بدموع غزيرة الأسراب
عين مَنْ تندبين بعد نبيى ... خصه الله ربنا بالكتاب
فاتح خاتمٍ رحيم رؤوف ... صادق القيل طيب الأثواب
مشفق ناصح شفيق علينا ... رحمة من إلهنا الوهاب
رحمةُ الله والسلام عليه ... وجزاه المليكُ حُسْنَ الثواب[3]

ولقد روت عن النبى ﷺ ورُوى عنها، وعاشت رضى الله عنها حتى خلافة عمر بن الخطاب، وقد كان رضى الله عنه يتعهدها بحسن الصحبة ويعرف حقها ويسأل عنها وفاء وتقديرًا وبرًا، كيف لا: وهو الذى يعرف قدرها عند رسول الله ﷺ، فقد فرض لها رضى الله عنها ستة آلاف درهم[4].

(١) المعمود: المريض لا يستطيع الجلوس حتى يعمد من جانبه بالوسائد.
(٢) ابن سعد ٢/ ٣٣٠، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٢٧١.
(٣) ابن سعد ٢/ ٣٢٩.
(٤) أعلام النساء ٢/ ٣٤٣.

إن ذلك هو الوفاء والتقدير لأهل السبق من الإيمان ولأصحاب الفضل قبل الأجر العظيم يوم القيامة، ثم هو بر الخلفاء الراشدين برعيتهم المتميزين بخدمتهم لدعوة الله عز وجل، اقتداءً برسول الله ﷺ.

ثم كانت وفاتها رضى الله عنها سنة عشرين من الهجرة فى خلافة عمر رضى الله عنه، ولها ثلاث وسبعون سنة، ودُفنت بالبقيع بفناء دار المغيرة بن شعبة[1].

صفية القدوة:

تلكم هى صفية رضى الله عنها المرأة القدوة، فقد كان سجلها حافلاً بالخير والعطاء، والجهاد فى سبيل الله ونصرة دينه..

ففى شبابها جاهدت فى أحد جنبًا إلى جنب مع الرجال، وسجل لها التاريخ فى أنصع صفحاته: أنها أول من قتلت رجلاً مشركًا فى الإسلام، وربت ولدها الزبير فأحسنت تربيته، حتى صار عَلَمًا من أعلام الإسلام، وعظيمًا من عظماء الأمة..

ولما أصيبت فى أخيها حمزة صبرت واحتسبت، ولم تجزع ليقينها أن له الجنة وأنه مات شهيدًا فى سبيل الله.

وأما فى الخندق فقد كانت مثالاً فذًا للمرأة المسلمة، حيث أظهرت من ضروب الشجاعة والقوة والجرأة والإقدام ما لم يبده كثير من الأبطال..

وأما فى كبرها، فكانت مثالاً للمسلمة الواعية الملتزمة بهدى ربها وسنة نبيها ﷺ..

رحم الله صفية بنت عبد المطلب، وأجزل مثوبتها، ورزقنا حسن الاقتداء وسداد الاتعاظ.

***

(١) ابن سعد ٨/ ٤٢، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٢٧١، والمستدرك ٤/ ٥٠، والثقات لابن حبان ٢/ ١٣٧، وتاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين)، ص٢٢٠، ٢٢١.

أسماء بنت أبى بكر الصديق
رضى الله عنهما
(٤)

نَسَبُها

إنها أسماء ذات النطاقين، الصادقة الذاكرة، الصابرة الشاكرة(١).

أما أبوها: فهو أبو بكر - عبد الله- بن أبى قحافة- عثمان - بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، ويلتقى مع رسول الله ﷺ فى: مرة بن كعب، فهى رضى الله عنها قرشية، تيمية، مكية، ثم مدنية.

وأما أمها: فهى قتيلة بنت عبد العزى بن أسعد بن جابر بن مالك، قرشية من بنى عامر بن لؤى(٢).

وأخوها: عبد الله بن أبى بكر الصديق لأبيها وأمها.

وأما زوجها: فهو حوارى رسول الله ﷺ وأحد المبشرين بالجنة: الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى(٣).

(١) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٤٩-٢٥٥، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٢٨٨ -٢٩٥، وأسد الغابة ٧/ ١١، ١٢، والإصابة ٤/ ٢٢٩، ٢٣٠، وحلية الأولياء لأبى نعيم ٢/ ٥٥- ٥٧، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٣٩٧، والاستيعاب ٤/ ٢٣٢، ٢٣٤، وأحمد ٦/ ٣٤٤ -٣٥٥، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص ٣-٣٠، وشذرات الذهب ١/ ٨٠، وصفة الصفوة ٢/ ٥٨، ٥٩، وأعلام النساء ١/ ٤٧ -٥٣، والطبرانى فى الكبير ٢٤/ ٧٧ - ١٣١، وتهذيب الكمال (المصورة) ٣/ ١٦٧٧، ١٦٧٨، والثقات ٣/ ٢٣، وتلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٣٢٠، والمعارف، ص ١٧٢، ١٧٣، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٢٤٤ (٢٩٥٠)، والعبر فى خبر من غبر ١/ ٦٠، وتاريخ خليفة، ص ٢٦٩، وتذكرة الحفاظ ١/ ٤٧، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٢٨- ٣٣٠، وتاريخ الطبرى ١١/ ٦١٦، وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال ٣/ ٣٧٤(١)، والأعلام للزركلى ١/ ٣٠٥، ودر السحابة فى مناقب الصحابة والقرابة، ص ٥٤٧، وإمتاع الأسماع ٦/ ٢٠٣، ٢٠٣، وتقريب التهذيب ٢/ ٥٨٩، والسمط الثمين، ص ٣١٢ - ٣٢١، والمستدرك ٤/ ٦٤، ٦٥، والعقد الثمين ٨/ ١٧٧ (٣٢٩٩)، والمعين فى طبقات المحدثين، ص ٢٩ (١٥٤)، والوفيات، ص٨٠ (٨٣)، والإخوة والأخوات ص ٢٥، وطبقات خليفة ص ٣٣٣، وجمهرة أنساب العرب ص١٢٢، والرياض المستطابة ص ٣١٨، ومقدمة مسند بقى بن مخلد ص٨٥ (٦٠)، والطبقات لمسلم ١/ ٢١٢ (٥٢٠) وتاريخ الثقات ص ٥١٧ (٢٠٨٥) والكاشف ٣/ ٤٢٠ (١)، وجمهرة النسب ص ١٢٧، والمنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ٦/ ١٣٠ -١٣١ (٤٥١).

(٢) تزوج الصديق بأكثر من امرأة، حيث تزوج بـ (قتيلة) وأنجب منها أسماء وعبد الله، وتزوج بـ(أم رومان) وأنجب منها عائشة وعبد الرحمن، وتزوج بـ(أسماء بنت عميس) وأنجب منها محمد بن أبى بكر، وتزوج بـ (أسماء بنت زيد بن خارجة الأنصارية) وأنجب منها أم كلثوم، وكان زواجه رضى الله عنه من أسماء بنت عميس بعد استشهاد جعفر فى مؤتة، وزواجه من أسماء بنت زيد فى أواخر حياته.

(٣) انظر ترجمته فى طبقات ابن سعد ٣/ ١٠٠ -١١٣.

وأمـا أولادها منه: فـهم عبـد الله، وعـروة، والمنذر، وعـاصم، والمهاجـر، وخديجة الكبرى، وأم الحسن، وعائشة.

ذرية بعضها من بعض:

ولدت أسماء رضى الله عنها فى أسرة طيبـة مباركة، ونشأت فى ربوع الإيمان بين أحضـان أبوين كريمين، وتأثرت بهـذه البيئة الطيـبة التى عاشـتها فى مقـتبل عمـرها، وكان لأبيها أكـبر الأثر فى حياتـها ، حيث ورثت عنه الفضل والخـير، والجود والكرم، والثقة بالله عز وجل والشجاعة والإقدام.

أسماء وعائشة والنشأة الطيبة:

كانت أسماء أسن من عائشة ببضع عشـرة سنة، وقيل: كانت أكبر منها بعشر(١)، وكانت أختها لأبيها ، فأم أسماء: قـتيلة بنت عبد العزى- كما تقدم، وأم عائشة: أم رومان بنت عمير، وكانتا رضى الله عنهما ذات فـضل وسبق وجمال، وكانتا تتمتعان بطيب الشمائل وكرم الأخلاق، وعاشتا فى وئام وصفاء، وكان أبوهما براً بهما، قدوة لهما، عطوفًا عليهمـا، تقول عائشة: لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فـيه رسول الله ﷺ طرفى النهار بكرة وعـشية..(٢)، وتقول أسماء رضى الله عنها: كان النبى ﷺ يأتينا بمكة كل يوم مرتين بكرة وعشية(٣).

إسلامها:

لقد كانت رضى الله عنها من أهل السبق إلى الإسلام: قال ابن سعد: أسلمت قديمًـا بمكة وبايعت رسول الله ﷺ (٤)، وقال ابن إسـحاق: أسلمت بعد سبـعة عشر نفسًا(٥)، وبذلك كانت رضى الله عنها من سبَّـاق الأمة الذين امتدحهم الله عز وجل بقوله: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ... ﴾ [التوبة: ١٠٠].

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٨٨.

(٢) جزء من حديث طويل، رواه البخارى عنها فى مناقب الأنصار ٧/ ٢٧١، ٢٧٢ (٣٩٠٥).

(٣) الطبرانى فى الكبير ٢٤/ ١٠٦ (٢٨٤).

(٤) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٤٩.

(٥) الاستيعاب ٤/ ٢٣٤، وقال ابن إسحاق فى إسلامها : أسلمت وهى يومئذ صغيرة ١/ ٢٩٠.

لقد آمنت إيمانًا صادقًا، مما جعلها تشارك المسلمين لأواء الدعوة، ومرارة الأذى فى سبيل الله، وكان من حسن إسلامها أن أمها قدمت عليها- وكان أبو بكر طلقها فى الجاهلية- بهدايا، فأبت أن تقبل هديتها أو تدخلها إلى بيتها، وأرسلت إلى عائشة: سلى رسول الله ﷺ، فقال: «لتدخلها ولتقبل هديتها» وأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [الممتحنة: ٨] إلى قوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩][(١)].

لقد محضت أسماء رضى الله عنها ولاءها لله تعالى، فلم تقبل من أمها هديتها أو تدخلها بيتها إلا بعد سؤال النبى ﷺ والرجوع إليه، وهذا شأن المرأة المعتزة بعقيدتها، إذ لا مكان فى نفسها المترعة بالإيمان لعصبية أو ولاء أمام الولاء لله ولرسوله ولدينه.

وفى رواية للبخارى عن أسماء قالت: قدمت علىَّ أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله ﷺ[(٢)]، فاستفتيت رسول الله ﷺ، قلت: إن أمى قدمت وهى راغبة[(٣)] أفأصل أمى؟ قال: «نعم، صِلى أمك»[(٤)].

قال ابن حجر: وفيه تحرى أسماء فى أمر دينها، وكيف لا وهى بنت الصديق، وزوج الزبير رضى الله عنهم[(٥)].

***

(١) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٥٢، وأبو داود الطيالسى ص ٢٢٨ (١٦٣٩).

(٢) فى رواية حاتم: فى عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ، وأراد بذلك ما بين الحديبية والفتح. فتح البارى ٥/ ٢٧٧.

(٣) أى فى شيء تأخذه وهى على شركها، ولهذا استأذنت أسماء فى أن تصلها، وقيل: راغبة عن دينى أوراغبة فى القرب منى ومجاورتى والتودد إلىّ؛ لأنها ابتدأت أسماء بالهدية التى أحضرتها، ورغبت منها فى المكافأة.. فتح البارى ٥/ ٢٧٧.

(٤) البخارى فى الهبة، باب الهدية للمشركين وقول الله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ ٥/ ٢٧٥ (٢٦٢٠)، وفى الأدب، باب صلة الوالد المشرك وصلة المرأة أمها ولها زوج ١٠/ ٤٢٧ (٥٩٧٨، ٥٩٧٩)

(٥) فتح البارى ٥/ ٢٧٧.

الزوجة

تزوجت أسماء رضى الله عنها الزبير بن العوام قبل الهجرة، وكلاهما مسلم خالطت بشاشة الإيمان قلبه، وامتزج الإسلام بلحمه ودمه، فكانا مثال الزوجين المتوافقين، ضمهما هدف واحد، وطريقة واحدة، تحت لواء واحد.. هاجر إلى المدينة فهاجرت، وجاهدَ فشدت أزره، وصبرت معه فى ضرائه، وشكرت معه فى سرائه، لم يمنعها مكان أبيها، ولا شرف قومها أن تقف إلى جانبه فى أيام الشدة والفقر، تعمل وتكدح، وتعمر عش الزوجية بكد اليمين وعرق الجبين[١].

نشأت هذه الأسرة فقيرة، إذ كان الزبير لا يملك شيئًا من متاع الدنيا إلا فرسًا يجاهد عليه، وجملاً يسقى عليه الماء، وحتى الفرس والجمل إنما ملكهما فى المدينة بعد أن كان فقيرًا لا يملك شيئًا فى مكة، ولكنه مع ذلك كان مؤمنًا تقيًا، ومسلمًا صادقًا، حسن الخلق، طيب النفس، كريم المنبت.

أما أسماء رضى الله عنها فقد انتقلت إلى بيت زوجها المتواضع البسيط، وها هى رضى الله عنها تصف لنا حياتها فتقول: تزوجنى الزبير وما له فى الأرض من مال ولا مملوك ولا شىء غير فرسه، فكنت أعلف فرسه، وأكفيه مؤنته وأسوسه، وأدق النوى لناضحه[٢]، وأعلفه وأستقى الماء، وأخرز غَرْبَهُ[٣]، وأعجن ولم أكن أُحسنُ أخبزُ، وكان يخبز لى جارات لى من الأنصار، وكن نسوة صدق، قالت: وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التى أقطعه رسول الله ﷺ على رأسى، وهى منى على ثلثى فرسخ، فجئت يومًا والنوى على رأسى، فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من أصحابه فدعانى، ثم قال: «إخ إخ»[٤]، ليحملنى خلفه، قالت: فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته -وكان أغير الناس- فعرف

(١) نساء مؤمنات، د. يوسف القرضاوى ص ٤٥، ٤٦.

(٢) الناضح: الجمل الذى يسقى عليه الماء..

(٣) أخرز غَرْبَهُ: أخيط دلوه المصنوع من الجلد.

(٤) إخْ إخْ: كلمة تقال للبعير ليبرك.

رسول الله ﷺ أنى قد استحييتُ، فمضى، فجئت الزبير، فقلت: لقينى رسول الله ﷺ وعلى رأسى النوى ومعه نفر من أصحابه، فأناخ لأركب، فاستحييت منه وعرفت غيرتك، فقال: والله لحملك النوى كان أشد علىَّ من ركوبك معه، قالت: حتى أرسل إلىّ أبو بكر بعد ذلك بخادمة تكفينى سياسة الفرس، فكأنما أعتقنى[1].

حسن رعايتها لبيتها:

نجد فيما سبق أن أسماء رضى الله عنها كانت تقوم بأعباء الزوجية وشؤون البيت، تبرعًا منها وتضحية، مع أن ذلك ليس مطلوبًا منها، فالزوجة المسلمة مطيعة لزوجها، بارة به، حريصة على إرضائه وإدخال السرور على نفسه ولو كان فقيرًا معسرًا، لا تتذمر من ضيق ذات اليد، ولا تضيق ذرعًا بأعمال البيت، ولا تتأفف من خدمة زوجها وبيتها، بل ترعى بيتها وتقوم بمسؤوليات بيتها ونفسها ممتلئة بالبشْر، وزوجها بالمقابل لم يكن كسولاً يتردد على المقاهى والنوادى، ويكلف زوجته بأعباء الحياة كما نرى فى كثير من مجتمعاتنا، لكنه رضى الله عنه كان فى ميادين الجهاد ونصرة الإسلام والدعوة إلى الله عز وجل.

وهكذا تقوم الأسرة المسلمة على أساس من المحبة والتضحية والتعاون، وكلا الزوجين حريص على مساعدة صاحبه.

حُسن عشرتها وجميل مصاحبتها:

ويتضح لنا كذلك معرفة أسماء رضى الله عنها لطبيعة زوجها، من شدة غيرته، واحترامه فى ذلك حتى فى أمر لا يغار منه، كما بيّن لها زوجها فيما بعد، لكنه من الوفاء والإخلاص لزوجها أن تراعى حقوقه وتحفظ غيرته فى حضوره وغيابه، وتحرص على تجنب كل ما لا يرضيه.

وعلى الجانب الآخر تبدو مروءة زوجها واحترامه لها وغيرته عليها، وأن من مروءته أنه يفضل لها أن تكون قد ركبت خلف النبى ﷺ وهو مع أصحابه من أن تقوم بحمل هذا النوى على رأسها هذه المسافة البعيدة.

---

(١) البخارى فى النكاح، باب الغيرة ٩/ ٢٣٠ (٥٢٢٤)، ومسلم فى السلام، باب جواز إرداف المرأة الأجنبية إذا أعيت فى الطريق ١٤/ ١٦٤ (٢١٨٢).

فما أجـملها من مشاعر بين الزوجـين، هى تؤثر احترام مشاعـره وغيرته على راحتها فتتعب حفاظًا علـيه، وهو يتألم لذلك، ويفضل لو أنها ركبت ولم تتعرض لهذا العنـاء والتعب، وهذه هى ثمرة المحـبة، والتـعاون بين الزوجيـن، فكلاهما حريص على الآخر يؤثره على نفسه.

وإنما كان صـبر زوجـها على حمـلها النوى وتألمه لذلك بسـبب (شغله وأبيـها بالجهاد وغـيره مما يأمرهم به النبى ﷺ ويقـيمهم فيـه، وكانوا لا يتفرغون لـلقيام بأمور البيت بأن يتعاطوا ذلك بأنفسهم، ولضيق ما بأيديهم على استخدام من يقوم بذلك عنهم، فـانحصـر الأمر فـى نسائهم، فكن يكفـينهم مـؤنة المنزل ومن فيـه ليتوفروا هم على ما هم فيه من نصر الإسلام..)[1].

حياء المسلمة:

ومما سبق أيضًا يتضح لنا ما كانت عليـه أسماء رضى الله عنها من خلق الحياء، والحياء من الإيمان، والحـياء خير كله، وهى هنا المرأة المتزوجة تـستحى من رسول الله ﷺ ومن معه من الصحابة مع أنها معروفة لديهم لشهرتها ومكانة أبيها ومكانة زوجها ومكانة أختها عائشة أم المؤمنين.

فما أعظم المؤمنة حين تكون حـيية مهذبة دمثة الأخلاق، مـرهفة الشعور، فلله درها.. كم كانت عظيمة فى أخلاقها وفى حُسن معاشرتها.

عبرة بالغة:

يقول الشيخ على الطنطاوى: لما تزوج الزبير أسماء لم يكن له فى الدنيا شىء، لا مال ولا عقار، ليس إلا فرسه، فلم يكن عليـها أن تصبر على الفقر فقط، ولا أن تروض نفسها على الحرمان وتخدم زوجـها وحده، بل كان عليها أن تخدم هذا الفرس تمش تجمع له نوى التمر، ثم تدق النوى وتعلف الفرس.

وصبرت على هذا كله، وكانت مطيعة لزوجـها حريصة على مرضاته، ووجدنا فيما سبق أنها تأبى أن تركب خلف رسـول الله ﷺ الطاهر المطهر المعصوم، خوفًا من سخط زوجها، وما كان زوجها ليسخط، ولكنها المبالغة فى مرضاته.

(١) فتح البارى ٩/ ٢٣٥.

يا أيتها المسلمة يا من لها زوج فقير، فهى تتألم للحرمان، وتكاد تذم القدر، اسمعى بقية الخبر؟ إنها صبرت على هذا كله، فكانت العاقبة أنها اغتنت وانصبت عليها وعلى زوجها النعم، حق إنه لما مات كانت تركته.. مَنْ يحرز؟ كم كانت تركة الزبير؟ كم خلَّف زوج أسماء بعد جمعها النوى ودقه، وصبرها على الفقر؟ خمسة ملايين درهم ومائتى ألف فقط لا غير، لم يجمعها من الحرام، ولا من أخذ أموال الناس، ولا لأنه قعد فى المجلس فدرَّس ووعظ، وقال: أنا حوارى رسول الله ﷺ وابن عمته فأعطونى، بل تاجر مثلما تاجر عبد الرحمن بن عوف والصحابة، وصار كما صار الكثيرون منهم من أصحاب الملايين، وكذلك كان المسلمون، كانوا رجال دنيا ودين ومال وتقى، وكان الزبير مع ذلك سمحًا كريمًا، كان له هذا المال، وكان له ألف مملوك يشتغلون لحسابه، ولم تجب عليه زكاة؟ لأنه لم يكن يدخر شيئًا.

أما أسماء العظيمة فلم تخجل أولاً من فقر زوجها، ولم تبطر بغناه، وبقيت كما كانت امرأة خير وبدو إحسان[1].

صلة المسلمة بجارتها:

ونجد فى حديث أسماء رضى الله عنها صورة من العلاقات الطيبة خارج حدود البيت، فهى رضى الله عنها تستعين بجاراتها فيما لا تتقنه من أعمال بعيدًا عن الغرور والتكلف، الذى نراه فى أيامنا هذه، وبخاصة فى مجتمع النساء؛ حيث تبقى المرأة جاهلة لأمور كثيرة، ولا تطيق أن تسأل عنها لئلا يقال: إنها لا تعرف كذا أو كذا من الأعمال.

ويتجلى الصدق والوضوح والتعاون فى المجتمع الإسلامى، فجاراتها يساعدنها بصدق، وتصفهن رضى الله عنها بأنهن نسوة صدق [2] ،وخاصة نساء الأنصار، إذ هذه القصة تتضمن منقبة عظيمة من مناقبهن رضى الله عنهن[3].

(١) رجال من التاريخ، للعلامة الشيخ على الطنطاوى، ص ٤١، ٤٢

(٢) أضافتهن رضى الله عنها إلى الصدق مبالغة فى تلبسهن به فى حسن العشرة والوفاء بالعهد، فتح البارى ٩/ ٢٣٤.

(٣) الهدى النبوى للمرأة المسلمة، د. محمد عبد الله عويضة ص ٢١٥.

غيرة محمودة:

عرفنا مما سبق أن أسماء رضى الله عنها آثرت أن تسير على قدميها مع ما تحمله على رأسها من النوى، مراعاة لغيرة زوجها، واحترامًا لمشاعره، وها هى رضى الله عنها تعمل الحيلة لمعالجة غيرة زوجها فى موقف آخر، ونرى فى المقابل زوجها رضى الله عنه يغلّب حب عمل المعروف على مشاعر الغيرة، حدث ذلك لما جاء رجل إلى أسماء رضى الله عنها فقال: يا أم عبد الله، إنى رجل فقير أردت أن أبيع فى ظل دارك. قالت: إنى إن رخصت لك أبى ذلك الزبير، فتعال فاطلب إلىّ والزبير شاهد، فجاء الرجل فقال: يا أم عبد الله، إنى رجل فقير أردت أن أبيع فى ظل دارك. فقالت: مالك بالمدينة إلا دارى! فقال لها الزبير: ما لك أن تمنعى رجلاً فقيرًا يبيع، فكان يبيع إلى أن كسب[١].

ونقف عند هذا التصرف الذكى، بما فيه من وفاء وحب للخير، وصدق مع الله ورسوله، إنها تريد فعل الخير وتحبه، ولكنها تخشى أن يؤذى ذلك زوجها لشدة غيرته، فتسلك مسلكًا يؤدى بها إلى الخير ورضاء الزوج، وتوحى للفقير بالطريقة المناسبة واللحظة المناسبة.

ولا يتاح لها ذلك لو لم تكن تعرف طباع زوجها وخلقه وأدق مشاعره، ونجحت وقامت بالخير الذى تريده ونالت مع زوجها الثواب وحصلت على رضاه، وكان فى ذلك مثل لتصرف الزوجة بطريقة حسنة، بعد أن تفهم نفسية زوجها فتراعى مشاعره وترضى أحاسيسه، ما دامت مشروعة ومحمودة، ولو كلفها ذلك بعض الجهد؛ لأن فى ذلك كسبًا لمرضاة الله عز وجل الذى هو الغاية الكبرى للمسلم[٢].

***

(١) مسلم فى السلام، باب جواز إرداف المرأة الأجنبية إذا أعيت فى الطريق ١٤/ ١٦٤- ١٦٧ (٢١٨٢).
(٢) ذات النطاقين: أسماء بنت أبى بكر، محمد حسين بريغش، ص ١٥٧.

المهاجرة

لقد أسهمت أسماء رضى الله عنها بنصيب وافر فى الهجرة إلى المدينة، وقامت بواجبها خير قيام، فكانت شريكة فى مهام الهجرة وتأمينها، وتحملت كل التضحيات من أجل دعوة الإسلام؛ لتكون مثلاً طيبًا للنساء ؛ ولترسم لهن طريق التضحية والفداء.

المهام الصعبة:

لقد كان لأسماء رضى الله عنها ثلاثة مواقف في الهجرة النبوية المباركة، سجلها لها تاريخ السيرة النبوية بفخار وإعزاز، أول هذه المواقف:

تأمين الزاد:

حدثت أسماء رضى الله عنها عنه، فقالت: صنعت سُفرة للنبي ﷺ وأبى بكر حين أرادا المدينة، فقلت لأبى: ما أجد شيئًا أربطه إلا نطاقى، قال: فشقيه، فقلتُ: فسميتُ: ذات النِّطاقَين(١).

لقد كانت رضى الله عنها تقطع المسافة الطويلة بين مكة وجبل ثور في جوف الليل، لم يثنها عن مهمتها وحشة الطريق، ووعورة المسلك، وترصد الأعداء؛ لأنها كانت تعلم أن فى استنقاذ رسول الله ﷺ وصاحبه، وإنجاح مقصدهما ووصولهما إلى دار الهجرة، نصرة لدين الله، وإعلاءً لكلمته، وإظهاراً للحق وجنده.

ومن هنا كانت رضى الله عنها تقوم بمهمتها الصعبة هذه كلّ يوم، ماشية متخفية، حذرة مترقبة، تصعد قمة الجبل وهى المرأة الحامل فى أشهرها الأخيرة، حتي توافي رسول الله ﷺ وصاحبه بما تحمل معها من زاد، ثم تعود أدراجها إلى مكة فى الليل الأسود البهيم وهى راضية محتسبة، فأى إيمان هذا؟! وأى تضحية هذه؟!

(١) البخارى فى مناقب الأنصار، باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة ٧/ ٢٨٢ (٣٩٠٧)، والنطاق ما يشد على الوسط، وقيل: هو إزار فيه تكة، وقيل: هو ثوب تلبسه المرأة ثم تشد وسطها بحبل ثم ترسل الأعلى على الأسفل، وسميت ذات النطاقين؛ لأنها كانت تجعل نطاقًا على نطاق، وقيل: كان لها نطاقان تلبس أحدهما، وتجعل فى الآخر الزاد، والمحفوظ أنها شقت نطاقها نصفين، فشدت بأحدهما الزاد واقتصرت على الآخر، فمن ثم قيل لها: ذات النطاق، وذات النطاقين. فتح البارى ٧/ ٢٧٨.

نطاقان فى الجنة:

لقد علم النبى ﷺ صدق إيمانها وعظيم تضحياتها، فكان أن بشرها ﷺ بأن الله عز وجل أبدلها بنطاقها نطاقين فى الجنة(١)، وإنها لشهادة ثمينة من الرسول الكريم ﷺ تطوق عنقها، وتزيدها فضلاً وتألقًا، ومكانة ومنزلة.

شجاعة نادرة:

ولم تكن هذه المهمة التى يعجز عنها أشداء الرجال كل ما أدته أسماء رضى الله عنها نحو دينها ونصرة رسوله ﷺ فى الهجرة، بل تعرضت لمحنة قاسية، ثبتت فيها ثبات الجبال الراسيات، يوم أحاط بها رجال من المشركين، يسألونها عن أبيها، فأنكرت أمره، وتجاهلت خبره، فأمعنوا فى الشدة عليها حتى إن أبا جهل لطمها لطمة أطارت قِرْطَها من أذنها، فلم يوهن ذلك من عزيمتها، ولم يفلّ من قوة تصميمها على الاحتفاظ بسرها المكنون، ومضت رضى الله عنها تقوم بمهمتها تلك حتى جاء اليوم الموعود لمغادرة الرسول ﷺ وصاحبه الغار إلى المدينة..

تحكى أسماء رضى الله عنها هذا الموقف، فتقول: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبى بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبى بكر؟ قالت: قلت: لا أدرى والله أين أبى؟ قالت: فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشًا خبيثًا- فلطم خدّى لطمة طرح منها قرطى. قالت: ثم انصرفوا ..(٢).

لله أنت يا أسماء! ما أعظم إيمانك! وما أروع تحملك! وما أقوى يقينك! إن هذا الموقف ليدل على غاية الشجاعة والقوة، وكمال الذكاء والفطنة، وعمق اليقين والثقة بالله، فقد انتصرت عليهم بشجاعتها وثباتها ورباطة جأشها:

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم كباطلٍ من جلال الحق منهزم

(١) الاستيعاب ٤/ ٢٣٣، وتراجم النساء فى تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، ص ٦، عن الزبير بن بكار.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٥، وهذا إسناد منقطع، وقال ابن سيد الناس فى عيون الأثر ١/ ٢٢٩: وقد روينا حديث أسماء هذا متصلاً من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن أسماء، ثم ساق إسناده إلى هشام بالحديث.

فطنتها وحسن تصرفها:

أما عن الموقف الثالث، فقد حدثت عنه قائلة: لما خرج رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر معه، احتمل أبو بكر ماله كله ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف، فانطلق بها معه، قالت: فدخل علينا جدى أبو قُحافة، وقد ذهب بصره، فقال: والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه. قالت: قلت: كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا، قالت: فأخذت أحجارًا، فوضعتها فى كُوَّة[1] فى البيت الذى كان أبى يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوبًا، ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبت، ضع يدك على هذا المال. قالت: فوضع يده عليه، فقال: لا بأس إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفى هذا بلاغ لكم، ولا والله ما ترك لنا شيئًا، ولكنى أردت أن أسكِّن الشيخ بذلك[2].

بهذه الفطنة والحكمة سترت أسماء أباها، وسكَّنت قلب جدها من غير أن تكذب، فإن أباها قد ترك لهم حقًا هذه الأحجار التى كومتها؛ لتطمئن بها نفس الشيخ، إلا أنه قد ترك لهم معها إيمانًا ويقينًا بالله، وثقة فى جنابه لا حد لها، وغرس فيهم همة تتعلق بمعالى الأمور، ولا تلتفت إلى سفاسفها، فضرب بهم للبيت المسلم مثالاً عز أن يتكرر وقلّ أن يوجد نظيره.

إن فى مواقف أسماء ما يثبت استفادة دعوة الإسلام من النساء؛ فهن أرق عاطفة، وأكثر اندفاعًا، وأسمح نفسًا، وأطيب قلبًا؛ ولأن المرأة منشئة الأجيال، وجب علينا العناية بها، وتشريبها دعوة الإسلام؛ ولذا فإننا نجد دعاة الحق يقولون: ونحن لهذا نعنى بالمرأة عنايتنا بالرجل، ونعنى بالطفولة عنايتنا بالشباب، وهذا هو تكويننا الأسرى[3].

---

(١) الكُوّة: نقب البيت، وتُجمع على (كُوَى)، وتنطق بفتح الكاف، والجمع (كواء) بالمد، وكِوىً بالقصر، انظر: الصحاح للجوهرى ٦/٢٤٧٨.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٢٥، وهذا إسناد صحيح، وقد أخرجه من طريقه الحاكم فى المستدرك ٣/٦، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبى، وأحمد فى مسنده ٦/ ٣٥٠، والطبرانى فى المعجم الكبير ٢٤/٨٨ (٢٣٥)، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٦/٥٩: رجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع.

(٣) مجموعة الرسائل، ص ٨٣.

بنت أبيها:

ولقد كانت أسماء رضى الله عنها تعلم أدق أسرار الهجرة غير أنها كانت أمينة عليها، تقول عائشة رضى الله عنها: لما دخل النبى ﷺ عليهم البيت، قال لأبى بكر: «أخرج عنى من عندك» فيطمئنه أبو بكر بقوله: يا رسول الله، إنما هما ابنتاى، وما ذاك؟ فداك أبى وأمى! فقال: «إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة»[(١)].

لقد كان النبى ﷺ حريصًا كل الحرص على عدم معرفة أحد بموعد الهجرة، أو بخطته التى أعدها لنجاح هذا العمل ، وحينما ذهب يخبر رفيقه أبا بكر بأمر الهجرة وموعدها كان حريصًا على الكتمان، فقال له: «أخرج عنى مَنْ عندك»، فطمأنه أبو بكر على سرية الموضوع، إذ أن الحاضرتين السامعتين له هما ابنتا أبى بكر المؤمنتان الأمينتان، فقد كان رضى الله عنه على تمام الوعى ببيته، والشفقة بأهله، وبما غرسه فيهما من حب الدعوة والداعية، وافتدائه بالنفس والمال، ومن دفاع وتأمين للأسرار، وهذا يوجهنا إلى درس فى التربية عظيم، وهو ضرورة الاهتمام بالبيوت من زوجة وأولاد حتى يكونوا على مستوى الدور المطلوب منهم.

ويا عجبا لو أن المسلم عمل لدينه ليل نهار، ينصح الناس ويوجههم ويرشدهم، ثم هو بعد ذلك ينسى نفسه وينسى بيته وأسرته من غير تربية أو اهتمام لخسر الكثير.

فى المدينة المنورة:

ظلت أسماء رضى الله عنها مع إخوتها فى مكة، لا تشكو ضيقًا ولا تظهر حاجة، حتى بعث النبى ﷺ زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه، وأعطاها بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة، فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتى رسول الله ﷺ وسودة بنت زمعة زوجته، وحمل زيد بن حارثة امرأته أم أيمن مع ابنها أسامة،

---

(١) أخرجه ابن إسحاق، قال: حدثنى من لا أتهم، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، السيرة النبوية ٢/ ٢٢٣، وهذا المبهم سماه ابن جرير فى روايته من طريق سلمة بن الفضل، عن ابن إسحاق قال: حدثنى محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين التميمى، قال: حدثنى عروة، تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى ١/ ٣٧٧، ٣٧٨، ومحمد عبد الرحمن المذكور سكت عنه ابن حاتم فلم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً، الجرح والتعديل ٧/ ٣١٧، كما سكت عنه البخارى، وقال: كان صوامًا قوامًا، التاريخ الكبير ١/ ١٥٦، ١٥٧، وذكره ابن حبان فى الثقات، وتتقوى هذه الرواية برواية الصحيح.

وخرج عبد الله بن أبى بكر بعيال أبى بكر، فيهم عائشة وأسماء، فقدموا المدينة فأنزلهم فى بيت حارثة بن النعمان(١).

تحكى لنا أسماء رضى الله عنها عن هجرتها وحملها بعبد الله بن الزبير وولادتها له، فتقول: خرجت وأنا مُتِمٌّ (٢) فأتيت المدينة، فنزلت بقباء فولدته بقباء، ثم أتيت به النبى ﷺ فوضعته فى حجره، ثم دعا بتمرة، فمضغها ثم تفل فى فيه، فكان أول شىء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حَنَّكَهُ بتمرة(٣)، ثم دعا له وبَرَّكَ عليه (٤)، وكان أول مولود ولد فى الإسلام(٥)، ففرحوا به فرحًا شديدًا؛ لأنهم قيل لهم: إن اليهود قد سحرتكم فلا يولد لكم(٦).

وروى مسلم عن عروة بن الزبير وفاطمة بنت المنذر بن الزبير أنهما قالا: خرجت أسماء بنت أبى بكر حين هاجرت وهى حُبْلَى بعبد الله بن الزبير، فقدمت قباء، فنفست بعبد الله بقباء، ثم خرجت حين نفست إلى رسول الله ﷺ ليحنكه، فأخذه رسول الله ﷺ منها فوضعه فى حجره، ثم دعا بتمرة قال: قالت عائشة: فمكثنا ساعة نلتمسها قبل أن نجدها، فمضغها ثم بصقها فى فيه، فإن أول شىء دخل بطنه لريقُ رسول الله ﷺ، ثم قالت أسماء: ثم مسحه وصلى عليه وسماه عبد الله... (٧).

***

(١) طبقات ابن سعد ١/ ٢٣٧، ٢٣٨، وانظر: فتح البارى ٧/ ٢٩٣.

(٢) أى قد أتممت مدة الحمل الغالبة وهى تسعة أشهر.

(٣) التحنيك: مضغ الشىء ووضعه فى فم الصبى ودلك حنكه به، يصنع ذلك بالصبى ليتمرن على الأكل ويقوى عليه، ولقد كان الصحابة حريصين على أن يحنك أبناءهم رسول الله ﷺ، وكثيرًا ما كان يسميهم، ولقد حنَّك ابن الزبير وسماه عبد الله، وتحققت فيه بركة تحنيكه له ﷺ فكان مباركًا.

(٤) أى قال: بارك الله فيه، أو اللهم بارك فيه.

(٥) أى بالمدينة من المهاجرين، وكان مولده فى السنة الأولى من الهجرة.

(٦) البخارى فى مناقب الأنصار، باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة ٧/ ٢٩٢ (٣٩٠٩) وفى العقيقة، باب تسمية المولود غداة يولد لمن لم يعق وتحنيكه ٩/ ٥٠١ (٥٤٦٩).

(٧) مسلم فى الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته ١٤/ ١٢٥، ١٢٦ (٢١٤٦).

الأم

مضت حياة أسماء رضى الله عنها مع زوجها الزبير هانئة سعيدة، فكانت له نعم الزوجة، تخدمه، وتسوس فرسه وترعاه، وتطحن النوى لعلفه، وتعينه فى أمر دينه وتخفف عنه أعباء الحياة، ثم هى تقوم على تربية ابنه، فقد كانت رضى الله عنها تتعهده وتغرس فيه روح التوثب والعظمة والطموح، وتُودع فيه سر النبوغ، ثم هى تلاعبه تارة، وتمازحه تارة أخرى كما تفعل كل أم حنون مع طفلها الصغير، تقول له:

أبيض كالسيف الحسام الأبريق   بين الحوارى وبين الصديق

ظنى به ورب ظن تحقيق   والله أهل الفضل وأهل التوفيق(١)

ولما بلغ السابعة من عمره اصطحبه أبوه إلى رسول الله ﷺ، وتقدم لمبايعته ﷺ بعد أن أمره أبوه(٢)، وقد كان كثيرًا ما يبيت عند خالته عائشة ليزداد علمًا وفقهًا، حتى إنها رضى الله عنها كانت تكنى به، فكان يُقال لها: يا أم عبد الله(٣).

ولقد ولدت أسماء رضى الله عنها بعد عبد الله عروة والمنذر، وما منهم إلا عالم أو فارس، ولا غرو أن اختار لهم أبوهم أسماء شهداء الصحابة رجاء أن يسلكوا سلوكهم، فينالوا درجة الشهادة فى سبيل الله.

يقول الزبير رضى الله عنه: إن طلحة بن عبيد الله التيمى يسمى بنيه بأسماء الأنبياء، وقد علم أن لا نبى بعد محمد ﷺ، وأنى أسمى بنىَّ بأسماء الشهداء لعلهم أن يُستشهدوا، فسمى عبد الله بعبد الله بن جحش شهيد غزوة أحد، والمنذر بالمنذر بن عمرو الأنصارى من بنى ساعدة، وعروة بعروة بن مسعود الثقفى...(٤).

---

(١) أعلام النساء، عمر رضا كحالة ١/ ٤٩.

(٢) فى حديث مسلم عن عروة وفاطمة بنت المنذر: ثم جاء وهو ابن سبع سنين أو ثمان ليبايع رسول الله ﷺ وأمره بذلك الزبير، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآه مقبلاً إليه، ثم بايعه. مسلم فى الآداب، باب استحباب تحنيك المولود ١٤/ ١٢٥، ١٢٦ (٢١٤٦).

(٣) ابن سعد ٨/ ٦٦.

(٤) ابن سعد ٣/ ١٠١، وانظر: الروض الأنف للسهيلى ٢/ ٦٠.

أما عروة فقد ولد سنة اثنتين وعشرين للهجرة، تعهدته أمه بالعلم والتربية، وصاحب خالته عائشة حتى صار من أكبر علماء التابعين(١).

وأما المنذر فقد ولد فى خلافة عمر رضى الله عنه، وقد غزا المنذر القسطنطينية مع يزيد بن معاوية(٢).

ولم يكن اهتمامها رضى الله عنها بعبد الله وعروة والمنذر فحسب، بل اهتمت بتربية بقية أولادها أعظم اهتمام(٣)، فغرست فى نفوسهم القيم النبيلة، وأودعتهم الفضائل والمكارم، وورثوا عنها الحكمة وقوة الشخصية وجميل الخلال.

لقد كانت رضى الله عنها واحدة من الأمهات الفضليات اللاتى أودعن فى أبنائهن سر النبوغ، وأصّلن فيهم قوة الخلق وخلق القوة، وكن وراءهم فى كل ما بلغوه من مكارم وأمجاد، وما حققوه من أعمال عظيمة.

رجاحة عقل وقوة إيمان:

وها هو موقفها مع ابنها عبد الله بن الزبير يشهد بذلك: بعد وفاة يزيد بن معاوية بُويع لعبد الله بن الزبير بالخلافة فى معظم بلاد الإسلام، ودانت له الحجاز ومصر واليمن والعراق وخراسان، وأكثر بلاد الشام، وظل تسع سنوات ينادى بأمير المؤمنين.

لكن بنى أمية ما لبثوا أن سيَّروا لحربه جيشًا جرارًا بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفى، فدارت بين الفريقين معارك طاحنة، غير أن الحجاج ومن معه من الجند أحاطوا بعبد الله بن الزبير فى الكعبة واشتد حصارهم، وتفرق عنه أكثر من كان معه، فدخل عبد الله على أمه قبل قتله بعشرة أيام، يشكو إليها خذلان الناس له،

(١) قال الواقدى: كان عروة فقيهًا عالمًا حافظًا ثبتًا حجة عالـمًا بالسير. وهو أول من صنف المغازى، وكان من فقهاء المدينة المعدودين، ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه، وكان أروى الناس للشعر، وقال عمر بن عبد العزيز: ما أحد أعلم من عروة وما أعلمه يعلم شيئًا أجهله.. انظر: البداية والنهاية ٩/ ١٠٧، ١٠٨، والمعارف لابن قتيبة، ص٢٢٢.

(٢) انظر ترجمته: فى سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٨١، والمعارف لابن قتيبة، ص٢٢٣.

(٣) بقية أولادها: عاصم والمهاجر وخديجة الكبرى وأم الحسن وعائشة، ابن سعد ٨/ ٢٥٠، وتاريخ دمشق لابن عساكر، (تراجم النساء)، ص٨، والحاكم ٤/ ٦٤.

قال لها: يا أماه، خذلنى الناس، حتى ولداى وأهلى، فلم يبق معى إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رأيك؟

هنا يتجلى موقف الأم الصبور برجاحة عقلها، وقوة إيمانها، ورباطة جأشها، وهى تنصح ابنها وفلذة كبدها فى لحظة حاسمة من لحظات الخلود.

قالت: يا بنى أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وتدعو إلى حق فاصبر عليه، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية يلعبون بها، وإن كنت تعلم أنك إنما أردت الدنيا فلبئس العبد أنت؟ أهلكت نفسك وأهلكت من قُتل معك، وإن قلت: كنت على الحق فلما وهن أصحابى ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار، ولا أهل الدين، وكم خلودك فى الدنيا؟ القتل أحسن.

فقال: يا أماه إنى أخاف أن يُمثل بى أهل الشام. قالت: إن الكبش لا يؤلمه سلخه بعد ذبحه، فامض على بصيرتك، واستعن بالله، فدنا منها فقبل رأسها، وقال: هذا والله رأيى، والذى قمت به داعيًا إلى يومى هذا، ثم قال: والله ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها، وما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرماته، ولكنى أحببت أن أعلم رأيك فزدتنى بصيرة مع بصيرتى، فانظرى يا أماه فإنى مقتول فى يومى هذا فلا يشتد حزنك، وسلِّمى لأمر الله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عمل بفاحشة قط، ولم يجر فى حكم الله...

فقالت أمه: إنى لأرجو من الله أن يكوُن عزائى فيك حسنًا، إن تقدمتنى احتسبتك، وإن ظفرت سررت بظفرك، اخرج حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرك، فقال: جزاك الله يا أماه خيرًا، فلا تدعى الدعاء لى قبل وبعد، فقالت: لا أدعه أبدًا.. ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام، وذلك النحيب والظمأ فى هواجر المدينة ومكة، وبره بأبيه وبى، اللهم إنى قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت، فقابلنى فى عبد الله بن الزبير بثواب الصابرين الشاكرين، ثم أخذته إليها فاحتضنته لتودعه واعتنقها ليودعها -وكانت قد أضرت فى آخر عمرها- فوجدته لابسًا درعًا

من حديد، فقالت: يا بنى ما هذا لباس مـن يريد ما نريد من الشهادة!! فقال: يا أماه إنما لبسته لأطيب خـاطرك وأسكن قلبك به، فقالت: لا يا بنى ولكن انزعه، فنزعه وجعل يلبس بقيـة ثيابه ويتشدد، وهى تقول: شمـر ثيابك، ثم ذكرته بأبيه الزبير، وجـده أبى بكر، وجدته صـفية بـنت عبد المطلب، وخـالته عـائشة زوج رسول الله ﷺ، ثم خرج من عندها فكان ذلك آخـر عهده بها، وذهب رضى الله عنه فقاتـل الساعات الأخيرة، وأظهـر من ضروب البطولة ما يليق بفـارس شجاع مثله، حتى جعل الناس يتعجبون من إقـدامه وشجاعته، وما زال على ثباته رضى الله عنه حتى قُـتل، وكان ذلك يوم الثلاثاء السـابع عشر من جـمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين.(١)

عبرة:

ولنتـأمل فى موقف أسـماء رضى الله عنـها وهى الأم التى بلغت المائة عـام، ولكنها مع ذلك كـانت تتمتع بقـوة فى العقل وبعد فى النظر، أمـا ابنها فلم يكن شابًا أو فتى صغيرًا، وإنما كان أميـرًا للمؤمنين قد بلغ من العمر سبعين سنة، وقد عُرف عنه الجـرأة فى الحق وسداد الرأى، ومع ذلك فإنه لم يجـد رأيًا أصوب ولا عقلاً أوسع من أمه، فـذهب إليها ليسترشد برأيها ويتـثبت مما هو عليه، فهل هى غلبت عـاطفتهـا وتخلت عن سداد رأيهـا؟ وطلبت من ابنهـا أن ينجو بنفـسه أو يتلمس مخرجًا مما هو فيه؟ وقـد رأت أنه قد أحيط به من كل مكان، وأن مَنْ معه قد تخلى عنـه.. إنها مع كل ذلك دفعت بابنهـا للجهـاد وشدت من أزره، وهى التى ربته على الحق والعدل، وأرضعته لبـان الإيمان والثبات عليه، وما كان لها أن تخشى بأس الطغاة، أو تجبن بابنها عن الشهادة فى سبيل الله.

فهل لهـذه الأم من نظير؟ وهل غير أسـماء رضى الله عنها تـتصرف بمثل هذه الحكمة والقوة والشجاعة، والصبر والإيمان، فى مثل هذا الموقف العصيب؟

إن هذا الموقف العظيم لهذه المرأة العظيمـة هو نموذج للمرأة المؤمنة الصادقة فى إيمانها، القوية فيه، المجاهدة الصـابرة، فأين منه نساؤنا اللواتى يكثرن من الحديث

(١) البداية والنـهاية ٨/ ٣٣٥-٣٤٨، بتصـرف واختصـار، وانظر: تاريخ الأمم والملوك لابن جـرير الطبرى ٦/ ٤٠٦، ٤٠٧، والكامل فى التاريخ لابن الأثير ٤/ ١٢٤، ١٢٥.

والكلام ولا حظ لهن من العمل والتطبيق، إنها في سبيل هذا الدين ونصرته تتحمل وتصابر وتبذل، وهي توقن بأن الله سبحانه لا يضيع أجر المحسنين فيأجرها ويخلفها خيرًا مما قدمت في سبيل الله.

في مواجهة الحجاج:

ولما صلب الحجاج عبد الله بن الزبير، أرسل إلى أمه أسماء، فأبت أن تأتيه، فأعاد إليها الرسول: لتأتيني أو لأبعثن إليك من يسحبك من قرونك، فأبت، وقالت: والله لا آتيه حتى يبعث إليّ من يسحبني بقروني، فما كان من الحجاج إلا أن رضخ لصلابتها، فقال: أروني مكانها، ثم انطلق حتى وقف عليها فقال: أرأيت كيف نصر الله الحق وأظهره؟ فقالت: ربما أديل الباطل على الحق وأهله، قال: كيف رأيتني صنعتُ بعدو الله؟ قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه، وأفسدت عليك آخرتك، قال: إن ابنك ألحد في هذا البيت، وقد قال الله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وقد أذاقه الله ذاك العذاب الأليم. قالت: كذبت، كان أول مولود ولد في الإسلام بالمدينة، وسُرّ به رسول الله ﷺ وحنكه بيده، وكبّر المسلمون يومئذ حتى ارتجت المدينة فرحًا به، وكان برًا بأبويه، صوامًا، قوامًا بكتاب الله، معظمًا لحرم الله، مبغضًا لمن يعصى الله، أما إن رسول الله ﷺ حدثني أن في ثقيف كذابًا ومُبيرًا[(١)]، فأما الكذاب فقد رأيناه[(٢)]، وأما المبير فلا أخالك إلا إياه، فقام عنها الحجاج ولم يراجعها[(٣)].

هذه مواجهة بين أسماء رضي الله عنها وبين طاغية تصاغر فيها طغيانه، وتداعى فيها جبروته وعنفوانه أمام صلابتها وثباتها، تقارعه بالحجة، وتحاربه بالموقف، إنها تعلم الحجاج هذا الدرس، حتى إنه ليخرج عنها منكسرًا يتمنى لو لم يكن لقيها، بعد أن دخل عليها مزهوًا يريد أن يتشفى.

---

(١) أي سفاحًا قتّالاً.

(٢) تعني: المختار بن عبيد الثقفي.

(٣) الطبراني في الكبير ١٠٢/٢٤ (٢٧٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٥٩/٧: ورجاله رجال الصحيح.

إننا هنا لا نستطيع أن نوفيها حقها من الوصف، أمٌ يبلغ الإيمان منها كل مبلغ، وتختلط بشاشته بقلبها ويمتزج بلحـمها ودمها، فتعطى المثل على عمق الإيمان بالله وصدق التوكل عليه، والجرأة فى الحق والثبات عليه...

وبلغ عـبد الملك بن مـروان ما صنع الحجـاج مع أسمـاء، فكتب إليه يسـتنكر فعلـه، ويقول: مالك ولابـنةَ الرجل الصالح؟ وأوصـاه بها خـيرًا، ودخل عليـها الحجاج فقال: يا أماه، إن أمير المؤمنين أوصانى بك، فهل لك من حاجة؟ قالت: لست لك بأم، إنما أنا أم المصلوب على الثنيّة ومالى من حاجة[1].

وأخيرًا آن للفارس المصلوب أن يترجل، وينزل من فوق خشبته، ويُسَلَّم إلى أمه فتـحنطه وتكفِّنه وتُصلى عليـه، وتودعه جوف الثرى ليلتقى فى دار الخلـود بأبيه الزبير وجده أبى بكر، وجدته صفية، وخالته عائشة رضى الله عنهم.

وهكذا استـقبلت أسـماء رضى الله عنهـا المصيـبة الكبـيرة بنفس أكـبر وإيمان أقوى.. دخل عليها عـبد الله بن عمر، وابنها مصلوب فقـال لها: إن هذا الجسد ليس بشىء وإنما الأرواح عند الله، فاتقـى الله واصبرى، فقـالت: وما يمنعنى من الصبر، وقد أهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل؟![2].

***

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٩٤.

(٢) سيـر أعلام النبـلاء ٢/ ٢٩٥، ورجاله ثقـات، والبداية والنهـاية ٨/ ٣٥٢، وانظر: نساء مـؤمنات، د. يوسف القرضاوى، ص٥٢.

علمها

لقد كانت رضى الله عنها حريصة على العلم وحضور مجالسه، وفهم ما يدور فى ساحة الأحداث من الأمور التى تهم المسلمين فى دنياهم وآخرتهم، فقد حضرت مع النبى ﷺ صلاة الكسوف، ولم يتضح لها كلام الرسول ﷺ، فسألت رجلاً قريبًا منها، تحدثنا أسماء رضى الله عنها فتقول: قام فينا رسول الله ﷺ خطيبًا، فذكر فتنة القبر التى يفتتن فيها المرء، فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة(١) حالت بينى وبين أن أفهم آخر كلام رسول الله ﷺ، فلما سكت ضجيجهم، قلت لرجل قريب منى: أى بارك الله فيك، ماذا قال رسول الله ﷺ فى آخر كلامه؟ قال: قال: «قد أُوحِيَ إِلَيَّ أنكم تُفتَنون فى القبور قريبًا من فتنة الدجال»(٢).

وفى رواية قالت: دخلت على عائشة رضى الله عنها والناس يصلون، قلت: ما شأن الناس؟ فأشارت برأسها إلى السماء، فقلت آية؟ فأشارت برأسها أى نعم. قالت: فأطال رسول الله ﷺ جدًا حتى تجلانى الغَشْيُ(٣) وإلى جنبى قربة فيها ماء ففتحتها، فجعلت أصب منها على رأسى، فانصرف رسول الله ﷺ وقد تجلت الشمس، فخطب الناس وحمد الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد» قالت: ولغط نسوة من الأنصار، فانكفأت إليهن لأسكتهن، فقلت لعائشة: ما قال؟ قالت: قال: «ما من شيء لم أكن أُريته إلا قد رأيته فى مقامى هذا حتى الجنة والنار...»(٤).

(١) رواه البخارى مختصرًا فى الجنائز، باب ما جاء فى عذاب القبر ٣/ ٢٧٥ (١٣٧٣).

(٢) قال ابن حجر فى الفتح: ساق هذه الزيادة النسائى والإسماعيلى من الوجه الذى أخرجه منه البخارى ٣/ ٢٧٩.

(٣) أى علانى مرض قريب من الإغماء لطول تعب الوقوف.

(٤) البخارى فى العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس ١/ ٢١٩، ٢٢٠ (٨٦)، وفى الوضوء، باب من لم يتوضأ إلا من الغشى المثقل ١/ ٣٤٦ (١٨٤)، وفى الكسوف، باب صلاة النساء مع الرجال فى الكسوف ٢/ ٦٣١ (١٠٥٣)، ومسلم فى الكسوف، باب ما عرض على النبى ﷺ فى صلاة الكسوف ٦٠٠/ ٢١٠، ٢١١ (٩٠٥).

فانظر كيف حرصت أسماء رضى الله عنها على سماع العلم، واستفهمت من الرجل القريب منها، ثم استفهامها من أختها عائشة أيضًا، مما يدل على وعيها للأمور من حولها ومشاركتها الفعالة فيما يجرى من أحداث، واهتمامها بأمر دينها وآخرتها.

لقد كانت المسلمة الأولى تغشى المسجد كلما تيسر لها ذلك، وكان ترددها على المسجد يجعلها ترتبط مباشرة بحياة المسلمين العامة، ففضلاً عن مشاركتها فى العبادة وسماع القرآن، فإنها تستمع لدروس العلم، وتعرف شيئًا من أخبار المسلمين، وفوق ذلك كله تتعرف على أخواتها المؤمنات وتتوثق صلات الصداقة والمودة بينهن.

فقهها فى الدين:

ولقد كان يُرجع إليها رضى الله عنها فى الفتوى والعلم، فعن مسلم القُرِّى قال: سألت ابن عباس رضى الله عنهما عن متعة الحج فرخص فيها، وكان ابن الزبير ينهى عنها، فقال: هذه أم ابن الزبير تحدث أن رسول الله ﷺ رخص فيها، فادخلوا عليها فاسألوها، قال: فدخلنا عليها فإذا امرأة ضخمة عمياء، قد رخص رسول الله ﷺ فيها[(١)].

ومن فقهها رضى الله عنها ما رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه عن فاطمة بنت المنذر، تقول: كنا فى حجرها مع بنات أخيها، فكانت إحدانا تطهر ثم تصلى، ثم تنكر بالصفرة اليسيرة، فتسألها، فتقول: اعتزلن الصلاة ما رأيتن ذلك حتى لا ترين إلا البياض خالصًا[(٢)].

ومن فقهها رضى الله عنها ما رواه مسلم فى صحيحه عن عبد الله مولى أسماء رضى الله عنها قال: قالت لى أسماء وهى عند دار المزدلفة: هل غاب القمر؟ قلت: لا، فصلت ساعة ثم قالت: يا بنى هل غاب القمر؟ قلت: نعم، قالت: ارحل بى، فارتحلنا، حتى رمت الجمرة، ثم صلت فى منزلها، فقلت لها: أى

(١) مسلم فى الحج، باب بيان أن المحرم بعمرة لا يتحلل بالطواف قبل السعى ٨/ ٢٢٤ (١٢٣٨)، وانظر: سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٨٩، وأحمد ٦/ ٣٤٨.

(٢) ابن أبى شيبة فى مصنفه فى الطهارة ١/ ٩٤، والبيهقى فى الحيض ١/ ٨٤.

هَنْتَاهْ -أي يا هذه- لقد غَلَّسْنَا -أي لقد تقدمنا على الوقت المشروع- قالت: كلا أىْ بُنَىَّ إن النبى ﷺ أذن للظعن(١).

وكانت أسماء رضى الله عنها تغطى وجهها وهى محرمة، وعنها قالت: نحرنا على عهد رسول الله فرسًا فأكلناه(٢)، وكانت رضى الله عنها تقول: لا زكاة فى الحلى(٣).

وعن أسماء رضى الله عنها أنها قالت للقاسم بن محمد بن أبى بكر ولعبد الله ابن محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر: إنى ورثت عن أختى عائشة مالاً بالغابة، وقد أعطانى معاوية بها مائة ألف فهو لكما؛ لأنهما لم يرثا من عائشة شيئًا ، إنما ورثا أسماء، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر، فهذه هبة لغنيين مكثرين مشاعة فعل أسماء بحضرة الصحابة، ولا يُعرف لها منهم مخالف(٤).

وهكذا كانت رضى الله عنها موضع ثقة الصحابة والتابعين، يرجعون إليها ويستفتونها، ولا شك أن قربها من أختها عائشة أم المؤمنين قد أفادها سعة فى العلم وفقهًا فى الدين، ويدل على هذا ما سبق من معرفتها بالأمور التى تهم المرأة وتتعلق بطهارتها وعبادتها، وحرى بالمسلمة أن تتعلم ما يلزمها من أحكام.. ولها أن تطلب من يعلِّمها أمور دينها.

ورع وتقوى:

ولقد كانت رضى الله عنها بدورها تستفتى رسول الله ﷺ فى خاصة نفسها وما يعرض لها من أمور، وهذا هو السلوك الصحيح للمرأة المسلمة، فهى لا تسلك طريقًا ولا تعمل عملاً لا تدرى أمر الله فيه، قالت للنبى ﷺ: يا رسول الله ما لى مالٌ إلا ما أدخل علىَّ الزبير، فأتصدق؟ قال: «تصدقى، ولا توعى فيوعى عليك(٥)»(٦).

(١) مسلم فى الحج، باب استحباب تقديم دفع الضعفة من النساء وغيرهن من مزدلفة ٨/ ٣٩، ٤٠ (١٢٩١)، وانظر: معجم فقه السلف ٤/ ٢٣.

(٢) معجم فقه السلف ٤/ ١٦٥.

(٣) المجموع للنووى ٦/ ٣٢-٤٧، والمغنى ٣/ ١١-١٨.

(٤) المجموع ١٥/ ٥١١، والمغنى ٥/ ١٥٥، ونيل الأوطار ٥/ ٣٨٨.

(٥) أى لا تجمعى فى الوعاء وتبخلى فى النفقة؛ لكى لا يمنع الله عنك الرزق والعطاء

(٦) البخارى فى الهبة، باب هبة المرأة لغير زوجها... ٥/ ٢٥٧ (٢٥٩٠).

وفى رواية أخرى عنها، أن رسول الله ﷺ قال لها: «أنفقى، ولا تحصى فيحصى الله عليك[١].. »[٢]، وقال لها: «ارضخى ما استطعت»[٣].

إن أسماء رضىَ الله عنها لم يكن لها إلا ما أدخل عليها زوجها الزبير، وهى كريمة الطبع، سخية النفس، لا ترد السائل ولا تمنع الفقير، ولكنها خشيت أن تأثم إن هى تصدقت من مال زوجها دون علمه أو استئذانه، فسألت النبى ﷺ، فأعلمها بأنه يجوز لها أن تنفق بلا إسراف أو اكتناز، وهكذا أصبح الأمر حكمًا وحدًا تتصرف على أساسه المرأة المسلمة فى بيت زوجها وماله.

وماذا كان من أسماء بعد توجيه النبى ﷺ لها، لقد سمعت وأطاعت حتى: «إنها لم تحص شيئًا بعد ما سمعت رسول الله ﷺ مما دخل عليها أو خرج من عندها»[٤]، وهكذا ينبغى أن تكون المسلمة ملتزمة بدينها، مطيعة لله ولرسوله، متحرية الحلال والحرام، حريصة على البذل والنفقة فى سبيل الله.

علمها بالطب:

فقد كانت رضى الله عنها إذا أُتيت بالمرأة قد حُمَّتْ تدعو لها، وتأخذ الماء فتصبه بينها وبين جَيْبها، وتقول: كان رسول الله ﷺ يأمرنا أن نبردها بالماء[٥].

إن تصرف أسماء رضى الله عنها يدل على ملازمتها لبيت النبوة وقربها منه، وتعلمها من سنة النبى ﷺ الكثير، وكذلك أخذها عن أختها عائشة فى علم الطب ومداواتها للنبى ﷺ، والمسلمة إزاء هذا لا يفوتها أن تتعلم الإسعافات الأولية وبعض الشىء الذى ترفع به الحرج عن أولادها وأهل بيتها.

---

(١) الإحصاء: معرفة قدر الشىء وزنا أو عددًا، والمعنى: النهى عن منع الصدقة خشية النفاد، فإن ذلك أعظم الأسباب لقطع مادة البركة؛ لأن الله يثيب على العطاء بغير حساب.. فتح البارى ٣/ ٣٥٢.

(٢) البخارى فى الهبة، باب هبة المرأة لغير زوجها ٥/ ٢٥٧ (٢٥٩١).

(٣) البخارى فى الزكاة، باب الصدقة فيما استطاع ٣/ ٣٥٣ (١٤٣٤)، والمعنى: أنفقى بغير إجحاف ما دمت قادرة مستطيعة. فتح البارى ٣/ ٣٥٣.

(٤) أحمد ٦/ ٣٥٢.

(٥) البخارى فى الطب، باب الحمى من فيح جهنم ١٠/ ١٨٤ (٥٧٢٤)، ومسلم فى السلام، باب لكل داء دواء ١٤/ ١٩٦ (٢٢١١).

تعبيرها للرؤيا:

ومن علمها رضى الله عنها أنها كانت من أكثر النساء تعبيراً للرؤيا، أخذت ذلك عن أبيها، وأخذ ذلك عنها سعيد بن المسيب. قال ابن سعد عن محمد بن عمر: وكان سعيد بن المسيب من أعبْر الناس للرؤيا، وكان أخذ ذلك عن أسماء بنت أبى بكر، وأخذته أسماء عن أبيها أبى بكر(١). وكذا قال الواقدى(٢).

فصاحتها:

لقد كانت رضى الله عنها حاضرة القلب، فصيحة اللسان، منطلقة البيان، تمتعت بالحكمة وفصل الخطاب، انظر إلى محاورتها للحجاج بن يوسف، ووصيتها لابنها عبد الله بن الزبير، وانظر إلى ما قرضته من شعر ورثاء لزوجها الفارس البطل، وكان قَتَله عمرو بن جرموز المجاشعى بوادى السباع(٣) وهو منصرف من وقعة الجمل، بعد أن اعتزل الفتنة والقتال، قالت:

غَدَر ابن جُرْمُوز فارس بُهمَةٍ ... يَومَ الهيَاج وكان غَيْرَ مُعَرِّدِ(٤)
يا عمرو لو نَبَّهْتَه لوَجَدْتَه ... لا طائشًا رَعِشَ الجَنَانِ ولا اليد
ثكلتك أمك إن قَتَلْتَ لَمُسْلِمًا ... حَلَّت عليك عُقُوبة المُتَعَمِّد(٥)

ولعل آخر أبيات من الشعر قالتها أسماء رضى الله عنها ما رثت به ابنها عبد الله بن الزبير بعد مقتله:

ليس لله مَحْرَمٌ بعد قوم ... قُتلوا بين زمزم والمقامْ
قتلتهم جفاةُ عكٍ ولخم ... وصُداءٌ وحميرٌ وجُذامْ(٦)

---

(١) ابن سعد ٥/ ١٢٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٩٣.

(٣) وادى السِّباع: بطريق الرَّقَّة على بعد خمسة أميال من البصرة.

(٤) البُهمة: بالضم: الشجاع، وقيل: الفارس الذى لا يُدرى من أين يُؤتى لشدة بأسه، وعَرَّدَ الرجل عن قرنه، إذا أحجم ونكل، والتعريد: الفرار.

(٥) العقد الفريد لابن عبد ربه ٢/ ٤٣١، ٤٣٢، وتروى هذه الأبيات لعاتكة بنت زيد زوج الزبير.

(٦) أعلام النساء ١/ ٤٩.

روايتها للحديث:

تعد رضى الله عنها من المكثرات فى الرواية عن رسول الله ﷺ، وليس ذلك بغريب عليها وهى بنت الصديق وأخت عائشة وزوجة حوارى رسول الله ﷺ وأم عبد الله بن الزبير.

قال أهل الحديث: روت أسماء عن النبى ﷺ ستة وخمسين حديثًا، وقيل: ثمانية وخمسين، اتفق البخارى ومسلم على أربعة عشر حديثًا، وانفرد البخارى بأربعة ومسلم بمثلها[1].

حدث عنها: ابناها عبد الله، وعروة، وحفيدها عبد الله بن عروة، وحفيده عباد بن عبد الله، وابن عباس، وأبو واقد الليثى، وصفية بنت شيبة، ومحمد بن المنكدر، ووهب بن كيسان، وأبو نوفل معاوية بن أبى عقرب، والمطلب بن عبد الله بن حنطب، وفاطمة بنت المنذر بن الزبير، ومولاها عبد الله بن كيسان، وابن أبى مليكة، ونافلتها[2] عبَّادُ بن حمزة بن عبد الله بن الزبير، وعدة[3].

***

(١) سير أعلام النبلاء ٢/٢٩٦.

(٢) النافلة: ولد الولد، وعبّاد: هو ابن ابن ابنها.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/٢٨٨.

وفاتها

آخر المهاجرات وفاة:

عاشت أسماء رضى الله عنها حتى امتدت بها الحياة، وأكثر الروايات على أنها بلغت مائة سنة، قال هشام بن عروة عن أبيه: بلغت أسماء مائة سنة لم يسقط لها سن ولم يُنكر لها عقل[1]، وقال الذهبى: آخر المهاجرات وفاة، وعمّرت دهرًا، وكانت أسن من عائشة ببضع عشرة سنة، وقيل: لم يسقط لها سن[2].

وقال ابن سعد: ماتت أسماء بنت أبى بكر بعد قتل ابنها عبد الله بن الزبير بليال، وكان قتله يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين[3].

ولقد كانت رضى الله عنها فى آخر أيامها عجوزًا مكفوفة، لا تنال منها الأحداث، ولا يذهب صبرها أمام المحن، روى ابن سعد عن ابن الربيع قال: دخلت على أسماء بنت أبى بكر وهى عجوز كبيرة عمياء، فوجدتها تصلى وعندها إنسان يلقنها: قومى، اقعدى، افعلى[4].

ولقد كان الصحابة رضى الله عنهم يعرفون لها قدرها ومكانتها، قال مصعب ابن سعد: فرض عمر الأعطية، ففرض لأسماء بنت أبى بكر ألف درهم[5].

وصيتها:

وكانت وصية أسماء رضى الله عنها قبل الموت قولها: إذا أنا مت فاغسلونى وكفنونى وحنطونى، ولا تذروا على كفنى حنوطًا ولا تتبعونى بنار[6]؛ وفى رواية قالت: جمروا ثيابى وحنطونى، ولا تحنطونى فوق أكفانى[7].

وهكذا انتهت حياة أسماء رضى الله عنها وتركت وراءها دروسًا خالدة فى صدق الإيمان، والجهاد والتضحية؛ لتكون نموذجًا يُحتذى ونبراسًا يستضاء به، ومثالاً حيًا ناطقًا تحرص على التأسى به كل مسلمة صادقة.

---

(١) الإصابة ٤/ ٢٣٠، وتهذيب التهذيب ١٢/٣٩٧، وانظر: الأعلام للزركلى ١/٣٠٥.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢/٢٨٨.
(٣) ابن سعد ٨/٢٥٥، وتاريخ خليفة، ص٢٦٩، والعبر ١/ ٦٠.
(٤) ابن سعد ٨/٢٥٢، وسير أعلام النبلاء ٢/٢٩٢.
(٥) ابن سعد ٨/٢٥٣. (٦، ٧) ابن سعد ٨/ ٢٥٤.

فضائل أسماء رضى الله عنها

لقد جمعت أسماء رضى الله عنها المجد من أطرافه كلها، فأبوها صحابى، وجدها صحابى، وأخوها صحابى، وزوجها صحابى، وابنها صحابى، قال الذهبى: هى، وأبوها، وجدها، وابنها ابن الزبير أربعتهم صحابيون[١]، وحسبها رضى الله عنها بذلك شرفًا وفخرًا.

وقد اجتمع لها رضى الله عنها مع ذلك سبقها إلى الإسلام، إذ لم يتقدم عليها فى هذا الفضل العظيم غير سبعة عشر نفسًا من رجل أو امرأة.

ومن فضلها رضى الله عنها أنها كانت عالمة فقيهة -كما مر بنا- يُرجع إليها فى السؤال والفتيا[٢].

ذات النطاقين:

ولقد اشتهرت رضى الله عنها بهذا اللقب حتى صار مفخرة لها ولبنيها إلى الأبد، وزادًا لها عند الحساب، وكلما ذُكرت هجرة النبى ﷺ ذُكرت معها أسماء بمواقفها التى تستبد بالإعجاب، وتنضح بالفطنة والذكاء، وصدق الإيمان بالله والثقة به.

لقد كانت رضى الله عنها بما قدمت من تضحيات وفداء علمًا بارزًا بين النساء، وكان لقبها هذا وسامًا لها فى العالمين، ولما عيّر جند الشام -بدافع جهلهم وحماقتهم- ابنها عبد الله بن الزبير بلقب أمه، وكانوا ينادونه به، قالت له: يا بنى إنهم يعيرونَكَ بالنطاقين، وهل تدرى ما كان النطاقان؟ إنما نطاقى شَقَقْتُهُ نصفَين، فأوكيْتُ[٣] قِرْبَةَ رسول الله ﷺ بأحدهما وجَعَلْتُ فى سُفْرَتِهِ آخَرَ.

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٨٨، والأعلام للزركلى ١/ ٣٠٥.

(٢) أعلام الموقعين لابن القيم ١/ ١١.

(٣) أوكيت الوعاء: إذا شددته.

قال: فكان أهـل الشام[١] إذا عـيروه بالنطـاقين يقول: إيهًـا[٢] والإله[٣] تلك شكاة[٤] ظاهر عنك عارها[٥].

سخاء وجود:

ولقد اجـتمع لأسمـاء رضى الله عنها من خـصائل الخيـر والفضل، وشـمائل النبل، ما لم يجتمع إلا للقليل النادر من الرجال.

فقد كانت من الجود بحيث يُضرب بجودها المثل، حدث ابنها عبد الله قال: ما رأيت امرأة قط أجود من عائشة وأسماء، وجـودهما مختلف: أما عائشة، فكانت تجمع الشىء إلى الشىء، حتى إذا اجـتمع عندها وضعته مواضعـه، وأما أسماء، فكانت لا تدخر شيئًا لغد[٦].

وعن محـمد بن المنكدر، قال: كانت أسـماء بنت أبى بكر سخـية النفس[٧]. وتحكى فاطمة بنت المنذر عن جدتها أسماء، فـتقول: كانت تمرض المرضة، فتعتق كل مملوك لها[٨]، وكأنها كانت تتـمثل قول النبى ﷺ: «حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة»[٩].

ولقد كـانت رضى الله عنهـا تربى أولادها وأحفـادها على هذا الخلق الكريم، فكانت توصيهن بقولها: أنفقوا أو أنفقن، وتصدقن ولا تنتظرن الفضل، فإنكن إن انتظرتن الفضل لم تفضلن شيئًا، وإن تصدقتن لم تجدن فقده[١٠].

(١) المراد بأهل الشـام: عسكر الحجـاج بن يوسف حيث كـانوا يقاتلونه من قـبل عبد المـلك بن مروان، أو عسكر الحصين بن نمير الذين قاتلوه قبل ذلك من قبل يزيد بن معاوية، فتح البارى ٩/ ٤٤٣.

(٢) أيهًا: زجـر، ونهى (إيه) بمعنى الاستـزادة، فكأنه قال: زيدونى من قـولكم هذا، فإنه مما يزيدنى فـخرًا وشرفًا، أو أنه زجر عما بنوا عليه قولهم من إرادة عيبه، فقال: كفوا عن جهلكم.

(٣) الإله: قسم، أى: والله إن الأمر كما تزعمون، أو أنه اسـتعطاف، كما تقول: بالله أخبرنى، لما تريد أن تستعلمه منه.

(٤) الشكاة: الذم والعيب.

(٥) ظاهر عنك عارها: بعيد عنك مجاوز لك، والبيت لأبى ذؤيب الهذلى، وأوله:

وعيّرها الواشون أنى أحبُّها ... وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

والحديث رواه البخارى فى الأطعمة، باب الخبز المرقق والأكل على الخوان والسُّفْرة ٩/ ٤٤٠ (٥٣٨٨).

(٦) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٩٢ ورجاله ثقات.

(٧، ٨) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٩٢، وابن سعد ٨/ ٢٥٢.

(٩) رواه أبو داود فى المراسيل، ص١٢٧، ١٢٨ (١٠٥).

(١٠) ابن سعد ٨/ ٢٥٢، والمعنى: أن المرء إذا انتظر أن يزيد ماله، فسوف ينتظر طويلاً؛ لأنه لن يزيد عنده=

شجاعتها:

فقد كانت رضى الله عنها جريئة فى الحق صاحبة قلب جسور، لا تهاب الباطل ولا تخشى فى الله لومة لائم، ولا أدل على ذلك من مواقفها فى الهجرة المباركة... وموقفها فى مواجهة الظالمين، وفى تثبيت ولدها عبد الله بن الزبير، يقول ابن الأثير: وخبرها مع ابنها لما استشارها فى قبول الأمان لما حصره الحجاج يدل على عقل كبير، ودين متين، وقلب صبور قوى على احتمال الشدائد(١).

ولما ساءت الأحوال، وكثر اللصوص بالمدينة زمن سعيد بن العاص، اتخذت أسماء رضى الله عنها خنجرًا، كانت تجعله تحت رأسها(٢)، زاد الحاكم: فقيل لها: ما تصنعين بهذا؟ قالت: إن دخل علىّ لص بعجت بطنه(٣).

المجاهدة:

شهدت أسماء رضى الله عنها معركة اليرموك، تلك المعركة التى انتصر فيها الإسلام، وحضرها عدد من الصحابة كان من أبرزهم الزبير بن العوام وكانت معه زوجه أسماء، فعن أبى واقد صاحب رسول الله ﷺ قال: وكانت أسماء بنت أبى بكر مع الزبير فى خبائها، فسمعتها تقول للزبير: إن كان الرجل من العدو ليمر يسعى فتصيب قدميه عروة أطناب خبائى فيسقط على وجهه ميتًا ما أصابه السلاح(٤).

وهكذا كانت المسلمة الأولى تخرج فى رفقة زوجها للجهاد فى سبيل الله التماسًا لطاعة الله وطلبًا لمرضاته، ونصرة لدينه وإعلاء كلمته.

العابدة:

ولقد كانت أسماء رضى الله عنها قدوة فى العبادة والاستقامة، والتقوى والورع، والخوف من الله عز وجل، فعن عروة عن أبيه قال: دخلت على أسماء

= شىء، فنفس الإنسان جُبلت على الشح، أما إذا تصدق من صُلب ماله ولم ينتظر أن يزيد لديه شىء، فإنه لن يشعر بما تصدق، فكأنه مما يصرفه فى يومه على مأكله ومشربه، والفضل هو الزيادة.

(١) أسد الغابة ٧/ ١٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٩٣، وابن سعد ٨/ ٢٥٣.

(٣) الحاكم فى المستدرك ٤/ ٦٤.

(٤) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء)، ص٥.

وهى تصلى فسمعتها وهى تقرأ هذه الآية: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧] فاستعاذت، فقمت وهى تستعيذ، فلما طال علىَّ، أتيت السوق ثم رجعت وهى فى بكائها تستعيذ(١).

لقد كانت رضى الله عنها يمتلكها خشية وخوف ووجل، وكانت تتمتع بقلب حى نابض رقيق، وتتدفق من عينيها الدموع الغزيرة بمجرد تلاوة آيات القرآن، وتضطرب أوصالها بمجرد التذكير بأهوال الآخرة، وهكذا تكون المسلمة رقيقة القلب، مبتعدة عن الذنب، تستعيذ بالله من نار جهنم، تدعو بدعاء أختها عائشة أم المؤمنين: اللهم مُنَّ علينا وقنا عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم(٢).

ومع نقاء سريرتها رضى الله عنها واتصال قلبها بالله، فإنها كانت ترى التقصير فى نفسها، فعن ابن أبى مليكة قال: كانت أسماء تصدع، فتضع يدها على رأسها وتقول: بذنبى وما يغفره الله أكثر(٣).

دعاء النبى ﷺ لها:

ولقد حظيت رضى الله عنها من النبى ﷺ بدعاء طيب مبارك، حين أصابها ورم فى رأسها ووجهها، فبعثت لأختها عائشة بنت أبى بكر، أن اذكرى وَجَعى لرسول الله ﷺ لعل ذلك يشفينى، فذكرت عائشة لرسول الله ﷺ وجع أسماء، فانطلق رسول الله ﷺ حتى دخل على أسماء، فوضع يده على وجهها ورأسها من فوق الثياب فقال: «بسم الله، أذهب عنها سُوءَهُ وفُحشَه بدعوة نبيك الطيب المبارك المكين عندك.. بسم الله» صنع النبى ﷺ ذلك ثلاث مرات، فأمرها أن تقول ذلك، فقالت ثلاثة أيام، فذهب الورم(٤).

وفى رواية أنه رضى الله عنها أصابها ورم فى عنقها، فجعل النبى ﷺ يمسحها ويقول: «اللهم عافها من فحشه وأذاه»(٥).

---

(١) أبو نعيم فى حلية الأولياء ٢/ ٥٥.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٤٨.

(٣) ابن سعد ٨/ ٢٥١، والإصابة ٤/ ٢٣٠، وقال ابن حجر: أخرجه ابن سعد بسند حسن.

(٤) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص١٤، ومختصر تاريخ دمشق ٥/ ١٣٩، ١٤٠، والبيهقى فى دلائل النبوة ٦/ ١٨١، ١٨٢.

(٥) ابن سعد ٨/ ٢٥١.

أم سليم بنت ملحان
رضى الله عنها
(٥)

نَسَبُها

أم سليم بنت ملحان(١):

أما أبوها: فهو ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم ابن عدى بن النجار الأنصارى الخزرجى.

وأما أمها: فمليكة بنت مالك بن عدى بن زيد مناة بن عدى بن عمرو بن مالك ابن النجار.

وأخوها: حرام بن ملحان أحد القراء السبعين الذين غدر بهم المشركون فى بئر معونة، وطعن يومها ومات شهيدًا فى سبيل الله(٢)، وأخوها كذلك: سُليم شهد بدرًا وأحُدًا ويوم بئر معونة، وقتل يومئذ شهيدًا..(٣).

وأختها: أم حرام بنت ملحان، زوج عبادة بن الصامت، التى أخبرها النبى ﷺ أن من أمته أناسًا يركبون البحر مجاهدين فى سبيل الله كالملوك على الأسرة، فقالت: ادع الله أن يجعلنى منهم، فقال: «أنت منهم»(٤)، وحقق الله عز وجل نبوءة رسول الله ﷺ فاستشهدت زمن معاوية، وكانت فى صحبة زوجها.

(١) طبقات ابن سعد ٤٢٤-٤٣٥، والإصابة لابن حجر ٤/ ٤٦١، ٤٦٢، وأسد الغابة لابن الأثير ٥/ ٥٩١، وسير أعلام النبلاء للذهبى ٢/ ٣٠٤-٣٠٧، والمسند لأحمد ٦/ ٣٧٦، ٣٧٧، ٤٣٠، ٤٣١، والفتح الربانى ٢٢/ ٤٢٣-٣٠٧، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٤٧١، ٤٧٢، وحلية الأولياء لأبى نعيم ٢/ ٥٧-٦١، وأعلام النساء ٢/ ٢٥٦، ٢٥٧، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٦٣، وتحفة الأشراف ١٣/ ٨٢-٨٦، وجمهرة أنساب العرب، ص٣٥١، والثقات ٣/ ٤٦١، وتلقيح فهوم أهل الأثر، ص٣٢٢، والمعارف ص٢٧١، ٣٠٨، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٢٧٠(٣٢٤٤)، والمقتنى فى سرد الكنى ٢/ ١٧٠ (٦٩٧٣)، وتذكرة الحفاظ ١/ ٤٧، والمنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ٤/ ٢١٦- ٢١٨ (١٨٧)، وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال ٣/ ٤٠٠، وتقريب التهذيب ٢/ ٦٢٢، والمغنى ،ص٣٠٠، والتاريخ الصغير، ص٦٢، والطبقات لمسلم ١/ ٢١٢(٥٢٩)، ومقدمة مسند بقى بن مخلد ،ص٩٤(١٥٨) والرياض المستطابة، ص٣٢٦، وطبقات خليفة ،ص٣٣٩، والمعين فى طبقات المحدثين، ص٣١ (١٨٠)، والإخوة والأخوات، ص١٦٧.

(٢) انظر: البخارى فى المغازى ٧/ ٤٤٥ (٤٠٩١، ٤٠٩٢).

(٣) انظر ترجمتهما فى طبقات ابن سعد ٣/ ٥١٤-٥١٦.

(٤) انظر: البخارى فى الجهاد والسير، باب غزو المرأة فى البحر ٦/ ٨٩، ٩٠(٢٨٧٧، ٢٨٧٨).

وأم سليم رضى الله عنها هى أم أنس بن مالك خادم النبى ﷺ والبراء بن مالك.. اشتهرت رضى الله عنها بكنيتها، واختلف فى اسمها، فقيل: سهلة، وقيل: رميلة، وقيل: رميثة، وقيل: مليكة، وقيل: الغميصاء.

ولقد حباها الله عز وجل بصلة قرابة من النبى ﷺ، فقد كان بنو النجار أخوال أبيه، فهى غصن ناضر من شجرة طيبة المنبت، نامية الفروع، مباركة الثمار.

إسلامها:

أسلمت رضى الله عنها مع السابقين إلى الإسلام من الأنصار، حيث وجدت فى هذا الدين العظيم ضالتها المنشودة، فتفتح قلبها للإسلام كما تتفتح أزاهير الرياض لتباشير الصباح، فما لبثت رضى الله عنها أن أعلنت إسلامها رغبة لا رهبة، يوم كان المسلمون قلة فى المدينة، لقد آمنت بالله عز وجل وبايعت على مرضاته، وغدت إنسانًا أخر تفهم ما يعنيه إسلامها، وتدرك ثقل الأمانة، وتستشعر المسؤولية تجاه ربها عز وجل.

يروى لنا ابن سعد فى طبقات قصة إسلامها، فيقول: حدثنا همام عن إسحاق ابن عبد الله عن جدته أم سليم أنها آمنت برسول الله ﷺ، قالت: فجاء أبو أنس وكان غائبًا فقال: أصبوت؟ قالت: ما صبوت ولكنى آمنت بهذا الرجل. قالت: فجعلت تلقن أنسًا وتشير إليه، قل: لا إله إلا الله، قل: أشهد أن محمدًا رسول الله، قال: ففعل، قال: فيقول لها أبوه: لا تفسدى علىّ ابنى، فتقول: إنى لا أفسده، قال: فخرج مالك أبو أنس، فلقيه عدو فقتله، فلما بلغها قتله، قالت: لا جرم لا أفطم أنسًا حتى يدع الثدى حيًا ولا أتزوج حتى يأمرنى أنس، فيقول: قد قضت الذى عليها..[1].

لقد قامت رضى الله عنها بواجبها نحو زوجها كمؤمنة تريد نشر دعوة الله عز وجل، وكزوجة تحب الخير لزوجها، فدعته إلى الإسلام، وحاولت جاهدة أن تقنعه وتخلصه من ضلالة الجاهلية وسخفها، إلا أنه أبى عليها، ثم خرج عنها

(١) طبقات ابن سعد ٨ / ٤٢٥، ٤٢٦.

ومات علـى كفره، وبقـيت رضى الله عنها عـلى إيمانها وحـسن صلتهـا بالله عز وجل، ثم هى لا تأسى عليه وقد مات على الكفر بعد أن قامت بواجبها نحوه.

ثم قامت بواجبـها نحو ابنها أنس رضى الله عنه تربيـة وإعدادًا ورعاية، وهكذا يكون دور الأم فى تربية أولادها وتنشئتهم التنشئة الصالحة، وتلقينهم أسس العقيدة فإن الصغير يقبل من أمه ما لا يقبله من غيرها.

إن أم سليم رضى الله عنها لتضع أمام مسلمـة اليوم واحدة من مسؤوليات الأم فى البيت: مـسؤولية التـربية والنصح والتوجـيه، فهـا هى رضى الله عنها لا تؤثر عاطفتها على مسؤوليتها، ولا تنسى واجبها نحو وليدها، تقول أم سليم رضى الله عنها: لا أفطم أنسًا حتى يدع الثدى حيّاً ولا أتزوج حتى يأمرنى أنس، فيقول: قد قضت الـذى عليهـا، وفى رواية: لا أتزوج حتى يبلغ أنس ويجلس فـى المجالس فيقول: جزى الله أمى عنى خيرًا قد أحسنت ولايتى(١).

هذه هى الرعاية الطيبة للطفل ومتابعة نموه، ترضـعه حتى يشبع، وينشأ صحيح البنية، قوى الجسم، مكتمل النمو، ثم ترعى نفـسه وعقله، وتلقنه عقيدته، وتقوم سلوكـه وخلقه، ثم بعـد ذلك تسلمه إلـى النبى ﷺ إلى أعظم محـضن للتربـية وتقويم السلوك وحسن المعاشـرة، جاءت أم سليم إلى النبى ﷺ وقالت: يا رسول الله هذا أنس يخدمك(٢)، وكان حينئذ ابن عشـر سنين، فخدم النبى ﷺ منذ قدم المدينة حتى مات، فاشتهر بخادم النبى ﷺ.

وهكذا نشأ أنس رضى الله عنه على خير ما تريد أمه، فى صحبة النبى ﷺ.

***

(١) ابن سعد ٨/٤٢٦، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٣٠٥.

(٢) مسلم فى الفضائل، باب فضائل أنس بن مالك ١٦/ ٤٠ (٢٤٨١).

الزوجة

زواج فريد

ما إن شاع فى المدينة خبر ترملها حتى تشوق كثير من الرجال إلى التقدم لخطبتها، فجاء أبو طلحة زيد بن سهل ليخطب أم سليم فأبت عليه أول الأمر حتى كبر ابنها أنس، وعندما بلغ وعلمت أنها أدت واجبها نحوه، عند ذلك قبلت أن تنظر فى أمر زواجها، فجاء أبو طلحة ثانية وكان لا يزال على شركه، فرفضت الزواج منه وأراد أن يعرف السبب، فقالت: والله ما مثلك يرد يا أبا طلحة، ولكنك رجل كافر وأنا امرأة مسلمة، ولا يحل لى أن أتزوجك، فإن تسلم فذلك مهرى ولا أريد منك صداقًا غير الإسلام، فقال: دعينى حتى أنظر فى أمرى.. ومضى.

ولما كان الغد عاد إليها، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فقالت: أما وأنك قد أسلمت فقد رضيتك زوجًا، فجعل الناس يقولون: ما سمعنا بامرأة قط كانت أكرم مهرًا من أم سليم إذ كان مهرها الإسلام(١).

وفى رواية قالت له: يا أبا طلحة ألست تعلم أن إلهك الذى تعبد إنما هو شجرة تنبت من الأرض، وإنما نجرها حبشى بنى فلان؟ قال: بلى. قالت: أما تستحى تسجد لخشبة تنبت من الأرض نجرها حبشى بنى فلان؟ قالت: فهل لك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وأزوجك نفسى لا أريد منك صداقًا غيره؟ قال لها: دعينى حتى أنظر. قالت: فذهب فنظر ثم جاء فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. قالت: يا أنس قم فزوج أبا طلحة(٢).

---

(١) النسائى فى النكاح، باب التزويج على الإسلام، ص٥٦٤ (٣٣٤٠، ٣٣٤١).

(٢) ابن سعد فى طبقاته ٨/ ٤٢٧، وابن الأثير فى أسد الغابة ٥/ ٥٩١، وابن حجر فى الإصابة ٤/ ٤٦١، وقال: ولهذا الحديث طرق متعددة.

أكرم مهر:

بهذه الكلمات الحية النابضة بالإيمان كان رد أم سليم على أبى طلحة، تسن به سنة حسنة لمن بعدها من المسلمين والمسلمات، فها هى رضى الله عنها يتقدم إليها شاب من خيرة شباب المدينة فتوة وثراء وقوة، وكان مهوى أفئدة فتيات يثرب بماله وشبابه وقوته، فقد كان أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل(١)، ولكن لم يشغلها هذا المال مهما كثر، ولم يغرها ثروة من تقدم إليها مهما تنوعت؛ لأن ذلك كله شئ تافه وعرض زائل، ووقفت رضى الله عنها فى شموخ المؤمنات الصادقات العزيزات العفيفات وهى تقول لأبى طلحة: لم أكن أتزوجك وأنت مشرك، قال: لا والله ما هذا دهرك - أى إرادتك - قالت: فما دهرى؟ قال: دهرك فى الصفراء والبيضاء - الذهب والفضة - قالت: فإنى أشهدك وأشهد نبى الله أنك إن أسلمت فقد رضيت بالإسلام منك...(٢).

فكان مهرها أعظم مهر أخذته امرأة مسلمة: إسلام أبى طلحة رضى الله عنه، ولقد كان مهرها غاليًا حقا؛ لأنها لم تظفر بالزوج الكريم الكفء فحسب، بل ظفرت بثواب من الله عظيم، يفوت ما فى الدنيا من امتلاك حمر النعم، كما قال رسول الله ﷺ: «لأن يهدى الله بك رجلاً خيرٌ من أن يكون لك حُمْرُ النعم» (٣).

وكم كانت فرحة أم سليم عظيمة بإسلام أبى طلحة، وهى تقول لابنها أنس: قم يا أنس فزوج أبا طلحة.. إذ نجحت أعظم نجاح فى تبليغها دعوة الله باحتكامها إلى ميزان الإسلام..

وكم كان اختيارها رضى الله عنها موفقًا، إذ صار زوجها من أصحاب النبى ﷺ المبرزين، ومن الأبطال المغاوير، والباذلين بسخاء فى سبيل الله.

---

(١) البخارى فى الأشربة، باب استعذاب الماء ١٠/ ٧٦(٥٦١١)، ومسلم فى الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج ٧/ ٨٤ (٩٩٨).

(٢) البزار عن أنس، وقال الهيثمى فى المجمع ٩/ ٢٦١: ورجاله رجال الصحيح غير أحمد بن منصور الرمادى وهو ثقة، ورواه أبو نعيم فى الحلية ٢/ ٥٩، ٦٠: وأورده الكاندهلوى فى حياة الصحابة ٢/ ٥٨٩، ٥٩٠.

(٣) البخارى فى المغازى، باب غزوة خيبر ٧/ ٥٤٤ (٤٢١٠) عن سهل بن سعد رضى الله عنه.

إن من طبيعة المرأة أن تتباهى بما قدم لها من مهر وما بُذل لها من مال، لكن أم سليم رضى الله عنها من طراز خاص، تضع تقليدًا جديدًا، فأصبحت القرون فيما بعد تباهى بها وبعظمة موقفها، وهل هناك أعظم من هذه المرأة التى لم يهز وجدانها الذهب والفضة والمغريات، وإنما ارتفعت إلى مستوى ما آمنت به.

بمثل هذه المرأة الصالحة تقتدى المرأة المسلمة، وعن مثلها تأخذ نقاء الإيمان، وقوة الشخصية، ونبل المقصد، وسلامة الاعتقاد، وحسن الاختيار.

***

الأم

عاشت أم سليم رضى الله عنها مع زوجها أبى طلحة حياة طيبة، وكانت نِعْمَ الزوجة لزوجها، تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، وتحفظه إذا غاب، ونَعِمَ أبو طلحة بما كانت تتحلى به أم سليم من الصفات الطيبة والخصال الحميدة، ثم زاد من سعادتهما أن وهبها الله عز وجل غلامًا صبيحًا أحبه أبو طلحة حبًا شديدًا، وكنوه (أبا عمير)، وكان النبى ﷺ يمازحه إذا زار أم سليم، يقول أنس رضى الله عنه: كان النبى ﷺ أحسن الناس خلقًا، وكان لى أخ يقال له أبو عمير - قال: أحسب فطيمًا[١] - وكان إذا جاء قال: «يا أبا عمير ما فعل النُّغَير[٢]؟ نُغَرٌ كان يلعب به...»[٣].

صبر واحتساب:

وشاء الله عز وجل أن يمتحن الزوجين امتحانًا صعبًا فى فلذة كبديهما وثمرة حبهما، فصبرا واحتسبا، وتركت أم سليم مأثرة عظيمة تظل تذكر لها فى سجل الخالدات.. فلقد فجعت فى ابنها، وكان زوجها مسافرًا، فكان لها هذا الموقف الفريد، ولنستمع إلى ابنها أنس رضى الله عنه يحكى قصة أمه وموقفها العظيم.

قال رضى الله عنه: مات ابن لأبى طلحة من أم سليم، فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه. قال: فجاء، فقربت إليه عشاءً، فأكل وشرب، فقال: ثم تَصَنَّعَتُ به أحْسَنَ ما كان تصنع قبل ذلك، فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها، قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت، فطلبوا عاريتهم[٤] أَلَهُمْ أن يمنعوهم؟ قال: لا، قالت: فاحتسب ابنك. قال: فغضب، وقال: تركتنى حتى تلطخت، ثم أخبرتنى بابنى،

(١) الفطيم: المفطوم الذى انتهى إرضاعه.

(٢) النُّغَير: طير صغير، واحده نغرة وجمعه نغران.

(٣) البخارى فى الأدب، باب الكنية للصبى ١٠/٥٩٨ (٦٢٠٣)، وانظر: معجم الشيوخ للذهبى ٢/٣٠١.

(٤) قال النووى: وضربها المثل العارية دليل لكمال علمها وفضلها وعظم إيمانها وطمأنينتها. صحيح مسلم بشرح النووى ١٦/١١.

فانطلق حتى أتى رسـول الله ﷺ فأخبره بما كان، فـقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لكما في غابر لَيْلَتكُما». قال: فحملت، قـال: فكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معه، وكـان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر لا يطرقـها طروقًا[١] فدنوا من المدينة، فضـربها المخاض[٢] فاحـتبس عليـها أبو طلحـة وانطلق رسول الله ﷺ، قـال: يقول أبو طلحـة: إنك لتعلـم يارب أنه يعجـبنى أن أخرج مع رسـولك إذا خرج، وأدخل معـه إذا دخل، وقد احتبستُ بما ترى، قـال: تقول أم سليم: يا أبا طلحة ما أجد الذى كنت أجد[٣]، انطلق، فانطلقنا، قال: وضـربها المخاض حين قدما، فولدت غلامًا، فقـالت لى أمى: يا أنس لا يرضعه أحد حتى تغدو به على رسول الله ﷺ، فـلما أصـبح احتـملته، فـانطلقت به إلى رسـول الله ﷺ قال: فصـادفته ومـعه مـيسم[٤]، فلما رآنى، قـال: لعل أم سليم ولدت، قلت: نعم، فوضع الميسم، قال: وجئت به فوضعته فى حجره، ودعا رسول الله ﷺ بعجوة من عجوة المدينة، فـلاكها فى فيـه حتى ذابت، ثم قذفها فى فى الصـبى، يتلمظها[٥] قال: فقـال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى حُبِّ الأنصار التـمر» قال: فمـسح وجهه وسماه عبد الله[٦].

لقد كانت أم سليم رضى الله عنها امرأة عظيمة حـقًا، حيث صبرت هذا الصبر القوى، وبدت أمام زوجها، وكأنها خالية من أى مصيبة، وهذا من جميل رعايتها لزوجهـا زوت عنه هذا الخبر المؤلم، وتلمسـت الأسلوب المناسب للدخول به إلى نفسـه، ومهدت لذلك، كيـلا يكون وقع هذا الخبر على نفسـه شديدًا، وهذا من حسن الـتأتى ورجاحـة العقل وذكـاء التصـرف الذى تحلت به أم سليم رضى الله عنها.

(١) لا يطرقها طروقًا: لا يأتيها ليلاً.
(٢) فضربها المخاض: أى أخذها الطلق ووجع الولادة.
(٣) تريد أن الطلق انجلى عنها وتأخرت الولادة.
(٤) ميسم: هى الآلة التى يُكوى بها الحيوان لعمل علامة تميزه.
(٥) يتلمظها: يتتبع بلسانه بقية التمرة فى فمه ويخرج لسانه فيمسح به شفتيه.
(٦) البخارى فى الجنائز، باب من لم يظهر حزنه عند المصيبـة ٣/ ٢٠١ (١٣٠١)، وفى العقيقة باب تسـمية المولود غداة يولد. .وتحنيكه ٩/ ٥٠١ (٥٤٧٠)، ومـسلم فى فضائل الصحابة، بـاب فضائل أم سليم أم أنس بن مالك ١٦/ ١١-١٣ (٢٤٥٧) واللفظ له.

إن أم سليم التقية الصابرة كانت تتمتع بإيمان راسخ قد خالط شغاف قلبها، فاستطاعت أن تكتم مشاعر الحزن على ابنها رغبة فيما عند الله تعالى من الأجر والثواب، وإنه لمرتقى صعب، لا تدركه إلا القلة النادرة من فضليات النساء.

(لله أنت يا أم سليم! ما أعظم إيمانك! وما أروع صبرك! وما أكبر فضلك! وما أحسن تجملك لزوجك وتوددك له! كيف استطعت أن تبتلعي مرارة حزنك على فلذة كبدك؟ وكيف تماسكت نفسُك الثكلى الولهى المُلوَّعةُ على الفقيد الحبيب، وأنت تقضين تلك اللحظات مع زوجك صابرة محتسبة، تبتغين بصبرك واحتسابك وحسن تبعلك زوجك مرضاة الله عز وجل؟! إنه الإيمان الحق الصادق العميق)[1].

(إن للإيمان دورًا أيما دور في زيادة القدرة على الاحتمال، ومواجهة المصائب بالرضا والصبر، إنها بعقيدتها واجهت مصيبتها، وقد بلغ إيمانها درجة جعلتها تحاور زوجها وتقنعه، وتعزيه وتُصبِّرُه، والعادة أن المرأة بما عُرف من طبعها أحوج إلى هذا؛ لأن عاطفتها أقوى، ومشاعرها أرق، وانفعالها أكثر، واحتمالها للمصائب أقل.

إن إيمانها بأن الله مالك الملك، له الأمر كله، يعطي ويمنع، يهب ويؤخر هو الذي هوَّن عليها مصيبتها ومكَّنها من احتمالها وتجاوزها، بل وتعزية زوجها.

حسن التبعل:

إن مشاعر أم سليم رضي الله عنها تجاه زوجها وحبها له، وصدق هذه المشاعر وهذه المحبة جعلها تتجاوز مجرد الصبر على المصيبة، وإنها والله لأشد المصائب أن تصاب المرأة بفلذة كبدها، وهي الأم الرؤوم الرقيقة الحانية لترتقي في مشاعرها إلى بعد آخر، وترتقي درجة أعلى في السمو الإنساني وهي تضيف إلى احتمالها لمصيبتها أن تكتمها - وهي المعروفة بالميل إلى التشكي والحزن والبكاء عند المصيبة- بل وأن تؤثر زوجها على نفسها فتتمكن من السيطرة على مشاعرها، وتجاوزها فتتزين لزوجها كأحسن ما كانت تتزين له!!

(١) شخصية المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة، د. محمد على الهاشمي، ص١٧٩.

يا إلهى، أهذه من البشر أم من الملائكة، إن الإسلام لا يكلفها ذلك، بل ويحترم مشاعرها ويأذن لها في الحزن والحداد، ولها حق المواساة والعزاء فى مصيبتها، لكنها تتجاوز هذا كله وتحقق خُلُقًا رفيعًا آخر فى إيثار زوجها على نفسها.

وإذا كانت مشاعر الزوجية عند أم سليم رضى الله عنها فى هذا المستوى من الإيثار بعد كظم الغيظ وكتم الأحزان، فكيف تكون هذه المشاعر فى وضعها الطبيعى؟

إننا ندرك هنا معنى حسن تبعل المرأة لزوجها الذى دعا إليه الإسلام، واعتبره أساسًا للحياة الزوجية والعلاقات الزوجية والمشاعر بين الزوجين.

ومن حسن تبلعها - أيضا - رضى الله عنها: تَصَنُّعها لزوجها وتجملها له، وهذا السلوك مع أن قدرًا منه فطرى عند المرأة إلا أن الإسلام يدعو إليه وينميه، ويأمر المرأة بأن تتزين لزوجها وأن تريه منها ما يسره، وهذا من حسن التبعل الذى دعا إليه الإسلام؛ لما فيه من تعميق لمعانى المحبة، وإشباع للحاجات الفطرية المشروعة..

الفطنة ورجاحة العقل:

ويتجلى لنا فى هذه القصة ذكاء أمِّ سُلَيْم وعقلها، وهى تطلب من أهل البيت ألا يخبروا أبا طلحة حتى تخبره هى؛ لأنها لو لم تتخذ هذه الخطوة الذكية لما استطاعت أن تحقق ما تريد، إذ لو أخبر أحد أبا طلحة لما بقى بوسعها أن تفعل شيئًا مما فعلت.

ويتأجج هذا الذكاء والحكمة وهى تجيب زوجها عندما سألها عن حال ولده فتقول: (هو أسكن ما كان)، وهذه تورية فى الكلام جعلت أبا طلحة يظن أن الولد بخير، وهى فى نفس الوقت صادقة فى الإخبار عن حال الولد، إذ هو بالموت فى أسكن حالة يمكن أن يكون عليها، وهذا يوقفنا على خُلُق إسلامى كريم، وهو الصدق وعدم الكذب «وأن فى المعاريض مندوحة عن الكذب»[1]، وفى الكناية غنى عن التصريح ،وفى التلميح ما يغنى عن التصريح..

---

(١) البخارى فى الأدب المفرد موقوفًا على عمران بن الحصين، ص٢٢٥(٨٨٥)، وقال ابن حجر فى الفتح ١٠/ ٦١٠ورجاله ثقات، وترجم به البخارى فى الصحيح كتاب الأدب، باب المعاريض مندوحة عن الكذب ١٠/٦٠٩.

فصاحة اللسان:

وقول أم سليم هذا يدل على فصاحتها، وحتى تكون المسلمة اليوم فصيحة ذات أدب وحسن مقال، لابد لها من تعلم العربية، والقراءة فى كتب الأدب والتراث، وخير معين على تقويم اللسان وفصاحته كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، تحفظ منهما ما تستطيع، وتكثر من التلاوة للقرآن والقراءة للسنة النبوية، وتعلم العربية اليوم إحياء للغة القرآن وهى من شعائر الإسلام.

وتبدو فصاحة أم سليم وحسن منطقها ورجاحة عقلها، وهى تحاور زوجها بقولها: أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم، فانطلقت من مقدمة بدهية لا يختلف فيها اثنان، حتى إذا أقرَّ معها بهذه المقدمة، انتقلت إلى النتيجة فأخبرته أن يحتسب ولده وأن يطلب ثوابه من الله..

وفى هذا درس لنا كى نحسن الدخول إلى من نناقشهم ونجادلهم، وهذا من الجدل بالتى هى أحسن، وللكلام والحوار ميزانه ومنطقه، وكلما كان منطقيًا وعلميًا ومرتبًا ومتدرجًا كان أقدر على تحقيق الغاية منه)[1].

واجب عملى:

استعدى أختى المسلمة لمجئ زوجك قبل حضوره بارتداء أحسن الثياب، وأعدى له الطعام الذى يحبه ويشتهيه، فإذا حضر فافتحى أنت له الباب بابتسامة رقيقة، وجميل منك أن تسمعيه: حمداً لله على سلامتك.. وإياك أختى المسلمة أن تقابليه بذكر المشاكل والمصائب بمجرد دخوله إليك..

فوائد جامعة:

يقول ابن حجر: وفى قصة أم سليم هذه من الفوائد: جواز الأخذ بالشدة وترك الرخصة مع القدرة عليها، والتسلية عن المصائب، وتزين المرأة لزوجها، وتعرضها لطلب الجماع منه، واجتهادها فى عمل مصالحه، ومشروعية المعاريض الموهمة إذا دعت الضرورة إليها، وشرط جوازها أن لا تبطل حقًا لمسلم، وكان الحامل لأم سليم على ذلك: المبالغة فى الصبر والتسليم لأمر الله تعالى، ورجاء إخلافه عليها

(١) الهدى النبوى للمرأة المسلمة، د. محمد عبد الله عويضة، ص٤٣-٤٥، بتصرف واختصار.

ما فـات منها، إذ لو أعلمت أبا طلحة بالأمـر فى أول الحال تنكد عليه وقـته، ولـم تبلغ الغـرض الذى أرادته، فلمـا علم الله صدق نيـتهـا بلغـها مناها وأصلح لهـا ذريتها، وفـيه: إجابة دعوة النبى ﷺ، وأن من ترك شـيئًا عوضـه الله خيراً منه، وبيان حال أم سليم من التجلد وجودة الرأى وقوة العزم(١).

ويقول الإمام النووى: وفيه: تحنيك المولود عند ولادته، وهو سنة بالإجماع(٢)، وفيـه: أن يحنكه صالح من رجل أو امرأة، وفيـه: التبرك بآثار الصـالحين وريقهم وكل شىء منهم، وفيه: كـون التحنيك بتمر وهو مسـتحب. . . وفيه: استـحباب التسـمية بعد الله، وفـيه: استحـباب تفويض تسمـيته إلى صالح فـيختار له اسـمًا يرتضيه، وفيه: جواز تسميته يوم ولادته. . وفيه: مناقب لأم سليم رضى الله عنها من عظيم صبرها، وحسن رضاها بقضاء الله تعالى، وجزالة عقلها فى إخفائها موته على أبيه أول الليل ليبـيت مستريحًا بلا حزن، ثم عشـته وتعشت، ثم تصنعت له وعرضت له بإصابته فأصابها. .(٣).

دعوة مباركة:

ولقد ظفر الزوجان الكريمان بدعوة مباركة من النبى ﷺ: «اللهم بارك لهما»(٤)، واستجاب الله تعـالى لهذه الدعوة، فحملت أم سليم من ليلتـها تلك، ولما أثقلها الحمل رأت زوجـها يتجهـز لغزوة جديدة مع رسـول الله ﷺ، فأبت إلا أن تكون معه تشاركه شرف الجهاد فى صحبة النبى ﷺ، وهى الحامل فى شهورها الأخيرة، وأشفق عليها زوجها من وعثاء السفـر ولأواء المسير وصعوبة المركب، فاستأذن لها النبى ﷺ فى خروجها معه، فأذن له لما كان يعلم من حبها للجهاد فى سبيل الله، ثم آب الجيش المجاهد إلى المدينة، حـتى إذا اقترب منها ضربهـا المخاض وأحست بآلام شديدة، فاحتبست وزوجها قليلاً، ولكن زوجها ناجى ربه فى هدأة الليل أنه

(١) فتح البارى ٣/ ٢٠٤ .

(٢) التحنيك: سنة من سنن الإسلام، وهو أن يمضغ المحنك التمر حتى تصير مائعة بحيث تبتلع، ثم يفتح فم المولود ويضعها فيـه ليدخل شىء منها جوفه، ويفضل أن يقوم بذلك إنسان صـالح تيمنًا بالخير والصلاح والبركة للطفل، وقد اتفق العلماء على استحبابه.

(٣) مسلم بشرح النووى ١٤/ ١٢٣، ١٢٤، ١٦/ ١١، ١٢ .

(٤) مسلم فى الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته ١٤/ ١٢٣-١٢٥(٢١٤٤).

يحب الخروج مع رسول الله ﷺ والدخول معه، فإذا بآلام المخاض تزول عنها، وتخبر زوجها بذلك، فانطلقا فى إثر الجيش المتقدم، وبعد الوصول إلى المدينة يضربها المخاض ثانية، وتضع غلامها، ثم يحمله أخوه لأمه أنس إلى رسول الله ﷺ فيحنكه ويسميه عبد الله، وتتحقق بركة دعوة رسول الله ﷺ فى هذا المولود: عبد الله بن أبى طلحة والد إسحاق بن عبد الله الفقيه التابعى الجليل وإخوته، وقد كانوا تسعة كلهم حمل عنه العلم وحفظ القرآن.

فى رواية البخارى، فقال رسول الله ﷺ: «لعل الله أن يبارك لكما فى ليلتكما». قال سفيان: فقال رجل من الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن(١).

أم أنس:

وإننا إذا ذكرنا أنس بن مالك رضى الله عنه وفضله، الذى صحب النبى ﷺ وخدمه عشر سنين، ونقل لنا عنه الكثير من سنته وسيره، وعاش قرابة قرن من الزمان يروى ويفتى، ويعلم ويربى، فلنذكر صاحبة الفضل على أنس وهى الأم الحانية والمربية الفاضلة التى عرفت أين تضعه، وكيف تختار له المدرسة والمعلم؟ فكانت المدرسة بيت النبوة، وكان المعلم محمداً رسول الله ﷺ.

قال الإمام الذهبى عن أنس فى ترجمته: الإمام، المفتى، المقرئ، المحدث، راوية الإسلام(٢)، أبو حمزة الأنصارى الخزرجى البخارى المدنى، خادم رسول الله ﷺ

(١) قال ابن حجر فى الفتح ٣/ ٢٠٤: هو عباية بن رفاعة، لما أخرجه سعيد بن منصور ومسدود وابن سعد والبيهقى فى الدلائل كلهم من طريق سعيد بن مسروق عن عباية بن رفاعة قال: كانت أم أنس تحت أبى طلحة، فذكر القصة بسياق ثابت عن أنس، وقال فى آخره: فولدت له غلامًا، قال عباية: فلقد رأيت لذلك الغلام سبعة بنين كلهم قد ختم القرآن، وأفادت هذه أن فى رواية سفيان تجوزاً فى قوله: لهما؛ لأن ظاهره أنه من ولدهما بغير واسطة. وإنما المراد من أولاد ولدهما المدعو له بالبركة، وهو عبد الله بن أبى طلحة، ووقع فى رواية سفيان: تسعة، وفى هذه: سبعة، فلعل فى أحدهما تصحيفًا، أو المراد بالسبعة من ختم القرآن كله، وبالتسعة من قرأ معظمه، وله من الولد فيما ذكر ابن سعد وغيره من أهل العلم بالأنساب: إسحاق وإسماعيل وعبد الله ويعقوب وعمرو والقاسم وعمارة وإبراهيم وعمير وزيد ومحمد وأربع من البنات.

(٢) مسنده ألفان ومئتان وستة وثمانون، اتفق له البخارى ومسلم على مائة وثمانين حديثًا. وانفرد البخارى بثمانين حديثًا، ومسلم بتسعين.

وقرابتــه من النساء وتلمـيذه وتبعـه، صحب النبى ﷺ أتم الصـحبة، ولازمـه أكمل الملازمة منذ هاجر، وإلى أن مات، وغزا معه غير مرة، وبايع تحت الشجرة[١].

ومـا كان رضى الله عنه ليـبلغ هذا الفـضل لولا أن أمه أم سـليم تعهـدته منذ صغـره، وأترعت فؤاده بـحب الدين وحب النبى الأمين ﷺ، ثم عهـدت به إلى أعظم المربين ﷺ.

يقول أنس رضى الله عنه: قدم النبى ﷺ المدينة وأنا ابن عشر سنين، فأخذت أمى بيدى، فانطلقت بى إلى رسول الله ﷺ، ثم حيت النبى ﷺ، وقالت: يا رسول الله إنه لم يبق رجل ولا امرأة من الأنصار إلا وقد أتحفك بتحفة، وإنى لا أجد ما أتحفك به غير ابنى هذا، فخذه فليخدمك ما شـئت، فهش النبى ﷺ للفتى الصغير، ومسح رأسه بيده الشريفة، ومس ذؤابته[٢] بأنامله الندية وضمه إلى أهله[٣].

حسن رعايتها لأنس:

وكانت رضى الله عنها تتعهد ولدها أنسًا رضى الله عنه، وتمده بالرعاية والنصح والتوجيه والتسديد، يقول أنس رضى الله عنه: أتى علىّ رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان، قال: فسلم علينا، فبعـثنى إلى حاجة، فأبطأت على أمى، فلما جئت قالت: ماحبسك[٤]؟ قلت: إنها سر، قالت: لا تحدثن بسر رسول الله ﷺ أحدًا. قال أنس: والله لو حدثت به أحدًا لحدثتك به يا ثابت[٥].

لقد أوصت أم سليم ولدها هذه الوصية الجليلة، بعد أن اخـتبرت فيه حفظ سر رسول الله ﷺ، فلما علمت فيه هذا الخلق أكدت عليه وأوصته به، وهذه هى الأم المربية التى تمنح ولدها هذا النصح والتوجـيه؛ لينشأ سليمًا سويًا رشيدًا كـثير الخير والبر، مكفوف الشر والبأس.

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ٣/ ٣٩٦،٣٩٧.

(٢) ذؤابته: الشعر المضفور من شعر الرأس.

(٣) صور من حياة الصحابة، ص١١.

(٤) ما حبسك؟ أى ما أخرك؟

(٥) مسلم فى فـضائل الصـحابة، باب فـضائل أنس بن مالك رضـى الله عنه ١٦/ ٤٠، ٤١(٢٤٨٢)، ولقد صـحب ثابت البنانى راوى الحـديث أنـسًا رضى الله عـنه أربعين سنة، لكن سـر رسـول الله ﷺ الذى استودعه إياه منذ أن كان صبيًا ظل إلى صخرة أعيا الجميع انصداعها.

إن الطفل الذى يتعود كتم الأسرار والحفاظ عليها، ينشأ قوى الإرادة رابط الجأش ضابط اللسان، فتنشأ عن ذلك الثقة الاجتماعية بين الناس بحفظ أسرار بعضهم البعض.

يقول الدكتور الهاشمى: لقد رأت أم أنس ابنها حريصًا على حفظ سر رسول الله ﷺ، فعززَتْ فيه هذا الحرص، إذ طلبت منه ألا يخبر بسرّ رسول الله ﷺ أحدًا، فلم يحدث به أحدًا، حتى التابعى ثابت البنانى الذى روى عنه هذا الحديث، ولم يدفعها حب الاطلاع إلى استدراج ابنها الصغير؛ لتعرف ذلك السر الذى طواه عنها، وهذه هى تربية الإسلام، وهذا هو المستوى الرفيع الذى رفعت إليه الإنسان، رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً[1]، فما أعظم هذه التربية النبوية التى جعلت رجال الصحابة ونساءهم وغلمانهم أمناء على الأسرار بحق!!

ثم أحبت أم سليم رضى الله عنها أن تغمر ابنها أنسا بكل ما تستطيع من بركة النبى ﷺ، فقالت للنبى ﷺ: يا رسول الله خويدمك[2] ادع الله له، قال أنس: فدعا لى بكل خير، وكان فى آخر ما دعا لى به أن قال: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه»[3].

فكان أنس وولده رحمة وخيرًا ونفعًا وبرًا بسبب دعاء رسول الله ﷺ، قال أنس: فوالله إن مالى لكثير، وإن ولدى وولد ولدى ليتعادون على نحو المائة اليوم[4]، وكان له بستان يحمل فى السنة الفاكهة مرتين، وكان فيها ريحان كان يجد منه ريح المسك[5].

وهكذا آثرت أم سليم ولدها على نفسها بطلب الدعاء من النبى ﷺ، فجلبت له الخير والبركة، وهكذا ينبغى أن تكون الأم الواعية التى تحب البر والخير والفلاح لولدها.

---

(١) شخصية المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام فى الكتاب والسنة، د. محمد على الهاشمى، ص٣٩٠.

(٢) خويدمك: تصغير خادمك.

(٣) البخارى فى الصوم، باب من زار قومًا فلم يفطر عندهم ٤/٢٦٨ (١٩٨٢) وفى الدعوات، باب قول الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] ومن خص أخاه بالدعاء دون نفسه ١١/ ١٤٠ (٦٣٣٤)، وباب دعوة النبى ﷺ لخادمه بطول العمر وبكثرة ماله ١١/١٤٩ (٦٣٤٤)، وباب الدعاء بكثرة المال والولد مع البركة ١١/١٨٦ (٦٣٨٠).

(٤) مسلم فى فضائل الصحابة، باب فضائل أنس رضى الله عنه ١٦/ ٤٠ (٢٤٨١).

(٥) الترمذى فى المناقب، باب مناقب لأنس بن مالك رضى الله عنه، ص١٠٠٠(٣٨٤٢)، وقال: هذا حديث حسن.

المجاهدة

لقد شاركت أم سليم رضى الله عنهـا مع النبى ﷺ مشاركة صادقـة فى جهاده وغزواته، وتقدمت فـى سبيل الله عز وجل مسـتهينة بروحها، مـضحية بنفـسها، وقامت بأعمال مـشهودة من إعداد القرب وملئها بالماء ونـقلها، وسقى المجاهدين، وتضميد الجرحى، وحمل القـتلى إلى خارج أرض المعركة، بل لم تتوان رضى الله عنها عن حمل السلاح فى ساعات الشـدة وخوض غمار الحرب إلى جانب رسول الله ﷺ وصحبه الكرام.

فى غزوة أحد:

روى الإمام مـسلم فى صحـيحـه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قـال: كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا فيسقين الماء ويداوين الجرحى[(١)].

وعن أنس رضى الله عنه قال: لما كان يوم أحـد انهزم ناس من الناس عن النبى ﷺ وأبو طلحة بين يدى النبى ﷺ مُجَوِّبٌ عليـه بحَجَفَة[(٢)] قال: وكان أبو طلحة رجلاً راميًا شديد النزع، وكسر يومئذ قوسين أو ثلاثًا... قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتـان أرى خَدَمَ سُوقهما[(٣)] تنقلان القِرَبَ على متونهما[(٤)] ثم تفرغانه فى أفواههم ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان تفرغانه فى أفواه القوم[(٥)].

فأى عـمل جليل كانت تقوم به أم سليم مع عـائشة فى إرواء أكبـاد المجاهدين وهم فى ساحة المعركة، والحرب على أشدها وفى هذا الجو الحار، إذ كانتا تتنقلان

(١) مسلم فى الجهاد والسير، باب غزوة النساء مع الرجال ١٢/١٨٨(١٨١٠).

(٢) أى مترس عليه ليقيه سلاح الكفار.

(٣) خَدَمَ: جمع خَدَمة وهى الخلخال، وأما السوق فجمع ساق.

(٤) على متونهما: على ظهورهما.

(٥) البخارى فى الجهاد والسير، باب غـزو النساء وقتالهن مع الرجال ٦/٩١، ٩٢(٢٨٨٠)، وفى المغازى باب ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا...﴾ [آل عمران: ١٢٢] ٧/٤١٨(٤٠٦٤)، ومسلم فى الجهاد والسير، باب غزوة النساء مع الرجال ١٢/١٨٨، ١٨٩(١٨١١)، واللفظ لمسلم.

هنا وهناك غير آبهتين لانهمار النبل ولا لمقارعة السيوف، وهكذا قامت أم سليم رضى الله عنها بمهمتها على أحسن وجه.

ثم ها نحن أولاء نراها فى مشهد آخر من مشاهد الجهاد والمشاركة فى نصرة دين الله عز وجل، حدث ذلك حين كان المسلمون يستعدون للسير مع رسول الله ﷺ لفتح مكة، وفيهم زوجها أبو طلحة رضى الله عنه، وكانت أم سليم حاملاً فى شهورها الأخيرة، ولكن حملها لم يمنعها من الرغبة الملحة والأكيدة فى مرافقة زوجها أبى طلحة؛ لتغنم معه شرف الجهاد فى سبيل الله، غير عابئة بوعثاء السفر ولأواء السير، وصعوبة المركب، وأشفق زوجها عليها من هذا كله، ولم ير بدًا من استئذان النبى ﷺ، فأذن له، وقرّت أم سليم عينًا بمرافقة زوجها الحبيب، وشهدت معه نصر الله والفتح، فى ذلك اليوم الأغر الميمون الذى كانت بطاح مكة تردد فيه رجع صدى هتاف المجاهدين المؤمنين: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، لا شىء قبله ولا شىء بعده، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون[١].

فى غزوة حنين:

ولم تمضى إلا أيام معدودات حتى كان يوم حنين الذى زُلْزِلَ فيه المسلون زلزالاً شديدًا، وانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: «أين أيها الناس؟ هلموا إلىّ أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله»، ولم يثبت مع رسول الله ﷺ سوى نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، وكانت أم سليم رضى الله عنها فيمن ثبت مع زوجها أبى طلحة، وقد رآها رسول الله ﷺ حازمة وسطها ببرد لها، وإنها لحامل بعبد الله بن أبى طلحة، ومعها جمل أبى طلحة، وقد خشيت أن يَعُزَّها[٢] الجملُ، فَأَدْنَتْ رأسه منها، فأدخلت يدها فى خِزامته[٣] مع الخطام[٤]، فقال رسول الله ﷺ: «أم سليم»؟ قلت: نعم، بأبى أنت

(١) شخصية المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام فى الكتاب والسنة، د. محمد على الهاشمى، ص٨٠.
(٢) يَعُزَّها: اى يغلبها.
(٣) الخزامة: حلقة من شعر تُجعل فى أنف البعير.
(٤) وإنما فعلت ذلك رضى الله عنها ليثبت ولا يلحق بالجمال الفارة.

وأمى يا رسول الله، اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك، كما تقتل الذين يقاتلونك، فإنهم لذلك أهل، فقال رسول الله ﷺ: «أو يكفى الله يا أم سليم[١]»؟[٢].

وروى مسلم فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه أن أم سليم أخذت يوم حنين خنجرًا، فكان معها فرآها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر، فقال لها رسول الله ﷺ: «ما هذا الخنجر؟» قالت: اتخذته إن دنا منى أحد من المشركين بقرت به بطنه[٣]، فجعل رسول الله ﷺ يضحك، قالت: يا رسول الله اقتل من بعدنا[٤] من الطلقاء[٥] انهزموا بك، فقال رسول الله ﷺ: «يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن»[٦].

فأى إيمان راسخ هذا، ويقين ثابت، وقلب لا يرتاب فى موعود الله عز وجل، عز أن تجد له مثيلاً فى التاريخ!

وهكذا ثبتت رضى الله عنها مع النبى ﷺ وقت الشدة والبأس، إذ حمى الوطيس، واحمرت الحَدَق، وزلزل الأبطال من الرجال، ولم تطق رضى الله عنها رؤية المنهزمين عن رسول الله ﷺ... لقد أبلت رضى الله عنها بلاء حسنًا، وأظهرت من ضروب الشجاعة والإقدام ما لم يبده كثير من الرجال، فلا غرو بعد ذلك أن يبشرها رسول الله ﷺ بالجنة، روى البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر ابن عبد الله رضى الله عنه، قال: قال النبى ﷺ: «رأيتنى دخلت الجنة، فإذا أنا بالرميصاء بنت ملحان امرأة أبى طلحة»[٧].

---

(١) فى الاستفهام معنى: ألا يكفى الله يا أم سُليم؟

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ١٢٥.

(٣) بقرت به بطنه: أى شققته.

(٤) مَنْ بَعْدَنَا: أى من سوانا.

(٥) الطلقاء: هم الذين أسلموا من أهل مكة يوم الفتح، سموا بذلك؛ لأن النبى ﷺ مَنّ عليهم وأطلقهم، وقال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، وكان فى إسلامهم ضعف، فاعتقدت أم سليم أنهم منافقون، وأنهم استحقوا القتل بانهزامهم.. مسلم بشرح النووى ١٢/ ١٨٨.

(٦) مسلم فى الجهاد والسير، باب غزوة النساء مع الرجال ١٢/ ١٨٧، ١٨٨ (١٨٠٩).

(٧) البخارى فى فضائل الصحابة، باب مناقب عمر ٧/ ٥٠ (٣٦٧٩)، ومسلم فى فضائل الصحابة، باب فضائل أم سليم١٦/ ١١ (٢٤٥٦) بلفظ: «دخلت الجنة فسمعت خشفة، فقلت: من هذا، قالوا: هذه الرميصاء بنت ملحان».

درس وعبرة:

إن فى جهاد أم سليم رضى الله عنها درسًا عظيمًا، وعبرة بالغة، وتربية مثلى، يجدر بنسائنا وبناتنا أن يتخذن منها نموذجًا يحتذى فى فهم الواجب، وسلامة تطبيقه، والتضحية فى سبيله، فهل هن فاعلات؟

يقول الدكتور السباعى: فى موقف أم سليم رضى الله عنها مفخرة من مفاخر المرأة المسلمة فى صدر الإسلام، فقد كانت فى المعركة مع زوجها أبى طلحة، حيث شاركت مشاركة صادقة فى نصرة الدين والتضحية فى سبيله، ومن هنا ينبغى أن نتخذ من موقفها رضى الله عنها درسًا بليغًا يحفزنا على دعوة المرأة المسلمة من جديد للقيام بدورها الطبيعى فى خدمة الإسلام، وتربية أجيالنا المقبلة على هديه ومبادئه...[١].

إن الذين يتذرعون بالإسلام لإسقاط دور المرأة فى الصراع العالمى، عليهم أن يدركوا بأنهم يتسببون بتعطيل نصف طاقة المجتمع، ويسهمون بتقدم المرأة فى المجتمعات الأخرى لتأخذ دورها - بصرف النظر عن الجانب السلوكى - كباحثة ومخترعة، ومخططة وقائدة، ومربية وأستاذة جامعية، ومرشدة اجتماعية ونائبة...

إن بإمكان المرأة أن تفعل كل ذلك وهى محافظة على عفتها ونظافتها وطهارتها، وكل الضوابط الشرعية المطلوبة منها، إذا كان الإسلام هو الذريعة وهو الحجة، فإنه حجة مردودة على أصحابها؛ لأن التاريخ منذ فجر الإسلام يمتلئ ويزخر بنساء خضن معترك الصراع فى مختلف مجالاته[٢].

***

(١) السيرة النبوية دروس وعبر، د. مصطفى السباعى، ص ١٢٧، ١٢٨، بتصرف واختصار.

(٢) نحو صحوة إسلامية فى مستوى العصر، أ. فتحى يكن، ص ٣١١، ٣١٢.

مع رسول الله ﷺ

حفاوة رسول الله ﷺ بأم سليم:

لقد كانت رضى الله عنها أثيرة عند رسول الله ﷺ؛ لعمق إيمانها، وجلال مواقفها، وقوة شخصيتها، فكان النبى ﷺ يزورها ويكرمها ويقيلُ عندها، فعن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ لم يكن يدخل بيتًا بالمدينة - أى على الدوام - غير بيت أم سليم إلا على أزواجه، فقيل له، فقال: «إنى أرحمها قُتل أخوها معى»[1]، وإنما كان هذا من النبى ﷺ جبرًا لقلبها ورحمة بها وخلفًا فى أخيها بخير بعد استشهاده، وذلك من حُسن عهده ﷺ.

ومن رعايته ﷺ لها ما حكاه أنس رضى الله عنه، أن النبى ﷺ كان إذا مر بجنبات[2] أم سليم دخل عليها، فسلم عليها[3]، وعنه أيضا قال: دخل النبى ﷺ على أم سليم فأتته بتمر وسمن، قال: «أعيدوا سمنكم فى سقائه، وتمركم فى وعائه فإنى صائم»، ثم قام إلى ناحية من البيت فصلى غير المكتوبة، فدعا لأم سليم وأهل بيتها، فقالت أم سليم: يا رسول الله، إن لى خويصة[4]، قال: «ما هى»؟ قالت: خادمك أنس[5]، فما ترك خير آخرة ولا دنيا إلا دعا لى به: «اللهم ارزقه مالا وولدًا وبارك له»، فإنى لمن أكثر الأنصار مالاً، وحدثتنى ابنتى أُمَيْنَةُ[6] أنه دُفن لصلبى مقدم الحجاج البصرة بضع وعشرون ومائة[7].

---

(١) البخارى فى الجهاد والسير، باب فضل من جَهَّزَ غازيًا أو خلفه بخير ٦/ ٥٩ (٢٨٤٤)، ومسلم فى فضائل الصحابة، باب فضائل أم سليم ١٦/ ١٠ (٢٤٥٥).

(٢) جَنَبَات: جمع جنبة، وهى الناحية.

(٣) البخارى فى النكاح، باب الهدية للعروس ٩/ ١٣٤، ١٣٥ (٥١٦٣).

(٤) تصغير خاصة.

(٥) خادمك أنس: خبر محذوف تقديره: أطلب منك الدعاء له.

(٦) تصغير آمنة.

(٧) البخارى فى الصوم، باب من زار قومًا فلم يفطر عندهم ٤/ ٢٦٨ (١٩٨٢)، قال ابن حجر: وكان قدوم الحجاج البصرة سنة خمس وسبعين، وعمر أنس حينئذ نيف وثمانين سنة، وقد عاش أنس بعد ذلك إلى سنة ثلاث، ويقال: اثنتين، ويقال: إحدى وتسعين، وقد قارب المائة، فتح البارى ٤/ ٢٦٩.

وعنه أيضا قال: كان النبى ﷺ يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها وليست فيه، قال: فجاء ذات يوم فنام على فراشها، فَأُتِيَتْ، فقيل لها: هذا النبى ﷺ نام فى بيتك على فراشك، قال: فجاءت وقد عرق واستنقع[1] عرقه على قطعة أديم[2] على الفراش، ففتحت عتيدتها[3]، فجعلت تُنَشِّف ذلك العرق، فتعصره فى قواريرها، ففزع النبى ﷺ فقال: «ما تصنعين يا أم سليم؟» فقالت: يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا، قال: «أصبت»[4].

بهذه الروح الطيبة، وبهذا الحب السامى لرسول الله ﷺ، وهذا التعلق الشديد، وهذا الحرص الصادق على آثار رسول الله ﷺ تتسارع الأم العاقلة لتفيد صغيرها منه التماسًا للبركة وتحصيلاً لها، ولقد أقرها ﷺ بقوله: «أصبت».

يقول ابن حجر: ويستفاد من هذا اطلاع النبى ﷺ على فعل أم سليم وتصويبه، ولا معارضة بين قولها إنها كانت تجمعه لأجل طيبه، وبين قولها للبركة، بل يُحمل على أنها كانت تفعل ذلك للأمرين معًا، وفيه: أن قيلولته ﷺ عندها من ثبوت المودة وتأكد المحبة لها[5].

الحب السامى:

ولقد كانت رضى الله عنها بهذا التصرف تحب النبى ﷺ حبًا خالط منها اللحم والعظم، وسكن منها فى حبة القلب، نعم إن توقير النبى ﷺ وحبه من نبع الإيمان، وفيض اليقين، وما التبرك بآثاره وعرقه ووضوئه وشعره وما يتصل به، إلا من وميض الحب، ودفق الإكبار والتوقير.

إن من شواهد حبها الصادق للنبى ﷺ - وهى كثيرة وفيرة- أن ابنها أنسًا رضى الله عنه كانت له ذؤابة[6] تنوس[7] على جبينه، فرغب إليها زوجها أن تقصها له

(١) استنقع: اجتمع.

(٢) أديم: جلد.

(٣) عتيدتها: الصندوق الصغير تجعل المرأة فيه ما يعز من متاعها.

(٤) مسلم فى الفضائل، باب طيب عرقه ﷺ والتبرك به ١٥/٨٦، ٨٧ (٢٣٣١)، وانظر: البخارى فى الاستئذان، باب من زار قومًا فقال عندهم ١١/ ٧٣ (٦٢٨١).

(٥) فتح البارى ١١/ ٧٤ بتصرف.

(٦) ذؤابة: خصلة من الشعر فى مقدمة الرأس.

(٧) تنوس: تتمايل.

بعد أن طالت، فأبــت ذلك؛ لأن النبى ﷺ كان كلما أقبل عليـه أنس مسح رأسه بيده، ومس ذؤابته المدلاة على جبينه(١).

ومن شواهد حبها للنبى ﷺ ما رواه ابن سعد عن أنس أن النبى ﷺ دخل على أم سليم بيتها وفى البيت قربة معلقة فيها ماء، فتناولها فشرب من فيها وهو قائم، فأخذتها أم سليم فقطعت فمها فأمسكته عندها(٢).

قال الإمام النووى: إنما قطعت فم القربة لوجهين: أحـدهما: أن تصون موضعًا أصابه فم رسول الله ﷺ عن أن يبتذل ويمسـه كل أحد، والثانى: أن تحفظه للتبرك به والاستشفاء والله أعلم(٣).

ولقـد كانت رضى الله عنهـا تهيئ لـه أفضل مـا عندها من طعام أو شـراب، وتفرح فـرحًا شديدًا إذا أكل عندها أو اسـتراح عندها، قـال أنس: كان النبى ﷺ يزور أم سليم فتتحفه بالشىء تصنعه له(٤).

إن هذا هو الحب السـامى الذى يتصف به مَنْ آمن بالله ورسـوله، وهى محـبة تعلو محبة الأهل والنفس والولد، وإنها لصورة بارزة حية عن أم سليم تظهر مدى محبتها له ﷺ، وإن فيها لدلالات هامة يجب أن يقف عليها كل مسلم ومسلمة.

إنها تدل أولاً على أنه لا إيمان برسول الله ﷺ بدون محـبة له، وليست المحبة ادعاءً وإنما طاعة واتباع، وهى تدل ثانيًـا على أن التبرك بآثار رسول الله ﷺ، أمر مندوب إليه ومشروع..

رعايتها لرسول الله ﷺ:

ولقد تعددت صـور رعايتها للنبى ﷺ واهتمامـها به، فعن أنس رضى الله عنه قـال: لما قدم المهـاجرون إلى المدينة من مكـة وليس بأيديهم، وكان الأنصـار أهل الأرض والعقار، فقاسمهم الأنصار على أن يعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام

(١) صور من حياة الصحابيات، د.عبد الرحمن رأفت الباشا، ص ١٠٤.

(٢) ابن سعـد ٨/٤٢٨، وفى الباب ما يقويه عن أم ثابت كـبشة بنت ثابت أخت حـسان بن ثابت رضى الله عنها قالت: دخل علىّ رسول الله ﷺ فشـرب من قربة معلقة قائمًا، فقمت إلى فيهـا فقطعته، الترمذى فى الأشربة باب ما جاء فى الرخصة فى ذلك، ص٥٢٩ (١٨٩٢)، وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٣) مسلم بشرح النووى ١٣/١٩٤، وانظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ٣/٢٥٢.

(٤) ابن سعد ٨/٤٢٧، والإصابة لابن حجر ٤/٤٦١.

ويكفوهم العمل والمؤونة، فكانت أعطت أم أنس رسول الله ﷺ عذاقًا - أي نخلات - فأعطاهن النبي ﷺ أم أيمن مولاته(١).

وفي هذا فضيلة ظاهرة لأم سليم رضي الله عنها في حُسن مواساتها وإيثارها، وما كانت عليه من حب للإسلام وللرسول ﷺ، مما جعلها وسائر الأنصار أهلاً لشهادة الله تعالى لهم، فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ...﴾ [الحشر: ٩].

ومن رعايتها للنبي ﷺ ما يحكيه أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ عروسًا بزينب، فقالت لي أم سليم: لو أهدينا لرسول الله ﷺ هدية، فقلت لها: افعلي، فعمدت إلى تمر وسمن وأقط، فاتخذت حيسة في برمة(٢) فأرسلت بها معي إليه، فانطلقت بها إليه، فقال لي: «ضعها»، ثم أمرني فقال: «ادع لي رجالاً سماهم وادع لي من لقيت» قال: ففعلت الذي أمرني، فرجعت فإذا البيت غاص بأهله(٣).. وبارك الله هذا الطعام الذي صنعته أم سليم حتى أكل منه زهاء الثلاثمائة كما في رواية مسلم(٤).

ومن رعايتها للنبي ﷺ أنها هي التي جهزت صفية بنت حيي وهيأتها وعطرتها للنبي ﷺ حين تزوج بها(٥).

إيثار جميل:

هذا ولقد تعدى كرمها ورعايتها النبي ﷺ إلى أصحابه الكرام، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني مجهود، فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك حتى قلن كلهن مثل ذلك، لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، فقال: «من يضيف هذا الليلة يرحمه الله؟» فقام رجل من الأنصار - يقال له

(١) البخاري في الهبة، باب فضل المنيحة ٥/٢٨٧ (٢٦٣٠) ومسلم في الجهاد، باب رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم ١٢/٩٩، ١٠٠ (١٧٧١).

(٢) الحيسة: طعام متخذ من الأقط والسمن والتمر يخلط ويعجن.

(٣) البخاري في النكاح، باب الهدية للعروس ٩/١٣٤ (٥١٦٣).

(٤) مسلم في النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ٩/٢٣١ (١٤٢٨).

(٥) مسلم بشرح النووي ٩/ ٢٢٢، وابن سعد ٨/٩٦، والإصابة ٤/٣٤٧.

أبو طلحة(١)- فقال: أنـا يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله، فقـال لامرأته: هل عندك شيء، قالت: لا إلا قوت صبياني، قـال: فعلليهم بشيء، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنا نأكل، فإذا أهوى ليأكل فـقومي إلى السراج حتى تطفئيه. قال: فقعدوا وأكل الضيف، فلما أصبح، غدا على النبي ﷺ فقال: «قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة»(٢).

وعند البخاري: فلما أصـبح غدا إلى رسول الله ﷺ، فقال: «ضحك الله الليلة -- أو عـجب - من فعـالكمـا»، فأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ...﴾ [الحشر: ٩].

لقد ضرب أبو طلحة وأم سليم المثل الأعلى في إكرام الضـيف وإيثاره عليهما، حتى إن الله عـز وجل ليعـجب من صنيعهـما، وينزل فـيهمـا قرآنا يُتلى، يشـيد بإيثارهما الفريد علـى مر الزمان، حتى تتعلم الأجيال الناشـئة كيف يكون الجود، وكيف يكون الإيثار. . فما أجمل إيثارهما، وما أعظم فضلهما. .

قال الإمـام النووي: وقد أثنى الله ورسوله ﷺ على هذا الرجل وامـرأته، فدل على أنهما لم يتركـا واجبًا، بل أحسنا وأجملا رضي الله عنهـما، وأما هو وامرأته فآثرا على أنفسـهما برضاهما مع حاجـتهما وخصاصـتهما، فمدحهـما الله تعالى وأنزل فيهما: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، ففية فـضيلة الإيثار والحث عليه(٣)

فلله در أم سليم وزوجها، ما أحسن إيثارهمـا، وما أعظم منزلتهما عند الله عز وجل.

(١) قال ابن حجر في الفتح ٧/ ١٥٠: والصواب الذي يتعين الجزم به في حديث أبي هريرة ما وقع عند مسلم من طريق محمد بن فضيل بن غزوان عن أبيه بإسناد البخاري: «فقام رجل من الأنصار يقال: أبو طلحة» وبذلك جزم الخطيب لكنه قال: أظنه غير أبي طلحة زيد بن سهل المشهور، وكأنه استبعد ذلك من وجهين:
أحدهما: أن أبا طلحة زيد بن سهل مشهور لا يحسن أن يقال فيه: فقام رجل يقال له أبو طلحة.
والثاني: أن سياق القصة يُشعر بأنه لم يكن عنده ما يتعشى به هو وأهله حتى احتاج إلى إطفاء المصباح، وأبو طلحة زيد بن سهل كان أكثر أنصاري بالمدينة مالاً، فيبعد أن يكون بتلك الصفة من التقلل، ويمكن الجواب عن الاستبعادين، والله أعلم أ.هـ.

(٢) البخـاري في مناقب الأنصار، باب قـول الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ٧/ ١٤٩ (٣٧٩٨)، وفي التـفـسـيـر، باب ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِـهِمْ﴾ ٨/ ٥٠٠ (٤٨٨٩)، ومـسـلم في الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره ١٤/ ١١، ١٢ (٢٠٥٤)، واللفظ له.

(٣) مسلم بشرح النووي ١٤/ ١٢.

فقهها وعلمها

لقد كانت أم سليم رضى الله عنهـا تواقة إلى العلم، مقبلة عليه، مهتـمة بتفهم مسائله، لا تَسْتَحيى من السؤال عن أحكام دينهـا؛ لأنها تسأل عن الحق، والله لا يستحيى من الحق، وقد وردت عنها روايات تصور ما كانت عليه من رجاحة العقل ودقة الفهم.

عن أم سلمة رضى الله عنهـا قالت: جاءت أم سليم إلى النبى ﷺ فـقالت: يا رسول الله إن الله لا يستحيى من الحق(١)، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا رأت الماء» فغطت أم سلمة - تعنى وجـهها- وقالت: يا رسول الله، وتحتلم المرأة؟ قال: «نعم»(٢).

وانظر إلى قولها لرسـول الله ﷺ عند الطبرانى(٣) قالت: يا رسول الله إنى لن أدع أمرًا يفقهنى فى دينى ويقـربنى من الله أن أسأل عنه، أرأيت يا رسول الله المرأة ترى فى المنام ما يرى الرجل، أتغتسل؟ فقال ﷺ: «إذا رأت الماء فلتغتسل».

إن أم سليم رضى الله عنها تعلمنا درسًـا مهمًا، وهو أنه ينبـغى لمن عرضت له مسألة أن يسأل عنها، ولا يمتنع من السؤال حياء من ذكرها، فإن ذلك ليس بحياء حقيقى؛ لأن الحياء خير كله، والحـياء لا يأتى إلا بخير، والإمساك عن السؤال فى هذه الحال ليس بخير بل هو شر، فكيف يكون حياء؟

إننا نجدكـثيرًا من بنات الـيوم، لا يستـحيين من مواقف وأقـوال كثيـرة، بينما ينصرفن عن تعلم أمور دينهن بدعوى الحياء!

غير أن أم سليم رضى الله عنهـا قد قدمت اعتذارًا بين يدى سؤالهـا عما دعت الحاجة إليه مما تسـتحيى النساء فى العادة من السؤال عـنه، وهذا فيه من الأدب ما فيه، فالمسلمة لا تستحيى من السؤال عن أحكام دينها؛ لأنها تسأل عن الحق، والله

(١) أى أن الله عز وجل لا يأمر بالحياء فى الحق ولا يبيحه.

(٢) البخارى فى العلم، باب الحياء فى العلم ١/ ٢٧٦ (١٣٠)، وفى الغسل، باب إذا احتلمت المرأة ١/ ٤٦٢ (٢٨٢)، ومسلم فى الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المنى منها ٣/ ٢٢٣، ٢٢٤ (٣١٣).

(٣) الطبرانى فى المعجم الكبير ٢٥/ ١٢٧ (٣٠٩)، ورواه أحمد ٦/ ٣٧٦، ٣٣٧.

لا يستحيى من الحق، فإذا كان الله عز وجل لا يمتنع من بيان الحق فكذا أنا لا أمتنع عن سؤالى عما أنا محتاجة إليه.

لقد كانت أم سليم رضى الله عنها نعم النساء حين فعلت ما يجب عليها من السؤال عن دينها، مبتغية التفقه فيه، وهذا يدل على نضج شخصيتها ورجاحة عقلها، وإن مسلمة اليوم لا تتردد فى استيضاح الحكم الشرعى فى أمور دينها، بل تتقدم بنفسها للسؤال، كما قال ابن حجر: وفى الحديث: استفتاء المرأة بنفسها[١] وسؤالها العالم عن أحوالها التى يُحتشم منها.

ولقد كان فى سؤال أم سليم فضل وخير وبركة لا لأم سليم وحدها، بل للمسلمين والمسلمات من بعدها إلى يوم الدين، فما أعظم ما قدمته أم سليم رضى الله عنها للمسلمين من بعدها، وصدقت عائشة رضى الله عنها حين قالت: نعم النساء نساء الأنصار لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين[٢].

خير وبركة:

وجاءت أم سليم رضى الله عنها إلى النبى ﷺ، فقالت: حج أبو طلحة وابنه وتركانى، فقال: **«يا أم سليم عمرة فى رمضان تعدل حجة»**[٣]، وهكذا كان فى سؤال أم سليم خير وبركة على الأمة من بعدها، إذ أعلمها ﷺ أن العمرة فى رمضان تعدل الحجة فى الثواب، وهذا من فضل الله ونعمته على عباده.

وحين سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنْث[٤] إلا أدخلهم الله الجنة، بفضل رحمته إياهم»**، فقالت: واثنان؟ فقال ﷺ: **«واثنان»**[٥].

---

(١) فتح البارى ١/ ٤٦٤.

(٢) مسلم فى الحيض، باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض المسك ٤/ ١٦ (٣٣٢).

(٣) ابن حبان فى صحيحه ٦/ ٥ (٣٦٩١)، والطبرانى فى الكبير ١١/ ١٤٨ (١١٣٢٢)، ورواه مختصرًا من غير ذكر أم سليم ١١/ ١٧٦ (١١٤١٠)، وعزاه ابن حجر فى الفتح لابن أبى شيبة ٣/ ٧٠٦، وله شاهد بالإبهام فى حديث ابن عباس فى البخارى فى العمرة، باب عمرة فى رمضان ٣/ ٧٠٥ (١٧٨٢)، ومسلم فى الحج، باب فضل العمرة فى رمضان ٩/ ٣ (١٢٥٦).

(٤) أى لم يبلغوا الحلم فتكتب عليهم الآثام، والحنث: الذنب.

(٥) الطبرانى فى الكبير ٢٥/ ١٢٦ (٣٠٥)، وأحمد ٦/ ٣٧٦، ٤٣١، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٣/ ٩: وفيه عمرو بن عاصم الأنصارى ولم أجد من وثقه ولا ضعفه، وبقية رجاله رجال الصحيح، ورواه ابن أبى شيبة فى مصنفه فى الجنائز ٣/ ٣٥٣.

وفى رواية أن النساء قلن للنبى ﷺ : اجعل لنا يومًا، فوعظهن، وقال: «أيما امرأة مات لها ثلاثة من الولد كانوا لها حجابًا من النار» قالت امرأة(١): واثنان؟ قال: «واثنان»(٢).

وهكذا كان فى سؤالها أيضًا رضى الله عنها خير وبركة للأمة، قال ابن حجر: وكأنها فهمت الحصر وطمعت فى الفضل، فسألت عن حكم الاثنين هل يلتحق بالثلاثة أو لا، وقال: وفى الحديث ما كان عليه نساء الصحابة من الحرص على تعلم أمور الدين، وأن أطفال المسلمين فى الجنة، وأن من مات له ولدان حجباه من النار(٣).

ومن فقهها رضى الله عنها أن الصحابة كانوا يرجعون إليها ويسألونها، روى أحمد فى مسنده عن عكرمة أنه قال: كان بين ابن عباس وزيد بن ثابت فى المرأة تحيض بعدما تطوف بالبيت يوم النحر مقاولة فى ذلك(٤)، فقال زيد: لا تنفر حتى يكون آخر عهدها بالبيت(٥)، وقال ابن عباس: إذا طافت يوم النحر(٦) وحلت لزوجها نفرت إن شاءت ولا تنتظر، فقالت الأنصار: يا ابن عباس إنك إذا خالفت زيدًا لم نتابعك، فقال ابن عباس: سلوا أم سليم، فسألوها عن ذلك، فأخبرت أن صفية بنت حيى بن أخطب(٧) أصابها ذلك، فقالت عائشة: الخَيْبةُ لك حبستينا، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فأمرها رسول الله ﷺ أن تنفر، وأخبرت أم سليم أنها لقيت ذلك فأمرها رسول الله ﷺ أن تنفر(٨)، وفى رواية له أيضًا: أنها قالت: حضت بعدما طفت بالبيت يوم النحر، فأمرنى رسول الله ﷺ أن أنفر(٩).

---

(١) قال ابن حجر فى الفتح ٣/١٤٦: هى أم سليم الأنصارية والدة أنس بن مالك، كما رواه الطبرانى بإسناد جيد.

(٢) البخارى فى العلم، باب هل يُجْعَلُ للنساء يوم على حدة فى العلم؟ ١/٢٣٦ (١٠١)، وفى الجنائز، باب فضل من مات له ولد فاحتسب ٣/١٤٢ (١٢٤٩)، وفى الاعتصام بالكتاب والسنة، باب تعليم النبى ﷺ أمته من الرجال والنساء ١٣/٣٠٥،٣٠٦ (٧٣١٠)، ومسلم فى البر والصلة ١٣/١٨١ (٢٦٣٣)، كلاهما عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

(٣) فتح البارى ١/٢٣٧.

(٤) خلاف فى ذلك.

(٥) طواف الوداع بالبيت.

(٦) يعنى طواف الإفاضة الذى هو أحد أركان الحج بالاتفاق.

(٧) انظر ذلك فى كتابى: أمهات المؤمنين، ص١٧٦.

(٨، ٩) أحمد ٦/ ٤٣٠، ٤٣١، وانظر فى هذه المسألة: الطبرانى فى الكبير ٢٥/١٢٨ (٣١٢)، ومالك فى الموطأ ١/٤١٣ (٢٢٩).

قال فى الفتح الربانى: وإنما خصها ابن عباس بالسؤال؛ لأنها أنصارية، وكانت حاضت بعد طواف الإفاضة، فأمرها النبى ﷺ أن تنفر وتترك طواف الوداع، وحصل مثل ذلك لصفية زوجة النبى ﷺ وحضرت أم سليم قصتها(١).

وهكذا تتعلم المسلمة من أم سليم رضى الله عنها مباشرة السؤال بنفسها عما ينزل بها، دون أن يمنعها من تفقهما وتعلمها تردد أو حياء متحرية الدقة فى فهم دينها حتى تصل إلى اليقين، شأنها فى ذلك شأن المرأة الذكية الواعية الفطنة الحصيفة؛ لأن المسلمة الواعية تدرك أهمية تحليها بالعلم النافع، وأثره فى شخصيتها وأولادها وأسرتها ومجتمعها، إن المسلمة إذ تقف أمام هذا النموذج المشرف للمرأة المسلمة المتمثل فى أم سليم، لتزداد حبًا فى العلم وإقبالاً عليه، ومعرفة لأحكام دينها على أساس قويم.

روايتها للحديث:

كانت أم سليم رضى الله عنها تحافظ على حضور الجماعة مع رسول الله ﷺ كبقية النساء آنذاك، لتسمع منه ﷺ وتنقل عنه وتتعرف على أحكام الإسلام، فقد روت عن النبى ﷺ أربعة عشر حديثًا، اتفق البخارى ومسلم لها على حديث، وانفرد البخارى بحديث، ومسلم بحديثين.

روى عنها ابنها أنس بن مالك، وعبد الله بن عباس، وزيد بن ثابت، وأبو سلمة بن عبد الرحمن وآخرون(٢).

وصية النبى ﷺ لأم سليم:

ولقد حباها النبى ﷺ بوصايا جليلة، جدير بمسلمة اليوم أن تعمل بها وتطبقها فى حياتها، قال أنس رضى الله عنه: زار رسول الله ﷺ أم سليم، فصلى فى بيتها صلاة تطوعًا، وقال: «يا أم سليم إذا صليت المكتوبة فقولى: سبحان الله عشراً، والحمد لله عشراً، والله أكبر عشراً، ثم سلى الله ما شئت، فإنه يقال لك: نعم نعم نعم»(٣).

---

(١) الفتح الربانى ترتيب مسند الأمام أحمد بن حنبل الشيبانى، للإمام أحمد عبد الرحمن البنا ٩/١٣.
(٢) الإصابة ٤/٤٢٦.
(٣) ابن سعد ٨/٤٢٦.

وقالت للنبى ﷺ : أوصنى، فقال ﷺ :«اهجرى المعاصى، فإنها أفضل الهجرة، وحافظى على الفرائض فإنها أفضل الجهاد، وأكثرى من ذكر الله فإنك لا تأتى الله بشىء أحب إليه من كثرة ذكره»[(١)].

ومن وصاياه ﷺ لها قوله :«اصبرى فوالله ما فى آل محمد شىءمنذ سبع، ولا أُوقد تحت بُرمة لهم منذ ثلاث»[(٢)].

لقد كانت رضى الله عنها واحدة من أولئك الذين آمنوا وتحملوا فى سبيل الله كل عذاب واضطهاد، فصبروا على قلة الزاد، وكان طعامهم - ومعهم النبى ﷺ - التمر والماء.

وإذا كانت مسلمة اليوم قد نسيت دورها، وقلدت فى هذه الحياة غيرها، وجعلت جل اهتمامها فى مأكلها ومشربها وملبسها، فلأنها قطعت صلتها بهذا الجيل الربانى من الصحابيات الطاهرات.

فأحرى بالمسلمة اليوم أن تواصل الطريق وتقتدى بمن سبقها من هذا الجيل، ولتكن عدتها: إيمان وعزم، وصبر وثبات.

***

(١) الطبرانى فى الكبير ٢٥/ ١٢٩ (٣١٣)، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٤/ ٢٢١: وفيه إسحاق بن إبراهيم ابن نسطاس وهو ضعيف.

(٢) الطبرانى فى الكبير ٢٥/ ١٢١، ١٢٢ (٢٩٥) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٣٢٧: وفيه الحجاج بن فروح، وقد وثقه ابن حبان على ضعف كثير، وبقية رجاله رجال الصحيح.

فضلها

لقد تمتعت أم سليم رضى الله عنها بفضائل عدة، فقد كانت رضى الله عنها - كما قال الإمام النووى - من فاضلات الصحابيات ومشهوراتهن[١]، وقال ابن الأثير: كانت من عقلاء النساء[٢]، وقال عنها أبو نعيم فى الحلية: الرميصاء أم سليم المستسلمة لحكم المحبوب، الطاعنة بالخناجر فى الوقائع والحروب[٣].

من أهل الجنة:

لقد كان من إكرام الله عز وجل لأم سليم أن خصها النبى ﷺ ببشارة عظيمة، حيث بشرها بالجنة، عن أنس عن النبى ﷺ قال: «دخلت الجنة فسمعت خشفة[٤]، فقلتُ: من هذا؟ قالوا: هذه الغميصاء بنت ملحان أم أنس بن مالك»[٥].

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أُريت الجنة فرأيت امرأة أبى طلحة، ثم سمعت خشخشة[٦] أمامى فإذا بلال»[٧].

وفى هذا منقبة ظاهرة وفضيلة باهرة لأم سليم رضى الله عنها.. أفتظن أن على ظهر الأرض امرأة أسعد سعادة، وأزهى خاتمة من أم سليم بعد أن بشرها رسول الله ﷺ بالجنة.

وفاء أم سليم وصدقها فى بيعتها:

ومن فضائلها رضى الله عنها وفاؤها وصدُقها فى بيعتها مع النبى ﷺ، فقد روى البخارى ومسلم عن أم عطية قالت: أخذ علينا رسول الله ﷺ فى البيعة ألا تنحن، فما وفت منا غيرُ خمس، منهن: أم سليم[٨].

---

(١) مسلم بشرح النووى ٣/ ٢٢١.

(٢) أسد الغابة ٥/ ٥٩١.

(٣) حلية الأولياء ٢/ ٥٧.

(٤) الخشفة: الحركة، وقيل: الحس الخفى، وخشف يخشف خشفًا: إذا سُمع له صوْت أو حركة.

(٥) مسلم فى الفضائل، باب فضائل أم سليم أم أنس بن مالك وبلال رضى الله عنهما ١٦/ ١١ (٢٤٥٦).

(٦) خشخشة: صوت الشيء اليابس إذا حك بعضه بعضًا.

(٧) مسلم فى الفضائل، باب فضائل أم سليم ١٦/ ١١ (٢٤٥٧).

(٨) البخارى فى الجنائز، باب ما ينهى من النوح والبكاء والزجر عن ذلك ٣/ ٢١٠ (١٣٠٦) وفى الأحكام، باب بيعة النساء ١٣/ ٢١٦ (٧٢١٥)، ومسلم فى الجنائز، باب تحريم النياحة ٦/ ٢٣٧ (٩٣٦)، واللفظ لمسلم.

قال ابن حجر: وفيه فضيلة ظاهرة للنسوة المذكورات(١).

إن اشتراك أم سليم فى البيعة لرسول الله ﷺ يشير إلى أهمية المرأة المسلمة فى أداء دورها فى نصرة هذا الدين، والالتحاق بركب دعوة الإسلام، وكان حضور أم سليم فى البيعة ووفاؤها له دلالته فى تحمل المسؤولية والقيام بالواجب لا سيما أن المسلمة هى مربية الأجيال.

فانظر إلى الوفاء بالبيعة ودقة تنفيذها، والذى دل على تجرد أم سليم رضى الله عنها لله عز وجل، وفنائها فى الحق، والتزامها بالواجب، والحق أن هذا الدين العظيم أحوج ما يكون إلى مثل هذه المرأة المسلمة التى وفت لربها ولنبيها ولدينها، وافتدت عهدها بروحها وما ملكت، وما شغلها مأرب تافه ولا عرض زائل.

وفاء محمود:

ومن وفائها المحمود: وفاؤها لزوجها، والوفاء بين الزوجين مطلب شرعى وملحظ فطرى، فقد تسببت فى سعادته وإسلامه، حين جعلت مهرها منه أن يسلم... ووفت له فى حياتها معه، فوقفت إلى جانبه وقت الشدة، وأعانته على الطاعة وشاركته فى ساحات الجهاد... وقد كانت له رضى الله عنه مواقف مشهودة فى البذل والتضحية والإنفاق، فما عُلم عنها أنها حالت بينه وبين النفقة فى سبيل الله، بل شجعته على الإكثار منها، إيمانًا منها بأن دفع زوجها إلى الأعمال الصالحات يزيدها رفعة وشرفًا فى الدنيا، وثوابًا جزيلاً فى الآخرة.

كرمها وحسن توكلها:

من ذلك ما رواه البخارى عن أنس رضى الله عنه قال: قال أبو طلحة لأم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفًا أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء قالت: نعم، فأخرجت أقراصًا من شعير، ثم أخرجت خمارًا لها فلفت الخبز ببعضه، ثم دَسَّتْهُ تحت يدى ولاثتنى ببعضه(٢)، ثم أرسلتنى إلى رسول الله ﷺ، قال: فذهبت به، فوجدت رسول الله ﷺ فى المسجد ومعه الناس، فقمت عليهم،

(١) فتح البارى ٣/ ٢١١.

(٢) لاثتنى ببعضه: أى لفتنى به، يقال: لاث العمامة على رأسه أى عصبها.

فقال لى رسول الله ﷺ: «أأرسلك أبو طلحة»؟ فقلتُ: نعم. قال: «بطعام»؟ قلت: نعم، فقال رسول الله ﷺ لمن معه: «قوموا» فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ بالناس، وليس عندنا ما نطعمهم، فقالت: الله ورسوله أعلم(١)، فانطلق أبو طلحة حتى لقى رسول الله ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه، فقال رسول الله ﷺ: «هلمى يا أم سليم ما عندك»، فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله ﷺ، ففتَّ، وعصرت أم سليم عُكَّةَ فأدمته(٢)، ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء الله أن يقول، ثم قال: «ائذن لعشرة»، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة»، فأذن لهم، فأكل القوم كلهم حتى شبعوا والقوم سبعون أو ثمانون رجلا(٣).

قال الإمام النووى: وفيه منقبة لأم سليم رضى الله عنها، ودلالة على عظيم فقهها ورجحان عقلها؛ لقولها: الله ورسوله أعلم(٤).

رفقًا بالقوارير:

ولقد كانت رضى الله عنها تصحب أمهات المؤمنين فى أسفارهن، وتحظى برفقة النبى ﷺ ورفقه بهن، فيروى أنس رضى الله عنه قائلاً: كانت أم سليم مع نساء النبى ﷺ وهن يسوق بهن سواق، فقال ﷺ: «أى أنجشة رويدًا سوقك بالقوارير»(٥)، ومعناه: أى ارفق فى سوقك بالقوارير.

---

(١) قال ابن حجر: كأنها عرفت أنه فعل ذلك عمدًا؛ ليظهر الكرامة فى تكثير ذلك الطعام، ودل ذلك على فطنة أم سليم ورجحان عقلها. فتح البارى ٦/ ٦٨٢.

(٢) العُكَّة: إناء من جلد مستدير يجعل فيه السمن غالبًا والعسل، والمعنى: أن أم سليم صيرت السمن الذى اعتصرته من العكة إدامًا للخبز.

(٣) البخارى فى الصلاة، باب من دعا لطعام فى المسجد... (١/ ٦١٦) (٤٢٢)، وفى المناقب، باب علامات النبوة فى الإسلام ٦/ ٦٧٨، ٦٧٩ (٣٥٧٨)، وفى الأطعمة، باب من أكل حتى شبع ٩/ ٤٣٧ (٥٣٨١)، وباب من أدخل الضيفان عشرة عشرة ٩/ ٤٨٦ (٥٤٥٠)، ومسلم فى الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه ١٢/ ٢١٧، ٢١٨ (٢٠٤٠).

(٤) مسلم بشرح النووى ٣/ ٢١٩.

(٥) مسلم فى الفضائل، باب رحمته ﷺ بالنساء والرفق بهن ١٣/ ٧٩، ٨٠ (٢٣٢٣).

إن طلاقها لحوب:

ومن فضلها رضى الله عنها أن جعل النبى ﷺ طلاقها من أبى طلحة حوبًا، فقد أراد رضى الله عنه أن يطلق أم سليم، وحين علم ﷺ بذلك قال: «إن طلاق أم سليم لحوب»(١)، أى ظلم وإثم، فأمسك أبو طلحة رضى الله عنه عن ذلك.

ولم تقتصر فضائل أم سليم على ذلك، بل كانت مؤمنة راسخة الإيمان، عاقلة وافرة العقل، مجاهدة فى سبيل الله، زوجًا وأمًا ومربية من طراز فريد.

وفاتها:

عاشت أم سليم رضى الله عنها تؤدى رسالتها حتى أدركت خلافة عثمان رضى الله عنه، وتوفيت زمن خلافته(٢)، رضى الله عنها وأرضاها، فقد كانت طرازًا فريدًا بين النساء المؤمنات، والصابرات المجاهدات.

***

(١) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ٩/ ٢٦٥، وقال: رواه البزار، وفيه على بن عاصم وهو ضعيف وقد وثق، وبقية رجاله رجال الصحيح.
(٢) تقريب التهذيب لابن حجر ٢/ ٦٢٢.

أم حرام بنت مِلحان

رضى الله عنها

(٦)

نَسَبُها

أم حرام بنت ملحان(١):

أما أبوها فهو: ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم ابن عدى بن النجار، الأنصارية النجارية المدنية.

وأما أمها فهى: مليكة بنت مالك بن عدى بن زيد مناة بن عدى بن عمرو بن مالك بن النجار.

فهى رضى الله عنها نجارية من ناحيتى الأب والأم، وبنى النجار هم أخوال النبى ﷺ .

وأما زوجها فهو: عبادة بن الصامت الأنصارى الخزرجى، الصحابى المجاهد، والقاضى المعلم، والإمام القدوة. .(٢).

أسرة مجاهدة:

كانت أم حرام رضى الله عنها من أسرة مؤمنة مجاهدة، عريقة فى أصلها ونسبها، غنية فى تضحياتها وجهادها. .

(١) ابن سعد ٨/٣١٨،٣١٩، وتهذيب التهذيب ١٢/٤٨٩، ٤٩٠، وتاريخ خليفة، ص١٦٠، وسير أعلام النبلاء ٢/٣١٦،٣١٧، وفتوح البلدان، ص٢٠٩، وصفة الصفوة ٢/٤٩، ٥٠،ونسب قريش، ص١٢٤،١٢٥، والمعجم الكبير ٢٥/ ١٣٠-١٣٤، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/٣٦٣، وشذرات الذهب ١/٣٦، والعبر فى أخبار من غبر ١/٢١،والبداية والنهاية ٣/٢٢٣، وتلقيح فهوم أهل الأثر، ص٣٢٢،٣٢٣، والفتح الربانى ٢٢/٣١٦،٣١٧، وأسد الغابة ٥/٥٧٤،٥٧٥، والإصابة ٨/٢٢٢ ،٢٢٣، وأحمد ٦/٤٢٣،ومجمع الزوائد ٩/٢٦٣، وحلية الأولياء ٢/٦١،٦٢،وأعلام النساء ١/٢٥٣ ،وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال ٣/٣٩٧ (١٦)، والأعلام ٢/١٧٢، وتاريخ الإسلام (الخلفاء الراشدين) ص٣١٧،٣١٨، وتذكرة الحفاظ ١/٤٧، والمقتنى فى سرد الكنى ٢/١٦٩ (٦٩٦١)، وتجريد أسماء الصحابة ٢/٣١٦ (٣٨٣٢)، والكاشف ٣/٤٣٩ (١٦٤)، وتحفة الأشراف ١٣/٧١-٧٤(٩٢٨)، وجمهرة أنساب العرب، ص٣٥١،وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء)، ص٤٨٧-٤٩٦، وتهذيب الكمال (المصورة) ٣/١٧٠١، والاستيعاب ٤/٤٤٣، وتقريب التهذيب ٢/ ٦٢٠، والإكمال ٢/٤١٣ والمنتظم ٥/٢٨٨ (٣٨)، والمعين، ص٣١ (١٧٩)، والثقات لابن حبان ٣/١٣٢، والرياض المستطابة، ص٣٢٧،٣٢٨، ومقدمة مسند بقى بن مخلد ، ص٤(١٠٢)،والجرح والتعديل ٩/٤٦١ (٢٣٦٧)، وجمهرة أنساب العرب، ص٣٥١،والإخوة والأخوات، ص١٦٧، والطبقات لمسلم ١/٢١٢ (٥٣٠).

(٢) انظر ترجمته فى: ابن سعد ٣/٩٣،٩٤، وتهذيب الأسماء واللغات ١/٢٥٦،٢٥٧، ودر السماية، ص٤١١.

فأخوها الشهيد: حرام بن ملحان الذى طُعن غدراً من المشركين فى بئر معونة، ولما قُتل صاح متهللاً: الله أكبر فزت ورب الكعبة[١].

وأخوها الشهيد سليم بن ملحان، شهد بدرًا وأحدًا ويوم معونة، وقُتل يومئذ شهيدًا مع مَنْ قُتل مِنَ الأنصار[٢].

وأختها المجاهدة: الغميصاء أم سُليم رضى الله عنها، قال عنهما الإمام النووى: كانت أم سليم وأختها أم حرام خالتين لرسول الله ﷺ من جهة الرضاع، وكانت من فاضلات النساء[٣].

وهى رضى الله عنها أم قيس بن عمرو بن قيس، وزوجها قبل عبادة عمرو بن قيس بن زيد شهدا أُحدًا، وقُتلا شهيدين فيها.

وهى رضى الله عنها خالة الصحابى الجليل أنس بن مالك خادم النبى ﷺ . . إنه ولا شك بيت إيمان وصدق وجهاد، أسهم فى خدمة الإسلام ودعوته بكل أفراده وأعضائه، فكان عريقا فى تاريخه، جديراً بأن يُقتدى به . .

***

---

(١) انظر: فتح البارى بشرح صحيح البخارى، فى المغازى، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة ٧/ ٣٨٥-٣٨٨ (٤٠٩١، ٤٠٩٢، ٤٠٩٠)، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٨٤-١٨٧، وانظر ترجمته فى ابن سعد٣/ ٧١، ٧٢.

(٢) ابن سعد ٣/ ٧٢.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٦٣.

فى رحاب الإيمان

قال ابن سعد: أسلمت أم حرام وبايعت رسول الله ﷺ[١]، وكان إسلامها رضى الله عنها قبل هجرة النبى ﷺ مع أختها أم سليم، ذلك أن وفد يثرب لما لاقى فى النبى ﷺ فى مكة كان من بينهم حرام بن ملحان أخو أم حرام، وعبادة ابن الصامت زوجها، وشرح الله صدروهم للإسلام وارتووا من النبى ﷺ، ثم عادوا إلى المدينة ينشرون هذا الدين بين أهلها، فتجاوبوا معه، ودخلوا فى دين الله عز وجل، وكانت أم حرام وأم سليم من أوائل المسلمات فى المدينة.

وفى العام المقبل وافى إلى الموسم من المدينة اثنا عشر رجلاً لقوا النبى ﷺ فى العقبة، وكان من بين النقباء الاثنى عشر عبادة بن الصامت، الذى عاد مع صحبه الكرام ينشرون دعوة الإسلام فى كل أرجاء المدينة حتى لم يبق فيها بيت إلا ودخله الإسلام.

وبعد أن أسلمت رضى الله عنها ظلت هى ومن معها من الأنصار، ينتظرون قدوم النبى ﷺ مهاجرًا، وكلما مضت الأيام ازدادت شوقًا إلى النبى ﷺ ولقائه، وها هو النبى ﷺ يدخل قباء فتسعد أم حرام أيما سعادة، حيث كانت قباء أول مكان ينزل فيه النبى ﷺ، وقباء سكن بنى عمرو بن عوف الذين هم أهل عبادة رضى الله عنه زوج أم حرام، ومكث النبى ﷺ فى قباء أربعة أيام من الاثنين حتى الخميس، وخرج من بينهم الجمعة، فى هذه الأثناء كانت مبايعة أم حرام - مع أختها أم سليم - للنبى ﷺ على الإسلام.

الأثيرة:

ولقد كانت أم حرام رضى الله عنها - هى وأختها أم سليم - أثيرة عند رسول الله ﷺ، فكان كثيرًا ما يكرمها بالزيارة فى بيتها فى قباء، وكان يبقى عندها أو عند أنس رضى الله عنه وأمه أم سليم، حيث كانتا فى دار واحدة، فربما أكل عندها، ثم يقيل ، حتى يقوم إلى شأنه وحاجته[٢].

---

(١) ابن سعد ٨/٣١٨.

(٢) قال الإمام النووى: قد قدمنا فى كتاب الجهاد عند ذكر أم حرام أخت أم سليم أنهما كانتا خالتين لرسول=

يقول أنس بن مالك رضى الله عنه: دخل علينا رسول الله ﷺ ما هو إلا أنا وأمى وخالتى أم حرام، فقال: «قوموا فلأصل بكم» فصلى بنا فى غير وقت صلاة[١].

وفى رواية عنه قال: كان رسول الله ﷺ يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته وجعلت تفلى رأسه، فنام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ وهو يضحك...[٢].

لقد كانت أم حرام رضى الله عنها تتحلى بمكارم الأخلاق، حيث الكرم والجود، والبذل والإيثار، فكانت تكرم النبى ﷺ غاية الإكرام حين كان يأتيها، وتقوم على خدمته كلما زارها ونزل ضيفًا عندها، وقد كان هذا الخلق الكريم هو القاسم المشترك بين الأنصار جميعًا.

وفى زيارة النبى ﷺ لأم حرام ونزوله عليها منقبة عظيمة لها وشرف كبير، فأى بركة هذه أن يأكل النبى ﷺ عندها ويتناول من طعامها، وأى خير لها ولأهل بيتها أن يصلى النبى ﷺ بهم إمامًا ثم يدعو لهم.. إن من اليُمْنِ والسعادة، والخير والبركة نزول النبى ﷺ فى دار أحدٍ من أصحابه.. وقد كانت أم حرام رضى الله عنها أهلاً لهذا كله..

وما أحرى المسلمة أن تقتدى بأم حرام فى هذا الخلق الكريم، فتكون كريمة مضيافًا.. تقرى ضيف زوجها، وتسعد بقدومه فى أى وقت جاء.

= الله ﷺ محرمين إما من الرضاع وإما من النسب، فتحل له الخلوة بهما، وكان يدخل عليهما خاصة لا يدخل على غيرهما من النساء إلا أزواجه. قال العلماء: ففيه جواز دخول المحرم على محرمة، وفيه: إشارة إلى منع دخول الرجل إلى الأجنبية وإن كان صالحًا. مسلم بشرح النووى ١٦/ ١٥.

(١) مسلم فى المساجد، باب جواز الجماعة فى النافلة ٥/ ١٦٣، ١٦٤ (٦٦٠). وبقية الحديث: فقال رجل لثابت - أحد رواة الحديث - أين جعل أنسًا منه؟ قال: جعله على يمينه، ثم دعا لنا أهل البيت بكل خير من خير الدنيا والآخرة.

قال الإمام النووى: فيه جواز النافلة جماعة، وتبريك الرجل الصالح والعالم أهل المنزل بصلاته فى منزلهم، فقال بعضهم: ولعل النبى ﷺ أراد تعليمهم أفعال الصلاة مشاهدة مع تبريكهم، فإن المرأة قلما تشاهد أفعاله ﷺ فى المسجد، فأراد أن تشاهدها وتتعلمها وتعلمها غيرها، مسلم بشرح النووى ٥/ ١١٢.

(٢) البخارى فى الجهاد، باب الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء ٦/ ١٠ (٢٧٨٨، ٢٧٨٩)، ومسلم فى الإمارة، باب فضل الغزو فى البحر ١٣/ ١٥٧ (١٩١٢)، وأورده فى اللؤلؤ والمرجان ٢/ ٥٧٦، ٥٧٧ (١٢٤٦).

بشارة الشهادة

لقد بشر النبى ﷺ أم حرام رضى الله عنها بركوب ثبج البحر مع المجاهدين فى سبيـل الله، غازية مجاهدة، فـفرحت واستبـشرت، وتمنت أن يكون ذلك من كل قلبها، بـل وأسرعت بطلب الدعاء من النبى ﷺ أن يجعلهـا الله عز وجل منهم، وقد فعل..

روى البخارى ومسلم عن أنس بـن مالك رضى الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ على ابنة ملْحـان، فَاتَّكأَ عندَها، ثم ضحك، فـقالت: لِمَ تضـحكُ يا رسول الله؟ فقال: «ناسٌ من أمتى يركبون البحرَ الأخـضرَ فى سبيل الله، مَثَلُهُمْ مَثَلُ الملوك على الأَسرَّة» فقـالت: يا رسول الله، اُدْعُ الله أن يجعلنى منهم، فـقال: «اللَّهُمَّ اجْـعَلْها منهم»، ثم عاد فضحك، فقالت له: مثْلَ ذلـك، فقال لها مثل ذلك، فقالت: اُدْعُ الله أن يجعلنى منهم، قال: «أنت من الأولين ولست من الآخرين»(١).

وفى رواية أن أنس رضى الله عنه أيضًا قال: كان رسول الله ﷺ يدخل على أم حرام بنت ملْحان فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته، وجعلت تفلى رأسه، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت: وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «ناسٌ من أمتى عُرضوا علىَّ غزاة فى سبـيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكـًا على الأَسرَّة - أو مثل الملوك على الأَسرَّة -» قالت: فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلـنى منهم، فدعا لها رسول الله ﷺ، ثم وضع رأسـه، ثم استيـقظ وهو يضحك، فـقلت: وما يضـحكك يا رسول الله؟ قال: «ناس من أمتى عُرضوا علىّ غزاة فى سبيل الله» -كما قال فى الأول- قالت: فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم، قال: «أنت من الأولين»(٢).

---

(١) البخارى فى الجهاد، باب فضل من يُصرع فى سبيل الله فمات فهو منهم ٦/ ١٧ (٢٧٩٩، ٢٨٠٠)، وباب غزو المرأة فـى البحر ٦/ ٧٦ (٢٨٧٧، ٢٨٧٨) وبـاب ركوب البحـر ٦/ ٨٧، ٨٨ (٢٨٩٤، ٢٨٩٥)، وفى الاستئذان، باب من زار قومًا فقال عندهم ١١/ ٧٠، ٧١ (٦٢٨٢، ٦٢٨٣)، ومسلم فى الإمارة، باب فضل الغزو فى البحر ١٣/ ١٥٧ - ١٦٠ (١٩١٢).

(٢) سبق تخريجه.

الأثر الطيب:

لقد تركت أم حرام أثرًا طيبًا وذكرًا حسنًا، سيظل على مدى الأيام تُذكر به، وذلك في حرصها على نيْل الخير والفوز بالشهادة، والتطلع إلى العلا والرفعة. . لقد كان ضحك النبى ﷺ إعجابًا وفرحًا لما رأى من امتثال المجاهدين من أمته وجهادهم للعدو، وغزوهم للبحر، حافزًا لأم حرام لأن تطلب الدعاء من النبى ﷺ بأن تكون منهم ومعهم؛ لما تعلمه عن منزلة الشهداء عند ربهم. .

فأى همة عالية هذه التى كانت عليها أم حرام؟! إنها الهمة التى ترمى إلى بعيد. . إلى الجنة، والتى تعلو على جواذب الأرض، وشواغل الحياة، وهواتف النفس، فلا تهتم إلا بشىء واحد، ولا يستحوذ على قلبها إلا هم واحد. . . ألا وهو ما تمنته على الله، وما طلبته من رسول الله ﷺ، إن هدفها الأسمى أن تكون مع هؤلاء المجاهدين؛ لتنال درجة الشهادة، وتفوز بالثواب العظيم والنعيم المقيم.

ولم تكتف أم حرام رضى الله عنها بطلب الدعاء من النبى ﷺ بأن تكون مع الأوائل الذين يغزون البحر، بل طلبت منه ﷺ الدعاء فى المرة الثانية أيضًا؛ كى تكون مع الفريق الثانى(١)، حرصًا منها على الخير ومضاعفة الأجر من الله رب العالمين، قال فى الفتح الربانى: قولها فى المرة الثانية: ادع الله أن يجعلنى منهم، أرادت رضى الله عنها أن يضاعف الله لها الأجر مرتين، فسألته أن يدعو لها بأن تكون من الفريق الثانى فى الغزو أيضًا، كما دعا لها أن تكون من الفريق الأول، قال العلماء: وعدم دعائه ﷺ لها فى المرة الثانية؛ لعلمه ﷺ أنها لا تعيش لها(٢).

لله أنتِ يا أمَّ حرام إما أعظمَ إيمانَكِ! وما أجلّ اهتمامك! أين بنات اليوم ونساء اليوم منك، حيث الاهتمام للثوب الأنيق، والأثاث الهنئ، والفراش الوثير؟ لعلهن بك يقتدين، وبسيرتك يهتدين.

---

(١) كانت الطائفة الأولى التى غزت جزيرة قبرص فى عهد عثمان رضى الله عنه بقيادة معاوية بن أبى سفيان سنة ثمان وعشرين أو سبع وعشرين على الخلاف، وكانت الثانية هى التى غزت قسطنطينية فى عهد يزيد بن معاوية. الفتح الربانى ٢٢/ ٤٣٠.

(٢) الفتح الربانى ٢٢/ ٤٣٠.

الحلم المنشود:

وبعد أن بشـر النبى ﷺ أم حرام بأنها ستـكون غازية فى سبيل الله فى البـحر قائلاً لـها: «أنت من الأولين» عـاشت رضى الله عنهـا طيلة أيامـهـا تراودها هذه الأمنية، فكانت دائمًا مستبشرة بهذه البشارة النبوية التى لا تعدلها بشائر الأرض.

ولكن ترى متى يتحقق هذا الحلم المنشود؟

تمضى الأيام حتى تأتى خلافة عثمان رضى الله عنه، فيستأذن معاوية من الخليفة أن يذهب لفتح قـبرص[1]، فيـأذن له، وقد كان رضى الله عـنه إذ ذاك واليًا على الشام، علمت أم حرام بالخبر، فطلبت من زوجها عبادة بن الصامت، أن يأذن لها من عثمان رضى الله عنه بالخروج مع الجيش، فوافق رضى الله عنه، اتجهت رضى الله عنهـا مع زوجها فـركبت البـحر مع الفـاتحين المجـاهدين، وانتهـى الأمر إلى استسلام أهل قبرص وطلبهم الصلح بعد اشـتداد القتال، فصالحهم معاوية على أن يؤدوا الجزية للمـسلمين فى كل عام.. وانتـهت المعركة واسـتعد الجـيش للعودة،

(١) قبرص ثالثة كبـريات جزر البحر الأبيض المتوسط، توجد فى جزئه الشرقى، وتـبعد عن الساحل السورى ٩٠كم، وعن الساحل التركى ٦٥كم، وعن الساحل المصرى ٤٠٠كم، وعن الساحل اليونانى ٩٠٠كم، كما يبلغ أقصى طول لها ٢٣٥كم، وأقصى عرض لها ٩٠كم، ومساحتها ٩٢٥١كم٢.

موقعها استراتيجى، وقد كانت أهم القواعد التى كان العـدو يُغير منها على الثغور الإسلامية فاستنفر معاوية رضى الله عنه العمال، ومن كان لهم خبرات فى صناعة السفن وحشدهم فى عكا، ورمم الحصن والمرفأ وجـعله دارًا لصناعة السفن وتجهـيز الأسطول الإسلامى وإعداده، كـما رمم مدينة صور وشـحنها بالمقاتلة، واستأذن عـثمان رضى الله عنه فى غزو قبرص، فأذن له بشـرط أن لا يحمل الناس كرهًا على ركوب البحر - فـتكون الخدمة البحرية عن طريق التطوع - وأن يصطحب معه زوجـته، وكان المسلمون يفعلون ذلك فى حـروبهم لإظهار النكاية بالعـدو والعزم على بلوغ النصـر، فعين مـعاوية لقيـادة القوة البحرية عبد الله بن قيس الحارثى حليف بنى فزارة، وكان من رجال البحر المعروفين، غزا خمسين غزوة لم يغرق من جيشه أحد ولم ينكب.

ركب معاوية البحر بألف وسبعمائة سفينة ومعه زوجته، وعدد من الصحابة فيهم: أبو ذر والمقداد بن الأسود وأبو الدرداء وشـداد بن أوس وعبادة ومعـه زوجته أم حرام، فـفتح المسلمون قبـرص عام ٢٨هـ صلحًا، واسـتخدمت كقـاعدة إنذار للمسلمين من حـيث يجب على أهلها - بموجب المعاهـدة - إخبار المسلمين عن التحركات المعادية مع استخدام الجزيرة كقاعدة لدعم البحرية الإسلامية.

ولما خـرج المسلمون من الجـزيرة ماتت أم حـرام هناك - كـما أثبـتنا - وقبـرها لا يزال، وكأنه يقـول للمسلمين اليوم: إن هذه الأرض قد أريقت عليـها دماء الصحابة، فانتبهوا إليهـا، ولا تضيعوها ولا تتولوا أعداء الله. حاضر العالم الإسلامى وقضاياه المعاصرة، د.جميل عبد الله محمد المصرى، ص٦٠٩، ٦١٠.

وتهيأت أم حرام رضى الله عنها للعودة كذلك، ولكنها رضى الله عنها كانت قد أسنَّت ووهن جسدها، فقربوا لها بغلة لتركبها فصرعتها فدقت عنقها، أسرع إليها زوجها ومعه عدد من الصحابة يسعفونها، فوجدوها قد لفظت آخر أنفاسها. .

وتحققت البشارة:

ها هى البشارة النبوية قد تحققت، وظفرت أم حرام بما كانت تتمناه، ورزقها الله عز وجل الشهادة، وصدَّق الله رسوله الكريم ﷺ[١]، يقول أنس بن مالك رضى الله عنه: فقد تزوجت - أم حرام - عبادة بن الصامت، وسارت معه مجاهدة، فركبت البحر مع بنت قَرَظة[٢]، فلما قفلت ركبت دابتها، فوقصت بها، فسقطت عنها فماتت[٣].

وبقى قبرها فى قبرص إلى يومنا هذا منارة تحكى قصة المرأة المسلمة المجاهدة فى سبيل الله، ويقف الناس عنده يقولون: هذا قبر المرأة الصالحة[٤]، قال الإمام الذهبى: وبلغنى أن قبرها تزوره الفرنج[٥]، وقال ابن العماد: وتوفيت أم حرام بنت مِلْحان بقبرص فى هذه الغزاة - سنة سبع وعشرين - وكانت مع زوجها عبادة ابن الصامت[٦].

---

(١) قال ابن كثير: وفيه من دلائل النبوة ثلاث: إحداها: الإخبار عن الغزوة الأولى فى البحر، وقد كانت فى سنة سبع وعشرين مع معاوية بن أبى سفيان حين غزا قبرص، وهو نائب الشام عن عثمان بن عفان رضى الله عنهما، وكانت معهم أم حرام بنت ملحان فى صحبة زوجها عبادة بن الصامت، أحد النقباء ليلة العقبة، فتوفيت مرجعهم من الغزو بالشام، وقال ابن زيد: توفيت بقبرص سنة سبع وعشرين، والغزوة الثانية: غزوة قسطنطينية مع أول جيش غزاها، وكان أميرها يزيد بن معاوية بن أبى سفيان، وذلك فى سنة اثنتين وخمسين، وكان معهم أبو أيوب خالد بن زيد الأنصارى، فمات هنالك رضى الله عنه وأرضاه، ولم تكن أم حرام معهم؛ لأنها كانت قد توفيت قبل ذلك فى الغزوة الأولى، فهذا الحديث فيه ثلاث آيات من دلائل النبوة: الإخبار عن الغزوتين، والإخبار عن المرأة بأنها من الأولين وليست من الآخرين، وكذلك وقع، صلوات الله وسلامه عليه، البداية والنهاية ٣/ ٢٢٣.

(٢) هى زوج معاوية رضى الله عنه.

(٣) البخارى فى الجهاد، باب غزو المرأة فى البحر ٦/ ٧٦ (٢٨٧٧، ٢٨٧٨).

(٤) الطبرانى فى الكبير ٢٥/ ١٣٠ (٣١٦) وقال الهيثمى فى المجمع: ٩/ ٦٣، ورجاله إلى قائله رجال الصحيح، وانظر: حلية الأولياء ٢/ ٦٢، وصفة الصفوة ٢/ ٥٠، وتاريخ خليفة، ص١٦٠، وفتوح البلدان، ص٢٠٩.

(٥) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣١٧.

(٦) شذرات الذهب ١/ ٣٦، وكذا قال الذهبى، انظر: العبر فى أخبار من غبر ١/ ٢١.

الموتة الشريفة:

وهكذا نالت أم حرام الشرف الأسمى بهذه الموتة الشريفة، لقد حرصت رضى الله عنها على الموت فى سبيل الله، فوهب الله لها الحياة الخالدة، فأى فضل هذا الذى حازته هذه المؤمنة المجاهدة، بأن تموت غازية فى أرض نائية، لم تمت على الأرض التى تربت عليها ونشأت بين ربوعها، وإنما كانت منيتها الحميدة، هناك فى قبرص، فى تلك الجزيرة التى تقع فى وسط البحر الأبيض المتوسط، لم يثنها عن الخروج وحشة الطريق ولا وعورته، ولا ثبج البحر وموجه، ولا مفارقة الوطن وتركه، ولم يقعدها سنها الكبير وجسدها الضعيف.. ولكنه حب التضحية والجهاد الذى ملك قلبها، والشوق إلى نيل الشهادة، والبشرى التى لاحت لناظريها، إن هذا فى حق الرجال لمن النادر العجيب، فكيف إذا كان ذلك من امرأة كأم حرام وهى فى سن الضعف والكهولة... ولكن لا عجب فهى مؤمنة بلغ بها الإيمان مبلغه، وطبعها اليقين بطابعه، حتى استخفت بالحياة ولم تبال بها، وانحصرت همتها فى بلوغ ما عند الله، فعلم سبحانه صدق إيمانها وإخلاصها فأنالها ما عنده، وما عند الله خير للأبرار.

قوة إرادة:

وعندما نقرأ سير الأولين من الأصحاب رضوان الله عليهم - غير أم حرام - نرى أن أكثرهم قد مات خارج بلده، فهذا أبو أيوب الأنصارى يرقد عند أسوار القسطنطينية، وهذا عقبة بن عامر يرقد فى مصر، وهذا بلال يرقد فى دمشق.. وغيرهم الكثير والكثير، وهكذا فقد اندفع هؤلاء الأصحاب فى أصقاع الأرض يرفعون راية الإسلام، ويبذلون الغالى والرخيص فى سبيله. وهذا خير دليل على أن الإرادة القوية تعطى من الجهد ما يتحدى المصاعب والآلام، وإن الإرادة الضعيفة عاجزة حتى مع وجود الوسائل والإمكانيات.

ولقد ذكر الله عز وجل هؤلاء الأصحاب فى قرآن يُتلى حيث قال: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢][1].

(١) قواعد الدعوة إلى الله، د. همام سعيد، ص٣١، بتصرف.

الذكر الحسن:

وإذا كانت أم حرام رضى الله عنها قد تركت أثرًا طيبًا فى حرصها على نيْل الخير والفوز بالشهادة فى حياتها، فقد تركت وراءها ذكرًا حسنًا بعد مماتها. . ها هم أولاء الناس يقفون على قبرها، ويقولون: هذا قبر المرأة الصالحة، إنه الثناء عليها بالخير، والشهادة لها بالصلاح، وهذا هو الذكر الحسن الذى يتركه الإنسان بعد موته، فيضف عمرًا إلى عمره، ويحيا وهو ميت، ويؤدى رسالة للأحياء وهو مقبور، ولا عجب أن كان من دعاء أبى الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وعلى حد ما قال الشاعر:

فارفع لنفسك بعد موتك ذِكْرَها فالذِّكْر للإنسان عمر ثانِ

فوائد جامعة:

قال ابن حجر بعد شرحه لحديث أم حرام رضى الله عنها: وفيه من الفوائد: الترغيب فى الجهاد والحض عليه، وبيان فضيلة المجاهد، وفيه جواز تمنى الشهادة، وأن من يموت غازيًا يلحق بمن يُقتل فى الغزو، وفيه مشروعية القائلة لما فيه من الإعانة على قيام الليل، وثبوت فضل الغازى إذا صلحت نيته، وفيه فضل المجاهدين إلى يوم القيامة؛ لقوله ﷺ فيه: «ولست من الآخرين» ولا نهاية للآخرين إلى يوم القيامة، وفيه ضروب من إخبار النبى ﷺ بما سيقع فوقع كما قال، وذلك معدود من علامات نبوته، منها: إعلامه ببقاء أمته بعده وأن فيهم أصحاب قوة وشوكة ونكاية فى العدو، وأنهم يتمكنون من البلاد حتى يغزوا البحر، وأن أم حرام تعيش إلى ذلك الزمان، وأنها تكون مع من يغزو البحر، وأنها لا تدرك زمان الغزوة الثانية. .[1].

***

(١) فتح البارى ١١/ ٧٧، ٧٨.

فضائل أم حرام

قال الإمام الذهبى عن أم حرام: كانت رضى الله عنها من عِلْية النساء[١]، وقال أبو نعيم فى الحلية: حـميدة البر، شهـيدة البحر، التواقـة إلى مشاهدة الجنان، أم حرام بنت ملحان[٢]، وقال الزبيدى: ولها مقـام عظيم بظاهر الجزيرة، اجتزت بها فى البحـر عند توجهى إلى بيت المقدس، وأخـبرت أن على مقـامها أوقـافًا هائلة وخدمًا، وينقلون لها كـرامات.. وقالت (البلاد)[٣]: قبرها معروف إلى الآن فى جزيرة قبرص باسم: قبر المرأة الصالحة[٤].

حسبها رضى الله عنها هذا الذكـر الحسن والأثر الطيب إلى اليوم وبعد اليوم.. وحسبها- كـذلك-ما نالته من الفضل العظيم والفوز الكبير بالشـهادة فى سبيل الله التى بشرها بها المعصوم ﷺ، فكانت شهيدة البحر.

البشارة بالجنة:

ومن غُرر فضائلها التى فـاقت بها: بشارة النبى ﷺ لها بالجنة، وأعظم بها من بشارة.. فـعن عمير بـن الأسود العنسى أنه أتى عبـادة بن الصامت وهو نازل فى ساحة حمص، وهو فى بناء له ومعه أم حرام، قال عمير: فحدثتنا أم حرام رضى الله عنها، أنها سمعت النبى ﷺ يقول: «أول جيش من أمتى يغزون البحر قد أوجبوا» قالت: أم حـرام: قلت يا رسول الله أنا فيـهم؟ قال: «أنت فيـهم»، ثم قال النبى ﷺ: «أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم»، فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: «لا»[٥].

وقوله ﷺ: «قد أوجبوا» أى فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنة، فلتقر عينك يا أم حرام بالفوز بالشـهادة، وهنيئًا لك الجنة، ولقد شـهد لك الأنام بالصلاح، فكانت شهادة حق وصدق..

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣١٦.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ٦١.

(٣) جريدة البلاد بجدة ٢٥/ ١/ ١٣٧٩هـ.

(٤) الأعلام للزركلى ٢/ ١٧٢.

(٥) البخارى فى الجهاد، باب ما قيل فى قتال الروم ٦/ ١٠٢ (٢٩٢٤).

الزوج الكريم:

ولقد حباها الله عز وجل بالزوج الكريم الصالح: عبادة بن الصامت، الذى قال عنه عمر بن الخطاب بأنه يعدل ألف رجل، ذلكم أن لما استمد عمرو بن العاص وهو فى مصر عمر بن الخطاب، فبعث إليه بأربعة آلاف على رأسهم أربعة من رجالات الإسلام، عدّ كل واحد منهم بألف رجل، وكان عبادة بن الصامت أحد هؤلاء الأربعة، وكان عبادة رضى الله عنه من سادات الخزرج ومن نقبائهم ليلة العقبة، ومن أعيان البدريين، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وبايع النبى ﷺ بيعة الموت، فكان من الذين شهد الله لهم بالإيمان، وأسبغ عليهم نعمة الرضوان: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:١٨، ١٩]، وصدق الله القائل: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ..﴾ [النور:٢٦].

ومن الجدير بالذكر أن أم حرام رضى الله عنها كانت قد أنجبت منه رضى الله عنه محمد بن عبادة بن الصامت..

المُحدِّثةُ المجاهدة:

هذا ولقد جمعت رضى الله عنها إلى جانب جهادها العظيم روايتها الحديث عن رسول الله ﷺ، فقد كانت حافظة واعية لما تسمعه عن رسول الله ﷺ، روت عن النبى ﷺ خمسة أحاديث، وأخرج لها منها فى الصحيحين حديث واحد متفق عليه، قال الذهبى: حديثها فى جميع الدواوين سوى جامع أبى عيسى(١)، وروى عنها: ابن أم حكيم بنت الزبير، وأنس بن مالك، وعمير بن الأسود العنسى، ويعلى ابن شداد بن أوس، وعطاء بن يسار، وزوجها عبادة، وغيرهم(٢).

رضى الله عن أم حرام فقد كانت من فاضلات النساء، تركت أثرًا طيبًا على مدى الأيام والأعوام، فحق على كل مسلمة أن تقتدى بها فى سيرتها وجهادها، وتنسج على منوالها، لعلها تلتقى معها فى جنات النعيم.. وحسن أولئك رفيقًا.

(١) سير أعلام النبلاء ٢/٣١٦.

(٢) تهذيب التهذيب ١٢/٤٨٩، ٤٩٠، وأعلام النساء ١/٢٥٣.

أسماء بنت عميس
رضى الله عنها
(٧)

نَسَبُها

أسماء بنت عميس(١):

أما أبوها فهو: عُمَيْس بن مَعْد بن تيم بن الحارث بن كعب بن مالك بن قحافة ابن عامر بن ربيعة. . .

وأما أمها: فهى هند بنت عوف بن زهير بن الحارث، التى قيل فى حقها: أكرم عجوز فى الأرض أصهاراً، فقد زوجت اثنتين من بناتها إلى النبى ﷺ، وهما: زينب بنت خزيمة، وميمونة بنت الحارث، وزوجت بناتها الباقيات إلى أفضل رجالات العرب وأشرافهم، فقد تزوج حمزة بن عبد المطلب أختها سلمى، وتزوج أخوه العباس أم الفضل لبابة الكبرى، وتزوج الوليد بن المغيرة أختها العصماء لبابة الصغرى، أما أسماء فقد تزوجها جعفر بن أبى طالب(٢).

---

(١) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٨٠- ٢٨٥، والبداية والنهاية ٨/ ٣٣١، والروض الأنف بهامش السيرة ١/ ٢٩٣، وحلية الأولياء ٢/ ٧٤-٧٦، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٢٨٢-٢٨٧، وأسد الغابة ٧/ ١٦-١٨، والإصابة ٤/ ٢٣١، والاستيعاب بهامش الإصابة ٤/ ٢٣٤-٢٣٦، وصفة الصفوة ٢/ ٦١-٦٣، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٣٩٨، ٣٩٩، والفتح الربانى ٢٢/ ٤١٩، والمعجم الكبير للطبرانى ٢٤/ ١٣١-١٥٧، ومجمع الزوائد ٩/ ٢٦٣، والأساس فى السنة (السيرة النبوية) ٤/ ٢١٩٤-٢١٩٧، وتهذيب الكمال ٣/ ١٦٧٨، وجمهرة أنساب العرب، ص٣٨، ٦٨، ٣٩٠، ٣٩١، والثقات ٣/ ٢٤، وتاريخ الطبرى ١١/ ٦٢٣، وتلقيح فهوم أهل الأثر، ص٣٢٣، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٢٤٤ (٢٩٥٧)، وتاريخ الإسلام (عهد معاوية)، ص١٧٨، ١٧٩، ونسب قريش، ص٨١، والمغازى، ص٧٣٩، ٧٦٦، ٧٦٧ وأحمد ٦/ ٤٥٢، والمعارف ١٧١، ١٧٣، وفتوح البلدان، ص٤٥، ٤٥٥، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٣٠، ٣٣١، وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال ٣/ ٣٧٤ (٥)، وأعلام النساء ١/ ٥٧، ٥٨، والأعلام للزركلى ١/ ٣٠٦، ودر السحابة، ص٥٤٥، وإمتاع الأسماع ٦/ ٢٧٣، ٢٧٤، وتقريب التهذيب ٢/ ٥٨٩، ونهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب، ص٣٥٥، والعقد الثمين ٨/ ٨٠ (٣٣٠١)، والمعين فى طبقات المحدثين، ص٢٩ (١٥٥)، وطبقات خليفة، ص٣٤٢، والطبقات لمسلم ١/ ٢١٢ (٥٢٣)، والمنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ٥/ ١٥٤ (٣٠٤)، والكاشف ٣/ ٤٢٠ (٥)، وتاريخ المدينة المنورة ١/ ١١١، وتهذيب الكمال (المصورة) ٣/ ١٦٧٨ ومقدمة مسند بقى بن مخلد، ص٨٥ (٥٨).

(٢) انظر ترجمته فى طبقات ابن سعد ٤/ ٣٤-٤١.

إسلامها:

قال ابن سعد: أسلمت أسماء بنت عميس رضى الله عنها قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم[١] بمكة، وبايعت وهاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها جعفر ابن أبى طالب، فولدت له هناك عبد الله ومحمدًا وعونًا..[٢].

لقد كانت رضى الله عنها مع زوجها من السابقين إلى الإسلام، فحازت نعمة السبق إلى هذا الدين، وأخذت مكانها مبكرًا فى دعوة الإسلام.

***

(١) هو الأرقم بن أبى الأرقم بن أسد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكانت داره بمكة على الصفا، وهى الدار التى كان النبى ﷺ يكون فيها فى أول الإسلام، وفيها دعا الناس إلى الإسلام، وأسلم فيها قوم كثير، انظر: طبقات ابن سعد ٣/ ٢٤٢، والمستدرك ٣/ ٥٠٢، ٥٠٣.

(٢) ابن سعد ٨/ ٢٨٠، ٢٨١، والإصابة ٤/ ٢٣١.

الزوجة

تزوجت أسماء رضى الله عنها من جعفر بن أبى طالب ابن عم النبى ﷺ وهو شقيق على بن أبى طالب ويكبره بعشر سنين، وكان إسلامه بعد خمسة وعشرين رجلاً، وقيل: بعد واحد وثلاثين رجلاً.

ويبدو -والله أعلم- أن أسماء رضى الله عنها كانت الأسبق إلى الإسلام، إذ كان إسلام الأرقم سابع سبعة فى الإسلام، وكان إسلامها رضى الله عنها قبل دخول النبى ﷺ دار الأرقم التى كان يدعو فيها الناس إلى الإسلام(١).

ولم يرد ما يوضح فى أى عام كان زواجهما رضى الله عنهما، وإن كان فى الغالب فى العام الثالث من البعثة النبوية.

فى صحبة زوجها إلى الحبشة:

بعد أن اشتد أذى المشركين بالمسلمين، وأصابهم من البلاء الكثير، فكان أن أمرهم النبى ﷺ بالهجرة إلى الحبشة قائلاً لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه».

واستجاب المسلمون للنبى ﷺ وخرجوا فارين بدينهم، وخرجت أسماء رضى الله عنها فى صحبة زوجها جعفر أمير المهاجرين.

وفى الحبشة استقر بهما الأمر، وأمنا من أذى المشركين.. وهناك وضعت أسماء رضى الله عنها أول مولود للمسلمين على أرض الحبشة هو عبد الله بن جعفر، ثم رُزقت بعده بـ(عَوْن) ومحمد ابنى جعفر.

لبث الزوجان فى أرض الحبشة سنين عددًا، كانت أسماء فيها خير عون لزوجها على المضى فى طريق دعوة الإسلام، حيث كان رضى الله عنه المتحدث باسم الإسلام فى الحبشة، إذ استطاع ببيانه وفصاحته أن يؤثر فى النجاشى ومن حوله

(١) ابن سعد ٣/ ٢٤٢.

من البطارقة، وكان من ثمرة ذلك أن أدرك النجاشى عظمة هذا الدين، فأسلم على يد جعفر وأحسن نُزُلهم وجوارهم، وعاش المهاجرون فى ظلال عدله، وكان الأمر كما قالت أم سلمة أم المؤمنين: وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.

ومع أن للهجرة معاناتها وآلامها، إلا أنها كانت رضى الله عنها من الصابرات المجاهدات، صبرت على ابتلاءات الهجرة، وضحت بجهدها فى سبيل الله، وبذلت هى وزوجها كل شىء من أجل دينها، فكانت هجرتها إلى الحبشة شهادة صدق لها بأنها تؤثر ما عند الله، والله خير وأبقى.

ومما حدث لها على أرض الحبشة أن النجاشى وُلد له ولد بعد ما ولدت أسماء ابنها عبد الله بأيام، فأرسل النجاشى إلى جعفر رضى الله عنه، ما سميت ابنك؟ قال: عبد الله، فسمى النجاشى ابنه عبد الله، وأخذته أسماء فأرضعته حتى فطمته بلبن ابنها عبد الله بن جعفر، ونزلت بذلك عندهم منزلة كبيرة، فكان من أسلم بالحبشة يأتى أسماء بعد يَخْبرُ خبرهم[(١)].

ولقد دل هذا الخبر على قوة الصلة بين أسماء رضى الله عنها وبين أهل بيت النجاشى، وعلى مدى ما كان بينهما من التواد والمحبة، وعلى ما وجده نساء النجاشى فى أسماء رضى الله عنها من قدوة طيبة وأخلاق حسنة مما كان له أكبر الأثر فى دخول عدد كبير منهن فى الإسلام.

ظلت أسماء وزوجها فى الحبشة آمنيْن على دينهما إلى أن أرسلت قريش مبعوثين إلى النجاشى يطلبان منه أن يرد القوم إلى قريش... ومن ثم يعودون إلى ما كانوا يفعلون بهم من قبل، ليفتنوهم عن دينهم، وبعد حوار كان المتحدث فيه جعفر، عَاد وفد قريش بغير طائل.

عودة وفرحة:

استمرت إقامة أسماء مع زوجها فى الحبشة إلى يوم فتح خيبر فى أواخر العام السادس، والذى كان نصراً عظيماً وفتحاً كبيراً، وكان مثار غبطة المسلمين وفرحهم، وقد ساوى النبى ﷺ بهذه الفرحة الكبيرة فرحته بمقدم جعفر بن أبى

(١) نسب قريش، لمصعب الزبيرى، ص٨١.

طالب وإخوانه الذين هاجروا معه إلى الحبشة فرارًا بدينهم من الفتنة، ومكثوا هناك بضعة عشر عامًا.

عاد هؤلاء المهاجرون وعلى رأسهم جعفر وزوجه أسماء، بعد أن عز الإسلام وقامت دولته فى المدينة، فلما وصلوا، قال النبى ﷺ -وهو يقبل جعفرًا بين عينيه، ويعانقه ويلتزمه فى ابتهاج وغبطة-: «والله ما أدرى بأيهما أُسر، بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟»[١].

لقد كان فرحه ﷺ عظيمًا وحفاوته بالغة بالمهاجرين القادمين من الحبشة، شهدت أسماء رضى الله عنها هذا الاستقبال العظيم، فسعدت سعادة عظيمة، وهدأت نفسها وقرت عينها، ونسيت ما لاقته من عناء فى هجرتها.

ولكم هجرتان:

مرت الدعوة الإسلامية خلال الفترة التى قضاها المهاجرون فى الحبشة بأحداث جسام، حيث نزل أكثر القرآن خلال هذه الفترة، وقامت حروب ومعارك دامية بين المسلمين وكفار مكة، وأصيب المسلمون بهزات عنيفة، وقُدمت تضحيات غالية، وبُذلت دماء وأموال.. حتى ظن بعض الصحابة أنهم أفضل من هؤلاء المهاجرين الحبشيين، غير أن النبى ﷺ أشاد بموقف هؤلاء المهاجرين من الحبشة، ونوه بأفضليتهم فى الهجرة على المهاجرين من مكة إلى المدينة.

ففى الصحيح عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: كان أناس من الناس يقولون لنا -يعنى لأهل السفينة -سبقناكم بالهجرة، ودخلت أسماء بنت عميس -وهى ممن قدم معنا -على حفصة زوج النبى ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشى فيمن هاجر، فدخل عمر على حفصة -وأسماء عندها- فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس، قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟[٢] قالت أسماء: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة، فغضبت وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ويعظ

(١) الطبرانى فى الكبير ٢/١٠٨ (١٤٦٩)، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٩/ ٢٧٥: رواه الطبرانى مرسلاً، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) نسبها إلى الحبشة لسكناها فيهم، وإلىٰ البحر لركوبها إياه، فتح البارى ٧/ ٥٥٥.

جاهلكم، وكنا فى دار -أو فى أرض- البُعَدَاء البُغضاء بالحبشة، وذلك فى الله وفى رسوله ﷺ، وأيم الله لا أطعم طعامًا، ولا أشرب شرابًا حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نُؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبى ﷺ وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه.

فلما جاءت النبى ﷺ قالت يا نبى الله، إن عمر قال كذا وكذا، قال: «فما قلت له»؟ قالت: قلت له كذا وكذا، قال: «ليس بأحق بى منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان»[(١)].

فانظر إلى هذه المرأة العظيمة التى كانت من السابقات إلى الإسلام، كيف تحملت أذى الكفار أيام الشدة والكرب والضيق، ثم هاجرت مع زوجها إلى الحبشة على ما كان يكتنف تلك الهجرة من مصاعب ومشاق ومخاطر، محتسبة كل ذلك فى سبيل الله ونصرة دينه، ثم ما كان منها حين أحسنت فى إقامتها الحجة على فضل المهاجرين الأوائل إلى الحبشة، ونالت من رسول الله ﷺ شهادة فخر واعتزاز لهذه الثلة الكريمة بنيلهم الهجرتين، وإنه لشرف عظيم أن يكون لهم ذلك الفضل فى المسارعة إلى نصرة هذا الدين ومفارقة الأهل والأوطان فى سبيل الله.

وكم كانت فرحة أسماء رضى الله عنها بهذا الفضل العظيم، فطابت نفسها وانفرجت أساريرها وعلا وجهها البشر والسرور، أما المؤمنون المهاجرون فقد كانوا يأتونها جماعات يسألونها عن هذه المكرمة النبوية الكريمة وهم فى فرح وسرور، عبرت عنه رضى الله عنها بقولها: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوننى أرسالاً[(٢)] يسألونى عن هذا الحديث، ما من الدنيا شىء هم به أفرح ولا أعظم فى أنفسهم مما قال لهم النبى ﷺ، قال أبو بردة: قالت أسماء: فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث منى[(٣)].

---

(١) البخارى فى المغازى، باب غزوة خيبر ٧/ ٥٥٤ (٤٢٣٠، ٤٢٣١)، ومسلم فى فضائل الصحابة باب فضائل جعفر بن أبى طالب وأسماء بنت عميس وأهل سفينتهم ١٦/ ٦٤، ٦٥ (٢٥٠٢).

(٢) أرسالاً: أفواجًا، فوجًا بعد فوج.

(٣) انظر تخريج الحديث السابق.

وهكذا نعلم مدى التنافس الحميد الذى كان بين المسلمين رجالاً ونساء نحو نصرة الله عز وجل وإعلاء كلمته، يوم كان الإسلام يعيش فى قلوبهم غضًا طريًا ناطقًا بحب الله ورسوله وعزة هذا الدين، وواجب المسلمات اليوم أن يحرصن على التأسى بمن أخلصن دينهن لله، وترفعن عن مآرب الدنيا، وتحملن كل التضحيات من أجل دينهن.. وأن يقمن بواجبهن الإيمانى إلى جانب أزواجهن، ويشاركنهم الهدى والخير.

فصبر جميل:

وفى السنة الثامنة للهجرة فى جمادى الأولى -وكان قد مضى على عودة جعفر وأسماء رضى الله عنهما من الحبشة سنة وشهران -ندب النبى ﷺ الناس للخروج إلى مؤتة، واستعمل على المسلمين زيد بن حارثة، وقال: «إن أصيب زيد فجعفر ابن أبى طالب، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة..» ثم ودع النبى ﷺ الجيش، وأوصاهم بتقوى الله عز وجل، ثم التقى الجمعان فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وقاتل زيد حتى قُتل، فأخذ اللواء جعفر بن أبى طالب وقد أبلى بلاءً عظيمًا وهو يمتطى صهوة جواده، فلما اشتد البأس ترجل عنه وعقره -كيلا ينتفع به العدو- وقاتل راجلاً بسيفه.. وانطلق يشتد مع ذلك على العدو حتى قُتل، وكان ابن ثلاث وثلاثين..

ولقد أطلع الله عز وجل نبيه ﷺ بما لاقى جيشه فى ذلك اليوم، وعلم باستشهاد جعفر مع أصحابه، واتجه النبى ﷺ بنفسه إلى بيت جعفر، وكانت زوجته أسماء قد قامت بشؤون البيت، فعجنت، وغسلت بنيها، ونظفتهم وطيبتهم، تقول أسماء رضى الله عنها: فدخل علىَّ رسول الله ﷺ فقال: «يا أسماء، أين بنو جعفر»؟ فجئت بهم إليه، فضمهم وشمهم، ثم ذرفت عيناه، فبكى، فقلت: أى رسول الله لعله بلغك عن جعفر شىء، قال: «نعم قُتل اليوم»، قالت: فقمت أصيح، فاجتمع إلىّ النساء، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا أسماء لا تقولى هُجْرًا ولا تضربى صدرًا»، قالت: فخرج رسول الله ﷺ حتى دخل على ابنته فاطمة وهى تقول: واعماه، فقال رسول الله ﷺ: «على

مثل جعفر فلتبك الباكية» ثم قال: «اصنعوا لآل جعفر طعامًا فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم»[(١)].

إن أسماء رضى الله عنها تعطى درسًا عظيمًا للنساء فى قيامها بواجبات الزوجة المسلمة الصادقة فى غياب زوجها فتدبغ وتعجن وتغسل. . . كل ذلك تقوم به محتسبة أجرها عند الله، لا تضيق به ولا تستثقله.

ولما علمت رضى الله عنها من النبى ﷺ باستشهاد زوجها لم يستلب الحزن صوابها، ولم يفقدها السيطرة على نفسها، بل صبرت واحتسبت زوجها عند الله.

إن المسلمة الراشدة لتؤمن أن الموت حق، وإنه لن تموت نفس حتى تستوفى أجلها، وأن الحياة ممر إلى الآخرة، حيث الخلود والنعيم للشهداء الذين هم أحياء عند ربهم يُرزقون، ومن هنا فلا معنى للجزع الذى يفقد الإنسان فيه صوابه وتوازنه، ولذلك فإن النبى ﷺ وجه أسماء رضى الله عنها ألا تقول هُجْرًا ولا تضرب صدرًا، أما الحزن الذى يعتلج فى القلب، والدمع الذى ينسكب من العين على الميت الحبيب الراحل، فهذا كله من العاطفة الإنسانية المشروعة المفطورة فى النفس، والرحمة الربانية التى غرسها الله فى القلب.

ولم ينس النبى الرؤوف الرحيم ﷺ أن يستوصى ببنى جعفر، فأمر أن يُصنع لهم طعامٌ، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم، وفى اليوم الثالث من استشهاد جعفر دخل النبى ﷺ: فقال: «لا تبكوا على أخى بعد اليوم ادعوا لى بنى أخى» قال[(٢)]: فجيء بنا كأننا أفراخ[(٣)] فقال: «ادعوا لى الحلاق»، فجيء بالحلاق فحلق رؤوسنا، ثم قال ﷺ[(٤)]: «أما محمد[(٥)] فشبيه عمنا أبى

(١) ابن سعد ٨/ ٢٨٢، والسيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٧٣، والبداية والنهاية ٤/ ٢٥١، ورواه مختصرًا أبو داود فى الجنائز، باب صفة الطعام لأهل الميت، ص٥٣٩ (٣١٣٠)، والترمذى فى الجنائز، باب ما جاء فى الطعام يصنع لأهل الميت، ص٢٨٩ (٩٩٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه فى الجنائز، باب ما جاء فى الطعام يبعث إلى أهل الميت ص٢٦٩ (١٦١٠) جميعًا عن عبد الله بن جعفر، والحديث حسن.

(٢) القائل عبد الله بن جعفر.

(٣) يعنى: صغار جدًا كزغب الطير.

(٤) بعد الحلق للتودد والتلطف.

(٥) محمد بن جعفر الشهيد.

طالب(١)، وأما عبد الله فشبيه خَلْقى وخُلُقى»، ثم أخذ بيدى(٢)، وقال: «اللهم اخلف جعفرًا فى أهله، وبارك لعبد الله فى صفقة يمينه»(٣) قالها ثلاث مرات، قال: فجاءت أمنا، فذكرت له يُتْمَنَا وجعلت تحزنه، فقال: «العَيْلَةَ(٤) تخافين عليهم وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة»(٥).

وفى رواية لابن سعد قال: لما أصيب جعفر أرسل النبى ﷺ إلى امرأته أن ابعثى إلىّ بنى جعفر، فأُتى بهم، فقال النبى ﷺ: «اللهم إن جعفرًا قد قدم إليك إلى أحسن الثواب، فاخلفه فى ذريته بخير ما خلفت عبدًا من عبادك الصالحين»(٦).

لقد حظى جعفر رضى الله عنه بدعاء مبارك من النبى ﷺ بأن يخلفه الله فى ذريته، فأحسن ما خلف أحدًا من عباده فى ذريته، فكانوا عبادًا صالحين وبررة أوفياء.

أما عبد الله فقد كان كبير الشأن كريمًا جوادًا(٧)، بل كان سيد أجواد العرب وأنبل فتيانهم، تعاهدته أمه منذ صغره بالتربية الحسنة، وأسبغت عليه من الفضائل والمكارم التى كان بها من البارزين فى الجود والكرم، والتى كانت بها من نساء الإسلام الخالدات.

---

(١) يعنى أنه شبيه جده فى الخلقة.

(٢) يد عبد الله بن جعفر راوى الحديث.

(٣) أى فى كل ما يعمله ويعقده من بياعات.

(٤) العيْلة: الفقر والفاقة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ [التوبة: ٢٨].

(٥) أحمد ١/ ٢٠٤، ٢٠٥، وإسناده صحيح على شرط مسلم، وبعضه عند أبى داود والحاكم وصححه ووافقه الذهبى، وانظر: تاريخ الإسلام للذهبى (عهد الخلفاء الراشدين)، ص٣٥٦.

(٦) ابن سعد ٤/ ٤٠.

(٧) عمل رضى الله عنه بالتجارة فكان يربح فيها ربحًا وفيرًا ببركة دعاء النبى ﷺ، وله رضى الله عنه أخبار فى الجود والبذل، فكان رضى الله عنه لا يرد سائلاً يسأله حاجة، حتى لامه بعض جلسائه فى ذلك فقال: إن الله عودنى عادة، وعودت عباده عادة، عودنى أن يعطينى وعودت عباده أن أعطيهم، فأخشى إذا قطعت عادتى عن عباده أن يقطع عادته عنى، قال الذهبى: عبد الله بن جعفر.. السيد العالم، القرشى الهاشمى، الحبشى المولد، المدنى الدار، الجواد ابن الجواد ذى الجناحين، له صحبة ورواية، عداده فى صغار الصحابة، كفله النبى ﷺ بعد أبيه ونشأ فى حجره. سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٥٦-٤٦٢، وانظر: تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر ٧/ ٣٢٨-٣٤٧.

وأما عون ومحمد فقد كانا على خير وبر وتقوى، اهتمت أمهما بتربيتهما، فلم تترك فرصة لتوجيههما إلا اغتنمتها، ولم تدع سانحة لنصحهما إلا أفادت منها، فقد كانوا جميعًا ذرية بعضها من بعض.

ولقد كان النبي ﷺ يرعى آل جعفر ويكفلهم من بعده، ويقدم لهم كل ما يحتاجونه من عون، ألم يقل ﷺ إنه وليهم في الدنيا والآخرة؟ ومما يدل على ذلك ما رواه جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال لأسماء بنت عميس: «مالي أرى أجسام بني أخي ضارعة[1] تصيبهم الحاجة؟[2]» قالت: لا ولكن العين تسرع إليهم، قال: «ارقيهم». قالت: فَعَرَضْتُ عليه[3]، فقال ﷺ: «ارقيهم»[4].

وفاء الزوجة:

لقد كانت أسماء رضي الله عنها شديدة الحزن على جعفر، وفية له بعد وفاته، وكان من وفائها له أن رثته بقصيدة قالت فيها:

فآليتُ لا تنفكُّ نفسي حزينة ... عليك ولاينفكُّ جلدي أغبرا

فلله عينا من رأى مثله فتى ... أكر وأحمى في الهياج وأصْبرا[5]

وتقديرًا لوفائها وحياتها مع زوجها يأتيها السلام من زوجها وهو مع جبريل وميكائيل عليهما السلام، فيأمرها ﷺ بأن ترد عليه السلام، يروي ابن عباس رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ جالس وأسماء بنت عميس قريبة منه إذ قال: «يا أسماء، هذا جعفر بن أبي طالب قد مر مع جبريل وميكائيل فردي عليه السلام»[6].

زواجها من أبي بكر:

مضى جعفر بن أبي طالب في مواكب الشهداء، طائرًا بجناحيه في الجنة التي هي أحب لنفسه وأقر لعينه من الدنيا وما فيها، وخلَّف زوجته أسماء شابة

(١) ضارعة: نحيفة، والمراد أولاد جعفر رضي الله عنه.

(٢) تصيبهم الحاجة: أي الجوع.

(٣) أي عرضت عليه ﷺ رقية.

(٤) مسلم في السلام، باب استحباب الرقية من العين.. والنظرة ١٤/ ١٨٥، ١٨٦ (٢١٩٨).

(٥) البداية والنهاية ٤/ ٢٥٢.

(٦) الإصابة ١/ ٢٣٨.

صغـيرة، فحـزنت عليه حزنًا شـديدًا، وضمت رضى الله عنها أولادها تحـتضنهم وتعطف عليـهم، ولم يكن جـعـفر رضى الله عنه قـد ترك لهم مـا يعـينهم على تكاليف الحيـاة، إذ كانت حيـاته كلها هجرة وجـهادًا، ولم يكد يستـقر فى المدينة حتى استشهد فى سبيل الله.

ولقد علم أبو بكر رضى الله عنه بـحال أسماء ومـعاناتها مع أولادها، فتـقدم للزواج منهـا إكرامًـا للشهـيد فـى شخص زوجـه وأولاده، ولتجـد من يكرمهـا ويحفظها..

استشار أبو بكر النبى ﷺ فى أمر زواجه منهـا، فوافق ﷺ وقام بتزويجها يوم حنين، وعاشت رضى الله عنها مع أبى بكر حـياة طيبة، وكانت أثيرة لديـه يحبها وينزلها من قلبـه منزلاً حسنًا، أما هى فكانت ترعـاه أجمل الرعاية وتقف بجـانبه وتشد من أزره، وتعينه على تحمل أعباء الخلافة ومهامها، روى الطبرانى عن قيس ابن أبى حازم أنه قـال: دخلنا على أبى بكر رضى الله عنه فى مرضه فـرأينا امرأة بيضاء موشومة اليدين[١] تذب عنه[٢] وهى أسماء بنت عميس[٣].

المبرأة:

وحدث مرة أن دخل الصـديق بيته فوجد نفـرًا من بنى هاشم عنده وهو غائب عن البيت، وليس بالدار سـوى أسماء رضى الله عنهـا، فلما رآهم رضى الله عنه كره ذلك، فضاقت نفسه الكريمة بدافع غيرته على أهل بيته، والتقى الصديق بالنبى ﷺ فأخبـره بما حدث، وقال له: لم أر إلا خيرًا، إنه رضـى الله عنه شهد بالحق والصـدق، ولم يقل ذلك إلا لضيق فى صـدره، فقـال ﷺ: «إن الله قـد برأها من ذلك».

إنها شـهادة من المعصوم ﷺ بطهـارتها وحفظهـا لعرضها ودينهـا ونفى السوء عنهـا، ومن ثم فإن النبى ﷺ لا يدع الأمـر يفوت من غـير عـلاج له، ولا يدع

(١) موشومة اليدين: منقوشة اليدين بالوشم.

(٢) تذب: تدفع عنه الذباب.

(٣) الطبرانى فى المعجم الكبير ٢٤/ ١٣١ (٣٥٩)، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٥/ ١٧٣: ورجاله رجال الصحيح، وابن سعد ٨/ ٢٨٣.

للشيطان مجالاً للوسوسة والشكوك، فيسن لأمته ما يحتاطون به، فيقول ﷺ بعدما صعد على المنبر: «لا يدخلن رجل بعد يومى هذا على مُغيبة[(١)] إلا ومعه رَجُلٌ أو اثنان»[(٢)].

صحبة كريمة:

خرجت أسماء مع زوجها أبى بكر رضى الله عنهما إلى حجة الوداع مع النبى ﷺ، وعند ذى الحليفة[(٣)] فوجئت أسماء بآلام الوضع، وولدت محمد بن أبى بكر، وخشيت أسماء أن تحرم من أداء فريضة الحج بسبب نفاسها، وأن يُطلب منها الرجوع إلى المدينة، ولكن النبى ﷺ أمر أبا بكر بأن تغتسل وتهل[(٤)]، وأدت رضى الله عنها مناسك الحج مع زوجها، وتمضى الأيام سراعًا، فيتولى الصديق الخلافة بعد رسول الله ﷺ، فتزداد معه تبعاتها ومسئولياتها إذ هى اليوم زوجة الخليفة أبى بكر الصديق، وقد كانت من قبل المؤمنة المبايعة، وبعدها كانت المهاجرة الصادقة، ثم الصابرة المحتسبة، وقفت رضى الله عنها بجانب زوجها، وشدت من أزره، وأعانته على تحمل أعباء الخلافة، بل فى أحرج فترات مرت بها الدعوة الإسلامية فى عهده لما ارتد مانعو الزكاة.

الوداع:

وما كاد العام الثانى من خلافة الصديق يوشك أن ينتهى حتى شعر رضى الله عنه بدنو أجله، فأوصى أسماء رضى الله عنها بأن تغسله بعد موته، وقد كان ذلك من حُسن عشرتها ومكانتها عنده، فلما جاء اليوم الذى مات فيه الصديق قامت

---

(١) المغيبة: بضم الميم وكسر الغين المعجمة وإسكان الياء، وهى التى غاب عنها زوجها عن منزلها، سواء غاب عن البلد بأن سافر، أو غاب عن المنزل وإن كان فى البلد.. مسلم بشرح النووى ١٤/ ١٥٥.

(٢) مسلم فى السلام، باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها ١٤/ ١٥٤، ١٥٥ (٢١٧٣)، عن عبد الله ابن عمرو العاص.

(٣) وفى رواية عند الشجرة، وفى رواية بالبيداء، وهذه المواضع الثلاثة متقاربة، فالشجرة بذى الحليفة، وأما البيداء فهى بطرف ذى الحليفة، مسلم بشرح النووى ٨/ ١٣٣، ١٣٤، وذو الحليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة، ومنها ميقات أهل المدينة. انظر: معجم البلدان ٢/ ٢٩٦.

(٤) مسلم فى الحج، باب إحرام النفساء واستحباب اغتسالها للإحرام وكذا الحائض ٨/ ١٣٣ (١٢٠٩)، والحديث عن عائشة رضى الله عنها.

أسماء فغسلتـه كما أوصاها، وكانت رضى الله عنها صائمة، فـسألت من حضرها من المهاجرين، فقالت: إنى صائمـة، وهذا يوم شديد البرد، فهل علىّ من غُسل؟ فقالوا: لا، وكـان أبو بكر رضى الله عنه قد عزم عليهـا أن تفطر لأنه أقوى لها، فذكرت يمـينه من آخر النهار، فدعت بماء فـشربت، وقالت: والله لا أتبعـه اليوم حنْثًا[1].

وهكذا تكون الزوجة الوفية تطيع زوجها بعد موته كما كانت تطيعه أثناء حياته، وهذا هو الوفاء المحمود الذى يُحمد لها ويظل ذكرًا لها.

لقد كـانت رضى الله عنها مـن أعظم النساء قـدرًا، وأعلاهن منزلة وفـضلاً، وأشدهن تمسـكًا والتزامًا بدين الله، فـما أحـرى المسلمة اليـوم أن تقتـدى بها فى أخلاقها، وتنسج على منوالها فى كل مواقفها.

فى بيت على رضى الله عنه:

تزوج على بن أبى طالب أسمـاء بعد وفاة زوجها أبى بكر، فكـانت ثانية نساء علىّ بعـد وفاة فاطـمة الزهراء بنت النبى ﷺ، وكـان على رضى الله عنه أراد أن يتزوج أسماء فى حياة فاطمة، ولكن النبى ﷺ كره ذلك؛ لما فى ذلك من المضارة التى قد تقع على فـاطمة إذ يؤذيها ذلك، وما يؤذيهـا يؤذى رسول الله ﷺ، فعن أسمـاء بنت عمـيس قالت: خـطبنى علىّ، فبلغ ذلك فـاطمة، فـأتت النبى ﷺ فقالت: إن أسـماء متزوجة عليًا، فـقال رسول الله ﷺ: «ما كـان لها أن تؤذى الله ورسوله»[2]، فترك على الخطبـة، ولم يتزوج أسماء إلا بعد وفاة فـاطمة، عاشت أسماء رضى الله عنها مع على، ولازمته فى سرائه وضرائه، وانتقل محمد بن أبى بكر مع أمه إلى بيـت على الذى رباه وقربه منه، وتلد أسمـاء ولدين لعلى بن أبى طالب هما: يحيى وعون، فيجتمع لديها أبناء جعفر وابن أبى بكر، ويشبوا جميعًا فى حجر علىّ رضى الله عنه يكفلهم ويرعاهم، فكان لأولادها جميعًا أبًا ثانيًا.

(١) ابن سعد ٨/ ٢٨٤.

(٢) الطبـرانى فى الكبـير ٢٤/١٥٢، ١٥٣ (٣٩٢)، وفى الأوسط ٥/ ١٣٩ (٤٨٩٢)، وقـال الهـيثـمى فى مجمع الزوائد ٩/ ٢٠٦: وفيهما من لم أعـرفه، وأورده ابن حجر فى المطالب العالية ٤/ ٦٧ (٣٩٧٩).

وخص عليّ رضى الله عنه محمد بن أبى بكر بالرعاية لصغر سنه، فصار يلازمه دائمًا، حتى شبّ على الخلق والتقوى، وصار يُدعى بـ(عابد قريش)؛ لما عرف عنه من العبادة والاقتداء بعلى رضى الله عنه، ثم كان مقتله رضى الله عنه وهو فى ريعان شبابه، إذ كان عمره آنذاك ثمانية وعشرين عامًا.

صبر واحتساب:

واستقبلت أسماء رضى الله عنها الخبر المؤلم بصبر واحتساب، ها هى رضى الله عنها تبتلى فى ابنها أشد الابتلاء، فلقد عاصرت رضى الله عنها الفتنة واكتوت بنارها بمقتل ابنها، ولكن إيمانها بالله عز وجل جعلها تتغلب على حزنها وتصبر صبرًا جميلاً، يقال إنها لما علمت بمقتل ابنها فى مصر دخلت مسجد بيتها وكظمت حزنها، حتى فاض ثدياها دمًا[١].

ويمتد الأجل بأسماء رضى الله عنها حتى تفجع بقتل زوجها علَىّ على يد أعدائه، فتحزن عليه حزنًا شديدًا.

أرأيت إلى هذه الابتلاءات المتتابعة التى واجهتها هذه المؤمنة الصابرة، إنها لم تكن بالسهلة الهينة، وإنما هى مصائب ومحن تنحنى أمامها هامة القوى الجَلْد، ويضيق بها صدر الحليم، ولكن كان الصبر فى حياتها علامة بارزة منذ شبابها، وكانت رضى الله عنها مستودعًا للصبر والتسليم، ومثالاً ونموذجًا يقتدى به كل مسلم ومسلمة فى الإيمان والثبات والصبر والوفاء.

***

(١) الإصابة ٤/ ٢٣١.

علمها

اشتهرت أسماء رضى الله عنها بتأويل الرؤيا، وكان عمر رضى الله عنه يسألها عن تعبير الرؤيا فتجيبه، روى ابن سعد بسنده أن عمر خطب الناس يوم الجمعة فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أما بعد: أيها الناس إنى أريت رؤيا لا أُراها إلا لحضور أجلى، رأيت أن ديكًا أحمر نقرنى نقرتين، فحدثتها أسماء بنت عميس، فحدثتنى أنه يقتلنى رجل من الأعاجم(١).

ولقد استفادت رضى الله عنها من هجرتها إلى الحبشة، وتعلمت هنالك بعض أنواع الطب والتداوى، فحينما مرض النبى ﷺ مرضه الأخير، وكانت حمى شديدة. قالت أسماء بنت عميس: لدوه، فلما أفاق ﷺ قال: «من أمركم بهذا»؟ قالوا: أسماء بنت عميس، قال: «هذا طب أصابته بأرض الحبشة»، ثم قال: «ما الذى كنتم تخافون علىّ»؟ قالوا: ذات الجنب، قال: «ما كان الله ليسلطها علىّ»(٢).

ومن علمها رضى الله عنها أنها كانت تسأل النبى ﷺ حين تحتاج إلى السؤال، سألت النبى ﷺ قائلة: إن ولد جعفر تسرع إليهم العين، أفأسترقى لهم؟ فقال: «نعم، فإنه لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين»(٣)

روايتها للحديث:

ومن علمها رضى الله عنها أنها كانت من المكثرات فى رواية الحديث، حيث روت عن النبى ﷺ ستين حديثًا، وروى لها البخارى ومسلم وأصحاب السنن.

حدث عنها ابنها عبد الله بن جعفر، وابن أختها عبد الله بن شداد، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والشعبى عامر بن شرحبيل، والقاسم بن محمد بن أبى بكر، ومن الصحابة: عمر بن الخطاب، وأبو موسى الأشعرى، وعبد الله بن عباس(٤).

---

(١) ابن سعد ٣/ ٣٣٥.

(٢) ابن سعد ٣/ ٢٣٥، ٢٣٦، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق فى مصنفه ٥/ ٤٢٨، ٤٢٩ (٩٧٥٤) (٩٧٥٤) من حديث أسماء، وإسناده صحيح، وصححه الحاكم ٤/ ٢٠٢ ووافقه الذهبى.

(٣) الترمذى فى الطب، باب ما جاء فى الرقية من العين، ص٥٦٥ (٢٠٥٩) وقال: حديث حسن صحيح، وانظر: أسد الغابة ٦/ ١٥.

(٤) تهذيب التهذيب ١٢/ ٣٩٨، ٣٩٩.

الوفاء والوفاة

كانت أسماء بنت عميس رضى الله عنها لجعفر بن أبى طالب، ثم لأبى بكر من بعده، ثم خلفهما على رضى الله عنه، فتفاخر مرة ولداها محمد بن جعفر ومحمد بن أبى بكر، فقال كل منهما: أنا أكرم منك، وأبى خيرٌ من أبيك، فقال لها علىّ رضى الله عنه: اقضى بينهما، قالت: ما رأيت شابًا من العرب خيرًا من جعفر، ولا رأيت كهلاً خيرًا من أبى بكر، فقال علىّ: ما تركت لنا شيئًا، ولو قلت غير الذى قلت لمقتك، قالت: إن ثلاثة أنت أقلهم لخيار(١).

فى الرجاحة عقلها، ويا لفطنة إجابتها، ويا له من وفاء عظيم، تضرب به المثل الأعلى فى تقدير الزوج والتنويه بفضائله وذكر شمائله، ونشر محاسنه، لقد أعطت رضى الله عنها كُلاًّ من أزواجها ما يستحق من التقدير، فجعفر خير الشباب، وأبو بكر خير الكهول، وأما على رضى الله عنه فقد أرضته، وإن كان أقلهم إذ أدخلتهم جميعًا فى زمرة الخيار، ويُتبع عليًا كلامها بقوله: ولو قلت غير الذى قلت لَمَقَتُّك! إنه رضى الله عنه لا يرضى إلا الحق، وهو يعلم قدر جعفر وأبى بكر، ولو قالت غير هذا لكان الكذب والبعد عن الحقيقة ولجرّ هذا عليها المقت.

لقد كان الوفاء فى حياتها -كذلك- معلمًا بارزًا، ولعل وفاءها بمن تزوجت بهم، لون من ألوان الوفاء الذى يجدر التنويه به والإشارة إليه، إذ هو الوفاء الذى يجب أن تكون عليه المسلمة المهتدية بالله التى تحترم الحقوق ولا تنسى الفضل لصاحبه، فوفاؤها له بعد موته عديل وفائها له وهى بين أفياء نعمته وأكناف داره.

حكمة وفطنة:

ولقد تجلى فى رد أسماء رضى الله عنها الحكمة والذكاء، حيث استطاعت رضى الله عنها أن توفق بين ابنيها المتنازعين دون أن تجرح شعور أحدهما أو تهشم

(١) ابن سعد ٨/ ٢٨٥، وحلية الأولياء ٢/ ٧٥، ٧٦.

كبـرياء نفسهمـا الأبية، ونظر الأخوان الصـغيران إلى بعضـهما، فلم يعد مـجال للتشاجر، فإذا بهما يتعانقان.

وانظر كيف ردت على عليٍّ رضى الله عنه، فلم تغب عنها الحكمة أبدًا، نظرت إلى على نظرة أودعتهـا كل حنانها وحبها، وقالت: إن ثلاثة أنت أخـسهم لخيار، ولـم يكتم على دهشته وإعجابه بأسماء وهى تفضل الصديق وجعفر عليه، وإعجابه الهائل بها وهو الزوج الكريم لها، فقال لها بشهامة الرجال الخالدين: لو قلت غير هذا لمقتُّكِ، وإنها لقمة من قمم العظمة بلا مراء..[1].

أما وفاتها رضى الله عنها، فقد ماتت بعد حياة حافلة بالصبر والجهاد والتضحية والفداء، عاشت بعد علىّ رضى الله عنهما[2] بعدة أشهر، وبعد مقتل ابنها محمد بن أبى بكر بسنة واحدة، وذُكر أنها توفيت سنة ٦٠ هـ.

***

(١) الأخوات المؤمنات، د. منير الغضبان، ص٩١، ٩٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/٢٨٧.

فضلها

لم يجتمع لامرأة مسلمة ما اجتمع لأسماء رضى الله عنها من المناقب والفضائل، فقد كانت رضى الله عنها من السابقات إلى الإسلام، المهاجرات الصابرات، وكانت من أنجب النساء، وأكرمهن أزواجًا، وأعظمهن شأنًا ومكانة.

قال الذهبى: أسماء بنت عميس أم عبد الله من المهاجرات الأُول.. أسلمت قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وهاجر بها زوجها جعفر الطيار إلى الحبشة[١]، وقال أبو نعيم فى الحلية: مهاجرة الهجرتين ومصلية القبلتين أسماء بنت عميس الخثعمية المعروفة بالبحرية الحبشية، أليفة النجائب، وكريمة الحبائب، عقد عليها جعفر الطيار، وخلف عليها بعده الصديق سابق الأخيار، ومات عنها الوصى على سيد الأبرار[٢]، وحسبها بذلك شرفًا وفخرًا أن الله عز وجل أكرمها بالزواج من هؤلاء الأماجد الأعلام.

شهادة فخر:

شهد النبى ﷺ لأسماء بإيمانها وصلاحها، فقال ﷺ فى حقها وحق أخواتها: «الأخوات المؤمنات: ميمونة زوج النبى ﷺ، وأم الفضل امرأة العباس، وأسماء بنت عميس امرأة جعفر، وامرأة حمزة وهى أختهن لأمهن»[٣].

لقد بلغت أسماء رضى الله عنها مرتقى الإيمان، وتبوأت منزلة الفضل والإحسان، لذلك كانت هذه الشهادة من النبى الكريم ﷺ.

إن أبرز ما يميز المرأة المسلمة إيمانها العميق بالله رب العالمين، واعتزازها به وانتسابها إليه، وولاؤها له وحده، فلله أنت يا أسماء! ما أعظم إيمانك! وما أكبر فضلك! وما أعظمها من شهادة من رسول الله ﷺ لك ولأخواتك المؤمنات.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٨٣.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ٧٤.

(٣) الحاكم فى المستدرك ٤/ ٣٢، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأقره الذهبى، وابن سعد ٨/ ١٣٨، والإصابة ٤/ ٤١٣، وقال ابن حجر: وهذا سند صحيح، وانظر: صحيح الجامع الصغير ١/ ٥٣٥ (٢٧٦٣)، والسلسلة الصحيحة للألبانى ٤/ ٣٦٣ (١٧٦٤).

أُوليات رائعة:

اختصت رضى الله عنها بأوليات كانت لها مكانتها فى تاريخ الإسلام. من هذه الأوليات: أن ابنها عبد الله بن جعفر كان أول مولود فى الإسلام يُولد فى الحبشة، وزوجها جعفر أول من عقر فرسًا فى الإسلام، وزوجها أبو بكر أول خليفة من الخلفاء الراشدين.

ثم إن أسماء رضى الله عنها أول من أشارت بنعش المرأة، روى ابن سعد عن نافع قوله: لما ماتت زينب بنت جحش أمر عمر مناديًا فنادى ألا لا يخرج على زينب إلا ذو رحم من أهلها، فقالت بنت عميس: يا أمير المؤمنين ألا أُريك شيئًا رأيت الحبشة تصنعه لنسائهم؟ فجعلت نعشًا وغشته ثوبًا، فلما نظر إليه قال: ما أحسن هذا! ما أستر هذا![(١)].

وعن الشعبى قال: أول من أشار بنعش المرأة أسماء بنت عميس، حين جاءت من أرض الحبشة...[(٢)].

وفى رواية: أن فاطمة بنت النبى ﷺ قالت لأسماء بنت عميس: إنى استقبح ما يصنع بالنساء، يطرح على المرأة الثوب فيصفها، فقالت: «يابنة رسول الله ألا أريك شيئًا رأيته بالحبشة؟ فدعت بجرائد رطبة فحنتها[(٣)] ثم طرحت عليها ثوبًا، فقالت فاطمة: ما أحسن هذا وأجمله! إذا مت فغسلينى أنت وعلىّ ولا يدخلن عَلىّ أحد، فلما تُوفيت جاءت عائشة أم المؤمنين تدخل فقالت أسماء: لا تدخلى، فشكت عائشة لأبى بكر، فجاء ووقف على الباب فكلم أسماء فقالت: هى أمرتنى. قال: فاصنعى ما أمرتك، ثم انصرف، فهى أول من غطى نعشها فى الإسلام على تلك الصفة[(٤)].

وصية ودعاء:

هذا ولقد حباها النبى ﷺ بوصية مباركة جدير بكل مسلمة أن تعمل بما فيها، فقد روى عبد الله بن جعفر عن أمه أسماء بنت عميس قالت: قال لى رسول الله

(١، ٢) ابن سعد ٨/ ١١١، ٢٨١.

(٣) أى عطفتها وجعلتها معوجة.

(٤) تاريخ الإسلام للذهبى (عهد معاوية)، ص١٧٨.

ﷺ. «ألا أعلمك كلمات تَقُولينَهُنَّ عند الكرب أو فى الكرب: الله الله ربى لا أشرك به شيئًا»(١).

ثم إنها رضى الله عنها قد حظيت بدعوة مباركة من النبى ﷺ، وذلك حين زوّج رسول الله ﷺ فاطمة عليًا، فلما دخل النبى ﷺ ورآه النساء وثبن وبينهن وبين رسول الله ﷺ سترة، فتخلفت أسماء بنت عميس، فقال لها رسول الله ﷺ: «كما أنت على رسلك من أنت»؟ قالت: التى أحرس ابنتك، فإن الفتاة ليلة يبنى بها لابد لها من امرأة تكون قريبة منها إن عرضت لها حاجة، أو أرادت شيئًا أفضت بذلك إليها، قال: «فإنى أسأل إلهى أن يحرسك من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك من الشيطان الرجيم» قال ابن عباس: فأخبرتنى أسماء أنها رمقت رسول الله ﷺ قام فلم يزل يدعو لهم خاصة لا يشركهما فى دعائه أحدًا حتى توارى فى حجرته(٢).

وفى رواية: قال لها النبى ﷺ: «أأسماء بنت عميس»؟ قالت: نعم. قال: «جئت تكرمين بنت رسول الله؟ قالت: نعم. فقال لها خيرًا ودعا لها»(٣).

تقدير وتكريم:

ولقد كان الصحابة رضى الله عنهم يعرفون لأسماء رضى الله عنها قدرها وفضلها، فكانت تصلها أعطياتها ومخصصاتها من بيت مال المسلمين، حيث فرض عمر رضى الله عنه للمهاجرات الأول ألفًا ألفًا، ومنهن: أسماء بنت عميس، وأسماء بنت أبى بكر، وأم عبد أم عبد الله بن مسعود(٤).

رضى الله عن أسماء وأجزل مثوبتها، ورزقنا حسن الاقتداء وسداد الاعتبار والاتعاظ.

---

(١) الترمذى فى الوتر، باب فى الاستغفار، ص٢٦٥ (١٥٢٢)، وابن ماجة فى الدعاء، باب الدعاء عند الكرب، ص٦٥٥ (٢٨٨٢) بلفظ: علمنى رسول الله ﷺ كلمات أقولهن عند الكرب...

(٢) حلية الأولياء ٢/ ٧٥.

(٣) ابن سعد ٨/ ٢٣.

(٤) ابن سعد ٣/ ٣٠٤.

سلمى بنت عُميس
رضى الله عنها
(٨)

نَسَبُها

سلمى بنت عُميس(١):

إنها إحدى الأخوات المؤمنات اللاتى نِلْن قلادة الفخر والاعتزاز.. قلادة الإيمان من رسول الله ﷺ يوم قال: «الأخوات مؤمنات: ميمونة بنت الحارث، وأم الفضل، وسلمى، وأسماء»

أما أبوها: فهو عميس بن معد بن الحارث بن تيم بن كعب بن مالك بن قحافة ابن عامر بن ربيعة.. الخثعمية.

وأما أمها: فخولة بنت عوف بن زهير بن الحارث، التى حازت على اللقب الرفيع: أكرم عجوز فى الأرض أصهارًا(٢).

وأما أخواتها المؤمنات، فهن: ميمونة أم المؤمنين، ولبابة الكبرى أم الفضل بنت الحارث زوج العباس بن عبد المطلب، وأسماء بنت عميس زوج الشهيد الطيار جعفر بن أبى طالب..

وأما زوجها: فأسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب، ثم خلف عليها بعد استشهاده شداد بن الهاد رضى الله عنهما.

إسلامها:

أسلمت سلمى رضى الله عنها مبكرًا تبعًا لإسلام أختها أسماء، فقد أسلمت رضى الله عنها قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم (٣)، وتأخر إسلام زوجها عنها، رغم رجاحة عقله ونخوته وقوة بأسه وشجاعته وشرف أصله، وكان هذا ما

(١) ابن سعد ٨/٢٠٩، والإصابة ٨/ ١١١، وأسد الغابة ٥/ ٤٧٩، والمعارف، ص ١٣٧، وجمهرة أنساب العرب ص ٣٩٠، ٣٩١، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٢٧٨ (٣٣٤٠)، وسير أعلام النبلاء ٣/ ٤٨٨، والاستيعاب ١٣/ ٤٠، ٤١، وتاريخ الإسلام (المغازى) ص ٤٦٧، وفتح البارى ٧/ ٥٠٦، وجمهرة النسب، ص ٣٤، ١٤٥، والمعجم الكبير ٢٤/ ٣٠٢، وطبقات خليفة، ص ٣٣٠، والاشتقاق، ص ٥٢٢، والمغازى ٢/ ٧٣٨.

(٢)، (٣) انظر ترجمة أختها أسماء بنت عميس فيما سبق.

يملأ قلبها أسى وحزنًا (ولم يكن ينغص عيشها إلا هذا الواقع، إلى أن كان الحدث الذى اهتزت له مكة، واهتز له قلب سلمى رضى الله عنها قبل الجميع..

تقول كتب السيرة: مر أبو جهل برسول الله ﷺ فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ، وكانت هناك مولاة لعبد الله بن جدعان فى مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف عنه عامدًا إلى نادى قريش عند الكعبة فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحًا قوسه راجعًا من قنص له، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على نادٍ من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعز فتى فى قريش وأشدهم شكيمة، فلما مر بالمولاة وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته، قالت: يا أبا عمارة لو رأيت مالقى ابن أخيك محمد آنفًا من أبى الحكم بن هشام، وجده ها هنا جالسًا، فآذاه وشتمه وسبه، وبلغه منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى لم يقف لأحد مُعدًا لأبى جهل إذا لقيه أن يوقع به..

فلما دخل المسجد، نظر إليه جالسًا فى القوم، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه، رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فرُدَّ علىَّ إن استطعت، فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة فإنى والله سببت ابن أخيه سبًا قبيحًا[١].

حدث هذا ولم تعلم به سلمى رضى الله عنها، إلا أنها استبطأت عودة زوجها إلى البيت فباتت على قلق عظيم..

وصل حمزة إلى البيت متجهم الوجه، فلم تجرؤ سلمى على الحديث معه فتمهلت حتى يهدأ، ثم سألته عما ألم به، فقص عليها، فأظهرت مشاركتها لما يعتريه من قلق، وتمنت من كل قلبها لو يستقر على إسلامه، فتصبح أسعد الناس به.

(١) انظر إسلام حمزة رضى الله عنه فى تاريخ الإسلام للذهبى (السيرة النبوية)، صـ ١٧٠، ١٧١.

ثم يقص حمزة رضى الله عنه صراعه مع نفسه قائلاً: لما حملنى الغضب وقلت أنا على قوله، أدركنى الندم على فراق دين آبائى وقومى، وبتُّ من الشك فى أمر عظيم لا أكتحل بنوم، ثم أتيت الكعبة وتضرعت إلى الله أن يشرح صدرى ويُذْهب عنى الريب، فما استتممتُ دعائى حتى زال عنى الباطل، وامتلأ قلبى يقينًا، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما كان من أمرى، فدعا لى بأن يثبتنى الله.

سعدت سلمى رضى الله عنها بإسلام زوجها أيما سعادة، وعاشت قريرة العين فى بيته، وهى ترعى ابنتها عمارة تجد بها لذة دنياها وسعادة وجودها.

الهجرة إلى المدينة:

أصبح كل آمال هذا البيت السعيد أن يمكن الله لدينه فى الأرض، فما أن لاحت تباشير الهجرة إلى المدينة حتى كانت سلمى مع زوجها من المهاجرين إلى المدينة.. عاشت سلمى سالمة فى دار الهجرة مع زوجها الحمزة، وفى يوم ما دخل عليها ليودعها ووجهه يتهلل سرورًا وفرحًا، إذ كانت أول راية عقدها رسول الله ﷺ لعمه الحمزة إيذانًا بإعلان الحرب على المشركين.. ثم كانت مشاركته رضى الله عنه فى بدر، وفيها قتل صناديد الكفر، حتى سرى فى المدينة قول أمية بن خلف وهو يسأل عبد الرحمن بن عوف: من هذا الرجل فيكم المُعَلّمُ بريشة نعامة فى صدره؟ فقال له عبد الرحمن: ذلك حمزة بن عبد المطلب، فقال أمية: ذلك الذى فعل بنا الأفاعيل(١)..

وعاد الركب الكريم من بدر لتتلقى سلمى رضى الله عنها زوجها المجاهد ببشاشة وترحيبٍ كبير..

استشهاد حمزة:

ثم كانت غزوة أحد، وكان حمزة يغلى مثل المرجل، فلقد أحسَّ باختناقٍ طيلة عام ونيف، وما أن وصلت رسالة أخيه العباس عن توجه المشركين من قريش للمدينة، حتى أخذ يثب من الفرح ليتقرب إلى الله بدمائهم، وكانت سلمى سعيدة

(١) ثقات ابن حبان ١/ ١٧٣، وتاريخ الإسلام (المغازى)، صـ ٥٩، ٦٠.

بسعادة زوجها حمزة، لكن علائم القلق على فراقه والخوف عليه كانت تظهر أحيانا على مُحَيَّاها فتخفيها عنه.

وكان اللقاء المنتظر.. وكان حمزة رضى الله عنه أوفر ما يكون اندفاعًا وحماسة وحيوية، حتى ليقول الرواة: إنه أصاب ثلاثين شخصًا من المشركين:

ولكنْ إذا حُمَّ القضاءُ على امْرِئٍ فليس لهُ بَرٌّ يقيه ولا بَحْرُ

فعيون المشركين كلها تتلمظ حقدًا على حمزة، فلقد وَتَرَهُمْ وقتل قادتهم، فلا غرابة أن يهتم بقتله أهل مكة جميعًا.

وكانت صاحبة الثأر هند بنت عتبة، فلقد قُتل أبوها وأخوها وعمها وابنها يوم بدر، وكان الحمزة هو الذى قتل أغلبهم، واغتيل الحمزة اغتيالاً جبانًا، فَمَنْ يَقِفُ له؟ ومَنْ يجرؤُ على تحديه؟

وصب الشرك حقده كله عليه، فراح يثأر منه وهو صريع، هندٌ تمثِّل فيه، فتتخذُ أُذنيه وأنفه قلائد لها، تبقر بطنه، وتلوك كبده ثم تلفظها حين تعجز عن ابتلاعها، أبو سفيان يضرب بالرماح ثناياه ويشمت فيه قائلاً: ذق عقق[1].

ويبلغ الخبر رسول الله ﷺ بمصرع عمه حمزة فيقول: «لن أُصاب بمثلك أبدًا ما وقفت موقفًا قط أغيظ لى مِنْ هذا» ويردف قائلاً: «لولا أن تحزن صفية، وتكون سُنَّةً من بعدى لتركْتُهُ حتى يُحشر من بطون السباع وحواصل الطير»[2].

فصبر جميل:

أما سلمى رضى الله عنها فكانت المفجوعة الولهى، فلقد سقط بطلها صريعًا مجندلاً بأيدى الغادرين، وجزعت جزع الموتورين، وصبرت صبر المؤمنين، ومن أجل هذا قال عليه السلام عندما عاد إلى المدينة وسمع بكاء النساء على قتلاهن، قال كلمته الحزينة الخالدة، وهو لا يرى من يبكى على حمزة إلا سلمى زوجه وصفية أخته: «أما حمزة فلا بواكى له»، وسمعت نسوة الأنصار بالكلمة الحزينة،

(١) أى ذق جزاء فعلك يا عاقّ، وذق القتل كما قتلت مَنْ قتلتَ يوم بدر من قومك، يعنى كفار قريش، لسان العرب ١٠/ ٢٥٧.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٧١.

فارتجت المدينة كلها بالبكاء على سيِّد الشهداء، وتزاحمت النسوة على باب سلمى يشاركنها المصيبة والعزاء، حتى قرَّتْ عين رسول الله ﷺ بأن المفجوعتين صفية وسلمى قد خفَّتْ عنهما لوعة المصيبة بهذه المشاركة، فقال لنسوة الأنصار: «ارجعن يرحمكن الله، فقد آسيْتُنَّ بأنْفُسكنَّ».

لم يعد لسلمى رضى الله عنها بعد ترملها إلا الصبر والأمل[1].

إن وقع المصيبة شديد على قلب سلمى رضى الله عنها، وحمزة رضى الله عنه ليس إنسانا عاديًا.. إنه حمزة الخير، أسد الله وأسد رسوله، وها هو رسول الله ﷺ لعظم ذلك المشهد المهيب يقسم ليمثلن بثلاثين من قريش إن ظفر بهم، وما كان النبى ﷺ ليقول ذلك إلا لفظاعة تلك الجريمة.. إنها جريمة منكرة لا يقوم بها إلا المجرمون الجاهلون.. لقد حرك هذا المشهد الأشجان، وجعل الدموع تنهمر والقلوب تضطرب.. ولكن سلمى رضى الله عنها تقف هنا موقف المؤمنة الصابرة الراضية بقدر الله.. تقف هذا الموقف فى ساعة شدة ينهار فيها الرجال الأقوياء، فتصبر رضى الله عنها أجمل الصبر وأعظمه، وتثبت ثبات المؤمنات، فيا لعظمة إيمانها! وثبات قلبها! وقوة يقينها!

إن سلمى رضى الله عنها بهذا الموقف تضع أمام المسلمة اليوم أروع الأمثلة فى صدق الإيمان، وجميل الصبر، وحسن الاحتساب، وبرد اليقين، والرضا والتسليم..

وهنا يتجلى لنا درس فى التربية عظيم، وهو (أن المرأة المسلمة لتعتقد فى قرارة نفسها أن ما أصابها فى هذه الحياة لم يكن ليخطئها، وما أخطاها ما كان ليصيبها، وكل شىءٍ بقضاء وقدر، ومن ثَمَّ كان أمرها خيرًا كُلُّه، إن أصابتها سرّاءُ لهج لسانها بالشكر للإله المنعم الوهاب، فكانت من الشاكرات الطائعات الغانمات، وإن أصابتها ضراءُ صبَرتْ؛ فكانت من الصابرات الناجيات الفائزات.

بهذا الإيمان الراسخ العميق كانت المرأة المسلمة تتحمَّل الصدمات والفواجع والكوارث، وتتلقاها بنفس مطمئنة بقضاء الله وقدره، وتستعين بالصبر والصلاة والاحتساب، فإذا لسانها ينطلق بالشكر على ما قضى الله وقدر..)[2].

(١) الأخوات المؤمنات، صـ ١٠٦، ١٠٧.

(٢) شخصية المرأة المسلمة، د. محمد على الهاشمى، صـ ٦٢.

حياة جديدة:

(لم تكد تمضى عدة سلمى رضى الله عنها بعد استشهاد حمزة رضى الله عنه، حتى تقدم لها شداد بن الهاد الليثى[١] يخطبها، وتم زواجها به، وبدأت تعانى تجربة جديدة من الحياة، محاولة أن تمسح أحزانها الماضية، وتكظم جرعات الألم المتلاحقة، وبدا طيف حملها الجديد عبد الله بن شداد يسبغ عليها الهدوء والسلوان، وتابعت مسؤولياتها كاملة فى المجتمع الإسلامى حيث استقر بها المقام فى مكة مع زوجها شداد، فهى بجوار أختها أم الفضل، تزورها لمامًا كلما ضاقت بها الهموم.

وجاءت عُمْرةُ القضية فحملت لسلمى أروع بشارة، فلقد رأت رسول الله ﷺ فى مكة يرفع راية التوحيد حول الكعبة، كما أقر عينها وصول أختها أسماء من الحبشة، وإن كانت قد راعها فراق ابنتها عمارة بنت حمزة، وأثلج صدرها فى الوقت نفسه ذلك الحب الشديد لعمارة اليتيمة، يوم اختصم عليها جعفر بن أبى طالب وعلى بن أبى طالب وزيد بن حارثة)[٢].

يحكى البراء رضى الله عنه قصة عمارة فيقول: لما اعتمر النبى ﷺ فى ذى القعدة.. وفيه: فخرج النبى ﷺ -يعنى من مكة- فَتَبِعَتْهُ ابنة حمزة، فنادت: يا عمِّ يا عمِّ، فتناولها على رضى الله عنه فأخذ بيدها، وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك حمِّليها، قال: فاختصم فيها عليٌّ وزيدٌ وجعفر، فقال على: أنا أخذتها وهي بنت عمى، وقال جعفر: ابنة عمى وخالتها تحتى، وقال زيد: ابنة أخى، فقضى بها النبى ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، وقال لعلى: «أنت منى وأنا منك» وقال لجعفر: «أشبهت خُلُقى وَخَلقى». وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا...»[٣].

فيا لعظمة أخلاقهم وتنافسهم! أيهم يكفل ابنة حمزة رضى الله عنه، لقد نظر كل واحد منهم على رعايتها على أنها مغنم لا مغرم.. باب من الأجر يفتحه لنفسه.. فهل نعى هذا الدرس ونتعلمه؟

(١) انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب ٤/ ٢٨٠ (٥٥٦)، والمعارف، صـ ٢٨٢، وطبقات خليفة، صـ ٨.

(٢) الأخوات المؤمنات. د. منير الغضبان، صـ ١٠٨.

(٣) البخارى فى المغازى، باب عمرة القضاء ٧/ ٤٩٩ (٤٢٥١).

يقول ابن حجر رحمه الله: وفيه من الفوائد: تعظيم صلة الرحم بحيث تقع المخاصمة بين الكبار فى التوصل إليها.. وانظر إلى خلق النبى ﷺ العظيم حيث طيب خواطر الجميع، وإن كان قضى لجعفر فقد بين وجه ذلك، وحاصله أن المقضى له فى الحقيقة الخالة، وجعفر تبع لها؛ لأنه كان القائم فى الطلب لها، وفى حديث على عند أحمد.. فقام جعفر فحجل[١] حول النبى ﷺ دار عليه، فقال النبى ﷺ: «ما هذا»؟ قال: شىء رأيت الحبشة يصنعونه بملوكهم، وفى حديث على أيضًا المذكور أن الثلاثة فعلوا ذلك[٢].

أم النجيب:

بعد مضى فترة من زواج سلمى رضى الله عنها من شداد رضى الله عنه، منّ الله عليهما وأخلف عليها خيرًا.بأن رزقهما سبحانه ولدًا مباركا؛ عبد الله بن شداد بن الهاد[٣] وقرت عين سلمى رضى الله عنها بابنها فكان فقيها راوية، عالمًا عابدًا، قال عنه صاحب جمهرة النسب: وهو الفقيه الذى يُحَدَّث عنه[٤].

لقد تعهدته رضى الله عنها بالتربية والرعاية، وأسبغت عليه من الفضائل والمكارم ما أصبح به نابها نجيبًا، يتردد كثيرًا مع ابن خالته عبد الله بن عباس على بيت النبوة العظيم يتلقيان العلم من معينه الصافى.

***

(١) حجل بفتح المهملة وكسر الجيم، أى وقف على رجل واحدة، وهو الرقص بهيئة مخصوصة.

(٢) فتح البارى ٧/٥٠٧.

(٣) قال ابن حزم رحمه الله: وإنما سمى جده عمرو الهادى؛ لأنه كان يوقد ناره للأضياف ولمن ضل، وعبد الله بن شداد فقيه راوية، انظر: جمهرة أنساب العرب، صـ ١٨٢، وتاريخ الإسلام، (حوادث ووفيات ٨١-١٠٠هـ)، صـ ١١١، ١١٢.

(٤) جمهرة النسب للكلبى، صـ ١٤٥.

فضلها ومكانتها

لقد تمتعت سلمى رضى الله عنها بالنسب الشريف والعقل الحصيف، وضمت إلى ذلك خلقًا جميلاً وحسبًا أصيلاً، وحسبها بذلك شرفًا وفخرًا. . انتسبت رضى الله عنها إلى بيت عُرف بالفضل والخير، وكانت أسرتها من الأسر الفاضلة التى أسهمت فى نصرة الإسلام وسابقت إليه منذ بزوغ فجره الأول. .

كانت سلمى رضى الله عنها على نفس المستوى من العظمة التى تجلت فى شخصية زوجها سيد الشهداء حمزة رضى الله عنه إيمانا وثباتًا وتضحية وجهادًا، يشهد لها بذلك منبتها الكريم وإيمانها العميق، ألم يشهد لها النبى ﷺ بأنها من الأخوات المؤمنات! فقال ﷺ فى حقها وحق أخواتها: «الأخوات مؤمنات: ميمونة بنت الحارث، وأم الفضل، وسلمى، وأسماء» وفى رواية: «الأخوات الأربع: ميمونة، وأم الفضل، وسلمى، وأسماء بنت عميس أختهن لأمهن مؤمنات»[(١)].

لقد بلغت سلمى رضى الله عنها مرتقى الإيمان العظيم، وتبوأت من الفضل والإحسان منزلاً، وتجلى فيها شخصية المؤمنة الصادقة الصابرة الراضية بقدر الله، حيث صبرت الصبر الجميل على استشهاد زوجها فاستحقت هذا الفضل من الله سبحانه: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٧].

ثم كانت رضى الله عنها مع زوجها الثانى شداد بن الهاد الصحابى الجليل زوجة وفية ترعى الحق وتصون العهد، وأقر الله عينها بولدها النجيب عبد الله بن شداد والذى كان فيما بعد علمًا من أعلام الإسلام.

رضى الله عن سلمى بنت عميس وأخواتها المؤمنات، وجعلهن فى أعلى عليين، ولنعم دار المتقين.

---

(١) الحاكم المستدرك ٤/ ٣٢، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأقره الذهبى، وابن سعد ٨/ ١٣٨، والإصابة ٤/ ٤١٣، وقال ابن حجر: وهذا سند صحيح، وانظر: صحيح الجامع الصغير ١/ ٥٣٥ (٢٧٦٣)، والسلسلة الصحيحة للألبانى ٤/ ٣٦٣ (١٧٦٤).

أم عمارة
نسيبة بنت كعب الأنصارية
رضى الله عنها
(٩)

نَسَبُها

نَسيبةُ(١) بنت كعب(٢):

أما أبوها: فهو كعب بن عمرو بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم، من بنى مازن بن النجار الأنصارية.

وأما أمها: فهى الرباب بنت عبد الله بن حبيب بن زيد بن ثعلبة بن زيد مناة بن حبيب بن عبد حارثة بن عَضْب بن جُشم بن الخزرج.

فهى رضى الله عنها خزرجية الأب والأم، والخزرج هم أخوال رسول الله ﷺ؛ لأن أم عبد المطلب منهم، وهى سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خراش بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار، وهم بطون منهم: بنو النجار وكعب والحارث وجشم وعوف بنو الخزرج.

وهكذا تكون أم عمارة رضى الله عنها من خير دور الأنصار الذين ذكرهم النبى ﷺ فى حديثه عن أبى أسيد الساعدى، قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير دور الأنصار: بنو النجار، ثم بنو عبد الأشهل، ثم بنو الحارث بن الخزرج، ثم بنو ساعدة، وفى كل الأنصار خير**»(٣).

---

(١) نَسيبةُ: بفتح النون وكسر السين، كما ورد فى أكثر المصادر والتراجم، ورويت بالتصغير كذلك: نُسَيْبَة، انظر: القاموس المحيط للفيروز آبادى، ص١٧٦.

(٢) ابن سعد ٨/ ٤١٢ - ٤١٦، وحلية الأولياء ٢/ ٦٤، ٦٥، وأسد الغابة ٥/ ٦٠٥، ٦٠٦، وأحمد ٦/ ٤٣٩، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٤٧٤، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٢٧٨ - ٢٨٢، وكنز العمال ١٣/ ٦٢٥، وأعلام النساء ٥/ ١٧١ - ١٧٥، والإصابة ٤/ ٤١٨، ٤١٩، والاستيعاب ٤/ ٤٧٥ - ٤٧٨، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٣٠٨ (٣٧١٤)، ٣٣٠ (٤٠٠٨)، وتحفة الأشراف ١٣/ ٩٣، والمنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ٤/ ١٨٩، والمقتنى ٢/ ١٧٠ (٦٩٧٩)، وخلاصة تهذيب الكمال ٣/ ٤٠١، ودر السحابة فى مناقب الصحابة والقرابة، ص٥٥١، وتقريب التهذيب ٢/ ٦٢٣، والكاشف ٣/ ٤٤٢ (١٩٣)، والطبقات لمسلم ١/ ٢١٤ (٥٥٤)، وطبقات خليفة، ص٣٣٩.

(٣) البخارى فى مناقب الأنصار، باب فضل دور الأنصار ٧/ ١٤٤ (٣٣٨٩)، ومسلم فى الفضائل، باب فضائل الأنصار رضى الله عنهم ١٦/ ٦٨، ٦٩ (٢٥١١).

وأما إخوانها فهم: عبد الله بن كـعب أحد المجاهدين الذين شهدوا بدرًا، وكان عامـل النبى ﷺ على المغانم يوم بدر، وشـهد أحـدًا والخندق والمشاهد كلهـا مع رسول الله ﷺ، وتوفى فى خلافة عثمان بن عفان[١].

وأخوها عبـد الرحمن بن كعب، أبو ليلى، شهد أحدًا ومـا بعدها، وهو أحد البكائين، وتوفى فى آخر خلافة عمر رضى الله عنه.

وأخوها - كـذلك - خالد بن كعب، قُتل يوم بئـر معونة، وقيل: إن لـها أخًا اسمه الحارث.

إسلامها:

ولقد أشتهرت رضى الله عنها بكنيتها: أم عُمارة كما اشتهرت باسمها، وحباها الله عز وجل بصلة قرابة بالنبى ﷺ.

سـمعت نسـيبـة رضى الله عنها بالإسـلام مـبكرًا بعد بيـعة العـقبـة الأولى، فأسلمت، فكانت من أوائل المسلمات، فقد بعث رسول الله ﷺ مصعب بن عمير إلى المدينة بعـد العقـبة الأولى، وأمـره أن يقرئ مـسلمى المدينة القرآن ويعلمـهم الإسلام، وفى المـدينة بدأ مصـعب رضى الله عنه يؤدى رسالتـه. . . واستـمر فى دعـوته، فلم يبق بالمدينة على سـعتـها بيـت إلا سمع بالإسـلام إن لم يكن دخل فيه. . فى هذه الأثناء أسلمت رضى الله عنهـا، ثم كان حضورها بيعة الـعقبة فى العام الثالث مع وفد من المسلمين الأنصار.

وهكذا أسلمت أم عمارة رضى الله عنها مع السابقين، وبايعت مع المبايعين، لم يكن إسلامـها رضى الله عنها تقليـدًا أو محاكاة أو تـبعية لزوج، بل كـان إسلام العقل والقلب والإرادة، فوهبت نفسها لهذا الدين الذى آمنت به، تعمل به وتعمل له، وتجاهد فى سبيله. .

***

(١) انظر ترجمته فى أسد الغابة ١/ ٣٧٠، والإصابة ٣/ ٣٢٩، وابن سعد ٣/ ٥١٨.

الزوجة والأم

زواجها:

تزوجت نَسيبة رضى الله عنها بزيد بن عاصم بن كعب بن مبذول بن عمرو بن عوف، فولدت له عبد الله وحبيبًا، صحبا النبىﷺ

وكان زيد بن عاصم رضى الله عنه من السابقين للإسلام وممن حضر العقبة وبدرًا وأحدًا، وكان يكنى بأبى الحسن.

ثم خلف عليها غَزِيّة بن عمرو بن عطية بن خنساء بن مبذول بن عمرو بن غنم ابن مازن بن النجّار، فولدت له خولة، ولها صحبة.

شهد غَزِيّة مع امرأته أم عمارة بيعة العقبة وأحدًا. .

أولادها:

ابنها حبيب بن زيد بن عاصم، شهد العقبة مع أبويه، وشهد أحدًا وأبلى فيها بلاء حسنًا، وهو الذى أرسله النبى ﷺ إلى مسيلمة الكذاب[١].

وأخوه عبد الله بن زيد بن عاصم، يكنى بأبى محمد، ويُعرف بابن أم عمارة صاحب حديث الوضوء[٢]، وشهد مع أبويه العقبة ثم أحدًا، وشهد اليمامة، واشترك مع وحشى فى قتل مسيلمة الكذاب، وقتل يوم الحرة[٣] سنة ثلاث وستين.

(١) انظر ترجمته: فى أسد الغابة ١/ ٣٧٠، والإصابة ٣/ ٣٢٩.

(٢) البخارى فى الوضوء، باب من مضمض واستنشق من غرفة واحدة ١/ ٣٥٥ (١٩١)، ومسلم فى الطهارة، باب فى وضوء النبى ﷺ ٣/ ١٢١، ١٢٢ (٢٣٥).

(٣) الحرة: كل أرض ذات حجارة سود، وأكثر الحرار حول مدينة الرسول ﷺ، والحرة المرادة هنا: حرة واقم، وهى الشرقية من حرتى المدينة كانت فيها الوقعة فتسبت إليها، وسببها: أن أكابر أهل المدينة نقضوا بيعة يزيد بن معاوية، وخرجوا عليه لسوء سيرته، فجهز لحربهم جيشًا عليه مسلم بن عقبة المرى، فالتقوا بظاهر المدينة لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ٦٣هـ. وانهزم أهل المدينة، وقتل جهرًا ظلمًا فى الحرب وصبرًا أفاضل المسلمين، وبقية الصحابة وخيار المسلمين من جلّة التابعين. الأساس فى السنة، سعيد حوى ٤/ ٢١٨١.

وأخوهما تميم بن زيد بن عاصم[١]، يكنى بأبى الحسن، ويُعرف هو وإخوته بنى أم عمارة لشهرتها بين المسلمين، ولبلائها الحسن فى وقائعه وأحداثه.

وأختهم خولة بنت غزية، ذُكر أن لها صحبة.

أسرة مباركة:

تلكم هى أسرة أم عمارة رضى الله عنها، نموذج كريم للأسرة المؤمنة، أسرة أكرمها الله عز وجل بالإسلام، فكانت فى طليعة الأنصار، وكانت فيها أم عمارة قطب الرحى؛ لذلك أنجبت أولادًا بررة، ساروا مع آبائهم فى البيعة، وحضروا معهم كل المشاهد، فأعطوا صورة الأسرة المؤمنة المجاهدة، التى تصدق فى البيعة وتفى بالعهد مع الله رب العالمين، ولا تتخلف عن موطن جهاد فى سبيل الله.

لقد كانت رضى الله عنها قدوة طيبة لأولادها؛ إذ أحسنت تربيتهم، وتعهدتهم بنبل الرعاية وحسن الأدب، فتفتح صباهم كما يتفتح الزهر فى المنبت الطيب، تربوا خير تربية، تربوا على العقيدة والإيمان، وحب الجهاد وطلب المعالى، وتحمل الصعاب، فعاشوا أبطالاً مؤمنين، وماتوا كرماء صامدين، ونالوا شرف الشهادة فى سبيل هذا الدين.

إن الأم إذا صلحت خرّجت ولدًا صالحًا وبنتًا فاضلة، وإذا نظرنا إلى تاريخ العظماء لوجدنا أن السر فى عظمة الكثيرين منهم يرجع إلى ما بثته الأم من مبادئ صالحة وتربية نافعة، وقد أدركت المسلمة مسؤوليتها فى تربية أولادها على مر الزمان، وكانت بارعة فى تكوين الرجال، والتأثير فيهم، وغرس القيم النبيلة فى نفوسهم، وليس أدل على ذلك من تربية أم عمارة لأولادها، فورثوا عنها كريم الأخلاق وحميد الصفات.

***

(١) تقول بعض المصادر بأن تميم من غزية وليس من عاصم.

بيعة ووفاء

حين أراد الله سبحانه أن يكون للإسلام تربة ينمو فيها غرسه، وأرض تقوم عليها دولته، ساق أبناء يثرب من الأوس والخزرج إلى موسم الحج، فأسلم جماعة منهم على يد النبى ﷺ، وعادوا إلى قومهم فانتشر الإسلام بينهم، وكانوا يلتقون بالنبى ﷺ فى كل موسم عند العقبة بمكة يوصيهم ويبايعهم، حتى كان العام الثالث لهم، فتواعدوا عند العقبة أوسط أيام التشريق، وتقدم اثنان وسبعون رجلاً من النبى ﷺ، ووضعوا أيديهم فى يديه واحدًا بعد آخر مبايعين على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم.

ولما انتهى الرجال من البيعة تقدمت امرأتان، فبايعتا النبى ﷺ على ما بايع عليه الرجال، وكانت المرأتان اللتان شرفهما الله عز وجل بهذه البيعة هما: نسيبة رضى الله عنها، وأسماء بنت عمرو بن عدى الأنصارية أم الصحابى الجليل معاذ بن جبل.

عن كعب بن مالك - وكان ممن شهد العقبة وبايع النبى ﷺ - قال: خرجنا إلى الحج، فواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التى وعدنا رسول الله ﷺ. . . فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلل مستخفين تسلل القَطَا، حتى اجتمعنا فى الشِّعْبِ عند العقبة، ونحن سبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائهم: نسيبة بنت كعب أم عمارة، إحدى نساء بنى مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدى بن ثابت إحدى نساء بنى سلمة وهى أم منيع. . . [(١)].

وتحكى أم عمارة عن بيعتها فتقول: كانت الرجال تصفق على يَدَىْ رسول الله ﷺ ليلة العقبة، والعباس آخذ بيد رسول الله ﷺ، فلما بقيت أنا وأم منيع نادى

(١) جزء من حديث طويل رواه أحمد فى مسنده ٣/ ٤٦٠، ٤٦١، وقال الهيثمى في مجمع الزوائد ٦/ ٤٥: رواه أحمد والطبرانى بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح، غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع، وانظر: تاريخ الإسلام للذهبى (السيرة النبوية)، ص ٣٠٧.

زوجي غزية بن عمرو: يا رسول الله هاتان امرأتان حضرتا معنا يبايعنك، فقال: «قد بايعتهما على ما بايعتكم عليه، إني لا أصافح النساء»(١).

وتقول رضى الله عنها: شهدت عقد النبى ﷺ، والبيعة له ليلة العقبة، وبايعت تلك الليلة مع القوم(٢).

إن حضور أم عمارة - ومعها أختها أم منيع - لتبايع النبى ﷺ مع الرجال، ليؤكد على دور المرأة المسلمة، ومسؤوليتها فى حمل الأمانة والقيام بالواجب، لاسيما وأنها المسؤولة الأولى عن تربية الأولاد وتنشئتهم على الإيمان بالله عز وجل، وغرس روح الجهاد فى نفوسهم.

يقول الدكتور الحميدى: ولا شك أن هاتين المرأتين اللتين شهدتا معهم البيعة قد بلغ الإيمان لديهما من القوة إلى الحد الذى دفعهما إلى ركوب المخاطر والمجازفة بالنفس؛ لتشهدا مشهدًا عظيمًا طالما تاقت نفوس المؤمنين إليه، وذلك بسماع كلام من هو أعز عليهم من أنفسهم ﷺ(٣).

إن مبايعة النساء للنبى ﷺ لها عدة دلالات:

الأولى: استقلال شخصية المرأة، وأنها ليست مجرد تابع للرجل بل هى تبايع كما يبايع الرجل، ولم يكن أمر الدعوة مقصورًا على الرجال وحدهم، بل كان النساء يشعرن أنهن مسؤولات عن هذه الدعوة.

الثانية: بيعة النساء هى بيعة الإسلام والطاعة لرسول الله ﷺ، وهذه يستوى فيها الرجال والنساء، وقد كان الرجال يبايعون رسول الله ﷺ أحيانًا وفق بيعة النساء، فعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «تعالوا بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصونى فى معروف...» قال: فبايعناه على ذلك(٤).

---

(١) الإصابة لابن حجر ٤/ ٤٧٩.

(٢) ابن سعد ٨/ ٤١٢.

(٣) التاريخ الإسلامى مواقف وعبر، د. عبد العزيز بن عبد الله الحميدى ٣/ ٩٤، ٩٥.

(٤) البخارى فى مناقب الأنصار، باب وفود الأنصار إلى النبى ﷺ بمكة وبيعة العقبة ٧/ ٢٦٠ (٣٨٩٢).

الثالثة: مبايعة النساء النبى ﷺ تقـوم على أساسين: الأول باعتباره ﷺ الرسول المبلغ عن الله. والثـانى: باعتبـاره ﷺ إمام المسلمين، ومما يؤكـد وجود الاعتـبار الثانى قوله تعالى: ﴿وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢]، وقوله ﷺ عن طاعة الأمير: «إنما الطاعة فى المعروف»(١) (٢).

لقد قامت المرأة المسلمة - ممثلاً ذلك فى نسيبة رضى الله عنها بدور بارز فى بناء دولة الإسلام الأولى، وهى من اليوم الذى بايعت فيه النبى ﷺ تتحمل مسؤوليتها نحو نصرة هذا الدين والالتحاق بركب دعـوته.. إذ كانت رضى الله عنها متحلية بإيمان راسخ ويقين ثابت وقلب لا يرتـاب فى موعـود الله عز وجل، وعـز أن تجد إيمانًا بهذا المستوى فى التاريخ، وإن للمرأة المسلمة اليوم لـعبرة وعظة فيما قدمته أم عمارة لخدمة هذا الدين.

ويكتمل الدور الأجلّ فى حضور زوجها غزية بن عمرو وابناها عبد الله وحبيب أبناء زيد، وهكذا تكون الأسرة المسلمـة المجاهدة، تتربى على العقيـدة وتسير على درب الجهاد.

لقـد حرصت أم عـمارة رضى الله عنهـا على أن تصطحب أولادها للبـيعـة، وتشركهم فى هذا الخيـر العظيم، فكانوا فيما بعد رمزًا للوفـاء والبر والصدق، عَزَّ عليهم دينهم، فهـانت فى سبيله دنياهم، وغلت عندهم عقيـدتهم، فرخصت من أجلها أنفسهم وأموالهم.

***

(١) البخارى فى الأحكام، باب السـمع والطاعة للإمام مالم تكن معصـية ١٣/ ١٣٠ (٧١٤٥)، ومسلم فى الإمارة، بابا وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية ١٢/ ٢٢٦، ٢٢٧ (١٨٤٠)، وكلاهما عن عَلى رضى الله عنه.

(٢) تحرير المرأة فى عصر الرسالة، عبد الحليم أبو شقة ٢/ ٤٢٥، ٤٢٦.

المجاهدة

لقد كانت نسيبة رضى الله عنها تدرك أبعاد البيعة التى بايعتها للنبى ﷺ، وكانت تدرك ما وراءها من تضحيات وتبعات.

فقد تقدمت رضى الله عنها للغزو مع رسول الله ﷺ وصحابته فى عديد من المعارك حينما بدأت المواجهة مع الكفار، وقامت بأعمال جميدة مشهودة من إعداد القرب وملئه بالماء ونقلها، وسقى المجاهدين، وتضميد الجرحى، وحمل القتلى إلى خارج أرض المعركة، ولم تتوان فى ساعات الشدة عن حمل السلاح وخوض غمار الحرب إلى جانب الرسول ﷺ وصحبه.

قال الذهبى رحمه الله: أم عمارة الفاضلة المجاهدة، شهدت ليلة العقبة، وشهدت أحدًا، والحديبية، ويوم حنين، ويوم اليمامة[١]، وجاهدت وفعلت الأفاعيل[٢].

فى غزوة أحد:

ها هى رضى الله عنها تخرج يوم أحد مع زوجها وابنيها، لتضرب أروع الأمثلة للنساء المسلمات، فقد كانت رضى الله عنها من أبرز النساء المجاهدات فى هذه الغزوة، كانت فى أول المعركة تسقى الظِّماء، وتداوى الجرحى كما يصنع غيرها من النساء، فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله ﷺ وتقدمت واستلت سيفها واحتملت قوسها، وهبت تدافع عن رسول الله ﷺ بالسيف، وانضمت إلى القلة الصامدة مع النبى ﷺ التى كانت بمثابة جدار بشرى يحمى النبى ﷺ من سهام المشركين، وكلما دنا الخطر من رسول الله ﷺ سارعت إلى الذَّود عنه، حتى إنها لفتت نظر الرسول ﷺ، فقال: «ما التفت يمينًا ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دونى»[٣].

(١) قال ابن سعد: إن أم عمارة شهدت خيبر وعمرة القضية ٨/٤١٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٧٨.

(٣) ابن سعد ٨/ ٤١٥، وكنز العمال للمتقى الهندى ١٣/ ٦٢٥، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٢٧٩.

إن المسلمة التى تبلغ هـذا القدر من اهتمام النبـى ﷺ وتلفت نظره؛ لهى امرأة بلغت من الشجاعة والثبات والتضحيـة مبلغًا عظيمًا، وإنها لشهادة كريمة من النبى ﷺ بقوة مقاومتها، وحسن بلائها، وجميل الدفاع عنه.

بطولة نادرة:

لقد أبدت رضى الله عنها من الشجاعة الخارقة والفدائية الصادقة فى الدفاع عن رسول الله ﷺ وهو مـتعرض لطعنات الأعداء وضـرباتهم حينما ولى عنه جـمهرة المجاهدين، ووقف وحده لا يزول عن مقامه ولايحول، ما يعجز الأبطال المغاوير، عن مثله.

يقول ابن سعد: شـهدت أم عمارة بنت كعب أحدًا مع زوجهـا غزية بن عمرو وابنيها، وخـرجت معهم بشنٍ لها فى أول النهار تُريد أن تسقى الجـرحى، فقاتلت يومـئذ وأبلَتْ بلاءً حـسنًا وجُـرحت اثنى عشـر جرحًـا بين طعنة برمح أو ضـربة بسـيف، فكانت أمّ سعـيد بنت سـعد بن الـربيع تقول: دخلت عليـها، فـقلت: حدثينى خبرك يوم أُحد. قـالت: خرجتُ أول النهار إلى أحُد، وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعى سقاء فيه ماء، فـانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو فى أصحابه والدولة والريح للمـسلمين، فلما انهـزم المسلمون انحـزت إلى رسول الله ﷺ، فـجعلت أباشر القـتال وأذبُ عن رسول الله ﷺ بالسيف وأرمى بالقـوس حتى خلصَتْ إلىّ الجراح. قالت أم سعيد: فرأيت على عاتـقها جرحًا له غور أجوف، فقلت: يا أم عمارة من أصـابك هذا؟ قالت: أقبل ابن قميئـة - وقد ولىّ الناس عن رسول الله ﷺ - يصيح: دُلونى على محمد فلا نجوتُ إن نجا، فاعترض له مصعب بن عمير وناس معه، فكنت فـيهم فضربنى هذه الضربة، ولقد ضـربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان[1].

إننا يجب أن نشير هنا إلى ما قامت به أم عـمارة رضى الله عنها من التحول عن أداء مهامها كامرأة إلى أداء مهام الرجال الجهادية، وذلك حينما وقعت الإصابة على المسلمين وأُفرد النبى ﷺ فى نفر من أصحابه، فرأت رضى الله عنها أن من واجبها آنذاك أكبر من تقديم الخـدمات المساعدة، فباشرت قتال المشـركين دفاعًا عن رسول الله ﷺ، وحصل منها ما ذُكر من التصدى للأعداء والمشاركة فى رد هجماتهم.

(١) ابن سعد ٨/ ٤١٢، ٤١٣، وسيرة ابن هشام ٣/ ١٥٧، والبداية والنهاية لابن كثير ٤/ ٣٥.

إن هـذه الأعمـال الجهاديـة الخشنة لا يسـتغرب صدروهـا من الرجـال؛ لأنهم -خصوصًا فى ذلك العهد - قد مرنوا عليها، وألفتْ عليها أجسامهم، لكن صدور ذلك من النساء أمر غيـر مألوف عادة، فكَوْن أم عمارة تقوم بذلك الجـهد الكبير، وتواصل الدفاع عن الـنبى ﷺ رغم إصابتهـا بتلك الجراح التى بلغت ثلاثة عـشر يعتبر تضحية كبيرة، وطاقة عـالية غير معتادة، ولا يشك المتأمل بأن هذه الصحابية الجليلة قد حظيـت بعون من الله تعالى، جـعلها تصمـد ذلك الصمود العـجيب، وتقدم ذلك الجهد الكبير[1].

فأى امـرأة هذه، وأية تربية مثـالية هذه؟ امرأة تشـهر سلاحـها، وتقاتل قـتال الأبطال، وتثـبت ثبـات الجبـال، لم تتـردد ولم تجبن ولـم ينخلع قلبـهـا من هول الصدمة، ولم يكن سلاحها الصراخ أو الدموع، بل كانت عقيدتها أثمن لديها من حياتها، وحبها لدينها ولنبيها أقوى من حبها للحياة، وذلك هو الفداء، وتلك هى المحبـة، وما بعـد هذا الحب العظيم الذى تُسـترخص فيـه الروح فى ذاته ﷺ من مزيد، إنه سمو الحب الذى يتقـاصر عنده همم ذوى الهمم، ولا يفسره إلا الإيمان الراسخ العـميق. . . وكلمـا رسخ الإيمان فى القلب أعطى هـذه الثمـار اليانعـة، والقوى الدافعة. .

المقام الكريم:

ولا تزال المعركة مسـتمرة، وأم عمارة تجالد القـوم وتضرب فى نحورهم وتقف موقـفًا فاقت به الكثـير من الرجـال، حتى إن رسول الله ﷺ ليـذكر لها فـضلها ومقامها، قال ابن سعد: فكان ضـمرة بن سعد المازنى يحدث عن جدته - وكانت قد شهـدت أحدًا تسقى الماء - قالت: سمـعت رسول الله ﷺ يقول: «لمقام نسيبة بنت كعب اليـوم خير من مقـام فلان وفلان»، وكان يراها يومئذ تقـاتل أشد القتال، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها، حتى جُرحت ثلاثة عشر جرحًا[2].

إنها لشـهادة صدق، هى أعظم شـهادة من أعظم مخلوق شـهيد، تتـوج هامة الشرف والفضل والشـجاعة والبطولة لهذه الفدائيـة العظيمة، وتضعهـا فى مصاف

(١) التاريخ الإسلامى مواقف وعبر ٥/ ١٤٨، ١٤٩.

(٢) ابن سعد ٨/ ٤١٣.

البطولة الإسلامية الخالدة فى تاريخ الحياة، وتضعها فى سجل الفدائية حرفًا فى أول سطر من سطور الفداء الإيمانى، بل تضعها نقطة من النوم فى مشرق شمس الهداية ورسوخ الإيمان وقوة اليقين(١).

وتحكى لنا رضى الله عنها إحدى صور هذه البطولة النادرة، فتقول: قد رأينى وانكشف الناس عن رسول الله ﷺ، فما بقى إلا نفيْر(٢) ما يتمون عشرة، وأنا وابناى وزوجى بين يديه نذبّ عنه(٣) والناس يمرون به منهزمين، ورآنى لا ترس معى، فرأى رجلاً موليًا معه ترس، فقال لصاحب التُرس: «ألق تُرسك إلى من يقاتل»، فألقى تُرسه فأخذته، فجعلت أتترس به عن رسول الله ﷺ، وإنما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل، لو كانوا رجّالة مثلنا أصبناهم إن شاء الله، فيقبل رجل على فرس فضربنى وتترست له فلم يصنع سيفه شيئًا، وولى، وأضرب عرقوب فرسه فوقع على ظهره، فجعل النبى ﷺ يصيحُ: «يا ابن أمِّ عمارة أُمُّك أُمُّك» قالت: فعاوننى عليه حتى أوردته شَعُوب(٤).

ولك أن تفكر وتتأمل فى هذا الموقف لتدرك سر عظمة هذه المرأة، فقد وقفت أمام هذا الفارس المشرك ثابتة القلب والقدم لا تنهزم ولا تخاف، وتعترضه أولاً وتحول دون وصوله إلى النبى ﷺ ثانيًا، ويحاول أن يبادرها بالضرب، ولكنها تتقيه فلا يفعل شيئًا، ويخشى ضرباتها فيحاول الفرار ولكنها لا تتركه يفلت، وتلحقه بضربة سريعة فتصيب عرقوب فرسه، فيتخبط الفرس ويلقى بالفارس على ظهره ورسول الله يرقب المصادمة، وقبل أن يقوم الفرس يصيح رسول الله ﷺ لابن أم عمارة حتى يلحق بالفارس، فيسرع هذا ليجهز معها عليه، كانت راجلة وكان فارسًا، وهى امرأة وذاك رجل، لكنها مسلمة وهو كافر، وهنا يثقل بها الميزان وترجح الكفة(٥).

(١) محمد رسول الله ﷺ، الصادق عرجون ٣/ ٦٠٠.
(٢) أى لم يبق مع النبى ﷺ إلا نفر قليل، وصفته نسيبة رضى الله عنها بأسلوب التصغير.
(٣) أى تدفع عن النبى ﷺ.
(٤) ابن سعد ٨/ ٤١٣، ٤١٤، والشعوب: المَنِيَّة، القاموس المحيط للفيروز آبادى، ص ١٣٠.
(٥) نسيْبة بنت كعب، محمد حسن بريغش، ص٦٠.

إنها رضى الله عنها لم تُقدّم نفسها فى الجـهاد فحسب، بل قدمت ابنيها ليكونا فداء للنبى ﷺ، تدفـعهم للشهادة وتحثـهم على القتال، وتقف أمامـهم قدوة لهم تقاتل دفـاعًا عن دينها وحمـاية لنبيهـا ﷺ، وقد كانت رضى الله عنها مع ابنيـها وزوجها أكثر ثباتًا وشجاعة من أى امرأة أخرى، بل كانت شجاعتها تفوق شجاعة الرجال، إن ذلك يعتبر مثالاً عاليًا لقوة الإيمان، ورسوخ اليقين.

موقف عصيب:

ونمضى مع أم عمارة فى جهادها فى غزوة أحـد، حيث تتعرض لموقف عصيب يحكيه ابنها عبد الله بن زيد، فيقول: جُـرِحْتُ يومئذ جُرْحًا فى عضُدى اليسرى، ضربنى رجل كأنَّه الرقل[١] ولم يُعرِّج علىَّ، ومضى عنى وجعل الدم لا يرقأ[٢]، فقـال رسول الله ﷺ: «اعصب جـرحك»، فتـقبل أمى إلىّ ومـعها عـصائب فى حقـويها[٣] قد أعـدتها للجراح فربطت جُـرحى، والنبى ﷺ واقف ينظر إلىّ، ثم قالت: انهض بُنَىَّ فضارب القوم، فجعل النبىُّ ﷺ يقول: «ومن يطيق ما تطيقين يا أمَّ عمـارة!» قالت: وأقـبل الرجل الذى ضرب ابنى، فقـال رسول الله ﷺ: «هذا ضارب ابنك». قالت: فاعترضت له فضربت ساقه. قالت: فرأيت رسول الله ﷺ يبـتـسم حتى رأيت نـواجذه، وقـال: «استـقـدت يا أم عـمـارة»، ثم أقـبلنا نعله بالسلاح[٤] حتى أتينا على نفسه، فقال النبى ﷺ: «الحمد لله الذى ظَفَّرك وأقَرَّ عينك من عدوكِ وأراك ثأرك بعينك»[٥].

أى بطولة هذه؟! وأى ثبات هذا؟ وأى تضحية هذه؟ إن البطولة تتجلى فى أبدع صورها، وأبهى حللهـا فى أول مقاتلة فى الإسـلام أم عمارة. فلترقب عـيون الرجال هذا المشـهد العظيم، ولتنظر المسلمين هذه الصـحابية المجاهدة، العـاطفة، والأمومة، والأنوثة، والحياة كلها لا تساوى شيـئًا أمام العقيدة إذا واجهت دعوة الله تهديدًا وخطرًا.

---

(١) الرقل: النخل المرتفع.

(٢) أى لا يجف ولا ينقطع.

(٣) الحقو: الخصر والإزار.

(٤) أى نتابع ضربه، أو نسقيه الموت بسلاحنا.

(٥) ابن سعد ٨/ ٤١٤.

أم حنون وفية صادقة، لكن الأمر هنا أعظم وأهم، وزوجة وفية، ولكن الدعوة أكثر أهمية، وهى فى كل ذلك المسلمة الصادقة الوفية، التى بايعت النبى ﷺ على الوفاء والصدق والإيمان، وعرفت معنى البيعة وحقيقة دخولها فى الإسلام، فلم تعد تنظر لأمر بغير نظرة الإسلام، ولم تزن الأحداث بغير ميزان الدعوة.

جاء الأعداء وهم يريدون ﴿أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٢] وتهون عند المسلم التضحيات، فإذا أصابت ابنها الجراح، أو نالت من زوجها الصعاب، أو خلصت إليها الضربات والطعان، فإن هذا لا يقعدها عن مواصلة الجهاد، فالأمر أكثر أهمية مما يصيبها، وعاطفة الأمومة هى التى تدفعها لأن تُنهض ابنها لمواصلة الجهاد؛ لأنها تدرك أن أفضل ما تقدمه أم لابنها هذه الهداية العظيمة والشهادة والجهاد.

إنها تعرف ما أعد الله للمجاهدين والشهداء، فلماذا تخشى على ابنها إذن؟ ومم تخاف؟ إنه بين يدى ربه، وأمام أنظار رسوله ﷺ، وطريقه طريق الجنة، وحياته حياة الشهداء، فلماذا تخاف عليه الجراح والقتل؟ جاءت إليه تعصب جراحه حتى لا تمنعه من مواصلة الجهاد، ثم دفعته بعاطفتها وحنانها وصدقها: انهض بنى فضارب القوم.

وحين تبلغ هذا الأفق السامى من الإيمان والوعى والصدق والتضحية، تنال شهادة القائد -وأى قائد؟- وتحظى بثناء رسول الله ﷺ: «ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة؟».

تلك هى الصورة الرائعة الواقعية لأم عمارة فى أُحد وهى ترى ابنها جريحًا، أو تقتص من عدوها المشرك، والمرأة التى تبلغ بإيمانها هذه الصورة التى يحبها الله ورسوله، هى المرأة التى تحسن تربية الأبناء وإعدادهم إعدادًا صحيحًا، وهى المرأة التى تقوم بشأن زوجها وتعينه على طاعة الله والجهاد فى سبيله، وهى التى تجعل من الأسرة كلها أسرة إسلامية مجاهدة حين تتحول العواطف الإنسانية إلى عاطفة سامية تسترشد بمنهج الله، وتخلص لله ورسوله، وتسعى لمرضاة الله عز وجل)(١).

دعوة مباركة:

وفى هذا اليوم يراها النبى ﷺ وقد أثخنت الجراحة جسدها، وينظر إلى جرحها على عاتقها، فيقول ﷺ لابنها: «أمك أمك، اعصب جرحها، بارك الله عليكم من

(١) نسيبة بنت كعب، محمد حسن بريغش، ص٦١، ٦٢.

أهل بيت، مقام أمك خير من مقام فلان وفلان، رحمكم الله أهل البيت، ومقام ربيبك - يعنى زوج أمه - خير من مقام فلان وفلان، رحمكم الله أهل البيت» قالت: ادع الله أن نرافقك فى الجنة، فقال: «اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة» فقالت: ما أبالى ما أصابنى من الدنيا»(١).

لقد ظفرت هذه الأسرة الكريمة بهذه الدعوة المباركة من النبى ﷺ، وكفى بهذا تكريمًا وتقديراً لأم عمارة وأسرتها.. فاللهم اجعل لنا فيها وأمثالها قدوة تحتذى وأسوة صالحة فى البذل والجهاد والشهادة فى سبيله.

إلى حمراء الأسد:

وانتهت المعركة، وظلت أم عمارة تداوى جراحتها سنة كاملة، وكان منادى النبى ﷺ قد نادى إلى حمراء الأسد(٢) غداة أحد، فشَدَّتْ عليها ثيابها، فما استطاعت من نَزْف الدم، يقول ضمرة بن سعيد، عن جدته، قالت: ولقد مكثنا ليلتنا نكمّد الجراح حتى أصبحنا، فلما رجع رسول الله ﷺ من الحمراء، ما وصل رسول الله ﷺ إلي بيته حتى أرسل إليها عبد الله بن كعب المازنى يسأل عنها، فرجع إليه يخبره بسلامتها، فسُرّ بذلك النبى ﷺ(٣).

إننا نجد أم عمارة رضى الله عنها مع هذا الجهد الكبير والجراح المؤلمة، تقوم لتَشُدَّ عليها ثيابها لما سمعت منادى رسول الله ﷺ يدعو المسلمين للاحقة جيش العدو فى حمراء الأسد، وهذه استجابة منها رضى الله عنها، فنالت مع المسلمين حسن الثناء من رب العالمين، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

غير أنها رضى الله عنها لم تستطع المشاركة فى هذه المهمة؛ لأن جراحها مازالت تنزف دمًا، فأى عزيمة كانت تملكها أم عمارة رضى الله عنها، وأى حيوية كان يشتمل عليها قلبها الكبير؟!!

(١) ابن سعد ٨/ ٤١٥، وإمتاع الأسماع ١/ ١٦٢، ١٦٣.

(٢) كانت حمراء الأسد يوم الأحد لست عشرة ليلة خلت من شوال، وأقام بها النبى ﷺ ثلاثًا: الاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، وهى من المدينة على ثمانية أميال.

(٣) ابن سعد ٨/ ٤١٣.

فمـا أعظم هذا الدرس الذى نتعلمه مـن أم عمارة رضى الله عنهـا، إنها تعلم المسلم بجـهادها كـيف يخلص العـهد مع ربه، وكـيف ينهض بمسؤوليـته ويقـوم بواجبه، وهى تعلم بسيرتها فى هذه المعـركة نساء المسلمين، كيف يدفعن أزواجهن وأولادهن، ويقدمن الدم والروح فداء للإسلام ودعوته.

يقول الدكتور مصطفى السباعى رحمه الله: وفى ثبات نسيبة أم عمارة، ووقوفها وزوجها وأولادها حول رسول الله ﷺ حين انكشف المسلمون يوم أحد، دليل من الأدلة المتعـددة على إسهام المرأة المسلمـة بقسط كبيـر من الكفاح فى سبـيل دعوة الإسلام، وهو دليل على حاجتنا اليوم إلى أن تحمل المرأة المسلمة عبء الدعوة إلى الله من جديد؛ لتدعو إلى الله فى أوساط الفـتيات والزوجات والأمهات، ولتنشئ فى أطفالـها حب الله ورسوله والاسـتمـساك بالإسلام وتعـاليمـه، والعمل لخـير المجتمع وصلاحه[1]، ولن تثمر الدعـوة ثمرتها المرجوة مادام ميدانـها شاغرًا من المرأة المسلمة الداعية والواعية.

مواصلة الجهاد:

لم يقـتصر جـهاد أم عـمارة الصادق ، وبـلاؤها الحسن على غـزوة أحد، بل شهدت عـدة مشاهد مع رسـول الله ﷺ، فكانت معه ﷺ فى الحديبـية حين بلغ المسلمين أن عثمان قتلته قريش، ووقف النبى ﷺ يعلن فى أصحابه: «**إن الله أمرنى بالبيعة**»، فأقبل الناس يبايعونه متزاحمين، فـما بقى لهم متاع إلا وطئوه، ثم لبسوا السلاح - وهو معهم قليل - وقامت أم عمارة إلـى عمود كانت تستظل به فأخذته بيدها وجعلت منه سلاحًا، وشدت سكينًا فى وسطها.

تقول أم عمارة: إن دنا منى أحد رجوت قتله، فكان رسول الله ﷺ يومئذ يبايع وعمر بن الخطاب رضى الله عنه آخذ بيده، فبايعهم على ألا يفروا[2].

وقد حصـلت أم عمارة على أعلى وسام ربانى هى وكل المبـايعين، إذ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، ليس هذا فحسب بل نالت

(١) السيرة النبوية، دروس وعبر، د. مصطفى السباعى، ص ١٠٤، ١٠٥.
(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٦٠٢، ٦٠٣.

مكرمة أخرى، فقد حلق رسول الله ﷺ رأسه وتسابق الناس لأخذ شعره الشريف تبركًا، وكان لها حظ فى ذلك، فقد أخذت طاقات من شعره ﷺ(١).

ولما خرج النبى ﷺ لعمرة القضاء فى العام التالى لصلح الحديبية، خرجت أم عمارة مع النبى ﷺ لأداء العمرة.

قالت أم عمارة: شهدت عمرة القضاء مع رسول الله ﷺ، وكنت قد شهدت الحديبية، فكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ حين انتهى إلى البيت وهو على راحلته، وابن رواحة آخذٌ بزمام راحلته، وقد صف له المسلمون حين دنا من الركن، حتى انتهى إليه، فاستلم الركن بمحجنه مضطبعًا(٢) بثوبه على راحلته، والمسلمون يطوفون معه قد اضطبعوا بثيابهم، وعبد الله بن رواحة يقول:

خلوا بنى الكفار عن سبيله إنى شهدت أنه رسوله
حقًا وكل الخير فى سبيله نحن قتلناكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله ضربًا يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله(٣)

وفى حنين نالت أم عمارة شرفًا آخر، حيث شاركت مشاركة فعالة، وكان لها رضى الله عنها موقف رائع، تقول أم عمارة عن هذا اليوم المشهود: لما كان يومئذ والناس منهزمون فى كل وجه، وأنا وأربع نسوة، فى يدى سيف لى صارم، وأم سليم معها خنجر قد حزمته على وسطها، وأم سليط وأم الحارث، أصيح بالأنصار: أى عادة هذه ما لكم وللفرار؟ وأنظر إلى رجل من هوازن على جمل أورق، معه لواء، يضع جمله فى المسلمين، فأعترض له فأضرب عرقوب الجمل، وكان جملاً مشرفًا عاليًا فوقع الجمل، ووقع الرجل، وأشد على الرجل فلم أزل أضربه حتى أثبته(٤)، وأخذت سيفًا له وتركت الجمل يخرخر يتصفق(٥) ظهرًا

(١) رجال ونساء حول الرسول ﷺ، هانى الحاج، ص٥١٠.
(٢) الاضطباع: هو أن يأخذ الإزار أو البرد فيجعل وسطه تحت إبطه الأيمن، ويلقى طرفيه على كتفه اليسرى.
(٣) المغازى ٢/ ٧٣٥، ٧٣٦.
(٤) أى جعلته رضى الله عنها لا يستطيع الحركة من شدة الجراح.
(٥) يتصفق: يتقلب.

لبطن، ورسول الله ﷺ قائم مسلط السيف بيده، قد طرح غمده ينادى: «يا أصحاب سورة البقرة»، وكر المسلمون فجعلوا يقولون: يا بني عبد الرحمن، يا بنى عبيد الله، يا خيل الله، وكان ﷺ قد سمى خيله خيل الله، وجعل شعار المهاجرين بنى عبد الرحمن، وجعل شعار الأوس بنى عبيد الله.

فكرّت الأنصار، ووقفت هوازن مقدار حلبُ ناقة، ثم كانت الهزيمة، فوالله ما رأيت هزيمة كانت مثلها، ذهبوا في كل وجه، ورجع ابناى إلىّ بأسارى مكتفين فأقوم إليهم من الغيظ، فأضرب عنق واحد منهم، وجعل الناس يأتون بالأسارى، فرأيت فى بنى مازن بن النجار ثلاثين أسيرًا، وكان المسلمون قد بلغ أقصى هزيمتهم مكة، ثم كروا بعد وتراجعوا، فأسهم لهم النبى ﷺ جميعًا[1].

وفى خيبر كانت رضى الله عنها فى طليعة النساء الغازيات اللواتى خرجن مع الجيش، وقد بلغ عددهن حسب الروايات الواردة خمس عشرة امرأة[2]، وشهدت رضى الله عنها حصار حصون خيبر وفتحها واحدًا تلو الآخر، ونالت شرف المشاركة فى هذه الغزوة المباركة، حيث حظيت بصحبة الحبيب ﷺ.

تقول أم عمارة رضى الله عنها: ذبحنا بخيبر لبنى مازن بن النجار فرسين، فكنا نأكل منهما قبل أن يُفتح حصن الصعب بن معاذ[3].

فى اليمامة:

عاشت أم عمارة رضى الله عنها طيلة حياة النبى ﷺ تجاهد وتشهد معه أكثر المشاهد... حتى لحق النبى ﷺ بالرفيق الأعلى، ولكن هذه المشاهد مع ما فيها من تضحيات وبطولات لها، لا تعد شيئًا إذا قيست بما كان منها يوم اليمامة.

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٤٨٧، وانظر: المغازى ٣/ ٩٠٢، ٩٠٣.

(٢) هن: أم عمارة، أم سنان الأسلمية، أم أيمن، سلمى مولاة رسول الله ﷺ، وامرأة أبى رافع كعيبة بنت سعد الأسلمية، أم مطاع الأسلمية، أمية بنت قيس الغفارية، أم عامر الأشهلية، أم الضحاك بنت مسعود الحارثية، هند بنت عمرو بن حرام، أم منيع بنت عمرو، أم سليط النجارية، أم سليم، أم عطية الأنصارية، أم العلاء الأنصارية.

(٣) المغازى ٢/ ٦٦١.

تبدأ قصة أم عمارة رضى الله عنهـا مع يوم اليمامة، منذ عَهْدِ النبى ﷺ، حين بعث ابنها حبيب بن زيد برسالته إلى مسيلمة الكذاب، فأضمر له شراً وغدر به وقتله، ذلك أن مسيلمة قيّد حبيبًا، ثم قال له: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ فقال: نعم، فقال مسيلمة: أتشهد أنى رسول الله؟ فقال: لا أسمع ما تقول، فقطع منه عضواً، ثم مازال مسيلمة يُعيدُ عليه السؤال نفسه، فيرد عليه فى ثقة وثبات الجواب نفسه، وكان فى كل مرة يقطع منه عضواً، حتى قطعه عضواً عضواً، فقطع يديه من المنكبين، ورجليه من الوركين، ثم أحرقه بالنار، حتى فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها، وفاز حبيب بالشهادة، وباء مسيلمة بالخزى واللعنة.. وجاء النعى إلى أمه فاستقبلت المصيبة الكبيرة بنفس أكبر وإيمان أقوى، وما زادت على أن قالت: من أجل مثل هذا الموقف أعددته، وعند الله احتسبته، لقد بايع الرسول ﷺ ليلة العقبة صغيراً، وَوَفَّى له اليوم كبيراً.

وتلك هى الثمرة الطيبة لتربية البيت المسلم، وتنشئته على طاعة الله عز وجل والجهاد فى سبيله، وهذا هو الصبر الجميل الذى لا يستطيع القلم بيانه.

ولما كان الخروج إلى اليمامة جاءت أم عمارة إلى أبى بكر رضى الله عنه فاستأذنته فى الخروج، فقال لها: ما مثلك يحال بينه وبين الخروج، قد عرفناك وعرفنا جرأتك فى الحرب فاخرجى على اسم الله، وانضمت المجاهدة الصابرة وابنها عبد الله إلى الجيش، ولما التقى الجمعان، واشتد القتال، كان يترصد لمسيلمة نفر من المسلمين وعلى رأسهم أم عمارة التى عاهدت ربها عز وجل أن تموت دون مسيلمة أو تقتله وتثأر لابنها الشهيد.

تقول أم عمارة: فلما انتهينا إلى الحديقة[1] بعد إذ تداعت الأنصار، أخلصونا، أخلصونا، ازدحمنا على الباب وأهل النجدة من عدونا فى الحديقة قد انحازوا يكونون فئة لمسيلمة، فاقتحمنا فضاربناهم ساعة، والله ما رأيت أبذل لمهج أنفسهم

(١) يُقصد بها تلك الحديقة التى فر إليها أتباع مسيلمة يطلبون النجاة من سيوف المسلمين، وكانت حصينة منيعة، رحبة الأرجاء، عالية الجدران، وسميت هذه الحديقة بحديقة الموت لكثرة مَنْ قُتل فيها مِنْ المرتدين، قيل إن عددهم وصل إلى عشرين ألفًا واستشهد من المسلمين نحو ستمائة. انظر: جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، د. محمد السيد الوكيل، ص٥٣، ٥٤.

منهم، وجعلت أقصد إلى عدو الله. مسيلمة لأن أراه، ولقد عاهدت الله لئن رأيته لا أكذب عنه أو أقتل دونه، وجعلت الرجال تختلط والسيوف بينهم تختلف، وخرس القوم فلا صوت إلا وقع السيوف حتى بصرت بعدو الله، فشددت عليه، وعرض لى رجل منهم، فضرب يدى فقطعها، فوالله ما عرجت عليها(١) حتى انتهيت إلى الخبيث وهو صريع، وأجد ابنى عبد الله قد قتله(٢).

فسألها سائل: أكثرت الجراحات فى المسلمين؟ فقالت: لقد تحاجز الناس، وقُتل عدو الله، وإن المسلمين لجرحى كلهم، لقد رأيت بنى أبى مجروحين ما بهم حركة، ولقد رأيت بنى مالك بن النجار بضعة عشر رجلاً لهم أنين يكمدون ليلتهم بالنار، ولقد أقام الناس باليمامة خمس عشرة ليلة، وقد وضعت الحرب أوزارها، وما يصلى مع خالد بن الوليد من المهاجرين والأنصار إلا نفر يسير.

إن ما سبق يصور لنا لونًا من ألوان البطولة الإسلامية تمثلها شخصية حبيب بن زيد، ذلك البطل العظيم، وقد قطع عضوًا عضوًا وأحرق بالنار ليقول كلمة بلسانه، فما رجع عن إيمانه، ولا عرّض، ولا ورى، ولكنه تماسك واستصلب؛ ليكون نموذجًا من نماذج التربية الإسلامية الصادقة التى أسس عليها الإسلام بناء الأمة الإسلامية.

وتمثلها شخصية أمه أم عمارة التى كانت نموذجًا من نماذج المرأة المسلمة فى تربيتها الإسلامية حتى ولدت للإسلام مثل حبيب بن زيد، فكانت خليقة بتزكية

---

(١) أى لم تلتفت إليها، ولم تنظر أين وقعت ولم تفكر بالبحث عنها، ولكنها أسرعت فتناولت السيف باليد الأخرى لتثأر من مسيلمة الكذاب.

(٢) الرواية الصحيحة تقول: إن الذى تولى قتله وحشى قاتل حمزة يوم أحد، وكان وحشى إذا تحدث عن ذلك يقول: قتلت خير الناس، وأنا على جاهليتى، وشر الناس وأنا على الإسلام، ويوفق بينهما أن يكون عبد الله ووحشى اشتركا فى قتله، روى البخارى فى المغازى ٧/ ٤٢٤، ٤٢٥ (٤٠٧٢) عن جعفر ابن عمرو بن أمية الضمرى، قال وحشى: خرجت مع الناس، فإذا رجل قائم فى ثلمة جدار - خلل جدار - وكأنه جمل أورق، ثائر الرأس، فرميته بحربتى، فوضعتها بين ثديه حتى خرجت من بين كتفيه، ووثب إليه رجل من الأنصار، فضربه بالسيف على هامته. قال ابن حجر: هو عبد الله بن زيد ابن عاصم المازنى، كما جزم به الواقدى وإسحاق بن راهويه والحاكم، وقيل: هو عدى بن سهل، وقيل: أبو دجانة، والأول أشهر، ولعل عبد الله بن زيد هو الذى أصابته ضربته، وأما الآخران فحملا عليه فى الجملة. فتح البارى ٧/ ٤٢٩، وانظر: الروض الأنف للسهيلى ٣/ ١٦٣.

الخليفة الأول أبى بكر الصديق، بقوله: ما مثلك يُحال بينه وبين الخروج، وما كان أبو بكر ليزكى امرأة مسلمة فى خروجها للحرب بما زكى به نسيبة لو لم يكن يعلم من صدق عزيمتها وقوة إيمانها ما كانت تعلم من نفسها، وهى فوق ذلك ثكلى موتورة، وقد وصفت هذه المرأة المسلمة الجليلة تدافع أهل اليمامة على الموت فى حربهم للمسلمين فحققت،وصورت لنا احتدام القتال فصدقت، وخرس القوم فلا صوت إلا صوت وقع السيوف(١).

بعد المعركة:

عادت أم عمارة رضى الله عنها إلى المدينة بعد أن شاركت فى القتال البطولى الذى دار فى حديقة الموت، وساهمت فى القضاء على هذا المرتد الكذاب، فكانت هذه المعركة وسامًا جديدًا فى حياتها الجهادية، بعد أن أصيبت باثنى عشر جرحًا وقطعت يدها. . عادت رضى الله عنها لتضميد جراحها، وظلت رضى الله عنها تحظى بالمكانة اللائقة بها عند أبى بكر وعمر، فكان أبو بكر يعلم ما أصابها من قطع يدها، فيأتيها ويسأل عنها، قال ابن سعد: فلقد رُئى أبو بكر يأتيها يسأل بها وهو يومئذ خليفة(٢)، وهكذا يرفع الإسلام أهله، وينظم مجتمعه، حتى ليذهب خليفة المسلمين، وصاحب النبى الأمين ليسأل عن أم عمارة ويطمئن عليها، ويزورها، والزيارة حين تكون من رأس الدولة لسيدة من فضليات نساء المسلمين ممن لها سبقها فى الخير، فإن ذلك يحفز فى الرعية هذه الخصلة الشريفة، وهى التزاور والتواصل بين كافة فئات المجتمع؛ لأن الإمام موضع قدوة للرعية.

أما عمر رضى الله عنه فقد خصها بكساء جيد، وذلك لمكانتها وسابقتها فى الإسلام، روى ابن سعد عن موسى بن ضمرة بن سعيد عن أبيه قال: أتى عمر ابن الخطاب بمروط(٣) فكان فيها مرط جيّد واسع، فقال بعضهم: إنّ هذا المرط لثمن كذا وكذا فلو أرسلت به إلى زوجة عبد الله بن عمر صفّية بنت أبى عبيد. قال: وذلك حِدثان ما دخلت على ابن عمر، فقال: أبعث به إلى من هو أحق به

(١) خالد بن الوليد، صادق إبراهيم عرجون، ص ١٨١، ١٨٢.
(٢) ابن سعد ٨/ ٤١٦.
(٣) المروط: جمع مرط، وهو الكساء من صوف أو خز.

منها، أم عـمارة نسيبة بنـت كعب، سمعت رسول الله ﷺ يـقول يوم أحُد: «ما التفتّ يمينًا ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دونى»[١].

إن هذا الموقف من عمر رضى الله عنه لا يـقل روعة عن موقف أبى بكر رضى الله عنه مع أم عمـارة، حيث يتجلى لنا تقـديره لفضلها وسبـقها، وذكر جـهادها المشكور، وتضحـيتها فـى سبيل الدفاع عن النبـى ﷺ، ولم يلتفت رضى الله عنه إلى من أشار عليـه ببعث هذا الكساء إلى زوجـة ابنه عبد الله بن عـمر رضى الله عنهمـا، وهذا الموقف يذكر لأميـر المؤمنين عمر ويضاف إلـى مواقفه الكثـيرة فى العدالة وتقديم أهل الفضل والتقدم فى خدمة الإسلام والمسلمين.

ثم كانت رضى الله عنهـا موضع تقدير خالد بن الوليد، إذ جـاءها بطبيب من العرب فـداواها بالزيت المغلى، وكان كثـير التعاهد لهـا، حسن الصحبـة، يعرف حقها، ويحفظ فيها وصية النبى ﷺ.

***

(١) ابن سعد ٨/ ٤١٥، وانظر: كنز العمال للمتقى الهندى ١٣/ ٦٢٥.

حفاوة النبى ﷺ بأم عمارة وزيارته لها

لقد كان النبى ﷺ يكرمها بزيارته ويعودها، ويأكل عندها، فعن ليلى بنت سعد عن أم عمارة نسيبة بنت كعب قالت: دخل علىّ رسول الله ﷺ عائدًا لى، فقربت إليه طَفَيْشَلَةَ[1] وخبز شعير، قالت: فأصاب منه، وقال: «تعالى فكُلى»، فقلت: يا رسول الله إنى صائمة، فقال ﷺ: «إن الصائم إذا أُكل عنده لم تزل الملائكة تصلىّ حتى يفرغ من طعامه»[2].

وفي رواية أخرى عن حبيب بن زيد الأنصارى عن امرأة يقال لها ليلى، عن أم عمارة قالت: أتانا رسول الله ﷺ فقربنا إليه طعامًا، فكان بعض من عنده صائمًا، فقال النبى ﷺ: «إذا أكل عند الصائم الطعام صلت عليه الملائكة»[3].

إن زيارة النبى ﷺ لأم عمارة لدليل على أنها من أهل السبق والفضل، كما هو دلالة كذلك على كرمها ونسكها وزهدها وعبادتها؛ لأنها كانت صائمة صيام تطوع، وهكذا ينبغى أن تكون المسلمة تغتنم أوقاتها فى الطاعة والعبادة والتقرب إلى الله بصالح الأعمال، ولا تلهيها أعمالها المنزلية عن عبادتها وصلاتها وصيامها، وهى تعلم ما أعده الله عز وجل لها من جزيل الثواب وواسع المغفرة.

روايتها للحديث:

روت أم عمارة عدة أحاديث عن النبى ﷺ، حيث كانت تحافظ على حضور الجماعة مع النبى ﷺ كبقية النساء فتسمع وتتعلم، روى عنها ابن ابنها عباد بن تميم بن زيد، والحارث بن عبد الله بن كعب، وعكرمة مولى عبد الله بن عباس، وأخرج لها الترمذى والنسائى وابن ماجة.

---

(١) هو نوع من المرق. القاموس المحيط للفيروز آبادى، ص ١٣٢٦.

(٢) ابن سعد ٨/ ٤١٥.

(٣) أحمد ٦/ ٤٣٩، وابن ماجة فى الصيام، باب فى الصائم إذا أُكل عنده، ص ٢٩٢ (١٧٤٨).

نماذج من مروياتها:

عن حبيب الأنصارى قال: سمعت عباد بن تميم عن جدتى وهى أم عمارة، أن النبى ﷺ توضأ فأتى بإناء فيه ماء قدْر ثلثى المد[١].

وعن حبيب بن زيد الأنصارى عن امرأة يقال لها ليلى عن أم عمارة قالت: أتانا رسول الله ﷺ، فقربنا إليه طعامًا فكان بعض من عنده صائمًا، فقال رسول الله ﷺ: «الصائم إذا أُكل عنده الطعام صلت عليه الملائكة»[٢].

وعن حبيب بن زيد الأنصارى، قال: سمعت مولاة لنا يقال لها ليلى تحدث عن جدتى أم عمارة بنت كعب، أن رسول الله ﷺ دخل عليها، فدعت له بطعام، فقال لها: «كلى»، فقالت: إنى صائمة، فقال ﷺ: «إن الصائم إذا أكل عنده صلت عليه الملائكة حتى يفرغوا» أو قال: «حتى يقضوا أكلهم»[٣].

وأسند الواقدى من طريق ابن أبى صعصعة، قالت أم عمارة: كانت الرجال تصفق على يدى رسول الله ﷺ ليلة العقبة، والعباس آخذ بيد رسول الله ﷺ، فلما بقيت أنا وأم منيع نادى زوجى: يا رسول الله هاتان امرأتان حضرتا معنا يبايعنك، فقال ﷺ: «قد بايعتهما على ما بايعتكم، إنى لا أصافح النساء»[٤].

***

(١) النسائى فى الطهارة، باب القدر الذى يكتفى به الرجل من الماء للوضوء، ص١٦ (٧٤)، وأبو داود فى الطهارة، باب ما يجزئ من الماء فى الوضوء، ص ٣٤ (٩٤).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أبو يعلى فى مسنده ١٣/ ٦٩ (٧١٤٨) وقال محققه: إسناده جيد، ليلى مولاة أم عمارة ما رأيت فيها جرحًا، ووثقها ابن حبان، ورواه أحمد فى مسنده ٦/ ٣٦٥، والترمذى فى الصوم، باب ما جاء فى فضل الصائم إذا أكل عنده، ص ٢٣١ (٧٨٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه ابن خزيمة ٣/ ٣٠٧ (٢١٣٨، ٢١٣٩).

(٤) الإصابة ٤/ ٤٧٩.

فضلها

لئن كان علـينا حق للنساء المسلمـات من الرعيل الأول أن نعرف لهـن فضلهن وجهادهن، فإن نسيبة رضى الله عنهـا تتبوأ فى هذا المكانة الأسنى، فقد كانت من السـابقات إلى الإسـلام، وبايعت ووفت حتـى قُطعت فى الوفاء يدها، ووقـفت بالإيمان موقفًا لم يقفه كثير من الرجـال، وعُرفت بالفضل والمكارم، وحسبها فخرًا وشرفًا ورفـعة أن جاهدت فى أحُد وتألق نجمـها وانتضت سيفـها إلي جانب النبى الكريم ﷺ تدافع عنه، حـتى قال عنها مـا قال، وكيف إذا انضـاف إلى هذا دعاء النبى ﷺ لها ولبيتها أن يجعلهم الله عز وجل رفقاء له فى الجنة.

ثم كان لها شرف الجـهاد مع الرسول ﷺ فى أكثر المشاهـد، وكان لها مواقف رائعة لا تقل تألقًا عما كان منها يوم أحد، ثم كان لها شرف الجهاد فى اليمامة مع خليفة رسول الله ﷺ ومشاركتها فى مقتل مسيلمة الكذاب.

وصفهـا الإمام الذهبى بقوله: أم عمـارة الفاضلة المجاهدة(١)... ووصفها أبو نعيم فى الحليـة بقوله: أم عمارة المبـايعة بالعقبـة، المحاربة عن الرجال والشـيبة، كانت ذات جد واجتهاد، وصوم ونُسك واعتماد(٢).

طموحها:

ومن فضلهـا رضى الله عنها أنها كـانت طموحة عـالية الهمـة، تريد أن تثبت للمرأة المسلمة مكانهـا بجوار الرجل المسلم، وكأنها لم يرض طموحـها أن يتحدث القرآن إلى الرجال وتدخل المرأة تبعًـا له، فأتت رسول الله ﷺ تقول له: يا رسول الله، ما أرى كل شيء إلا للرجـال، وما أرى النساء يذكـرن فى شيء، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٧٨.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ٦٤.

وَالصَّائمينَ وَالصَّائمَات وَالْحَافظينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافظَات وَالذَّاكرِينَ اللَّهَ كَثيراً وَالذَّاكرَات أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥](١).

لقد كانت رضى الله عنها تتمتع بقوة فى شخصيتها، ورجاحة فى عقلها، ووفور فى إيمانها مما حدا بها أن تسأل النبى ﷺ حتى لا يفوتها فضل أو خير ولا تقصر عن واجب، وحتى يكون لها ولقريناتها ذكر فى كتاب الله عز وجل.

ومما يذكر لأم عمارة حُسن تربيتها لأولادها على الجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمته، فقد كانوا رجالاً مجاهدين وأبناءً صالحين.

كراماتها:

ولقد كانت لأم عمارة رضى الله عنها كرامات، منها تبركها بآثار النبى ﷺ، ففى الحديبية حلق رسول الله ﷺ رأسه، وتسابق الناس لأخذ شعره الشريف تبركًا، وكان لها حظ فى ذلك فقد أخذت طاقات من شعره.

وذكر أنها ظلت تحتفظ بشعر النبى ﷺ، وكانت تضعه فى الماء ثم تسقيه للمريض تبركًا بآثار النبى ﷺ(٢).

ومن كراماتها رضى الله عنها، لما قطعت يدها يوم اليمامة، وجرحت اثنى عشر جرحًا ثم عاشت بعد ذلك دهرًا، فكان الناس يأتونها بمرضاهم؛ لتستشفى لهم، فتمسح بيدها على العليل، وتدعو له، فقلما مسحت بيدها ذا عاهة إلا برئ بإذن الله تعالى(٣).

(١) الترمذى فى التفسير، باب من سورة الأحزاب، ص٨٥٦ (٣٢١١)، وقال: حديث حسن غريب، وإنما يعرف هذا الحديث من هذا الوجه، ورواه عن أم سلمة رضى الله عنها أحمد فى مسنده ٦/ ٣٠١، ٣٠٥، والحاكم فى المستدرك ٢/ ٤١٦، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى، ورواه النسائى فى التفسير ٢/ ١٦٩ (٤٢٤)، والطبرانى فى الكبير ٢٣/ ٢٦٣، ٢٩٣ (٥٥٤، ٦٥٠).

(٢) رجال ونساء حول الرسول ﷺ، هانى الحاج. ص ٥١٠.

(٣) الروض الأنف للسهيلى ٢/ ٢٠١.

وبعد:

فقد كانت أم عمارة رضى الله عنها أنموذجًا فريدًا بين النساء المؤمنات، والمجاهدات الصابرات، جمعت رضى الله عنها المجد من أطرافه، فكانت أمًا فاضلة، وزوجًا حانية، ومجاهدة صابرة، وراوية واعية، وفوق ذلك سبقت إلى الإيمان وبايعت، فكانت وفية صادقة، عاشت حياتها أحسن ما تكون... ثم لقيت ربها فى مطلع خلافة عمر رضى الله عنه، وتركت وراءها سيرتها الطيبة المشرقة قدوة لكل مسلمة تريد الخير لنفسها ولأمتها.

رضى الله عنها، ونضَّر قبرها، وأحسن نزلها مع الأبرار الصادقين، إنه سميع قريب مجيب.

***

أم الفضل بنت الحارث الهلالية
(لبابة الكبرى)
رضى الله عنها
(١٠)

نَسَبُها

أم الفضل[١]:

أما أبوها فهو: الحارث بن حزن بن بُجير بن الهُزَم بن رؤيبة بن عبد الله. اشتهرت رضى الله عنها: بـ (لبابة الكبرى)؛ لأن أختها لأبيها العصماء بنت الحارث اشتهرت هى الأخرى: بـ (لبابة الصغرى) وهى أم خالد بن الوليد رضى الله عنه.

أما أمها فهى: هند بنت عوف بن زهير بن الحارث، والتى كان يقال فيها: أكرم عجوز فى الأرض أصهارًا: هند بنت عوف، أصهارها: رسول الله ﷺ، وأبو بكر الصديق رضى الله عنه، وحمزة والعباس ابنا عبد المطلب رضى الله عنهما، وجعفر وعلى ابنا أبى طالب رضى الله عنهما[٢].

أما أخواتها: فميمونة بنت الحارث أم المؤمنين وزوج النبى الأمين ﷺ أختها لأبيها وأمها، ولبابة الصغرى (عصماء) وعزة بنات الحارث أخواتها لأبيها ، وأما

(١) ابن سعد ٨/ ٢٠٢- ٢٠٤، وأحمد ٦/ ٣٣٨، والإصابة ٨/ ٢٦٦، ٢٦٧، وتهذيب التهذيب، ١٢/ ٤٧٦، ٤٧٧، وأسد الغابة ٥/ ٩٣٥، ٥٤٠، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٣١٤، ٣١٥، والاستيعاب ٤/ ٣٨٥، وصفة الصفوة ٢/ ٤٣، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٥٤، وتلقيح فهوم أهل الأثر ص٣٢١، والفتح الربانى ٢٢/ ٤٣٥-٤٣٧، ونسب قريش ص٢٧، والمعارف، ص ١٢١، ١٣٧، وأعلام النساء ٤/ ٢٧٢، والأعلام للزركلى ٥/ ٢٣٩، والمعجم الكبير ٢٥/ ١٧-٢٨، وتاريخ الطبرى ١١/ ٦٢٢، ٦٢٣. والمنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ٤/ ٣٤٢، وخلاصة تذهيب التهذيب٣/ ٣٩٢ (١٤٩)، وتذكرة الحفاظ ١/ ٤٧، والمقتنى فى سرد الكنى ٢/ ١٧٠ (٦٩٨١) وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٢٤٦ (٢٩٧٠)، ٣٠١ (٣٦٢٥)، وجمهرة أنساب العرب، ص١٨، وتحفة الأشراف ١٢/ ٤٧٨-٤٨٢، (٩١٥)، وتهذيب الكمال (المصورة) ٣/ ١٦٩٧، وإمتاع الأسماع ٦/ ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٦، والوافى بالوفيات ٢٤/ ٢٩٧، ٢٩٨، وتقريب التهذيب ٢/ ٦١٣، ومقدمة فتح البارى، ص٢٦٠، والمغنى ص٣٠٠، والثقات لابن حبان ٣/ ٣٦١، والعقد الثمين ٨/ ٣١٤ (٣٤٦٩)، والطبقات لمسلم١/ ٢١٢ (٥٢٢)، ومقدمة مسند بقى بن مخلد، ص٨٨ (٩٦)، والرياض المستطابة، ص ٣١٧، ٣١٨، وطبقات خليفة، ص٣٣٨، والكاشف ٣/ ٤٣٤ (١٣٠)، والجرح والتعديل ٩/ ٤٦٥ (٢٣٨٠)، والمعين فى طبقات المحدثين، ص٣٠ (١٧٤).

(٢) كان لهند غير هؤلاء أصهار آخرون من ذوى المكانة والمنزلة: الوليد بن المغيرة المخزومى زوج لبابة الصغرى، وأبى بن خلف زوج عصماء بنت الحارث، وزياد بن عبد الله بن مالك الهلالى زوج عزة بنت الحارث، انظر: المعارف، ص١٣٨.

أخواتها لأمها زينب بنت خزيمة الهلالية أم المؤمنين وأم المساكين(١)، وأسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبى طالب، وسلمى بنت عميس زوج حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه.

أما زوجها فهو: العباس بن عبد المطلب سيد بنى هاشم وعم النبى ﷺ، كان ذا شأن فى قومه، وإليه كانت السقاية وزمزم(٢).

قال الإمام الذَّهبى عن أم الفضل: الحرةُ الجليلة زوجة العباس عم النبى ﷺ، وأم أولاده الرجال الستة النجباء، اسمها لبابة، وهى أخت أم المؤمنين ميمونة وخالة خالد بن الوليد، وأخت أسماء بنت عميس لأمها(٣).

***

(١) انظر سيرتها فى: أمهات المؤمنين، للمؤلف.

(٢) دفعهما إليه النبى ﷺ يوم فتح مكة، وكان يوم العقبة مع النبى ﷺ فعقد له على الأنصار، وقام بذلك الأمر، ومات فى خلافة عثمان بالمدينة وقد كُف بصره، وهو ابن تسع وثمانين سنة، وكان وُلد قبل الفيل بثلاث سنين، فكان أسن من النبى ﷺ، وصلى عليه عثمان، انظر: المعارف لابن قتيبة ص١٢١، والبداية والنهاية ٤/ ١٦١، ١٦٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣١٤.

إسلامها

لقد كانت أم الفضل رضى الله عنها أول من أسلم من النساء بعد خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها[١]، قال الإمام الذهبى: وقيل لم يُسلم- من النساء- أحد قبلها، يعنى بعد خديجة رضى الله عنها[٢]، ومما يؤيد القول بسبقها للإسلام، مقولة ابنها عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: كنت أنا وأمى- بمكة- من المستضعفين من النساء والولدان[٣].

هكذا كان إسلام أم الفضل رضى الله عنها عنوان شرف وذكر للمرأة المسلمة، فقد كانت المرأة الثانية فى الإسلام، إذ أسلمت بعد خديجة رضى الله عنها، ومنذ اللحظات الأولى من فجر الدعوة وهى تساند النبى ﷺ فى محنته، وتذود عنه وعن دعوته، فكان ﷺ يزورها ويقيل فى بيتها، وكانت رضى الله عنها على طرفى نقيض لزوج عمه أبى لهب أم جميل بنت حرب، فهذه كانت حمالة الحطب- كما وصفها القرآن- فى جيدها حبل من مسد من شدة إيذائها لرسول الله ﷺ، وتلك كانت من أسرع مؤيديه ومناصريه، والمضحين فى سبيل نصرة دينه..

تسبق زوجها:

قال البخارى فى ترجمة الباب: وكان ابن عباس رضى الله عنهما مع أمه من المستضعفين، ولم يكن مع أبيه على دين قومه[٤]، وقال الحافظ ابن حجر فى شرحه للحديث معقبًا على هذا: هذا قاله المصنف تفقهًا، وهو مبنى على أن إسلام العباس كان بعد وقعة بدر، وقد اختلف فى ذلك، والصحيح أنه هاجر عام الفتح فى أول السنة وقدم مع النبى ﷺ فشهد الفتح، والله أعلم[٥].

---

(١) الإصابة ٨/٢٦٦، وتهذيب التهذيب ١٢/٤٧٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/٣١٥.

(٣) البخارى فى التفسير، باب ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ [النساء: ٧٥]، ٨/٢٥٥ (٤٥٨٧، ٤٥٨٨).

(٤) البخارى فى الجنائز، باب إذا أسلم الصبى فمات هل يُصلى عليه؟ ٣/٢٥٨.

إن شأن المسلمة الصادقة أن تبادر إلى الخير وتسارع إليه حتى تحظى بالسبق، إذ المسارعة إلى الخيرات شعار المؤمنين والمؤمنات الذين يحرصون على مرضاة الله عز وجل والقرب منه؛ ولذلك يقول سبحانه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ...﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤]، وإن السبق إلى مواطن الفضل والبر من سمات المفلحين الفائزين، ولذلك يقول عز وجل: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٠-١٢]، وإن التنافس الكريم المحمود هو ما كان فى مجالات الطاعة والإحسان. ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

ولقد كان تقدم المسلم أو المسلمة فى مكرمة أو فضيلة، وسام شرف يسجله له التاريخ ويردده الدهر؛ ولذلك فى السيرة العطرة طائفة من الأوليات التى امتاز بها فريق من صحابة النبى ﷺ، فأول من أسلم بعد خديجة رضى الله عنها أم الفضل، وأول من هاجر إلى الحبشة عثمان، وأول من هاجر إلى المدينة أبو سلمة، وأول الشهداء فى الإسلام سمية، وأول من عُقد له لواء حمزة رضى الله عنه..

وهكذا إلى آخر هذه الأوليات التى يفخر بها أصحابها، لا بأجسامهم وأنسابهم، ولا بأموالهم أو أجسامهم، وإنما فخروا فيها بسبقهم فى ميادين الخير والعمل الصالح، وأم الفضل رضى الله عنها قد امتازت بأولية باهرة خالدة تكفيها شرفًا وفخرًا، حيث كانت رضى الله عنها أول امرأة أسلمت بمكة بعد خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها.

تحت الحصار:

وبإسلام أم الفضل ومن معها من المسلمين الأولين، كَبُر على المشركين إسلامهم، وغضبوا لذلك غضبًا شديدًا، وبدت العداوة والبغضاء من أكابر مجرميهم، فاشتدوا فى إيذائهم لمن أسلم وآمن بالنبى ﷺ؛ كى يفتنوهم عن دينهم، ووصل بهم الأمر إلى أن حاصروهم فى شِعب أبى طالب ، وكانت أم الفضل ممن حوصرن فى الشعب، واستمر هذا الأمر بهم حتى جهدوا أشد الجهد، وبقوا قريبًا من ثلاث سنوات، وبقيت أم الفضل تحت وطأة الحصار صابرة محتسبة أجرها عند من لا يُضيع أجر من أحسن عملا.

وفى شعب أبى طالب ولدت أم الفضل ابنها الثانى بعد الفضل، فأرسلت به إلى النبى ﷺ، فحنكه بريقه الشريف، وطلبت منه ﷺ أن يسميه، فسماه عبد الله، ولم يعترض زوجها العباس على تصرفها ذلك، وإن ظل على دين آبائه، قال مجاهد: فلا نعلم أحدًا حنكه رسول الله ﷺ بريقه غير ابن عباس(١)، وكانت أم الفضل رضى الله عنها ترقص ابنها عبد الله وتقول:

ثكلتُ نفسى وثكلتُ بِكْرى(٢)   إن لم يَسُدْ فِهْرًا وغير فهر

بالحسبِ العدِ(٣)وبذلِ الوِقْرِ(٤)   حتى يُوارَى فى ضريح القبر(٥)

ولقد بشرها النبى ﷺ أعظم البشرى بوليدها هذا وهى حامل به، فسرت سرورًا عظيمًا، يحكى ذلك فيما بعد ابنها عبد الله، فيقول: حدثتنى أمى أم الفضل بنت الحارث، قالت: بينما أنا مارة والنبى ﷺ فى الحجر، فقال: «يا أم الفضل» قلت: لبيك يارسول الله، قال: «إنك حامل بغلام» قلت: كيف، وقد تحالفت قريش لا يولدون النساء؟ قال: «هو ما أقول لك، فإذا وضعتيه فأتينى به» فلما وضعته، أتيت به النبى ﷺ، فسماه: عبد الله، وألباه بريقه(٦)، قال: «اذهبى به، فلتجدنه كيسًا» قال: فأتيت العباس، فأخبرته فتبسم، ثم أتى النبى ﷺ، وكان رجلاً جميلاً، مديد القامة، فلما رآه النبى ﷺ قام إليه فقبل ما بين عينيه، وأقعده عن يمينه، ثم قال: «هذا عمي، فمن شاء فليباه بعمه»، فقال العباس بعض القول: يارسول الله، قال ﷺ: «ولم لا أقول وأنت عمى، وبقية آبائى، والعم والد»(٧).

بعد الحصار:

انكسر الحصار وخرج المحاصرون من الشِّعب بعد معاناة طويلة وصبر جميل، غير أن قريشًا لم تهدأ عنهم بل تمادت فى عتوها وبغيها، وبخاصة بعد موت خديجة وأبى طالب، وكانت أم الفضل رضى الله عنها ترى الصحابة وهم يعذبون فى الله عز وجل فتبكى وتتأثر؛ لأنها لاتملك من الأمر شيئًا، وكان عبد الله بن

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٢٩٨.

(٢) بكرها: هو الفضل، وبه كانت تكنى رضى الله عنها.

(٣) العِدُّ من القوم: مَنْ يُعَدُّ فيهم. (٤) الوقر: بالكسر هو الحمل الثقيل.

(٥) شاعرات العرب، ص٣٢٠. (٦) أى حنكه بريقه ﷺ.

(٧) رواه الطبرانى ١٠/ ٢٨٩ (١٠٥٨٠)، وقال الهيثمى فى المجمع. ٩/ ٢٧٥، ٢٧٦ وإسناده حسن.

عباس رضى الله عنه يقول فيما بعد عنه وعن أمه: كنت أنا وأمى من المستضعفين، وفى رواية: أنه رضى الله عنه تلا قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ [النساء: ٧٥]، قال: كنت أنا وأمى ممن عذر الله(١).

ولما ازدادت المحنة بالمسلمين أمر النبى ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة، غير أن أم الفضل لم تستطع الهجرة؛ لأن زوجها العباس بقى فى مكة مستخف بإسلامه، وذلك بناء على طلب من النبى ﷺ، لينقل أخبار قريش وتحركاتها، وبقى هو وزوجته فى مكة لايهاجران.

غزوة بدر:

ولما حضرت معركة بدر جاء العباس مهمومًا لأم الفضل، وأنبأها أنه لا مندوحة له من الخروج مع قريش، فهو لايريد أن يكشف هويته للمشركين؛ لأنه لو تلكأ عن الخروج معهم لكشفوا أمره وحاربوه وحالوا دون تعرفه على أسرارهم.

أنصتت أم الفضل لكلام زوجها العباس واعتراها الوجوم قليلاً، فكيف تبقى هى وبنوها وحدهم بين المشركين، وقد يُقتل العباس فى خروجه هذا؟ قطع العباس صمتها وهما وحيدان فى الغرفة، وقال لها بصوت منخفض: إنه لابد من دفن المال بحيث لايكون نهبة بيد أحد، والتفت يمنة ويسرة حوله ليتأكد أنه لايسمعه أحد ثم قال: يا أم الفضل إن أُصبت فى خروجى هذا فللفضل كذا، ولقثم كذا، ولعبد الله كذا، ولعبيد الله كذا، لقد وزع ثروته فى هذه اللحظة الحاسمة.

وأحست أم الفضل كأن جرحًا بليغًا قد تفجر فى أعماقها، ثم تمالكت أعصابها وتجلدت أمام زوجها، وحبست دمعات كن يتحدرن على وجنتيها، ودعت له بالسلامة فى الذهاب والإياب، لقد كان قلبها موزعًا بين جانبين: بين الأمل فى نصر دين الله وتحقيق موعوده، وبين الخوف على زوجها الحبيب أن يمسه سوء، وضرعت إلى الله تعالى أن يحفظ لها زوجها، وينصر نبيه ﷺ ودينه على أعدائه الألداء.

(١) البخارى فى التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ ٨/ ٢٥٥ (٤٥٨٧، ٤٥٨٨).

مرت الأيام تترى وأم الفضل شاردة الذهن، قلقة الأعصاب تنتظر خبرًا يثلج صدرها عن لقاء قريش مع محمد رسول الله ﷺ وكان العباس قد وقع أسيرًا، وبينما المسلمون فرحون بانتصارهم فى بدر، وقد قرت أعينها بتحقيق موعود الله، لم تذق عينا رسول الله ﷺ النوم لما وقع بعمه، قال النبى ﷺ: «أسمع تضوُّرَ العباس فى وثاقه»(١).

وكان الأنصار ينظرون مهوى فؤاد النبى ﷺ لينفذوه، فبلغهم مقالته ﷺ فسارعوا فى فك وثاقه، وجاؤوا به لرسول الله ﷺ، فتهلل وجهه فرحًا لنجاة عمه؛ لأنه أعرف الناس به، وأعرف الناس بالمهمة السرية الملقاة على عاتقه، ولم يكن من المصلحة أن يعلم أحد بإسلامه، لكن الحديث جرى، وكاد يُكشف إسلام العباس لولا أن تداركه الرسول ﷺ بحكمته، وذلك خلال بحث موضوع فداء العباس من الأسر، قال الأنصار: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه، فقال ﷺ: «لا تدعون منه درهمًا» ثم توجه لعمه العباس قائلا: «يا عباس أفد نفسك وابنى أخويك عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عتبة بن عمرو، فإنك ذو مال»، فقال العباس: إنما كنت مسلمًا، ولكن القوم استكرهونى: فقال ﷺ «الله أعلم بما تقول،إن يكن ما تقول حقًا فالله يجزيك»، وأفهمه مهمته قائلاً: «ولكن ظاهر أمرك علينا» فقال العباس: ما ذاك عندى يارسول الله، فقال ﷺ له: «فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل، ثم قلت لها: إن أصبت، فالمال الذى دفنته للفضل، وعبد الله وقثم»؟ قال العباس: والله يارسول الله إنى لأعلم أنك رسول الله، إن هذا شىء ما علمه أحدٌ غيرى وغير أم الفضل..

ورأى العباس أنه سيدفع مالاً كثيرًا فداءه وفداء ابنى أخويه وحليفه، فحاول التنصل قائلاً: فاحسب لى يارسول الله ما أصبتم منى عشرين أوقية من مال كان معى، لقد وعى العباس مهمته فعاد يرخى ستار الكتمان على شخصه، وبدأ يحدث رسول الله أنه فرد من المشركين، فقال رسول الله ﷺ: «لا ذلك شىء أعطانا الله منك»

ففدى العباس نفسه وابنى أخويه وحليفه، وأنزل الله فيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠]، يقول العباس رضى الله عنه: فأبدلنى الله من ذلك عشرين عبدًا كلهم تاجر بمالى(٢).

(١) ابن سعد ٤/٧.
(٢) ابن سعد ٤/٧،٨.

فرحة بالنصر:

نعود إلى أم الفضل فقد تركناها على أحر من الجمر، تنتظر بفارغ الصبر، أخبار بدر، وبدأت طلائع العائدين تصل مكة، وكلهـا تشير إلى هزيمة قريش، فـغمرها وبنيها الفرح، ولكنها بقيت وقلبها واجف تنتظر مَنْ يخبرها بسلامة زوجها .

وخيم الحـزن والقلق على أجواء مكة وراح أهلها يكذبون أنبـاء انتصار محـمد ﷺ وراحت الأنباء تتـضارب حول مـصير زعـماء مكة، وكان أبو لهب حـمو أم الفضل الذى يـنزّ حقدًا وكـراهية للنبى ﷺ، يكاد يفـقد صوابـه من هذه الأنباء، وأوصت أم الفضل بنيهـا ومولاها أبا رافع أن يكتموا فرحهم بهـزيمة قريش، حتى لايصب جام غـضب أهل مكة عليهم، وبخاصة أمـام أبى لهب الذى يود أن يُفرغ حقده كله بمن يقع غضبه عليه. . ورأى أبو لهب غبارًا من بعيد ما لبث أن تكشف عن ابن أخيه أبى سفيان بن الحارث، وعلى وجـهه علائم الذعر والخوف، فأسرع إليـه يقول: يا بن أخى هلـم إلىَّ، فعندك لعـمرى الخـبـر، فسـمعت أم الفـضل صوتهما، فخرجت مهرولة تستمع الخبر، وخرج وراءها مولاها أبو رافع، وجلس فى زاوية البيت بحـيث يستمـعان الحديث، وكان أبو لهـب لم تغادره عنجهيـته، فجلس إلى ابن أخيـه يستمع له والناس قيام حوله، قال أبو لـهب: أخبرنى كيف كان أمر الناس، قال: والله ما هو إن لقينـا الناس حتى منحناهم أكتافنا يقتلون منا كيـف شاؤوا، ويأسـروننا كيف شـاؤوا، ونظرت أم الفضل إلى مـولاها أبى رافع والسرور يبرق فى وجهها، وتابعت مع مولاها بشغف واهتمام حديث أبى سفيان، بينما كان أبو لهب يتجهم وجهه ويربدّ، وتابع أبو سفيان قوله: وأيمُ الله، مع ذلك ما لُـمتُ الناس، لقينا رجـالاً بيضًا على خيل بُلْقٍ بين السمـاء والأرض لايقوم لها شىء، والتفتت أم الفضل مرة ثانية إلى أبى رافع لتظهـر له سعادتها بالخبر، فإذا به يصرخ- وقد فقد أعصابه من الفرح بغير وعى-: تلك والله الملائكة.

شجاعة نادرة:

وقام أبو لهب والشرر يتطاير من عينيه، وضرب أبا رافع ضربة شديدة، أودعها كل غلظته، وحقـده وقسوته، ومضى يُفرِغُ جام غـضبه على المولى المسكين المسلم أبى رافع. . إيه أمّ الفضل هذا مولاك المسلم يضربه عدو الله أبو لهب، ونسيت أم

الفضل فى لحظة انفعالها هذه خطة إخفاء الإسلام لهذا البيت على أهل مكة، ونسيت أنها امرأة، وتحولت إلى لبؤة كاسرة، وقد اقتحم أبو لهب عرينها يريد إهانتها، وقامت إلى عمود من عُمد البيت، وجمعت كل قوتها، وأفرغتها فى ضربة هائلة على رأس أبى لهب، فشجته أعنف شج حتى غمر وجهه الدم، وصاحت فيه: استضعفته إذ غاب عنه سيده.

أين رجولتك وبطولتك يا أبا لهب؟ هذه زوجة أخيك تدوس كبرياءك، وتمرغ كرامتك بالتراب والوحل على ملأ من الناس، وماذا يفعل عدو الله؟ خاف أن يسقط إعياءً وينتابه الدوار فتخور رجلاه ولا تحمله فتماسك وتمالك ومضى إلى بيته موليًا ذليلاً وقد تسربل بالدم، وياللعار، أيقول للناس: إن أم الفضل قد شدخته؟! إنها الفضيحة الكبرى، وماهى إلا أيام حتى التهب جرحه، ووصل أثر الضربة إلى دماغه، فابتلى بمرض مُعْدٍ اسمه: العدسة[1].

تحاشاه الناس، وانفضوا من حوله خوفًا من أن تصيبهم العدوى، حتى حمالة الحطب، تركته يئن وحده، وينازع سكرات الموت، وحتى وَلَده ابتعدوا عنه إلى أن صرعه الموت، فأضحى جثة هامدة.

يقول أبو رافع: فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة- وهى قرحة تتشاءم بها العرب- فتباعد عنه بنوه- قتله الله- وبقى ثلاثة أيام لا تُقرب جنازته ولا يُحاول دفنه، فلما خافوا السبة فى تركه حفروا له، ثم دفعوه بعود فى حفرته، وقذفوه بالحجارة من بعد حتى واروه[2].

وانتهى عدو الله، جيفة قذرة تعافها حتى الكلاب، ويتقززه الناس حتى بنوه: ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [الرعد: ٣٤]

---

(١) العدسة: بثرة صغيرة تشبه العَدَسَة تخرج بالبدن مفرقة كالطاعون فتقتل غالبًا وقلّما يسلم منها.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٦٤٦/١، ٦٤٧، والطبرى ٤٦١/٢، ٤٦٢، وتاريخ الإسلام (المغازى) ص٦٦, ٦٧، وأحمد ٩/٦، والطبرانى الكبير ٣٠٨/١ (٩١٢)، وقال الهيثمى فى المجمع ٧٨/٦، ٧٩ رواه الطبرانى والبزار وفى إسناده حسين بن عبد الله بن عبيد الله وثقه أبو حاتم وغيره، وضعفه جماعة وبقية رجاله ثقات.

لك الله يا أم الفضل، فلئن ذكر التاريخ أبطال الحروب، فلست أدنى منهم بل أنت واسطة العقد فيهم، ولئن ذكر التاريخ ابنى عفراء وابن مسعود وقتلة أبى جهل عدو الله فى بدر، فما أحراه أن يذكرك درة فى جبينه، وقد أوديت بحياة أبى لهب عدو الله فى مكة، ونلت ثأرك بيديك من أعداء رسول الله ﷺ(١).

قدوة طيبة:

هذا سطر من تاريخ المرأة المسلمة الأغر، قرأنا فيه هذا الموقف الفذ من أم الفضل، والذى سيظل شاهد إثبات على شموخ المرأة المسلمة واعتزازها بدينها وقوتها وشجاعتها.. امرأة تقف هذا الموقف وحيدة فى شجاعة وإيمان، وقوة وثبات لاترهب بطشًا ولا تخشى عدوًا، تقوم إلى عدو الله فتشجه شجة عميقة وتقهره وترغم أنفه.. إنها مدرسة النبوة التى خرجت مثل هذه النماذج الكريمة من مثيلات أم الفضل، والتى كانت رضى الله عنها تحمل نفسًا أبية قوية عزيزة، لاترضى الذل ولا الخنوع، فهل لك أيتها المسلمة من قدوة أعظم من هذه؟ تقتدين بها وتنسجين على منوالها.

إن هذا الموقف سيظل معلمًا للمؤمنات أبد الدهر يتعلمن منه فى حياة الكفاح والجهاد: الشجاعة فى إظهار الحق، والشجاعة فى إنكار المنكر، والشجاعة فى الصبر على الجهاد، والشجاعة فى كل ما يؤدى إلى إعلاء كلمة الله عز وجل.. فيا له من درس فى التربية عظيم لو فهمته العقول وأدركته القلوب، إنه ليثبت أن الشجاعة والإقدام ليسا حكرًا على الرجال وحدهم، وإنما للنساء فيهما نصيب بارز وحظ وافر..

عود حميد:

(اكتملت فرحة البيت باجتماع عقده، فقد وصل العباس بن عبد المطلب من المدينة وقص على زوجته أم الفضل ماجرى معه، وكيف كلفه النبى ﷺ بدفع فداءه وفداء ابن أخيه عقيل بن أبى طالب، وابن أخيه نوفل بن الحارث وحليفه، وقص عليها كذلك المعجزة التى رآها من رسول الله ﷺ حين عرّفه ربه بالمال المدفون الذى كان سرًا بينه وبينها، فازداد يقينها أكثر وأكثر، وأحست بأن قلبها يكاد

(١) الأخوات المؤمنات، د. منير الغضبان، ص٤٠-٤٢.

يخرج منها حدبًا على رسول الله ﷺ، وقصت عليه بالتالى ماجرى بينها وبين أبى لهب، وألحت عليه بالهجرة إلى المدينة، مكث العباس صامتًا وقد بدا عليه أنه يسبح فى تفكير عميق، ثم صارحها بالأمر بأنه مكلف أن يبقى فى مكة تنفيذًا لأمر رسول الله ﷺ، وأحست بلذع الفراق وهى تستمع إلى رأيه، ولكنها ذكرت دار الهجرة، وعزة الإسلام وانتصار الدين، والجو المفعم بالإيمان، فهان عليها الأمر وراحت تُعد العدة وتأخذ الأهبة للانضمام إلى الصف الإسلامى الجديد سرًا عن أعين الناس، حتى لا تنالها أحقاد مكة المكظومة بعد الهزيمة، خاصة وقد شاركت فى لطمها بالفاجعة يوم ضربت عدو الله أبا لهب)[١].

الهجرة إلى المدينة:

هضت أم الفضل إلى المدينة، وبقى العباس بمكة إلى ما قبل الفتح يُعلم الرسول ﷺ بأخبار قريش، وفى المدينة أقامت رضى الله عنها فى دار قريبة من بيت النبوة، وكانت تأتيه دومًا وبخاصة عند أختها ميمونة أم المؤمنين، وكان النبى ﷺ يزور أم الفضل، ويعرف فضلها، ويقيل فى بيتها، وما وضع رسول الله ﷺ رأسه فى حجر امرأة لا تحل له بعد النبوة إلا أم الفضل، فإنها كانت تكحله وتخضبه وترجله[٢].

وطال فراق زوجها العباس عنها، وكان ممضا مؤلمًا قاسيًا، أمضت أم الفضل أيامه، ولياليه صابرة محتسبة مستعينة بالصيام والصلاة، مرتقبة قدوم زوجها الحبيب إلى المدينة بانتهاء مهمته فى مكة، وطال غيابه حتى كان آخر المهاجرين إلى المدينة، وما كان يخفف من لوعة فراقها زوجها إلا رؤيتها ولدها عبد الله يلازم النبى ﷺ وينهل من معين هديه اللألاء، ويقتبس كل يوم قبسات من نوره الوضّاء، وما كان يدور فى خلدها أن التاريخ كان يعدها لتدخله من أوسع أبوابه، فتكون الأم العظيمة لحبر الأمة الإسلامية وترجمان القرآن: عبد الله بن عباس رضى الله عنهما)[٣].

---

(١) الأخوات المؤمنات، د. منير الغضبان، ص٤٠-٤٢.

(٢) ابن سعد ٨/ ٢٠٣.

(٣) شخصية المرأة المسلمة، د. محمد على الهاشمى، ص٧٢.

حلم جميل:

(وذات ليلة استيقظت أم الفضل على حلم رائع جميل، لم تتمالك أن رأت الشمس تغمر الأفق حتى تلفعت بثيابها ومضت سريعًا إلى رسول الله ﷺ تقص عليه حلمها الهنيء، ولم تنس أن توصى عبد الله برضيعها قثم الذى لايزال نائمًا فى فراشه.

هش لها رسول الله ﷺ باسمًا، وبعد أن حيته بالسلام رأى أن فى وجهها كلامًا تود أن تبثه، فسألها عن الخبر، فقالت: يارسول الله رأيت أن عضوًا من أعضائك فى بيتى، ثم أصغت إليه بكل جوارحها لتسمع ما يقول، تابع رسول الله ﷺ ابتسامه وقال: «تلد فاطمة غلامًا، وترضعينه بلبن قثم» وفرحت أم الفضل فرحًا كبيرًا لهذه البشارة أن ترزق فاطمة بنت محمد رضى الله عنها غلامًا بعد الحسن الذى كان يملأ بيت النبىَ ﷺ حبورًا وبهجة.

وما هى إلا فترة وجيزة حتى وضعت فاطمة رضى الله عنها وليدها الحسين، وملأت الفرحة أرجاء البيت، وحنكه رسول الله ﷺ وسماه الحسين، وبدأت أم الفضل تنتظر الفرحة يوم يلتقم الحسين ثديها مع أخيه قثم، وتضمه إلى صدرها فتودعه كل ما تملك من حنان وشوق، إنه عضو من أعضاء النبى ﷺ كانت ترعاه شبرًا بشبر، وكانت تعرف مدى حب النبى ﷺ له، فكانت تتقرب فى رعايته إلى قلب رسول الله ﷺ، ومضت به ذات يوم، فما أن رآها رسول الله ﷺ وعلى يديها الحسين حتى تبسم النبى ﷺ، فتلقى أم الفضل بالتحية، وتلقى الحسين بيديه فضمه إلى صدره وقبله، ثم أجلسه إلى حجره، فرأت أم الفضل قطرات البول على ثوب رسول الله ﷺ، أقض هذا المنظر مضجعها وتغير لونها وأقدمت لتأخذ حسينًا بعنف ولم تتمالك أعصابها فقرصته.

أحسّ الطفل الحبيب الحسين بلذع القرصة، فصرخ وتحدرت دموعه من البكاء، وتفطَّر قلب النبى ﷺ أسى لوليده الحبيب الذى عُوقب على بوله، ومثله لا يعاقب فقال لامرأة عمه أم الفضل وهى التى يُكبرها إكباره لأمه: «أوجعت ابنى رحمك الله»[1].

---

(١) عند أحمد فى مسنده «ارفقى يابنى رحمك الله أو أصلحك الله».

وبين مشاعر التأثر لتأثر رسول الله ﷺ، ومشاعر السعادة لدعاء رسول الله ﷺ لها بالرحمة وهو ربح ثمين اكتسبته، عادت فناولت الماء إلى النبى ﷺ فحدره على ثوبه حدرًا، وضمت حسينًا الحبيب إلى صدرها وودعت الرسول ﷺ، ثم عادت إلى بيتها تحمل كنزيها الثمينين معها: ابن بنت رسول الله الحسين، ودعاء رسول الله ﷺ لها بالرحمة بسبب الحسين، ولم تنس أم الفضل واجبها فاتجهت إلى رسول الله ﷺ قائلة: اخلع إزارك والبس ثوبًا غيره كيما أغسله. فقال ﷺ: «إنما ينضح بول الغلام ويغسل بول الجارية»[(١)][(٢)].

ذوق رفيع وفضل كبير:

لقد كانت أم الفضل رضى الله عنها صاحبة ذوق رفيع وأدب جم، وعرفان للفضل وأهله، وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل أصحاب الفضل، فلم يفتها رضى الله عنها أن تطلب من النبى ﷺ أن يخلع ثوبه ويلبس غيره كى تغسله له، ولكن النبى ﷺ أوضح لها الحكم الشرعى ذلك، وفى هذا فضل آخر لأم الفضل، إذ أنها كانت سببًا فى تقرير هذا الحكم الشرعى، والذى حمل معه التيسير ورفع الحرج والمشقة على الأمة، فكان فى ذلك خيرًا وبركة وفضلاً وفائدة للمسلمين إلى يوم الدين، إذ أخذ بهذا الحديث فقهاء الأمة من السلف والخلف للاستدلال به على هذا الحكم، حتى إن أم سلمة رضى الله عنها تقول: يطهر بول الذكر برش الماء عليه رشًا يزيل أثره ويغسل بول الأنثى، وهو قول على رضى الله عنه، ولا مخالف لهما من الصحابة[(٣)].

***

(١) أحمد ٦/ ٣٣٩، وابن سعد ٨/ ٢٠٤، والطبرانى فى الكبير ٣/ ٥. ٩ (٢٥٢٦، ٢٥٤١)، ٢٥/ ٢٥، ٢٦ (٣٩)، والحاكم وصححه ١/ ١٦٦ ووافقه الذهبى.

(٢) الأخوات المؤمنات، د. منير الغضبان، ص٤٤، ٤٥.

(٣) معجم فقه السلف، د. محمد المنتصر الكتانى، ١/ ٢٧.

أم النُّجَبَاء

لقد كان من فضل الله على أم الفضل أن كانت من المنجبات، ولله در القائل:

نعم الإله على العباد كثيرة وأتمهن نجابة الأبناء

قال الإمام النووى: كانت أم الفضل من المنجبات، ولدت للعباس رضى الله عنه ستة رجال لم تلد امرأة مثلهم، وهم: الفضل، وعبد الله، ومعبد، وعبيد الله، وقثم، وعبد الرحمن، وولدت له بنتًا اسمها أم حبيب(١).

أما الفضل، فكان أكبر ولدها وبه كانت تكنى، ومات بالشام فى طاعون عمواس، ولا عقب له إلا بنت يقال لها: أم كلثوم، وكانت عند أبى موسى الأشعرى(٢).

وأما عبد الله فكان حبْرُ الأمة وترجمان القرآن، وفقيه عصره وفريد دهره فى التفسير، سمى بالبحر لكثرة علمه، وكان يكنى أبا العباس، وبلغ سبعين سنة، ومات بالطائف(٣).

وأما معبد فخرج فى خلافة عثمان رضى الله عنه غازيًا إلى إفريقية فقتل بها(٤)

وأما عبيد الله بن العباس فكان سخيًا جوادًا، وكان له عبيد كثير، وكان يقول لعبيده: من أتانى منكم بضيف فهو حر، وكان عامل علىّ على اليمن، وعمى فى آخر عمره(٥).

وأما قثم فقتل بسمرقند(٦)، وأما عبد الرحمن فقد مات بالشام(٧)، وقيل: بإفريقية(٨).

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٥٤.

(٢) انظر ترجمته فى طبقات ابن سعد ٤/ ٣٧، ٣٨، وتهذيب التهذيب ٨/ ٢٤٩، ٢٥٠، والبداية والنهاية ٧/ ٩٦.

(٣) الإصابة ٣/ ٩٠، ٩٦، والمعجم الكبير ١٠/ ٢٨٦-٤١٢، ودر السحابة ص٣٤٥-٣٤٨.

(٤) المعارف، ص١٢١، وابن سعد٤/ ٢، والتاريخ الصغير ١/ ٧٧.

(٥) الإصابة ٤/ ١٩٨، وتهذيب التهذيب ٧/ ١٩، والبداية والنهاية ٨/ ٩٤.

(٦) الإصابة ٥/ ٢٣١، وتهذيب التهذيب ٨/ ٣٢٣، ٣٢٤، وتاريخ الطبرى ١١/ ٥٣٦.

(٧) ابن سعد ٤/ ١، ٢. (٨) جمهرة أنساب العرب، ص١٨.

قال أبو صالح صاحب التفسير: ما رأينا بنى أم قط أبعد قبوراً من بنى العباس لأم الفضل: مات الفضل بالشام، ومات عبد الله بالطائف، ومات عبيد الله بالمدينة، ومات قثم بسمرقند، وقتل معبد بإفريقية(١).

لقد كانت أم الفضل رضى الله عنها من الأمهات النابهات العظيمات، اللائى أنجبن وربين أولاداً كان لهم أعظم الشأن وأرفع القدر، وغرست فيهم روح العظمة، والطموح، وكانت وراءهن فى كل ما حققوه من أمجاد وأعمال عظيمة خلدها التاريخ.

لقد انطلق هؤلاء النجباء فى فجاج الأرض، ينشرون الدين، ويبلغون الرسالة، ويجاهدون فى سبيل الله، متمثلين حديث النبى ﷺ: «إن الرجل إذا مات غريبًا قيس له من مولده إلى منقطع أثره فى الجنة»(٢)، وقد سُئلت أم مُسْلمة عن تفرق أولادها فى شرق الأرض وغربها حتى مات هذا فى جهة، وأخوه فى جهة أخرى، فقالت الأم: باعدت بينهم الهمم..

وهكذا صار أبناء أم الفضل رموزًا شامخة، وأعلامًا هادية، وقدوات سامقة، تتطلع أجيال المسلمين إليهم بكل فخر واعتزاز، وبكل تقدير وعرفان.. وما من واحد منهم إلا وهو مدين بذلك إلى أمه الفاضلة: أم الفضل.

وسيظل الناس يذكرون لأم الفضل ما أولته لابنها عبد الله بن عباس من تربية ونصح، وتعهد ورعاية حتى صار حبر الأمة وترجمان القرآن، لن ينسوا لها ذلك بل وينشدون ما أنشده عبد الله بن يزيد الهلالى:

ما ولدتْ نجيبةٌ من فحل ... بجبل نعلمه أو سهلِ
كستةٍ من بطن أم الفضل ... أكرم بها من كَهْلة وكهلِ
عم النبى المصطفى ذى الفضل ... وخاتم الرُّسْل وخير الرسل(٣)

(١) المعارف، ص١٢١، ١٢٢، وانظر: ابن سعد ٤/٢.
(٢) رواه ابن ماجه فى الجنائز، باب ما جاء فيمن مات غريبًا ١/ ٥١٥ (١٦١٤)
(٣) تلقيح فهوم أهل الأثر، ص٣٢١، وابن سعد ٨/ ٢٠٣، وأسد الغابة ٥/ ٥٣٩.

إن الأم المسلمة اليوم مدعوة لأن تدرك مسؤوليتها فى تربية أولادها، وتنشئتهم تنشئة سوية راشدة، وتوجيههم نحو الخير والرشد ومعالى الأمور، وغرس القيم النبيلة فى نفوسهم، وهذا أفضل ما تقدمه الأم المسلمة اليوم لأمتها.. تقدم أولادًا صالحين، ورجالاً مجاهدين، ومؤمنين عاملين، مقتدية فى ذلك بأم الفضل رضى الله عنها..

وإن من أجمل ما تتحلى به المسلمة، حنوها على أولادها، ورعايتها لحق زوجها، ولقد تجسدت هاتان الصفتان فى أم الفضل رضى الله عنها، فلم يكن أحد مثلها فى حنوها على أولادها، وفي رعايتها لحق زوجها، وبخاصة أن النبى ﷺ قد أشاد بنساء قريش فى هذا الخلق الكريم، مما زادهن فضلاً وجمالاً وقدرًا، قال ﷺ: «خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناه على ولد فى صغره، وأرعاه على زوج فى ذات يده»[1]، قال النووى: فيه فضيلة نساء قريش، وفضل هذه الخصال، وهى: الحنو على الأولاد والشفقة عليهم، وحسن تربيتهم، والقيام عليهم إذا كانوا يتامى، ونحو ذلك، ومراعاة حق الزوج فى ماله وحفظه والأمانة فيه....[2].

***

(١) البخارى فى الأنبياء، باب ﴿وإذْ قالت الْملائكةُ يا مرْيمُ إنّ الله اصْطفاك﴾ [آل عمران: ٤٢]، ٦/ ٤٧٠ (٣٤٣٢)، ومسلم فى الفضائل، باب فضائل نساء قريش ١٦/ ٨٠ (٢٥٢٧)، واللؤلؤ والمرجان ١/ ٧٨٠، ٧٨١ (١٦٤٣).

(٢) مسلم بشرح النووى ١٦/ ٨٠.

فضائل أم الفضل

قال الإمام الذهبى: كانت أم الفضل رضى الله عنها من عِلْية النساء[1]، حسبها رضى الله عنها أنها كانت أول من أسلم بعد خديجة أم المؤمنين وفى هذا من الفضل لأم الفضل ما فيه.

ولله درها يوم أن قامت لتسطر على جبين التاريخ الإسلامى الأغر بأحرف من نور، هذا الموقف الذى يتجلى فيه إيمانها الصادق، وعقيدتها الراسخة، وشجاعتها النادرة الباهرة، فلئن تبجح تاريخ الكفر بأبى لهب زوج حمالة الحطب، فلقد ترصَّع تاريخ الإيمان بقتل أم الفضل له.

فيا لها من مؤمنة صادقة، وبطلة أبية، بلغت القمة، وضُرب بها المثل الرائع فى الشجاعة والإقدام، والجرأة والثبات.

وحسبها رضى الله عنها إكرام النبى ﷺ لها بزيارته ومقيله فى بيتها، قال ابن سعد: إن أم الفضل هاجرت إلى المدينة بعد إسلام زوجها العباس، وكان رسول الله ﷺ يزورها ويأتى بيتها كثيرًا[2]، ثم ما كان من رؤياها الجميلة، وإرضاعها للحسين بن على بلبن قثم، فهى أم الحسين من الرضاعة، وهو جده النبى ﷺ وفى هذا من الصلة والارتباط بالنبى ﷺ ما فيه..

ولقد كان لها من المواقف المشرفة التى يذكرها التاريخ فى أنصع صفحاته، يوم أن توفيت أم المؤمنين خديجة، فغسلتها أم أيمن وأم الفضل رضى الله عنهما، وكانت أم الفضل خير عون للنبى ﷺ فى تلك الفترة الحرجة من عمر الدعوة المباركة.

وعندما هاجر النبى ﷺ بقيت أم الفضل مع زوجها العباس تسانده فى مهمته، وتكون سندًا وعونًا مع زوجها لكل من يسلم من قريش، ولم تسمح له ظروفه بالهجرة، ثم ما كان من هجرتها إلى المدينة، وصبرها على فراق زوجها.

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣١٥.

(٢) ابن سعد ٨/ ٢٠٣، وانظر: تهذيب التهذيب ١٢/ ٤٧٧.

الراوية:

ولقد صحبت النبى ﷺ وسمعت منه وروت عنه، لها فى مسند بقى بن مخلد ثلاثون حديثًا، أخرج لها فى الصحيحين ثلاثة، واتفق البخارى ومسلم لها على حديث واحد ، وآخر عند البخارى، وثالث عند مسلم، وروى عنها ابناها عبد الله وتمام، ومولاهما عمير بن الحارث، وأنس بن مالك، وقابوس بن أبى المخارق، وعبد الله بن الحارث بن نوفل، وكريب مولى ابن عباس(١).

ومن مروياتها عن النبى ﷺ أنه قام ليلة بمكة من الليل، فقال: «اللهم هل بلغت»؟ ثلاث مرات، فقام عمر بن الخطاب، فقال، اللهم نعم، فحرصت ونصحت وجهدت، فأصبح فقال: «ليظهرن الإيمان حتى يرد الكفر إلى مواطنه، وليخوضن البحار بالإسلام، وليأتين على الناس زمان يتعلمون فيه القرآن، فيتعلمونه ويقرؤونه، ثم يقولون: قد قرأنا وعلمنا فمن ذا الذى هو خير منا، فهل فى أولئك وضر؟(٢)» قالوا: لا يارسول الله، ومن أولئك؟ قال: «أولئك وقود النار»(٣).

وروت أن رسول الله ﷺ دخل على العباس وهو شاك، فتمنى العباس الموت، فقال رسول الله ﷺ: «ياعم لا تتمن الموت، إن كنت محسنًا فإن تؤخر تزداد حسناً إلى إحسانك، وإن كنت مسيئًا فإن تؤخر تستعتب من إساءتك خير لك، فلا تتمن الموت»(٤).

ومن مروياتها، قالت: خرج إلينا رسول الله ﷺ وهو عاصب رأسه فى مرضه: فصلى المغرب، فقرأ بالمرسلات، قالت: فما صلاها بعد حتى لقى الله(٥).

(١) تهذيب التهذيب ١٢/ ٤٧٧، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٣١٥.

(٢) الوَضَر: وسخ الدسم واللبن وغسالة السقاء والقصعة ونحوهما، ووضر الإناء يَوْضَر وَضَرًا إذا اتسخ، فهو وَضِرٌ. اللسان ٥/ ٢٨٤.

(٣) الطبرانى فى الكبير ٢٥/ ٢٧، ٢٨ (٤٣) وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ١٨٦: ورجاله ثقات، إلا أن هند بنت الخثعمية التابعية لم أر من وثقها ولاجرحها، قال محقق المعجم: ذكرها ابن حبان فى ثقاته ٥/ ٥١٧ على عادته ولذا قال الحافظ: مقبولة.

(٤) الطبرانى فى الكبير ٢٥/ ٢٨ (٤٤)، وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٢٠٢، ٢٠٣: رواه أحمد ٦/ ٣٣٩، وأبو يعلى والطبرانى ورجال أحمد رجال الصحيح غير هند بنت الحارث.

(٥) البخارى فى المغازى، باب مرض النبى ﷺ ووفاته ٨/ ١٣٠ (٤٤٢٩)، والترمذى فى الصلاة، باب فى القراءة فى المغرب ٢/ ١١٢ (٣٠٨)، والنسائى فى الافتتاح، باب القراءة فى المغرب بالمرسلات، ص ١٧١ (٩٨٤)

الفقيهة:

تدل الروايات الواردة أن أم الفضل رضى الله عنها كانت على علم بدينها فقيهة فيه، من ذلك ما رواه البخارى عن أم الفضل بنت الحارث أن ناسًا تماروا عندها يوم عرفة فى صوم النبى ﷺ، فقال بعضهم: هو صائم، وقال بعضهم: ليس بصائم، فأرسلت إليه بقدح لبن وهو واقف على بعيره بعرفة فشربه(١).

قال ابن حجر: وفيه البحث والاجتهاد فى حياته ﷺ والمناظرة فى العلم بين الرجال والنساء، والتحايل على الاطلاع على الحكم بغير سؤال، وفيه فطنة أم الفضل لاستكشافها عن الحكم الشرعى بهذه الوسيلة اللطيفة اللائقة بالحال؛ لأن ذلك كان فى يوم حر بعد الظهيرة(٢).

العابدة:

ولقد كانت رضى الله عنها من العابدات الصادقات التى تقبل على عبادة ربها بهمة عالية، فكانت تصوم النهار وتقوم الليل، قال ابن الجوزى فى المنتظم: وكانت رضى الله عنها تصوم الاثنين والخميس(٣)، وفى ذلك دليل على تمسكها الشديد بهديه ﷺ واتباعها لسنته.

ولما خرج النبى ﷺ إلى الحج، لخمس بقين من ذى القعدة، لايذكر إلا الحج، خرجت أم الفضل مع النبى ﷺ هى وزوجها العباس، وأدت مناسك الحج مع النبى ﷺ، واستمعت إلى خطبته ﷺ، وكانت هذه حجة الوداع أو حجة الإسلام، وكان هذا أعظم إكرام لها من الله عز وجل بأن أدت مناسك الحج مع رسول الله ﷺ، إذ حظيت بصحبة الحبيب ﷺ.

---

(١) البخارى فى الصوم، باب صوم يوم عرفة ٤/ ٢٣٦، ٢٣٧ (١٩٨٨)، ومسلم فى الصيام، باب استحباب الفطر للحاج بعرفات يوم عرفة ٨/ ٢ (١١٢٣).

(٢) فتح البارى ٤/ ٢٣٨.

(٣) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ٤/ ٣٤٢.

المؤمنة:

بهذه الصفة وصفها الصادق المصدوق ﷺ، وشهد لها بالإيمان- هى وأخواتها- وأكرم به من شاهد ﷺ، وأكرم بها من شهادة، فقال فى حقهن: «إن الأخوات لمؤمنات»(١).

إن أبرز ما يميز المسلمة إيمانها العميق بالله عز وجل، واعتزازها به، وامتثالها لأمره سبحانه، وولاؤها له وحده، ولقد بلغت أم الفضل رضى الله عنها شأوًا عاليًا فى الإيمان، وتبوأت منزلة الفضل والإحسان.

وفاتها:

عاشت أم الفضل رضى الله عنها إلى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه، وكانت رضى الله عنها تحظى باحترام الخلفاء من بعد رسول الله ﷺ لمكانتها من النبى ﷺ، وظلت كذلك إلى أن لقيت الله عز وجل، قال ابن حبان فى الصحابة: ماتت قبل زوجها العباس بن عبد المطلب فى خلافة عثمان رضى الله عنه، وكذا قال الذهبى(٢).

رضى الله عن أم الفضل، فقد كانت مؤمنة حقًا، جمعت أطراف المجد من كل جوانبه، وحسبها رضى الله عنها أن قدمت لدينها أعلامًا وهداة يقتدى بهم إلى يوم يبعثون، وحسبها كذلك أن كانت هى قدوة فى الفضائل كلها.. فرضى الله عنها وأرضاها، وجعلها فى الأولين فى جنات النعيم.

***

(١) الطبرانى فى الكبير ١١/ ٤١٥ (١٢٧٨) وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٩/ ٢٦٣: رواه الطبرانى بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح، ورواه الحاكم فى المستدرك ٤/ ٣٢، ٣٣، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى، وانظر: صحيح الجامع الصغير رقم (٢٧٦٠)، وابن سعد ٨/ ٢٠٣.

(٢) تهذيب التهذيب ١٢/ ٤٧٦، ٤٧٧، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٣١٥.

أم أيمن
بركة بنت ثعلبة الحبشية
رضى الله عنها
(١١)

نَسَبُها

أم أيمن (١):

هى بركـة بنت ثعلبة بن عـمرو بن حـصن بن مالك بن سلـمة بن عمـرو بن النعمـان، وكان يقال لهـا: أم الظباء، وتكنى بابنهـا: أيمن بن عبيـد، وهى مولاة النبى ﷺ وحاضنته.

ذكر بعض المؤرخين أنها كانت من سبى جيش أبرهة صاحب الفيل، فلما انهزم عن مكة أخذها عـبد المطلب من فَلّ عسكره، وكـانت وصيفة لابنه عـبد الله والد النبى ﷺ (٢)، ثم ورثهـا ﷺ عن أبيـه، ولما تزوج ﷺ خـديجـة رضى الله عنهـا أعتـقها، فـتزوجهـا عبيـد بن زيد من بنى الحارث بن الخـزرج، فولدت له أيمن، فـصحب النبى ﷺ وقُـتل يوم حنين شـهـيدًا، وكـان زيد بن حـارثة لخديجـة أم المؤمنين، فوهبـته لرسول الله ﷺ فـأعتقـه وزوجه أم أيمن بعد النبـوة، فولدت له أسامة حب رسول الله ﷺ (٣).

---

(١) ابن سعـد ٨/ ١٦٢-١٦٤، والإصابة ٦/ ٢١٢-٢١٤، وأحمـد ٦/ ٤٢١، وتاريخ الإسلام (عهـد الخلفاء الراشدين) ص٤٨، ٤٩، وحلية الأولياء ٢/ ٦٧، ٦٨، وأسد الغابة ٥/ ٥٦٧، ٥٦٨، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٢٢٣-٢٢٧، والمستـدرك ٤/ ٦٣، ٦٤ وتهـذيب الأسـمـاء واللغـات ٢/ ٣٥٧، والفـتح الربانى ٢٢/ ٤٢٨, ٤٢٩، والمعـجم الكبـير ٢٥/ ٨٥-٩١، ومـجـمع الزوائد ٩/ ٢٥٨، ٢٥٩، والاسـتيعـاب ٤/ ٤٣١, ٤٣٢، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٤٨٦، والعبـر فى أخبار من غبر ١/ ١٢، ٥٩ وشذرات الذهب ١/ ١٥، وأعلام النساء ١/ ١٢٧، ١٢٨، وصفة الصفوة ٢/ ٣٨، ٣٩، والمعارف ص١٤٤، ١٤٥، والمعين فى طبـقـات المحـدثين، ٣٠(١٧٨)، والعـقـد الـثـمن ٨/ ١٨٨ (٣٣٠٨)، ٣٢٤ (٣٤٨٣)، والكاشف ٣/ ٤٣٨، والعقد الثمين ٨/ ١٨٨ (٣٣٠٨)، ٣٢٤ (٣٤٨٣)، والتاريخ الصغير ١/ ٦٣، وتلقيح فهوم أهل الأثر، ص٣١٨، وخـلاصة تذهيب تهـذيب الكمال ٣/ ٣٩٦، وتاريخ الطـبرى ١١/ ٦١٥، ٦١٦، وزاد المعاد ١/ ٨٣, ٨٤، والمـنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ٤/ ٣٤٠، ٣٤١، والمقتنى فى سـرد الكنى ٢/ ١٦٧ (٦٩٥١)، وتجـريد أسـمـاء الصـحابة ٢/ ٢٥٠ (٣٠٣٩)، ٢/ ٣١٣ (٣٧٨١)، والـثقـات لابن حـبـان ٣/ ٤٦٠، وجمهرة أنسـاب العرب، ص٣٥٥، وتهذيب الكمال (المصورة) ٣/ ١٧٠٠، وإمـتاع الأسماع ٦/ ٣٤٠، ٣٤١، والبداية والـنهاية ٥/ ٢٨٢، ٢٨٣، وتقريب الـتهذيب ٢/ ٦١٩، والمؤتلـف والمختلف ١/ ٢٠٠، والإكمال فى رفع الارتياب ١/ ٢٣٢، والجرح والتعـديل ٩/ ٤٦١ (٢٣٦٣)، وطبقات خليفة، ص٣٣١، وتحفة الأشراف ١٣/ ٦٨ (٩٢٤).

(٢) الفتح الربانى ٢٢/ ٤٢٨، وانظر: تهذيب الأسماء واللغات للنووى ٢/ ٣٥٨، ومسلم بشرح النووى ١٢/ ١٠٠.

(٣) ابن سعد ٨/ ١٦٢، والإصابة ٦/ ٢١٣، وانظر: أسد الغابة ٥/ ٥٦٧، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٢٢٣، ٢٢٤.

إسلامها:

لما أشرقت شمس الإسلام على العالم كانت أم أيمن رضى الله عنها من السابقات إلى الإسلام، قال ابن الأثير: أسلمت قديمًا أول الإسلام، وهاجرت إلى الحبشة، وإلى المدينة، وبايعت رسول الله ﷺ(١)، وبذلك كانت أم أيمن رضى الله عنها من بين رعيل المسلمات الأُوَل اللائى تأثرن بالإسلام تأثرًا هان وراءه كل شيء، واستعذبن فى سبيله كل مر، واللائى لم يدعن لرجالهن خلَّة يستأثرن بها دونهن، ولم يتركن سبيلاً خيِّرًا من سبل العظائم، ولا مشرفًا من مشارف المكارم، إلا وكنَّ من السابقات إليه..(٢).

***

(١) أسد الغابة ٥/٥٦٧، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/٣٥٧، ٣٥٨.

(٢) نساء من عصر النبوة، أحمد خليل جمعة ٢/٧.

مع رسول الله ﷺ

لم تحظ امرأة من صحبة النبى ﷺ وشرف ملازمته، مثلما حظيت به أم أيمن رضى الله عنها، فقد ارتبطت به ﷺ منذ صغره، بل منذ ولادته، تبدأ رحلة أم أيمن مع رسول الله ﷺ منذ قررت آمنة بنت وهب أم النبى ﷺ أن تزور أهلها فى يثرب، وتزور قبر زوجها عبد الله، فاصطحبت معها جاريتها أم أيمن وكان معهما النبى ﷺ، وبعد أن قضت آمنة شهرًا فى المدينة، قررت العودة، وبينما هى فى طريق عودتها لاحقها المرض، فماتت بالأبواء بين مكة والمدينة.

عادت أم أيمن إلى مكة ومعها محمد ﷺ، وهى فى حزن شديد على فقدان آمنة، ومن هذا الوقت أضحت حاضنته، تغمره بعطفها وتخصه برعايتها، ولما انتقل النبى ﷺ إلى بيت جده رافقته وظلت معه، ولما توفى عبد المطلب وانتقل النبى ﷺ إلى بيت عمه أبى طالب لم تفارقه أم أيمن، وظلت معه كذلك فى دار عمه تحوطه برعايتها، وتشمله برحمتها، شب النبى ﷺ فى بيت عمه وقيد الله عز وجل له أيضًا فاطمة بنت أسد زوج عمه تعطف عليه وترعاه، بل إنها كانت تخاف عليه أكثر من خوفها على أولادها.

ولما تزوج النبى ﷺ بخديجة أعتق أم أيمن، فتزوجها عبيد بن الحارث الخزرجى، فولدت له أيمن- كما مر بنا- ولما كانت بعثة النبى ﷺ أسلمت أم أيمن بل كانت من السابقات إلى الدخول فيه، بينما أبى زوجها إلا الكفر، ففرق الإسلام بينهما، وبعدما فارقته، أراد الله عز وجل أن يكافئها بزوج مؤمن تقى يحبه الله ورسوله، فكان هو زيد بن حارثة الذى وهبته أم المؤمنين خديجة للنبى ﷺ، وكان النبى ﷺ يقول قبل زواجها من زيد: «من أراد أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن»[١] فتزوجها زيد وولدت له أسامة بن زيد، فكانت هذه الأسرة الكريمة لها منزلة خاصة عند النبى ﷺ، إذ كان يحب زيدًا وأسامة وكان الصحابة يسمون أسامة الحب ابن الحب[٢].

(١) ابن سعد ٨/ ١٦٢، والإصابة ٦/٢١٣.

(٢) يدل على ذلك قول أمير المؤمنين عمر لابنه عبد الله رضى الله عنهما، لما فرض لأسامة أكثر منه فى العطاء: إنه كان أحب إلى رسول الله ﷺ منك، وإن أباه كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ من أبيك، الإصابة ٤/ ٥٠، وقال الحافظ ابن حجر: صحيح، وانظر: فتوح البلدان، ص٦٣٣، ٦٤٠.

مكانها من رسول الله ﷺ:

لقد كانت أم أيمن أثيرة عند رسول الله ﷺ، وحظيت عنده ﷺ بمكانة خاصة دون غيرها، فكان الحبيب ﷺ يقول عنها: «أم أيمن أمي بعد أمي»(١).

وروى ابن سعد بسنده أن النبي ﷺ كان يقول لأم أيمن: «يا أمه»، وكان ﷺ إذا نظر إليها قال: «هذه بقية أهل بيتي»(٢).

وعن سفيان بن عقبة قال: كانت أم أيمن تلطف النبي ﷺ (٣) وتقدم عليه(٤)، وجاءت مرة إلى النبي ﷺ، فقالت: احملني، فقال ﷺ: «أحملك على ولد الناقة»، فقالت يا رسول الله: إنه لايطيقني ولا أريده، فقال ﷺ: «لا أحملك إلا على ولد الناقة» يعني أنه ﷺ كان يمازحها، وكان رسول الله ﷺ يمزح ولايقول إلا حقًا، والإبل كلها ولد النوق(٥).

وكان النبي ﷺ يكثر من زيارتها في بيتها، فعن أنس قال: انطلق رسول الله ﷺ إلى أم أيمن، فانطلقت معه، فناولته إناءً فيه شراب، قال: فلا أدرى أصادفته صائمًا أو لم يرده، فجعلت تصخب عليه وتذمَّرُ عليه(٦)، فالنبي ﷺ رد الشراب عليها إما لصيام وإما لغيره، فغضبت أم أيمن وتكلمت بالإنكار والغضب، وكانت تدل عليه ﷺ؛ لكونها حضنته وربته ﷺ.

وفي روايةَ أن النبي ﷺ دخل عليها فقربت إليه لبنًا، فإما كان صائمًا، وإما قال: لاأريد، فأقبلت تضاحكه، فلما كان بعد وفاة النبي ﷺ قال أبو بكر لعمر:

---

(١) الإصابة ٦/ ٢١٢.

(٢) ابن سعد ٨/ ١٦٢، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٢٢٤.

(٣) تلطف النبي ﷺ: أى تتحفه وتكرمه وتبرّ به.

(٤) الإصابة ٦/ ٢١٣، وفي سير أعلام النبلاء: وتقوم عليه، ٢/ ٢٢٤.

(٥) ابن سعد ٨/ ١٦٣، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٢٢٥.

(٦) تصخب: أى تصيح وترفع صوتها إنكارًا لإمساكه عن شرب الشراب، وقوله: تذمر: هو بفتح التاء وإسكان الذال المعجمة وضم الميم، ويقال: تذمر بفتح التاء والذال والميم، أى تتذمر وتتكلم بالغضب، يقال: ذمر يذمر كقتل يقتل، إذا غضب وإذا تكلم بالغضب، مسلم بشرح النووى ١٦/ ٩، والحديث رواه مسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل أم أيمن ١٦/ ٩ (٢٤٥٣).

انطلق بنا نزور أم أيمن، كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما دخلا عليها بكت، فقالا: مايبكيك؟ فما عند الله خير لرسوله ﷺ قالت: أبكى أن وحى السماء انقطع، فهيجتهما على البكاء، فجعلت تبكى ويبكيان معها[١].

اشتغالها بمعالى الأمور:

لقد كانت أم أيمن رضى الله عنها تتحلى بسعة الأفق والاشتغال بمعالى الأمور، فهى رضى الله عنها تبكى لانقطاع الوحى؛ لأنها تدرك قيمته وأهميته، والمسلمون فى كافة الأصقاع وكل الأجيال يسترشدون بمعطيات وحى الله المختتم بنبوة محمد ﷺ، فيسلكون سبيل الرشد والهدى على منواله، ويتجنبون سبل الغى والردى على ضوئه وهداه.

إن إدراك أم أيمن رضى الله عنها لقيمة الوحى الإلهى وهى فى ذلك الموقف إثر وفاة النبى الحبيب ﷺ يدل على حصافة رأيها وثبات فؤادها، وأن النساء فى ذلك الجيل الميمون كن فى مستوى كريم من الإدراك والوعى والبصيرة والاشتغال بالأمور العالية والتجافى عن السفسوفات.

وما أحوج نساء المسلمين إلى انتهاج هذا النهج الراشد، والاشتغال بمعالى الأمور والاهتمام بعظائمها والتجافى عن السفاسف والهفوات..[٢]

ونتعلم أيضًا فائدة أخرى. وهى حرص الصحابة «رضى الله عنهم» على زيارة أهل الخير الذين يذكرون بالله عز وجل، ويرققون القلوب، ويستدرّون دموع الخشية والعظة والاعتبار من المآقى.. إن التقربَ إلى أهل الصلاح والاتصال بهم مما يقوى إيمان الفرد ويجلى قلبه، ويزكى نفسه، فيزداد إقبالاً على الحق والتزامًا به. ونتعلم كذلك: الاقتداء بهذا الجيل الربانى الفريد الذى تجسدت فيهم تلك الأخلاق النبيلة، فكانوا نماذج عالية فى إجلال الكبار وأصحاب الفضل، فتعرف للناس أقدارهم وننزلهم منازلهم وهذا من أدب الإسلام العظيم..

(١) مسلم فى فضائل الصحابة، باب فضائل أم أيمن ٩/١٦، ١٠ (٢٤٥٤)

(٢) مائة درس من السيرة النبوية د. عبد الرب نواب الدين، ص١٢٧.

وقال الإمام النووى: فيه زيارة الصالحين وفضلها، وزيارة الصالح لمن هو دونه، وزيارة الإنسان لمن كان صديقه يزوره ولأهل ود صديقه، وزيارة جماعة من الرجال للمرأة الصالحة وسماع كلامها، واستصحاب العالم والكبير صاحبًا له في الزيارة والعيادة ونحوهما، والبكاء حزنًا على فراق الصالحين والأصحاب، وإن كان قد انتقلوا إلى أفضل مما كانوا عليه والله أعلم(١).

إكرام النبى ﷺ لها:

ولقد كان النبى ﷺ يكرم أم أيمن ويعطيها ماتريده لحبه إياها، فعن أنس رضى الله عنه، قال: لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة قدموا وليس بأيديهم شىء، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار، فقاسمهم الأنصار، على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام، ويكفونهم العمل والمؤونة، وكانت أم أنس بن مالك، وهى تُدعى أم سليم، أعطت رسول الله ﷺ عذاقًا لها، فأعطاها رسول الله ﷺ أم أيمن مولاته، أم أسامة بن زيد. قال ابن شهاب: فأخبرنى أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ لما فرغ من قتال أهل خيبر، وانصرف إلى المدينة، رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التى كانوا منحوها لهم من ثمارهم. قال: فرد رسول الله ﷺ إلى أمى عذاقها، وأعطى رسول الله ﷺ أم أيمن مكانهن من حائطه.

وفى رواية عن أنس أيضًا رضى الله عنه: أن الرجل كان يجعل للنبى ﷺ النخلات من أرضه، حتى فُتحت عليه قريظة والنضير، فجعل بعد ذلك يرد عليه ما كان أعطاه، قال أنس: وإن أهلى أمرونى أن آتى النبى ﷺ فأسأله ما كان أهله أعطوه أو بعضه، وكان نبى الله ﷺ قد أعطاه أم أيمن، فأتيت النبى ﷺ فأعطانيهن، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب فى عنقى، وقالت: والله لانعطيكاهن وقد أعطانيهن، فقال نبى الله ﷺ: «يا أم أيمن اتركيه ولك كذا وكذا»، وتقول: كلا، والذى لا إله إلا هو، فجعل ﷺ يقول كذا حتى أعطاها عشرة أمثاله، أو قريبًا من عشرة أمثاله(٢).

---

(١) مسلم بشرح النووى ١٦/ ١٠.

(٢) البخارى فى المغازى، باب مرجع النبى ﷺ من الأحزاب ٧/ ٤١٠، ٤١١ (٤١٢٠)، ومسلم فى الجهاد والسير، باب رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم ١٢/٩٨- ١٠١ (١٧٧١).

قال الإمــام أحمد عــبد الرحمــن البنا: ظنت أم أيمن أن النخلات الممنوحــة لها كانت هبــة مؤبدة، وتمليكًا لأصولهــا، ففعلت مع أنس رضى الله عنه مــا فعلت، وأراد النبى ﷺ اســتطابة قلبهــا فى اســترداد تلك النخــلات، فمــازال يزيدها فى العوض حتى بلغ به عشر أمثالهــا، فرضيت، وكل هذا تبرع منه ﷺ وإكرام لها لما لها من حق الحضانة والتربية[١].

وقال ابن حجــر: وفيه فرط جود النبى ﷺ وكــثرة حلمه وبره، ومنزلة أم أيمن عند النبى ﷺ رضى الله عنهما. . .[٢].

***

(١) الفتح الربانى ٢٢/٤٢٩.

(٢) فتح البارى ٧/٤١١.

هجرة وجهاد

أم أيمن والهجرة المباركة:

سبق قول ابن الأثير أنها رضى الله عنها هاجرت إلى الحبشة، وإلى المدينة.. فهى أذن رضى الله عنها صاحبة الهجرتين، قال عنها الإمام الذهبى فى تاريخه: كانت رضى الله عنها من كبار المهاجرات[١]، وقال عنها فى سيره: كانت رضى الله عنها من المهاجرات الأوَل[٢]،وللمهاجرات الأُوّل مكانة عالية ومنزلة سامية، ولهجرة أم أيمن رضى الله عنها قصة عجيبة تشير إلى لطف الله عز وجل بها وإكرامه لها:

روى ابن سعد بسنده قال: لما هاجرت أم أيمن أمست بالمنصرف دون الروحاء[٣]، فعطشت وليس معها ماء، وهى صائمة، فجهدها العطش، فَدُلِّى عليها من السماء دلو من ماء برشاء أبيض،فأخذته فشربت منه حتى رويت، فكانت تقول: ما أصابنى بعد ذلك عطش، ولقد تعرضت للعطش بالصوم فى الهواجر فما عطشت بعد تلك الشربة، وإن كنت لأصوم فى اليوم الحار فما أعطش[٤].

لك الله يا أم أيمن ! ما أعظم إيمانك بالله عز وجل! وما أروع صبرك! وما أجمل احتسابك! كيف استطعت أن تتحملى وعورة الطريق ولأواء المسير ووعثاء السفر، ومشقة الحر والجوع والخطر، وأنت وحدك مع كبر سنك وهزال جسمك؟! وكيف تحملت هذه الشمس المحرقة، والرمضاء المتأججة.. وكنت صائمة؟! وكيف تماسكت نفسك الصابرة حتى واصلت طريق الهجرة، تبتغين بصبرك واحتسابك مرضاة الله عز وجل؟! إنه الإيمان العميق، واليقين الوثيق، لا جرم أن الله عز وجل علم صدق إيمانك، وجميل صبرك واحتسابك، فكافأك بهذه الكرامة..

(١) تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين) ص٤٨، ٤٩.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٢٤.

(٣) ذكر ابن الكلبى: لما رجع تُبّع من قتال أهل المدينة يريد مكة نزل بالروحاء، فأقام بها وأراح فسماها الروحاء، معجم البلدان ٣/ ٨٧.

(٤) ابن سعد ٨/ ١٦٢، وعنه الحافظ ابن حجر فى الإصابة ٦/ ٢١٣، وتاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين) ص ٤٩، وتلقيح فهوم أهل الأثر، ص٣١٨، ٣٢٦، وأورده صاحب الحلية من وجه آخر انظره ٢/ ٦٧، والحديث رجاله ثقات لكنه منقطع.

نعم لقد عـانت أم أيمن رضى الله عنها فى طريق هجرها أشد المعـاناة، فلا ظل يؤويها، ولاشـجرة تحمـيها، ولا إنسان يـعطف عليها، ولكنهـا سارت فى طريق الهجرة وحدها يرافقها الإيمان بالله، ويحميها الصبر، وتدفعها الهمة العالية. . ومع أنها رضى الله عنهـا أوشكت على الهلاك إلا أن الله سبحـانه حفظ عليها حـياتها بصدق دعائها وإخلاصها له وحده لاشريك لـه، وارتوت أم أيمن فبعثت فيها الحياة من جديد، ولحـقت بأفراد أسرتهـا فى المدينة، وبمهوى فؤادها الحـبيب ﷺ، وأتم الله هجرتها، وأغدق فضله عليـها. . إذ لم تظمأ حتى ماتت. . وهكذا يكافئ الله عباده المؤمنين الصابرين، ويتولى بفضله عباده الصالحين.

المجاهدة:

لقد كانت أم أيمن رضى الله عنها من النسـاء المجاهدات الغازيات التى خرجت فى الغزوات والمعارك من أجل نصـرة الإسلام والجهاد فى سبـيله. . شهدت رضى الله عنها أحـدًا مع كبـر سنها، وكانت تسـقى الماء للمجـاهدين، وتضمـد جراح المكلومين. . وكان لهـا رضى الله عنها موقف مشرف يـوم أحد، وذلك لما وقعت مخالفة الرمـاة عن أمر الرسول ﷺ التى بدّلت نصرهم هزيمة، فأضحـوا كما قال الله تعالى فيهم: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ [آل عمـران:١٥٣]، وقُتل عـدد من صحـابة النبى ﷺ، وانهزم البـعض الآخر. فتقدمت أم أيمن فى قوة وثبات تحثى فى وجـوههم التراب، وتقول لبعضهم: هاك المِغْزَل فاغزلْ به، وهلم سيفك[(١)]، إنها رضى الله عنها لم تطق رؤية المنهزمين عن رسول الله ﷺ فـقالت قولتـها هذه لتحـفزهم إلى القتـال والنزال، ثم اتجهت إلى النبى ﷺ فى نُسَـيّاتٍ معـها تطمـئن عليه وتسـتطلع خبـره، فاطمأنـت عليه ﷺ وحمدت الله عز وجل.

ولقد كـانت رضى الله عنها فى قلب المعـركة، حتى إن حـبان بن العَـرِقة رمى بسهم فـأصاب ذيل أمّ أيمن- وجاءت يومئـذ تسقى الجرحى- فعـقلها[(٢)] وانكشف عنها، فاستغرق فى الضحك، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فدفع إلى سعد بن

(١) المغازى ١/٢٧٨، ودلائل النبوة ٣/٣١١، وأنساب الأشراف ١/٣٢٦، وإمتاع الأسماع ١/١٥٣.

(٢) فعقلها: أى صرعها، وقال محقق المغازى: فى نسخة ح: فقلبها وانكشف ذيلها عنها.

أبى وقاص سهمًا لا نَصْلَ له، فقال: «ارم»، فوقع السهم فى ثُغرة نحر حِبّان، فوقع مستلقيًا وبدت عورته. قال سعد: فرأيت رسول الله ﷺ ضحك يومئذ حتى بدت نواجذه، ثم قال: «استقاد لها سعد، أجاب الله دعوتك وسدد رميتك»[١].

فانظر كيف حزن النبى ﷺ لما وقع بأم أيمن، وفرح لها لما استقاد لها سعد، وما كان ذلك ليكون إلا بدافع حب النبى ﷺ لأم أيمن ومكانتها فى قلبه.

وهذا هو كعب بن مالك ينقل لنا بعضًا من أحداث المعركة فيقول: رأيت أم سليم بنت ملحان وعائشة على ظهورهما القرب يحملانها يوم أحد، وكانت حمنة بنت جحش تسقى العطشى وتداوى الجرحى، وكانت أم أيمن تسقى الجرحى[٢].

وفى خيبر خرجت أم أيمن مع رسول الله ﷺ، فقامت بواجبها خير قيام، وكان ابنها أيمن رضى الله عنه قد تخلف عن الغزوة لعذر منعه من الخروج، فظنت رضى الله عنها أنه جبن، فلامته على ذلك، رغم أن عذره كان مقبولاً، غير أنها تريده أن يكون على شاكلتها فى حب الجهاد والإقبال عليه، وفى ذلك قال حسان بن ثابت:

على حين أن قالت لأيمن أمُّه ... جبنتَ ولم تشهد فوارس خيبر
وأيمن لم يجبنْ ولكن مهره ... أضرَّ به شربُ المديد المخمَّر[٣]
فلولا الذى قد كان من شأن مُهره ... لقاتل فيها فارسًا غير أعسر[٤]
ولكنه قد صده فعلُ مُهره ... وما كان منه عنده غير أيسر[٥]

ولقد شهدت غزوة خيبر أكبر تجمع نسوى، لم تشهده غزوة أخرى من الغزوات، قال الواقدى: وخرج مع رسول الله ﷺ من المدينة عشرون امرأة، عدّ منهن: أم أيمن رضى الله عنها[٦]، لقد كانت نصرة هذا الدين، والالتحاق بركب

(١) المغازى ١/٢٤١، وإمتاع الإسماع ١/١٤٩.
(٢) المغازى ١/٢٤٩، ٢٥٠.
(٣) نوع من طعام الخيل، فسد بعد أن طالت مدة حفظه.
(٤) الأعسر، الفارس الشجاع.
(٥) ديوان حسان بن ثابت، ص١١٣، ١١٤.
(٦) المغازى للواقدى ٢/٦٨٥، وكذا قال المقريزى فى إمتاع الأسماع ١/٣٢١.

الجهاد فى سبيل الله عز وجل، والتضحية من أجله، ديدن المرأة المسلمة أول الإسلام، إذ كانت هناك قضية يؤمنَّ بها كما يؤمن بها الرجال، ويعملن لها ويضحين فى سبيلها كما يعمل الرجال ويضحون، وهذا الإيمان بهذه القضية هو الذى حمل هذا العدد الكبير من النساء المجاهدات على المشاركة الفعالة مع النبى ﷺ وصحبه، كما أنه هو الذى دفع أم أيمن- كذلك- على تربية ولدها على الجهاد فى سبيل الله، وأن تنأى به عن القعود والتخلف عن الغزو، وهو الذى جعلها - كذلك- تقف كالطود الأشم فى وجه المنهزمين عن رسول الله ﷺ يوم أحد وتقول لهم ما قالت.. فيا لروعة الإيمان والثبات واليقين.

ولو أن النساء كمنْ فقدنا   لفُضِّلت النساء على الرجال[1]

وما التأنيث لاسم الشمس عيب   وما التذكير فخرٌ للهلال

الصابرة المحتسبة:

وفى غزوة مؤتة كان الخطب جسيمًا والبلاء شديدًا على أم أيمن حين استشهد زوجها زيد بن حارثة رضى الله عنه، ولكنها رضى الله عنها صبرت واحتسبت بعد أن تلقت خبر استشهاده بنفس مطمئنة راضية بقضاء الله وقدره.

ولم يقتصر جهاد أم أيمن وبلاؤها الحسن على غزوة أحد وخيبر، بل شهدت يوم حنين مع رسول الله ﷺ وصحابته، ولم يقعدها تقدم سنها وضعف جسمها عن الخروج إلى الجهاد فى سبيل الله ولم يوهن من عزيمتها، بل مضت تقوم بدورها حتى جاء نصر الله عز وجل[2].

وفى هذه الغزوة خرج معها ولداها أيمن وأسامة، وكانا ممن ثبت مع رسول الله ﷺ، وضربا المثل فى الشجاعة والإقدام والثبات والدفاع عن رسول الله ﷺ.. وقاتلا حتى سقط أيمن شهيدًا فى سبيل الله عز وجل[3].

(١) البيت للمتنبى من قصيدة يرثى بها والدة سيف الدولة، ومعنى البيت يقول: لو أن نساء العالم كهذه المفقودة فى الكمال والعفاف، لفضلن على الرجال، بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب١/ ١٧٤.

(٢) كانت أم أيمن تقول يوم حنين: سبَّت الله أقدامكم، فقال النبى ﷺ: «اسكتى يا أم أيمن فإنك عثراء اللسان» ابن سعد ٨/ ٢٢٥.

(٣) تاريخ الإسلام (المغازى) ص٥٨٩.

وتبتلى أم أيمن فى ابنها أيمن، فتـصبر صبرًا جميلاً، وتحـتسب ابنها عند الله عز وجل كما احتسبت زوجها من قبل..

إن هذه هى القدوة لكنَّ أيتها المسلمات فى قـوة الإيمان، وثبات اليقين، والصبر الجميل.. إن على المسلمة أن تدرك جيـدًا أن العقيدة فوق كل شىء.. وأن المؤمن هو الذى يضحى فى سـبيلها بكـل عزيز ونفيس؛ لأنهـا حق الله تعالى، والله هو الذى خلق ووهب، ويعطى ويمنع، ويرفع ويضع، وهو سبحانه مالك الملك، وهو على كل شىء قدير.

***

أم النجيبيْن

أيمن ابن أم أيمن(١):

لقد اشتهر أيمن رضى الله عـنه بأمه أكثر مما اشتهر بأبيه، فيـقال عنه غالبًا: أيمن ابن أم أيمن، وأمه اشتهرت به أكثر مما اشتهرت باسـمها أو باسم أبيها، فيقال عنها غالبًـا: أم أيمن، ولايقال لها: بركـة بنت حصن إلا نادرًا، فـهو يتعـرف بها وهى تتعرف به، وهما لايستندان إلى اعتزاز بنسب ولا اغترار بحسب .

وهكذا الإسلام أعز الله به قومًا، وخفض به آخرين، فكم من فاخرين بأنسابهم وحدها خسف بهم الإسلام إلى الحضيض، وكـم من معتزين بعزة الله وحده بانين لأنفسهم بأيديهم وبفضل الله وحده، رفعهم الإسلام إلى عليين، وكان الواحد من هؤلاء المؤمنين المجاهدين الأحرار الأخيار، كان يقول لنفسه:

هأنذا، إن لى ذاتى وحـيـاتى، وإن لى كـيانى وبنيـانى، وفى صـدرى يقـينى وإيمانى، وإن من فـوقى ربى وخـالقى، وهو مـعـينى ورازقى، فـلأسع منذ بداية الطريق، هذه قدمى فلأحركها فى تأييد خـير أو مقاومة شر، وهذه يدى فلأتم بها عمرانًا، أو فـلأحطم بها طغيانًـا، وهذا سلاحى فلأحرس به حقًـا، أو فلأدفع به باطلاً، وهذه حياتى فلأعشها كريمة عـزيزة، أو فلأقدمها فى ساحة الوفاء والفداء؛ لتكون وديعة مصـونة عند من لا تضيع لديه الأمانات أو تهون، فالله خـير حافظًا وهو أرحم الراحمين.

لقد أراد الله عز وجل الخير لأيمن، فكان يخدم النبى ﷺ ويتولى شأن مطهرته، ويعاطيه حاجـته، ولاحظته عين النبوة البصيرة بالرعـاية والتأديب والتهذيب، ولم يقبل ﷺ أن ينـشأ أيمن منحرفًـا أو مدللاً، بل حرص ﷺ أن يـنشأ رجلاً عـاقلاً فاضلاً، ومؤمنًا مجاهدًا.

مر النبى ﷺ على أيمن ذات يوم ومـعه فتيان مثلـه قد حلوا أُزرهم، وجعلوها كالسـياط، وأخذوا يتضـاربون بها فى عنف وقسوة، فـغضب النبى ﷺ من ذلك

(١) قال ابن حجر: نُسب أيمن إلى أمه لشرفها على أبيه وشهرتها عند أهل البيت النبوى، فتح البارى ٧/ ٨٩.

وقال مؤدبًا: «لا من الله استحيوا، ولا من رسوله استتروا»، وعلمت أم أيمن بذلك فغضبت، وجعلت تترضى رسول الله ﷺ، وتقول له: استغفر لهم يا رسول الله، وبعد جهد وإبطاء استغفر لهم الرسول ﷺ(١).

ولقد كان لهذا التوجيه النبوى أثره البليغ فى تربية أيمن، فبعد أن كان عرضة للانحراف والعبث انصرف إلى الدين والجهاد، فكان من الشجعان المضحين، وختمت حياته الخاتمة الطيبة، حيث نال نعمة الاستشهاد فى غزوة حنين، وكانت معه فيها أمه أم أيمن - كما مر بنا- وظل أيمن ثابتًا إلى جوار النبى ﷺ مع قلة قليلة حتى ذاق طعم الشهادة فى سبيل الله، وفى استشهاده يقول العباس بن عبد المطلب:

نصرنا رسول الله فى الدين سبعة ... وقد فر من قد فر عنه وأقشعوا

وثامننا لاقى الحمام بنفسه ... بما مسه فى الدين لايتوجع(٢)

أسامة حب رسول الله ﷺ:

أما أسامة فقد ولدته أمه بمكة، ونشأ على الإسلام وفى طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، فشب أسامة حتى أدرك ولم يعرف إلا الإسلام لله تعالى ولم يدن بغيره، وعاش فى أسرة مؤمنة مجاهدة مضحية فأبوه المجاهد الشهيد فى غزوة مؤتة، وأخوه أيمن المجاهد الشهيد فى حنين، وأمه مهاجرة الهجرتين والمجاهدة الصابرة، لذلك ولغيره كان أسامة حبيبًا لرسول الله ﷺ(٣).

---

(١) أحمد ٤/ ١٩١ عن عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدى.

(٢) السبعة الذين عناهم العباس رضى الله عنه هم: على، والعباس، والفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث، وأسامة بن زيد، وأبو بكر، وعمر رضى الله عنهم، والثامن الذى لاقى الشهادة هو أيمن رضى الله عنه. انظر موسوعة الفداء فى الإسلام ٢/ ١٣٠-١٣٣.

(٣) يتضح لنا مدى حب النبى ﷺ لأسامة من موقفه عليه الصلاة والسلام حين ولاه على الجيش عند وفاته وعقد له اللواء، فُتكلم فى ذلك، فجاء الخبر إلى النبى ﷺ، فغضب غضبًا شديدًا، فخرج وقد عصب على رأسه عصابة، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد: يا أيها الناس، فما مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تأميرى أسامة بن زيد؟ والله لئن طعنتم فى إمارتى، أسامة لقد طعنتم فى إمارتى أباه من قبله، وايم الله، إن كان للإمارة لخليقًا، وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلىّ، وإن هذا لمن أحب الناس إلىّ، وإنهما لمخيلان- أى خليقان- لكل خير، فاستوصوا به خيرًا فإنه من خياركم» ثم نزل رسول الله ﷺ فدخل بيته، وذلك يوم السبت لعشر ليالٍ خلون من ربيع الأول، وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة، يودعون=

ولقد كان أسامة- إلى جوار جهاده ووفائه وفدائه- رجلاً بارًا بأمه، ولقد بلغ من بره بها أن كانت النخلة قد بلغت ألف درهم، فأقدم أسامة على نخلة فنقرها، وأخرج جمارها، وأطعمه أمه، فقالوا له: مايحملك على هذا وأنت ترى النخلة قد بلغت ألف درهم؟ فقال: إن أمى سألتينه، ولا تسألنى شيئًا أقدر عليه إلا أعطيتها(١).

ونتوقف قليلاً لنرى كيف كان بر أسامة بأمه، فقد كان رضى الله عنه أبر الناس بأمه، وأعرفهم بحقها، إذ كان رضى الله عنه يقدر لها فضلها عليه، وما تكبدته من مشاق ومتاعب من أجله، فلم ينشغل عنها أو يقل اهتمامه بها، بل كان محسنًا متفقدًا لأحوالها.. وهكذا ينبغى أن يكون كل مسلم ومسلمة مع أمه، إننا نتعلم هنا البر بالأم والأب، والإحسان إليهما، وأن نتخير أمثل الطرق وأرقى الأساليب فى مخاطبتهما ومعاملتهما، فنخاطبهما بكل أدب واحترام وتوقير، ونحيطهما بكل أسباب الرعاية والتكريم، ونخفض لها جناح الذل من الرحمة كما أمر الله عز وجل، ولايندُّ عنا كلمة تضجر أو تأفف أو ضيق لهما مهما كانت الظروف والأحوال..

= رسول الله ﷺ، فيهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ورسول الله ﷺ يقول: «أنفذوا بعث أسامة»، ودخلت أم أيمن، فقالت: أى رسول الله، لو تركت أسامة يقيم فى معسكره حتى تتماثل، فإن أسامة إن خرج على حالته هذه لم ينتفع بنفسه، فقال ﷺ: «أنفذوا بعث أسامة»، فمضى الناس إلى المعسكر فباتوا ليلة الأحد، ونزل أسامة يوم الأحد ورسول الله ﷺ ثقيل مغمور، وهو اليوم الذى لدوه فيه، فدخل على رسول الله وعيناه تهملان، وعنده العباس والنساء حوله، فطأطأ عليه أسامة فقبله، ورسول الله ﷺ لايتكلم، فجعل يرفع يده إلى السماء ﷺ ثم يصبها- أى يميلها- على أسامة، قال أسامة: فأعرف أنه كان يدعو لى، قال أسامة: فرجعت إلى معسكرى، فلما أصبح يوم الاثنين غدا من معسكره، وأصبح رسول الله ﷺ مفيقًا فجاءه أسامة فقال: «اغد على بركة الله» فودعه أسامة.. وبينما أسامة يريد أن يركب من الجرف أتاه رسول أم أيمن أمه تخبره أن رسول الله ﷺ يموت، فأقبل أسامة إلى المدينة معه عمرو أبو عبيدة فانتهوا إلى رسول الله يموت، فتوفى رسول الله ﷺ حين زاغت الشمس يوم الاثنين لا ثنتى عشرة خلت من ربيع الأول.. المغازى ٣/١١١٨- ١١٢٠، وروى بعضه أحمد ٢/ ٢٠، ٨٩، ١٠٦، ١١٠، والبخارى فى فضائل الصحابة، باب مناقب زيد بن حارثة ٧/ ٨٦ (٣٧٣٠)، وفى المغازى، باب غزوة زيد بن حارثة ٧/ ٤٩٨ (٤٢٥٠)، ومسلم فى فضائل الصحابة، باب فضائل زيد بن حارثة وابنه أسامة ١٥/ ١٩٥، ١٩٦ (٢٤٢٦)

(١) موسوعة الفداء ٢/ ١٥٠، ١٥١.

ذرية بعضها من بعض:

ولقد كان أحفاد أم أيمن رضى الله عنها يحظون بمحبة صحابة النبى ﷺ لحب النبى ﷺ لها ومنزلتها عنده، بل ويذكرون حب الرسول ﷺ لتلك الأسرة المباركة، فعن حرملة مولى أسامة بن زيد، أنه قال: بينما هو جالس مع عبد الله بن عمر رضى الله عنهما إذ دخل المسجد الحجاج بن أيمن بن أم أيمن، فصلى صلاة لم يكتمل فيها ركوعه ولاسجوده، فدعاه عبد الله بن عمر حين سلّم من صلاته، وقال له: أى أخى أتحسب أنك قد صليت؟ قال الحجاج: نعم صليت، قال: إنك لم تصل فعد إلى صلاتك وأعدها، فأعادها الحجاج فلما ولَّى الحجاج خارجًا من المسجد، قال عبد الله بن عمر لحرملة: من هذا يا حرملة؟ قال: هو الحجاج بن أيمن بن أم أيمن، فقال عبد الله بن عمر: لو رأى هذا رسول الله ﷺ لأحبه، وذكر حُبَّه، وما ولدته أم أيمن[1]، قال ابن حجر فى قوله: لو رآه رسول الله ﷺ لأحبه: إنما جزم ابن عمر بذلك لما رأى من محبة النبى ﷺ لزيد بن حارثة وأم أيمن وذريتهما، فقاس ابن عمر على ذلك[2].

***

(١) البخارى فى فضائل الصحابة، باب ذكر أسامة بن زيد ٧/ ٨٨ (٣٧٣٦، ٣٧٢٧).

(٢) فتح البارى ٧/ ٨٩.

فضائل أم أيمن

لقد كانت أم أيمن رضى الله عنها من الصحابيات الفاضلات المؤمنات المجاهدات اللاتى تقدمن فى الفضل والمآثر الحسنة، فقد قدر الله عز وجل لها اليمن والخير والبركة(١) منذ أن احتضنت النبى ﷺ وهو صغير، وزاد في يمنها وبركتها وسعادتها أن ظلت معه ﷺ ملازمة له، فاكتسبت منه الكثير والكثير، ونالت من النبى ﷺ المنزلة العالية والمكرمة السامية، فهى رضى الله عنها أمه بعد أمه، وهى بقية أهل بيته، وهى التى كان يبر بها ويودها، وهى التى كانت تدل عليه وتلاطفه.. وتشاركه أحزانه وأفراحه، ومما يُذكر ويُحفظ موقفها الكريم من حادثة الإفك، إذ قالت لما سألها النبى ﷺ عن عائشة: حاشا سمعى وبصرى، أن أكون علمت أو ظننت بها قط إلا خيراً(٢).

إنه موقف المؤمنة الصادقة التى لا تتكلم إلا بعلم، ولا تطلق حكمًا إلا بيقين.

قال ابن العماد عن أم أيمن: أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ وأمه بعد أمه، ومنزلتها من النبى ﷺ ومنزلة زوجها وابنها لاتوصف ولا تكيف(٣)، لذلك فقد كانت رضى الله عنها أشد الناس حزنًا على وفاة رسول الله ﷺ، ووقفت رضى الله عنها تسترجع الذكريات منذ أن كان الحبيب ﷺ طفلاً صغيرًا بين يديها تحتضنه وترعاه، ثم أصبح شابًا يافعًا، ثم نبيًا انتدبه الله عز وجل لإرشاد الأمم، وها هى الآن تودعه الوداع الأخير. وقفت أم أيمن ترثى النبى ﷺ بكلمات حزينة النغمات، بلغت الذروة فى نبل الوفاء وصدق العاطفة، قالت:

---

(١) قال ابن القيم فى زاد المعاد ٢/ ٣٣٦، ٣٣٧ : لما كانت الأسماء قوالب للمعانى ودالة عليها، اقتضت الحكمة أن يكون بينها ارتباط وتناسب.. وللأسماء تأثير فى المسميات، وللمسميات تأثير على أسماعها فى الحسن والقبح، والخفة والثقل، واللطافة والكثافة، كما قيل:

وقل إن أبصرت عيناك ذا لقب ... إلا ومعناه إن فكرت فى لقبه

ولهذا كان النبى ﷺ يستحب الاسم الحسن لما فيه من الصفات المحمودة، وغير أسماء بعض الصحابة بناء على هذه القاعدة، وقد تحققت هذه الأسماء لرسول الله ﷺ حين ولادته فى الوالدة والقابلة والحاضنة والمرضع، ففى اسم الوالدة والقابلة: الأمن والشفاء، وفى اسم مرضعته أولاً وحاضنته الثواب والبركة، وفى اسم مرضعته الثانية الحلم والسعد.

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٤٣٠، وإمتاع الأسماع ١/ ٢١٤.

(٣) شذرات الذهب ١/ ١٥.

عين جـودى فـإنَّ بذلـك للدمع شـفـاء فـأكـثـرى من الـبكاء
حين قـالوا الرسول أمْسى فقـيدًا مـيـتًـا كـان ذاك كل الـبـلاء
وابكيـا خيـر من رُزئناه فى الدنيـا ومن خـصـه بوحى السـمـاء
بدمـوع غـزيـرة منك حـتى يقـضى الله فـيك خـير القـضـاء
فلقـد كـان مـا علـمت وصـولاً ولقـد جـاء رحـمـة بالضـيـاء
ولقـد كـان بعـد ذلك نورًا وسـراجًـا يضـىءُ فى الظلمـاء
طيب العـود والـضـريبـة والمعـد ن والخَـشْم خـاتم الأنـبـيـاء[1]

وماذا تسع هذه العـجالة فى وصف فـضائل هذه الصحـابية الجليلة: أم النجـيبين ومهاجرة الهجرتين، والتى خصها الله عز وجل بجميل لطفه وعظيم جوده وكرمه فى طريق هجرتها.. قال أبو نعيم فى الحلية: أم أيمن المهاجرة الماشية، الصائمة الطاوية، الناحبة الباكية، سقيت من غير راوية، شربة سماوية، كانت لها شافية كافية[2].

الراوية:

روت أم أيمن عن النبى ﷺ خـمسـة أحاديـث، ولـم يخرج لهـا فى الصحـاح شىء، روى عنها أنس بن مالك وحبيش بن عبد الله، وأبو زيد المدنى[3].

ومن مروياتها رضى الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تتركى الصلاة متعمدًا فإنه من ترك الصلاة متعمدًا فقد برئت منه ذمة الله ورسوله»[4]، وعن أبى يزيد المدنى قال: قـالت أم أيمن: قال النبى ﷺ: «ناولينى الخـمرة[5] من المسجد» قالت: إنى حائض. قال: «إن حيضتك ليست بيدك»[6].

(١) ابن سعد ٢/ ٩٨. (٢) حلية الأولياء ٢/ ٦٧. (٣) أعلام النساء ١/ ١٢٧.

(٤) أحمد ٦/ ٤٢١.

(٥) الخُمْرَة: حصيرة أو سجادةٌ تنسج من سعف النخل، وقيل: الحصير الصغيرالذى يُسجد عليه، لسان العرب ٤/ ١٢٣، ط دار إحياء التراث العربى

(٦) الطبرانى فى الكبير ٢٥/ ٨٧ (٢٢٤)، وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ٣٨: وفيه أبو نعيم عن صالح بن رستم، فإن كان هو أبو نعيم الفضل بن دكين فرجاله ثقات كلهم، وإن كان ضرار بن صرد فهو ضعيف والله أعلم، قال محقق الطبرانى: بالتتبع للطبرانى فى الكبير: أنه إذا أطلق أبو نعيم، فإنه يقصد الفضل بن دكين، وإذا أراد ضرار بن صرد فإنه يذكر اسمه.

وفاتها:

عاشت رضى الله عنها حتى أدركت خلافة أبى بكر الصديق، ثم ولاية عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، وقـد كانت تحتل مكانة عالية فى قلبيهـما فكانا يزورانها كما سبـق، ولما قتل عمر ونال الشهادة، بكت أم أيمن عليـه، وقالت: اليوم وهى الإسلام[١]، ولم تدم بها الحـياة طويلاً حتـى توفيت بعد مـوت عمر وفى خـلافة عثمان رضى الله عنهما[٢].

رضى الله عن أم أيمن، حاضنة النبى الأمين، وألحقنا بها فى جنات النعيم، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. .

***

(١) ابن سعد ٨/ ٢٢٦، والتاريخ الصغير للبخارى، ص ٦٣. .

(٢) كذا قال الواقدى وابن حبان والحاكم وابن حجر، وقال البخارى والزهرى: توفيت بعد النبى ﷺ بخمسة أشهر والأول هو الصحيح.

الخنساء بنت عمرو بن الشَّرِيد

(تُمَاضِرُ السُّلَمِيَّة)

رضى الله عنها

(١٢)

نَسَبُها

الخنساء[1]:

أما أبوها فهو: عمرو بن الشَّرِيد بن رياح بن يقظة بن عُصَيَّة بن خفاف بن امرئ القيس بن بُهْثة بن سُلَيم.

واسمها تُمَاضِر، بضم التاء المثناة فوق، وكسر الضاد المعجمة. قال ابن خلف: قد قالوا للبياضى تماضر، وأكثر ما يكون للنساء، ومنه قيل اشتقت المضيرة لبياضها.

والخنساء لقبٌ غُلب عليها، وهو مؤنث الأخنس، والخنس: تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة، ويقال لها: خُناسٌ أيضًا، بضم الخاء غير منصرف للعدل والتأنيث[2]، وقيل: لُقبت بالخنساء تشبيهًا لها بالبقرة الوحشية فى جمال عينيها[3].

حياتها قبل الإسلام:

عاشت الخنساء أكثر عمرها فى الجاهلية، ولم تذكر كتب التاريخ والتراجم أو كتب الشعر والشعراء تفصيلاً عن حياتها قبل الإسلام، مع أن أكثر عمرها كان قبل إسلامها.

---

(١) الإصابة ٨/٦٦، ٦٧، وأسد الغابة ٥/٤٤١، ٤٤٢، والمستطرف ٢/ ٣٠٠، والحماسة للبحترى ص٣١٧-٣١٩، والعقد الفريد ٣/ ٢٢٢-٢٢٥، وخزانة الأدب ١/ ٤٣٣-٤٣٨، وجمهرة أنساب العرب ص٢٦١، وعيون الأخبار ٤/١١٥، ١١٦، وزهر الآداب ٢/٩٢٧-٩٣١، والأمالى ٢/ ١٦١-١٦٣، والشعر والشعراء ١/ ٣٤٣-٣٤٧، والاستيعاب ٤/٢٩٦، ٢٩٧، والأعلام للزركلى ٢/٨٦، وأعلام النساء ١٥/٦٣، والأغانى ١٥/٧٦-١٠٩، وديوان الشعر العربى ١/ ١٩٢-١٩٦، والمنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ٤/ ١٧٤، ١٧٥، ومعجم الشعراء ص١١٠ (٣٢٢)، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٢٥٢ (٣٠٦٣)، ٢٦٣ (٣١٧٧)، الوافى بالوفيات ١٠/ ٢٤٠-٢٤٤، وتاريخ الأدب العربى ١/ ٢٣٣، ٢٢٤، والمؤتلف والمختلف ٢/ ٨٠٠، والإكمال فى رفع الارتياب ٦/ ٢١٤، ٢١٥، والمعارف، ص٨٥، وطبقات الشعراء، ص٨٢.

(٢) خزانة الأدب ١/ ٣٣٣، ٣٣٤.

(٣) ديوان الخنساء (المقدمة) ص٥.

ورد أن دُريد بن الصِمّة خطبها، فردته لكبر سنه، فهجاها فلم ترد عليه، فسئلت فى ذلك، فأجابت: لا أجمع عليه أن أرده وأهجوه.

تزوجت أولاً رواحة بن عبد العزيز السُّلمى، وسماه الأصبهانى فى الأغانى وابن عبد ربه فى العقد الفريد: عبد العزى، ولعل هذا الاسم كان له قبل إسلامه، فلما أسلم استبدل به اسم رواحة، أو أنه كان لقبًا يُعرف به، فولدت له عبد الله، ويكنى بأبى شجرة، ثم خلف رواحة عليها مرداس بن أبى عامر السُلمى، فولدت له يزيد ومعاوية وعمرًا وعمرة(١).

***

(١) ديوان الخنساء (المقدمة)، ص٥، وفى الشعر والشعراء: فولدت له زيدًا ومعاوية وعمرًا ٢/ ٣٤٤.

الخنساء وأخواها

كان عمرو بن الشريد يأخذ بيد ابنيه معاوية وصخر فى الموسم ويقول: أنا أبو خَيْرَىْ مضر، فمن أنكر فليغير، فلا يغير ذلك عليه أحد، وكان يقول: من أتى بمثلهما أخوين من قبل فله حكمه، فَتُقرّ له العرب بذلك، وكان النبى ﷺ يقول: «أنا ابن الفواطم من قريش، والعواتك(١) من سُلَيْم(٢)، وفى سُليم شرفٌ كثير».

وقيل للخنساء: صفى لنا أخويك صخرًا ومعاوية، فقالت: كان صخر والله جُنَّةُ(٣) الزمان الأغبر، وزعاف(٤) الخميس الأحمر، وكان والله معاوية القائل والفاعل، قيل لها: فأيهما كان أسنى وأفخر قالت: أما صخر فحرُّ الشتاء، وأما معاوية فبرد الهواء، قيل لها: فأيهما أوجع وأفجع قالت: أما صخر فجمر الكبد، وأما معاوية فسقام الجسد، وأنشدت:

أسدان محمرا المخالب نجدة ... بحران من الزمن الغضوب الأنمر(٥)

وكان يُقال لمعاوية: فارسُ الجوْن، والجوْن من الأضداد، يقال للأسود والأبيض، وقتلته بنو مرة، قتله هاشم بن حرملة، فطلبه دريد بن الصمة حتى قتله.

وأما صخر فغزا أسد بن خزيمة، فأصاب فيهم، وطعنه ثور بن ربيعة الأسدى، فأدخل فى جوفه حلقًا من الدرع، فاندمل عليه، وطال به مرضه وعاده قومه، فقال عائدٌ من عُوّاده يومًا لامرأته سَلْمَى(٦): كيف أصبح صخرٌ اليوم؟ قالت: لا حيّاً فَيُرْجَى ولا ميتًا فينُسَى، فسمع صخرٌ كلامها فشقَّ عليه، وقال لها: أنت

(١) العواتك فى جدات النبى ﷺ تسع ثلاث من سُلَيْم، والعاتكة: هى المتضمخة بالطيب. النهاية ٣/ ١٧٩.

(٢) الطبرانى فى الكبير ٧/ ٢٠١ (٦٧٢٤)، وقال الهيثمى فى المجمع ٨/ ٢١٩ ورجاله رجال الصحيح، وسنن سعيد بن منصور ٢/ ٣٠٢ (٢٨٤١)، وكنز العمال ١١/ ٤٠٢ (٣١٨٧٤)، ١٢/ ٤٣٨ (٣٥٥٠٤)، والألبانى فى سلسلته الصحيحة ٤/ ٩٦ (١٥٦٩)، جميعًا عن سبابة بن عاصم السلمى.

(٣) الجُنَّةُ: الستر.

(٤) الزعاف: السم الشديد، والخميس: الجيش.

(٥) أعلام النساء ٣/ ٢٢٣، ٢٢٤.

(٦) هى سلمى بنت كعب كان خطبها صخر فأبت حتى أغار بنو أسد على قومها فأسرت فيمن أسر، فخلصها صخر وتزوج بها.

القائلةُ كذا وكـذا؟ قالت: نعم غيرَ مـعتَذرة إليك، ثم قال عائدٌ آخـر لأُمِّه: كيف أصبح صخرٌ اليوم؟ فقالت: أصبح بحمد اللهِ صالحًا، ولا يزال بحمد الله بخير ما رأينا سواده[١] بيننا، فقال صخر:

أرى أمَّ صـخـر ما تَمَلُّ عِـيـادَتى ... ومَلَّتْ سُلَيْمَى مَضْجَعى ومكانى

ومـا كنت أخشى أن أكـونَ جنازةً ... عليكِ ومَنْ يَـغْـتَـرُ بالحَـدَثانِ[٢]؟

فـأىُّ امـرئٍ سـاوَى بأُمٍّ حلـيلةً ... فـلا عـاش إلاّ فى أذىً وهَوَانِ

أهُمُّ بأمـرِ الحـزمِ لـو أسـتطيـعُـه ... وقـد حِيلَ بين الـعَيْـر والنَّزَوَانِ[٣]

لَعَمْـرى لقد أنبهتُ مَنْ كـان نائمًا ... وأسـمـعـت مَنْ كـانت له أُذُنانِ

فلما أفـاق عَمَدَ إلى سَلْمَى فعلَّقـها بعَمُودِ الفُـسْطاط حتى فاضت نفسـها، ثم نُكِس[٤] من طَعْنته فمات[٥]، وفيما مضى عبرة وعظة لا تخفى على كل ذى قلب ولب.

وبفقد الخنساء لأخويها تركت لدموعـها العنان، وكاد الحزن يمزق قلبها، ويفطر نفسها، ففتق الحزن والألم أكمام شـاعريتها، فنطقت بشعرها آهات نفس ملتاعة، ونفثات صدر متألم حزنًا، ودموع قلب جريح، حتى بلغ الأمر بها أن كادت تقتل نفسها حزنًا على أخيها:

يذكـرنى طلوع الشـمس صـخـرًا ... وأذكـره لكل غـروب شـمس[٦]

ولولا كـثـرة البـاكين حـولى ... على إخـوانهم لقـتلتُ نفـسى

وانطلقت الخنساء، فكانت تقف فى ساحات القوم تبكى فيبكون معها:

(١) سواده: ظله، والعرب تكنى عن الظل بالسواد.

(٢) الحَدَثان: الليل والنهار.

(٣) حيل: منع، والعير: الحمار وحشيه وأليفه، والنزوان: الوثوب.

(٤) نُكِس: اشتد به المرض من جديد.

(٥) عيون الأخبار ٤/ ١١٥، ١١٦، وانظر: خزانة الأدب للبغدادى ١/ ٤٣٦، وزهر الآداب ٢/ ٩٣٠، ٩٣١.

(٦) سئل الأصـمعى عن قول الخنسـاء فى نعيها صـخرًا حين مات.. لماذا أنهـا خصت الشمس دون القـمر والكواكب؟ فقال: لكونه كان يركب عند طلوع الشمس يشن الغـارات وعند غروبها يجلس مع الضيفان فذكرته بهذا مدحًا؛ لأنه كان يُغير على أعدائه ويتقيد بضيفه.

أعَـيْنِيَّ هلاَّ تَبْكِيَـانِ عَلَى صَـخْـرِ بدَمْعٍ حَـثـيثٍ لا بكيءٍ ولا نزر[١]
فَـتَـستـفـرغـان الدَّمعَ أو تَذْرِيَانه على ذي التُّقى والباع والنَّائلِ الْغَمرِ
ألا ثَكِـلَتْ أُمُّ الَّذيـنَ غـــدوا به إلىَ الْقَبْرِ مَاذَا يَحْـمِلُونَ إلىَ الْقَبْرِ؟
وَمَـاذَا ثَوَى فِي اللَّحْـدِ تَحْتَ تُرَابِهِ مِنَ الخُيْـرِيَا بُؤْسَ الحَوَادِثِ والدَّهْرِ؟

وقالت أيضًا ترثي أخاها صخرًا:

إنِّي أرِقْتُ فَـبِتُّ الـلَّيْلَ سَـاهِرَةً كَـأنَّمـا كُـحِلَتْ عَـيْنِي بِعُـوَّارِ[٢]
أرْعَى النُّجـومَ وَمَا كُلِّفْتُ رِعْـيَتَـهَا وَتَارَةً أتَغَـشَّى فَـضْلَ أطْـمَـارِ[٣]

ولم تنس الخنساء معاوية بل قالت فيه شعرًا كثيرًا، منه:

يَاعَـيْـنِ مَـا لَكِ لاَ تَبْكِينَ تَـسْكَابَا إذ رَابَ دَهْرٌ وَكَـانَ الـدَّهرُ رَيَّابَا[٤]
فَـابْكِي أخَـاكِ لأَيـتَـامٍ وَأرْمَلَةٍ لحَيٍّ جَـاءَ جَـاوَرْتِ أجْنَابًا[٥][٦]

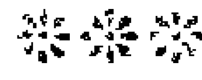
لقد كانت الخنساء تقول في أول أمرها البيتين أو الثلاثة حتى قُتلا أخواها، فلما قُتـلا أكثرت من الشـعر حتى تركت ديوانًـا كان الأول من نوعه في شـعر المراثي والدموع، وأجـمع أهل العلم بالشعر أن الخنسـاء من شواعر العرب المعـترف لهن بالتقـدم، بل لم تكن امرأة قبلهـا ولا بعدها أشعر مـنها، سُئل جرير: من أشـعر الناس؟ فقال: أنا، لولا الخنساء، قيل: لم فضلتك؟ قال لقولها:

إن الزمـان ومـا يفـنى له عـجب أبقى لنا ذنبًـا وأسـتـأصل الراس
إن الجديدين في طول اخـتلافهـما لا يفسـدان ولكن يفسـد الناس[٧]

وقال بشار فـيها: لم تقل امرأة قط شعـرًا إلا تبيّن الضعف فيـه، فقيل له: أو كذلك الخنساء؟ قال: تلك فوق الرجال[٨].

(١) النزر: القليل التافه أو البطيء، والحثيث: السريع، والبكيء: القليل.
(٢) العوار: القذى.
(٣) فضل أطمار: بقايا الأثواب البالية، وأتغشى: أتغطى.
(٤) راب: أوقع في الريبة أو أرانا ما نكره.
(٥) الأجناب: الغرباء.
(٦) الحماسة للبحتري، ص٣١٧، ٣١٨.
(٧) أعلام النساء ١/ ٣٦٠.
(٨) ديوان الخنساء، (المقدمة)، ص٦.

وقال الزيات: نبتت الخنساء في دوحة الشرف، وازدهرت في روضة الفضل، فكان أبوها وأخواها معاوية وصخر سادات سليم من مضر، وليس في شواعر العرب قبل الإسلام وبعده مَنْ تفوق الخنساء وفي رصانة شعرها، ورقة لفظه وحلاوة جَرْسه، ولربما ضارعت في هذه الصفات الشعراء الفحول، ويرى النابغة وجرير وبشار أنها أفضل من الرجال؛ لما في شعرها من قوة الرجولة ورقة الأنوثة، وقد غلب في شعرها الفخر والرثاء، أما الفخر فلأن أباها أمْثلُ قومه، وأخويها خيرا مضر، وأما الرثاء فلفجيعتها فيهم وطول وجدْها عليهم، والأسى يُدق الشعور، ويرق العاطفة، ويفتق القريحة في الرجل، فكيف به في المرأة [1].



(١) تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، ص ١٤٩ - ١٥١.

الخنساء فى الإسلام

أدركت الخنساء الإسلام فأسلمت، ووفدت على رسول الله ﷺ مع قومها بنى سليم، فأسلمت معهم وبايعت النبى ﷺ، وذكروا أن رسول الله كان يستنشدها ويعجبه شعرها، فكانت تنشده، ويقول: «هيه[١] يا خناس» ويومئ بيده[٢].

دخلت الخنساء على أم المؤمنين عائشة وعليها صِدَارٌ من شَعْر، فقالت لها عائشة رضى الله عنها: يا خنساء إن هذا لقبيح، قُبض رسول الله ﷺ فما لَبِسْتُ هذا؟ قالت: إن له قصة، قالت: فأخبرينى، قالت: زوجنى أبى رجلاً، وكان سيدًا معطاءً فذهب ماله، فقال لى: إلى مَنْ يا خنساء؟ قلت: إلى أخى صخر، فأتيناه، فقسم ماله شطرين، فأعطانا خيرهما، فجعل زوجى أيضًا يُعطى ويَحْمِلُ حتى فقد ماله، فقال: إلى مَنْ؟ فقلت: إلى أخى صخر، فأتيناه، فقسم ماله شطرين، فأعطانا خيرهما، فقالت امرأته: أما ترضى أن تعطيها النصف حتى تعطيها أفضل النصيبين؟! فأنشأ يقول:

والله لا أمْنَحُـهَا شِـرارهَا ... ولو هَلَكْتُ مَزَّقَتْ خِمَارَهَا

وجَعَلَتْ من شَعَرٍ صِدَارَهَا[٣]

فذلك الذى دعانى إلى أن لَبْستُ هذا حين هلك[٤].

وكانت الخنساء رضى الله عنها تقول بعد إسلامها: كنت أبكى لصخر من القتل، وأنا اليوم أبكى له من النار[٥]، وقال الأصمعى: نظر عمر بن الخطاب إلى

---

(١) هيه: اسم فعل أمر بمعنى زيدى.

(٢) الإصابة ٨/ ٦٦، وأسد الغابة ٥/ ٤٤١، والاستيعاب ٤/ ٢٩٥.

(٣) الصدار: بكسر الصاد: ثوب رأسه كالمقنعة، وأسفله يغشى الصدر والمنكبين، تلبسه المرأة.

(٤) الشعر والشعراء ١/ ٣٤٥، ٣٤٦، وخزانة الأدب ١/ ٤٣٥، وقال العلامة أحمد شاكر: أشار الحافظ إلى هذه القصة فى الإصابة ٨/ ٦٧، ٦٨ بصيغة التمريض، بقوله: يقال.. إلخ، فيظهر أنه لم يجد لها تخريجًا برواية لها إسناد. انظر: هامش الشعر والشعراء ١/ ٣٤٥، ويعنى بذلك: أنه لو مات حزنت عليه وشقت ثيابها ولبست الشعر ثيابًا حزنًا عليه، وفوق ذلك فهى عفيفة كريمة منعت عنى العار.

(٥) خزانة الأدب ١/ ٤٣٥، والشعر والشعراء ٢/ ٣٤٧.

خنساء وبها ندوب فى وجهها، فقال: ما هذه الندوب يا خنساء؟ قالت: من طول البكاء على أخوىّ! قال لها: أخواك فى النار! قـالت: ذلك أطول لحزنى عليهما، إنى كنت أشفق عليهما من القتل، وأنا اليوم أبكى لهما من النار[١].

إن هذا هو التحـول الكبيـر الذى أحدثه الإيمان فى حيـاة الخنساء، لقـد أصبح شغلهـا الشاغل بعد إسـلامها خوفـها وبكاءها على أخويهـا من النار ومن عذاب النار، وقد كـانت تبكى عليهمـا البكاء الشديد، وتطلق عنان حزنهـا على غاربه، وترثيهمـا الرثاء الطويل، وها هو الإيمان يلامس قلبها، فـينسيها مـا كانت عليه، وتبكى لو أن أخويها كانا رفـيقيها فى طريق الهدى والنور. . فـما أعظم ما يصنعه الإيمان فى النفوس، كأنه يخلقها خلقًا جديدًا، ويصوغها صوغًا مجيدًا.

***

(١) العقد الفريد ٣/ ٢٢٢، ٢٢٣.

أُمُّ الشهداء

روى المؤرخون أن الخنساء رضى الله عنها شهـدت حرب القادسية بين المسلمين والفـرس، تحت راية القائد سـعد بن أبـى وقاص، وكـان معـها بنوها الأربعـة، فجلست إليـهم فى ليلة من الليالى الحاسـمة تعظهم وتحثـهم على القتال والثبات وتوصيهم بأن يجاهدوا جهادًا دونه الموت، وكان من قولها لهم:

(يا بَنىَّ إنكم أسلمتم طائعين، وهـاجرتم مختارين، ووالله الـذى لا إله غيره، إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امـرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خـالكم، ولا هجنت حسـبكم، ولا غبـرت نسـبكم، وقد تعلمـون ما أعـد الله للمسلمين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفـانية، يقـول الله عز وجل: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِـرُوا وَصَـابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمـران: ٢٠٠] فإذا أصـبحـتم غـدًا إن شاء الله سالمين، فاغـدوا إلى قتال عدوكم مسـتبصرين، وبالله على أعدائكم مـستنصرين، وإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقـها، واضطرمت لظًى على سياقها ، وحللت نارًا على أرواقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها، تظفروا بالغُنم والكرامة فى دار الخلد والمقامة)[١].

هذه هى الخنساء التى عـاشت معظم عمـرها فى أطمار بالية، نادبة ملهـوفة لا تطمئن ولا يهدأ لها حزن ولوعة، قـد ارتقى الإيمان بنفسها إلى أرقى مراتب القوة الروحية والذات الرفـيعة، فأعطاها شجاعـة النفس وقوة الشكيمة وجمـيل الصبر وحسن الثـبات.. فكانت هذه الوصـية من قلب صادق واثق، نزلت عـلى أبنائها بردًا وسلامًا، فعزموا على الثبات ونيْل الاستشهاد، ولما بدأت المعركة باشروا القتال بقلوب فتية، وأنوف حمية، إذا فتـر أحدهم ذكره إخوته وصية الأم العجوز، فزأر كالليث، وانطلق كالسهم، وانقضَّ كالصاعـقة، ونزل كقضاء الله على أعداء الله، وظلوا كذلك حتى استشهدوا واحدًا بعد واحد[٢].

(١) الاستيعاب ٤/٢٩٦، وأسد الغابة ٧/ ١٠٠، ١٠١.

(٢) الإيمان والحياة، د. يوسف القـرضاوى، ص٢٩٢، ٢٩٣، والمرأة صانعة الأبطال، د. نشأة محـمد رضا ظبيان، ص٢٥، ٢٧، بتصرف.

ثبات حتى الممات:

كان كل واحد منهم يخوض غمار المعركة، وهو يقول أبياتًا يذكر فيها وصية أمه ونصحها، فقال الأول:

يا إخوتى إن العجوز الناصحة ... قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
مقالة ذات بيان واضحة ... فباكروا الحرب الضروس الكالحة
وإنما تلقون عند الصائحة ... من آل ساسان الكلاب النابحة
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحة ... وأنتم بين حياة صالحة
أوميتة تورث غُنمًا رابحة

وتقدم فقاتل حتى استشهد، ثم حمل الثانى وهو يقول:

إن العجوز ذات حزم وجلد ... والنظر الأوفق والرأى السدد
قد أمرتنا بالسداد والرشد ... نصيحة منها وبرًا بالولد
فباكروا الحرب حماة فى العدد ... إما لفوز بارد على الكبد
أوميتة تورثكم عز الأبد ... فى جنة الفردوس والعيش الرغد

وقاتل حتى استشهد، ثم حمل الثالث وهو يقول:

والله لا نعصى العجوز حرفًا ... قد أمرتنا حربًا وعطفا
نصحًا وبرًا صادقًا ولطفًا ... فبادروا الحرب الضروس زحفا
حتى تلقوا آل كسرى لفّا ... أو يكشفوكم عن حماكم كشفا
إنا نرى التقصير عنكم ضعفًا ... والقتل فيكم نجدة وزلفى

وقاتل حتي استشهد، ثم حمل الرابع وهو يقول:

لست لخنساء ولا للأحزم ... ولا لعمرو ذى السناء الأقدم
إن لم أرد فى الجيش جيش الأعجم ... ماض على الهول خضم خضرم
إما لفوز عاجل ومغنم ... أو لوفاة فى السبيل الأكرم

فقاتل حتى قتل[١].. وهكذا انتهت حياة هؤلاء الأبرار الذين ذادوا عن دينهم ووفوا له ولأمهم، فيالروعة هؤلاء الأبطال، ويا لسلطان اليقين، لم يتقاعس واحد منهم عن الجهاد، بل سارع إليه مرحبًا بالموت فى ميدانه، مستعذبًا طعمه فى حومة الوغى.. ولا عجب فهو مؤمن تربى على الإيمان وبلغ به الإيمان مبلغه، وطبعهم اليقين بطابعه، حتى استخفوا بالحياة ولم يبالوا بها، بل انحصرت هممهم وعزائمهم فى بلوغ ما عند الله، وما عند الله خير للأبرار، وأعطوا الله وعودهم وعهودهم، وجعلوها كالأطواق حول رقابهم، يوفون بحقها فى صدق ومضاء.

إن المسلم الصادق مع ربه عز وجل، يتعلم هنا، أن يضع نفسه دائمًا: (تحت الطلب) لخدمه دينه وعقيدته، فهو مستعد دائمًا لحمل التبعات، ومواجهة الأزمات، مهما كانت التضحيات..

درس فى الصبر:

وبلغ الأم المجاهدة نعى الأربعة الأبطال فى يوم واحد، فلم تلطم خدًا، ولم تشق جيبًا، ولكنها استقبلت النبأ بإيمان الصابرين وصبر المؤمنين، وقالت: الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته[٢].

بمثل هذا الجنان الثابت والقلب الصابر استقبلت خبر استشهادهم يحدوها الإيمان إلى الصبر والسلوان، ويقوى عزيمتها مبدأ نشر الإسلام، فجعل من المرأة المسلمة أمًا لمصلحة المسلمين، تعى دورها فى الحياة، وتعرف يقينًا أن حياة الأفراد لا قيمة لها إذا ما أزهقت فى سبيل مثل أعلى، أو فى مجال حياة الأمة جمعاء، لقد وضُحَتْ المفاهيم الحقيقية للحياة الكريمة فى أذهان النساء فكيف هى فى أذهان هؤلاء الأبطال؟!

إن الأم التى تعى دورها فى الحياة وفى التربية بخاصة لجليلة مباركة، تستطيع صنع الأمجاد لما تدخره فى أذهان أطفالها من مطامع كبيرة وأهداف نبيلة، حتى إن هذه المرأة لتستطيع التغيير بكل أنواعه نحو الأسمى والأرقى، كما قال الشاعر فى ذلك:

(١) الاستيعاب ٤/٢٩٦، ٢٩٧، وانظر: الوافى بالوفيات ١٠/٢٤٤.

(٢) الإيمان والحياة، ص٢٩٣.

الأمُّ مَـدْرسَـةٌ إذا أعْـدَدْتَهـا أَعْـدَدْتَ شَـعْبًا طَيِّبَ الأَعْـراقِ
الأمُّ أُسـتـاذُ الأسـاتذةِ الأُلَى شَـغَلَتْ مَآثِـرُهُمْ مَدَى الآفـاقِ[1]

وينبغى أن لا يغـيب عن بال المسلم أن كل شىء نرتبط به ونزعم لأنفسنا حـقًا فيه، فـإن رباط الله به أوثق، وحق الله فيه أسبق، مَنْ أقـرب للمرء من ولده؟ إن ولد الإنسان آثر شىء لديه، وأحبه إليه، عن طريقه وُجِد، وفى حجره عاش، وإنه ليرى فيه امتداد نفسه، وقطعة من حسه، فإن سطا عليه الموت هتف الأب الثاكل: ولدى، ولكن صـوت الحق قبل هتـاف الحزن يجـعلنا نقـول: إذا كان الأب فـقد ولده، فإن الملك استرد عبده، إن الذى فـتح هذه العيون على أنوار الحياة هو الذى أغمـضهـا، والذى نَمَّى هذا البدن بـضروب النعـماء هو الذى يعـيده إلى مـعدنه الأول: إلى التراب، إذا قال الوالد: ولدى، قال الموجد: عبدى، أنا -قبل غيرى- أولى به وأحق[2]، نعم فكيف إذا كان ذلك فى سـبيله وحده سبحـانه فى ساحات الجهاد، وميدان الاستشهاد!!

رضى الله عن الخنساء، فقـد كانت الأم المسلمة الصابرة المثـالية بحق، خرجت الرجال وصنـعت الأبطال، وما أجدرنـا أن نهتم بتجـديد الإيمان فى قلوبنا، فـهو الذى يحرك الجامد، ويبعث الهامـد، ويدفع إلى المحامد... ويجعل المؤمن دائمًا مرفوع الهامـة موفور الكرامة، وإلا ما الذى غيّـر خنساء النواح والبكاء إلى خنساء التضحية والفداء؟ إنه ولا شك صانع المعجزات... إنه الإيمان!!

فى مقعد صدق:

عاشت الخنساء رضى الله عنها، وهى تؤثر ما عند الله عز وجل، راضية بما قدر الله لها، آخذة عـهدًا مع ربها عز وجل فى الصبـر والمصابرة، وهى تتطلع إلى ما أعده الله للصادقين من عباده المؤمنين، بعد ما قدمت أولادها الأربعة فى سبيل الله راضيـة محتسـبة، ها هو الجزاء العظيم فى جنات النعـيم ينطق به الرسول الكريم

(١) المرأة صانعة الأبطال، ص٢٧، والبيتان من ديوان الشاعر حافظ إبراهيم، ص٢٨٢.

(٢) خلق المسلم، محمد الغزالى، ص١٢٥

ﷺ: «من احتسب ثلاثة من صلبه دخل الجنة»، قالت امرأة: واثنان؟ قال ﷺ: «واثنان»(١).

ولقد كان للخنساء رضى الله عنها مكانة خاصة عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فكان يعرف لها حسن صنيعها ومنزلتها فى الإسلام، ويعطيها عطاء أربعة رجال حتى قبض رضى الله عنه(٢).

ظلت الخنساء وفية بما عاهدت، صابرة محتسبة، حتى توفيت بالبادية فى أول خلافة عثمان رضى الله عنه، سنة ٢٤ هـ.

رضى الله عنها، وجعلها فى الأولين فى جنات النعيم: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

***

(١) النسائى فى الجنائز، ص٣٢٧ (١٨٧١)، والألبانى فى صحيح الجامع (٥٩٦٩).

(٢) تجريد أسماء الصحابة ٢/٢٦٣.

سُمَيَّةُ بنتُ خَيَّاط
(أم عمار)
رضى اللّه عنها
(١٣)

نَسَبُهَا

سمية أُمُّ عمار (١):

لم يُعرف نسب سمية رضى الله عنها، حيث لم تذكر كتب التراجم عن نسبها شيئا، وإن ذكرت بأنها سمية بنت خُبَّاط أو خَيَّاط(٢).

وكانت رضى الله عنها أمة مستضعفة عند أبى حذيفة بن المغيرة المخزومى، ومع جهالة نسبها رضى الله عنها إلا أنها كانت عَلَمًا فى عالم النساء ورمزًا فى تاريخ الإسلام الأغر..

أما زوجها: فهو ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة بن قيس بن الحصين العنسى المذحجى.

وابنها: عمار بن ياسر .. الطيب المطيب، من السابقين الأولين(٣).

بداية الرحلة:

تبدأ الرحلة المباركة عندما خرج ياسر من اليمن مع أخويه الحارث ومالك ابنى عامر فى طلب أخ لهم خرج عنهم ولم يعد، فقدموا مكة يطلبونه، غير أنهم لم يعثروا عليه، واستطاب المقام لأخيهم ياسر، بينما رجع أخواه الحارث ومالك إلى اليمن.

(١) الإصابة ٨/١١٣، وأسد الغابة ٥/ ٤٨١، ٤٨٢، وصفة الصفوة ٢/ ٤٢، والمعجم الكبير ٢٤/٣٠٣، والسير والمغازى لابن إسحاق، ص ١٩٢، والمعارف، ص ٢٥٦، وتلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٣٢٠، والروض الأنف ٢/ ٧٨، ٢٤٨، وابن سعد ٨/ ١٩٣، وتاريخ الطبرى١١/ ٥٦٣، وسيرة ابن هشام ١/ ٣١٩، ٣٢٠، وتاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين) ص ٥٧٠، والسيرة النبوية لابن كثير ١/ ٤٩٤، ٤٩٥، والمنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ٢/ ٣٨٤، وكنز العمال ١٣/ ٦٣٠، والأعلام للزركلى ٢/ ١٤٠، ١٤١، وأعلام النساء٢/ ٢٦١، ٢٦٢، وفتح البارى ٧/ ٩١، ودر السحابة، ص ٥٥٥، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٢٧٨ (٣٣٥١)، وتاريخ بغداد ١/ ١٥٠، والمؤتلف والمختلف ٢/ ٩٤٠، والإكمال فى رفع الارتياب ٣/ ٢٧٥، والدر المثور فى طبقات ربات الخدور، ص٢٥٢، والعقد الثمين ٨/ ٢٤٢، ٢٤٣ (٣٣٧٦).

(٢) الأولى: بمعجمة مضمومة، وموحدة ثقيلة، والثانية: بمثناة تحتية.

(٣) انظر ترجمته بتوسع فى تاريخ الإسلام للذهبى (عهد الخلفاء الراشدين)، ص٥٦٩ -٥٨٣، وتاريخ بغداد ١/ ١٥٠ -١٥٣، والبداية والنهاية ٧/ ٣٢٣، ٣٢٤.

أقام ياسر بمكة وحيدًا، وكان من عادة العرب آنذاك، أنه إذا دخل عليهم غريب فلابد له أن يعقد حلفًا مع سيد من ساداتهم يؤويه ويدافع عنه، فحالف ياسر أبا حذيفة بن المغيرة المخزومى، فأحبه الرجل، وعاش فى كنفه، ثم ما لبث أن زوجه بأمَة له هى: سمية بنت خياط، فكانت نعم الزوجة لزوجها، ثم ولدت له عمارًا الذى كان قرة عين لهما، ثم أعتقه أبو حذيفة وحرره، ففرح أبواه لذلك فرحًا شديدًا، أما أبواه فقد عاشا فى كنف آل مخزوم حتى بلغا من العمر مبلغه، ثم مات أبو حذيفة.

***

فى رحاب الإيمان

وابتدأت رحلة الإيمان مع آل ياسر، حيث أسلم عمار أولاً، فكان من الأوائل الذين أعلنوا إسلامهم وأظهروه، قال عبد الله بن مسعود: أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبوبكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم، فأخذهم المشركون وألبسوهم أدراع الحديد، وصفدوهم فى الشمس. .[1]، ويقول عمار: رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبوبكر[2].

وأما أمه سمية فقد كان ترتيبها فى سجل السابقين إلى الإسلام: السابع، قال ابن الأثير : كانت سابع سبعة فى الإسلام، وكانت ممن يعذب فى الله عز وجل أشد العذاب[3]، ثم شرح الله عز وجل صدر زوجها ياسر إلى الإسلام، وبذلك أتم الله عز وجل نعمته على هذه الأسرة المباركة بالإيمان، فكان لها هذا الفضل العظيم والسبق الكريم﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ⑩ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ⑪ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٠- ١٢].

أسرة مباركة:

الأب (ياسر) والأم (سمية) والابن (عمار) أسرة آمنت بالله عز وجل، وصدقت برسوله ﷺ بكل عناصرها وأفرادها، لم يخش الأب على ابنه أن يتبع سبيل المؤمنين، ولو كان فى ذلك زهوق الروح، ولم تجزع الأم على ولدها رغبة فى السلامة من الأذى، بل كانت يدًا وعونًا له ودافعًا على الإصرار.

(١) أبو نعيم فى الحلية ١/ ١٤٩، وأسد الغابة ٥/ ٤٨١، والحاكم وصححه ٣/ ٢٨٤، ووافقه الذهبى، ورواه ابن ماجة فى المقدمة، باب فضل سلمان وأبى ذر والمقداد ١/ ٥٣ (١٥٠)، وقال فى الزوائد: إسناده ثقات.

(٢) البخارى فى فضل الصحابة، باب قول النبى ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً...» ٧/ ١٨ (٣٦٦٠)، وفى مناقب الأنصار، باب إسلام أبى بكر الصديق ٧/ ١٧٠ (٣٨٥٧).

(٣) أسد الغابة ٧/ ١٦٧.

أمٌّ وأمٌّ:

وأين (أُم مصعب) من (أُم عمار)؟ حين علمت أم مصعب بإسلامه واتباعه محمداً ﷺ، ومفارقته دين الآباء والأجداد، بكت وانتحبت، وخشيت وجزعت، ونهت واشتدت فى النهى بالتجويع والحرمان. . وأمثالها اليوم كثيرات.

وأما أم عمار سمية رضى الله عنها، فقد هشَّت وبشَّت وأيَّدت، بل اندفعت فى حماس وقوة، وتجاوزت ذلك إلى إعطاء المثل الأعلى بنفسها شهيدة، فكانت النبراس والقدوة[١].

صبر وثبات:

علمت قريش بإسلام آل ياسر، فاستشاطت غضبًا، ونفذوا فيهم شتى صور التعذيب والاضطهاد، فكان بنو مخزوم إذا اشتدت الظهيرة والتهبت رمال الصحراء، خرجوا بسمية رضى الله عنها وابنها وزوجها إلى البطحاء تحت أشعة الشمس الملتهبة، فأهالوا عليهم الرمال المتقدة، وألبسوهم الدروع المحماة، ورضخوهم بالحجارة الصلدة، وكادت نفوسهم تزهق جوعًا وعطشًا وتعذيبًا، فلم يزحزح ذلك من إيمانهم شيئًا، بل ازدادوا إيمانًا على إيمانهم، وثباتًا ويقينًا بموعود ربهم.

لقد اعتصمت سمية رضى الله عنها بالصبر الجميل، وأبت إلا الإيمان بالله عز وجل، متحملة ما لا يتحمله الأشداء من الرجال، كل ذلك فى سبيل الله وحده، لقد استعلت بعقيدتها، متحدية الباطل وصلفه، لم تهن ولم تضعف ولم تستسلم، إنه الإيمان الذى يزن الجبال ولا يطيش! وإيمان بمن؟ بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد، وعلى هذا تبدو طبيعة الطريق واضحة جلية. . إنه ليس مفروشًا بالورود والرياحين، ولكنه ملىء بالأشواك والعقبات، ولكنه يحتاج إلى: إيمان ويقين، وصبر وثبات.

موعدكم الجنة:

اشتدت قريش فى تعذيبها لسمية رضى الله عنها، ولكنهم كلما زادوا فى تعذيبها قوى صبرها وازداد إيمانها، فنفد صبرهم، وذهبت حيلتهم، وتهاوت قوتهم أمام ثباتها وإيمانها. .

---

(١) دور المرأة فى حمل الدعوة، محمد حسن عيسى، ص ٢٢.

وكان النبى ﷺ يمـر عليهم وهم يعذبون، فـلا يملك إلا أن يثبتهم ويبـشرهم بقوله: «اصبـروا آل ياسر فإن مـوعدكم الجنة»[(١)] ويقول ﷺ: «أبشروا آل عـمار وآل ياسر فإن موعدكم الجنة»[(٢)].

ولقد كان عمار البار بأمه يتأثر لما يرى ما يقع بها ويحدث لها، فيأتى النبى ﷺ شاكـيًا باكيًـا: يا رسول الله لقد بلغ العـذاب منها كل مـبلغ، فيصـبره النبى ﷺ ويثبتـه، ثم يدعو لهم جميـعًا، يقول له ﷺ: «صبرًا أبا اليـقظان.. اللهم لا تعذب أحدًا من آل ياسر بالنار»[(٣)].

وياله من دعاءٍ طيب مبارك لأسرة طيبة مباركة!!

الشهيدة الأولى:

ومازالت سمية رضى الله عنها على ثباتـها وإيمانها، وأمام هذا كله ما كان من النذل أبى جهل المخزومى إلا أن طعنهـا بحربة، فاضت بها روحها، مسلمـة نفسها لبارئهـا، ولسان حـالها ينطق: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤]، وسجلها التاريخ الأغر الميمون على أنصع صفـحاته بمداد من نور: أول شهيدة فى الإسلام، قال مجاهد: أول شـهيدة فى الإسلام، أم عمار سميـة، طعنها أبو جهل بحربة فى قُبُلها[(٤)]، وكان استشهادها رضى الله عنها فى السنة السابعة قبل الهجرة.

(إن الرجولة لتستحى، وإن الشهامة لتخجل، وإن الكرامة لتتوارى، حينما تسمع أن فرعون هذه الأمـة -أبا جهل عمرو بن هشـام- ينازل امرأة ضعيفـة مسكينة لا حول لها ولا طول، ويطعـنها بحربة تعجل بروحهـا الطاهرة إلى بارئها، وتودى بحياتها لا لشىء إلا لأنها قـالت: ربى الله، ولو كانت فعلة أبى جهل المنكرة هذه سرًا لكانت أمرًا منكرًا ومـرفوضًا، فكيف وقد حـصل ذلك أمام الملأ من قريش، وتحت سمعهم وبصرهم؟)[(٥)].

---

(١) الطبرانى فى الكبير ٢٤/٣٠٣ (٧٦٩) وقال الهيثمى فى المجمع ٩/٢٩٣: ورجاله ثقات.

(٢) ابن سعد ٣/٢٤٩، والذهبى فى تاريخ الإسلام (الخلفاء الراشدين) ص ٥٧٢، وقال: مرسل.

(٣) الاستيعاب ٤/ ٣٣١.

(٤) ابن سعد ٨/١٩٣، والمتقى الهندى فى كنز العمال ١٣/ ٦٣٠ (٣٧٥٩٧)، ودر السحابة، ص ٥٥٥.

(٥) بطولات ومواقف فى الصبر والتحمل والتضحية، محمد حاتم الطيشى، ص ٣٤.

ها هو التاريخ يشهد ثبات الحق وانـتصاره، وزهوق الباطل واندحاره، وعلى يد مَنْ؟ على يد امرأة عجوز كبيرة ، امرأة مسلمة ضحت بروحها ونفسها فداءً للدين وتثبيتًا لليقين، هذه هى سمية الخـير، صاحبة الخطوة الأولى فى التضحية بالنفس، والإقبال على الموت فى سبيل الله عز وجل، بلغت القمة، واستولت على الذروة، وضرب بها المثل الرائع فى الوفاء،والفداء، والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

لقد فتـحت رضى الله عنها الطريق لطلاب الشهـادة، وأعطت القدوة البكر لمن وراءها، فكانت بذلك طيبة الخبر، عظيمة الأثر، مـوصولة الثمر. . ولك يا سمية أجر الشهداء من بعدك. . .

ليست وحدها:

وفى تاريخ الإسلام كثيرات غير سميـة احتملن فوق ما احتملت من عذاب فى سبيل نصـرة الإسلام، فما وهنت لهنّ عزيمة، ولا فلّ من غـرب صبرهنّ تنكيل، بل تقبّلن ما نزل بهنّ من عـذاب صابرات راضيات محتسـبات، لا يُعطينَ دَنيّةً فى دينهنّ، ولا يتذلّلنَ مستعطفات طالبـات الرحمة بهنّ، حتى إن رواة السِّير روَوْا أن المستضعـفين من الرجال - إلا بلالاً رضى الله عنه- اضْطُرُّوا إلى استبـقاء أنفسهم من الموت بكلمـة ترضى الظَّلمَة الطَـغاة [(١)]، ولم يَرْوُوا عن امرأة مـن المسلمات المستضعفات الصابرات شيئًا من ذلك.

بل إن هذا النمط الفذ من النســاء المسلمات كن يستعذبن العـذاب فى سبيل الله وإعـزاز دينه، ولا يفتـأن يدعـون إلى الإسلام، غـير آبهـات بما يلقـين فى طريق دعوتهن من أشواك وآلام ومحن[(٢)].

الله غايتنا:

إن سمـية رضى الله عنها التى وقـفت فى وجه أكبـر جبابرة الجـاهلية لم تنس نفسها ولا أبنهـا ولا زوجها، لكن حب الله سبحانه وتعالى قـد سيطر على قلبها،

(١) السيرة النـبوية لابن كثير ص/٤٣٦، ٤٩٤، وأبو نـعيم فى الحلية ١/١٤٩، والحاكم وصـححه ٣/ ٢٨٤ ووافقة الذهبى.

(٢) شخصية المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام فى الكتاب والسنة، د. محمد على الهاشمى، ص ٧٣.

فأصبح فؤادها رضى الله عنها فارغًا من كل شيء إلا حب الله سبحانه وحب رسوله ﷺ، إنها عاطفة الإيمان التي استولت على نفسها، قال تعالى ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، إن حب الذات وحب الأهل والولد والزوج والمال ومتاع الدنيا، ينبغى كلها أن تبذل فى سبيل حب أسمى وأكبر هو حب الله عز وجل وتنفيذ أمره.

والحمد لله رب العالمين:

وإن مما يوجب الحمد لله عز وجل إهلاكه للظالمين وانتقامه من المتجبرين، وها هى قدرة الله سبحانه، تتدخل لتنتقم من هذا الفاسق أبى جهل[1]، والذى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، لم تمض بضعة أعوام حتى كانت غزوة بدر، وفيها انهزم المشركون وولوا الأدبار، وقُتل عدو الله أبو جهل بأيدى المسلمين، وغودرت جثته فى أرض المعركة، ثم أقبل النبى ﷺ يستعرض القتلى، فوجد جثة أبى جهل رأس الكفر ملقاة على الأرض، فقال ﷺ لعمار ابن سمية مبشراً: «قد قتل الله قاتل أمك»[2] ولنقرأ معًا: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

امرأتان:

لقد شاء الله عز وجل أن يكون أول الناس إسلامًا امرأة، وأول من يُستشهد فى الإسلام امرأة، فأول الناس إسلامًا خديجة رضى الله عنها أم المؤمنين، وبشرها النبى ﷺ بالجنة[3]، وكانت المرأة -أيضًا- أول شهيدة فى الإسلام، ويشرها النبى

(١) كان أبو جهل الفاسق إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومنعة، أنبه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنُفَيّلَنّ رأيك -أى لنقبحن- ولنضعن شرفك، وإن كان تاجراً قال: والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به. . ابن هشام ١/ ٣٢٠، وابن كثير ١/ ٤٩٥.

(٢) ابن سعد ٨/ ١٩٣، والسيرة لابن كثير ١/ ٤٩٣.

(٣) انظر سيرتها فى: أمهات المؤمنين، للمؤلف.

ﷺ بالجنة، فالشهادة فى الدنيا والجنة فى الآخرة لا يُختصان بالرجال دون النساء، والجهاد بالنفس والمال فى دعوة الإسلام ليس حكرًا على الرجال دون النساء، وتحمل الأذى والتعذيب والتخويف يقع فى سبيل الله على النساء كما يقع على الرجال[1]، كما قرر الله عز وجل: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، كما أنهن يُفتَنَّ مثل الرجال دفاعًا عن عقيدتهن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

عبرة سمية:

(كانت سمية حين استشهدت عجوزًا ضعيفة، وكانت أمةً من الإماء، فقيرة معدمة لا حول لها ولا طول ولا قوة، ولكنها ثبتت على عقيدتها ثبات الراسيات، ولم تستسلم للوعود والوعيد والضغط والإرهاب، كانت قوية بعقيدتها، وكانت عقيدتها أغلى عليها من روحها، فبذلت روحها رخيصة فى سبيل الله، لتحتفظ بعقيدتها لا تشوبها شوائب الضعف والتراجع والاستخذاء.

لقد تحملت سمية صابرة محتسبة، وبذلت ما بذلت قوية ثابتة، وكان إيمانها الراسخ هو مصدر قوتها التى لا تُقاوم، فبزّت بتضحيتها وفدائها -وهى العجوز الضعيفة الأمة الفقيرة المعدمة التى لا حول لها ولا قوة- عن الشباب الصغار الأقوياء الأحرار الأغنياء أصحاب الثراء والحول والقوة؛ لأنها كانت قوية بإيمانها الراسخ، لا بمظاهرها الخارجية الخلابة، وغيرها لا إيمان لهم يعصمهم من الانحراف.

والإيمان الراسخ هو الحافز القوى على الثبات دفاعًا عن الحق والمثل العليا فما أحرانا أن نتعلم من سمية هذا الدرس الثمين، واليوم نجد أكثر الناس يهتمون بتخمة جيوبهم بالمال، ولا يهتمون بخواء قلوبهم من الإيمان، وقد انتصر سلفنا

(١) دور المرأة فى حمل الدعوة، ص ٢٢ بتصرف.

بالإيمان وحده، فقد كانوا فقراء مالاً أغنياء روحًا، فانتصروا بالعقيدة لا بالمال، كانوا أصحاب قلوب لا عبيد جيوب، فانتصروا بقلوبهم العامرة بالإيمان، فأصبحنا أصحاب جيوب لا أصحاب قلوب، فهزمنا بجيوبنا المتخمة بالمال والأهواء.. أفلا يتساءل المسلمون اليوم لماذا نزع منهم النصر وتكالبت عليهم الأمم، وقد أصبحوا اليوم بحمد الله أغنياء!!

ترى لو عادت سمية رضى الله عنها إلى الدنيا من جديد، ورأت ما يشيع من انحلال فى شبابنا -خاصة الفتيات الكاسيات العاريات- أكانت ترضى لهم ما رضوا لأنفسهم!

والعبرة الثانية من سمية، هى مصير الظالم، فالله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل، وقد أمهل أبا جهل بضع سنين، ثم أخذه أخذ عزيز مقتدر، فكان مصيره مصير كل ظالم، وقد كان قتل سمية هينًا على أبى جهل ولكنه عند الله عظيم..

والظالمون الذين يفلتون من عقاب البشر لا يفلتون من عقاب رب البشر، وصدق الله العظيم: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، فهل يعتبر الظالمون أم على قلوب أقفالها.. إن سمية رضى الله عنها قدوة صالحة لكل مسلم ومسلمة، وقد استطاعت بإيمانها الراسخ أن تنال مجد الدنيا وأجر الآخرة، فهنيئًا لها رضى الله عنها، وهنيئًا للذين يتخذون منها قدوة حسنة وأسوة صالحة، وويل للظالمين الذين سيصيبهم القصاص العادل حتمًا، إن لم يكن اليوم.. فغدًا، وإن غدً لناظره قريب)(١).

البيت القدوة:

إن بيت آل ياسر ليمثل الصورة المثلى للبيت الذى ينشده الإسلام ، حيث إن كل عضو فيه قد أدى دوره كاملاً تجاه دين الله عز وجل دون أدنى تقصير أو تأخير، ولقد شاء الله عز وجل أن توجد مثل هذه البيوت المسلمة فى العهد الأول؛ لتكون قدوة وأسوة لكل بيت مسلم بعده.

(١) سمية أول شهيدة فى الإسلام، اللواء الركن محمود شيت خطاب، من مقال منشور بمجلة الأمة القطرية، العدد (٦٣) السنة السادسة، ربيع الأول ١٤٠٦هـ - نوفمبر ١٩٨٥م.

لقد أفاقت الدنيا على لون غير مسبوق من الصبر والتمسك بالدين، والثبات والتضحية من أجل اليقين ، يتتصر فيه هذا البيت بأعضائه على العذاب والتنكيل والاضطهاد، فما هانوا وما هادنوا، وما لانوا وما رضخوا لتهديد أو وعيد.. وها هى الصورة المثلى للبيت المسلم تتكامل، وتتضح معالمها، حيث يبدو دور المرأة المسلمة منذ فجر الدعوة: تُكَوِّنُ الأجيال، وتصوغ الناشئة، وتضع اللبنات الأولى فى صرح البطولة والعزيمة المتقدة فى صدور الشباب والرجال على السواء، وتكون جنبًا إلى جنب مع الرجل فى قصة الكفاح العظيم، والواجب الكبير الذى كلف الله به الأمة المسلمة من تبليغ لرسالته، وقوامة على شرعه، وهداية لخلقه.. وتضحى وتتحمل، وتصبر وتثبت، وتستشهد؛ ليصير بعد ذلك تاريخًا حيًا لا يترك عذرًا لمتخلف أو متردد.

فمن قعد به ولده عن الجهاد، ومن أبطأت به ثُقلة الأرض فلم يؤد دوره، ومن قتلته الوحشة والفراغ وحب الدنيا فأرخى يده وقعد... على كل هؤلاء أن يرفعوا أبصارهم عالية؛ ليروا بيت آل ياسر يضرب الأمثال للناس لعلهم يعقلون..

(وإذا كان الصف المسلم فيه القدوات من الرجال والنساء والأبناء،فكذلك المجتمع المسلم فيه القدوات من البيوت، فهنيئًا لبيت آل ياسر بشرى رسول الله ﷺ ، فكلهم مات شهيدًا، حتى عمار الذى بقى ونجى من موت التعذيب، اتخذه الله شهيدًا فى المعارك، بعد عمر ملىء بالعلم والعبادة والجهاد، وحتى لا يظن ظان أن الجهاد والتضحية فى سبيل الله قصرها الله على الرجال وحدهم، وحتى يعلم الناس أن المجتمع الأول من السابقين فى هذه الأمة تأسس وأقيم بجهود وتضحيات الرجال والنساء معًا، وذلك سُنَّةٌ للأمة إلى يوم الدين، وحتى لا يظن أحد من الدعاة أن الشهادة والتضحية حكر عليه دون زوجه وولده ووالديه، أو أن من الحكمة تجنيب بيته وأهله مخاوف الطريق وتضحياته)[١].

***

(١) دور المرأة فى حمل الدعوة، ص٢٣، ٢٤.

فضلٌ وسبق

لقد حازت سمية رضى الله عنها الفضل والسَّبق فى إسلامها، فكانت سابعة سبعة فى الإسلام.. وضحت بحياتها فى سبيل عقيدتها، فكانت أول شهيدة فى الإسلام.. وحسبها بذلك فخرًا واعتزازًا، وسموًا وعلوًا...

قال صاحب العقد الثمين: وكانت سمية رضى عنها ممن عُذب فى الله تعالى فصبرت على الأذى فى ذات الله عز وجل، وكانت من المبايعات الخيرات الفاضلات[1].

انتصار:

وحسبها رضى الله عنها أنها انتصرت على جحافل الباطل وجيوش الكفر، فثبتت على إيمانها واعتصمت بربها، فالثبات على المبدأ فى مرحلة الاستضعاف وقلة الأسباب هو نصر المرحلة؛ لأنه يبقى الحق واضحًا ظاهرًا حتى يغير الله الظروف... فالقرآن الكريم يعلمنا أنه فى الوقت الذى كان يُلقى فيه أصحاب الأخدود فى النار، كان قدر الله الغالب ينقلهم إلى مكان آخر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١].

(إنها صورة من صور انتصار الحق الذى واجه أصحابه الطغيان باستعلاء المؤمنين الصادقين، وعزة الواثقين بربهم، وكمال المحبة لدين الله، والرغبة الصادقة فى تقديم الأنفس فداء للحق الذى آمنوا به، والشوق الذى يحدوهم للقاء ربهم، والظفر بوعده الذى وعد به الشهداء فى سبيله..

إن الذين يُقتلون من أجل الحق والثبات عليه، ولم يتراجعوا عنه، ولم يُعطوا عدوهم قليلاً ولا كثيرًا مما يطلب من الباطل والتنازل عن الحق، لم يخسروا المعركة، ولم ينهزموا، ولقد كان نصرهم يتمثل فى ثباتهم، ولقد كان ثباتهم برهانًا على صدق إيمانهم، ولقد كان إيمانهم أعز عليهم من أنفسهم التى بين جنوبهم.

(١) العقد الثمين ٨/ ٢٤٣.

النصر الأكبر:

وإذا كانت سمية رضى الله عنها وأمثالهـا من الصحابة قد فاتهم أن تقر أعينهم بما يؤول إليه حال إخوانهم المؤمنين من النصر والظفر على الأعداء فى هذه الحياة بانتشار سلطان هذا الدين فى الأرض، واندحار الباطل وأهله، فإنهم -إلى جانب كونهم قد حققوا نصـرًا على أنفسهم وعلى عدوهم، وأرضوا ربهم سبحـانه بما فعلوا - سيرون نصرًا هو أكبر مـن نصر الدنيا، إنه النصر يوم يجمع الله سبـحانه الناس للفصل يوم الفصل، فيـفوزون بالنصر الأكبر بالنظر إلى وجـه ربهم الكريم، ويرون الذين قضوا حيـاتهم فى حماية البـاطل، ومحاربة الحق وأهله، حين يـخسرون أنفسـهم ويلقون جزاءهم، سيظفـر المؤمنون حينئذ بالنصر الذى ليس فوقه نصـر، حين يرون ما ينزل بأعدائهم، وحين يلقـون من ربهم سبحانه الفوز والسعـادة والنعيم، ويتمنون لو أنهم قُتلوا فى سـبيل الله مرات عـديدة لما يرون من حسن الجزاء الذى يـلقونه عند ربهم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢])[1].

من أهل الجنة:

ولقد نالت رضى الله عنها البشارة بالجنة من فم الصادق المصدوق ﷺ: «أبشروا آل عمار فـإن موعدكم الجنة» ويا لها من بشارة عظـيمة ومنقبة كـريمة حظيت بها سمية رضى الله عنها ومعها زوجـها وابنها عمار، وذلك جزاء المؤمنين الصادقين، وأجر المحسنين الصابرين:

وجـزاهم فـى جنة الخلد فـيـمـا صـبـروا وهى منـه خـيـر جـزاءِ

وحظيت سمـية رضى الله عنهـا -أيضًا- بدعـاء من النبى ﷺ بالمغفـرة ، فعن عثمان بن عفان قال: أقـبلت أنا ورسول الله ﷺ آخذ بيدى نتماشى فى البطحاء، حتى أتينا على أبى عمار وعمار وأمـه، وهم يُعَذَّبون، فقال ياسر: «الدهر هكذا، فقال النبى ﷺ «اصبر، اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت»[2].

---

(١) والله ليتمن الله هذا الأمر (الثقة فى نصر الله)، أ. جمعة أمين، ص ٧٧، ٧٨. .

(٢) أحمد ١/ ٦٢، وقال الهيثمى فى المجمع ٩/ ٢٩٣: ورجاله رجال الصحيح، وابن سعد ٣/ ٢٤٨، ٢٤٩.

أمُّ عمار:

وحسبهـا رضى الله عنها من فضل وشرف أنها: أم عمـار، والذى نُسب إليها: (عمار ابن سـمية) ذلكم الطيب المطيب، والذى أجاره الله من الشـيطان على لسان نبيه ﷺ ...[1].

رضى الله عن سميـة، وابن سمية، وزوج سـمية: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ...﴾ [البينة: ٨]

***

(١) انظر مناقبه بتوسع فى: فتح البارى بشرح صـحيح البخارى ٧/ ٩١، ٩٢. ودر السحابة فى مناقب القرابة والصـحابة ، ص ٣٥٩ - ٣٦٣، وأحـمد ٤/ ٢٦٢ - ٣١٩، وحليـة الأولياء ١/ ٤٣٩، وصـفة الصـفوة ١/ ١٧٥.

أسماء بنت يزيد بن السكن

(أم سلمة الأنصارية)

رضى الله عنها

(١٤)

نَسَبُها

أسماء بنت يزيد[١]:

أما أبوها فهو: يزيد بن السكن بن رافع بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل ابن جشم بن الحارث.

فهى رضى الله عنها أنصارية أوسية ثم أشهلية، وهى أم سلمة، ويقال: أم عامر، قال عبد بن حميد: أسماء بنت يزيد هى أم سلمة الأنصارية[٢].

قال الذهبى: من المبايعات المجاهدات[٢]، نشأت رضى الله عنها فى أسرة مجاهدة، عُرف أفرادها بالجهاد فى سبيل الله، فقد قُتل أبوها يزيد بن السكن، وعمها زياد بن السكن، وأخوها عامر بن يزيد، وابن عمها عمارة بن زياد فى غزوة أحد..

ولقد ذكر الإمام الذهبى فى السير أن أسماء رضى الله عنها ابنة عمة معاذ بن جبل، بينما ذكر ابن حجر فى الإصابة وابن الأثير فى أُسد الغابة فى أنها ابنة عمه، مع أن معاذًا رضى الله عنه من بنى سلمة، وهى رضى الله عنها من بنى عبد الأشهل[٣].

هذا ولم تذكر كتب التراجم والسير عن زوجها أو أولادها شيئًا، ربما لكونهم ماتوا فى حياتها، أو لم يكن لهم من الأعمال ما يُذكرون بها.

---

(١) أحمد ٦/٤٥٢-٤٦١، والإصابة ٨/١٢،١٣، وتهذيب التهذيب ٤٢٨/١٢، وأسد الغابة ٣٩٨/٥-٣٦١، وحلية الأولياء ٧٦/٢، وسير أعلام النبلاء ٢/٢٩٦،٢٩٧، والاستيعاب ٢٣٧/٤،٢٣٨، ومجمع الزوائد ٩/ ٣٦٠، ودر السحابة، ص٥٤٦، وخلاصة تذهيب التهذيب ٣/ ٣٧٥(٦)، وأعلام النساء ٦٧/١، ٦٨، والأعلام للزركلى ٣٠٦/١، والمعجم الكبير ١٥٧/٢٤، وتلقيح فهوم أهل الأثر، ص٣٢٤،٣٢٥، والمقتنى فى سرد الكنى ٢/ ١٧٠ (٦٩٧٦)، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٢٤٥ (٢٩٦٦)، وتهذيب الكمال (المصورة) ١٦٧٨/٣، والثقات لابن حبان ٣/ ٢٣،٤٦١،وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء)،ص٣٣ - ٣٩، والبداية والنهاية ٣١٦/٨، وتقريب التهذيب ٥٨٩/٢،والدر المنثور فى طبقات ربات الخدور، ص٣٦، وتاريخ الإسلام (٦١ - ٨٠هـ)،ص٧٣،٧٤، والكاشف ٣/ ٤٢٠(٦)، والطبقات لمسلم ٢٢٣/١ (٦٠٥)، ومقدمة مسند بقى بن مخلد، ص٨٣ (٤٢)، وطبقات خليفة،ص٣٣٩، ٣٤٠، والمعين فى طبقات المحدثين، ص٢٩(١٥٦)، وتاريخ يحيى بن معين ٤٥٧/٤، وذيل الكاشف، ص٣٧٩ (٢١٧٣).

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٩٧/٢.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء ٢٩٧/٢، والإصابة ١٢/٨، وأسد الغابة ٣٩٨/٥.

أما عن إسلام أسماء رضى الله عنها، فقد أسلمت قبل هجرة النبى ﷺ إلى المدينة، وكان إسلامها مواكبًا لإسلام سعد بن معاذ رضى الله عنه، والذى كان إسلامه بركة على قومه، حيث رُوى أنه يوم إسلامه، ما أمسى فى دار عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة[١].

بيعة صدق وإيمان:

ولما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة، كانت أسماء رضى الله عنها من المبايعات للنبى ﷺ[٢]، قالت رضى الله عنها: بايعنا رسول الله ﷺ، فأخذ علينا ألا يشركن بالله شيئًا، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن.

وكانت مبايعتها رضى الله عنها فى صدق وإيمان، حتى لتروى السيرة، أنها رضى الله عنها كانت تضع حينئذ فى يديها سوارين كبيرين من ذهب، فقال لها ﷺ: «ألقى السوارين يا أسماء، أما تخافين أن يسورك الله بأساور من نار»، فسارعت أسماء رضى الله عنها دون تردد أو جدال، فنزعتهما وألقتهما أمام النبى ﷺ[٣].

هذا هو الإيمان الحق وهذه هى ثمرته التى سمت بصاحبتها، وجعلتها تمتثل لأمر رسول الله ﷺ، طائعة له فى إذعان ورضا، ولا تتردد لحظة واحدة فى الأمر،بل تتنازل عن هوى نفسها حبًا ورغبة دون أدنى حرج فى نفسها.. ولو أن مسلمة اليوم قيل لها فى مثل هذه الأمور؛ لوضعت التبريرات الواهية والحجج البالية لنفسها دون أن تلبى أوتطيع، وهذا هو الفارق الشاسع بين مسلمة اليوم ومسلمة الأمس..

نساء أطهار:

وهذه صورة صادقة تعكس ما كان عليه نساء الأنصار من إيمان صادق، ويقين ثابت، وطاعة لله ولرسوله ﷺ، تروى صفية بنت شيبة، فتقول: بَيْنَا نحن عند

(١) الإصابة ٣/٨٨.

(٢) قال الزركلى فى الأعلام: وفدت على رسول الله ﷺ فى السنة الأولى للهجرة فبايعته وسمعت حديثه ٣٠٦/١.

(٣) أبو نعيم فى الحلية ٢/٧٦، وأحمد فى مسنده ٦/٤٥٣، وقال الهيثمى فى المجمع ٥/١٤٨: رواه أبو داود باختصار، وفيه شهر بن حوشب، وهو ضعيف يكتب حديثه وداود الأودى وثقه ابن معين فى رواية وضعفه فى أخرى.

عائشة رضى الله عنها، ذكَرْنا نساء قريش وفضلَهنَّ، فقالت عائشةُ رضى الله عنها: إنَّ لنساءِ قريش لَفَضْلاً، وإنى والله ما رأيتُ أفضلَ من نساء الأنصار، ولا أشدَّ تصديقًا لكتاب الله، ولا إيمانًا بالتنزيل! لقد أُنزِلَتْ سورة النُّورِ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ..﴾ [النور: ٣١]، فانقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته، وعلى كل ذات قرابة، فما منهن امرأةٌ إلا قامت إلى مِرطها المُرَحَّل[١]، فاعْتَجَرَتْ بِهِ[٢]، تصديقًا وإيمانًا بما أنزل الله من كتابه..[٣].

فجدير بكل مؤمنة بالله ورسوله أن تتأسى بهؤلاء الفضليات من النساء اللائى ضربن أروع الأمثلة فى امتثالهن لأمر الله ورسوله.

الحافظة الواعية:

وأخذت أسماء رضى الله عنها بعد ذلك تسمع من النبى ﷺ حديثه، حتى كانت رضى الله عنها تسأله ﷺ عن دقائق الأمور، التى ربما تتحرج من ذكرها النساء، فهى التى سألته ﷺ عن طريقة تطهر المرأة من الحيض، ولا حرج فى الدين، فعن عائشة رضى الله عنها أن أسماء بنت يزيد بن السكن[٤]، سألت النبى ﷺ عن غسل المحيض، فقال: «تأخذ إحداكنَّ ماءَها وسدْرتها[٥]، فَتَطَهَّرُ، فتحسنُ الطُّهور، ثم تَصُبُّ عليها الماءَ، ثم تأخذ فِرْصَةً[٦] مُمَسَّكَةً[٧] فَتَطَهَّرُ بها»، قالت أسماء

(١) هو كساء من صوف نقشت فيه تصاوير الرِّحال.		(٢) أى تلففت به.

(٣) البخارى مختصرًا فى التفسير، باب ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ ٨/ ٤٨٩ (٤٧٥٩)، وأورد ابن حجر فى الفتح هذه الرواية دون اختصار، وقال: رواه ابن أبى حاتم ٨/ ٤٩٠.

(٤) وقع فى رواية عند مسلم فى حديث صفية عن عائشة قالت: دخلت أسماء بنت شكل.. ولكن الإمام ابن حجر قال فى التهذيب: قال الخطيب أبو بكر البغدادى: هو وهم، والصواب أسماء بنت السكن، وهى بنت يزيد بن السكن خطيبة الأنصار، وتبع الخطيب على ذلك جماعة، وهو متجه، فقال الحافظ أبو أحمد الدمياطى: ليس فى الأنصار من اسمه شكل، ففى البخارى فى هذا الحديث بعينه أن امرأة من الأنصار سألت... قلت - أى ابن حجر-: وليس الوهم فى اسم أبيها من مسلم، وإنما هو ممن فوقه.. تهذيب التهذيب ١٢/ ٤٢٨، وانظر: فتح البارى ١/ ٤١٥، ومسلم بشرح النووى ٤/ ١٦.

(٥) السدرة: النبق، وهو نبات طيب الرائحة، يُتَطَهَّرُ به.

(٦) فِرْصَة: بكسر الفاء وإسكان الراء وإهمال الصاد: قطعة من صوف أو قطن أو جلدة عليها صوف، فتح البارى ١/ ٤١٥.

(٧) المسكة: المطيبة بالمسك، ويُتَتَبَّع بها أثر الدم فيتحصل منه الطيب والتنشيف.

رضى الله عنها: وكيف تَطَهَّرُ بها؟ فقال: «سبحان الله! تَطَهَّرينَ بها»، فقالت عائشة رضى الله عنها كأنها تخفى ذلك[١]: تَتَبَّعين أثر الدم[٢].

وسألته رضى الله عنها عن غُسل الجنابة، فقال: «تأخذين ماءك فَتَطَهَّرين، فتحسنين الطُّهورَ، وأبلغى الطُّهورَ، ثم تَصُبُّ على رأسها، فَتدْلُكُهُ، حتى تبلغَ شؤون رأسها، ثم تُفيضُ عليها الماء»[٣]، فقالت عائشة رضى الله عنها: «نعمَ النساءُ نساءُ الأنصار! لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين[٤]».

لقدِ دل سؤال أسماء رضى الله عنها واستيضاحها للحكم الشرعى من النبى ﷺ مباشرة بنفسها، على جرأتها فى الحق، ونضج شخصيتها، ورجاحة عقلها، وحبها للعلم وإقبالها عليه، وهذا شأن المسلمة الواعية الفطنة، التى تريد أن تتفقه فى دينها، وتفهم مسائله، لتؤدى عباداتها ومعاملاتها على أساس صحيح وفهم سليم.

ولأن الأم المسلمة مربية للأجيال، وصانعة للرجال، فلابد لها من معرفة بأحكام الدين وفقهه، وإلا فإن فاقد الشىء لا يعطيه، وقدوتها فى ذلك نساء الأنصار اللائى طلبن من النبى ﷺ أن يخصص لهن يومًا يعلمهن فيه، قالت نساء الأنصار للنبى ﷺ: اجعل لنا يومًا من نفسك نتعلم فيه، فقد غلبنا عليك الرجال، فقال لهن: «موعدكن دار فلانة» فأتاهن فيها فوعظهن وذَكَّرَهُنَّ وعَلَّمَهُنَّ[٥].

---

(١) أى قالت لها كلامًا خفيًا لا تكاد تسمعه ولا يسمعه الحاضرون.

(٢) البخارى فى الحيض، باب دلك المرأة نفسها إذا تطهرت من المحيض، وباب غُسل المحيض ١/ ٤١٤ (٣١٤،٣١٥)، ومسلم فى الحيض أيضًا، باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض المسك ٤/ ١٣ - ١٦ (٣٣٢).

(٣) البخارى فى الحيض، باب دلك المرأة نفسها إذا تطهرت من المحيض ١/ ٤١٤ (٣١٤)، ومسلم فى الحيض، باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض المسك ٤/ ١٣ - ١٦ (٣٣٢).

(٤) البخارى فى العلم، باب الحياء فى العلم، معلقًا عن عائشة، قال ابن حجر: وصله مسلم من طريق إبراهيم بن مهاجر عن صفية بنت شيبة عن عائشة فى حديث أوله أن أسماء بنت يزيد الأنصارية، سألت النبى ﷺ عن غُسل المحيض. فتح البارى ١/ ٢٢٩.

(٥) البخارى فى العلم، باب هل يُجعل للنساء يوم على حدة فى العلم ١/ ١٩٥ (١٠١) عن أبى سعيد. ولا يخفى فيما فى هذا الحديث من أهمية تعليم المرأة فى المجتمع المسلم كى ينهض المجتمع بجناحيه، فالمرأة هى الأم وهى الزوجة وهى الأخت؛ لذلك استجاب النبى ﷺ، وجعل لهن مجلسًا يكون فيه التعليم المباشر والحوار المباشر معهن، وهذا درس للدعاة أن يجعلوا نصيبًا وافيًا للنساء من دروس العلم..

قال ابن حجر فى شأن سؤال أسماء النبى ﷺ: وفيه: سؤال المرأة العالم عن أحوالها التى يحتشم منها، ولهذا كانت عائشة تقول فى نساء الأنصار: لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين. . . وفيه: الرفق بالمتعلم، وإقامة العذر لمن لا يفهم، وفى: أن المرء مطلوب بستر عيوبه وإن كانت مما جُبل عليها من جهة أمر المرأة بالتطيب لإزالة الرائحة الكريهة، وفيه: حسن خُلقه ﷺ وعظيم حلمه وحيائه، زاده الله شرفًا[1].

***

(١) فتح البارى ١/٤١٦.

وافدة النساء

لقد كانت أسماء رضى الله عنها قوية الشخصية، قيادية الحركة، حباها الله عز وجل فصاحة اللسان، وحسن البيان، ووضوح المنطق، وسرعة البديهة، حتى قيل عنها: إنها من أخطب نساء العرب، ولقبت بخطيبة النساء، وقال ابن عبد البر فى الاستيعاب: كانت رضى الله عنها من ذوات العقل والدين، وكانت تنوب عن نساء المسلمين فى مخاطبة النبى الكريم ﷺ فيما يتعلق بهن(١)، فقد اختارها النساء لتتحدث عنهن مع النبى ﷺ وتسأله عن الجهاد ودور المرأة المسلمة فيه، وكيف يدركن ثواب المجاهدين، أتت النبى ﷺ وهو بين أصحابه، فقالت: بأبى وأمى أنت يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك، إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة، فآمنا بك وبإلهك، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم، ومقضى شهواتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله عز وجل، وإن الرجل إذا خرج حاجًا أو معتمرًا أو مجاهدًا، حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أفنشارككم فى هذا الأجر والخير؟ فالتفت النبى ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله، ثم قال: «هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مساءلتها فى أمر دينها من هذه»؟ فقالوا: يا رسول الله ماظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا، فالتفت النبى ﷺ إليها، فقال: «أفهمى أيتها المرأة وأعلمى من خلفك من النساء، أن حسن تبعل المرأة لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته يعدل ذلك كله»، فانصرفت المرأة وهى تهلل(٢)، (٣).

---

(١) الاستيعاب ٢/٢٣٧، ٢٣٨.

(٢) أسد الغابة ٥/٣٩٨، ٣٩٩.

(٣) نظم الشاعر المسلم أحمد محمد الصديق حديث أسماء رضى الله عنها نظمًا جميلاً فى قصيدة رائعة له، فقال:

سعت بالحق وافدة النساء ... إلى شمس الهداية والسناء

فقالت وهى فى أدب تناجى ... بحكمتها إمام الأنبياء =

فانظر كيف استطاعت أسماء رضى الله عنها بفصاحة لسانها وبلاغة مقالها، أن تملك مسامع الحضور، وتأخذ بمجامع القلوب، فعبرت أبلغ تعبير عما بداخلها وما جاءت من أجله، فوصلت الفكرة، ووضحت الرسالة.

إن الحق فكرة لابد أن يحملها دعاة صدق يبلغونها للناس، وهذه الفكرة تظل حبيسة النفوس والصدور، ما لم يقدر الإنسان على الإبانة والتعبير عن الحق الذى

= أتاك الوحى نورًا فاهتدينا ... به بعد الضلالة والعماء
ودين الله شرفنا جميعًا ... وكرمنا الإله على السواء
كلا الجنسين من ذكر وأنثى ... ندين له ونذعن بالولاء
ولكن الرجال لهم مزايا ... تمثل فى الجهاد وفى الفداء
وفى كد النهار وفى التصدى ... لأعباء المعيشة والعناء
وفى فضل الصلاة إذا احتوتهم ... صفوفًا كالجنود الأوفياء
وفى شتى المكارم والمعالى ... وفى القربات تبذل والعطاء
ونحن لهم حبائس قاصرات ... على خلق التعفف والحياء
نكابد بين حمل ثم وضع ... ونجهد فى الصباح وفى المساء
ونرعى عش أفراخ صغار ... ننشئهم على صدق الإباء
وبالإيمان نغذوهم فتزكو ... طبائعهم مطهرة النماء
ونجعل من حنايا البيت روضًا ... شهى الفىء موصول الرفاء
وللأزواج منا ما أرادوا ... فنحن لهم رياحين الهناء
نخفف عنهم الأوصاب حتى ... يفيئوا للسكينة والصفاء
فهل نُجزى كما يُجزون حقًا؟ ... ونعطى مثلهم أجر الوفاء؟
وأصغى كل ذى لب فهذا ... هو السحر الحلال بلا مراء
وقال المصطفى: هل قد سمعتم ... كهذا القول فى حسن الأداء؟!
وما صاغته من درر المعانى؟! ... وما هديت إليه من الذكاء؟
ألا قولى لهن وهن أهل ... لهذا الفضل من رب السماء
أجل حُسن التبعل عند زوج ... يعادل كل ذلك فى الجزاء
وعادت تحمل البشرى فضجت ... بحمد الله ربات الخباء
وهلل فى الجوانح كل قلب ... وسبح وهو يلهج بالثناء
ومازالت ترددها عصور ... وتمليها حروفًا من ضياء
وتشهد أن دين الله حق ... فطوبى للهداة الأتقياء
ويا حواء لولا الله ماذا ... مصيرك فى متاهات الشقاء؟
وهل لك فى سوى الإسلام ظل ... ظليل أو سبيل للنجاء؟
وميزان العدالة لا يحابى ... ولكن الهوى أصل البلاء

انظر: مجلة الوعى الإسلامى الكويتية، العدد (٣٢١) جمادى الأولى ١٤١٣هـ -نوفمبر ١٩٩٢م.

يؤمن به، لكى تتحول هذه الفكرة إلى حقيقة معيشة، وواقع ملموس أمام الناس فيتأثرون به ويعملون له، لابد من اعتناءٍ بلغة القرآن قراءة وكتابة ومحادثة.. مما يعينه على البلاغ، ودعاة الإسلام - من رجال ونساء - هم أحوج ما يكونون إلى هذا اليوم، ولا يعذرون بالتقصير فيه.

(لقد كانت الفصاحة والبلاغة والريادة من أسباب التصدر، وكان هناك من الأجواء ما تبرز فيه هذه المواهب لتؤدى دورها فى الحياة وفى المجتمع وفى وسط النساء، وكان فى هذا توجيه لرسالة المرأة ومعرفة لوجهتها وثوابها وأجرها عند الله سبحانه وتعالى، ولا مانع أن تتصدر النساء فيما ينفعهن من الخير، وأن يكون لهن قياديات صالحات تعبر عن آرائهن حتى ينهض المجتمع، وتبرز فيه الطاقات والمواهب اللازمة لحضارة الأمة وريادتها، أما الأزمان التى يُقضى فيها على الآراء وعلى المتصدرين والدعاة، فهى أزمان كوالح تفتك بكل نبتة، وتدمر كل زهرة، وتحرق الأخضر واليابس)[١].

حسن التبعل:

ولقد عجب النبى ﷺ من حسن مقالة أسماء رضى الله عنه واهتمامها بأمر دينها، حتى إنه ﷺ ليلتفت إلى أصحابه بوجهه كله، ويسألهم، ويجيبونه، فيعطيها النبى ﷺ الجواب الكافى بأبلغ عبارة وأوجز إشارة، فيقول لهم: «أفهمى أيتها المرأة، وأعلمى مَنْ خلفك من النساء: أن حسن تبعل المرأة لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته، يعدل ذلك كله».

إن حسن التبعل من أعظم الأخلاق الى تتخلق بها المسلمة لزوجها، وذلك بأن تتفهم نفسيته، وتتعرف على عاداته، وتتبين ما يرضيه وما يسخطه، وتقدر على كسب قلبه، وتعينه على أمر دينه ودنياه، فتحوز على حبه وتقديره.

(وهذا الخلق الكريم ليس خلقًا اجتماعيًا تزهو به المرأة بين أقرانها فحسب، إنما هو دين يحاسبها الله عليه، فيثيبها إن أحسنت، ويؤاخذها على التقصير فيه.

ومن أبرز وجوه طاعة المرأة المسلمة لزوجها وبرها به، استجابتها لرغباته الخاصة المشروعة التى فيها الاستمتاع بالحياة الزوجية على أكمل وجه وأتم صورة فى

(١) النساء الداعيات، د. توفيق الواعى، ص٧٩.

المعاشرة والزيارات والمأكل والملبس والحديث.. وما إلى ذلك من وجوه الحياة اليومية، وكلما كثرت استجابتها له فى مثل هذه الأمور، ازدادت حياتهما سعادة وصفاءً وهناءة، وكانت أقرب إلى روح الإسلام وهديه)[1].

وهذا لا يعنى أن تتوقف المرأة عن كل واجباتها، وتكتفى بحسن التبعل لزوجها، بل يعنى هذا: أنه بدون طاعة الزوج، تنهار الأسرة، وتخرب المجتمعات، وأنه لا حق بدون واجب، وأن لهن مثل الذى عليهن بالمعروف، وأن قيامها بحق زوجها وبيتها وأبنائها نوع آخر من الجهاد، خص الله به المرأة دون الآخرين[2].

فريضة الجهاد:

ولقد شغلت قضية الجهاد فى سبيل الله صحابيات النبى ﷺ، فكان ما كان من أمر أسماء رضى الله عنها، وإننا لنجد فى موقفها رضى الله عنها عبرة وعظة تظل معنا على مر الدهور وتعاقب الأجيال، تثبت ما كان عليه الصحابيات من إيمان راسخ بقضيتهن، وحرص بالغ على القيام بدورهن، عز أن تجد له مثيلاً بهذا المستوى فى التاريخ.

فهل شغلت المسلمة اليوم نفسها بقضية الجهاد فى سبيل الله؟ وهل سألت نفسها أين هى من نصرة دين الله، والالتحاق بركب دعوته؟ وهل أدركت كيف تحصل ثواب المجاهدين؟

إن إعداد البيت ليكون بيتًا مجاهدًا يخرج منه الزوج يجاهد، ويتربى فيه أفراده على الجهاد منذ صغرهم إنما هو مسؤولية الأم، كما أنه مسؤولية الرجل سواء بسواء، فالمرأة المسلمة وهى ترضع وليدها من لبنها ترضعه أيضا حب الإسلام وحب المسلمين وأخوتهم، ونصرتهم وحماية مقدساتهم، والدفاع عن أعراضهم..

***

(١) شخصية المرأة المسلمة، د. محمد على الهاشمى، ص١٦١، ١٦٢.

(٢) المرأة فى موكب الدعوة، أ. مصطفى الطحان، ص٩٩.

مع الرسول ﷺ

ولقد كانت أسماء رضى الله عنها تخدم النبى ﷺ فى دعوته بما استطاعت، فعن شهر بن حوشب قال: إن أسماء بنت يزيد كانت تخدم النبى ﷺ . .[1]، وكان لأسماء رضى الله عنها مكانة خاصة فى نفس أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فهى التى زينتها للنبى ﷺ يوم زفافها وأدخلتها عليه، تقول أسماء رضى الله عنها: إنى قينت[2] عائشة لرسول الله ﷺ، ثم جئته فدعوته لجلوتها، فجاء فجلس إلى جنبها، فأتى بعس لبن فشرب ثم ناولها النبى ﷺ، فخفضت رأسها واستحيت، قالت أسماء: فانتهرتها وقلت لها: خذى من يد النبى ﷺ، قالت: فأخذت فشربت شيئًا، ثم قال لها النبى ﷺ :«أعطى تربك» قالت أسماء: فقلت: يا رسول الله بل خذه فاشرب منه ثم ناولينه من يدك، فأخذه فشرب منه ثم ناولينه، قالت: فجلست ثم وضعته على ركبتى، ثم طفقت أديره وأتبعه بشفتى لأصيب منه مشرب النبى ﷺ ثم قال لنسوة عندى: «ناوليهن» ، فقلن: لا نشتهيه، فقال النبى ﷺ :«لا تجمعن جوعًا وكذبًا»[3].

التماس البركة:

فانظر كيف طفقت رضى الله عنها تدير الكأس وتتبعه بشفتيها؛ لتصيب منه مشرب النبى ﷺ ، وذلك التماسًا للخير بالتبرك بآثار فم النبى ﷺ ، وإلى هنا يحق للقلم أن يقف دون وصف عظمة هذا المشهد الذى تسامى فيه الحب إلى أعلى مراتبه، فأى حب هذا الذى كان فى مكنون قلوب صحابة النبى ﷺ له، نعم لقد أحبوه ﷺ حبًا ملك عليهم أفئدتهم، وكان أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم وأولادهم، ومن الماء البارد عند الظمأ. . .

ولقد كانت أسماء رضى الله عنها صاحبة ذوق رفيع وأدب عال، حيث زينت عروسه ﷺ ، وكانت على مقربة منهما لتكون فى خدمتهما، ولذلك فإن النبى ﷺ

(١) أحمد ٦/ ٤٥٩.

(٢) قينت أى زينت، وتقينت المرأة: تزينت، والمقينة هى التى زين العرائس.

(٣) أحمد ٦/ ٤٦٢.

كان يعـرف لها قـدرها، تقول أسمـاء رضى الله عنها: مـرّ بى النبى ﷺ وأنا فى نسوة، فسلم علينا فرددنا عليه السلام[١].

وروى عنها أنها قالت: إنى لآخذة بزمـام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت علية سورة المائدة كلها، وكادت مـن ثقلها تدق عضد الناقة[٢]، مما يدل أنها رضى الله عنها كانت قريبة منه، تخدمه ﷺ فى دعوته بما استطاعت.

***

(١) أحمد ٦/٤٥٨.

(٢) أحمد ٦/ ٤٥٥، وابن كثير فى تفسيره ٢/ ٣، وصححه العلامة أحمد شاكر فى عمدة التفسير ١/ ٥٤٦.

المجاهدة الراوية

كانت أسماء رضى الله عنها من النساء المجاهدات الغازيات اللائى شاركن فى نصرة الإسلام والجهاد فى سبيله، وتقدمن إلى الغزو مع النبى ﷺ، فقد شاركت رضى الله عنها فى غزوة الأحزاب، وخرجت مع النبى ﷺ إلى الحديبية مع أم سلمة زوج النبى ﷺ وأم عمارة وأم منيع[١].

وشهدت رضى الله عنها بيعة الرضوان، قال الذهبى: إنها حضرت بيعة الرضوان وبايعت يومئذ[٢]، وأنزل الله عز وجل فى شأن من بايع من الرجال والنساء قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:١٨، ١٩].

ثم كانت مشاركة أسماء رضى الله عنها فى غزوة خيبر، حيث شهدت هذه الغزوة أكبر تجمع من النساء الغازيات، قال الواقدى: وخرج مع رسول الله ﷺ من المدينة عشرون امرأة، عد منهن: أم عامر الأشهلية، وهى أسماء بنت يزيد[٣].

جهاد متواصل:

وظلت أسماء رضى الله عنها تقدم جهدها المشكور للإسلام وقضاياه، حتى تُوفى رسول الله ﷺ وهو عنها راض، ولم تتوقف رضى الله عنها بعد وفاته ﷺ عن نصرة الإسلام، بل خرجت فى السنة الثالثة عشرة من الهجرة إلى بلاد الشام، وشهدت معركة اليرموك، تسقى العطاش، وتضمد الجراح، وتشجع المجاهدين على الإقدام والصمود.

ومعركة اليرموك من أشهر المعارك الإسلامية التى شاركت فيها المرأة المسلمة مشاركة فعلية مع المجاهدين، فقد زُلْزِلَ فيها المجاهدون زلزالاً شديداً، وتراجع

(١) المغازى ٢/ ٥٧٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٩٧.

(٣) المغازى ٢/ ٦٨٥.

بعضهم، فكانت النساء المجاهدات يقاتلن مِنْ ورائهم، ويُقْبِلْنَ على المنهزمين بالخشب والحجارة، محرّضاتٍ إياهم على الإقدام والصمود[١].

بطولات نسائية:

لقد أبلى نساء المسلمين فى هذه المعركة البلاء الحسن، فحملن العمد يضربن بها وجوه الخيل إذا ولت، وينادين: إلى أين يا حماة الإسلام وطلاب الشهادة؟ يشددن بذلك عزائم الرجال، ويواسينهم فى ساحة القتال، حتى بلغن من كيد العدو ما لم تبلغه منه السيوف، وقمن بخدمة الإسلام ورجاله الذين أوردوا الروم موارد الحتوف..[٢].

وقد نوه ابن كثير رحمه الله بشجاعة النساء المسلمات، ودورهن المشرف فى هذه المعركة، فقال: وقد قاتل نساء المسلمين فى هذا اليوم، وقتلوا خلقًا كثيراً من الروم، وكن يضربن مَنْ انهزم من المسلمين، ويقلن: أين تذهبون وتدعوننا للعلوج؟[٣] فإذا زجرنهم لا يملك أحد نفسه حتى يرجع إلى القتال[٤]، وقد كان لموقف المسلمات الحسن وتثبيتهن المجاهدين أكبر الأثر فى صمودهم وثباتهم حتى كتب الله لهم النصر على الروم.

دور بطولى:

أما أسماء رضى الله عنها فقد أظهرت من ضروب الشجاعة والبسالة والإقدام ما لم يبده كثير من الأبطال، وأبلت فى هذا اليوم العصيب البلاء الحسن، وانخرطت بجانب أخواتها المسلمات خلف المجاهدين تعاون وتؤيد وتآزر، وأخذت رضى الله عنها تبذل جهدها، وتشد من عزائم الرجال.

ولكن الموقف يشتد والمعركة تتأزم، والحرب تشمر عن ساقيها، وحينئذ هبت أسماء كالأسد، ولم تذكر إلا أنها مسلمة مؤمنة، تستطيع أن تجاهد بما فى وسعها

(١) شخصية المرأة المسلمة، د. محمد على الهاشمى، ص٨٤، ٨٥.

(٢) تاريخ الدعوة إلى الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين (الدعوة فى حياة الصديق)، د. يُسْرِى محمد هانئ، ص٣٦٨.

(٣) العلج: الرجل من كفار العجم وغيرهم، والجمع: أعلاج وعلوج.

(٤) البداية والنهاية ٧/ ١٤.

وطاقتهـا، ولم تجد أمامها إلا عـمود خيمة فـحملته، وانغمـرت به فى الصفوف، وأخذت تضـرب به فى أعداء الله ورسوله ذات اليـمين وذات الشمال، حـتى أكد التاريخ فى مصـادره الأمينة الوثيقة، أن أسـماءً قتلت يومئذ بـعمود الخيمـة تسعة رجال من الأعداء[١]، فعن مهاجر أن أسماء بنت يزيد بن السكن بنت عم معاذ بن جبل، قتلت يوم اليـرموك تسعة من الروم بعمـود فسطاطها[٢]، وقال ابن حجر: شهدت رضى الله عنها اليـرموك، وقتلت يومئذ تسعة من الروم بعـمود فسطاطها، وعاشت بعد ذلك دهراً[٣].

يا لروعة الإيمان، ويا لسلطان اليقين، هذه مـؤمنة تسطر بصدق إيمانها، وقوة عزيمتها، رسالة المرأة المسلمة فى الحيـاة، وواجبها نحو دينها وربها عز وجل، إنها رضى الله عنها لم تتقاعس عن الجهاد، بل سارعت إليه، مرحبة بالموت فى ميدانه مسـتعـذبة طعمـه فى ساحـة الفدا، إن هذه هى القـدوة فى ثبات العـقيـدة وقوة الإيمان، ومثال الشجاعة، والإقدام فى الميدان.

وخرجت أسمـاء رضى الله عنها من المعركة سالمة لم تمت، وإن أصابتـها جراح تشهد لها يوم الديـن، (ويبدو أن هذه البطلة العظيمة أمضت بقيـة حياتها فى بلاد الشام، حيث دارت مـعركة اليرمـوك، إذ انتقلت إليها مع من انتقـل من الصحابة الكرام، وامتد بها العمر حتى عهد يزيد بن معاوية، ولما وافاها الأجل عطرت ثرى دمشق بجثمانها الطاهر الذى ثوى فى مقبرة الباب الصغير، وقبرها الماثل هناك إلى اليوم شاهد شامخ على جهاد المرأة المسلمة فى سبيل الله)[٤].

روايتها للحديث:

لقد جـمعت أسماء رضى الله عنهـا رواية الحديث وسمـاعه من النبى ﷺ مع الجهاد فى سبيل الله، فقد روت عن النبى ﷺ (٨١) حديثًا، وروى عنها ابن اختها محمود بن عمرو الأنصارى، وأبو سفيان مولى ابن أحمد، وعبد الرحمن بن عبد

(١) موسوعة الفداء للشرباصى ٢/ ١٧٦.
(٢) الطبرانى فى الكبير ٢٤/ ١٥٧ (٤٠٣)، وقال الهيثمى فى المجمع ٩/ ٢٦٠: ورجاله ثقات.
(٣) الإصابة ٨/ ١٢، وانظر: سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٩٧، وأسد الغابة ٥/ ٣٩٨، وأعلام النساء ١/ ٦٧، ٦٨.
(٤) شخصيـة المرأة المسلمة، ص٨٦، قال الذهبى فى سير أعلام النبلاء: سكنت دمشق، وقبر أم سلمة الذى بمقبرة الباب الصغير هو قبرها إن شاء الله ٢/ ٢٩٧.

الرحمن بن ثابت الصامت الأنصارى، ومجاهد بن جبر، ومولاها مهاجر، وشهر ابن حوشب وروى لها أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه(١).

ومن مروياتها رضى الله عنها، قالت: لما توفى سعد بن معاذ صاحت أمه، فقال النبى ﷺ: «ألا يرقأ لك دمعك، ويذهب حزنك، فإن ابنك أول من ضحك الله له واهتز له العرش»(٢).

وعن شهر بن حوشب قال: حدثتنى أسماء بنت يزيد، أنها كانت عند رسول الله ﷺ، والرجال والنساء قعود عنده، فقال: «لعل رجلاً يقول ما يفعل بأهله، ولعل امرأة تخبر بما فعلت مع زوجها» فأرم القوم، فقلت: إى والله يا رسول الله إنهن ليقلن وإنهم ليفعلون، قال: «فلا تفعلوا، فإنما ذلك مثل الشيطان لقى شيطانة فى طريق فغشيها والناس ينظرون»(٣).

وعنه قال: سمعت أسماء بنت يزيد إحدى نساء بنى عبد الأشهل، تقول: مر بنا رسول الله ﷺ ونحن فى نسوة فسلم علينا، وقال: «إياكن وكفر المنعمين» فقلنا: يا رسول الله وما كفر المنعمين؟ قال: «لعل إحداكن أن تطول أيمتها بين أبويها، وتعنس فيرزقها الله عز وجل زوجًا، ويرزقها منه مالاً وولدًا، فتغضب الغضبة، فراحت تقول: ما رأيت منه يومًا خيرًا قط»(٤).

وعن أسماء رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال: «يُحشر الناس فى صعيد واحد يوم القيامة، فينادى مناد، فيقول: أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟ فيقومون وهم قليل، فيدخلون الجنة بغير حساب، ثم يُؤمر بسائر الناس إلى الحساب»(٥).

وعنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من ذَبَّ عن عِرْضِ أخيه بالمغيبة، كان حقًا على الله أن يعتقه من النار»(٦).

وروت أن رسول الله ﷺ توفى يوم توفى ودرعه مرهونة عند رجل من اليهود بوسق من شعير(٧).

(١) تهذيب التهذيب ١٢/٤٢٨، وسير أعلام النبلاء ٢/٢٩٧، وأعلام النساء ١/٦٨.
(٢)، (٣) أحمد ٦/٤٥٦، ٤٥٧. (٤) أحمد ٦/٤٥٢، ٤٥٣.
(٥) رواه الحافظ الدمياطى فى المتجر الرابح فى ثواب العمل الصالح، ص١٣٧ (٣٥٩) وعزاه إلى البيهقى فى شعب الإيمان.
(٦) أحمد ٦/ ٤٦١، وقال الحافظ الدمياطى فى المتجر الرابح: رواه أحمد بإسناد حسن.
(٧) أحمد ٦/ ٤٥٧.

فضائل ومكارم

لقد تمتعت أسماء بنت يزيد رضى الله عنها بمكارم وفضائل جعلتها تتبوأ أسمى المنازل وأعلى الدرجات، كانت رضى الله عنها مؤمنة صادقة الإيمان، وفت لدينها وصدقت فى بيعتها، وكانت النموذج الأسمى والمثل الأعلى فى الطاعة والامتثال لأمر الله ورسوله، قال عنها أبو نعيم فى حليته: أسماء بنت يزيد بن السكن، النابذة للفتن، لما يورث الغرور والفتن[1]، وقال الذهبى: كانت رضى الله عنها من المبايعات المجاهدات[2]، اللائى شاركن فى نصرة الإسلام والتضحية فى سبيله، بل وخاضت رضى الله عنها غمار الحرب، وقتلت فى شجاعة نادرة تسعة من الروم فى اليرموك.

ومن مكارم شخصيتها رضى الله عنها سؤالها فى الدين وتفقهها فيه، وعدم التحرج من ذلك، لقد أراد الله لها الخير، ومن يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين، ولقد حباها الله عز وجل بالحكمة، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا.. وكان ثمرة ذلك أن نفع الله عز وجل بها الأمة فى سؤالها عن دقائق الأمور التى تخص المرأة، واستيضاحها للحكم الشرعى، فكان شرعًا يتعبد به لله عز وجل، وكان فيه الخير والفضل، والبركة والفائدة لمن بعدها من المسلمات..

ومن غرر فضائلها التى علت بها وسبقت، أن كانت وافدة النساء، والمتحدثة عنهن مع النبى ﷺ فأعجب بها وبمقالتها أيما أعجاب...

وماذا تسع هذه العجالة من وصف فضائل هذه الصحابية الفاضلة، المؤمنة المجاهدة.. أفلا ينبغى لنا أن نذكرها بالخير والبر، فنتعلم منها هذه المعانى الطيبة والمواقف الرائعة.. ونتلمس من سيرتها مواطن القدوة ومشاهد الأسوة.. فنحذو حذوها وننسج على منوالها..

رضى الله عن أسماء، وجعلها مع المقربين فى جنات النعيم، وألحقنا بها فى الصالحين، مع الذين اتقوا، وفازوا برضوانٍ ونعيم مقيم..

(١) حلية الأولياء ٢/ ٧٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٩٧.

أم كُلثُوم بنْت عُقْبَةَ بن أُبى مُعيط

رضى الله عنها

(١٥)

نَسَبُها

أم كلثوم بنت عقبة(١):

أما أبوها فهو: عقبة بن أبى معيط أبان بن ذكوان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى الأموى، أحد أعداء الإسلام وأئمة الكفر والصد عن سبيل الله، أُسِرَ يوم بدرٍ فأمر النبى ﷺ بقتله، فقتل كافرًا جزاءً بما قدمت يداه.

وأما أمها فهى: أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى، وهى والدة عثمان بن عفان، أسلمت وهاجرت إلى المدينة، بعد ابنتها أم كلثوم، وبايعت النبى ﷺ ولم تزل بالمدينة حتى ماتت فى خلافة عثمان(٢).

وأخواها الشقيقان: هما الوليد وعمارة ابنا عقبة، أسلما يوم الفتح.

وأخوها لأمها عثمان بن عفان أمير المؤمنين ذو النورين، وثالث الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة.

---

(١) ابن سعد ٨/١٦٧، ١٦٨، والإصابة ٨/ ٢٧٤، وأحمد ٦/٤٠٣، ٤٠٤، وتاريخ خليفة، ص ٨٦، والمستدرك ٤/٦٦، ٦٧، والمعارف، ص ٢٣٧، وسير أعلام النبلاء ٢/٢٧٦، ٢٧٧، والاستيعاب ٤/٤٨٨، والمعجم الكبير ٢٥/ ٧٤ - ٨٠، وتاريخ الإسلام (عهد معاوية) ص ١٣٦، وتلقيح فهم أهل الأثر، ص ٣١٨، ٣١٩، وصفة الصفوة ٢/٣٩، ٤٠، وكنز العمال ١٣/٦٢٦، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٦٥، ٣٦٦، والكامل فى التاريخ ٢/٢٠٦، ٣/ ٧٢، والطبرى ٢/ ٦٤٠، ٤/ ٣٥٧، ونسب قريش، ص ١٤٥، ٢٦٦، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٥٠٤، وجمهرة أنساب العرب، ص ١٣١، والمقتنى فى سرد الكنى ٢/ ١٧١ (٦٩٨٥)، وأعلام النساء ٤/ ٢٥٥، ومقدمة مسند بقى بن مخلد، ٩٦ (١٨٧)، والمعرفة والتاريخ ١/ ٣٦٧، والمنتظم ٥/ ١٨٠ - ١٨٢ (٣٢٠)، والطبقات لمسلم ١/ ٢١٣ (٥٣١)، والكاشف ٣/ ٤٤٤ (٢٠٣)، وكنز العمال ١٣/ ٦٢٦، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٣٣٣ (٤٠٤٨)، وأسد الغابة ٥/ ٦١٤، والثقات لابن حبان ٣/ ٤٥٨، وتحفة الأشراف ١٣/ ١٠٢، ١٠٣، وتهذيب الكمال (المصورة) ٣/ ١٧٠٥، وأحكام النساء، ص ٢١٨، ٢١٩، والوافى بالوفيات ٢٤/ ٢٧١، وتقريب التهذيب ٢/ ٦٢٤، والمغازى ص ٦٢٩، ٦٣١، وتاريخ الطبرى ٢/ ٦٤٠، والإكمال فى رفع الارتياب ٧/ ٢٧١، والدر المنثور فى طبقات ربات الخدور، ص ٦٢، ٦٣، والرياض المستطابة، ص ٣٢٥، والمغنى، ص ٣٠٠. والعقد الثمين ٨/ ٣٤٧، ٣٤٨ (٣٥٢٦)، وطبقات خليفة، ص ٣٣٩.

(٢) ابن سعد ٨/ ١٦٦.

إسلامٌ وبيعة:

ومع أن أم كلثوم رضى الله عنها قد نشأت فى بيئة معادية للإسلام؛ إلا أنها كانت ممن سبقن إلى الدخول فيه منذ إشراقته الأولى فى مكة، وكانت فطرتها تأبى الشرك والوثنية التى كانت عليها قومها، لقد أسلمت رضى الله عنها مبكرًا وأسرّت إسلامها، ثم ذهبت إلى النبى ﷺ تبايعه خفية، إذ كان كل مَنْ حولها يعلن العداء للإسلام ورسول الإسلام محمد ﷺ، ويبدو - والله أعلم - أن إسلامها كان بعد إسلام عثمان رضى الله عنه، وأنه كان له دور فى إسلامها. .

قال ابن حجر فى التهذيب: أسلمت أم كلثوم رضى الله عنها قديمًا وبايعت، وحبست عن الهجرة إلى أن هاجرت سنة سبع فى الهدنة(١)، وقال الذهبى: أسلمت بمكة وبايعت، ولم يتهيأ لها هجرة إلى سنة سبع(٢).

وهكذا آثرت رضى الله عنها الإسلام ودعوته على أبويها وأسرتها بل على الدنيا بأسرها، وهذا هو الإيمان الصادق واليقين الراسخ.

***

(١) تهذيب التهذيب ١٢/ ٥٠٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٧٦.

أم كلثوم والهجرة المباركة

قال ابن عبد البر رحمه الله: لم يتـهيأ لأم كلثوم رضى الله عنها هجرة إلى سنة سبع من الهـجرة[١]، وكانت قـبل هجرتهـا رضى الله عنهـا تعانى أشد المـعاناة، وتتحمل مـا تلاقيه من مصـاعب وشدائد فى سبيل الله، إلى أن يسـر الله لها أمر الهجرة، دفعـها إلى ذلك الفرار بدينها، والرغبة الأكيـدة لنيل ما عند الله وما عند الله خير للأبرار.

قررت أم كلثوم رضى الله عنهـا أن تهاجر سيرًا على الأقـدام، ومع أول فرصة تسنح لها، وأول غفلة من أهلهـا، ستودع مكة مهاجـرة إلى المدينة، مع علمها بما ستواجهه من عقبات، قد تكون سببًا فى عودتها إلى ما كانت عليه، إذ كانت هناك هدنة بين النبى ﷺ وأهل مكة، وتقـضى شروط هذه الهدنـة أن كل مَنْ يقدم مِنَ المشركين إلى رسول الله ﷺ يرده إليـهم، وكل من يقدم من المسلمين إلى المشركين لا يردونه إلى رسول الله ﷺ.. ولكن مع هذا كلـه هاجرت، وهى على يقين بأن الله عز وجل سيجعل لها من أمرها يسرًا..

ولكن حدثت أمور وأمور تشير إلى لطف الله عز وجل بأم كلثوم وإكرامه لها.. كيف ذلك؟ هذا ما ستعرف عليه من خلال روايتها رضى الله عنها لقصتها.

حديث الهجرة:

تقول أم كلثوم رضى الله عنها: كنت أخرج إلى بادية لنا فـيها أهلى، فأقيم بها الثـلاث والأربع، وهى ناحيـة التنعـيم، ثم أرجع إلى أهلى، فـلا ينكرون ذهابى البادية حتى أجمعت المسير، فـخرجت يومًا من مكة كأنى أريد البادية، فلما رجع من تبـعنى، إذا رجلٌ من خزاعـة، قال: أين تريدين؟ قلت: مـا مسـألتك؟ ومن أنت؟ قال: رجل من خزاعة، فلما ذكر خزاعـة اطمأننت إليه؛ لدخول خزاعة فى عهد رسول الله ﷺ، فقلت: إنى امرأة من قريش، وإنى أريد اللحوق برسول الله ﷺ ولا علم لى بالطريق، فقال: أنا صاحبك حتى أوردك المدينة، ثم جاءنى ببعير

(١) الاستيعاب ٤/٤٨٨.

فركبته، فكان يقود بى البعير، ولا والله ما يكلمنى بكلمة، حتى إذا أناخ البعير تنحى عنى، فإذا نزلت جاء إلى البعير فقيده بالشجرة، وتنحى فىء شجرة، حتى إذا كان الرواح حدج البعير(١)، فقربه وولّى عنى، فإذا ركبت أخذ برأسه فلم يلتفت وراءه حتى أنزل، فلم يزل كذلك حتى قدمنا المدينة، فجزاه الله من صاحب خيرًا، فدخلت على أم سلمة وأنا منتقبة، فما عرفتنى حتى انتسبت وكشفت النقاب، فالتزمتنى وقالت: هاجرت إلى الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ؟ قلت: نعم، وأنا أخاف أن يردنى كما ردَّ أبا جندل وأبا بصير، وحال الرجال ليس كحال النساء، والقوم قد طالت غيبتى اليوم عنهم خمسة أيام منذ فارقتهم، وهم يتحينون قدر ما كنت أغيب ثم يطلبوننى، فإن لم يجدونى رحلوا، فدخل رسول الله ﷺ على أم سلمة، فأخبرته خبرى، فرحب بى، فقلت: إنى فررت إليك بدينى فامنعنى، ولا تردنى إليهم يفتنونى ويعذبونى، ولا صبر لى على العذاب، إنما أنا امرأة، وضعف النساء إلى ما تعرف، وقد رأيتك رددت رجلين: فقال ﷺ: «إن الله عز وجل قد نقض العهد فى النساء».

وأنزل الله فيهن المحنة، وحكم فى ذلك بحكم رضوه كلهم، وفى أم كلثوم نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ...﴾ [الممتحنة: ١٠]، فامتحنها رسول الله ﷺ وامتحن النساء بعدها، يقول: «والله ما أخرجكن إلا حب الله ورسوله والإسلام، وما خرجتن لزوج ولا مال» فإذا قلن ذلك تُركن وحُبسن فلم يُرددن إلى أهليهن.

سُئل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما كيف كان امتحان رسول الله ﷺ النساء؟ قال: كان يمتحنهن بالله ما خرجت فى بُغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حبًا لله

(١) حدج: الحِدْجُ: الحِمْلُ، والجمع: أحداج وحدوج، وحدج البعير والناقة، يحدجهما حدجًا وحداجًا، وأحدجهما: شد عليهما الحِدْجَ والأداة، ووسقه... لسان العرب ٢/ ٢٣٠، ٢٣١.

ولرسوله[(١)]، وقال عروة بن الزبير: قالت عائشة: إن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن[(٢)] بهذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ[(٣)] مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ...﴾ إلى آخر الآية، قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات فقد أقر بالمحنة، فكان رسول الله ﷺ إذا أقررن بذلك من قولهن، قال لهن رسول الله ﷺ: «انطلقن فقد بايعتكن»، لا والله ما مست يَدُ رسول الله ﷺ يد امرأة قط غير أنه بايعهن بالكلام...[(٤)].

صدق إيمانها:

لقد نجحت أم كلثوم فى الامتحان، إذ لم تهاجر رضى الله عنها لزوج ولا لمال، ولم تهاجر لدنيا تصيبها أو مغنم تتطلع إليه، وإنما هاجرت فرارًا بدينها إلى الله عز وجل تبتغى مرضاته سبحانه، وتسعى إلى نصرة دينه، فاستحقت رضى الله عنها بذلك فضلاً من الله ورضوانًا: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]

قال ابن سعد: ولم نعلم قرشية خرجت من بين أبويها مسلمة مهاجرة إلى الله ورسوله إلا أم كلثوم بنت عقبة، خرجت من مكة وحدها، وصاحبت رجلاً من خزاعة حتى قدمت المدينة فى الهدنة[(٥)].

---

(١) انظر هذه الرواية بأوجه مختلفة فى: ابن سعد ٨/ ٢٣٠، وابن كثير ٤/ ٣٥٠، وأسد الغابة ٥/ ٦١٤، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٢٧٦، ٢٧٧، والمغازى ٢/ ٦٢٩، ٦٣٠، وزاد المعاد ٣/ ٣٠٠، والسيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٣٢، ٣٣.

(٢) يمتحنهن: أى يختبرهن فيما يتعلق بالإيمان فيما يرجع إلى ظاهر الحال دون الاطلاع على ما فى القلوب، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] فتح البارى ٩/ ٣٣٤.

(٣) سماهن الله عز وجل مؤمنات مع أنهن لم يُمتحن بعد لنطقهن بكلمة الشهادة، أو لشهادة ظاهر الحال لهن بالإيمان، أو لأنهن مشارفات لثبات إيمانهن بالامتحان. الأساس فى التفسير ١٠/ ٥٨٥٣.

(٤) البخارى فى الشروط، باب ما يجوز من الشروط فى الإسلام والأحكام والمبايعة ٥/ ٣٦٨ (٢٧١٣)، وفى الطلاق، باب نكاح من أسلم من المشركات وعدتهن ٩/ ٣٣٠ (٥٢٨٨).

(٥) ابن سعد ٨/ ٢٣٠، وانظر: ابن الجوزى فى أحكام النساء، ص ٢١٨، ٢١٩، عن ربيعة بن عثمان وقدامة.

لقد آثرت أم كلثوم رضى الله عنها وهى الفتاة الشابة ما عند الله عز وجل على الأب والأم والإخوة، وهى ابنة مَنْ؟! ابنة أحد زعماء الشرك فى مكة.. ها هى رضى الله عنها تجسد كل معانى الإيثار والتضحية والثبات على الإيمان، والرغبة الصادقة فى نصرة دين الله عز وجل وإعلاء كلمته.

إنه فى الحقيقة ليس امتحانًا وحسب، بل فخرًا للمرأة وذكرًا وحديثًا يستمر على مدى الدهر، يذكرنا بأن المرأة المؤمنة التى نجحت فى الامتحان هى النموذج وهى المثل الحقيقى للإنسان المؤمن فى الهجرة والمشاركة فى بناء الحياة.

إننا نتعلم من هجرة أم كلثوم أن العقيدة فوق كل اعتبار، وكل شىء دونها سهل، وكل شىء خادم لها.. فالمال يُبذَل فى سبيلها، والأهل يضحى بهم من أجلها، والوطن يهاجر منه لنصرتها، وكل شىء يمكن أن يستغنى عنه إلا العقيدة، وكل شىء يمكن أن يخفف ويعوض إلا الدين.

لقد كانت أم كلثوم رضى الله عنها صادقة فى إيمانها وهجرتها، وهذا الصدق لم يفوت عليها شيئًا من أمر دنياها، لا من الأهل ولا من الوطن ولا من المال، بل منحها الله عز وجل الزوج الصالح وحفظ عليها دينها، فكسبت الدنيا والدين.

وحقًا إنها لنفس كبيرة تلك التى كانت تحملها بين جوانحها رضى الله عنها وهى تهاجر إلى الله ورسوله، محتسبة فى سبيل الله عز وجل كل ما تلاقيه.

عفة وطهارة:

ولقد ضربت أم كلثوم رضى الله عنها تلك الشابة الذكية الراسخة الإيمان، المثل فى عفتها وطهارتها، وهى تتعرض لامتحان شاق عسير عبر رحلتها إلى المدينة، وهى فى صحبة هذا الرجل من خزاعة، فكانت رضى الله عنها كشجرة تقف على شاطئ نهر يتدفق بالماء الطهور، تستمد منه صفاء نفسها وعفة قلبها، ولها من إيمانها أبدًا عين لا ينضب ماؤها وهى مع رفيقها فى الرحلة مثلٌ يضربه الحق سبحانه وتعالى لصفاء الفطرة الإنسانية، وإمكان الحياة النظيفة فى ظلها، وأن ما يطرأ عليها من فساد دخيل عليها، ولنا أن نتوقف قليلاً أمام صنيع هذا الرجل الذى صاحب أم كلثوم فى رحلتها، فقد أبت عليه مروءته وشهامته أن يدع امرأة

شريفة تسير وحدها فى هذه الصحراء الموحشة، وكان مثلاً فى العفة والطهارة والنخوة والشهامة، حتى إن أم كلثوم رضى الله عنها لتشهد له بكرم الصحبة - على نحو ما ذكرت فى القصة - وخير ما يقال عن هذا الصاحب أنه كان من قدر الله عز وجل لأم كلثوم وتسخيره لها. . .

نصرة وتأييد:

ويطلع الله عز وجل على صدق إيمان أم كلثوم رضى الله عنها وإخلاصها، فيأبى خذلانها، فيحفظها فى طريق هجرتها، ويتولاها بتوفيقه وهدايته، وتحظى بتأييده ونصرته، بأن يُنزل سبحانه فيها قرآنًا يُتلى ويُتعبد به إلى يوم الدين. . وهذا شأن الله عز وجل بعباده المخلصين الصادقين أن يلطف بهم فى ساعات الشدة وينقذهم من المآزق الحرجة، ولم يكن هذا إلا تصديقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ [الحج: ٣٨].

ثم يحبوها الله عز وجل بفضله العظيم، فتسعد بالجوار الكريم والصحبة المباركة للنبى ﷺ. .

ويستفاد من قوله ﷺ: «انطلقن فقد بايعتكن» أن النساء شقائق الرجال فى الحكم الشرعى، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] إلا ما استثناه الشرع، وأن مبايعتهن لا تفرق عن مبايعة الرجال فى الجوهر والهدف، سوى أنه لا مصافحة فيها، فإن مصافحة الأجنبيات محرمة بالإجماع، وأن حق المرأة فى تعلم شؤون دينها ثابت مشروع، بل هو واجب مفروض، وأن صوت المرأة ليس بعورة، وللرجال أن يحدثوها وأن تحدثهم فى جدية بلا تكسر ولا تثن ولا إغواء[(١)].

***

(١) صور وعبر من الجهاد النبوى فى المدينة، د. محمد فوزى فيض الله، ص ٤١٠، ٤١١.

أم كلثوم الزوجة

قال ابن سعد: ولم يكن لأم كلثوم بنت عقبة رضى الله عنها بمكة زوج، فلما قدمت المدينة تزوجها زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبى فولدت له، وقتل عنها يوم مؤتة، فتزوجها الزبير بن العوام فولدت له زينب[١]، وكانت فى الزبير رضى الله عنه شدة على النساء، فسألته الطلاق فطلقها، ثم تزوجها بعد ذلك عبد الرحمن ابن عوف الصحابى الجليل، روى البخارى فى تاريخه أن النبى ﷺ دعا بُسرة بنت صفوان، وقال: «مَنْ يخطب أم كلثوم؟» قالت: فلان وفلان وعبد الرحمن بن عوف، قال: «أنكحوا عبد الرحمن من خيار المسلمين»، فأرسلت إلى أخيها الوليد: أنكحنى عبد الرحمن الساعة[٢]، وقال لها عمر رضى الله عنها: أقال لك رسول الله ﷺ انكحى سيد المسلمين عبد الرحمن بن عوف؟ فقالت: نعم[٣]، فولدت له إبراهيم وحميدًا[٤] ومحمدًا وإسماعيل. .

ولقد كانت رضى الله عنها وفية لزوجها محبة له، روى حميد بن عبد الرحمن ابن عوف عن أمه أم كلثوم - وكانت من المهاجرات الأول - فى قوله تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة: ٤٥، ١٥٣] قالت: غُشى على عبدالرحمن ابن عوف غشيَةً ظنوا أن نفسه فيها، فخرجت امرأته أم كلثوم إلى المسجد تستعين بما أُمِرَتْ أن تستعين به من الصبر والصلاة[٥].

يا لروعة الإيمان والطاعة والصبر وحسن الفهم. . لقد كانت رضى الله عنها عابدة صادقة، تقبل على الله عز وجل، مطيعة لأوامره مجتنبة لنواهيه، تفهم آيات

(١) ابن سعد ٨/ ٢٣٠.

(٢) التاريخ الصغير ١/ ١١٥، ١١٦.

(٣) الإصابة ٨/ ٢٧٤.

(٤) قال عنه ابن سعد: وكان ثقة عالمًا كثير الحديث، الطبقات ٥/ ١٥٤، وقال ابن العماد: كان عالمًا فاضلاً مشهورًا، توفى بالمدينة سنة خمسة وتسعين، وهو ابن ثلاث وسبعين سنة، شذرات الذهب ١/ ٣٨٦.

(٥) ابن سعد ٣/ ١٣٥، والمعرفة والتاريخ ١/ ٣٦٧.

الله عز وجل فتتلوها بتأمل وتدبر . . وهكذا ينبغى أن تكون المسلمة الصادقة تستنير نفسها بهدى ربها، ويتشرب قلبها بنوره وحكمته.

ولما تُوفى عنها عبد الرحمن بن عـوف رضى الله عنه تزوجها عمرو بن العاص رضى الله عنه فمـاتت عنده، وذكر البـلاذرى أنها كانت مع عـمرو رضى الله عنه بمصر(١).

أم النجباء:

ولقد أنجبت رضى الله عنها أولادًا صالحين تركوا آثارًا كريمة فى تاريخ الإسلام، ولـم لا وقد تأثروا بآبائهم فـيما ورثوه عنهم من فـضائل ومكارم جعلتـهم ينشأون على شاكلتهم، إذ كانوا رضى الله عنهم من خيرة الصحابة وكرامهم.

***

---

(١) تهذيب التهذيب ١٢/ ٥٠٤.

روايتها للحديث

- روت أم كلثوم رضى الله عنهـا عن النبى ﷺ عشرة أحاديث، أخـرج لها منها فى الصحـيحين حديث واحد مـتفق عليه، وروى لها الجـماعة سوى ابن مـاجة، وروى عنها ابناها حميد بن عبـد الرحمن بن عوف، وإبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، وحميد بن نافع وغيره..[١].

ولقد كانت رضى الله عنهـا إحدى النساء القرشيات اللائى كـان عندهن معرفة بالقراءة والكتابة[٢].

ومن مروياتها ما أخرجه البخارى ومسلم بسـنديهما عن حميد بن عبد الرحمن ابن عوف أن أمه أم كلثـوم بنت عقبة بن أبى معيط، وكـانت من المهاجرات الأُول اللاتى بايعن النبى ﷺ، أخـبرته أنها سـمعت رسـول الله ﷺ وهو يقول: «ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس ويقـول خيـرًا وينمى خـيرًا»[٣]، وقالت: ولم أسمع يُرَخَّصُ فى شىء مما يقـول الناس كـذبٌ إلا فى ثلاث: الحـرب، والإصـلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها[٤].

وروت عن النبى ﷺ أن رسـول الله ﷺ سـئل عن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فقال: «ثلث القرآن أو تعدله»[٥].

ومن مروياتها رضى الله عـنها أن النبى ﷺ قال: «أفضل الصدقـة: الصدقة على ذى الرحم الكاشح»[٦].

---

(١) الإصابة ٨/ ٢٧٤، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٢٧٧. (٢) أعلام النساء ٤/ ٢٥٥.

(٣) قال العلمـاء: المراد هنا أنه يخبر بما علمه من الخـير، ويسكت لما علمه من الشـر، ولا يكون ذلك كذبًا؛ لأن الكذب الإخبار بالشىء على خلاف ما هو به، وينمى أى يبلغ، تقول: نميت الحديث أنمية، إذا بلغته على وجه الإصلاح وطلب الخير. فتح البارى ٥/ ٣٥٣.

(٤) البـخـارى فى الصلح، باب ليس الكاذب الـذى يصلح بين الناس ٥/ ٣٥٣ (٢٦٩٢)، ومـسلم فى البـر والصلة والآداب، باب تحريم الكذب وبيان ما يباح منه ١٦/ ١٥٧ (٢٦٠٥).

(٥) الطبـرانى فى الكبـيـر ٢٥/ ٧٤ (١٨٢)، وفى الأوسط ٣٠٧، ٣٠٨، وأحـمد ٦/ ٤٠٣، ٤٠٤، وقـال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٤٧: ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٦) الطبرانى فـى الكبير ٢٥/ ٨٠ (٢٠٤)، وقـال الهيـثمى فى المجمع ٣/ ١١٦: ورجـاله رجال الصـحيح، والحـاكم فى المستـدرك ١/ ٤٠٦، وقال: صـحيح على شـرط مـسلم ولم يخرجـاه، ووافقـه الذهبى، والكاشح: هو المضمر العداوة والمقاطعة.

فضل وسبق

لقد كانت أم كلثوم رضى الله عنها من أعلام الصحابيات التى لها سبقها وفضلها، فقد أسلمت رضى الله عنها بمكة قديمًا، وصلت القبلتين، وبايعت رسول الله ﷺ، وهاجرت..[1] وكان إسلامها رضى الله عنها عن بصيرة نيِّرة، ولم يكن تقليدًا لأسرة، إذ كانت أسرتها تعادى الإسلام، ولم يكن تبعية لزوج، فقد كانت فى مكة بلا زوج.. وإنما كان إسلامها إسلام العقل والقلب والإرادة، فأخلصت لدينها من أول يوم، وثبتت عليه وضحت من أجله، وكانت طموحة عالية الهمة، فتركت الأهل والدار.. مهاجرة إلى الله ورسوله، وشاء الله عز وجل أن يمتحنها فتصدق مع الله سبحانه، مما جعل التاريخ يُصغى لها سمعه، ويكتبها فى سجل المؤمنات الخالدات..

ولئن كان علينا حق للنساء المسلمات من الرعيل الأول أن نعرف لهن فضلهن وجهادهن، فإن أم كلثوم رضى الله عنها ممن تتبوأ فى هذا المكانة الأسنى، وحسبها فخرًا وشرفًا وعلوًا، أنها كانت رضى الله عنها أول المهاجرات من النساء، قال ابن عبد البر: هى أول من هاجر من النساء وكانت هجرتها زمن الحديبية[2]، وقال الحاكم أبو أحمد فى كتابه الأسماء والكنى: هى أول مهاجرة من مكة إلى المدينة، وهى أم حميد بن عبد الرحمن بن عوف التابعى المشهور[3].

وقال ابن سعد: ولم نعلم قرشية خرجت من بين أبويها مسلمة مهاجرة إلى الله إلا أم كلثوم بنت عقبة رضى الله عنها[4].

ومن غرر فضائلها التى فاقت بها رضى الله عنها أن أنزل الله عز وجل فيها قرآنًا يُتلى على مر الزمان، ويُتعبد به على طول الأيام، ومنعها الله عز وجل

(١) أسد الغابة ٥/ ٦١٤.
(٢) الاستيعاب ٤/ ٤٨٨.
(٣) تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٦٦.
(٤) ابن سعد ٨/ ٢٣٠، وانظر: المغازى للواقدى ٢/ ٦٢٩ - ٦٣١.

بالإسلام، قال ابن الأثير: هاجرت إلى المدينة ماشية فسار أخواها خلفها ليرداها فمنعها الله عز وجل(١).

ولقد كان صحابة النبى ﷺ يعرفون لأم كلثوم رضى الله عنها قدرها ومكانتها، قال البلاذرى: كان عمر رضى الله عنه يفرض للنساء المهاجرات عطاءً، ففرض لأم كلثوم بنت عقبة ألف درهم(٢).

وفاتها:

عاشت أم كلثوم رضى الله عنها مؤثرة رضا الله عز وجل على كل شىء، ملتزمة بما عاهدت به وبايعت عليه، حتى كانت وفاتها رضى الله عنها فى خلافة على رضى الله عنه وكرم الله وجهه، تاركة وراءها ذكرًا حسنًا فى الآخرين، ومثلاً صالحًا للمؤمنات إلى يوم الدين.

تلكم هى أم كلثوم رضى الله عنها، نموذج صالح للزوجة الصالحة، والأم الفاضلة، ومثلٌ رفيع للمرأة المسلمة التى ننشدها.. رضى الله عنها وأحسن نزلها مع الأبرار والصالحين، إنه سميع عليم.

***

(١) أسد الغابة ٤/ ٦١٤.

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى، ص ٦٣٣.

أم حكيم بنت الحارث
رضى الله عنها
(١٦)

نَسَبُها

أم حكيم بنت الحارث[(١)]:

إنها المسلمة الشريفة، المؤمنة العفيفة، الصحابية الجليلة، العابدة المجاهدة..

وأبوها: الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم المجاهد الشهيد الذى بايع بيعة الموت فى إحدى معارك الشام، وجاهد حتى وفى بحق هذه البيعة ونال نعمة الشهادة.

وهو أخو أبى جهل، وقد أسلم يوم الفتح..

وأما أمها: فهى فاطمة بنت الوليد بن المغيرة المخزومية، أخت خالد بن الوليد، أسلمت يوم الفتح، وبايعت ولها صحبة.

زوجة الشهداء:

وزوجها الأول ابن عمها: عكرمة بن أبى جهل بن هشام المخزومى القرشى، أسلم بعد الفتح وحسن إسلامه، وقضى نحبه فى اليرموك شهيدًا فى سبيل الله[(٢)].

وزوجها الثانى: خالد بن سعيد بن العاص المجاهد البطل الذى نال نعمة الشهادة فى معركة مرج الصُّفَّر[(٣)].

وزوجها الثالث: هو الخليفة البطل عمر بن الخطاب الذى نال نعمة الشهادة وهو فى المحراب.

وأما خالها: فهو خالد بن الوليد سيف الله المسلول.

---

(١) ابن سعد ٨/ ٢٦١، ونسب قريش، ص ٣١١، والروض الأنف ٤/ ١١٥، وفتوح البلدان، ص ١٦٢، والإصابة ٨/ ٢٢٥، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٣١٧ (٣٨٤٢)، وأسد الغابة ٥/ ٥٧٧، والاستيعاب بهامش الإصابة ٤/ ٤٤٣، ٤٤٤، وتاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين)، ص ٨٥، وتاريخ دمشق (تراجم النساء)، ص ٥٠١، والأعلام للزركلى ٢/ ٢٦٩، وأعلام النساء ١/ ٢٨١، والبداية والنهاية ٤/ ٢٩٧، وسيرة ابن هشام ٤/ ١٠٥، وزاد المعاد ٣/ ٤١٣، وإمتاع الأسماع ١/ ٣٩٧، ٣٩٨، والوافى بالوفيات ١٣/ ٨٢.

(٢) انظر ترجمته: فى در السحابة، ص ٤٧٥، ٤٧٦، وابن سعد ٥/ ٤٤٤، ٤٤٥.

(٣) انظر ترجمته: فى تاريخ الإسلام للذهبى (عهد الخلفاء الراشدين)، ص ٩١، ومرج الصُّفَّر بالضم وتشديد الفاء بدمشق، وكانت فى المحرم سنة أربع عشرة فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

النشأة:

نشأت أم حكيم رضى الله عنها فى أسرة معادية لله ولرسوله ﷺ، فقد كان أبوها الحارث بن هشام أخا أبى جهل رأس الشرك، وزوجها عكرمة كان مشركًا كأبيه، وظلت هذه الأسرة تعادى دعوة الإسلام إلى أن أذن الله عز وجل لها بالإسلام يوم الفتح..

الفتح المبين:

ولما فتح الله عز وجل لنبيه ﷺ البلد الأمين الذى أُخرج منه قبل سنين، وأظهره على أهلها وأمكنه من رقابهم لم يزهه النصر، ولم يستخفه ذلك الفتح، ذلكم أنه ﷺ رسول داع إلى الله مبلغ عنه، لا ينتصر لنفسه ولا يطلب الثأر لذاته، فكان عفوه العام الشامل عن جميع الذين واجهوه وقاوموه، وناصبوه العداء، وقد كان ذلك فتحًا آخر فتح الله به أغلاق القلوب، وطوى به عنان النفوس، فغدت تفيض حبًا وإخلاصًا وتدين له طاعة وولاء، وتنضوى تحت لوائه ﷺ طائعة مستسلمة، وتدخل فى دينه راضية مطمئنة أفواجًا أفواجًا..

وكان من بين هؤلاء الذين أسلموا ودخلوا فى دين الله عز وجل، صحابيتنا الجليلة: أم حكيم بنت الحارث رضى الله عنها، هى وزوجها وأبوها وأمها..

روى ابن سعد فى الطبقات فى تسمية النساء المسلمات المبايعات عن عبد الله بن الزبير قال: لما كان يوم الفتح أسلمت أم حكيم بنت الحارث بن هشام امرأة عكرمة ابن أبى جهل، وأتت رسول الله ﷺ فبايعته(١).

وقال أبو عمر: حضرت - أم حكيم - يوم أحد وهى كافرة، ثم أسلمت فى الفتح(٢).

وهكذا أسلمت رضى الله عنها مع من أسلم يوم الفتح، وأقبلت على النبى ﷺ فبايعته بيعة الإسلام والإيمان، ووفت لهذه البيعة خير الوفاء.

---

(١) ابن سعد ٨/ ٢٦١.

(٢) الإصابة ٤/ ٤٤٣.

وفاء وصدق:

وكان من وفائها رضى الله عنها أن كانت سببًا فى إسلام زوجها عكرمة، الذى كان يضارع أباه فى شدة عداوته وإيذائه لرسول الله ﷺ، والذى أهدر النبى ﷺ دمه لما فعله وهو كافر، ولما فتح الله لرسوله مكة خاف عكرمة وأطلق ساقيه للريح وفر هاربًا إلى اليمن.

وعلمت أم حكيم بذلك فسارعت بالذهاب إلى النبى ﷺ فاستأذنته فى أن تذهب وراء زوجها لتعود به، فأذن لها النبى الكريم الرحيم، واستأمنته له فأمنه، فخرجت رضى الله عنها فى طلبه حتى أدركته باليمن.

وعادت به إلى رسول الله ﷺ حيث أسلم واستجاب لدعوتها، وأقرهما على نكاحهما الأول، وصار عكرمة رضى الله عنه من فضلاء الصحابة وصالحى المسلمين، وعكف على العبادة والجهاد فى سبيل الله، فكان له أعظم الأثر فى حروب الردة، ونال نعمة الشهادة فى حروب الشام.

وهكذا صدقت فراسة أم حكيم، وأنقذت زوجها؟ من القتل، ومن ضلال الشرك والكفران.

ولكن ما الذى حدث لأم حكيم فى طريقها لزوجها؟ وما الذى حدث بينها وبين زوجها عكرمة حتى أتى معها؟

قال ابن الأثير فى تاريخه: وخرجت رضى الله عنها فى طلبه ومعها غلام لها رومى، فراودها عن نفسها، فأطمعته[1] ولم تمكنه، حتى أتت حياً من العرب فاستعانتهم عليه فأوثقوه، وأدركت عكرمة وهو يريد ركوب البحر، فقالت: جئتك من عند أوصل الناس وأحلمهم وأكرمهم، وقد أمنتك، فرجع وأخبرته خبر الرومى فقتله قبل أن يُسلم، فلما قدم على رسول الله ﷺ سُرّ به فأسلم، وسأل رسول الله ﷺ أن يستغفر له فاستغفر له[2].

(١) أى أطمعته بالوعد واستمهلته إلى أجل.

(٢) الكامل فى التاريخ ١/ ١٢٣، ١٢٤.

وفى رواية: ثم انطلقت حتى أدركت زوجها باليمن، فأقبل معها حتى جاءت به إلى النبى ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ وثب فرحًا وما عليه رداء حتى بايعه(١).

إن مما نستوحيه من هذه القصة:

أولاً: خلق الوفاء، والوفاء بين الزوجين مطلب شرعى وملحظ فطرى، لقد وفت لزوجها حينما استأمنت له، وقد كان ممن أُهدر دمه ولو وجد متعلقًا بأستار الكعبة، فتسببت فى سعادته وإسلامه، ووفت له مرَّة أخرى فى حسن كياستها وكمال فطنتها لما تخلصت من العبد الخائن، ولم تُخْفِ ذلك على زوجها وهى العربية الأصيلة الأبية، ومما يذكر للعرب حتى فى جاهليتهم مما هو من محاسن الأخلاق: عفة نسائهم، وكان ذلك أمرًا اشتهرن به، لذا لما بايع النساء النبى ﷺ على بيعة سورة الممتحنة، وفيها: ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ [الممتحنة: ١٢] قالت هند بنت عتبة: أو تزنى الحُرَّة؟!

ثانيًا: ومن أخلاقها أيضًا خلق الصدق، وهو من أخص خصائص المسلم، لقد صدقت نفسها حين أسلمت لله رب العالمين، وصدقت لزوجها حين سعت فى هدايته، ولقد كانت وإياه من ألدّ أعداء الإسلام، لكن الله هداها فصدقت وبرّت، وما أصدق فراستها حين أبلغت فى وصف الرسول ﷺ وشمائله أمام زوجها وهى ترغبه فى الحق وتبصره بالحقيقة الغائبة عنه، لقد قالت: لقد جئتك من عند أوصل الناس وأحلمهم وأكرمهم، ومن صدقها عفتها وطهارة عرضها.

ومن أخلاقها أيضًا كمال عفتها وإعزازها بدينها، فهو الذى عصمها بأمر الله من الزلل، ومن النساء من تسقط فى وحل الرذيلة والخيانة فى لحظة ضعف واستكانة، ولا تصمد شامخة أبية إلا ذات الأخلاق المصون(٢).

وها هو عكرمة زوجها الحبيب الذى تجشمت المشاق من أجله، وعرضت نفسها للخطر على عرضها ونفسها لإنقاذه، ها هو عكرمة وقد التقت معه وهما وحيدان فى الصحراء يطلب منها ما يطلب المرء من زوجته، إنه ليس غلامها الرومى، إنه

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء)، ص ٥٠٢.

(٢) مائة درس من السيرة النبوية، د. عبد الرب نواب الدين، ص ١٨٢، ١٨٣.

زوجها الحبيب المفدى بالروح والنفس والمهج، ومع ذلك تفعل معه ما فعلته مع غلامها الرومى، وتفيض البسمة من وجهه ويبدأ وجهه يقطب إيذانًا بالغضب بعد العتب، لِمَ تتمنع منه؟ وكان الدرس الثانى الذى يعادل درس خطر الموت الذى تلقاه من زوجته أم حكيم، وأعطاه دفعة أو دفقة كهربية جديدة، جعلت الإيمان يجد ملاذًا له فى قلبه بعد كسر الران من الحقد والكفر الذى انهار.

(وجعل عكرمة يطلب امرأته يجامعها، فتأبى عليه، وتقول: إنك كافر وأنا مسلمة، فيقول: إن أمرًا منعك منى لأمر كبير)[1].

ولو لم يكن شعاع الإيمان قد نفذ إلى قلبه؛ لكان قد ثنى بها بعد غلامها الرومى، وقتلها لإسلامها وتمنُّعها عنه، لكنه قد تغير، وهو يرى فى زوجته ذلك الملاك الطاهر الذى يقوده إلى محمد بن عبد الله، ويذلل كل العقبات التى كانت تحول بين عكرمة وابن عمه محمد ﷺ، فهو لن يجد حرجًا أو يبحث عن وساطة للدخول عليه، بعد أن أخذت له زوجه الأمان منه[2].

إن الزوجة المؤمنة الوفية هى التى تأخذ بيد زوجها إلى الله، تذكره إذا نسى، وتعينه إذا ذكر، وتقويه إذا ضعف أو فتر عن طاعة أو عبادة، وإنه لشرف للمسلمة أن ترعى زوجها وتتعهده وتهتم بحاله مع ربه، فى مصبحه وممساه، وفى متقلبه ومثواه.. وللمرأة المسلمة فى أم حكيم رضى الله عنها أسوة حسنة فى الوقوف إلى جانب زوجها وعدم التخلى عنه، وبخاصة عند الشدائد والملمات.

***

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٧٩.

(٢) المنهج التربوى للسيرة النبوية ٢/ ٤٧٠، ٤٧١.

المجاهدة

كانت أم حكيم رضى الله عنهـا من النساء المجاهدات التى خـرجت فى المعارك من أجل نصرة الدين والجهاد فى سبيله، فقد شهدت رضى الله عنها وقعة اليرموك مع زوجها عكرمة، وأبلت فـيها بلاءً حسنًا، وقاتلت مع النساء أشـد القتال، قال البلاذرى: وقـاتل يوم اليرموك نسـاءٌ من نساء المسلمين قتـالاً شديدًا. .[١]، وقال إسحاق بن بشر القرشى: وكـان أمر اليرموك أن الروم لما صافَّت[٢] سار هرقل إلى الروم حتى نزل أنطاكـية ومعـه المستعربة: لخـم، وجذام، وبَلْقين، وبلى. . وتلك القبائل من قضاعة[٣]، ومعه من أهل أرمينية اثنا عشر ألفًا، فلما نزل أنطاكية بعث القيقلان - خصيًا له - فسار بمائة ألف. . وسار المسلمون وهم أربعة وعشرون ألفًا عليهم أبو عبيدة بن الجراح، فالتقوا بالـيرموك فى سنة خمس عشرة، فاقتتل الناس قتالاً شـديدًا حتى دخل نساء عسكر المسلـمين، فقاتل نساء من قريـش بالسيوف، حتى دخل العسكر منهن أم حكيم بنت الحارث بن هشام، حتى سابقن الرجال[٤].

وقال سعيد بن عبد العزيز: التقوا على النهر عند الطاحونة، فقُتلت الروم يومئذ حتى جرى النـهر، وطحنت طاحونتها بـدمائهم، فأنزل النصر، وقتـلت يومئذ أم حكيم سبعة من الروم بعمود فسطاطها، وكانت تحت عكرمة بن أبى جهل. .[٥].

لقـد سطرت أم حكيم رضى الله عنهـا بهذا الموقف الشـجاع أعلى وأغلى مـا تقدمـه امرأة فى سبـيل الله، لتبقى كـل امرأة مسلمـة حتى يرث الله الأرض ومن عليها ترنو إليها، ويهفو قلبها إلـى الاقتداء بها، فلا تبخل بشىء فى سبيل الله بعد أن جادت بنفسها فى سبيل الله، ولكن الله قدر لها البقاء.

---

(١) فتوح البلدان، ص ١٨٤.

(٢) صف الجيش يصفه صفًا، وصافّه إذا رتب صفوفه فى مقابل صفوف العدو.

(٣) قضاعة: شـعب عظيم اختلف النسابون فيه فـقالوا: من حمير، من القحطانيـة غلب عليهم اسم أبيهم، فقـيل لهم قضاعـة، وهم بنو قضاعة بن مـالك بن عمرو بن مـرة بن زيد بن مالك بن حمـير، وذهب بعضهم إلى أن قـضاعة من العدنانية، ويـقولون: هو قضاعة بن مـعد بن عدنان، معجم قـبائل العرب القديمة والحديثة ٣/ ٩٥٧.

(٤) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النسـاء) ص ٥٠٦.

(٥) تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين) ص ٨٥.

إن هذا الدين لا يكتب له النصر، إذا لم يُبذل فى سبيله الروح، ولا شىء يمكِّن له فى الأرض مثل الثبات فى مواجهة الأحداث والأزمات، واسترخاص التضحيات من أجله.

إن لكل شىء ثمنه فى هذه الحياة، وثمن هذه الدعوة: دمٌ زكىٌّ طاهر يهراق فى سبيل الله، والدعوة إلى الله عز وجل، أسنى مطالب المسلم وأسمى أهداف الإنسانية لو تجردت من أهوائها ومصالحها..

لقد كانت مهمة أم حكيم فى معركة اليرموك وهى مع زوجها أن تحمل الماء على ظهرها، تسقى المؤمنين، وتضمد جرحى المكلومين، وتدعو للصحابة المجاهدين، وتحرضهم على الرمى، وتحثهم على الاستبسال والصمود... وقد قامت بمهمتها -مع النساء المجاهدات - على أحسن وجه، فلما تغير وجه المعركة، وشمرت عن ساقيها، ووقعت ساعة الحرج العصيبة، انحازت إلى صفوف المجاهدين تباشر القتال، فأظهرت من ضروب الشجاعة والإقدام ما لم يبده كثير من الأبطال، حيث أردت عددًا من العلوج على أرض المعركة.

وقد كان لهذا الموقف أكبر الأثر فى تثبيت المجاهدين وصمودهم، حتى كتب الله عز وجل لهم النصر على الروم.

وفى اليرموك نال زوجها عكرمة رضى الله عنه نعمة الشهادة، وسلك طريقه إلى جنات الخلود.

ثم تزوجت أم حكيم رضى الله عنها من خالد بن سعيد بن العاص بعد أن اعتدت أربعة أشهر وعشرًا على زوجها عكرمة، ولم يطل زواج خالد رضى الله عنه بأم حكيم، حيث أراد الدخول بها عقب عقده عليها، ولكن المسلمين كانوا فى انتظار موقعة من مواقع الإسلام الفاصلة، وهى مرج الصُّفَّر، فجعلت رضى الله عنها تقول له: لو أخرت الدخول حتى يفض الله هذه الجموع، فقال لها خالد: إن نفسى تحدثنى أنى أصاب فى جموعهم، قالت: فدونك، فأعرس بها عند القنطرة التى بالصفر، فبها سميت قنطرة أم حكيم، وأولم عليها فى صبح مدخله، فدعا

أصحابه على طعـام، فما فرغوا من الطعام حـتى صفت الروم صفوفها، صـفوفًا خلف صفوف، ووقع القتال واشتدت المواجهة، وبرز خالد وجاهد جهاد الأبطال، حتى نال نعمة الشـهادة فى سبيل الله، وشدت أم حكيم بنت الحارث عليـها ثيابها وعدت، وإن عليـها أثر الخلوق فى وجهـها[1]، فاقـتتلوا أشد القتـال على النهر، فصبـر الفريقان جميـعًا، وأخذت السيوف بعـضها بعضًـا، فلا يرمى بسهم، ولا يطعن برمح، ولا يرمى بحـجر، ولا يُسـمع إلا وقع السيوف علـى الحديد، وهام الرجال وأبدانهم، وقـتلت أم حكيم يومئذ سـبعة بعـمود الفسطاط الذى بات فـيه خالد بن سعيد مُعْرسًا بها[2].

لقد ثبتت أم حكيم رضى الله عنها مع الأبطال المجاهدين وقت الشدة والضيق، إذ حمى الوطيس، واحمرت الحدق، وزلزل الأبطال من الرجال، ولم ترض رضى الله عنها أن تقعد عن القتال، وهى العـروس التى مازال أثر الطيب عليها، فقامت لتثأر لدينهـا وتنهض لواجبها، وانتفضت كـاللبؤة الكاسرة، وانتضت عمـود خيمة عرسها لتقاتل به، وصـبرت صبرًا جميلاً على استشهاد زوجـها الحبيب، ولم يثنها الحزن عليه عن القيام بأداء دورها.

فلله درها، ما أعظم إيمانها وثبـاتها! وما أروع صبرها! وما أكبـر فضلها! كيف استطاعت أن تبتلع مرارة حـزنها على الفقيد الحبيب، وتتـجمل بالصبر، ثم تهب لنصرة الدين؟! إنه الإيمان الحق، واليقين الصادق.

وها هى رضى الله عنها تخرج من المعركة سالمة، وإن أصابتها طعنات وجراح، ويتألق اسـمها العظيم فـى تاريخ المجاهدات فى سبـيل الله عز وجل، وكان أمـير المؤمنين عمر رضى الله عنه قد أعجب بها وببطولتها فتزوجها[3]، وهى الثيب التى تزوجت قبله بأكثر من زوج، ولكنها صاحبة البطولة والشجاعة والقوة.

---

(١) الخلوق: نوع من الطيب.

(٢) تاريخ مـدينة دمـشق، ص ٥٠٥، وأسد الغـابة ٥/٥٧٧، وفـتوح البلدان، ص ١٦٢، والاسـتيعـاب ٤/٤٤٣، ٤٤٤.

(٣) تاريخ مدينة دمشق، ص ٥٠٣، وفيه: أن عمر رضى الله عنه قد تزوج بأم حكيم، فولدت له فاطمة بنت عمر، فتزوج فاطمة عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، فولدت له عبيد الله بن عبد الرحمن بن زيد.

ومن عجيب قدر الله عز وجل لهذا الزوج الكريم عمر بن الخطاب أن يموت هو الآخر شهيدًا، وكأن الله عز وجل قد أراد لأم حكيم ألا تبعد عن دماء الشهداء الزكية لتظل موصولة الأسباب بمعانى التضحية والفداء، إذ مات عمر شهيدًا فى المحراب، كما دعا ربه عز وجل: اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك واجعل موتى فى بلد رسولك ﷺ، واستجاب الله عز وجل لعمر، فمات وهو يؤم جموع المصلين فى مسجد رسول الله ﷺ فى المدينة[١].

وهكذا.. لقد أسهمت رضى الله عنها بنصيبها البارز فى التسامى بمكانة المرأة المسلمة إلى مرتقى كريم، وما أجمل أن تستظل المرأة مع الرجل بظلال اليقين والإيمان.

وفاتها:

ظلت أم حكيم رضى الله عنها وفية بما عاهدت وبايعت عليه، صابرة محتسبة حتى توفيت فى خلافة زوجها عمر رضى الله عنهما.

رضى الله عنها وأرضاها، وجعلها فى الأولين فى جنات النعيم.

***

(١) موسوعة الفداء فى الإسلام ٢/٥٢٩، ٥٣٤.

هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ
رضى الله عنها
(١٧)

نَسَبُها

هند بنت عتبة(١):

أبوها: عتبة بن ربيعة بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، كبير قريش وأحد ساداتها فى الجاهلية، قتل يوم بدر.

وأما أمها: فهى صفية بنت أمية بن حارثة بن الأوقص بن مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان بن ثعلبة بن بُهثة بن سليم، وأمها أمة بنت نوفل بن عبد مناف.

وعمها شيبة بن ربيعة، من زعماء قريش فى الجاهلية، وقد أدرك الإسلام وقُتل على الوثنية.

وأما زوجها: فقد تزوجت الفاكه بن المغيرة المخزومى، أحد فتيان قريش وفصحائها فى الجاهلية، فولدت له أبانا، وقد عانت من سوء ظنه بها ما حملها على فراقه، وذلك فى خبر طويل من أخبار الجاهلية يُعد من غرائب الكهانة(٢)، ثم خلف عليها أبو سفيان صخر بن حرب القرشى الأموى، وهو مشهور باسمه وكنيته، أسلم وأبلى فى الإسلام بلاء حسنًا، وولدت له معاوية بن أبى سفيان بمكة وأسلم يوم فتحها.

***

(١) ابن سعد ٨/ ١٧٠، وأسد الغابة ٥/ ٥٦٢، ٥٦٣، والإصابة ٨/ ٢٠٥، ٢٠٦، والاستيعاب ٤/ ٤٢٤-٤٢٧، والثقات ٣/ ٤٣٩، وتاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين)، ص٢٩٨، ٢٩٩، وتاريخ دمشق (تراجم النساء) من ٤٣٧-٤٥٩، والمعارف ص٧٢، ٣٤٤، وجمهرة أنساب العرب ص٧٦، ٧٧، وفتوح البلدان ص١٨٤، والمغازى ١/ ٢٨٦، ٢/ ٨٢٣، ٨٢٥، وخزانة الأدب ٣/ ٢٦٤، ٢٦٥، وأعلام النساء ٥/ ٢٣٩-٢٥١، والمعجم الكبير ٢٥/ ٦٩-٧٣، والبداية والنهاية ٧/ ١٤٩، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٥٧، والدر المنثور، ص٥٣٧، ٥٣٨، ومجمع الزوائد ٩/ ٢٦٤، ٢٦٥، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٣١٠ (٣٧٥٢)، والروض الأنف ٤/ ١١٤، والأعلام ٨/ ٩٨، وتاريخ خليفة ص٢٠٣، وفتح البارى ٧/ ١٤١، ٩/ ٥٠٨، والعقد الثمين ٨/ ٣١٥ (٣٤٨٠)، وجمهرة النسب، ص٤٩، ٥٠.

(٢) انظر: مجمع الزوائد ٩/ ٢٦٤، ٢٦٥، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ص٤٤١، ٤٤٢.

قبل الإسلام

قال ابن حجر: أخبارها قبل الإسلام مشهورة، وشهدت أُحدًا وفعلت ما فعلت بحمـزة، ثم كانت تؤلب وتحـرض على المسلمين إلى أن جاء الله بالفـتح، فأسلم زوجها، ثم أسلمت هى يوم الفتح(١).

في بدر:

ولما كانت وقعة بدر قتل فـيها عتبة أبوها وشيبة عمهـا والوليد أخوها، فأقبلت هند ترثيهم، وبلغـها تسويم(٢) الخنساء هودجـها فى الموسم، ومعـاظمتهـا العرب بمصيبـتها بأبيهـا عمرو بن الشريد وأخـويها صخر ومـعاوية، وأنها جعلـت تشهد الموسم وتبكيهم وقد سومت هودجها براية، وأنها تقول: أنا أعظم العرب مصيبة، وأن العرب قـد عرفت لها بعض ذلك، فلـما أصيبـت هند بما أصيبت به وبلغـها ذلك، قالت: أنا أعظم من الخنساء مصيبة، وأمرت بهودجها فسُوِّمَ براية، وشهدت الموسم بعكاظ، وكانت سـوقًا يجتمع فيـها العرب، فقالت: اقـرنوا جملى بجمل الخنساء، ففـعلوا فلما أن دنت منها، قالت لها الخنساء: من أنت يـا أُخية؟ قالت: أنا هند بنت عتبة أعظم العرب مصيبة، وقد بلغنى أنك تعاظمين العرب بمصيبتك، فبم تعاظمينهم؟ فقالت الخنساء: بأبى عمرو بن الشريد وصخر ومعاوية ابنى عمرو وبم تعاظمـينهم أنت؟ قالت: بأبى عتـبة بن ربيعة وعـمى شيبة بن ربيـعة، وأخى الوليد، قالت الخنساء: أو سواء هم عندك؟ ثم أنشدت تقول:

أبكى أبى عـمـرًا بعين غـزيرة ... قليـل إذا نام الخلى هـجـودها(٣)

وصنوى لا أنسـى مـعـاوية الذى ... له من سـراة الحـرتين(٤) وفـودها

(١) الإصابة ٨/ ٢٠٥.

(٢) سوّم الشيء: جعل له سومة وعلامة ليعرف بها ويتميز.

(٣) هجد القوم هجودًا أى ناموا.

(٤) الحرة: الأرض ذات الحجارة السود النخرة، والمراد بالحرتين: حرة بنى سليم وحرة بنى هلال بالحجاز، أى هو مقصد الأشراف من القبائل تأتيه وفودها فيما يلم بها.

وصخراً ومَن ذا مثل صخر إذا غدا؟ بساهمة الآطال قُبّاً يقودها[١]

فذلك يا هند الرزية فاعلمى ونيرانُ حربٍ حين شبّ وقودها

فقالت هند تجيبها:

أبكى عميد الأبطحين[٢] كليهما وحاميهما من كل باغٍ يريدها

أبى عتبة الخيرات ويحك فاعلمى وشيبة والحامى الذِّمار وليدها

أولئك آل المجد من آل غالب وفى العزِّ منها حين ينمى عديدها[٣][٤]

عادت هند والألم يعتصر قلبها، وراحت تنشد مرثيتها الباكية:

أعينى جودا بدمع سرب على خير خندف[٥] لم ينقلب

تداعى له رهطه غدوة بنو هاشم وبنو المطلب

يذيقونه حدَّ أسيافهم يُعلونه بعدما قد عُطب[٦]

فى أحد:

وهكذا مضت هند تذكر قتلاها ليل نهار لاتهدأ ثورتها ولا ينطفئ ثأرها، حتى كانت معركة أحد حيث كان لهند فيها الدور البارز فى صفوف المشركين، فخرجت معهم تقود فريق النساء، ولما كان اللقاء ودنا بعضهم من بعض قامت هند فى النسوة اللاتى معها وأخذت الدفوف يضربن بها خلف الرجال ويحرضنهم.

ثم كان دورها فى التدبير لقتل قادة المسلمين، ونجحت فى تدبير قتل حمزة عم الرسول ﷺ عن طريق وحشى عبدها الذى وعدته وأعدته لذلك، ثم ما كان منها فى تمثيلها بقتلى المسلمين، واتخاذها من آذان المسلمين وأنوفهم خلاخل فى

---

(١) الساهمة: الدقيقة، والآطال، جمع إطل بالكسر وهو الخاصرة، والقب: جمع أقب وقباء، وهى الفرس الدقيقة الخصر الضامرة البطن.

(٢) عميد: سندهم وسيدهم، وتريد بالأبطحين: بطحاء مكة وسهل تهامة، وأصل الأبطح: المسيل الواسع فيه دقاق الحصى.

(٣) عديدها: جموعها. (٤) الأغانى ٤/ ٢١٠-٢١٢.

(٥) خندف: سريع فى مشيه. (٦) أعلام النساء ٥/ ٢٤٢، ٢٤٣.

الأرجل، وقلائد تعلق فى الصدور، ثم لم تكتف بهذا بل بقرت بطن حمزة رضى الله عنه، وأخرجت كبده فلاكتها فى فمها فلم تستطع أن تستسيغها فلفظتها[1].

وبعد هذا علت هند على صخرة عالية لتصرخ بأعلى صوتها:

نحـن جـــزينـاكم بيـــوم بدر والحـرب بعـد الحرب ذات سـعـرِ
مـاكان عن عـتبة لـى من صبـر ولا أخى وعـــمـــــه وبـكرى
شـفـيت نفـسى وقـضـيت نذرى شـفـيت وحـشـى غليل صـدرى

ولم تكد هند تغادر الصخرة التى علتها حتى سمعت من يرد عليها:

خــــزيـت فى بـدر ويوم بـدر يا بـنت وقـــاعٍ عظيـم الكفـــر
صـــبـحك الله غـــداة الفـجـــر مع الهـــاشـمـيين والـطوال الزُهر
بكـل قطاع حـــســام يفـــرى حـمـــزة ليـثى وعلى صـــقـرى
إذ رام شــــيب وأبـوك غـــدرى فـخـضـبنا منـه ضـواحى النحـر
ونذرُكِ الســوء فــشـر نذر[2]

إلى هذا الحد كـانت تتمـادى فى عداوتهـا للإسلام والمسلمين ولم تتـوقف مرة خلال العمر الذى قضته قبل أن تسلم عن إظهار عداوتها، وظلت على عنادها هذا حتى فتح الله مكة، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا.

(هذه صـورة من أخلاق قـريش قـبل الإسـلام؛ وإلى هؤلاء ومن هؤلاء بُعث الرسول ﷺ ليـقوّم هذه الأخلاق، ويذيب هذه الأحـقاد، ويزرع محلهـا الأخوة والتضـحية والبذل، والإيثـار، واستطاعت دعوة محـمد ﷺ أن تستأصل الكثـير السيئ من هذه الرواسب الجاهليـة، وأن تستبدله بحميد الخـصال وجميل الآداب، ومحـاسن الأخلاق ومكارمهـا، ومن هؤلاء أخرجت الدعوة الإسـلامية خيـر أمة أُخرجت للناس، فى الأخلاق والسلوك والعقيدة، والتزام الإحسان فى كل شىء.

(١) انظر: السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، د. مهدى رزق الله أحمد، ص٣٩٨.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٦٩.

فما أعظم فضل الإسلام على العرب والإنسانية؟ وماذا عسى أن يكتب التاريخ عن العرب، وهذه صور من فظائعهم وخصالهم، لو لم يشرق الإسلام فى ربوعهم، ولو لم يصقل نفوسهم، ويطهر قلوبهم من عفن الشرك ولوث الكفر؟

لقد تأخر إسلام هند واستمرت مقاومتها للإسلام، حتى كان الفتح فدخلت فى دين الله عز وجل عن قناعة ويقين، وحسن إسلامها، واستقامت على طريقته، وتخلقت بأخلاقه)[1].

ومما يذكر لها فى جاهليتها، ما أثر من حديث مروءتها مع زينب بنت رسول الله ﷺ فى هجرتها -رغم ما كان بينها وبين النبى ﷺ- إذ إنها لما علمت بعزم زينب على الهجرة إلى المدينة، ذهبت إليها فى هدأة من الليل، وقدمت لها المعونة، وعرضت عليها المساعدة قائلة لها: أى ابنة عمى، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق فى سفرك، أو بمال تبلغين به إلى أبيك فإن عندى حاجتك.

وقد شهدت زينت رضى الله عنها لها بالصدق، فقالت: لقد علمت أنها ما قالت ذلك إلا لتفعل، فأى امرأة هذه! إنها وهى فى شدة عدائها للنبى ﷺ وفى ذروة الشر والحقد والألم لم يدفعها كل ذلك أن تنزل هذا الحقد كله بزينب بنت النبى ﷺ، بل إنها تؤكد لها عزمها فى ذلك، فتقول: لا تكذبينى فإن ما بين الرجال لايتعداهم إلى النساء، فإن أحوجك معونة من مال أو عمل، فإن أولى بإسعادك ابنة عمك.

ولما علمت هند أن قريشًا عرضوا لزينب فى هجرتها، غضبت من هذه الفعلة المشينة، وقالت لكبار مَن حضر هذه الفعلة: أمعركة مع أنثى عزلاء؟ فهل كانت هذه الشجاعة يوم بدر؟ ثم قالت:

أفى السلم أعيارًا جفاء وغلظة ... وفى الحرب أشباه النساء العوارك[2]

---

(١) صور وعبر من الجهاد النبوى فى المدينة، د. محمد فوزى فيض الله، ص١٢٩، ١٣٠.

(٢) أعيارًا: جمع عير بالفتح، الحمار أهليًا كان أم وحشيًا، وهو مثل فى البلادة والجهل، والعوارك: جمع عارك، وهى الحائض من عركت المرأة تعرك عروكًا، أى حاضت، وبختهم وقالت لهم: أتجفون الناس وتغلظون عليهم فى السلم، فإذا أقبلت الحرب لنتم وضعفتم كالنساء الحيض؟! خزانة الأدب ٣/ ٢٦٣، ٢٦٤، وانظر هذه القصة فى: السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٥٣-٦٥٦، ط دار المعرفة، بيروت، بتحقيق مصطفى السقا وآخرين.

(إن المرأة كل المرأة مسلمة وغير مسلمة، مدعوة أن تتعلم أدب الخصومة من أكبر حاقدات التاريخ هند بنت عتبة، وعلى المسلمة أن تنأى بنفسها عن الصورة المحذورة للمرأة حين تتابع هواها وعواطفها ولا ترعوى عن شيء حين تحارب أخواتها أو مخاصماتها، فتبذل كل طاقاتها فى محاولة لإشعال النار فى كل بيت، وضد كل من تكره، إنها النار فى الدنيا والآخرة، وكم على المرأة المسلمة أن تقف وتتأنى، أن ترعوى وتحذر حتى لاتدخل هذا الغمار دون أن تشعر، فإذا بها تتصرف تصرف أهل النار..)[1].

***

(١) هند بنت عتبة، د. منير محمد الغضبان، ص١٠، ١١، بتصرف.

إسلام وبيعة

ما أجمل الهداية إلى الحق ولو بعد طول الإعراض عنه، وما أحسن الاهتداء إلى الصواب، ولو بعد امتداد الحبال من الإنسان فى الضلال والخسران، وإن رحمة الله عز وجل التى وسعت كل شىء لاتضيق منافذها الرحيبة عن قبول أى راجع عائد من حمأة الكفران إلى صراط الإيمان، ومن ظلمات الشرك إلى نور التوحيد.

والله جل وعز يحث عباده الشاردين عن رحاب طاعته ورضاه، لكى يسارعوا بالرجوع إلى مواطن محبته وهداه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وكم من أناس أسرفوا فى الباطل، وتوسعوا فى الإثم ثم أدركتهم عناية الله عز وجل، فإذا هم يقلعون عن غيهم، ويفرون من سيئات ماضيهم، ويقبلون على رحاب ربهم، يغسلون بدموع الندم والتوبة أقذار آثامهم وأوساخ ذنوبهم، ويهدمون بأيدى العزيمة والشدة آثار بغيهم وطغيانهم، ويشيدون بجدهم واجتهادهم صروح طاعاتهم وقرباتهم، وإذا هم من الصالحين السعداء، بعد أن كانوا من الأشقياء التعساء، وإذا هم من المجاهدين الشهداء، أهل التضحية والبذل والفداء، بعد أن كانوا يناصبون الإسلام والحق أشد العداء.

وهند بنت عتبة نموذج من هؤلاء، قضت عشرين عامًا فى عداوة مفرطة لرسول الله ﷺ ودعوته، وحسبنا ما ذكرناه عنها أنها آكلة الأكباد، وأنها كانت من أشد المعاندين، وأنها قادت النسوة المشركات فى أحد.. ولكن عناية الله بها فتحت أمامها الطريق إلى الإيمان، ففتح الله على رسوله مكة وانتصر لدينه انتصارًا مبينًا، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا، وشاء الله عز وجل أن يفتح قلبها للإيمان كما فتح مكة بالإسلام فأعلنت إسلامها، حيث أجمعت الروايات أن إسلام هند كان يوم الفتح، بعد إسلام زوجها أبى سفيان بليلة، وحسن إسلامها(١).

(١) الإصابة ٨/ ٢٠٥، وأسد الغابة ٥/ ٦٣، وتاريخ دمشق (تراجم النساء)، ص٤٤٩، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٥٧، وتاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين) ص ٢٩٨.

أما عن قصة إسلامها، فتقول الروايات مع الجمع بينها: إن هندًا قالت لأبى سفيان: إنما أريد أن أتابع محمدًا، قال: قد رأيتك تكرهين هذا الحديث أمس، قالت: إنى والله ما رأيت الله عُبِد حق عبادته فى هذا المسجد قبل الليلة، والله إن باتوا إلا مصلين قيامًا وركوعًا وسجودًا، قال: فإنك قد فعلت ما فعلت، فاذهبى برجل من قومك معك، فذهبت إلى عثمان- وفى رواية عمر- ومعها نسوة ممن أسلمن، فذهب معها فاستأذن لها، ودخلت وهى متنقبة متنكرة لحدَثها، وما كان من صنيعها بحمزة، فهى تخاف أن يأخذها رسول الله ﷺ بحدَثها ذلك.

فقالت: يارسول الله الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه لتنفعنى رحمك يامحمد(١)، إنى امرأة مؤمنة بالله مصدقة برسوله، ثم كشفت عن نقابها، وقالت: أنا هند بنت عتبة، فقال رسول الله ﷺ: «مرحبًا بك»، فقالت: والله يارسول الله ما كان على الأرض من أهل خباء أحب إلىّ من أن يذلوا من أهل خبائك، ولقد أصبحت وما على الأرض أهل خباء أحب إلىّ من أن يعزوا من أهل خبائك، فقال رسول الله ﷺ: «وزيادة».

ثم قرأ رسول الله ﷺ عليهن القرآن وبايعهن، وقال: «تبايعننى على أن لا تشركن بالله شيئًا»، فقالت هند: والله إنك لتأخذ علينا أمرًا ما تأخذه على الرجال، وسنؤتيكه، فقال النبى ﷺ: «ولاتسرقن» قالت: والله إن كنت لأصيب من مال أبى سفيان الهنة والهنة، وما أدرى أكان ذلك حلالاً لى أم لا، فقال أبو سفيان وكان شاهدًا لما تقول: أمَّا ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حِل(٢)، فقال رسول الله ﷺ: «وإنَّك لهند بنت عتبة»، فقالت: أنا هند بنت عتبة، فاعف عما سلف عفا الله عنك، قال: «ولا تزنين» قالت: يارسول الله ﷺ هل تزنى الحرة؟!. قال: «ولا تقتلن أولادكن»، قالت: قد ربيناهم صغارًا، وقتلتهم يوم بدر كبارًا فأنت وهم أعلم، فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب، قال: «ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن»، قالت: والله إن إتيان البهتان لتقبيح ولبعض التجاوز أمثل، قال: «ولاتعصيننى فى معروف» قالت: ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد

(١) وفى رواية: لتمسنى رحمتك يا محمد.

(٢) وفى رواية قالت: وهل تسرق الحرة؟

أن نعصيك فى معروف، فقال رسول الله لعمر: «بايعهن، واستغفر لهن الله»، فبايعهن عمر، وكان رسول الله ﷺ لايصافح النساء، ولايمس امرأة ولا تمسه امرأة إلا أمرأة أحلَّها الله أو ذات محرم منه(١).

دروس وعبر:

وكم فى إسلام هند بنت عتبة رضى الله عنها من دروس وعبر، ينبغى لنا أن نتوقف عندها لننتفع بها ونستفيد منها، (فلقد وجدنا فى هند رضى الله عنها نموذج المرأة الحرة العفيفة.. المرأة القيادية القوية مستوية الشخصية، ناضجة التفكير، عاشقة البطولة، وهذه كلها من علائم المرأة العربية الحرة قبل أن تمسها نسائم النبوة، أو يخالط قلبها عبير الدعوة الجديدة، وزادها الإسلام أصالة وعمقًا ونضجًا وهدى، وإنها الفطرة الأصيلة، والمعدن الثمين من البشر، الذى مثله حديث رسول الله ﷺ: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا»(٢).

فنقاء الفطرة وطهارة المعدن يتمثل فى قولها: يارسول الله وهل تزنى الحرة؟ هكذا بفطرتها البشرية الأصيلة النقية التى لم يدخلها انحراف الإباحية، لايمكن للحرة أن تزنى، تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها، فما تزنى إلا ذات النفس المنحطة الهابطة المنحلة، أما وهى حرة كريمة فلا، وحق لهند بنت عتبة أن تقول ذلك، وصدقت وبرت: فهل تزنى الحرة؟)(٣).

أما كونها قيادية فى مواقفها، قوية فى شخصيتها، فنلمس ذلك، فى قيادتها للنساء المشركات فى الصد عن سبيل الله، وحملها لواء التحريض على المسلمين فى أحد، وقيادتها لهن فى التمثيل بقتلى المسلمين وشهدائهم، ثم ها هى تتحول من النقيض إلى النقيض، فتقود نسوة قريش إلى الإيمان، ليسلمن على يد النبى ﷺ ويبايعنه، ثم

(١) روى بعضه البخارى فى المناقب، باب ذكر هند بنت عتبة ٨/ ١٤١ (٣٨٢٥)، ومسلم فى الأقضية باب هند ١٢/ ٧-١٠(١٧١٤)، وانظر: ابن سعد ٨/ ١٧١، ١٧٢، والطبرانى فى الكبير ٢٥/ ٧١، ٧٢.

(٢) البخارى فى المناقب، باب قول الله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى...﴾ [الحجرات: ١٣] وما ينهى عن دعوى الجاهلية ٦/ ٥٢٥ (٣٤٩٣) (٣٤٩٦) وباب علامات النبوة ٦/ ٦٠٤ (٣٥٨٨)، ومسلم فى الفضائل، باب خيار الناس ١٦/ ٧٨، ٧٩ (٢٥٢٦).

(٣) هند بنت عتبة، د. منير محمد الغضبان، ص١٩٤.

تراجع النبى ﷺ ولا تترك فقـرة إلا وهى تجيب عليها فى شجاعة وجـرأة، فقد كانت رضى الله عنها- كما قال ابن الأثير- امرأة لها نفس وأنفة ورأى وعقل[1].

(ونتجه فى الحـديث عن هذا الجانب لأخواتنا المؤمنات، فـلايكفى للأخت المسلمة أن تحفظ بضع آيات من القرآن، وعددًا من الأحاديث الشريفة، وتقرأ بعض الكتيبات، وتحـافظ على الصلوات المكـتوبـات، لتؤدى دورهـا العظيم فى هذه الحـيـاة، إن بناء الشخـصية المسلمـة المتميزة على ضـوء الفطرة التى فطرها الله تعالى عليـها تُزرع منذ الطفولة، وإذا فات الأخت المسلمـة بعد هذه المعالم، فهى فى المستقـبل أم ومربية، أم تربى الأبطال، وأم تنشىء العظيمات من النساء بلاغة وفصاحة، وعبقرية ووعيًا وفكرًا وغير ذلك، فليكن هذا النموذج الأنثوى حيًا بين أيديهن يضعن أولادهن على ضوئه.

ثم إننا نجد فى هند النموذج الذى أزاح الإسلام غشاء قلبه، فغدت إنسانًا آخر، تجاوز كل الحقد، وكل الألم، وكل البغض، وكل الكراهية؛ ليكون لبنة فى الصف المسلم، وإنها حـقًا المعجـزة، إننا نجد أن أختًـا مسلمة تتـأذى من كلمة من أخت مسلمة لهـا وتختصمان، ثم تمر الأيام والشـهور والسنون، والقلب جاف، والحب فاتر، والألم جاثم فى الصدر، فكيف استطاعت هند أن تغدو إنسانًا آخر؟

إنها عظمة هذا الإسلام، وعظمة هذه العقيدة التى ندعو إليها الفتيات الموغلات فى المعصية، الحاملات لواء الحرب على الإسلام؛ أن أقبلوا يا أخواتنا فعنصر الخير كامن فى أعماقكن، أن هلموا فلن تـكنَّ أعدى من هند، ومع ذلك عادت لتحمل اللواء من جديد، لواء الدعوة إلى الله.

وإذا كانت نماذج الرجال كثيرة فى هذا المجال: عمر بن الخطاب، خالد بن الوليد، عمرو بن العاص، أبو سـفيان بن حرب، عكرمة بن أبى جهل، صـفوان بن أمية، يزيد بن أبى سفيان، سهيل بن عمرو.. نماذج الرجال الذين غيروا الموقع كاملاً، من قيادة فى الجـاهلية إلى قيادة فى الإسلام، فنموذج هنـد يكاد يكون النموذج النسائى الوحيد، أو النادر لأخواتنا المباعدات المشـاقات، أن يتعلمن كيف يقبلن على حظيرة الإسلام الحنون، إلى فـيض الله الغامر، وعـدله العظيم، ورحمتـه التى وسعت كل شىء، أن يقبلن إلى الله ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات: ٥٠].

(١) أسد الغابة ٥/ ٥٦٣.

وهند فى النهاية درس للداعيات إلى الله، درس للاتى يحملن عبء الدعوة إلى الله، أن يتجاوزن السطح إلى الأعماق، أن ينفذن إلى القلوب، أن يَغُرن إلى الفطرة ، فهناك الخير كامن، وهناك الحق أبلج، أن لايتراجعن أمام القشرة الصلدة، أن لايهربن من المعركة، فنماذج هند مخبوءة، ونماذج هند قائمة، أن يبحثن عن المعدن وينقبن عنه. . يا أخواتنا الداعيات، استجبن لرسول الله ﷺ، وابحثن عن المعدن الخيِّر النفيس، وكلما نفس المعدن، صعب الوصول إليه، وبيدكن كلام الله تعالى الذى يفل الحديد ويذيب الصخور: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤])(١).

ثم هو درس لهن كذلك أن يكنّ قدوة عملية لغيرهن يصدق فعلهن قولهن، ويؤثرن فى الناس بسلوكهن وحالهن، ولهذا قيل: حال رجل فى ألف رجل أبلغ من مقال ألف رجل فى رجل، ومايقال للرجل يقال للمرأة.

إن القدوة العملية كانت السبب المباشر لإسلام هند رضى الله عنها بعد فضل الله عز وجل، إذ أن الذى لمس شغاف قلبها وهز وجدانها ما رأت عليه المسلمين فى الحرم من عبادة صادقة لله، رأت من يلبى ويكبر ويركع ويسجد ويذكر ويشكر. . . مما جعلها تقول: والله ما رأيت أن عُبد الله حق عبادته فى هذا المسجد قبل الليلة، وحق لها أن تقول ذلك، فماذا كان يفعل من يطوف بالكعبة من قبل؟ ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] أين هذا من عبادة هذه الليلة؟ والله إن باتوا إلا مصلين قيامًا وركوعًا وسجودًا، إنه مشهد بالغ الروعة يعجز القلم عن تصويره، ولكنه الإيمان حين تمتزج بشاشته القلوب.

صدق الإيمان:

بعد أن انضمت هند رضى الله عنها إلى موكب النور، تلاشت لديها معالم الشرك والوثنية، وانقلبت بنعمة من الله وفضل كبير كأن لم يمسها سوء، إنه التحول الكامل فى مشاعرها ووجدانها، فلم يسعفها الكلام لكى تعبر عما جال فى

(١) هند بنت عتبة، د. منير محمد الغضبان، مرجع سابق، ص ١٣، ١٤.

نفسها، ولم يكفها النطق للإفضاء به، فراحت تبحث عن القدوم، وأخذته ثم انقضت على الصنم تكسره قطعة قطعة، فينهار بين يديها ورجليها، وهى تغمرها روعة الإيمان قائلة: لقد كنا منك فى غرور[1].

سبحان من بيده القلوب! لقد انبعث النور وأشرق الظلام، ولمس الإيمان قلب هند، وقد كانت منذ لحظة على الطرف الآخر فى العداء والبغض والكراهية، فيا لروعة ما يصنع الإسلام بالنفوس الداخلة فيه المؤمنة به، لكأنه ينشئها بفضل الله إنشاء أو يعيد بناءها من جديد..

وفى هذا درس لكل مسلمة مؤمنة أن تهدم كل صلة لها بالإثم والمعصية، فها هى هند رضى الله عنها لم تكتف بإعلان إسلامها بل هدمت الصنم الذى كان فى بيتها والذى يذكرها بماضيها، وقالت هذه القولة: لقد كنا منك فى غرور.

ولقد دل قولها للنبى ﷺ: ماجلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك فى معروف على صدق إيمانها، (فلقد جاءت مسلمة لله عز وجل مع صويحباتها، خاضعة طائعة لله ورسوله،ليس الإسلام عندها كلمة تقال باللسان، ثم تكون بعدها المعصية والإثم والهوى أبدًا، إنه الإسلام الذى يخلع به المسلم جاهليته بقاذوراتها وآثامها وعصبيتها المنتنة، ويدخل إليه نظيفًا طاهرًا نقيًا من ذلك الرجس والدنس، ولِمَ يغتسل المرء يوم يدخل الإسلام؟ إنها الطهارة التامة من الشرك وأعماله وانحرافاته.

هكذا لتفهم الدنيا، ويفهم مسلمو الأرض اليوم كيف يكون الإسلام من ابنة عتبة، إنها هى التى حاربت الإسلام عشرين عامًا بمالها وجاهها ولسانها، وعصبها ودمها، وولدها وأهلها، لم تترك من صد عن سبيل الله فى حياتها تقدر عليه إلا فعلته.

ولكن لحظة إسلامها قد قلبها امرأة أخرى، قد كونها امرأة أخرى، قد جاء بها مولودًا جديدًا غير ذلك المولود الأشأم، لقد أسلمت جادة، وأسلمت مقتنعة راضية مختارة، فانتهى بذلك عهد الجاهلية الأسود العاثر المنكود)[2].

(١) تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٥٧، وابن سعد ٨/ ١٧٢، والمغازى ٢/ ٨٧١.

(٢) هند بنت عتبة، د. منير الغضبان، ص١٩٦ ,١٩٧.

ثم ها هى رضى الله عنها تعبر عما فى نفسهـا تجاه النبى ﷺ بعد أن مسها عبير النبوة واستقر فى قلبها نـور الإيمان، فتقول: والله يا رسول الله ماكان على الأرض من أهل خبـاء أحب إلىّ من أن يذلوا من أهل خبـائك، ولقد أصبـحت وما على الأرض من أهل خباء أحب إلىّ من أن يعـزوا من أهل خبائك، فيجيـبها ﷺ وقد مسها رحمه.ورحمته : «وأيضًا والذى نفسى بيده»[١]، قال القاضى عياض رضى الله عنه: أرادت بقولها: أهل خباء: نفسه ﷺ فكنّت عنه بأهل الخباء إجلالاً له، قال: ويحتمل أن تريد بأهل الخباء أهل بيته، والخباء يعبر به عن مسكن الرجل وداره.

وأما قوله ﷺ: «وأيضًا والذى نفسى بيده» فمعناه: وستزيدين من ذلك ويتمكن الإيمان من قلبك ويزيد حبك لله ولرسوله ﷺ ويقوى رجوعك عن بغضه[٢].

وقال ابن التين: فـيه تصديق لهـا فيمـا ذكرته، كأنـه رأى أن المعنى: وأنا أيضًا بالنسبة إليك مثل ذلك. .

وفى الحديث دلالة على وفور عـقل هند، وحسن تأتيها فى المخـاطبة، ويؤخذ منه أن صاحب الحاجة يستحب له أن يقدم بين يدى نجواه اعتذارًا إذا كان فى نفس الذى يخاطبه عليه موجدة، وأن المعتذر يستحب له أن يقدم ما يتأكد به صدقه عند من يعتذر إلـيه؛ لأن هندًا قدمت الاعتراف بذكـرما كانت عليه من البـغض ليعلم صدقها فيـما ادعته من المحبة، وقد كانـت هند فى منزلة أمهات نساء النبى ﷺ ؛ لأن أم حبيبة إحدى زوجاته بنت زوجها أبى سفيان[٣].

(لقد استطاع الإسلام بهديه الرفـيع ونوره المبين أن يتغلغل فى أعماق النفوس، فيطهرهـا وينقيها، ويحوّل القلـوب التى رانت عليها المْوجدة والعـداوة والحقد إلى قلوب تخفق بالمحبة والنصـرة والولاء، وما حدث من هند أبرز الشواهد على ذلك التحـول العجيب. . فـفى سبيل الله وفى سـبيل دينه الحق تغـسل الدماء، وتزول الوحشة، وتأتلف نوافر القلوب، وتستأصل قرحة الغل، وتجتث نزعة الحقد)[٤].

(١) البخارى فى المناقب، باب ذكر هند بنت عتبة رضى الله عنها ٧/ ١٤١ (٣٨٢٥) ومسلم فى الأقضية، باب هند ١٢/ ٧-١٠ (١٧١٤).

(٢) مسلم بشرح النووى ١٢/ ٩. (٣) فتح البارى ٧/ ١٤١، ١٤٢.

(٤) شخصية المرأة المسلمة د. الهاشمى، ص٣٧٢، ٣٧٣، بتصرف.

هند الأم

فطمت هند بنت عتبة ابنها معاوية على حب الفضائل وحسن الخلق، وربته على الشهامة، والإباء والشمم، وغرست فه خلق القوة والعزة والفروسية وروح القيادة، فحينما كان وليدًا كانت ترقصه وتغنى له قائلة:

إن بُنىَّ مُعْرقٌ كريم محببٌ فى أهله حليم
ليس بفحَّاش[١] ولا لئيم ولا بطُخْرور[٢] ولا سئوم
صخر بنى فهر به زعيم لايخلفُ الظنَّ ولايخيم[٣]

وخرجت من مكة مرة تريد الطائف ومعها معاوية صغيرًا، فجعلته بين يديها فى مركبها، فرآه رجل من الأعراب، فقال لها: يا ظعينة شدى يديك بهذا الغلام وأكرميه فإنه سيد كرام، وصول أرحام، فقالت هند: بل ملك همام كبار عظام، ضروب هام ومُفيض أنعام[٤].

وكانت تمشى ذات مرة ومعها ولدها معاوية والذى أصبح فيما بعد واحدًا من أشهر حكام المسلمين، فرآه بعضهم وقد بدت عليه مخايل النجابة وتوسموا فيه النبوغ، فقالوا: إن عاش ابنك ساد قومه، وقد كانت هند امرأة عزيزة النفس عظيمة الطموح، فلم يعجبها مدحهم له، فقالت فى إباء وتطلع واسع: ثكلته- أى فقدته- إن لم يسد إلا قومه[٥]، وقد كان ما تشوفت إليه حيث حكم ابنها معاوية العرب والعجم مدة طويلة من الزمان.

وهكذا تكون الأم المسلمة تعزز ثقة ابنها بنفسه وتوسع مدى طموحاته، وتبذر فى نفسه منذ تفتحه على الدنيا بذور العزة والإباء والشهامة والحزم وروح القيادة والمسؤولية.

(١) فحّاش: كثير الفحش، والفحش: القبيح من القول والعمل.
(٢) طخرور: القليل من السحاب، كناية عن البخل.
(٣) يخيم: يجبن، وانظر الخبر فى الأمالى للقالى ٢/ ١١٦.
(٤) مفيض أنعام: أى كثير المعروف، جواد عظيم العطاء، وانظر: أعلام النساء ٥/ ٢٤٨.
(٥) عيون الأخبار ١/ ٣٢٦، والعقد الفريد ٢/ ١٤٦.

ولقد ورث معاوية رضى الله عنه عن أمه هند من قوة الشخصية وألمعية الذهن ما لم يرثه عن أبيه أبى سفيان، وكان معاوية إذا نوزع الفخر بالمقدمة، وجُوذب المباهاة بالرأى انتسب إلى أمه وافتخر بها، قال لابن الزبير: أنا ابن هند، إن أطلقت عقال الحرب أكلتْ ذروة السنام[1]، وشربت عنفوان المكْرَع[2]، وليس للآكل إلا الفِلْذة[3]، ولا للشارب إلا الرَّنْق[4][5].

وكثيرًا ما كان يطلب معاوية رضى الله عنه النصح من أمه، فقد ورد أن عمر رضى الله عنه لما استعمل ابنها معاوية على الشام، دخل على أمه لهند مستنصحًا فقالت له: والله يا بنى إنه لقلما ولدت حرة مثلك، وقد استنهضك هذا الرجل، فاعمل بموافقته أحببت ذلك أم كرهته[6].

ولما أتاها نعى يزيد بن أبى سفيان، قال لها بعض المعزين: إنا لنرجو أن يكون فى معاوية خلف من يزيد، فقالت هند: ومثل معاوية لايكون خلفًا من أحد، فوالله لو جمعت العرب من أقطارها ثم رمى به فيها لخرج من أى أعراضها شاء[7].

(لقد أدركت المرأة المسلمة الواعية مسؤوليتها فى تربية أولادها على مر الأزمان، وكانت بارعة فى تكوين الرجال، والتأثير فيهم، والنفاذ إلى قلوبهم، وغرس القيم النبيلة فى نفوسهم، وليس أدل على ذلك من أن النابهات الممتازات من النساء نَجَلْنَ وربين أولادًا أنبل وأفضل من أبناء النابهين الممتازين من الرجال، حتى إنك لا تكاد عظيمًا من عظماء أمتنا ممن عاركوا خطوب الدهر، وراضوا شماسه، وطأطأت رجولتهم نواصى الحادثات إلا وهو مدين بذلك إلى أمه العظيمة[8]، فمعاوية رضى الله عنه مدين لأمه بكل ما غرست فيه من روح التوثب والعظمة والطموح، وما أودعته فيه من روح السمو والنبوغ، وما بلغه من ذكر وشرف ومكارم وفضائل.

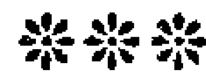
---

(١) ذروة السنام: أفضل ما يؤكل من الناقة.
(٢) المكرع: أى صافى الماء.
(٣) الفلذة: قطعة من اللحم تقطع طولاً.
(٤) الرنق: الماء القليل الكدر.
(٥) البيان والتبيين ٢/ ٩٢.
(٦) العقد الفريد ٥/ ١١٣، وتاريخ دمشق (تراجم النساء)، ص٤٥٨.
(٧) البيان والتبيين ١/ ٥٦.
(٨) شخصية المرأة المسلمة، د. محمد على الهاشمى، مرجع سابق، ص٢١٢، ٢١٣.

وهكذا ينبغى أن تكون المسلمة ذكية حصيفة تتعرف على نفسيات أولادها، وتحسن التعامل مع فطرهم البريئة، لتغرس فيهم القيم النبيلة والشمائل الرفيعة، والأخلاق العالية، متبعة الأساليب المحببة إليهم والتى تتفتح لها نفوسهم وقلوبهم، ومن ثم تقبل على تسديدهم ونصحهم وصقل طباعهم وتقويم سلوكهم. .

إن المهمة الأساسية للمسلمة هى بناء الرجال، أولئك الرجال الذين يعملون على إعزاز الأمة ودفعها إلى القمة، وهى تفرغ طاقتها فى سبيل هذا الهدف، ومما يجعلها ويدفعها إلى ذلك دورها كمسلمة ترى من حولها ضياع الأبناء نتيجة لانحراف الأمهات عن النهج الذى ارتضاه الله لهن.

وهذه المهمة التى ألقاها الله عز وجل على كاهل المرأة المسلمة مهمة عظيمة وخطيرة لاتستطيع حملها إلا أولئك اللواتى نشأن على الإسلام وتربين على منهجه.



المجاهدة

كانت هند رضى الله عنها من ذوات الشجاعة والإقدام، وكانت تطوى فى صدرها التطلع إلى المشاركة فى الجهاد، حتى أقبلت السنة الثالثة عشرة للهجرة، وأقبلت معها معركة اليرموك، تلك المعركة العصيبة التى دارت رحاها على أرض المسلمين، وفيها أعطى المسلمون أعداءهم الروم درسًا لم ينسوه أبدًا.

اشتركت هند فى هذه المعركة مع أخوات لها مسلمات، كن خلف المجاهدين للمعاونة والتأييد، وأخذت رضى الله عنها تبذل جهدها، فهى تناول السلاح، وتسقى الماء، وتضمد الجروح، وتشد من عزائم المجاهدين.

يقول البلاذرى فى فتوح البلدان: وقاتل يوم اليرموك نساء من نساء المسلمين قتالاً شديدًا، وجعلت هند بنت عتبة أم معاوية بن أبى سفيان تقول: عضِّدوا الغُلْفان بسيوفكم(١).

وقال ابن كثير: وقد قاتل نساء المسلمين فى هذا اليوم، وقتلوا خلقًا كثيرًا من الروم، وكن يضربن من انهزم من المسلمين، ويقلن: أين تذهبون وتدعوننا للعلوج؟ فإذا زجرنهم لايملك أحد نفسه حتى يرجع إلى القتال(٢).

رجع المنهزمون رجعة عظيمة، بعدما سمعوا إلى تحريض النساء، وهن يصرخن فيهن: الله الله لا نؤتين من قبلكم، واستطاع النسوة أن يوقفن الفرار، وفاء الفارون يرون القتل من الروم أشرف لهم من القتل على يد النساء، وخرجت هند رضى الله عنها، وبيدها مزهر ومن خلفها نساء من المهاجرين، وهى تقول الشعر الذى قالته يوم أحد:

نحن بنات طارق ... نمشى على النمارق
مشى القطا الموافق ... قيدى مع المرافق
ومن أبى نفارق ... إن تغلبوا نعانق

(١) فتوح البلدان، ص١٨٤.

(٢) البداية والنهاية ٤/ ١٣.

أو تـدبـروا نـفـــارق فـــراق غـــيـــر وامق

هـل من كـــريم عـــاشـق يـحـــمى عـن العـــواتـق

ثم استـقبلت خيل مـيمنة المسلمين، فـرأتهم منهزمين فصـاحت بهم: إلى أين تنهزمون؟! وأين تفرون؟ من الله ومن جنته وهو مطلع عليكم، ونظرت إلى زوجها أبى سفيان منهـزمًا، فضربت وجه حصانه بعمـودها، وقالت له: إلى أين ياصخر ابن حرب؟! ارجع إلى القـتال وابذل مهجـتك حتى تمحو مـا سلف من تحريضك على رسول الله ﷺ، قـال الزبير بن العوام: فلما سـمعت كلام هند لأبى سـفيان ذكرت يوم أحـد ونحن بين يدى رسول الله ﷺ. قال: فـعطف أبو سفيان فـرسه عندمـا سمع كـلام هند وعطف المسلمون مـعه، ونظرت إلى النـساء وقد حـملن معهم، وقد رأيتهن يسابقن الرجال، وبأيديهن العمد بين أرجل الخيل، ولقد رأيت منهن امرأة وقد أقبلت إلى علج عظيم وهو على فـرسه، فتعلقت به، ومازالت به حتى نكبته عن جواده وقتلته وهى تقول: هذا بيان نصر الله للمسلمين[١].

يا لله نسوة اليرمـوك هنّ نسوة أحد، فررن فى أحد، وهاهن اليـوم فى اليرموك يقفن كـالجبال الراسـيات، فيـحلن الهزيمة إلى نصـر، يقتلن الفـارين، ويواجهن المشركين، ويقـمن بجولات منظمـة من الهجـوم على بنى الأصفـر، حتى انجلت المعركة عن ثمانين ألف قتيل من الروم، وصارت اليرموك بحق بدر المعارك الفاصلة فى التاريخ، والتى كانت فاتحة إزاحة الروم إلى الأبد[٢].

أما هند فقد كانــت بحق درة فى هذا اليوم الأغر من تاريخ الإسلام والمسلمين، حـيث ثبتت فى هذا المـوقف العصـيب - الذى لايثـبت فيـه إلا أصحـاب الإيمان الراسخ- وقامت بواجبها خير قيام، وبذلـت جهدها ونفسها فى سبيل الله، وكانت مثلاً يحتـذى للاتى يبغين حياة العز والشرف والمجد، حـياة الجهاد بالنفس والأهل والمال والولد، حين دفعت بزوجها إلى ساحة الجهاد، ولم تكن بالتى تضن بزوجها عن الإقدام والثبات بل شجعته وحرضته حتى يمسح ما كان فى سالف أمره، وهكذا تكون الزوجة الصالحة المؤمنة بدعوة الحق تذلل كثيرًا من الصعاب لزوجها وتبث فى نفسه الإقدام والثبات، فيكون لها أعظم الأثر فى نجاح الدعوة وانتصارها.

---

(١) فتوح الشام، ص٢١٩.

(٢) هند بنت عتبة، د. منير الغضبان، ص٢٤٢.

مكانتها وفضلها

تمتعت هند رضى الله عنها بفضائل ومكارم عدة، فقد كانت رضى الله عنها من أفضل نساء قريش رأيًا وحزمًا وعقلاً، وبُعْدَ همة وحسن بيان قال عنها الإمام الذهبى: كانت من أحسن نساء قريش وأعقلهن[١]، ووصفها ابن الأثير بقوله: كانت امرأة لها نفس وأنفة ورأى وعقل[٢]، وقال ابن حجر فى الفتح: وكانت من عقلاء النساء[٣].

ومما يدل على رجاحة عقلها وبعد نظرها، ما رواه ابن عساكر بسنده فى تاريخ دمشق، قال: شخص أبو سفيان إلى معاوية بالشام ومعه ابناه عتبة وعنبسة، فكتبت هند إلى معاوية سرًا: قد قدم أبوك وأخوك، فلا تغذم[٤] لهم فيعزلك ابن الخطاب، احمل أباك على فرس، وأعطه أربعة آلاف درهم، واحمل عتبة على بغل وأعطه ألفى درهم، واحمل عنبسة على حمار وأعطه ألف درهم، ففعل معاوية ذلك، فقال أبو سفيان: أشهد أن هذا رأى هند![٥].

وقال ابن عساكر: كانت هند امرأة عاقلة، جزلة، فلما ولى عمر بن الخطاب يزيد بن أبى سفيان ما ولاه من الشام خرج إليه معاوية، فقال أبو سفيان لهند: كيف ترين؟ صار ابنك تابعًا لابنى ! فقالت: إن اضطرب حبل العرب فستعلم أين يقع ابنك مما يكون فيه ابنى، فمات يزيد بالشام فولى عمر معاوية موضعه، فقالت هند لمعاوية: والله يا بنى إنه لقلما ولدت حرة مثلك، وقد استنهضك هذا الرجل فاعمل بموافقته أحببت ذلك أم كرهته[٦].

---

(١) تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين)، ص٢٩٨.

(٢) أسد الغابة ٥/ ٥٦٣.

(٣) فتح البارى ٧/ ١٤١.

(٤) غذم له من ماله: أعطاه منه شيئًا كثيرًا وأكثر له فى العطية.

(٥) تاريخ دمشق (تراجم النساء)، ص٤٥٨.

(٦) المرجع السابق ص ٤٥٨.

من ربات الفصاحة والبيان:

وكانت هند رضى الله عنها صاحبة لسان وبيان، فصيحة جريئة، تقول الشعر الجيد، قال الإمام الذهبى عن شعرها: ولها شعر جيد[(١)]، وقد مر معنا نماذج من شعرها، ولها أقوال جميلة تدل على رجاحة عقلها وحسن بيانها، ومن فرائد أقوالها: المرأة غُلٌّ[(٢)] ولابد للعنق منه، فانظر من تضعه فى عنقك[(٣)].

لقد حبا الله عز وجل هندًا رضى الله عنها تلك الموهبة، فكانت معها قبل إسلامها، فلما أسلمت أفادت بها ووظفتها فى الخير، وهكذا ينبغى للمسلمة استغلال مواهبها فى الخير وتأييد الحق والدين.

دعاء النبى ﷺ لها:

ولقد كانت هند رضى الله عنها سخية كريمة، فبعد أن أسلمت أرسلت إلى رسول الله ﷺ بهدية، وهو بالأبطح مع مولاة لها بجَدْيَيْن مرضوفين- مشويين- وسقاء من جلد، فانتهت الجارية إلى خيمة رسول الله ﷺ، وهو بين نسائه أم سلمة زوجته وميمونة ونساء من نساء بنى عبد المطلب، فقالت: إن مولاتى أرسلت إليك بهذه الهدية وهى معتذرة إليك، وتقول: إن غنمنا اليوم قليلة الوالدة، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لكم فى غنمكم وأكثر والدتها»، فرجعت المولاة إلى هند فأخبرتها بدعاء رسول الله ﷺ فسرت بذلك، وكانت المولاة تقول: لقد رأينا من كثرة غنمنا ووالدتها ما لم نكن نرى قبل ولا قريب، فتقول هند: هذا دعاء رسول الله ﷺ وبركته، فالحمد لله الذى هدانا للإسلام، ثم تقول: لقد كنت أرئ فى النوم أنى فى الشمس أبدًا قائمة والظل منى قريب لا أقدر عليه، فلما دنا رسول الله ﷺ منا رأيت كأنى دخلت الظل[(٤)].

---

(١) تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين) ص٢٩٨.

(٢) الغُل: بالضم جامعة توضع فى العنق أو اليد.

(٣) البيان والتبيين ٣/ ٢٦٧.

(٤) تاريخ دمشق (تراجم النساء) ص٤٥٦، ٤٥٧، والمغازى ٢/ ٨٦٨، ٨٦٩.

الراوية:

ومن فضائلها روايتها الحديث عن رسول الله ﷺ، حيث روى عنها ابنها معاوية وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنهما[(١)]، ومما روته أنها قالت: قلت للنبى ﷺ: إن أبا سفيان رجل مسيك، وفى رواية: رجل شحيح[(٢)]، وليس يعطينى ما يكفينى وولدى إلا ما أخذت منه وهو لايعلم، فقال ﷺ: «خذى مايكفيك وولدك بالمعروف»[(٣)].

وفاتها:

عاشت هند رضى الله عنها حتى عملت بالتجارة فى آخر عمرها، فاستقرضت من أمير المؤمنين عمر من بيت مال المسلمين أربعة آلاف، فخرجت إلى بلاد كلب فباعت واشترت، ثم عادت إلى المدينة وباعت حتى أعادت المال إلى عمر[(٤)].

وتابعت حياتها رضى الله عنها وهى تؤثر مرضاة الله عز وجل على كل شىء، محافظة على بيعتها لرسول الله ﷺ، إلى أن لقيت الله عز وجل فى خلافة عمر ابن الخطاب فى اليوم الذى مات فيه أبو قحافة والد أبى بكر الصديق سنة (١٤) هـ[(٥)].

رضى الله عن هند، فقد كانت نموذجًا طيبًا للمرأة المسلمة التى تتحول من الشرك إلى الإيمان، ومن الباطل إلى الحق، ومن الضلالة إلى الهداية، حتى لتصبح فى طليعة المؤمنات المجاهدات.. لقد كان لهند رضى الله عنها شأن إلى يوم وفاتها... فهل للمسلمات اليوم أن يقتدين بها؟

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٥٧.

(٢) قال القرطبى: لم ترد هند وصف أبى سفيان بالشح فى جميع أحواله، وإنما وصفت حالها معه، وأنه كان يقتر عليها وعلى أولادها، وهذا لايستلزم البخل مطلقًا، فإن كثيرًا من الرؤساء يفعل ذلك مع أهله ويؤثر الأجانب استئلافًا لهم، فتح البارى ٩/ ٥٠٨.

(٣) البخارى فى البيوع، باب من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم ٤/ ٤٠٥ (٢١١)، وفى النفقات، باب نفقة المرأة إذا غاب عنها زوجها ونفقة الولد ٩/ ٥٠٤ (٣٥٩)، وباب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه مايكفيها وولدها بالمعروف ٩/ ٥٠٧ (٥٣٦٤)، وفى الأحكام، باب القضاء على الغائب ١٣/ ١٧١(٧١٨٠) وفى المناقب، باب ذكر هند بنت عتبة ٧/ ١٤١ (٣٨٢٥)، ومسلم فى الأقضية، باب هند ١٢/ ٧-١٠ (١٧١٤).

(٤) تاريخ دمشق (تراجم النساء) ص ٤٥٧.

(٥) أسد الغابة ٥/ ٥٦٣، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٥٧، وأعلام النساء ٥/ ٢٥٠.

خَوْلَةُ بِنْت ثَعْلَبَةَ
رضى الله عنها
(١٨)

نَسَبُهَا

خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ[١] :

من بين الرعيل الأول من المسلمات، تأتى صحابية جليلة القدر، عظيمة الشأن، قديمة الإسلام، من فضليات النساء وعقلائهن، أنزل الله عز وجل فى حقها قرآنًا يتلى على مر الزمان..

إنها: خولة بنت ثعلبة[٢] بن أصرم الأنصارية الخزرجية، من بنى عمرو بن عوف.

وزوجها: أوس بن الصامت، أخو عبادة بن الصامت رضى الله عنهما، شهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وامتد به العمر إلى زمن عثمان رضى الله عنه، ومات عن خمس وثمانين سنة.

الأسرة الفاضلة:

نشأت رضى الله عنها فى أسرة طيبة مباركة، أسرة عمرو بن عوف ودخلت رضى الله عنها مع عدد كبير من بيتها فى دين الله عز وجل، حيث أسلموا منذ إشراقة الإسلام الأولى على المدينة، وتأثرت رضى الله عنها بأخلاقهم الطيبة من الكرم والإيثار والفصاحة والجرأة فى الحق، ولما حانت هجرة النبى ﷺ وجاء إلى المدينة كان لبيت عمرو بن عوف موقف كريم معه ﷺ حيث استضافوه وأكرموا وفادته.

---

(١) ابن سعد ٨/ ٢٧٥، ٢٧٦، وأسد الغابة ٥/ ٤٤٣، ٤٤٤، والإصابة ٨/ ٦٨، ٦٩، وأحمد ٦/ ٤١٠، ٤١١، ومجمع الزوائد ٥/ ٥، ٦، والمعجم الكبير ٢٤/ ٢٤٧، ٢٤٨، وتجريد أسماء الصحابة، ٢/ ٢٦٣، ٢٦٤ (٣١٨١)، والثقات ٣/ ١١٦، والاستيعاب ٤/ ٢٩٠- ٢٩٢، وشذرات الذهب ١/ ١٧- ٢٠، وفتح البارى ١٣/ ٣٧٤، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٤٤٣ (٢٧٧٧)، وأعلام النساء ١/ ٣٨٢- ٣٨٤، وخلاصة تهذيب التهذيب ٣/ ٣٨٠ (٤٥)، والمعارف، ص ٢٥٥، وطبقات خليفة، ص٣٤١، والمعين فى طبقات المحدثين، ص ٢٩ (١٦١)، والطبقات لمسلم ١/ ٢١٤ (٥٤٩) والكاشف ٣/ ٤٢٤ (٤٣) المنفردات والوحدان، ص ٩٠.

(٢) تظاهرت الروايات على هذا: خولة بنت ثعلبة، وجاء فى بعضها: خولة بنت مالك، وكأنها نُسبت فى جلّ الروايات لجدها. انظر: فتح البارى ١٣/ ٣٧٤.

حياتها

عاشت خولة رضى الله عنها مع زوجها أوس بن الصـامت حياة هادئة مستقرة، ورزقهـما الله عـز وجل بالذرية الصالحـة، وكان زوجهـا أوس رضى الله عنه من المجاهدين مع النبى ﷺ، وكانت ترعى له أولاده وتشجـعه على ملازمة النبى ﷺ ومشاركته فى الغزو.

ولما تقدم العمرُ بزوجـها ساء خلقه فكان يشتد عليها وهى تصـبر وتحتسب على ما تلاقيه منه، وحدث أن ظاهر منها(١)، وكان الظهار فى الجاهـلية طلاقًا بل كان من أشد الطلاق، فلا يرجع الرجل إلى امـرأته أبدًا، ولما جاء الإسلام أرخص الله عز وجل لهذه الأمة، وجعل فى الظِّهار كفارة.

خشـيت خولة رضى الله عنها أن يكون ظهـارَ زوجها لها طلاقًـا، فذهبت إلى النبى ﷺ مسـرعة تشكو إليه حالهـا، وتبكى خشيـة أن يكون قد وقع الطلاق.. فماذا حدث معها، وبماذا رد عليها النبى ﷺ؟

قصة خولة مع زوجها:

تروى خولة رضى الله عنها قصتهـا فتقول: فِيَّ -والله- وَفِى أوْس بنِ الصامت أنزل الله عز وجل صَدْرَ سورة المجادلة.

قالت: كُنْتُ عنده وكان شيـخًا كبيرًا قد ساء خلقه وضـجر، فدخل عليَّ يومًا فراجعته بشيء فغضب، فقال: أنت عليَّ كظهر أمي. قالت: ثم خرج فجلس فى نادى قومه سـاعة، ثم دخل عليَّ فإذا هو يريدنى على نفسـى، فقلت: كلا والذى نفس خويلة بيـده، لا تخلص إليَّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسـوله فينا بحكمه، فـواثبنى وامتنعتُ منه فغلبـته بما تغلب به المرأة الشيخ الضـعيف فألقيـته عنى، ثم خرجت إلى بـعض جاراتى، فاستـعرت منهـا ثيابها، ثم خـرجت حتى جئت رسـول الله ﷺ، فجلست بين يديه فذكـرت له ما لقيت منه فـجعلت أشكو إليه ﷺ مـا ألقى من سوء خلقـه، فجعل رسـول الله ﷺ يقول: «يا خويلة، ابن عمك شيخ كبير فاتقى الله فيه».

(١) قال ابن عباس رضى الله عنهما: أول مَنْ ظَاهَرَ من امرأته أوسُ بنُ الصامت، وامرأته خولة بنت ثعلبة.

قالت: فوالله ما برحت حتى نَزَلَ فيَّ القرآن فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ثم سُرِّى عنه فقال لى: «يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفى صاحبك» ثم قرأ عليَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ١-٤]، فقال لى رسول الله ﷺ: «مريه فليعتق رقبة» فقلت: والله؟ يا رسول الله ما عنده ما يعتق، قال: «فليصم شهرين متتابعين»، فقلت: والله يا رسول الله إنه شيخ كبير ما به من صيام، قال: «فليطعم ستين مسكينًا وسقًا من تمر» قلت: والله يا رسول الله: ما ذاك عنده، فقال رسول الله ﷺ: «فإنا سنعينه بعرق من تمر»، فقلت: وأنا يا رسول الله سأعينه بعرق آخر، قال: «قد أصبت وأحسنت فاذهبى فتصدقى عنه ثم استوصى بابن عمك خيرًا» قالت: ففعلت(١).

دروس وعبر:

فى هذه القصة التى روتها خولة رضى الله عنها نشهد صورة موحية من رعاية الله عز وجل للجماعة المؤمنة وهو يصنعها على عينه ويربيها بمنهجه، وبتدبر هذه القصة يمكننا أن نضع أيدينا على بعض الدروس المستفادة التى تجعل من خولة رضى الله عنها نموذجًا للمرأة المسلمة المعتزة بكرامتها المراقبة لخالقها.

تقوى وورع:

لم تطق خولة رضى الله عنها أن تعيش مع زوجها بعد أن تفوه بما تفوه به من عبارات الظهار الذى كان عند الجاهلية طلاقًا، حتى ترجع إلى رسول الله ﷺ لتعرف حكم الله فيها وفى زوجها، ولم يكن لديها ثوب لائق ترتديه للخروج والمثول بين يدى رسول الله ﷺ، فاستعارت ثيابًا من بعض جاراتها، وانطلقت من فورها إلى مجلس رسول الله ﷺ لتسمع حكم الله فيها لتمتثله.

(فتدبر أحداث تلك الواقعة، والملابسات التى حدثت بين زوجين داخل بيتهما، وسلوكها الراقى الورع الذى استوعب أخطاء الزوج، من أجل عدم الوقوع فيما يغضب الحق سبحانه.

(١) أحمد ٢/١٠٤، ٤١١، وأبو داود فى الطلاق، باب فى الظهار ٣/٢٦٦ (٢٢١٤)، والطبرانى فى الكبير ٢٤/٢٤٧ (٦٣٣)، والعرق: مكتل، وهو زنبيلٌ يسع خمسة عشر صاعًا، انظر سنن أبى داود، الحديث (٢٢١٦).

وتذكر كيف فقهت أن طاعة الزوج لها حدود، وهى طاعة مبصرة فى غير معصية لله عز وجل.

ثم سرعة تصرفها وحكمتها فى وجوب الإسراع فى حل تلك المشكلة العائلية من أجل المحافظة على كيان الأسرة، وهذا ما يشعرنا بالمستوى الراقى من الأخلاق والورع، الذى ربيت عليه المرأة فى هذا المجتمع الربانى الفريد)(١).

إن على المسلمة أن تكون وقافة عند حدود الله لا تتعداها ولا تقع فى الحرام، بل تلتمس دومًا حكم الله ورسوله، وتنزل عنده فى كل ما يعرض لها فى حياتها من شؤون، وتضع دومًا نصب عينيها قول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وحينما يتضح لها الأمر وتتوقف على حكم الله ورسوله، فطاعة الله ورسوله فوق هوى النفس، وفوق تطلعات الأمانى، وفوق متع الحياة، وفوق اختيار الإنسان(٢).

فقهها للمرجعية:

لقد حملت خولة رضى الله عنها شكواها إلى الحبيب ﷺ، فلم تذهب لغيره ﷺ حتى وإن كانت عائشة رضى الله عنها، وتدبر كيف أن خولة رضى الله عنها أتت إلى بيتها وانفردت به ﷺ، ولم تشرك أحدًا فى حل قضيتها.

عن عائشة رضى الله عنها قالت: الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبى ﷺ تكلمه وأنا فى ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾(٣).

---

(١) قصة المجادلة.. قطوف تربوية. د. حمدى شعيب، مقال بمجلة المجتمع، العدد (١٥٩٢) المحرم ١٤٢٥هـ -مارس ٢٠٠٤م.

(٢) شخصية المسلمة كما يصوغها الكتاب والسنة، د. محمد على الهاشمى، ص ٤٧، ٤٨.

(٣) رواه البخارى مختصرًا فى التوحيد، باب (وكان الله سميعًا بصيرًا) معلقًا ١٣/ ٣٧٢.

وهذا يضع أيدينا على سمة أخرى نستشعرها من هذا التصرف، لقد كانت -مثل أى فرد داخل هذا المجتمع- تقر وتعلم أن لها قيادة ومرجعية تنظيمية يرجع إليها.

ويوضح هذا الملمح أيضًا أهمية وجود روح الانضباط التنظيمى داخل الأمة ووجوب تنميتها، خاصة بين أفراد كل جماعة تتبنى المشروع الحضارى الإسلامى، وركن ذلك أن يعى كل فرد أن له قيادة ومرجعية يعود إليها.

شجاعتها الأدبية وقدرتها على الحوار:

لقد ورد عن خولة رضى الله عنها أنها كانت تتمتع بقدرة فائقة على الحوار حيث عرضت قضيتها بشجاعة وثقة ولباقة(١).

وتدبر كيف بدأت شكواها: يا رسول الله أكل مالى وأفنى شبابى ونثرت له بطنى، حتى إذا كبرت سنى وانقطع ولدى ظاهر منى، اللهم إنى أشكو إليك(٢).

ثم فى حوارها مع النبى ﷺ، فسألت النبى ﷺ فقال لها: «حرمت عليه» فقالت: والله ما ذكر طلاقًا، ثم قالت: أشكو إلى الله فاقتى ووحدتى ووحشتى وفراق زوجى وابن عمى وقد نفضت له بطنى، فقال: «حرمت عليه» فمازالت تراجعه ويراجعها حتى نزلت عليه الآية.

وروى الحسن أنها قالت: يا رسول الله قد نسخ الله سنن الجاهلية، وإن زوجى ظاهر منى، فقال رسول الله ﷺ: «ما أوحى إلىّ فى هذا شىء»، فقالت: يا رسول الله أوحى إليك فى كل شىء وطُوى عنك هذا؟! فقال رسول الله ﷺ: «هو ما قلت لك»، فقالت: إلى الله أشكو لا إلى رسوله، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١](٣).

لقد كانت رضى الله عنها عنها نموذجًا للمرأة المسلمة التى تمتلك الجرأة والشجاعة وفصاحة اللسان والبيان، فقد أبلغت رسول الله ﷺ بكل وضوح

(١) قصة المجادلة، د. حمدى شعيب، مرجع سابق.

(٢) الطبرى ٢٨/٥.

(٣) انظر هذه النصوص فى ابن جرير الطبرى ٢٨/٦٠٣.

وصـراحة مـا كان من زوجـها أوس، حـرصًا على البـيت، وحفـاظًا على الزوج والأولاد، قال ابن عاشور: افتتحت آيـات أحكام الظهار بذكر سبب نزولها تنويهًا بالمرأة التى وجهت شكواها إلى الله تعالى بأنها لم تقصر فى طلب العدل فى حقها وحق بنيها، ولم ترض بعنجهية زوجها وابتـداره إلى ما ينثر عقد عائلته دون تبصر ولاروية، وتعليمًا لنساء الأمة الإسلامية ورجالها واجب الذود عن مصالحها[١].

الفرج بعد الشدة:

لجأت خولة رضى الله عنها إلى الله تعالى، تشكو إليـه حالها وما آلت إليه من هموم وأحزان، وكـانت واثقة من إجابة الله لها وتبـديله سبحانه لحـالها، قال ابن سعد: قـالت خولة: اللهم إنى أشكو إليك شدة وجدى ومـا شق علىّ من فراقه، اللهم أنزل على لسان نبيك مـا يكون لنا فيه فرج، قالت عـائشة رضى الله عنها: فلقد بكيت وبكى من كان معنا من أهل البيت رحمة لها ورقة عليها[٢].

ويأتى الله عـز وجل بالفـرج وينزل عـلى رسـوله ﷺ الآيات التى تضع حـلاً لمشكلتها، وكـان إلحافها رضى الله عنها فى المسـألة ومبالغتهـا فى التضرع إلى الله تعالـى من دواعى الإجابة، قـال النيسـابورى: وفى الآية دلالة على أن من انقطع رجاؤه عن الخلق كـفاه الله همه[٣]، وقال الجزائرى: من هداية الآيات: إجابة الله لأوليائه بتفريج كروبهم وقضاء حوائجهم فله الحمد وله الشكر[٤].

إن المسلم يتـعلم من هذه الحـادثة صـدق اللجـوء إلى الله تعالى عـند اشتـداد الكروب، وأنه ليس أمامه إلا الالتجاء والتـضرع إليه سبحانه، إذ الشكوى إلى الله تعبد، والضراعة إليه والتذلل على بابه تقرب وطاعة، وما على المسلم إلا أن يتصل بربه ويصـدق معـه ويثق بموعـوده، فـإذا هو فعل ذلك تـولاه وكشف مـا به من كروب.

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٨/ ٧.
(٢) ابن سعد ٨/ ٢٧٦.
(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى على هامش الطبرى ٢٨/ ٧.
(٤) أيسر التفاسير لكلام العلى الكبير ٥/ ٢٨٥.

وفاء الزوجة:

ولقد ظلت خولة رضى الله عنها على وفائها لزوجها ومصافاته، واستخلاص نفسها له، واحتمال نَبْوة الطبع منه. . وفى ذلك درس أى درس للنساء المسلمات فى الوفاء لأزواجهن والمحافظة على بيوتهن. .

وهذا هو الوفاء الخليق بالمرأة المسلمة الوفية التى تحترم الحقوق وتنشر محاسن الزوج وتطوى مساوئه، ولا تنسى الفضل لصاحبه، أرأيت كيف كانت خولة رضى الله عنها متمسكة بزوجها محافظة عليه، لم تفرط فيه، بل ساعدته من مالها وفاءً له وتقديرًا، قالت: وأنا يا رسول الله سأعينه بعرق آخر، قال: «قد أصبت وأحسنت».

فيا لرجاحة عقلها! ويا لوفائها وتقواها وورعها! لقد بلغت خولة رضى الله عنها هذا المرتقى العظيم الذى لا تدركه إلا القلة النادرة من فضليات النساء، ولا تتحلى به إلا المرأة المسلمة الرشيدة الوفية. .

إن خلق الوفاء من أفضل ما تتحلى به الزوجة لزوجها، ويتحلى به الزوج لزوجته، وقد يبدو هذا الخلق بيننا اليوم عزيزًا لا يسهل الوصول إليه، وذلك لغربة الحق وقلة الخير وطغيان الفساد، ولكن هذا الخلق الكريم كان معروفًا مألوفًا فى مجتمع النبوة، وذلك لصدق الهمم حينئذ وسمو العزائم.

رضى الله عن خولة فقد كانت مثلاً من أمثلة العلو فى الهمة والسمو فى الوفاء، وصدق الله إذ قال: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

***

المجاهدة

كانت خولة رضى الله عنهـا من ذوات الشجاعة والإقدام، فشـاركت فى الجهاد فى سـبيل الله، ولما أقـبلت السنة الثـالثة عـشرة للـهجـرة -بعد وفـاة النبى ﷺ بسنوات- وأقبلت مـعها معركـة اليرموك، تلك المعركة العـصيبة الحـامية الوطيس والتى كانت بين المسلمين والروم، اشـتركت خولة رضى الله عنها فى هـذه المعركة مع أخوات لها مسلمات خلف المجاهدين، وأخذت رضى الله عنها تقوم بواجبها، تناول السلاح وتسقى الماء وتضمد الجروح، وتشد من عزائم المجاهدين.

فى هذه المعركة أبلى نساء المسلمين بلاء حسنًا، فهـا هو الإمام ابن كثير يتحدث عن معركـة اليرموك، فيقول: فـقاتلوا قتالاً شديدًا حـتى قاتلت النساء من ورائهم أشد القتال.

ويقول: وسـاق خالد إلى النسـاء من وراء الجيش، ومعـهن عدد من السـيوف وغيرها، فقال لهن: من رأيتموه موليًا فاقتلنه.

ويقول أيضًـا: واستقبل النسـاء من انهزم من سرعان الناس يضـربنهم بالخشب والحجارة، وجعلت خولة بنت ثعلبة تقول:

يا هاربًـا عن نسـوة تـقـيـات فـعن قـليل مـا تُرى سـبـيـات

ولا حصيات ولا رضيات

فتراجع الناس إلى مواقفهم(١).

يا لروعة الإيمان! ويا لسلطان اليقين! لقد صدقت خولة مع ربها عز وجل، فلم تتقاعس عن الجهاد والمشاركة فى الغـزو بل سارعت إليه وساهمت فيه، وحرضت المجاهدين على الثبـات والإقدام. . ولا عجب فى ذلك فهى من قوم قـد صهرهم الإيمان فى بوتقته، وطبعهم اليقين بطابعه، حتى استخفوا بالحياة ولم يبالوا بها، بل انحصرت هممهم وعزائمهم فى بلوغ ما عند الله، وما عند الله خير للأبرار.

(١) البداية والنهاية ٤/٥، ٨، ١١، ط الكتـب العلمية، وانظر: الطريق إلى دمشق (فتح بلاد الشـام) أحمد عادل كمال، ص٤٨٠.

مكانتها وفضلها

هذا هو النموذج الحى للمرأة المسلمة، ودورها الفعـال فى المجتمع حيث كانت رضى الله عنها فى طليعة من أسلم من نساء المدينة بعد أن أشرق نور الإسلام على المدينة المنورة، كـما كـانت رضى الله عنها من المبـايعات للنبى ﷺ، وثبـتت على إسلامها وبيعتهـا، بل كانت رضى الله عنها من المجاهدات فى سبيل الله تذود عن حياض الإسلام وتضحى من أجله بكل غال ورخيص.

ولقد كانـت رضى الله عنها نموذجًا عاليًـا تقتدى به النساء المسلمـات فى الوفاء لزوجهـا منذ بداية حياتها مـعه حتى بلغا من الكبـر عتيًا، وكـانت رضى الله عنها قدوة فى الصـبر وقت الشدة والمحنة، وعـالجت الأمر بحكمـة هادئة. . حتى نزل القرآن الكريم بحقهـا وارتبطت الآيات باسمها، بل سميت السورة باسـمها: سورة المجادِلة، وشرع الله عز وجل من أجلها حكمًا أبطل به عادة جاهلية ذميمة، ورفع به شأن المرأة المسلمة، وأعلى من كرامتها ومكانتها على مر الأيام.

ثم إنهـا كانت رضى الله عنهـا مثلاً وقـدوة للمسلـمات فى التـقوى والورع، والالتزام بشرع الله، والمحافظة على كيان الأسرة.

يقول الإمام البنا رحمه الله: فى الآية -التى نزلت بشـأنها- بيان إلى ما جبلت عليه المرأة المسلمة من شـريف الخلال ونبيل الخصال وكـريم الأخلاق، فأنت تراها فى هذه القصة مؤمنة تقية قوية الإيمان، عظيمة التقوى لله، تمنع نفسها زوجها حتى تعلم حكم الله ورسـوله، وتلجأ إلى الله وحـده فى حرارة ورجاء وأمـل تسأله أن ينزل تفريج كـربها على لسان نبـيها ﷺ، وتراها فقـيهة ذكـية الفؤاد تقرع الحـجة بالحجة والدليل بـالدليل، وتراها وفية لزوجها، أمـينة على صحبتـه، حفيظة على حقوق عشرته، وتراها مربية فاضلة تقدر حياة الأسرة قدرها، وتحافظ على كيانها، وتعلم أن الأسرة المبتورة لا خير فيها، وأنهـا إن ضمتهم إلي أبيهم دونها ضاعوا إذ فقـدوا المربى الأول وهو الأم، وإن ضمـتهم إليـها دونه جاعـوا إذ فقـدوا العائل

القـوى، فمـا أفضلـه إدراكًا لمهـمة كل ركن من ركـنى الأسرة وتحـديد الحقـوق والواجبات فى إجمال وإيجاز[١].

مكانة عالية:

ولقد عرف الصـحابة رضى الله عنهم لخولة رضى الله عنها هذه المـكانة العالية والفضل الكبـير، ولاسيمـا عمر رضى الله عنه إذ كـانت تحظى لديه بهذه المكانة، فقد روى أن عمر رضى الله عنه مَرَّ بخولة فى أيام خلافته، ومعه الجارود العبدى، فسلم عـمر عليهـا، فردت عليه السلام، وقـالت: قف يا عمر، فـوقف لها ودنا منها، وأصـغى إليهـا، وأطالت الوقوف، وأغلظت القـول ووعظته، فـقالت له: هيـهات يا عـمر، عـهدتك وأنت تسـمى عـميـرًا فى سوق عكاظ ترعى الضـأن بعصـاك، فلم تذهب الأيام حتى سميـت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سـميت أمير المؤمنين، فاتق الله فى الرعية، واعلم أنه من خاف الوعـيد قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خشى الفوت، فقال لها الجـارود: قد أكثرت أيتها المرأة على أمير المؤمنين، فقـال عمر: دعهـا، أو تدرى مَنْ هذه؟ قال: لا، قال عمـر: هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سـبع سماوات، أيسمع رب العالمين قولهـا ولا يسمعه عمر؟! وعمر والله أحق أن يسمع لها؛ هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تنصرف عنى إلى الليل ما انصرفت حتى تقضى حاجتها[٢].

تلكم هى خولة بنت ثعلبة عرف الصحابة رضى الله عنهم لها قدرها ومكانتها، فهل لنا أن نتعرف عـليها حتى نتخذها قدوة لنا، رضى الله عـن خولة وجعلها فى جنات النعيم.

***

(١) مقاصد القرآن الكريم، للإمام الشهيد حسن البنا، ص ٤٢١.

(٢) انظر هذه القصة بألفاظ متقاربة فى: أسد الغابة ٥/ ٤٤٤، والإصابة ٨/ ٦٩.

فاطمة بنت الخطاب
رضى الله عنها
(١٩)

نَسَبُها

فاطمة بنت الخطاب(١):

نحن الآن أمام صحابية جليلة القدر عظيمة الشأن. .ذات مبدأ كريم وفت له، وثبتت عليه، ودعت إليه فى شجاعة وقوة لا تخشى فى الله لومة لائم. . فى حياتها عبرة للنساء وقدوة لهن فى الحكمة والعقل وحسن التصرف.

إنها فاطمة بنت الخطاب بن نفيل بن العزى بن عبدالله بن قرط بن رياح بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب القرشية العدوية.

أخت عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وثانى الخلفاء الراشدين، وزيد بن الخطاب الصحابى الجليل. .

وأمها: حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومية.

وأما زوجها فهو: سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، أحد العشرة المبشرين بالجنة ومن السابقين إلى الإسلام. .

قال ابن الأثير: فاطمة أخت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، وامرأة سعيد ابن زيد بن عمرو بن نفيل العدوى أحد العشرة المبشرين بالجنة(٢)،وهى أم ولده عبدالرحمن الأكبر(٣)، قال الدارقطنى فى كتاب الأخوة: إن اسمها أميمة، قال:

(١) ابن سعد ٨/ ١٩٥، والأصابة ٨/ ١٦١، ١٦٢ (٨٣٣)،٨/ ٢١٨ (١١٧٣)، والاستيعاب ٤/ ٣٨٢، ٣٨٣، وأسد الغابة ٥/ ٥١٩، والسيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٥٣، ٢٥٤، ومجمع الزوائد ٩/ ٢٦٣، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٣٩٤ (٣٥٣٨)، ٢/ ٣١٤ (٣٨٠٥)، والثقات ٣/ ٣٣٥، وتلقيح فهوم أهل الأثر ص٣٢٠، ٣٢١، وشذرات الذهب ٢/ ٤٢، والمعجم الكبير للطبرانى ٢٤/ ٣٦٣، وتاريخ الإسلام «السيرة النبوية» ص١٣٨، ونسب قريش ص٣٦٦، وصفة الصفوة ٢/ ٤٢، وفتح البارى ١٢/ ٣١٦، وجمهرة أنساب العرب ص١٥١، وأعلام النساء ٤/ ٥٠ - ٥٢، والأعلام للزركلى ٥/ ١٣١، والمستدرك ٤/ ٥٩، ٦٠.

(٢) أسد الغابة ٥/ ٥١٩،وانظر ترجمته فى: جمهرة أنساب العرب، ص١٥١، والمعارف، ص٢٤٥، ٢٤٦، والعقد الثمين ٤/ ٥٥٩ ـ ٥٦٤ (١٢٨٤).

(٣) وهو القائل:

فإن يقتلونا يوم حرة واقم ... فنحن على الإسلام أول من قَتَلْ
ونحن قتلناكم ببدرٍ أذلة ... وأبنا بأسلاب لنا منكم نفل
فإن ينج منها عائذ البيت سالما ... فكل الذى قد نالنا منكم جلل

انظر: نسب قريش، ص٣٦٦، وجمهرة أنساب العرب، ص١٥١.

وولدت لسعيد بن زيـد ابنه عبدالرحمن، وقال ابن حجر فـى الإصابة: قال الزبير: إن والدة عبدالرحـمن الأكبر بن سعيد بن زيـد هى أم جميل بنت الخطاب، فكان اسمـها فاطمـة، ولقبها أمـيمة، وكنيـتها أم جـميل[١] وقال ابن سعـد فى كتاب النسب: إن التى تزوجها سعيد بن زيد هى أم جميل بنت الخطاب[٢].

أولئك المقربون:

امتدح الله عز وجل السابقين إلى الإيمان وبيّن ما لهم من الفضل والمنزلة، فقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٠-١٢].

ولما أشرق نور الإسـلام كانت فاطمـة بنت الخطاب رضى الله عنها فى مقـدمة المسلمات الأول، فأسلمت هى وزوجـها قبل أخيها عمـر، وقبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم [٣]، وورد أن أول من أسلم من النسـاء بعـد خديجـة رضى الله عنها: أم الفضل زوج العباس بن عبدالمطلب، وأسماء بنت أبى بكر، وفاطمة بنت الخطاب رضى الله عنهن[٤]، وقـال ابن الأثيـر: أسلمت قـديمًا أول الإسـلام مع زوجها سعيد قبل إسلام أخيها عمر، وهى كانت سبب إسلام أخيها[٥]، ثم كانت هجرتها إلى المدينة مع زوجها، قال ابن عـبد البر: أسلمت فاطمة رضى الله عنها قديمًا، وقيل: أسلمت قبل زوجها، وقيل مع زوجها[٦].

وهكذا أسلما مـعًا وهاجـرا معًا مما يدلنا على التـوافق والانسجـام داخل البيت المسلم، ويدلنا أيضـا على أن يحسن المسلم اختـيار شريكـة حياته وتحـسن المسلمة اختيار شـريك حياتها، ولابد للمسلمة أن تدقق النظر وترجع البصـر حتى تتعرف على كريم خصاله وحـميد فعاله، فإذا أدركت التقارب بينهـما والتوافق فى الطباع والأخلاق أعطت موافقتها..

(١) الإصابة ٨/ ١٦١.

(٢، ٣) ابن سعد ٨/١٩٥.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٥٣، ٢٥٤، وتاريخ الإسلام «السيرة النبوية» ص١٣٨، ١٣٩.

(٥) أسد الغابة لأبن الأثير ٥/٥١٩، وانظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص٩٤، ٩٥.

(٦) الاستيعاب ١٣/ ١١١، طبعة المكتبات الأزهرية.

فاطمة والدعوة إلى الله

حِرْصٌ وحذر:

لقد مرت الدعـوة فى تاريخها بمرحلة يطلق عليها أهل السيـرة: (سرية الدعوة) كان المسلمون فيـها يستخفون بدينهم، ويُعَذَّبون ويضطهـدون، وكانوا يتخذون من دار الأرقم مأوى يلتقون فـيه بالنبىﷺ، كما كانوا يتعبدون فـيه أو فى شعاب مكة بعيدًا عن أنظار المشركين فى مجموعات أو فرادى.

وكان قد أسلم من النسـاء فى تلك الفترة ثلاث عشرة امـرأة، من بينهن فاطمة رضى الله عنها - كما سبق - وكانت تلك الفترة تحتاج إلى الحـذر الشديد، ولقد شاركت النساء مع الرجـال فى تحمل أعباء هذه المرحلة، فكُنَّ أهلا للقيـام بالأعباء وتحمل المسـؤوليات العظيـمة والتـضحيـات الجسيـمة، مـثلهن مثل الرجـال سواء بسواء[١]، وكانت من بينهن فاطمة رضى الله عنها حيث قامت بدور عظيم خدمت به دعوة الإسلام.

تروى عائشة رضى الله عنهـا أن أبا بكر رضى الله عنه ألّح على رسول الله ﷺ فى الظهور أمام المشركين، حتى ظهـر رسول الله ﷺ، وتفرق المسلمون فى نواحى المسجد، كل رجل فى عشيـرته، وقام أبو بكر فى الناس خطيبًا، فكان أول خطيب دعا إلى الله ورسوله، فثار المشركـون على أبى بكر، وضربوه ضربًا شديدًا حتى ما يُعرف وجهه من أنفه، وجاءت بنو تيم[٢] فأجلت المشركين عن أبى بكر، وحملت بنو تيم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله وهم لا يشكون فى موته، وقالوا لأمه: انظرى أن تطعميه شيئًا أو تسقيه إياه، فلما خلت به وسألته عن حاله، جعل يقول: ما فـعل رسول الله ﷺ؟ فقـالت: والله ما لى علم بصـاحبك، فـقال: اذهبى إلى فاطمة بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت فاطمة، فقالت: إن أبا بكر

(١) دور المرأة فى حمل الدعوة، محمد حسين عيسى، ص٣٢ بتصرف.

(٢) بنو تيم: أهل وعشيرة أبى بكر رضى الله عنه.

يسألك عن محمـد بن عبدالله، فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محـمد بن عبدالله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك، قالت: نعم، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعًا دنفًا(١)، فدنت فاطمـة منه وأعلنت بالصياح، قـائلة: والله إن قومًا نالوا هذا منك أهل فـسق وكفر، وإنى لأرجـو أن ينتقم الله لك منهم، قال: فـما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صـالح، قال: أين هو؟ قـالت: فى دار الأرقم، قال: فـإن لله علىّ ألا أذوق طعامًا ولا شرابًا أو آتى رسول الله ﷺ. فـأمهلتا، حتى إذا هدأت الرِّجل وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما، حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ(٢).

درسٌ نتعلمه:

إن كل مسلم مطالب بأن يكون على قدر كبير من اليقظة والحذر، فالمؤمن كَيِّسٌ فَطِنٌ، فـلابد أن يكون أهلاً للمسـؤوليـة المنوطة به، ويؤدى دوره فى الحيـاة وفق منهج دقيق منظم، وهذا يتطلب منه إحكـام أعماله، وضبط تصرفـاته توخيًا لدفع كيد أعدائه.

والحس الأمنى لابد منه لكل فرد من أفـراد الأمة فى كل أمر من أمور حـياته، الخاصة منها والعـامة، قال رسول الله ﷺ: «استـعينوا على إنجاح الحوائج بالكتـمان فإن كل ذى نعمة محسود»(٣)، فإذا كان الكتمان فى الحوائج الشخصية المادية مطلوبًا ومأمورًا به، ففى الحوائج العامة المتعلقة بمصير الأمة من باب أولى.

وهذا ما كان واضـحًا جليًا لدى أفراد الصحـابة رضى الله عنهم فى بدء الدعوة بمكة، وكان واضحًا أيضا عند فاطمة رضى الله عنها، مما يؤكد مدى اهتمام السلف رضى الله عنهم بهذا الجانب وتطبيقه فى الحياة العملية للدعوة، وقد استخدموا مع

(١) ثقيل المرض قريبًا من الموت.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢/ ٣٠، وانظر: السيرة النبوية للندوى، ص١١٢.

(٣) الطبرانى فى الكبيـر ٢٠/ ٩٤ (١٨٣)، وأبو نعيم فى الحلية ٥/ ٣١٥، ٩٦٦، والبيـهقى فى شعب الإيمان ١٢/ ٤٢، ٤٣ (٦٢٢٨) كلهم عن معاذ بن جبل، قال محقق الطـبرانى: وله شواهد كثيرة يرتقى بها إلى الصحة وإن كـان فى إسناده سعيد بن سـلام العطار، قال فى مجمع الزوائد ٨/ ١٩٥، قـال العجلى: لا بأس به، وكذبه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات إلا أن خالد بن معدان لم يسمع من معاذ.

كل موقف ما يناسبه ويتطلبه من تصرف حذر سليم[1]، وهذا ما يتضح لنا بجلاء في تصرفات فاطمة رضي الله عنها، لعل من أهمها:

أولاً: إخفاء الشخصية والمعلومة عن طريق الإنكار:

فعندما سألت أم الخير أم جميل عن مكان رسول الله ﷺ أنكرت أنها تعرف أبا بكر ومحمد بن عبدالله، فهذا تصرف حذر سليم، إذ لم تكن أم الخير ساعتئذ مسلمة، وأم جميل كانت تخفي إسلامها ولا تود أن تعلم به أم الخير، وفي ذات الوقت أخفت عنها مكان رسول الله ﷺ مخافة أن تكون عينًا لقريش.

ثانيًا: استغلال الموقف لإيصال المعلومة:

فأم جميل أرادت أن تقوم بإيصال المعلومة بنفسها لسيدنا أبي بكر رضي الله عنه، وفي ذات الوقت لم تظهر ذلك لأم الخير إمعانًا في السرية والكتمان فاستغلت الموقف لصالحها قائلة: (إن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك فعلت)، وقد عرضت عليها هذا الطلب بطريقة تنم عن الذكاء وحسن التصرف، فقولها: إن كنت تحبين - وهي أمه - وقولها: إلى ابنك، ولم تقل لها إلى أبي بكر، كل ذلك يحرك في أم الخير عاطفة الأمومة، فغالبًا ما ترضخ لهذا الطلب، وهذا ما تم بالفعل، حيث أجابتها بقولها: نعم، وبالتالي نجحت فاطمة رضي الله عنها في إيصال المعلومة بنفسها.

ثالثًا: استغلال الموقف في كسب عطف العدو:

يبدو أن أم جميل فاطمة رضي الله عنها حاولت أن تكسب عطف أم الخير فاستغلت وضع سيدنا أبي بكر رضي الله عنه الذي يظهر فيه صريعًا دنفًا فأعلنت بالصياح، وسبت من قام بهذا الفعل بقولها: إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، فلا شك أن هذا الموقف من فاطمة رضي الله عنها يشفي بعض غليل أم الخير من الذين فعلوا ذلك بابنها، فقد تُكِنّ شيئًا من الحب لفاطمة، وبهذا تكون

(١) في السيرة النبوية، قراءة لجوانب الحذر والحماية، د.إبراهيم علي محمد أحمد، كتاب الأمة (٥٤)، ص٤٨، بتصرف.

قد كسبت عطف أم الخير وثقتها، الأمر الذى يسهل مهمة فاطمة رضى الله عنها فى إيصال المعلومة إلى أبى بكر رضى الله عنه.

رابعًا: الاحتياط والتأنى قبل النطق بالمعلومة:

لقد كانت فاطمة رضى الله عنها فى غاية الحيطة والحذر من أن تتسرب هذه المعلومة الخطيرة عن مكان قائد الدعوة، فهى لم تطمئن بعد إلى أم الخير؛ لأنها مازالت مشركة آنذاك، وبالتالى لم تأمن جانبها، لذا ترددت عندما سألها سيدنا أبو بكر عن حال رسول الله ﷺ، فقالت له: هذه أمك تسمع؟ فقال لها: لا شىء عليك منها، فأخبرته ساعتها بأن الرسول ﷺ سالم صالح، وزيادة فى الحيطة والحذر والتكتم لم تخبره مكانه إلا بعد أن سألها عنه قائلاً: أين هو؟ فأجابته فى دار الأرقم، فلم تنطق رضى الله عنها بما تعلم إلا بعد الإذن وفى حدود السؤال فقط.

خامسًا: تخير الوقت المناسب لتنفيذ المهمة:

حين طلب أبوبكر رضى الله عنه الذهاب إلى دار الأرقم لم تستجب له فاطمة رضى الله عنها على الفور، بل تأخرت عن الاستجابة، حتى إذا هدأت الرِّجْل وسكن الناس، وخرجت به ومعها أمه يتكئ عليهما، فهذا هو أنسب وقت للتحرك وتنفيذ هذه المهمة، حيث تنعدم الرقابة من قبل أعداء الدعوة مما يقلل من فرص كشفها، وقد نفذت المهمة بالفعل دون أن يشعر بها الأعداء، حتى دخلتا بصحبة أبى بكر إلى دار الأرقم، وهذا يؤكد أن الوقت المختار كان أنسب الأوقات[1].

وهكذا يتجلى لنا ذلك الوعى العظيم والتصرف السليم من فاطمة رضى الله عنها، وهى تحافظ على سرية الدعوة، وتؤدى دورها بشجاعة وثبات رغم ما يحيط بها وبدعوتها من أخطار وتحديات.

نتعاون فى أمر الدعوة:

إن من الممكن بناء على ما تقدم أن تكون النساء عنصرًا فعالاً فى الدعوة مع الرجال، وأن يكنّ موطن أسرار وحلقات اتصال، وخصوصًا فى أوقات الشدة،

(١) فى السيرة النبوية، قراءة لجوانب الحذر والحماية، د. إبراهيم على محمد أحمد، مرجع سابق، ص٥٤- ٥٨.

كما كانت فاطمة رضى الله عنها معها سر تحركات رسول الله ﷺ، وهذا يعنى أنهن كنّ منظمات ومدربات على شؤون الدعوة فى جميع مراحلها(١).

صبر وثبات:

لقد نال فاطمة رضى الله عنها من الابتلاء والأذى ما نال الثلة الأولى من المؤمنين، ولكنها صبرت واحتسبت كل ما لاقته فى سبيل الله عز وجل، يقول زوجها سعيد بن زيد رضى الله عنه: والله لقد رأيتنى وإن عمر لموثقى على الإسلام أنا وأخته قبل أن يسلم عمر(٢)، وهو يعنى بذلك مدى معاناته هو وزوجته فاطمة قبل إسلام أخيها، ويقول ابن حجر: فى قوله: لموثقى على الإسلام أى ربطه بسبب إسلامه إهانة له وإلزامًا بالرجوع عن الإسلام(٣)، ولكن مع هذا العذاب والتوثيق صبرا واحتملا واختارا الهوان على الكفر، ولهذا وضع الإمام البخارى هذا الحديث فى كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، وهذا من فقه الإمام البخارى رحمه الله.

وقال ابن حزم: أسلمت فاطمة قبل عمر رضى الله عنهم، وكان عمر يعذبها على الإسلام(٤).

لقد أوذيت فاطمة رضى الله عنها وزوجها معها، مع صحابة النبى ﷺ حتى مات منهم من مات تحت العذاب، وعمى من عمى، رغم عظيم فضلهم وجليل قدرهم عند الله عز وجل، وعلى المسلمين أن يستبشروا بالنصر كلما رأوا أنهم يتحملون مزيدًا من الضر والنكبات سعيًا إلى تحقيق أمر ربهم عز وجل، يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

---

(١) النساء الداعيات: د. توفيق الواعى، ص١٩٥، بتصرف.

(٢) البخارى فى مناقب الأنصار، باب إسلام سعيد بن زيد ٧/ ١٧٦، ١٧٨ (٣٨٦٢،٣٨٦٧)، وفى الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر ١٢/ ٣١٥ (٦٩٤٢).

(٣) فتح البارى ٧/ ١٧٦.

(٤) جمهرة أنساب العرب، ابن حزم الأندلسى، ص١٥١.

وقـد أثر هذا المعنى فى حملة دعوة الحق فى كل زمان ومكان؛ لذلك لا نستغرب من كلامهم مثل قولهم: ستجدون أمامكم كثيرًا من المشقات، وسيعترضكم كثير من العقبات، وفى هذا الوقت وحده تكونون قد بدأتم تسلكون سبيل أصحاب الدعوات(١).

إن أعداء الحق - دائمًا وأبدًا - خاسرون، وهم يتسببون فى عكس ما يرغبون، لكنهم لا يعلمون، إذ يريدون وأد هذه الدعوة وهذا الدين، ولكن الله غالبٌ على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فقد انهار الطغاة أمام صبر الدعاة، ولقى أعداء الإسلام وزبانيتهم أسوأ المصير، وزادت نسبة الذين يحملون الدعوة ويعلونها على نسبة الذين تحملهم الدعوة فيثقلونها، وما أعطى المسلم عطاء أعظم من الصبر.

فاطمة الداعية:

إن من فضل الله تعالى على فاطمة رضى الله عنها أنه لا يذكر إسلام عمر رضى الله عنه إلا وتذكر معه، فقد كانت رضى الله عنها مفتاح الإسلام إلى قلبه، وكان بيتها هو بداية الخير إليه، تقول كتب السيرة عن إسلام عمر مع الجمع بينها: إن عمر كان معروفًا بحدة طبعه وفرط عداوته لرسول الله ﷺ، فخرج يومًا متوشحًا سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطًا من أصحابه الذين ظلوا معه ولم يهاجروا إلى الحبشة.. فلقيه نعيم بن عبد الله النحام، فقال له: أين تريد يا عمر؟ قال: أريد محمدًا هذا الصابئ الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله، فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك يا عمر!! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدًا؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأى أهل بيتى؟ قال: ختنك - صهرك - وابن عمك سعيد وأختك فاطمة، فقد والله أسلما وتابعا محمدًا على دينه فعليك بهما، فمشى عمر مغضبًا حتى أتاهما، وعندهما خبَّاب بن الأرت رضى الله عنه معه صحيفة فيها ﴿طه﴾ يقرئهما إياها، فلما سمعوا حِس عمر، توارى خبَّاب فى البيت، وأخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وكان عمر قد سمع حين دنا من البيت

(١) فى رياض الجنة، جاسم عبد الرحمن ١/ ٦٢.

قراءة خبّاب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهينمة[١] التى سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئًا، قال: بلى والله لقد أخبـرت أنكما تابعتما محمدًا على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة فى شجاعة عظيمة لتكفه عن زوجها فضربها فشجها.

فلما فعـل ذلك لم تخش على نفسها، وقـالت له: نعم قد أسلمنا، وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك، وكأنها تقول قول سحرة فرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٢، ٧٣].

وكان لقولـتها وثباتها فـى وجه عمر رعدة ورهبـة فى قلبه، فلما رأى عـمر ما بأخته من الـدم ندم على ما صنع فارعوى، وقـال لأخته: أعطينى هذه الصحـيفة التى سمـعتكم تقرأون آنفًا أنظر مـا هذا الذى جاء به محمـد، وكان عمر كـاتبًا، فقالت له أخته: إنا نخشاك عليهـا، قال: لا تخافى، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليـها، فلما قال ذلك طمـعت فى إسلامه، فـقالت له: يا أخى، إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسـها إلا الطاهر، فقام عـمر فاغتـسل، فأعطته الصحـيفة وفيها ﴿طه﴾ فقرأها، فلما قرأ منها صدرًا، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه.

لقد ظهر عند فاطمة رضى الله عنها بحس الداعية، أنه قد حدث تغير عند عمر بعدما قرأ الآيـات، فتطلعت إلى إسلامه، ولكنها مع هذا لم تنس مـبادئ دعوتها أمام رهبتـه، فقالت له بخطاب الواثقة المعلمة الداعـية: إنك نجس على شركك.. فقام واستجاب للأمر.. وكان بداية الخير.

فى هذه اللحظات الطيبـة يخرج خباب رضى الله عنه، ويقول لعـمر: أبشر يا عمر والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإنى سمعته أمس، وهو يقول: «اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشـام أو بعمر بن الخطاب»[٢]. فالله الله يا

(١) الهينمة: الصوت الخفى الذى يُسمع ولا يفهم المراد منه.

(٢) رواه الترمـذى فى المناقب، ٥/ ٢٧٩ (٣٧٦٤)، وصححه الألـبانى فى صحيح سنن التـرمذى (٢٩٠٧)، وأحمد فى مسنده ٢/ ٩٥، وابن سعد ٣/ ٢٦٩.

عمر، فـقال له عند ذلك عمر: فدلنى يا خـباب على محمد حـتى آتيه، فأسلم، فقال له خبـاب: هو فى بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصـحابه، بعد ذلك اتجه عمر إلى الصفـا حيث دار الأرقم، وفيها أعلن عمـر إسلامه بين يدى النبى ﷺ، ويكبر المسلمون فـرحًا بإسلام عمر، وتقـر عين فاطمة بإسلام أخيهـا، حيث كان إسلامـه فى ذى الحجـة سنة ست من النبوة بعـد ثلاثة أيام من إسلام حـمزة ابن عبدالمطلب رضى الله عنهما (١).

إن موقف فاطمة رضى الله عنهـا بما فيه من قوة وشجاعة وثبـات، وما فيه من طهارة الـوجدان وصفـاء النفس، يدعونا إلى إدراك مـا فى شخـصيـتهـا من قوة وصلابة، (لقد تحطمت العصـبية الكالحة الخانقة على صـلابة العقيدة من هذه المرأة العزلاء فاطمة أخته، لقد وجد نفسه صغـيرًا تافهًا أمام الدم المنفجر من جرح أخته العزلاء من كل شىء وهى تتحدى شخصه، وتهشم كبرياءه بثباتها، إن قمة العنف والطغيان لدى الطاغية قد تنهزم داخليًا وتتـحطم وتنهار أمام ثبات المستضعفين على الحق، وجلاد وتضحـية المجاهدين فى سبيل الله، فلنتـيقظ إلى هذا الجانب المهم، ونعرف كم تربح الدعوة ويربح الدعـاة حين يثبتون على الحق، كمـا ثبت أصحاب عيسى ابن مريم حُملوا على الخشب ونشروا بالمناشـير، مادون لحمهم وعظامهم ما صدهم ذلك عن دين الله)(٢).

وماذا سـيكون لو لـم تكن شجاعـة فاطمة وثبـاتها، هل كان سـيتأثر عـمر أو يستجيب؟

لقد فتحت فـاطمة رضى الله عنها لنفسهـا بابًا من الأجر لا يُغلق، وإنه ليتنامى يومًا بعد يوم، وإن ما فعله عمر رضى الله عنه من خير، وما قدمه من بذل وعمل وجهاد وتضحيات. . وكل إحسان أجراه الله على يديه، إنما كان لفاطمة رضى الله عنها نصيب منه، فالدال على الخير كفاعله.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٩٥، ٩٦، وتاريخ الإسلام «السيرة النبوية» ص١٧٤، ١٧٥، وصفة الصفوة ١/ ١٤٠، ١٤١، ومناقب أمير المؤمنين لابن الجوزى، ص١٥، ١٦، والمستدرك ٤/ ٩٥.

(٢) المنهج الحركى للسيرة النبوية، د. منير محمد الغضبان، ص ٨٤، ٨٥.

فقه وفهم:

مما سبق يتبين لنا مشاركة المرأة فـي الدعوة إلى الله برغم تعرضها للأذى، وأنها تتلقى العلم والفقه مع الرجال، بل إن فـاطمة رضى الله عنها هى التى تولت إقناع عمر بالإسـلام، وإنها على علم بالفقـه، حيث تعلم نجاسة الكفـار، فلم تقبل أن يمس عمر القرآن قبل أن يغتسل(١).

كما تعطينا هذه القصة عدة ملامح فى الفهم:

أولاً: سرعة وسلامة التصرف حيال الطوارئ:

إن سرعة التصرف وعدم الارتباك من الأمور الهامة والضرورية؛ لتفادى الحالات الطارئة التى قد يتعرض لهـا أهل الدعوة، فمتى ما كان التصرف سليـمًا وسريعًا، أمكن تفـادى الخطر، وكانت النتـائج إيجابيـة غالبًـا؛ لذا كان تصـرف المجمـوعة الدعوية المكونة من سـعيد بن زيد وخباب بن الأرت وفـاطمة بنت الخطاب رضى الله عنهم سـريعًا وسـليمًـا، حيث تـغيب خـباب فى المخـدع، وأخـفت فاطمـة الصحيـفة، وتصدى سعيد لمـقابلته وفتح الباب له، وذلك عندمـا علموا أن القادم عمر المعروف بشدته ضد الدعوة والدعاة.

ثانيًا: إخفاء الأثر من العدو:

إخفاء الأثر من العدو أمرٌ لابد منه، فـالأثر كالخيط والدليل الذى يقود الأعداء إلى مبتـغاهم؛ لذا يجب إخفاء وإزالة أى أثر يمت إلى الدعـوة أو المدعوين بصلة، وهذا ما فـعَلته فاطمة رضـى الله عنها حين جعلت الصـحيفة تحت فـخذها، وهو موضع لا يتطرق إليه الشك، وبالتالى تكون قد أخفت وثيقة خطيرة عن أعين عمر بن الخطاب بالرغم من أنه اطلع عليها فيما بعد، ولكن العبرة بالتصرف السليم فى إخفاء الأثر.

ثالثًا: اختفاء خباب رضى الله عنه:

إن اختـفاء خبـاب رضى الله عنه لم يكن عن جبن أو خـوف، بل هو تصرف أمنى تمليه ظروف الزمان والمكان، ويتطلبه الموقف، فإذا وجد عمر خباب مع سعيد

(١) دور المرأة فى حمل الدعوة، محمد حسين عيسى، ص٣٥.

وفاطمة، فإن هـذا يؤدى إلى كشف معلومة خطيرة وبالغة الأثر علـى سير الدعوة فى مـثل هذه المـرحلة، وهى خطة وضـعت لـتـعليم المسلمين فـى تلك الظروف الصعبـة، فإذا علم عمر بذلك أخبر قـريشًا، وربما نتج عن ذلك مراقبة دقـيقة لمنع مثل هذا النوع من الاجـتماعات، وبالتالى تخـسر الدعوة وسيلة هامـة وفعالة فى تعليم المستجيبين، وحتى لا يتحقق ذلك كان اختفاء خباب رضى الله عنه.

رابعًا: خفض الصوت أثناء الاجتماع:

لقد كـان سيـدنا خباب رضـى الله عنه يقرئ سعـيدًا وفـاطمة القـرآن بصوت منخفض، لدرجة أن الـذى بالباب لم يستطع أن يتبينـه، حيث وصفه سيـدنا عمر بـ: الهينمة، وهى صوت كلام لا يفهم، وهذا تصرف أمنى ضرورى.

خامسًا: التعريض والتورية[1]:

عندما سأل عمر عن الصوت غير المفهوم، كانت الإجابة بعبارة تحمل فى ظاهرها خلاف مـا يريده قائلـها، وهذا نوع من التـورية،فهم لم ينكرا أن هناك صـوتًا، بل اعترفا بأنه حديث دار بينهما، وهو حس أمنى عالٍ لسعيد وفاطمة رضى الله عنهما، فعـادة الحديث الذى يدور بين اثنين يكون بصوت منخـفض لا يميزه من يكون على مقربة؛ لذا يمكن أن يوصف بالهـينمة، فهما لم ينكرا وإلا لتأكد لعـمر أنهما يكذبان ويخفيان عنه الحقـيقة وذلك لسماعه الصوت، لكنهما اعـترفا دون أن يصرحا بما فى أنفسهما، وهو نوع من التعريض المطلوب فى مثل هذا الموقف.

سادسًا: استغلال الفرصة لكسب العدو:

ويظهر ذلك عندما طلب عمر من فاطمة أن تعطيه الصـحيفة، فاستغلت فاطمة الفرصة السانحة، فطلبت منه أن يغتسل فـفعل، ثم قرأ فخشع، وهنا خرج خباب بعد أن سمع ثناء عمر على القرآن فاسـتغل ذلك الموقف، فقال: أبشر يا عمر والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ﷺ، فإنى سمعته أمس وهو يقول: «اللهم أيد الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبى الحكم ابن هشام» فالله الله يا عمر.

---

(١) التعريض: إيهام السامع بكلمة أو عبارة تفيد من ظاهرها خلاف ما يريده قائلها، والتورية: الستر، يقال: وريت الخبر أوريه تورية، إذا سترته وأظهرت غيره. لسان العرب ٧/ ١٨٣، ١٥/ ٣٨٩.

من ذلك يتضح مدى اليقظة التي كان يتمتع بها كل من خباب وفاطمة رضى الله عنهما، والقدرة على اغتنام الفرص لكسب العدو، وكان نتاج ذلك أن أسلم سيدنا عمر رضى الله عنه(١).

وهكذا ينبغى أن يكون الدعاة إلى الله عزوجل على قدر كبير من الوعى واللباقة، وحضور البديهة وحدة الذكاء، وحسن التصرف، مما يجعلهم قادرين على تخطى المآزق الحرجة والأزمات الطارئة، فى مسيرتهم الإيمانية والدعوية.

الأمل واليأس:

وفى إسلام عمر رضى الله عنه درس للمسلمات الداعيات ألا يستسلمن إلى اليأس ولا ينهزمن أمامه، فالداعية يملأ اليقين قلبها، وشعاع الأمل ينير طريقها، ويسهل لها الصعاب، ويقرب لها البعيد، ويبدد لها غيوم اليأس، وداعية يعتريها اليأس من استجابة الناس لها لا تصلح أن تكون داعية، ولا يمكن أن تنجح لها دعوة أو تنتشر لها فكرة.

إن فى هذا دعوة إلى الداعيات المسلمات أن يصبرن وأن ينفذن بدعوتهن إلى القلوب، وأن يبحثن عن المعدن النفيس وينقبن عنه، وأن يُغرن إلى الفطرة فهناك الخير كامن وهناك الحق أبلج، ففاطمة رضى الله عنها لم ينقطع أملها ولم يتبدد فى دعوة أخيها، فطرقت الباب والتمست السبب، ففتح الله قلبه لها وكانت سببًا فى إسلامه، فلا عجب أن يذكرها عمر رضى الله عنه فى شعره وأن يعترف بفضلها:

الحمدلله ذى المنّ الذى وجبت ... له علينا أيادٍ ما لها غِيَرُ(١)
وقد بدأنا فكذَّبنا فقال لنا ... صدق الحديث نبيٌّ عنده الخبر
وقد ظلمت ابنة الخطاب ثم هدى ... ربى عشية قالوا: قد صبا عمرُ
وقد ندمت على ما كان من زلل ... بظلمها حين تُتلى عندها السور

(١) فى السيرة النبوية «قراءة لجوانب الحذر والحماية»، د. إبراهيم على محمد أحمد، ص٥٤ ـ ٥٨.

فلما دعت ربهًا ذا العرش جاهدة والدَّمع من عينها عجلان يبتدر
أيقنت أن الذى تدعوه خالقها فكاد تسبقنى من عبرة درر
فقلت: أشهد أن الله خالقنا وأن أحمد فينا اليوم مشتهر
نبيٌّ صدق أتى بالحق من ثقة وافى الأمانة ما فى عوده خور

نتعلم:

١- أن للمرأة المسلمة دورًا عظيمًا فى خدمة هذا الدين، وفى نشر قيمه وأخلاقه.

٢- أن من أبرز واجبات المرأة المسلمة أن تكون زوجًا صابرة تقف مع زوجها فى السراء والضراء.

٣- أن الأم المثالية هى الأم التى تعطى القدوة من نفسها.

مكانتها وفضلها

سبق وفضل:

لقد كانت فاطمة رضى الله عنها من صفوة النساء اللاتى أحرزن قصب السبق إلى الإيمان دون غيرها من الرجال والنساء، قال ابن حجر رحمه الله فى فضل فاطمة رضى الله عنها: فاطمة بنت الخطاب هى أول امرأة أسلمت بعد خديجة فيما يقال، وقيل: سبقتها أم الفضل زوج العباس رضى الله عنها(١)، ويحدد ابن هشام فى سيرته وقت إسلامها فيقول: أسلمت فاطمة مع زوجها سعيد بن زيد إثر دعوة أبى بكر لزوجها، وكان مبكرًا فى إسلامه مع الثلة الأولى من الصحابة(٢).

إنها لمزية عظيمة ومنقبة جليلة، وناهيك بفضيلة السبق إلى الإسلام: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

إن أولى السابقة هم الذين تحملوا المسؤولية فى ظروف الشدة والخطر، فالمهاجرون ضحوا بالأهل والمال والديار، وهاجروا لنصرة عقيدتهم، والأنصار عرّضوا مدينتهم للخطر وآثروا العقيدة بالنفس والمال والأمن.

وقد تفاضل الصحابة حسب قدمهم فى الإسلام.. ولا شك أن أصحاب السابقة هؤلاء يمتازون بأنهم رموز الدعوة الإسلامية ومثلها العليا، وكانت أعمالهم سوابق تحتذى، وسوابق يقاس عليها، وذلك فى الحديث: «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ»(٣).

ونجد الآية الكريمة التى سبقت توجه المؤمنين إلى اتباع أهل السابقة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبة: ١٠٠].

(١) فتح البارى ٣١٦/١٢.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢٥٣/١، ٢٥٤.

(٣) أبو داود فى السنة، باب فى لزوم السنة ٤/ ٢٠٠ (٤٦٠٧)، والترمذى فى أبواب العلم، باب الأخذ بالسنة واجتناب البدعة ١٤٩/٤، ١٥٠ (٢٨١٦)، وقال: حسن صحيح، كلاهما عن العرباض بن سارية.

إن لكل مجتمع رموزًا وقادة يمثلون قيمه، ويوجهون الأمة نحوها، ورموز المجتمع الإسلامى الأول هم صحابة رسول الله ﷺ وأفضلهم أهل السابقة، فقد محصتهم الفتن، وامتحنوا بالنفس والنفيس فاسترخصوا كل شىء من أجل رفع راية العقيدة الإسلامية(١).

سجل فخر:

ولقد تشبعت فاطمة رضى الله عنها بمبادئ الإسلام العظيم وعاشت مع زوجها سعيد رضى الله عنه أسعد حياة، فكانت نموذجا إسلاميًا رائعًا للمرأة المسلمة، شاركته حلو الحياة ومرها، وقامت بواجبها نحو دينها معه فى الدعوة إلى الله عز وجل، وحسبها رضى الله عنها إسلام الفاروق عمر على يديها..

مع طلائع المهاجرين:

ولما بدأ المسلمون الهجرة إلى المدينة المنورة، كانت رضى الله عنها فى عداد المهاجرين الأولين بصحبة زوجها رضى الله عنها، وهكذا حظيت رضى الله عنها بثواب الهجرة العظيم: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾[آل عمران: ١٩٥].

روايتها للحديث:

ذكر ابن الجوزى رحمه الله أن فاطمة رضى الله عنها قد روت الكثير عن النبى ﷺ، ولم يذكر لها شىء فى الصحيح، وأورد ابن حجر حديثًا لها فى الإصابة، قالت فيه: إنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لاتزال أمتى بخير ما لم يظهر فيهم حب الدنيا، فى علماء فساق، وقراء جهّال وجبابرة، فإذا ظهرت خشيتُ أن يعمهم الله بعقاب»(٢).

رضى الله عن فاطمة بنت الخطاب فقد فتحت لنفسها بابًا من الأجر لا يغلق، وأثرًا كريمًا تُذكر به على مدى الأيام..

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة، د. أكرم ضياء العمرى، ص٦٧٥ - ٦٧٨، بتصرف.

(٢) الإصابة ٨/ ١٦١.

أم عطية الأنصارية
رضى الله عنها
(٢٠)

نَسَبُها

أم عطية(١):

لقد ازدان تاريخ الإسلام بالحديث العاطر عن النساء الصحابيات، وستظل هذه الأسماء على مر العصور مصدراً من مصادر التربية والتوجيه للمرأة المسلمة.

وهذه صحابية جليلة اجتمع لها من فضائل الخير وشمائل البر ورجاحة العقل ما لم يجتمع إلا للقليل النادر من الرجال، فقد كانت من التضحية والجود بالنفس بحيث يُضرب ببذلها وجهادها المثل؟.

إنها نسيبة بنت الحارث الأنصارية، والتي غلبت عليها كنيتها: أم عطية، قال ابن حجر في التهذيب: ضبطها ابن ماكولا بفتح النون، وقال في الإصابة: بنون وسين مهملة وباء موحدة مصغرة، وقيل: بفتح النون وكسر السين، معروفة باسمها وكنيتها، وهي بنت الحارث - كما تقدم - وقيل: بنت كعب، وأنكره أبو عمر؛ لأن نسيبة بنت كعب أم عمارة(٢).

كانت أم عطية رضي الله عنها من كبار نساء الصحابة وفاضلاتهن، قال ابن سعد: أسلمت وبايعت رسول الله ﷺ، وغزت معه وروت عنه، فعن حفصة بنت سيرين عن أم عطية، قالت: غزوتُ مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، فكنت

---

(١) أحمد ٦/ ٤٠٧-٤٠٩، وابن سعد ٨/ ٣٣٣، ٣٣٤، وأسد الغابة ٥/ ٦٠٣، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٣١٨، والطبراني في الكبير ٢٥/ ٤٤-٦٩، وفتح الباري ٣/ ١٢٧، ١٢٨، والمنتظم ٤/ ٢٤٦، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٤٨٢، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٦٤، وتهذيب الكمال ٣/ ١٧٠٤، تهذيب الكمال ٣/ ٣٩٤ (١٦٣)، وتذكرة الحفاظ ١/ ٤٧، والمقتنى في سرد الكنى ٢/ ١٧٠ (٦٩٧٧)، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٣٢٩ (٣٩٩٩)، والثقات ٣/ ٤٢٣، وتحفة الأشراف ١٢/ ٥٠١-٥١٦، والإصابة ٨/ ٢٥٩، والاستيعاب ٤/ ٤١٧-٤٧٢، والإكمال في رفع الارتياب ٧/ ٣٣٧، والجرح والتعديل ٩/ ٤٦٥ (٢٣٧٩)، وصفة الصفوة ٢/ ٥٠، وأعلام النساء ٥/ ١٧١، وتاريخ الإسلام (٦١-٨٠هـ) ص٢٨٩، ٢٩٠ (١٣٠)، والمنتظم ٤/ ٢٤٦ (١٦٨)، والرياض المستطابة، ص٣٢٨، ٣٢٩، وبقي بن مخلد، ص٨٧ (٨١)، وطبقات خليفة، ص٣٤١، والمعين في طبقات المحدثين، ص٣٠ (١٧٦)، والطبقات لمسلم ١/ ٢٢١ (٦٠١)، والكاشف ٣/ ٤٣٦، ٤٤٢.

(٢) الإصابة ٨/ ٢٥٩.

أصنع لهم طعامهم، وأخلفهم فى رحالهم، وأداوى الجرحى، وأقوم على المرضى[١].

بيعتها للنبى ﷺ:

لقد كانت أم عطية رضى الله عنها من الصحابيات اللائى كان لهن حضور مشهود على ساحة الأحداث فى عصر النبوة، فشاركت بداية فى مبايعة النبى ﷺ، قالت رضى الله عنها: بايعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا: ﴿أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ آية البيعة، ونهانا عن النياحة، فقبضت امرأة يدها، فقالت: أسعدتنى[٢] فلانة، أريد أن أجزيها، فما قال لها النبى ﷺ شيئًا، فانطلقت ورجعت فبايعها[٣].

وكان الجزاء الوحيد لمن شاركن فى هذه البيعة المباركة: الجنة، كما قال ﷺ، ونتعلم من ذلك أن دعوة الله يجب أن تبقى بريئة نزيهة، تتسامى فى نزاهتها حتى تجاوز المطامع الشخصية، وتُخَلِّف وراءها الأهواء والأغراض.

لذلك يقول دعاة الحق لكل نفعى: ليس عندنا من جزاء إلا ثواب الله إن أخلصت، والجنة إن علم الله عز وجل فيك خيرًا، أما نحن فمغمورون جاهًا، فقراء مالاً، شأننا التضحية بما معنا وبذل ما فى أيدينا، ورجاؤنا رضوان الله وهو نِعْمَ المولى ونِعْمَ النصير[٤].

إن فى مبايعة النبى ﷺ للنساء المسلمات على الإسلام والسمع والطاعة تأكيد على استقلال شخصية المرأة المسلمة وأهليتها لتحمل المسؤولية فى البيعة والعهد وإعطاء الولاء لله ولرسوله.

(١) ابن سعد ٨/ ٣٣٣.

(٢) الإسعاد: قيام المرأة مع الأخرى فى النياحة تراسلها، وهو خاص بهذا المعنى ولا يستعمل إلا فى البكاء والمساعدة عليه، فتح البارى ٨/ ٦٣٨.

(٣) البخارى فى التفسير، باب ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ ٨/ ٦٣٧ (٤٨٩٢)، قال الحافظ ابن حجر فى الفتح ٨/ ٦٣٩: إن أقرب الأجوبة أنها كانت مباحة ثم كرهت كراهة تنزيه ثم تحريم، والله أعلم.

(٤) فى رياض الجنة، جاسم عبد الرحمن ١/ ٨٣.

وفاء والتزام:

لقد وفت أم عطيـة رضى الله عنها فى بيعتـها وصدقت فى التزامـها، فعن ابن سيرين قال: جاءت أم عطيـة رضى الله عنها - امرأة من الأنصار من اللاتى بايعن - قدمت البصرة تبـادر ابنًا لها فلم تدركه(١) . . . وفى رواية: توفى ابن لأم عطية رضى الله عنها، فلما كان اليوم الثالث دعت بصفرة فتمسحت به، وقالت: نُهينا أن نحد أكثر من ثلاث إلا بزوج(٢).

إن ما فعلته أم عطية رضى الله عنها لدليل على صدق إيمانها وحسن اتباعها لهدى النبى ﷺ ، فلا مقام أشرف من مقام متابعـته واقتفاء أثره والالتزام بسنته، إنها رضى الله عنهـا لم تكد فتـرة الحداد تنتـهى حتى دعت بالطيب تتطيب به، وقـد يكون لا حاجة لها به، مع بقاء آثار الحـزن على ولدها الذى رحلت إليه ومات قبل أن تلقاه، ومع شده مصابها ووجدها، لكنها رضى الله عنها لم يسعها إلا امتثال الأمر . .

فما أحرى مسلمة اليوم أن تتحرى دائمًا مرضاة الله عز وجل فى أعمالها، تأتى ما أمـر الله به، وتنتهى عما نهـى عنه . . والحق إن دعوة الإسلام اليوم أحـوج ما تكون إلى مثل هذه النماذج الكـريمة من النساء اللاتى يفتدين كلمـتهن بأرواحهن وما يملكن، لا يشغلهن مأرب تافه، ولا تتبع أنفسهن عرضًا زائلاً.

ومما يؤكد هذا المعنى عندها رضى الله عنها قولها: بايعنا رسول الله ﷺ ، فكان فيما أمرنا بالمعروف: أن لا ننوح، فقالت امرأة: يا رسول الله إن آل فلان أسعدتنى فلن أبايعك حـتى أسعدهن، قـالت: فأسعـدتهن ثم بايعته، قـالت: فلم تف منا امرأة غيرى وأم سليم (٣).

وروى البخارى ومسلم عنها، قالت رضى الله عـنها: أخذ النبى ﷺ عند البيعة أن لا ننوح، فما وفت منا امرأة غير خمس نسوة: أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبى سبرة امرأة معاذ، وامرأتين، أو ابنة أبى سبرة، وامرأة معاذ، وامرأة أخرى(٤).

---

(١) قال ابن حجر: وهذا الابن ما عرفت اسمه، وكأنه غازيًا فقدم البصرة، فبلغ أم عطية وهى بالمدينة قدومه وهو مريض، فرحلت إليه فمات قبل أن تلقاه، فتح البارى ٣/ ١٢٧.

(٢) البخارى فى الجنائز، باب إحداد المرأة على غير زوجها ٣/ ١٤٥ (١٢٧٩).

(٣) أحمد ٦/ ٨٥، ٤٠٨، والطبرانى فى الكبير ٢٥/ ٥٩ (١٣٥).

(٤) البـخارى فى الجنائز، باب مـا ينهى من النوح والبكاء والزجـر عن ذلك٣/ ١٧٦ (١٣٠٦)، وفى الأحكام، باب بيعة النساء ١٣/ ٢٠٣،٢٠٤ (٧٢١٥)، ومسلم فى الجنائز، باب تحريم النياحة ٦/ ٢٢٧،٢٢٨ (٩٣٦).

قال القاضى عياض فى معناه: لم يف ممن بايع النبى ﷺ مع أم عطية فى الوقت الذى بايعت فيه من النسوة إلا خمس، لا أنه لم يترك النياحة من المسلمات غير خمس[1].

وقال ابن حجر: وعُرف بمجموع هذه النسوة الخمس وهى: أم سليم وأم العلاء وأم كلثوم وأم عمرو وهند - إن كانت الرواية محفوظة - وإلا فيختلج فى خاطرى أن الخامسة هى أم عطية راوية الحديث، ثم وجدت ما يؤيده،- وذكر حديث الطبرانى السابق - ثم وجدت ما يرده وهو ما أخرجه إسحاق بن راهويه فى مسنده من طريق هشام بن حسان عن حفصة بنت سيرين عن أم عطية قالت: كان فيما أخذ علينا أن لا ننوح . . . فزاد فى آخره: وكانت لا تعد نفسها؛ لأنها لما كان يوم الحرة لم تزل النساء بها حتى قامت معهن، فكانت لا تعد نفسها لذلك، ويُجمع بأنها تركت عد نفسها من يوم الحرة، قلت: يوم الحرة قُتل فيه من الأنصار من لا يُحصى عدده، ونُهبت المدينة الشريفة، وبذل فيها السيف ثلاثة أيام، وكان ذلك فى أيام يزيد بن معاوية[2].

الصابرة الصادقة:

ونشير هنا إلى درس آخر نتعلمه من أم عطية رضى الله عنها، وهو الصبر عند المصائب، حيث صبرت رضى الله عنها على مصابها فى ولدها، ورضيت بقدر الله فيه، فكانت فى هذا الموقف مثال الأم الصابرة المحتسبة، ومثل أم عطية رضى الله عنها فلتكن النساء.

(إن المسلمة الواعية أحكام دينها، بصيرة متماسكة، إذا فُجِعَتْ بموت أحد أحبَّائها لا يستلب الحزن صوابها، ولا يفقدها السيطرة على نفسها، كما هو حال النساء الجاهلات الخفيفات الجزِعات، بل تصبر وتحتسب، وتأخذ بهدى الإسلام فى تصرفاتها كلها فى تلك الساعات العصيبة؛ لأنها تؤمن أن الموت حقٌّ، وأن كلَّ مَنْ

(١) مسلم بشرح النووى ٦/ ٢٣٨.

(٢) فتح البارى ٣/ ١٧٧، وانظر قصة الحرة فى: تاريخ الطبرى ٥/ ٤٨٢-٤٩٥، وتاريخ الإسلام للذهبى، حوادث ووفيات ٦١-٨٠هـ، ص٢٣-٣٢، والكامل لابن الأثير ٣/ ٣١٠-٣١٦، وكانت هذه الواقعة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ثلاث وستين.

عليها فـان، وأن الحياة ممرٌّ إلى الآخرة، حيث الخلـودِ فى جوار ربِّ العالمين، ومن هنا لا معنى لهذا الجـزع الأهوج الذى يفقد فيه الإنـسانُ توازنه، ويطيش صوابه، فإذا هو يضرب وجهه، ويمزّق ثيابه، ويصيح بالويل والندب والتهويل(١).

قدوة:

ولقد تمثل فـى أم عطية رضى الله عنها سلـوك الداعية القـدوة التى تنقل العلم وتعمل به، فيحذو الناس حـذوها وينسجون على منوالها، إذ روت عن النبى ﷺ وعملت بما روته، بل وأوصت بالعـمل به ودعت إليه، وتفقـهت فى دين الله عز وجل حتى صارت من فقهاء الصحابة اللاتى يُرجع إليهن فى الفتوى كما سيأتى.

الفقيهة العالمة:

قال الإمام الذهبى: كانت أم عطية رضى الله عنها من فقهاء الصحابة(٢)، وقال ابن حجر: وكان جماعة من الصحابة وعلمـاء التابعين بالبصرة يأخذون عنها غسل الميت(٣)، ولقد عـدّ الإمام ابن القيم أم عطية رضـى الله عنها فيمن كـان يفتى من الصحابة(٤)، ويتميـز فقه الصحابيات رضى الله عنهن بنوازل النسـاء، وما يختص بهن من زواج وإزواج وحيض وحمل، ورضاعة وحضـانة وتربية، والقيام بشؤون بيوتهن والستر واللباس وواجبات الأنوثة وحقوقها(٥).

فمن فـقههـا رضى الله عنها، قولهـا: ما كنا نعد الصـفرة والكدرة شيـئًا(٦)، وقولهـا: لا تلبس المرأة فى الإحداد الثيـاب المصبغـة إلا العصب(٧)، وأن لا تمس

---

(١) شخصية المرأة المسلمة، د. محمد على الهاشمى، ص٤٨١، ٤٨٢، بتصرف.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣١٨.

(٣) تهذيب التهذيب ٢١/ ٤٨٢.

(٤) إعلام الموقعين ١/ ١٠.

(٥) معجم فقه السلف، محمد المنتصر الكتانى ١/ ١٢.

(٦) البخارى فى الحيض، باب الصفرة والكدرة فى غير أيام الحيض ١/ ٤٢٦ (٣٢٦)، والكدرة والصفرة: الماء الذى تراه المرأة كالصديد يعلوه اصفرار، وقولها: شيئًا: أى من الحيض، فتح البارى ١/ ٤٢٦.

(٧) العصب: نوع من برود اليمن يعصب غزلها، أى يربط ثم يُصبغ ثم ينسج مـعصوبًا، فيخرج موشى لبقاء ما عُصب به أبيض لم ينصـبغ، وإنما يعصب السدى دون اللحمة، فتح البـارى ٩/ ٤٩١، ومسلم بشرح النووى ١٠/ ١١٨، والسدى: مـا مُدّ من خيوط الثـوب، وضده اللحمـة: وهو ما نسج عرضًا، الفـقه الإسلامى وأدلته، د. وهبة الزحيلى ٧/ ٦٦٢ هامش.

طيبًا إلا أدناه فى الطهر: القسط والأظفار، وأن لا تمس خضابًا، ولا تكتحل بكحل زينة[١].

وفى صحيح مسلم قالت رضى الله عنها: كنا نُنهى أن نحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا، ولا نكتحل ولا نتطيب، ولا تلبس ثوبًا مصبوغًا، وقد رُخِّص للمرأة فى طُهرها إذا اغتسلت إحدانا من محيضها فى نُبْذَة من قسط وأظفار[٢].

ومن فقهها رضى الله عنها قولها فى الماعون: ما يتعاطاه الناس بينهم[٣].

ومما يدل على وعيها بالسنة وفقهها فى الدين، ما روته حفصة بنت سيرين قالت: كنا نمنع عواتقنا أن يخرجن فى العيدين، فقدمت امرأة فنزلت قصر بنى خلف[٤]، فحدثت عن أختها - وكان زوج أختها غزا مع النبى ﷺ ثنتى عشرة غزوة، وكانت أختى معه فى ست - قالت: كنا نداوى الكلمى[٥]، ونقوم على المرضى، فسألت أختى النبى ﷺ: أعلى إحدانا بأسٌ إذا لم يكن لها جلباب أن لا تخرج؟ قال: «لتلبسها صاحبتها من جلبابها ولتشهد الخير ودعوة المسلمين»، فلما قدمت أم عطية سألتها: أسمعت النبى ﷺ؟ قالت: بأبى نعم - وكانت لا تذكره إلا قالت: (بأبى)[٦]- سمعته يقول: «يخرج العواتق وذوات الخدور[٧]-أو العواتق

(١) معجم فقه السلف ٧/ ٢٤١.

(٢) مسلم فى الطلاق، باب وجوب الإحداد فى عدة الوفاة ١٠/ ١١٨ (١٤٩١)، قال النووى: النبذة: القطعة والشيء اليسير، والقسط والأظفار: نوعان معروفان من البخور، وليسا من مقصود الطيب، رخص فيه للمغتسلة من الحيض لإزالة الرائحة الكريهة تتبع به أثر الدم لا للتطيب.

(٣) الطبرانى فى الكبير ٢٥/ ٦٦ (١٦٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٤٣: وفيه عبد الرحمن بن جبلة وهو متروك.

(٤) قصر بنى خلف: كان بالبصرة، وهو منسوب إلى طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعى المعروف بطلحة الطلحات، وقد وُلى إمرة سجستان، فتح البارى ١/ ٤٢٣.

(٥) الكَلْمى: جمع كليم أى جريح.

(٦) قولها: بأبى، أى أفديه بأبى أو هو المفدى بأبى، ووقع عند أحمد من طريق حفصة عن أم عطية قالت: أمرنا رسول الله ﷺ بأبى وأمى. . .، وهذا من عظيم حبها وتكريمها لرسول الله ﷺ حيث آثرته وافتدته بنفسها وأهلها.

(٧) العواتق: جمع عاتق وهى من بلغت الحلم أو قاربت أو استحقت التزويج، أو هى الكريمة على أهلها، أو التى عتقت عن الامتهان فى الخروج للخدمة، وكأنهم كانوا يمنعون العواتق من الخروج لِما حدث بعد العصر الأول من الفساد، ولم تلاحظ الصحابة ذلك بل رأت استمرار الحكم على ما كان عليه فى زمن النبى ﷺ، وذوات الخدور: جمع خدر وهو ستر يكون فى ناحية البيت تقعد البكر وراءه، فتح البارى ١/ ٤٢٣.

ذوات الخدور- والحُيَّض وليشهدن الخير ودعوة المؤمنين، ويعتزل الحُيَّض المصلى» قالت حفصة: قلت لها: آلحُيَّض؟ قالت: نعم أليس الحائض تشهد عرفات، وتشهد كذا وتشهد كذا[١]، أى ومزدلفة ومنى وغيرهما.

قال ابن حجر: وقد صرح فى حديث أم عطية بعلة الحكم وهو: شهودهن الخير ودعوة المسلمين ورجاء بركة ذلك اليوم وطهرته، وقد أفتت به أم عطية بعد النبى ﷺ بمدة كما فى هذا الحديث، ولم يثبت عن أحد من الصحابة مخالفتها فى ذلك[٢].

وعن علمها يقول ابن حجر فى الإصابة: وحديثها فى غُسل ابنة النبى ﷺ مشهور فى الصحيح[٣]، وكان جماعة من علماء التابعين يأخذون ذلك الحكم، وعند أبى داود من طريق قتادة عن محمد بن سيرين أنه كان يأخذ الغسل عن أم عطية حتى غسل الميت[٤].

إن المرأة المسلمة المعاصرة، إذ تقف أمام هذا النموذج المشرف للمرأة المسلمة؛ لتزداد حبًا فى العلم وإقبالاً عليه، فما خلد ذكر أعلام النساء إلا بالعلم، وما تبوأن تلك المكانة الرفيعة فى التاريخ إلا بالعلم، وما نمّى عقولهن وزودهن بسداد الرأى وبُعْدِ النظرة وقوة الشخصية ورجاحة العقل إلا العلم النافعُ والتوجيه السديد، والمسلمة الواعية هَدْىَ دينها فى كل زمان ومكان تدرك أهمية تحليها بالعلم النافع، وأثره فى شخصيتها وأولادها وأسرتها ومجتمعها، فتقبل عليه بنفس راغبة مطمئنة متعطشة إلى الحصول على ما ينفعها منه فى دينها ودنياها[٥].

---

(١) البخارى فى الحيض، باب شهود الحائض العيدين ودعوة المسلمين ويعتزلن المصلى ١/ ٤٢٣ (٣٢٤)، وفى الصلاة، باب وجوب الصلاة فى الثياب ١/ ٤٦٦ (٣٥١)، وفى العيدين، باب إذا لم يكن لها جلباب فى العيد ٢/ ٤٦٩ (٩٨٠)، ومسلم فى العيدين، باب إباحة خروج النساء فى العيدين إلى المصلى ٦/ ١٧٨ (٨٩٠).

(٢) فتح البارى ٢/ ٤٧٠، ٤٧١.

(٣) رواه البخارى فى الجنائز، باب ما يستحب أن يُغسل وترًا ٣/ ١٣٠ (١٢٥٤)، ومسلم فى الجنائز باب فى غسل الميت ٧/ ٢-٥ (٩٣٨).

(٤) الإصابة ٨/ ٢٥٩.

(٥) شخصية المرأة المسلمة، د. محمد على الهاشمى، ص١٢٢، ١٢٩، بتصرف.

رعايتها بيت النبى ﷺ:

فعن أم عطية رضى الله عنها قالت: دخل النبى ﷺ على عائشة رضى الله عنها، فقال لها: «عندكم شىء»؟ قالت: لا، إلا شىء بعثت به أم عطية من الشاة التى بُعثت إليها من الصدقة، قال: «إنه قد بلغت محلها»(١).

لقد علّم النبى ﷺ صحابته أن الحب هو أساس العلاقة بين أفراد المجتمع المسلم، وهذه صورة من روائع الحب والتكريم للنبى ﷺ، أبدتها أم عطية رضى الله عنها فى إهدائها وتواصلها مع بيت النبى ﷺ، وقد سبق قريبًا أنها رضى الله عنها ما كانت تذكره ﷺ إلا قالت: بأبى، وهذا هو الحب الصادق الذى يجب أن يكون عليه حال كل مسلم آمن بالله ورسوله.

ومن رعايتها لبيت النبى ﷺ غُسلها لابنته زينب، إذ خاطبها النبى ﷺ بقوله: «اغسلنها ثلاثا أو خمسًا أو أكثر من ذلك إن رأيتن ذلك،(٢) بماء وسدر، واجعلن فى الآخرة كافورًا أو شيئًا من كافور..». الحديث، وفى إحدى رواياته أنه ﷺ أمرها أن تغسل ابنته، وقال لها: «ابدأن بميامنها ومواضع الوضوء منها»(٣).

المجاهدة الراوية:

لقد كانت أم عطية رضى الله عنها من الصحابيات المجاهدات اللاتى شاركن مشاركة صادقة فى نصرة الإسلام والتضحية فى سبيله، حيث خرجت مع نسوة المدينة لتقوم بدورها وواجبها نحو المجاهدين، يروى مسلم فى صحيحه عنها رضى

(١) البخارى فى الهبة، باب قبول الهدية ٥/٢٠٣، ٢٠٤ (٢٥٧٩)، ومسلم فى الزكاة، باب إباحة الهدية للنبى ﷺ ولآله ٧، ٨ (١٠٧٦)، وقوله ﷺ: «إنه قد بلغ محلها» أى زال عنها حكم الصدقة المحرمة وصارت لى حلالاً، فتح البارى ٥/٢٠٤، وقال الإمام العينى: وإنما كان ﷺ يأكل الهدية دون الصدقة؛ لما فى الهدية من التآلف والدعاء إلى المحبة، وقال: «تهادوا تحابوا» وجائز أن يثيب عليها وأفضل منها، عمدة القارى شرح صحيح البخارى للإمام العينى ٩/ ٩٢.

(٢) بكسر الكاف خطابٌ لأم عطية، ومعناه: إن احتجن وليس معناه التخيير وتفويض ذلك إلى شهوتهن، وكانت أم عطية غاسلة للميتات، وكانت من فاضلات الصحابيات، مسلم بشرح النووى ٧/ ٣.

(٣) الحديث سبق تخريجه.

الله عنها قولها: غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات أخلفهم فى رحالهم، فأصنع لهم الطعام وأداوى الجرحى وأقوم على المرضى(١).

وقال محمد بن عمر: شهدت أم عطية رضى الله عنها خيبر مع رسول الله ﷺ(٢)، وقال النووى فى التهذيب: وهى من فاضلات الصحابيات والغازيات منهن مع رسول الله ﷺ(٣)، وقال ابن عبد البر: كانت تغزو مع رسول الله ﷺ تُمرِّض المرضى وتُداوى الجرحى(٤).

هذه هى الصورة المشرقة للمرأة المسلمة فى خير القرون، يوم كان الإسلام يعيش فى قلبها غضًا طريًا ناطقًا بحب الله ورسوله وعزة هذا الدين، وإنه لشرفٌ كبير أن تخرج للغزو مع رسول الله ﷺ نصرة لدين الله، وإعلاءً لكلمته، وإظهارًا للحق وجنده، فهل آن للمسلمة اليوم أن تعى دورها وتقوم بواجبها وتؤدى رسالتها؟

وفى مجال رواية الحديث النبوى الشريف، روت عن النبى ﷺ وعن عمر، وروى عنها أنس بن مالك، ومحمد بن سيرين وأخته حفصة بنت سيرين، وعبد الملك بن عمير، وإسماعيل بن عبد الرحمن، وعلى بن الأقمر، وأم شراحيل، وغيرهم..(٥).

قال النووى فى التهذيب: روى لها عن رسول الله ﷺ أربعون حديثًا، اتفق البخارى ومسلم على ستة، وانفرد كل واحد منهما بحديث واحد(٦).

وفاتها:

امتدت حياة أم عطية إلى حدود سنة سبعين(٧)، وكان المسلمون يعرفون لها فضلها ومكانتها، فكانوا يرجعون إليها فى الفتوى، ويأخذون برأيها فى بعض الأمور كما سبق، وثبت أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب كان يقيل فى بيتها ويزورها(٨).

---

(١) مسلم فى الجهاد، باب النساء الغازيات يرضخ لهن ولا يسهم ١٢/ ١٩٤ (١٨١٢)، وأحمد فى مسنده ٦/ ٤٠٧.

(٢) ابن سعد ٨/ ٣٣٤.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٦٤.

(٤) تهذيب التهذيب ٢١/ ٢٤.

(٥) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣١٨، والإصابة ٨/ ٢٥٩، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٤٨٢.

(٦) تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٦٤.

(٧) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣١٨.

(٨) ابن سعد ٨/ ٣٣٤.

مكانتها وفضلها

تَبَيّنَ لنا بجلاء أن أم عطية رضى الله عنها، امرأة لها قدرها ومكانتها بين الصحابيات جميعًا، قال النووى: وهى من فاضلات الصحابيات والغازيات منهن مع رسول الله ﷺ(١).

ولأم عطية رضى الله عنها مكانة سامية عند رسول الله ﷺ، حيث كانت تتردد على البيت النبوى، وتدخل على أمهات المؤمنين فتسمع وتتعلم، وترعى بنات النبى ﷺ.

اشتهرت رضى اللهعنها بعلمها وفقهها فى الدين حتى كان يُرجع إليها فى الفتوى.

وأم عطية رضى الله عنها نموذج أمثل للمرأة المسلمة فى: سبقها إلى الإسلام، فهى من أوائل المسلمين والمسلمات فى المدينة المنورة، وفى بيعتها للنبى ﷺ ووفائها والتزامها.. وفى صبرها وثباتها على فقدان ابنها الغازى فى سبيل الله.. وهى قدوة فى علمها وفقهها فى الدين ووعيها بسنة النبى الأمين ﷺ، وهى قدوة فى الجهاد فى سبيل الله وإيمانها بدورها ورسالتها حيث شاركت فى أغلب غزوات الرسول ﷺ تخلفهم فى رحالهم وتداوى جرحاهم وتشارك فى نقل الجرحى والقتلى إلى المدينة..

وقبل أن نغادر سيرة أم عطية رضى الله عنها نقول: ما أعظم المسلمة حين تحذو حذو أم عطية فى علمها وفقهها، وتتحلى بأخلاقها والتزامها ووفائها، ثم تنهض لمواصلة مسيرتها الجهادية دفاعًا عن الدين والعرض وردًا للأعداء وإعلاء لكلمة الله وحزبه، وإسقاطًا لراية الكفر وجنده..

رضى الله عن أم عطية الفقيهة العالمة والصابرة المجاهدة، فقد كانت نموذجًا طيبًا وسيرة حسنة فى التضحية والجهاد فى سبيل الله..

(١) تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٦٤.

الرُّبَيِّعُ بنت مُعَوِّذ الأنصارية

رضى الله عنها

(٢١)

نَسَبُها

الرُّبَيِّعُ بنتُ مُعَوِّذ[١] :

أشرق صبح الإسلام فى المدينة المنورة، وولى ليل الشرك عنها إلى غير رجعة، وبدأ أهل المدينة يدخلون فى دين الله عز وجل، وكان للنساء حظ وافر فى المسارعة إلى الإسلام، حيث انتظمن فيه، وسارعن إلى إعلان إيمانهن بالله الواحد الأحد.

من بينهن صحابية جليلة القدر عظيمة الشأن، من أسرة مجاهدة وبيت مبارك..

إنها: الرُّبَيِّعُ بنت مُعَوِّذ بن الحارث بن رفاعة بن الحارث بن سواد بن مالك بن غنم بن مالك بن النجار.

وأما أمها: أم يزيد بنت قيس بن زعوراء بن حرام بن جُنْدُب بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار.

وأما جدتها لأبيها: فهى عفراء بنت عبيدة، من المبايعات للنبى ﷺ، وأم كل من: معاذ ومُعَوِّذ وعوف من زوجها الأول الحارث بن رفاعة، ثم تزوجت البكير ابن ياليل الليثى، فولدت له أربعة: إياسًا وعاقلاً وخالدًا وعامرًا وكلهم شهدوا بدرًا[٢].

(١) ابن سعد ٨/ ٣٢٧، ٣٢٨، وأسد الغابة ٥/ ٤٥١،٤٥٢، والإصابة ٨/ ٧٩، ٨٠ (٤١٣)، والاستيعاب ٤/ ٣٠٨،٣٠٩، والطبرانى فى الكبير ٢٤/ ٢٦٥، وتحفة الأشراف ١١/ ٣٠١-٣٠٥، والكاشف ٣/ ٤٢٥ (٥٠)، وفتح البارى ٧/ ٣١٦، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٤٣،٣٤٤، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٢٦٧ (٣٢٢٢)، والثقات ٣/ ١٣٢، والإكمال فى رفع الارتياب ٤/ ١٩، ٢٠، والمسند ٦/ ٣٥٨-٣٦٠، والبداية والنهاية ٧/ ٣٢٤، وصفة الصفوة ٢/ ٥٠، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٤٤٧ (٢٧٨٩)، وتاريخ الإسلام (٦١-٨٠هـ) ص٤٠٢ (١٦٧)، وسير أعلام النبلاء ٣/ ١٩٨-٢٠٠، والمؤتلف ٢/ ١٠٢٣، وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال ٣/ ٣٨١ (٦٢)، والأعلام للزركلى ٣/ ١٥، وأعلام النساء ١/ ٤٤٢،٤٤٣، والمنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ٥/ ١٣٧ (٢٩٥) والطبقات لمسلم ١/ ٢١٣ (٥٤٣)، والرياض المستطابة ص (٣٢١). وتصحيفات المحدثين ٣/ ١١١٠، وتبصير المنتبه ٢/ ٥٩١، ومقدمة مسند بقى بن مخلد ص٩٠ (١٢٢)، وطبقات خليفة، ص٣٣٩، والمعين فى طبقات المحدثين، ص٢٩ (١٦٢).

(٢) انظر ترجمة عفراء رضى الله عنها فى: الإصابة ٨/ ١٤٤ (٧٢٥)، وابن سعد ٨/ ٣٢٥، وصفة الصفوة ٢/ ٥٠، والرياض المستطابة، ص١٥.

قال ابن حجر: وعفراء هذه لها خصيصة لا توجد لغيرها، وهى أنها تزوجت بعد الحارث البكير بن ياليل الليثى فولدت له أربعة: إياسًا، وعاقلاً، وخالدًا وعامرًا، وكلهم شهدوا بدرًا، وكذلك إخوتهم لأمهم بنو الحارث، فانتظم من هذا أنها امرأة صحابية لها سبعة أولاد شهدوا كلهم بدرًا مع النبى ﷺ[(١)].

ولا ينبغى أن نمر على هذه المرأة مرورًا سريعًا دون أن نلفت النظر إلى فضلها، فهى امرأة أنجبت هؤلاء الرجال وربتهم على التضحية والجهاد فى سبيل الله، ونُسبوا إليها فازدادوا بهذه النسبة فخرًا وشرفًا؛ لأنه بمثل هذه المؤمنة يفخر الإسلام والمسلمون، وبمثل أبنائها تعلو كلمة الحق وتزهق كلمة الباطل، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

أسرة مباركة:

نشأت صحابيتنا الجليلة فى أسرة مباركة مجاهدة، عُرفت بالفضل والخير طيلة حياتها، حيث أسهمت فى نصرة الإسلام والتمكين له، جدة مؤمنة تدفع بأبنائها إلى ميدان الجهاد ولا تضن بهم، وأب شهد غزوة بدر وقتل فرعون هذه الأمة أبا جهل، وعمها الأول معاذ شهد العقبة الأولى مع الستة الذين هم أول من لقى النبى ﷺ من الأوس والخزرج، ثم شهد بدرًا وشارك فى قتل أبى جهل..

وعمها الثانى عوف شارك فى بدر أيضًا، حيث اندفع إلى النبى ﷺ يسأله: يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده؟ فقال النبى ﷺ: «أن يراه وقد غمس يده فى القتال يقاتل حاسرًا»[(٢)] فنزع عوف درعه التى كانت عليه فقذفها بعيدًا ثم أخذ سيفه وتقدم وقاتل حتى قُتل شهيدًا[(٣)].

لقد أبلت هذه الأسرة الكريمة فى بدر البلاء الحسن، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، فاستحقوا جميعًا المكانة العالية والمنزلة السامية، جاء جبريل عليه السلام إلى النبى ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين» أو كلمة نحوها[(٤)]، قال: كذلك من شهد بدرًا من الملائكة[(٥)].

---

(١) الإصابة ٨/ ١٤٤.

(٢) حاسرًا: دون درع.

(٣) أسد الغابة ٤/ ١٥٥، ١٥٦.

(٤) فى رواية قال ﷺ «خيارنا».

(٥) البخارى فى المغازى، باب شهود الملائكة بدرًا ٧/ ٣١١، ٣١٢ (٣٩٩٢).

إسلام وبيعة:

أما عن إسلام الرُّبَيِّع رضى الله عنها، فقد أسلمت بإسلام أهل بيتها، حيث انتشر الإسلام فى المدينة ولم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ، ولم يبق بيت إلا وفيه يُقرأ القرآن،ولما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة بابعت الرُّبيع بنت معوذ وأهل بيتها النبى ﷺ، قال ابن سعد: أسلمت الرُبيع وبايعت رسول الله ﷺ(١).

وبعد سنتين من الهجرة المباركة كانت وقعة بدر حيث استشهد أبوها فحزنت لموته رضى الله عنها حزنًا شديدًا، ولكنها رضى الله عنها احتسبته عند الله عز وجل، وحسبها أنه رضى الله عنه مات شهيدًا على أرض بدر.

***

(١) ابن سعد ٨/ ٣٢٧.

حياة حافلة

زواجها:

تزوجت الرُّبَيِّع رضى الله عنها بعد استشهاد أبيها بإياس بن بكير الصحابى الجليل(١)، وفى يوم زواجها منه زارها النبى ﷺ فى بيتها تكريمًا لها ووفاءً لأبيها . .

عن خالد بن ذكوان، قال: دخلنا على الرُّبيع بنت معوذ، فقالت: دخل علىّ رسول الله ﷺ فى يوم عرسى - وفى رواية: حين بُنى علىّ - فقعد على موضع فراشى هذا، وعندنا جاريتان تضربان بِدُفٍ وتندبان(٢) آبائى الذين قُتلوا فى يوم بدر(٣)، وقالتا فيما تقولان:

وفـينا نبى يعلم ما يكون فى غد

فقال ﷺ: «أما هذا فلا تقولاه» وفى رواية: «دعى هذه وقولى بالذى كنت تقولين»(٤).

تكريمٌ ووفاء:

لقد كان لزيارة النبى ﷺ للرُّبَيِّع يوم زواجها أكبر الأثر فى حياتها، حتى إنها رضى الله عنها لتظل تذكرها وتحدث بها، سعيدة بما خصها ﷺ من تكريم وتشريف، يقول الذهبى رحمه الله: وقد زارها النبى ﷺ صبيحة عُرسها صِلةً لرحمها.

(١) كان رضى الله عنه من السابقين إلى الإسلام، أسلم ورسول الله ﷺ فى دار الأرقم، وكان من المهاجرين الأولين، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وتوفى سنة أربع وثلاثين، انظر ترجمته فى : ابن سعد ٣/ ٢٨٣، وأسد الغابة ١/ ١٥٢.

(٢) من الندبة بضم النون، وهى ذكر أوصاف الميت بالثناء عليه وتعديد محاسنه بالكرم والشجاعة ونحوها. فتح البارى ٩/ ٢٠٣.

(٣) آباؤها الذين شهدوا بدرًا: معوذ ومعاذ وعوف، وأحدهم أبوها والآخران عماها، أطلقت الأبوة عليهما تغليبًا. فتح البارى ٩/ ٢٠٣.

(٤) البخارى فى النكاح، باب ضرب الدف فى النكاح والوليمة ٩/ ٢٠٢ (٥١٤٧)، والمغازى، باب من شهد بدرًا ٧/ ٣١٥ (٤٠٠١)، وفى المسند ٦/ ٣٥٩، وقوله ﷺ: «دعى هذه» أى اتركى ما يتعلق بمدحى الذى فيه الإطراء المنهى عنه، زاد فى رواية حماد بن سلمة: «لا يعلم ما غد إلا الله»، فأشار إلى علة المنع، وقال: «وإنما أنكر عليها ما ذكر من الإطراء حيث أطلق علم الغيب له وهو صفة تختص بالله تعالى كما قال تعالى: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. . وسائر ما كان النبى ﷺ يخبر به من الغيوب بإعلام الله تعالى إياه لا أنه يستقل بعلم ذلك، كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] فتح البارى ٩/ ٢٠٣.

وهكذا حظيت رضى الله عنها بشرف حضوره ﷺ وشرف جلوسه على فراشها، وحسبها بذلك شرفًا ورفعة، ويالوفاء النبوة الكريم! وبرها الواسع الودود!.

إن المسلمة إزاء هذا الهدى النبوى الكريم، لا يسعها إلا أن تقبل على أخواتها المسلمات وأرحامها بالزيارة التى توطد أواصر القربى وتفجر ينابيع المحبة والمودة.. إذ الحب فى الله عز وجل هو الآصرة التى تربط القلوب وتقوى الصفوف، وليس الإيمان إلا الحب فى الله والبغض فى الله، والحب هو سلامة الصدر، والدعاء بظهر الغيب والإيثار، ووسيلة كل ذلك هو التزاور والتواصل.

تهادوا تحابوا:

لقد كان من هدى النبى ﷺ أنه كان يقبل الهدية من أصحابه ويهديهم توثيقًا لعرى المحبة والمودة، تقول الربيع رضى الله عنها: أهديت إلى رسول الله ﷺ قناعًا من رطب[١]، وأجر زغب[٢]، قالت رضى الله عنها: فأعطانى ملء كفيه حليًا، أو قال: ذهبًا، فقال: «تحلى بهذه»[٣].

وفى الطبرانى قالت: بعثنى معوذ بن عفراء بقناع من رُطبٍ عليه أجر من قثاء زغب إلى رسول الله ﷺ وكان النبى ﷺ يحب القثاء، وكانت حلية قدمت من البحرين فملأ يده منها فأعطانيها، وفى رواية: فأعطانى ملء كفى حليًا أو ذهبًا[٤].

إن المهاداة بين الناس تزيد فى الحب والألفة، وتعمق روابط الأخوة؛ لقول النبى ﷺ «تهادوا تحابوا»[٥] وقوله ﷺ «أجيبوا الداعى ولا تردوا الهدية»[٦]، وعن عائشة رضى الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها»[٧]، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها

(١) القناع: الطبق من عُسُبِ النخْلِ يوضع فيه الطعام، والجمع أقناع وأقنعة، لسان العرب ٨/ ٣٠١.
(٢) أجْر زُغْب: صغار القثّاء، لسان العرب ١/ ٤٥٠.
(٣) أحمد فى مسنده ٦/ ٣٥٩، وانظر: حياة الصحابة ٢/ ٥٧٧.
(٤) الطبرانى فى الكبير ٢٤/ ٢٧٤ (٦٩٧)، وقال الهيثمى فى المجمع ٩/ ١٣: وإسنادهما حسن.
(٥) البخارى فى الأدب المفرد، باب قبول الهدية، ص٢٠٨ (٥٩٤)، والبيهقى فى شعب الإيمان ١٥/ ٥١٨، ٥١٩ (٨٥٦٨)، وقال المحقق: إسناده حسن.
(٦) البخارى فى الأدب المفرد، باب حُسن المَلَكة، ص٥٠ (١٥٧)، وأحمد ١/ ٤٠٤، ٤٠٥، وقال الهيثمى فى المجمع ٤/ ٥٢: رجال أحمد رجال الصحيح، ورواه البيهقى فى شعب الإيمان ٩/ ٥٤٨ (٤٩٧٤).
(٧) البخارى فى الهبة، باب المكافأة فى الهبة ٥/ ٥١٠ (٢٥٨٥).

ولو فرسن شاة»[١]، يقول ابن حجر: وفى حديث عائشة رضى الله عنها: يا نساء المؤمنين تهادوا ولو فرسن شاة، فإنه ينبت المودة ويذهب الضغائن، وفى الحديث: الحض على التهادى ولو باليسير؛ لأن الكثير قد لا يتوافر كل وقت، وإذا تواصل اليسير صار كثيرًا، وفيه: استحباب المودة وإسقاط الكلفة[٢].

مَكْرُمَةٌ:

ولقد كان النبى ﷺ يتفقد أحوالها ويزورها من وقت لآخر، وفى إحدى زياراته ﷺ لها، طلب منها أن تُحضر له وضوءه ففعلت، ثم طلب ﷺ منها أن تسكب الماء له ففعلت، حتى انتهى من وضوئه وهى تلاحظ فعل النبى ﷺ حتى ترويه للأمة فيما بعد.

وها هى رضى الله عنها تروى للأمة كلها صفة وضوء النبى ﷺ؛ تقول رضى الله عنها: كان رسول الله ﷺ يأتينا، فحدثتنا أنه قال:«اسكبى لى وَضُوءًا»، فذكرت وضوء رسول الله ﷺ، قالت فيه: فغسل كفيه ثلاثًا، ووضأ وجهه ثلاثًا، ومضمض واستنشق مرة، ووضأ يديه ثلاثًا ثلاثًا، ومسح رأسه مرتين، يبدأ بمؤخر رأسه ثم بمقدمه، وبأذنيه كلتيهما ظهورهما وبطونهما، ووضأ رجليه ثلاثًا ثلاثًا[٣].

وهكذا كانت زيارة النبى ﷺ للربيع رضى الله عنها ووضوؤه عندها بركة فى بيتها ومكرمة لها، وتعليمًا للأمة من خلالها، حتى إن كثيرًا من الصحابةوالتابعين ليأتون إليها يسألونها عن صفة وضوء النبى ﷺ، من ذلك ما رواه الطبرانى عن ابن عقيل قال: دخلت على الربيع بنت معوذ، فقالت: من أنت؟ فقلت: أنا عبد الله ابن محمد بن عقيل بن أبى طالب، قالت: فمن أمك؟ قلت: ربطة بنت على أو فلانة بنت على بن أبى طالب، قالت: مرحبًا بك يا ابن أختى، قلت: جئت أسألك عن وضوء رسول الله ﷺ، قالت: نعم كان رسول الله ﷺ يصلنا ويزورنا، وكان يتوضأ فى هذا الإناء أو فى مثل هذا الإناء.. ثم ذكرت وضوء النبى ﷺ[٤].

(١) البخارى فى الهبة، باب (١) ٥/١٩٧ (٢٥٦٦).

(٢) فتح البارى ٥/١٩٨.

(٣) أبو داود فى الطهارة، باب صفة وضوء النبى ﷺ ١/٣١ (١٢٦)، وابن ماجه مختصرًا فى الطهارة وسننها، باب ما جاء فى مسح الرأس ١/ ١٥٠ (٤٣٨)، والترمذى فى أبواب الطهارة ١/٤٩ (٣٤) وقال: وحديث الرُّبَيِّع حديث حسن صحيح.

(٤) الطبرانى فى الكبير ٢٤/٢٦٦ (٦٧٣)، وعبد الرزاق فى مصنفه ١/٣٧ (١١٩).

ومن جاءها يسألها عن صفة وضوء النبى ﷺ عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، قالت الربيع رضى الله عنها: أتانى ابن عباس، فسألنى عن هذا الحديث - تعنى حديثها الذى ذكرت أن رسول الله ﷺ توضأ وغسل رجليه - فقال ابن عباس: إن الناس أَبَوْا إلا الغَسْل، ولا أجد فى كتاب الله إلا المسح(١)،(٢).

اعتزاز:

لقد كانت الرُّبَيِّعُ رضى الله عنها معتزة بدينها، شامخة بإيمانها، ذكية حصيفة، جريئة شجاعة فى مواقفها، تقول الربيع رضى الله عنها: دخلت فى نسوة من الأنصار على أسماء بنت مُخَرِّبَةَ أم أبى جهل فى خلافة عمر بن الخطاب، وكان ابنها عياش بن عبد الله بن أبى ربيعة يبعث إليها من اليمن بعطر فكانت تبيعه، فقالت لى: أنت بنت قاتل سيده؟ قالت: لا ولكن بنت قاتل عبده، قالت: حرام علىّ أن أبيعك من عطرى شيئًا، قلت: وحرامٌ علىّ أن أشترى منه شيئًا، فما وجدت لعطرٍ نتنًا غير عطرك، ثم قمت ولا والله ما رأيت عطرًا أطيب من عطرها، ولكنى أردت أن أعيبه لأغيظها(٣).

وهكذا يكون اعتزاز المسلمة بشخصيتها المؤمنة، حيث اعتزت الرُّبيع بانتسابها إلى إبيها الشهيد الذى افتدى دينه وعقيدته بروحه ودمه، وأبت أن تشترى منها العطر مع علمها بجودته، ولكنه الولاء لله وحده وطلب مرضاته وإعلاء كلمته ومعاداة من عاداه.

---

(١) ابن ماجه فى الطهارة وسننها، باب ما جاء فى غسل القدمين ١/١٥٦ (٤٥٨)، وقال فى الزوائد: إسناده حسن، وعبد الرزاق فى مصنفه ١/٣٧ (١١٩).

(٢) هذا ما كان عليه ابن عباس رضى الله عنهما ولكنه رجع عنه، قال الحافظ فى الفتح: وقد تواترت الأخبار عن النبى ﷺ فى صفة وضوئه أنه غسل رجليه وهو المبين لأمر الله.. ولم يثبت عن أحد من الصحابة خلاف ذلك إلا عن على وابن عباس وأنس، وقد ثبت عنهم الرجوع عن ذلك، قال عبد الرحمن بن أبى ليلى: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على غسل القدمين، فتح البارى ١/٢٢٦.

والمعروف أنه لا يجزئ مسح القدمين لقوله ﷺ: «ويل للأعقاب من النار» فقد توعد على المسح، ولمداومته ﷺ على غَسْل الرجلين، وعدم ثبوت المسح عنه من وجه صحيح، ولأمره بالغسل كما ثبت فى حديث جابر عند الدارقطنى بلفظ: أمرنا رسول الله ﷺ إذا توضأنا للصلاة أن نغسل أرجلنا، ولثبوت ذلك من قوله وفعله ﷺ، كما فى حديث عمرو بن عَبَسة وأبى هريرة وعبد الله بن زيد ... الذى فيه حكاية وضوء رسول الله ﷺ وفيه: فغسل قدميه... نيل الأوطار ١/١٨٤، والفقه الإسلامى وأدلته ١/٢٢٣، ٢٢٤.

(٣) الإصابة ٨/٩، ١٠(٥٥)، وسير أعلام النبلاء ٣/١٩٩، والأغانى ١/٦٥، وأسد الغابة ٥/٤٥٢.

تربية حكيمة:

ولقد كانت الرُّبيع رضى الله عنها حكيمة فى تربية أولادها، بارعة فى تكوينهم، تسلك معهم أنجح الأساليب وأذكاها، فى تنشئتهم التنشئة الصالحة وربطهم بالعبادة والطاعة منذ نعومة أظفارهم وتعويدهم عليها حتى إذا كبروا أقاموها وحافظوا عليها.

تقول رضى الله عنها: أرسل رسول الله ﷺ صبيحة يوم عاشوراء إلى قرى الأنصار التى حول المدينة: «من كان أصبح صائمًا فليتم صومه، ومن كان أصبح مفطرًا فليصم بقية يومه» فكنا نصومه ونصوّم صبياننا الصغار، ونجعل لهم اللعبة من العهن، ونذهب بهن إلى البستان، وإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك حتى يكون عند الإفطار، وفى رواية قالت: ونصنع لهم اللعبة من العهن فنذهب به معنا، فإذا سألونا الطعام أعطيناهم اللعبة تلهيهم حتى يتموا صومهم[١].

قال الإمام النووى: وفى هذا الحديث تمرين الصبيان على الطاعات وتعويدهم العبادات، ولكنهم ليسوا مكلفين[٢]، وقال الإمام ابن حجر: وفى الحديث حجة على مشروعية تمرين الصبيان على الصيام؛ لأن من كان فى مثل السن الذى ذُكر فى هذا الحديث فهو غير مكلف، وإنما صُنع ذلك للتمرين[٣].

فانظرى أيتها المسلمة كيف كانت الرُّبيع رضى الله عنها حريصة على تدريب أولادها على الالتزام بشعائر الإسلام وعباداته، متبعة معهم الأساليب المحببة إلى قلوبهم مثل اللعب والتنزه، فاللعب يزيل ما يحس به الأولاد من السآمة والملل والتعب، ويجدد نشاطهم وحركتهم، وفى التنزه إشغال لهم وقضاء وقت سعيد تُروح فيه عن نفوسم وتُدخلُ به السرور عليهم ويمرحون معها ويستأنسون بها.

(لقد كانت الأم المسلمة شديدة الحرص على أن يتشرب ولدها الدين، فينشأ على الإيمان والإسلام، فكانت دائبة العمل على تحقيق ذلك بأية وسيلة؛ لأنها علمت أن سر الكون هو العبادة، وليست حياة الهمل والكسل فعاشت ذلك واقعًا وقدوة.

(١) البخارى فى الصيام، باب صوم الصبيان ٤/ ٢٠٠ (١٩٦٠)، ومسلم فى الصيام، باب صوم يوم عاشوراء ٨/ ١٣، ١٤ (١١٣٦).

(٢) مسلم بشرح النووى ٨/ ١٤.

(٣) فتح البارى ٤/ ٢٠١.

إن مهمة الأم المسلمة أن تغذى هذا الجانب فى نفس طفلها، فتبصره بآيات الله سبحانه فيتجه إلى الله سبحانه بالعبادة والتوحيد)[١].

وصف صادق:

شرفت الرُّبيع رضى الله عنها بصحبة النبى ﷺ، وتمتعت برؤيته ونهلت من معينه الصافى، وسمعت منه وروت عنه، وحظيت رضى الله عنها بحب النبى ﷺ ورعايته، وسعدت بنزوله عليها بين الفينة والفيْنة، وهذا من علامات اليُمْن والخير لها، ومما زادها يُمْنًا وسعادة زيارة النبى ﷺ لها يوم زواجها، وها هى رضى الله عنها تصف لنا النبى ﷺ بلهجة صادقة وعبارة موجزة تدل على فطنتها ورجاحة عقلها، سألها أبو عبيدة بن محمد قائلاً: صفى لى رسول الله ﷺ، فقالت رضى الله عنها: يا بنى لو رأيته لرأيت الشمس طالعة[٢]، ويا له من وصف صادق يعبر عن حبها الصادق للصادق الأمين ﷺ

المجاهدة:

لقد كانت الرُّبيع رضى الله عنها واحدة من رهط كريم أوقفن حياتهن على نصرة الدين والتمكين لدعوته، ولم تكن رضى الله عنها إلا نموذجًا لأخواتها المسلمات من هذا الجيل القرآنى الفريد اللاتى شاركن النبى ﷺ فى غزواته بكل صدق ويقين، وكيف لا وقد نشأت فى بيئة إيمانية، وعاشت فى ظلال الوحى الكريم، وبنت قاتل فرعون هذه الأمة..

شهدت رضى الله عنها عدة مشاهد مع رسول الله ﷺ، تقول رضى الله عنها: كنا نغزو مع النبى ﷺ فنسقى القوم ونخدمهم ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة[٣].

بيعة الرضوان:

ولما كان عام الحديبية خرجت الرُّبيع مع رسول الله ﷺ، وكان قد أرسل النبى ﷺ عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى قريش؛ كى يؤكد لهم أنه ما جاء لحرب

(١) الأمومة ومكانتها فى الإسلام.. د.مها عبد الله الأبرش ١/ ٦٤.

(٢) الطبرانى فى الكبير ٢٤/ ٢٧٤ (٦٩٦)، وقال الهيثمى فى المجمع ٨/ ٢٨٠: ورجاله وثقوا، وانظر: أسد الغابة ٥/ ٤٥٢، والمعرفة والتاريخ ٣/ ٣٠٠.

(٣) البخارى فى الجهاد، باب مداواة النساء الجرحى فى الغزو، وباب رد النساء الجرحى والقتلى ٦/ ٨٠ (٢٨٨٢،٢٨٨٣)، وأحمد ٦/ ٣٥٨، ٣٥٩.

وإنما جاء لأداء العمرة، فاحتبسته قريش وطال احتباسهم إياه، وبلغ رسول الله ﷺ إذ ذاك أن عثمان رضى الله عنه قد قُتل، فقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، فدعا رسول الله ﷺ إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان، وكانت الرُّبَيِّع ممن بايع النبى ﷺ، وقد أكرم الله رسوله ﷺ وكل من حضر هذه البيعة المباركة، فحباهم مرضاته التى تتقطع دونها الرقاب، وتقصر عنها معسولات الأمانى، وأنزل فى شأنهم قرآنًا خالدًا يُتلى ما دامت السموات والأرض ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

أنتم خير أهل الأرض:

وحظيت رضى الله عنها بالخيرية فى تلك البيعة المباركة، حيث شهد النبى ﷺ لكل من بايعه، بأنهم خير أهل الأرض، فعن جابر رضى الله عنهما قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم خير أهل الأرض»، وكنا ألفًا وأربعمائة، ولو كنت أُبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة(١).

كما أنها رضى الله عنها حظيت ببشارة النبى ﷺ: «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحدٌ الذين بايعوا تحتها..»(٢).

خلافٌ وفتوى:

اختلفت الرُّبيع رضى الله عنها مع زوجها(٣) أيام خلافة عثمان رضى الله عنه وكان بينهما شىء من كلام، تحكى رضى الله عنها قائلة: كان لى زوج يُقِلُّ الخير علىَّ إذا حضر، ويحرمنى إذا غاب، فكانت منى زلَّة يومًا، فقلت له: أختلع منك بكل شىء أملكه، فقال: نعم، قلت: ففعلت، فخاصم عمى معاذ بن عفراء إلى عثمان فأجاز الخلع...(٤).

---

(١) البخارى فى المغازى، باب غزوة الحديبية وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ ٧/ ٤٤٣ (٤١٥٤)، ومسلم فى الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة ١٣/ ٣(١٨٥٦).

(٢) مسلم فى الفضائل، باب من فضائل أصحاب الشجرة ١٦/ ٥٧، ٥٨ (٢٤٩٦) عن أم مُبَشِّر رضى الله عنها.

(٣) لم تذكر كتب التراجم أكان إياس بن بكير رضى الله عنه صاحب هذه الحادثة أم غيره.

(٤) عبد الرزاق فى مصنفه ٦/ ٥٠٤ (١١٨٥٠)، والبيهقى فى السنن الكبرى ٧/ ٣١٥، وسير أعلام النبلاء ٣/ ٢٠٠.

وفى رواية قالت: كـان بينى وبين ابن عمى كـلام أو محاورة، وهو زوجـها، قالت: فقلت له: لك كل شيء وفارقنى، قال: قد فعلت، قالت: فأخذ والله كل شيء كان لى حتى فراشي، قـالت: فجئت عثمان بن عفـان فذكرت ذلك له وقد حُصر، فقال: الشرط أملك، خذ كل شيء لها حتى عقاص رأسها(١) إن شئت.

يتضح لنا مما سـبق أن الخلاف كان واردًا فى بيوت الصحـابة وأزواجهن، ولكنه كان بحدود وضوابط، وهذا درس لكل زوجـين اختلفا فيما بينهـما أن يتعلما أدب الخلاف، بأن يكون مقصورًا عليهما لا يجـاوزهما، وإذا خرج من بيتهما فليكن إلى من يستفتونه كما فعلت الرُّبيع وذهبت إلى عثمان رضى الله عنه.

وفى هذا الشأن ورد عن الربيع رضى الله عنها أنها جاءت عثمان رضى الله عنه واستفتته عما نزل بها فأفتاها.

قالت: اختلعت من زوجى، ثم جـئت عثمان، فسـألت: ماذا علىّ من العدة، فقال: لا عدة عليك إلا أن تكونى حديثة عهد به(٢) فتمكثى حتى تحيضى حيضة، قالت: وإنما تبع فى ذلك قـضاء رسول الله ﷺ فى مريم المغـالية(٣)، كانت تحت ثابت بن قيس فاختلعت منه(٤).

إن الرُّبيع رضى الله عنهـا تمثل هنا المرأة المسلمة فى هـذا الجيل القرآنى الـفريد رضى الله عنهم، إذ لم تتردد فى استيضاح الحكم الشرعى مباشرة بنفسها عما ينزل بها، متحرية الدقة فى فهم المسـألة حتى تصل إلى اليقين، وهذا شأن المرأة المسلمة الراشدة، العاقلة الواعية.



(١) العقـاص: خيط تشـدُّ به المرأة أطراف ذوائبها، من عـقصت المرأة شـعرها إذا ضفـرته، والضفـيرة: هى العقيصة.

(٢) قوله: حديثة عهد به، أى بالزوج أى بدخوله عليك أو بالجماع، هذا يقتضى أن الحيض الواحد أيضًا غير لازم فى ذاته وإنما اللازم الاستبراء.

(٣) المغالية: بفتح ميم وغين معجمة من بنى مغالة بطن من الأنصار.

(٤) النسـائى فى الطلاق، باب عـدة المختلعـة ٦/ ١٨٦، ١٨٧، وابن ماجـه فى الطلاق، باب عـدة المختلعـة (٢٠٥٨)، والطبرانى فى الكبير ٢٤/ ٢٦٥، ٢٦٦ (٦٧٢)، وانظر: زاد المعاد لابن القيم ٥/ ٦٧٨.

وداعًا

ومع وداع سيرة الرُّبيع رضى الله عنها نثبت هنا قول الإمام الذهبى رحمه الله عنها، قال: إنها عُمِّرت دهرًا، توفيت فى خلافة عبد الملك سنة بضع وسبعين[١]، ولقد كانت حياتها رضى الله عنها حافلة بالأحداث مليئة بالمواقف والعبر، إذ أنها رضى الله عنها تشبعت بروح الإسلام ومبادئه منذ صغرها، ونشأت فى بيت طهر وإيمان وتضحية وجهاد، وكبرت على حب طاعة الله وحب الرسول ﷺ والاقتداء به والإخلاص لدعوته، وعندما حانت ساعة الامتحان برهنت رضى الله عنها على قوة إيمانها وتمثلها لمبادئ الإسلام فى الشجاعة والإقدام والتضحية والفداء، تجلى ذلك فى مشاركتها مع النبى ﷺ فى غزواته. .

وحظيت رضى الله عنها برعاية النبى ﷺ، وحبه وصلته وزيارته، قال الزركلى: كان الرُّبيع رضى الله عنها من ذوات الشأن فى الإسلام، بايعت رسول الله ﷺ بيعة الرضوان تحت الشجرة، وصحبته فى غزواته، وكان النبى ﷺ كثيرًا ما يغشى بيتها فيتوضأ ويصلى ويأكل عندها[٢]، ويا له من فضل كبير وشرف عظيم.

لقد كانت رضى الله عنها قدوة فى مواقفها، رائدة فى عملها وفقهها وتقواها وورعها، قال الذهبى رحمه الله: روت أحاديث[٣]، وحدث عنها أبو سلمة بن عبد الرحمن، وسليمان بن يسار وعبادة بن الوليد بن عبادة، وعمرو بن شعيب وخالد ابن ذكوان، وعبد الله بن محمد بن عقيل وآخرون، وحديثها فى الكتب الستة[٤].

وكانت رضى الله عنها مرجعًا للصحابة والتابعين، فكانوا يأتون إليها يستفتونها ويسألونها عن أمور رأتها أو سمعتها من رسول الله ﷺ، فكانت تجيبهم وتفيدهم بكل أمانة ودقة.

رضى الله عن الرُّبيع وعن أبيها وزوجها، وجعلهم فى مستقر رحمته فى جنات النعيم، ولنِعْمَ دار المتقين. . .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٩٨.

(٢) الأعلام للزركلى ٣/ ١٥.

(٣) قال فى أعلام النساء: روت عن النبى ﷺ واحدًا وعشرين حديثًا ١/ ٤٤٣.

(٤) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٩٨، ١٩٩.

أم رومان بنت عامر
رضى الله عنها
(٢٢)

نَسَبُها

أمُّ رُومَان بنت عامر[١]:

الإيمان هو القوة التى تصنع الأعاجيب، وتدفع إلى الجلائل من الأعمال، ولولا الإيمان العميق المسيطر على هذه النفوس الموقنة التى استجابت لربها على عهد النبوة، وشرحت صدورها بنور الإسلام، لما استطاعت أن تحمل هذا النور الإلهى إلى الناس هنا وهناك تضىء به مشارق الأرض ومغاربها.

ولولا الإيمان ما تعرض المسلمون الأولون لمواطن البلاء والاستشهاد وصدق الجهاد بهذه الصورة الرائعة المدهشة التى ترينا كيف كان المؤمن لا يبالى فى سبيل عقيدته وحريته أوقع على الموت أم وقع الموت عليه؛ لأنه واثق من إحدى الحسنيين، فإما نصر تتبعه عزة فى الحياة وكرامة بين الأحياء، وإما شهادة يعقبها فوز بنعيم مقيم فى جنة عرضها كعرض السموات والأرض[٢].

وصحابيتنا هذه من اللاتى حُزْنَ فَضلاً وسبقًا، حيث سبقت إلى الإسلام منذ إشراقته الأولى، وهى واحدة ممن حظين بشرف الصحبة فنالت بذلك الفخر العظيم، ناهيك بهذا الشرف الذى لا يدانيه شرف ألا وهو زواج النبى ﷺ بابنتها عائشة الصديقة بنت الصديق..

---

(١) ابن سعد ٨/ ٢٠٢، ٢٠٣، والإصابة ٨/ ٢٣٢، ٢٣٣، وأسد الغابة ٥/ ٥٨٣، والطبرانى فى الكبير ٢٤/ ٨٣، ٨٤، وفتح البارى ٦/ ٥٩٦، ٥٩٨، ٧/ ٤٣٨، وتحفة الأشراف ١٣/ ٧٨ - ٨٠، وصفة الصفوة ٢/ ٤٢، والمؤتلف ٢/ ٩٩٢، والمقتنى فى سرد الكنى ٢/ ١٦٩ (٦٩٧١)، والمغنى، ص ٣٠٠، الروض الأُنف ٤/ ٢١، والكاشف ٣/ ٤٤١ (١٧٧)، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٤٩٤ (٢٩٤٥)، والاستيعاب ٤/ ٤٤٨ - ٤٥٢، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٥٠، ٣٥١، وأحمد ٦/ ٣٦٧، ٣٦٨، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٣٢٠ (٣٨٧٧)، والتاريخ الصغير للبخارى، ص٣٧، ٣٨، وجمهرة أنساب العرب ١٣٧، ١٨٨، وعيون الأثر ٢/ ٣٠٠، والفتح الربانى ٢١/ ٧٤، والأعلام للزركلى ٣/ ٣٦، وأعلام النساء ١/ ٤٧٢، والعقد الثمين ٨/ ٣٤١، ٣٤٢ (٣٥١٤)، والرياض المستطابة، ص ٣٢٩، ٣٣٠، وجمهرة النسب، ص ١٢٩، والمنتظم ٣/ ٢٩١، ٢٩٢ (٩٩) والثقات ٣/ ٤٥٩، ومقدمة مسند بقى بن مخلد، ص ١٦٨ (١٠٠٤)، والاشتقاق، ص ٥٠٥، والمعارف، ص ١٧٣، وطبقات خليفة، ص ٣٣٦، ومشاهير علماء الأمصار ص ٣٠ (٤٥).

(٢) موسوعة الفداء، د. أحمد الشرباصى ٤/ ٤٢٩.

إنها: أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتَّاب بن أذينة بن سبيع ابن دهمان الكنانية.

قال ابن إسحاق: اسمها زينب، وحكى السهيلى أن اسمها وعد[١]، وزوجها عبد الله بن الحارث الأزدى، تزوج من أم رومان وعاشا معًا فى السراة[٢] وقدما منها مع ولدهما الطفيل إلى مكة، فحالف أبا بكر الصديق وذلك قبل الإسلام، ثم ما لبث أن تُوفى عنها تاركًا طفله الطفيل مع أمه فى حلف أبى بكر رضى الله عنه، حيث آلام الغربة والوحدة، ولكن هذا الأمر لم يدم طويلاً، إذ تزوجها أبو بكر الصديق وفاءً منه ونبلاً، ومروءة ونجدة، وأكرمها رضى الله عنها هى وابنها الطفيل خير إكرام، وكان ثمرة هذا الزواج أن ولدت له عبد الرحمن وعائشة أم المؤمنين زوج النبى ﷺ، وبذلك تكون أم رومان هى الزوجة الثانية لأبى بكر رضى الله عنه، فقد تزوجها بعد قُتَيْلة بنت عبد العزى أم عبد الله وأسماء ذات النطاقين.

أولئك المقربون:

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١] لقد كانت أم رومان رضى الله عنها من السابقات إلى الإسلام اللاتى سارعن إلى ضوء الله المبين، فأذْعَنَّ للدعوة واستجبن لها، فقد أسلمت رضى الله عنها بإسلام زوجها الصديق رضى الله عنه، كان ذلك فى أول الدعوة قبل أن يدخل النبى ﷺ دار الأرقم ابن أبى الأرقم، وقبل أن يتخذها مكانًا لدعوته وتبليغه، فعن عائشة رضى الله عنها قالت: ما عهدت أبوى إلا وهمًا يدينان الدين[٣]، أى يدينان بدين الإسلام، ويفهم من قول عائشة رضى الله عنها، أن أم رومان لم يتأخر إسلامها عن أبى بكر رضى الله عنه، بل أسلمت بعده بفترة وجيزة، وبايعت رسول الله ﷺ وصدقت به وآمنت برسالته، يقول ابن سعد: وأسلمت أم رومان بمكة قديمًا وبايعت النبى ﷺ[٤].

---

(١) مقدمة فتح البارى، ص ٢٥٩.

(٢) السراة: جبل ناحية الطائف، قال ابن السكيت: الطودُ الجبل المُشرف على عرفة ينقاد إلى صنعاء يقال له السَّرَاةُ، فأوله سراة ثقيف، ثم سراةُ فهم وعدْوان ثم الأزْد ثم الحرة آخر ذلك، انظر: لسان العرب لابن منظور ١٤/ ٣٨٣، ومعجم البلدان ٣/ ٢٣٠، ٢٣١، والأنباء على قبائل الرواة ص ١٠٨.

(٣) جزء من حديث طويل، رواه البخارى فى مناقب الأنصار ٧/ ٢٧١، ٢٧٢ (٣٩٠٥).

(٤) ابن سعد ٨/ ٢٠٢، وفتح البارى ٦/ ٥٩٦.

وهكذا كانت رضى الله عنهـا من السابقات اللاتى أسلمن قلوبهن وجـوارحهن لله رب العالمين، فكانت رضى الله عنهـا من الذين كتب الله لهم السعـادة والفلاح فى الدنيا والآخرة: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

خطبة مباركة:

نحن الآن أمام شرف كبيـر حظى به بيت آل أبى بكر، ألا وهو مصاهرة أشرف الخلق النبى ﷺ وخطبته لعائشة رضى الله عنها..

وفى خطبـة النبى ﷺ لعائشـة تجلت أم رومـان بعنصرها الكريم، وبدا حـسن رعايتها لزوجهـا وابنتها، كما ظهر صدق إيمانها، وأثبـتت أنها امرأة من طراز فريد بين النساء، وذلك فى حسن تصرفها وأدبها مع رسول الله ﷺ ومع زوجها[1].

فقد ورد أن رسول الله ﷺ خطب عائشة حين ذكرتها له خولة بنت حكيم التى قالت لأم رومـان: يا أم رومان ماذا أَدْخَل الله عليكم من الخـير والبركـة؟ قالت: ومـاذاك؟ قالت: أرسلنى رسـول الله ﷺ أخطب عليـه عائشـة.. هنا بدأ البشْـرُ والسـرور يسرى فى نفـسـها، وياله مـن شرف ترى أنه حـازت به خـيرى الدنيـا والآخرة، فلم تبد ممانعـة، أو تعلق بكلمة على صغر سن ابنتهـا عائشة، أو فارق السن الذى بينها وبين النبى ﷺ أو أى شىء آخر... وما كان منها رضى الله عنها إلا أن قالت: وددت، ولكن من أدبها الجم مع زوجهـا الصديق قالت: انتظرى أبا بكر فإنه آت، وجـاء أبو بكر فقالت له مثلمـا قالت لأم رومان، فقـال لها: وهل تصلح له؟ إنما هى ابنة أخـيـه، فرجـعت إلى رسول الله ﷺ فـذكرت له، قـال: «ارجعي فقولى لـه: أنا أخوك، وأنت أخى فى الإسلام وابنتك تصلح لى».. فأتت أبو بكر فذكّـرت له... فقال لخولة: ادعى لى رسـول الله ﷺ فدعته، فـزوجها إياه وعائشة رضى الله عنها يومئذ بنت ست سنين[2].

---

(١) نساء من عصر النبوة، أحمد خليل جمعة ٢/ ٢٢.

(٢) أحـمد ٦/ ٢١٠، وابن سـعد ٨/ ٤٥، ٤٦، وسـبل الهدى والرشـاد للصالحى ١٢/ ١٠٤، ١٠٥ وقـال الذهبى فى تاريخه (السيرة النبوية)، ص ٢٨١: إسناده حسن.

لقد وثقت هذه الخطبة المباركة أواصر المحبة بين رسول الله ﷺ وآل أبى بكر رضى الله عنه، وزادات هذه الصلة صلابة وقوة، وتعاظمت فرحة أم رومان رضى الله عنها بهذه المصاهرة الكريمة، حيث أتاح لها ذلك التردد بين الحين والحين على بيت النبى ﷺ لتنهل من نبعه الفياض وترتوى من سيرته وهديه العظيم.

الزوجة الصالحة:

لقد كانت أم رومان رضى الله عنها مثالاً عاليًا ونموذجًا طيبًا للزوجة الصالحة التى تقف إلى جانب زوجها تشاركه همومه وآلامه وتخفف عنه عبء هذه الهموم والآلام، تحرس الحصن وتربى الأولاد، وتفدى الدعوة فى فترة عصيبة من أحلك الفترات بالغالى والنفيس، ثم تواسيه وتبث فى نفسه الثبات والاستمرار..

وإذا كان الله عز وجل قد أنعم على نبيه ﷺ بخديجة أم المؤمنين التى كانت لزوجها نسمة سلام وبر وبلسم جراح، فإن الله عز وجل قد أنعم على صاحبه أبى بكر الصديق بأم رومان التى شاركته وآزرته، وهيأت له كل الأسباب فى القيام بواجبه، نصرة للحق والدين ونصرة للنبى الأمين.

فقد كان أبو بكر رضى الله عنه من أكثر الصحابة تعرضًا للأذى والفتن بعد رسول الله ﷺ نظرًا لصحبته الخاصة له وصلته الوثيقة به، فحُثى على رأسه التراب، وضرب فى المسجد الحرام حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وفى كل هذا تصبره زوجته أم رومان وتواسيه وتخفف عنه.

ثم هو رضى الله عنه ينفق ماله كله فى سبيل الله.. يحرر العبيد ويفك رقاب المسلمين المعذبين، ويساعد الفقراء، وينفق على الدعوة ويواسى رسول الله ﷺ بماله ونفسه، ولا يقصر فى بذل ولا عطاء، ولم يثبت عنها أن عارضته أو حالت بينه وبين فعل هذا الخير، بل كانت تشجعه وتعينه، إيمانًا منها رضى الله عنها بأن هذا يزيدها شرفًا فى الدنيا، وثوابًا جزيلاً فى الآخرة.

وهكذا تكون الزوجة المسلمة تعين زوجها وتقف إلى جانبه ولا تكون عائقًا له، وترتفع بنفسها إلى مستوى المسؤولية، فتحمل معه الرسالة وتقوم معه بأداء الواجب جنبًا إلى جنب، فالمجاهد زوجته مجاهدة، والداعى زوجته داعية، لها مثل الصفات ولها مثل الأفعال والأحوال التى يجب أن يكون عليها الداعى..

بيت الدعوة:

كان بيت أبى بكر رضى الله عنه حصنًا وموئلاً للدعـوة علت فيه كلمة الله عز وجل، وكان النبى ﷺ يتـردد على هذا البيت ويزورهم فى الغـداة أو فى العشى، تقول عائشة رضى الله عنها: كان لا يخطىء رسول الله ﷺ أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار إما بكرة وإما عشية.. وفى رواية قالت: لقلَّ يومٌ كان يأتى على النبى ﷺ، إلا يأتى فيه بيت أبى بكر أحد طرفى النهار(١).

وفى كل مـرة يزور النبى ﷺ بيت الصديق، كـانت أم رومان رضى الله عنـها ترحب به أجمل الـترحيب، وتضـيفه أكـرم الضيافـة، وتوفر له ﷺ كل أسـباب الراحة والهدوء، كـيف لا وهو قرة عيونهم ومـهوى أفئدتهم.. فضـلاً عما يحل عليهم من الخير والبركة، والسعادة والسرور..

وتقف أم رومـان التى بشرها النبى ﷺ بالجنة فى هـذا الحصن المبـارك؛ لتؤدى دورها، وتربى أولادها، وتفدى الدعوة، فقد تعهدت عائشة رضى الله عنها بقلبها الكبير وربتها أحـسن التربية، وورثتها الخير والفضل، وغـرست فيها حب الدعوة والداعية، وهمة عـالية، وأخلاقًا سامية، حتى بـلغت رضى الله عنها السادسة من عمرها وخطبها النبى ﷺ كما تقدم.

وأما عـبدالرحمن فبـالرغم من تأخر إسلامـه إلى يوم الحديبيـة، إلا أنه حسن إسلامه، وكانت له مواقف محمودة مشهودة بعد إسلامه..

أم رومان والهجرة المباركة:

رفع الله عـز وجل شأن المهـاجرين وعطر ذكـرهم، وسـجل لهم أعظم المكانة والثواب، قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٣ والحديث أصله فى الصحيح، انظر: البخارى فى مناقب الأنصار، باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه ٧/ ٢٣٠ (٣٩٠٥).

لما أذن الله تعالى لنبيه بالهجرة اصطحب معه الصديق رضى الله عنه، وبقيت أم رومان رضى الله عنها مع أولادها تحمل المسؤولية الكبيرة خلفه، ترعى البيت وتقوم على شؤونه متحملة شدة المواجهة أمام عداء قريش وغطرستها وهم يتوعدون ويهددون..

لم يمض غير قليل على هجرة النبى ﷺ والصديق، حتى بعث النبى ﷺ زيد ابن حارثة ليصطحب معه آل بيته وآل بيت الصديق..

تقول عائشة رضى الله عنها: لما هاجر رسول الله ﷺ خلفنا وخلف بناته، فلما قدم المدينة بعث إلينا زيد بن حارثة، وبعث معه أبا رافع وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم أخذها من أبى بكر يشتريان بها ما نحتاج إليه من الظهر، وبعث أبو بكر معهما عبد الله بن أريقط الليثى ببعيرين أو ثلاثة، وكتب إلى ابنه عبد الله يأمره أن يحمل أهله أم رومان وأنا وأختى أسماء، فخرجوا.. فلما انتهوا إلى قديد، اشترى زيد بتلك الدراهم ثلاثة أبعرة، ثم دخلوا مكة، وصادفوا طلحة يريد الهجرة بآل أبى بكر، فخرجنا جميعًا وخرج زيد وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة وأم أيمن وأسامة فاصطحبنا جميعًا، حتى إذا كنا بالبَيْض[1]، نفر بعيرى وقَدَّامى مِحَفَّة فيها أمى، فجعلت أمى تقول: وابنتاه! واعروساه! حتى أدرك بعيرنا، فقدمنا والمسجد يُبنى[2].

***

(١) من منازل بنى كنانة بالحجاز، معجم البلدان ١/ ٦٣١.

(٢) ابن سعد ٨/ ٦٢، والذهبى فى سير أعلام النبلاء ٢/ ١٥٣، والسهيلى فى الروض الأنف ٢/ ٢٣٢، والاستيعاب ١٣/ ٢٢٢-٢٢٥.

فى المدينة المنورة

وفى المدينة المنورة التئم الشمل والتقى الأحبـة واستقبلهم الرسول ﷺ والصديق بالبشر والسـرور، وأقامت أم رومان وابنتها عائشـة وسائر أبناء أبى بكر بدار تجاور دار أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه حيث نزل النبى ﷺ(١).

ثم شرع الرسول ﷺ فـى إرساء دعائم الدولة، فآخى بين المهـاجرين والأنصار وأقام المسجد، وأبرم المعاهدة مع يهود المدينة. . لقد أهمه ﷺ هذا الوضع الجديد، ومرت شهور والنبى ﷺ فى شغل من أمره إلى أن جاءت السنة الثانية من الهجرة، فذكّـرت أم رومان زوجـها الصـديق بخطبة الرسـول ﷺ لعائشة، عـندها تحدث الصـديق على استـحيـاء مع النبى ﷺ قـائلاً: ألا تريد أن تبنى بأهلك يا رسـول الله؟، فتبسم ﷺ وقال: «بلى وعلى بركة الله».

وقبل دخوله ﷺ بعـائشة رضى الله عنها كانت قد تأثـرت بجو المدينة فوعكت وبدا عليهـا الضعف، فقامت أم رومـان رضى الله عنها بمعالجتـها حتى اسـتعادت عافيتها، واهتمت بشأنها حتى تدخلها على النبى ﷺ فى أحسن صورة، وهذا من فطنتها وحـسن تصرفها وأدبها الجم مع رسول الله ﷺ، تريد بذلـك إسعاد رسول الله ﷺ وحبه ورضاه، فلله درها ما أجمل صنيعـها! وما أحوج الحماة المسلمة أن تقتدى بها!

تقول عـائشة رضى الله عنها: كـانت أمى تعالجنى للسـمنة، تريد أن تدخلنى على رسول الله ﷺ، فمـا استقام لهـا ذلك حتى أكلت القثاء بالرطـب، فَسَمِنْتُ كأحسن سِمْنَةٍ(٢)، ثم قامت رضى الله عنها بتزيينها وأصلحت من شأنها وأهدتها للنبى ﷺ، ووضعـتها بين يديه قـائلة: هؤلاء أهلك يا رسول الله، بارك الله لك فيهم(٣).

---

(١) الصديق أبو بكر، محمد حسين هيكل، ص ٣٧.

(٢) ابن ماجه فى الأطعمة، باب القثاء والرطب يجمعان ٢/ ١١٠٤ (٣٣٢٤).

(٣) أحمد ٦/ ٢١١.

محنة بعدها منحة:

لقد كانت محنة الإفك من أشد ما تعرض له بيت النبوة، ومن أقسى ما واجهه بيت الصديق من شدائد ومحن، وكان وقع المحنة على أم رومان الأم الحنون الرؤوم شديدًا قاسيًا؛ لأنها تشعر بابنتها عائشة وتحس بها، فلقد بكت عائشة رضى الله عنها ليلتين ويومًا، ولم تكن تكتحل بنوم ولا ينقطع لها دمع حتى ظنت أمها أن البكاء فالق كبدها.

(واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حُبس عن رسول الله ﷺ الوحى شهرًا فى شأنها، لا يوحى إليه فى ذلك شىء؛ لتتم حكمته التى قدرها وقضاها، وتظهر على أكمل الوجوه، ويزداد المؤمنون الصادقون إيمانًا وثباتًا.. ويزداد المنافقون إفكًا ونفاقًا، ويُظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم، ولتتم العبودية المرادة من الصديقة وأبويها، وتتم نعمة الله عليهم، ولتشتد الفاقة والرغبة منها ومن أبويها، والافتقار إلى الله والذل له، وحسن الظن به، والرجاء له.. واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف إلى ما يوحيه الله إلى رسوله فيها، وتطلعت إلى ذلك غاية التطلع، فوافى الوحى أحوج ما كان إليه رسول الله ﷺ وأهل بيته، والصديق وأهله، وأصحابه والمؤمنون، فورد عليهم ورود الغيث على الأرض أحوج ما كانت إليه، فوقع منهم أعظم موقع وألطفه، وسُروا به أتم السرور، وحصل لهم به غاية الهناء..)[(١)].

حكيمةٌ لَبِقَةٌ:

كانت أم رومان رضى الله عنها خلال المحنة وأحداثها مثال المرأة العاقلة الحكيمة، التقية الصالحة، المؤمنة الصابرة، ومثال الحماة الكريمة التى تحسن التصرف وتزن الأمور بميزانها الصحيح.

إنه مع شدة المحنة وضراوتها على أم رومان، وما يقال عن ابنتها من إفك وكذب وبهتان.. إلا أنها استكتمت الأمر عنها رحمة بها وشفقة عليها.. وما علمت عائشة رضى الله عنها بالأمر إلا بعد ما شفيت من مرضها وخرجت مع أم مسطح

(١) زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم ٣/ ٢٦١، ٢٦٢.

فأخبرتها الخبر.. وما كان من أم رومان رضى الله عنها إلا أن تلجأ إلى الله، وتتضرع إليه مع أبى بكر بأن يكشف سبحانه هذا الكرب ويجعل لهم مخرجًا.

ولما عادت عائشة رضى الله عنها إلى بيت أبويها قالت لأمها:

غفر الله لك، يتحدث الناس بهذا ولا تذكرين لى.. وفى رواية: أما اتقيتما الله فىَّ وما وصلتما رحمى، يتحدث الناس بهذا ولم تعلمانى.. فردت أم رومان بحكمة بالغة، وقالت: يا بنية هونى عليك -وفى رواية: يا بنية خففى عليك الشأن- فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها..(١).

قال ابن حجر: وفى هذا الكلام من فطنة أمها وحسن تأتيها فى تربيتها ما لا مزيد عليه، فإنها علمت أن ذلك يعظم عليها فهونت عليها الأمر بإعلامها بأنها لم تنفرد بذلك؛ لأن المرء يتأسى بغيره فيما يقع له، وأدمجت فى ذلك ما تطيب به خاطرها من أنها فائقة فى الجمال والحظوة، وذلك مما يعجب المرأة أن توصف به، مع ما فيه من الإشارة إلى ما وقع من حمنة بنت جحش وأن الحامل لها على ذلك كون عائشة ضرة أختها زينب بنت جحش، وعرف من هذا أن الاستثناء فى قولها: إلا أكثرن عليها متصل؛ لأنها لم تقصد قصتها بعينها بل ذكرت شأن الضرائر، وأما ضرائرها هى فإنهن وإن كن لم يصدر منهن فى حقها شىء مما يصدر من الضرائر، لكن لم يعدم ذلك ممن هو منهن بسبيل، كما وقع من حمنة؛ لأن ورع أختها منعها من القول فى عائشة كما منع بقية أمهات المؤمنات، وإنما اختصت زينب بالذكر؛ لأنها التى كانت تضاهى عائشة فى المنزلة(٢).

ولما طلبت عائشة رضى الله عنها من أمها أن تجيب رسول الله ﷺ، أمسكت فمها عن أن ينطلق بما يريده قلبها وهواها من تبرئتها رضى الله عنها المفجوعة بأثمن ما عندها وأغلى ما تملك وأعز ما تحب، شرفها وعرضها ودينها وزوجها رسول الله ﷺ، فتبكى حتى تكاد كبدها أن تتفطر، ومن حين لآخر تستجدى أمها

(١) البخارى فى التفسير، باب ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا..﴾ ٨/ ٤٥٢ (٤٧٥٠) وهو جزء من حديث طويل.

(٢) فتح البارى ٨/ ٤٦٧.

بكلمات عسى أن تجيب عنها فتبرئها أمام زوجها الحبيب رسول الله ﷺ، تقول عائشة رضى الله عنها حين أخبرها رسول الله ﷺ الخبر: قلت لأبى: أجب عنى رسول الله ﷺ فيما قال، قال: والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمى: أجيبى عنى رسول الله ﷺ فيما قال، قالت: والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ(١).

ثم تقول عائشة رضى الله عنها: وأنا جارية حديثة السن، إنها صغيرة السن لا تحسن الحجة والدفاع عن نفسها، ومواجهة هذا الموقف الذى يضعف أمامه أشد الرجال، ومع ذلك ما لانت أم رومان رضى الله عنها ولا استجابت لنداء قلبها وحرقة أمومتها، بل كان الصدق مع الله عز وجل فوق كل هذا(٢).

لقد كان موقفًا عصيبًا بالغ الصعوبة، أمٌ ترى ابنتها تمر بمحنة ما بعدها محنة، وتُتهم فى عرضها وشرفها.. أى ابتلاء هذا الذى أصابها؟ إن المرء قد يحتمل كل أنواع المحن، ولكن ما أشد أن يُرمى الإنسان فى عرضه، وتراها تبكى أمامها حتى يكاد البكاء يدمى قلبها، ولا تملك إلا أن تصبرها، ثم تطلب منها ابنتها أن تجيب عنها، ولكنها تمسك فمها عن الكلام بما يريده قلبها وهواها.. والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ.

إنه الإيمان العميق الذى كان يملأ قلبها ويسمو بها إلى أعلى الآفاق، وهو اللجوء إلى الله تعالى والتوكل عليه وتفويض الأمر إليه، فهو كاشف كل غمة، ومنصف كل مظلوم: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨، ٨٩]، وهو التأدب مع رسول الله ﷺ ومحبته وتوقيره وإجلاله..

ولولا صدق إيمانها وثقتها بربها وتوكلها عليه وحده، لما استطاعت أن تتحمل هول هذا الموقف، ولانهارت من أول لحظة فيه، بل ظلت متماسكة ثابتة، وسما ما وقر فى قلبها من إيمان على كل عاطفة وحطم كل هوى للنفس(٣).

(١) جزء من حديث الإفك رواه البخارى فى التفسير، باب ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ..﴾ ٨/ ٤٥٢ (٤٧٥٠).
(٢) الأمومة ومكانتها فى الإسلام، د.مها عبد الله الأبرش ٢/ ٦٩٨، ٦٩٩.
(٣) قال ابن حجر: وفى حديث الإفك فضائل جمة لعائشة ولأبويها، ونستفيد من موقف أم رومان كذلك تثبتها مع زوجها أبى بكر فى الأمور؛ لأنه لم ينقل عنهما فى هذه القصة مع تمادى الحال فيها شهرًا كلمة فما فوقها. فتح البارى ٨/ ٣٣٨.

لله أنت يا أمَّ رومـان! ما أعظم إيمانك! ومـا أجمل صـبرك! وما أروع ثـباتكِ وأدبك! وما أكبر فضلك!

كيف استطعت أن تتحملى مرارة الصبر على البلاء؟ وكيف تماسكت نفسك أمام هذه المحنة وثبتٍّ كـالطود الأشم مع زوجك الصديق؟ وكـيف قضـيت معـه تلك الأيام وأنت صابرة مـحتسبة، تـبتغين بصبـرك واحتسابك مرضـاة الله عز وجل؟! واستجاب الله دعاءك ودعاء زوجك بأن كشف الغمة، وتنزل الوحى ببراءة الصديقة رضى الله عنها.

لا جرم أن الله علم صدق إيمانك وقوة يقينك وجميل صبرك، فجاءتك البشرى على لسان رسـوله الكريم ﷺ بالجنة: «من سـره أن ينظر إلى امرأة من الحـور العين فلينظر إلى أم رومان»(١).

ومن حكمتـها رضى الله عنهـا قولها لعـائشة رضى الله عنهـا لما نزلت براءتها وطهرت ساحتهـا: قومى إليه، إنها (عبارة تحمل فى طيات حـروفها كل مؤشرات الحب العظيم الذى كانت تكنه أم رومان رضى الله عنها فى قلبها لرسول الله ﷺ

كما تحمل خلاصة التجربـة الإنسانية فى الزواج بالود والسكن والرحمة؛ لتقوم الأسرة على دعـائم ثابتة وراسـخة، فلا تهـتز لأمـر عارض، ولا تتقـوض لحدث طارئ.

وهذه الخلاصـة الطيبـة ما جـاءت أم رومان عـفواً . . ولكنهـا تنبع من معـدنها الأصيل الذى صقله الإسلام وهذبه، وقدمه من ثم نموذجًا راقيًا للبشرية قاطبة)(٢).

إن موقف أم رومان رضى الله عنها من هذه المحنة يضع أمام المرأة المسلمة أروع الأمثلة فى صدق الإيمان بالله والتوكل عليه والثقة فيه، وضبط النفس وملكها عند الشدائد . . (وهكذا تكون الحماة المسلمة المستنيرة بهَدْى دينها خيرًا وبركة على ابنتها وزوجها، ودعامة راسـخة من دعائم الحياة الزوجية، تقـدم الدليل بعدلها وتقواها على أنهـا أم ثانية للزوج، وليـست عدوة تقليـدية للأزواج،كما يشـاع فى بعض

(١) ابن سعد ٨/ ٢٠٣، والإصابة ٨/ ٢٣٣، والعقد الثمين ٨/ ٣٤١.
(٢) نساء حول الرسول، محمد على قطب، ص٥١.

الأوساط الجاهلية المتخلفة، ويتندر المتندرون بتلك العداوة الدائمة الأبدية المستحكمة، وما هى فى الحقيقة إلا نتيجة لسوء تطبيق المسلمين لأحكام دينهم، وخلل فى التزامهم بأخلاقه وقيمه)[١].

وداعًا أم رومان:

مرضت أم رومان رضى الله عنها إثر تلك الحادثة التى أثرت فيها تأثيرًا كبيرًا، وقامت عائشة رضى الله عنها على خدمتها وتمريضها كأحسن ما تخدم ابنة أمها، إلى أن أسلمت روحها إلى بارئها سبحانه فى حياة النبى ﷺ بالمدينة فى ذى الحجة سنة ست من الهجرة[٢]، وكما لقيت رضى الله عنها التقدير والاحترام من النبى ﷺ فى حياتها، فقد لاقته رضى الله عنها عند وفاتها، فقد نزل رسول الله ﷺ فى قبرها واستغفر لها، وقال: «اللهم إنه لم يخف عليك ما لقيت أم رومان فيك وفى رسولك»، وعن القاسم بن محمد قال: لما دُلِّيت أم رومان فى قبرها قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان»[٣].



(١) شخصية المرأة المسلمة، د. محمد على الهاشمى، ص٢٣٧.

(٢) قال الإمام ابن حجر فى الإصابة: ووقفت على قصة أخرى تدل على تأخر وفاة أم رومان رضى الله عنها عن سنة ست بل هى عن سنة سبع بل عن سنة ثمان، ففى مسند الإمام أحمد عن طريق أبى سلمة عن عائشة، قالت: لما نزلت آية التخيير بدأ رسول الله ﷺ بعائشة، فقال يا عائشة: إنى عارض عليك أمرًا فلا تغتابى فيه بشىء حتى تعرضيه على أبويك أبى بكر وأم رومان، قالت: قلت: يا رسول الله وما هو؟ قال: قال الله عز وجل: ﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٨] قالت: قلت: فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ولا أؤامر فى ذلك أبا بكر ولا أم رومان، فضحك رسول الله ﷺ. قال ابن حجر: وسنده جيد وأصل القصة فى الصحيحين من طريق أخرى عن أم سلمة، والتخيير كان فى سنة تسع، والحديث مصرح بأن أم رومان رضى الله عنها كانت موجودة حينئذ.. انظر الإصابة ٨/ ٢٣٣، ٢٣٤.

(٣) ابن سعد ٨/ ٢٠٣، وأسد الغابة ٥/ ٥٨٣، والإصابة ٨/ ٢٣٣، والعقد الثمين ٨/ ٣٤١.

فضل وكرامة

قال ابن سعد رحمه الله: كانت أم رومان امرأة صالحة[١]، والصلاح عنوان الفضائل والمكارم كلها، فكانت رضى الله عنها من ثلة المؤمنات الأُول ممن فُزن بالسبق إلى الإيمان، وكان لها كذلك فضل السبق فى الهجرة إلى المدينة.. ولقد عاشت رضى الله عنها أحداث الدعوة يومًا بيوم وساعة بساعة.. تقف خلف زوجها تسانده وتشد أزره وتخفف عنه ما كان يلاقيه من قومه، ثم كانت أيام محنة الإفك فصبرت واحتسبت، وأعطت المثل للمرأة المسلمة فى صدق الإيمان وحسن اللجوء إلى الله، حتى إن النبى ﷺ ليقول: «اللهم إنه لم يخف عليك ما لقيت أم رومان فيك وفى رسولك».

من أهل الجنة:

ولقد نالت رضى الله عنها المنزلة العظيمة والفضل الكبير بتكريم النبى ﷺ لها بنزوله فى قبرها واستغفاره لها، فقد قيل بأن النبى ﷺ لم ينزل فى قبر أحد قط إلا خمسة قبور، ثلاث نسوة ورجلين، منها قبر أم رومان رضى الله عنها[٢]، ولم يكن هذا فحسب بل أخبرﷺ وهو الصادق المصدوق بأنها رضى الله عنها من أهل الجنة، فى قوله: «من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان» ويالها من كرامة عظيمة ومكانة سامية حين تفوز بجنات النعيم وشرف الأبد..

وبعد: فقد كانت سيرة أم رومان رضى الله عنها نفحة من نفحات تاريخ الإسلام العظيم، الزاخر بمواطن الأسوة، ومواقف القدوة، فما أجدرنا بأن نستلهم من ماضينا لحاضرنا، وأن نمضى على طريق سلفنا الصالح، فنؤمن كما آمنوا، ونصدق كما صدقوا، ونجاهد كما جاهدوا؛ لنفوز كما فازوا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

---

(١) ابن سعد ٨/ ٢٠٣.

(٢) وفاء الوفا للسمهودى ٣/ ٨٩٧.

أم ورقة الأنصارية
رضى الله عنها
(٢٣)

نَسَبُها

أم ورقة الأنصارية(١):

نحن الآن أمام صحابية جليلة القدر عظيمة الشأن، من طراز فريد تاقت نفسها إلى الجنة وهى تسعى بين الناس، وعلت همتها وسمت حتى تمنت الشهادة وطلبتها، فرفع الله ذكرها فى الخافقين، وأعلى قدرها بين الأنام، وهى إلى ذلك من العابدات القانتات، الحافظات لكتاب الله عز وجل الجامعات له، السابقات إلى الإسلام..

إنها: أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث بن عويمر بن نوفل الأنصارية، ويقال لها: أم ورقة بنت نوفل، فنسبت إلى جدها الأعلى. اشتهرت رضى الله عنها بكنيتها وعُرفت بها..

من السابقات:

كانت أم ورقة رضى الله عنها من السابقات إلى الإسلام، ثم كانت رضى الله عنها من اللاتى بايعن النبى ﷺ وصدقت فى بيعتها، فكانت رضى الله عنها ممن قال الله فيهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

(١) ابن سعد ٨/ ٣٣٥، الإصابة ٨/ ٢٨٩ (١٥٣٥)، وأحمد ٦/ ٤٠٥، وأسد الغابة ٥/ ٦٢٦، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٥٠٨ (٣٩٩٧)، والطبرانى فى الكبير ٢٥/ ١٣٤، ١٣٥، والمنتظم ٤/ ٣٠٥، ٣٠٦ (٢٢٦)، وصفة الصفوة ٢/ ٥١ (١٥٢)، وحلية الأولياء ٢/ ٦٣، والاستيعاب بذيل الإصابة ٤/ ٥٠٤، ٥٠٥، والكاشف ٣/ ٤٤٥، الطبقات لمسلم ١/ ٢٢٠ (٥٩٨)، والثقات ٣/ ٤٦٣، وتحفة الأشراف ١٣/ ١٠٩، ١١٠، وخلاصة تهذيب الكمال ٣/ ٤٠٤ (٧٤)، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٢٣٧ (٤٠٩٥)، والتاريخ الصغير ١/ ٤٥، ٤٦، وأعلام النساء ٥/ ٢٨٤، ٢٨٥، والفتح الربانى ٢٢/ ٤٤١، وتلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٣٢٣، وكنز العمال ١٣/ ٦٢٨، ٦٢٩ (٣٧٥٩٥)، وطبقات خليفة، ص ٣٤٤، ومقدمة مسند بقى بن مخلد، ص ١٢٧ (٥٤٦).

وكانت رضى الله عنها ذات نسب وحسب كريمين، وصاحبة ثراء ومال، صحبت النبى ﷺ وسمعت منه وروت عنه. .

العابدة الحافظة:

أسلمت رضى الله عنها وصدقت فى إيمانها، وأقبلت على عبادة ربها، وتلاوة القرآن الكريم تقرأه وتحفظه، وتصل ليلها بنهارها فى طاعة الله عز وجل، قليلاً من الليل ما تهجع، وبالأسحار تدعو الله عز وجل وتستغفر، تجاوبت مع آيات الله فأصبحت واقعًا فى حياتها، تمثلت قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧ ، ١٨].

قال الإمام ابن الجوزى فى المنتظم: أسلمت أم ورقة رضى الله عنها وبايعت رسول الله ﷺ، وكانت قد جمعت القرآن، وأمرها النبى ﷺ أن تَؤُمَّ أهل دارها فكانت تؤمهم(١).

وروى أبو داود بسنده، قال: وكان رسول الله ﷺ يزورها فى بيتها، وجعل لها مؤذنًا يؤذن لها، وأمرها أن تؤم أهل دارها، قال عبد الرحمن - من رواة الحديث -: فأنا رأيت مؤذنها شيخًا كبيرًا(٢).

وقال الإمام أبو نعيم الأصبهانى: الشهيدة القارئة، أم ورقة الأنصارية، كانت تؤمُّ المؤمنات المهاجرات، ويزورها النبى ﷺ فى الأحايين والأوقات(٣).

وهكذا تفردت أم ورقة رضى الله عنها بهذه المكرمة من بين الصحابيات بإمامتها بعض النساء المسلمات من أهل دارها وذوى قرباها وصويحباتها ممن يجتمعن عندها، بعد أن أذن لها النبى ﷺ.

إن الله يرزقك الشهادة:

ولما أراد النبى ﷺ بدر، جاءت أم ورقة إلى النبى ﷺ تقول له: يا رسول الله ائذن لى فى الغزو معك أُمَرِّض مرضاكم، لعل الله أن يرزقنى الشهادة، قال ﷺ:

(١) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ٤/ ٣٠٥، ٣٠٦.
(٢) أبو داود فى الصلاة، باب إمامة النساء ١/ ١٦١، ١٦٢ (٥٩٢).
(٣) حلية الأولياء ٢/ ٦٣.

«قرِّي في بيتك، فإن الله عز وجل يرزقك الشهادة»، قال: فكانت تسمى الشهيدة، قال: وكانت قد قرأت القرآن، فاستأذنت النبي ﷺ أن تتخذ في دارها مؤذنًا، فأذن لها، قال: وكانت دبَّرت غلامًا وجارية[١] فقاما إليها بالليل فغمياها بقطيفة لها[٢] حتى ماتت وذهبا، فأصبح عمر فقام في الناس فقال: من عنده من هذين علم أو من رآهما فليجئ بهما، فأمر بهما فصُلبا، فكانا أول مصلوب بالمدينة[٣].

وفي رواية أخرى: قالت يا رسول الله، لو أذنت لي فغزوت معكم، فمرضت مريضكم وداويت جريحكم، فلعل الله أن يرزقني الشهادة، قال: يا أم ورقة، «اقعدي في بيتك فإن الله سيهدي إليك شهادة في بيتك» وكان رسول الله ﷺ يزورها في بيتها، وجعل لها مؤذنًا يؤذن لها، وكان لها غلام وجارية قد دبرتهما فقاما إليها فغمياها فقتلاها، فلما أصبح عمر قال: والله ما سمعت قراءة خالتي أم ورقة البارحة، فدخل الدار فلم ير شيئًا فدخل البيت، فإذا هي ملفوفة في قطيفة في جانب، فقال: صدق الله ورسوله، ثم صعد المنبر فذكر الخبر وقال: عليَّ بهما، فأتي بهما فسألهما فأقرا أنهما قتلاها، فأمر بهما فصلبا[٤]، [٥].

---

(١) دبرت غلامًا وجارية: أي علقت عتقهما على موتها من التدبير، وهو أن يقول السيد لعبده: أنت حر بعد موتي، أو إذا مت فأنت حر.

(٢) فغمياها: من الغم، وهو تغطية الوجه فلا يخرج النفس ولا يدخل الهواء فيموت، والقطيفة: هي كساء له خمل، أي غطيا وجه أم ورقة بقطيفة لها حتى ماتت، عون المعبود ٢/ ٣٠١.

(٣) أبو داود في الصلاة، باب إمامة النساء ١/ ١٦١ (٥٩١)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٥٥٣).

(٤) الإصابة ٨/ ٢٨٩.

(٥) قال صاحب عون المعبود: ثبت من هذا الحديث أن إمامة النساء وجماعتهن صحيحة ثابتة من أمر رسول الله ﷺ وقد أمت النساء عائشة رضي الله عنها وأم سلمة رضي الله عنها من الفرض والتراويح، قال الحافظ في تلخيص الحبير: حديث عائشة أنها أمت نساء فقامت وسطهن، رواه عبد الرزاق ومن طريقه الدارقطني والبيهقي من حديث أبي حازم عن رائطة الحنفية عن عائشة أنها أمتهن فكانت بينهن في صلاة مكتوبة، وروى ابن أبي شيبة ثم الحاكم من طريق ابن أبي ليلى عن عطاء عن عائشة أنها كانت تؤم النساء فتقوم معهن في الصف، وحديث أم سلمة أنها أمت نساء فقامت وسطهن... ثم قال: ظهر من هذه الأحاديث أن المرأة إذا تؤم النساء تقوم وسطهن معهن ولا تتقدمهن، قال في السُّبل: والحديث دليل على صحة إمامة المرأة أهل دارها، وإن كان فيهم الرجل فإنه كان لها مؤذنًا وكان شيخًا كما في الرواية، والظاهر أنها كانت تؤمه وغلامها وجاريتها، وذهب إلى صحة ذلك أبو ثور والمزني والطبري، وخالف =

يا لجلال أم ورقة! ويا لروعة إيمانها العظيم! ويا لقوة يقينها فى الله الواحد الأحد!

لقد تاقت نفس أم ورقة رضى الله عنها إلى الشهادة فى سبيل الله، واشتاقت إلى الغزو والخروج مع رسول الله ﷺ، وتمنت لو أذن لها ﷺ.. حتى تحظى بثواب المجاهدين وأجر الشهداء المقربين.

لقد كانت هناك قضية تؤمن بها أم ورقة رضى الله عنها، وتريد أن تضحى فى سبيلها وتستشهد من أجلها، وهذا الإيمان بالقضية هو الذى جعلها تطلب الإذن من الرسول ﷺ، لقد كان هذا الإيمان فى قلبها غَضاً طَرِيًا دَفّاقًا، وكانت الجنة حاضرة فى نفسها ماثلة أمامها، فأحيا طلب الشهادة مشاعر الشوق إليها، ولكنها لم تطلب الجنة بالتمنى إنما طلبتها بالشهادة فى سبيل الله.. طلبتها بالموت لتوهب لها الحياة.. حياة العزة والكرامة..

إن المسافر إلى جنة الله ورضوانه، عليه أن يجدَّ ويُتعب نفسه فى طاعة الله عز وجل، ويربط نفسه بمعالى الأمور، حتى يبلغ المنزل (الجنة)، فالجنة سلعة الله عز وجل، وكل من أراد شراءها فعليه أن يدفع ثمنها: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

= ذلك الجماهير أنظر: عون المعبود ٢/ ٣٠١، ٣٠٢، لما ورد فى الحديث أن النبى ﷺ قال: «أخرجوهن من حيث أخرهن الله» عبد الرزاق من حديث ابن مسعود رضى الله عنه موقوفًا عليه ٣/ ١٤٩ (٥١١٥)، وصححه الحافظ ابن حجر فى فتح البارى ١/ ٤٠٠، والأمر بتأخيرهن نهى عن الصلاة خلفهن، ولما روى جابر مرفوعًا: «لا تؤمن امرأة رجلاً» ، ابن ماجة ١/ ٣٤٣ (١٠٨١) وقال البوصيرى فى الزوائد: إسناده ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان وعبد الله بن محمد العدوى، ولأن فى إمامتها للرجال افتتانًا بها.

أما قول الفقهاء فى المسألة، فقد أجازها جمهور الفقهاء، وهم: الحنفية والشافعية والحنابلة، مستدلين بحديث أم ورقة رضى الله عنها، لكن كره الحنفية إمامتها لهن؛ لأنها لا تخلو عن نقص واجب أو مندوب، فإنه يكره لهن الأذان والإقامة، ويكره تقدم المرأة الإمام عليهن، فإذا صلت النساء صلاة الجماعة بإمامة المرأة وقفت المرأة الإمام وسطهن، أما المالكية فلا تجوز إمامة المرأة عندهم مطلقًا ولو لمثلها فى فرض أو نفل، الموسوعة الفقهية، الجزء السادس، ص ٢٠٤، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت، ط رابعة ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، وانظر فى المسألة: المغنى لابن قدامة ٢٠٢١٢، مكتبة الرياض الحديثة، المملكة العربية السعودية ط ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

إن أم ورقة رضى الله عنها لم تُدْعَ إلى الخروج، ولم تُكلف بالنفير إلى الميدان، وليست مطالبة بالغزو، ولكنه الإيمان الذى تفاعل معها مع أول غزوة للنبى ﷺ، الإيمان الحى اليقظ الذى جعلها تحتسب بسعيها وحركتها وجه ربها فتتقرب به من ثوابه، وهذا المستوى الراقى من حب الجهاد والاستشهاد لو توافر فى أبناء هذه الأمة؛ لسادت وقادت وعزت فى العالمين.

ولقد أُعجب الرسول ﷺ أيما إعجاب بهذه الروح الجهادية فى أم ورقة رضى الله عنها، التى لم تقعدها أنوثتها أو ضعفها أو حتى يكون ذلك مبررًا لقعودها، فكان أن قال لها النبى ﷺ هذا القول العظيم: «قرى فى بيتك، فإن الله يرزقك الشهادة».

وأى رزق أعظم من الشهادة فى سبيله سبحانه، إنها منزلة عظيمة لا يرتقى إليها إلا من يحبه الله ويصطفيه: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، (يختارهم الله من بين المجاهدين، ويتخذهم لنفسه سبحانه، فما هى رزية إذن ولا خسارة أن يستشهد فى سبيل الله من يستشهد، إنما هو اختيار وانتقاء وتكريم واختصاص، إن هؤلاء هم الذين اختصهم الله ورزقهم الشهادة؛ ليستخلصهم لنفسه سبحانه ويخصهم بقربه)(١).

هكذا يكون الإيمان، وهكذا يكون إيثار ما عند الله على ما عند الناس، وتقديم شأن الآخرة على شأن الدنيا..

القارئة:

ولقد كانت أم ورقة رضى الله عنها من أهل القرآن الذين استظهروه وحفظوه وجمعوه، فرفع الله شأنها وأعلى قدرها فى الدنيا والآخرة، بأن أجازها النبى ﷺ إمامًا لأهل بيتها، ثم بشرها ﷺ بالشهادة..

(١) فى ظلال القرآن، الشهيد سيد قطب ١/ ٤٨١.

أما فى الآخـرة فإن كل آية كـانت تقرؤها ترفع منزلتـها درجة فـى الجنة، وما أدراك ما قدر هذه الدرجة، إننا نجد هذه المنزلة العظيمة فى حديث النبى ﷺ الذى يقول فـيه: «يقـال لصاحب القـرآن اقرأ وارتق ورتل كـمـا كنت ترتل فى الدنيا، فـإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها»(١).

أفبعد هذه المنزلة العظيمة منزلة تسمـو إليها الهمم؟! وهل فوق هذا المجد مجدٌ تطمحُ إليه النفـوس؟! فطوبى لأم ورقة رضى الله عنها هذه المنزلة العظيـمة، وبها فلتقتدِ النساء..

ثبات:

لزمتِ أم ورقة رضى الله عنها بـيتها وقرَّت فيـه، عاكفة على كـتاب ربها تتلوه حق تلاوته، دائمة فى ذكر ربها شديدة التضـرع إليه سبحانه، لا تنفك عن الدعاء فى كل أوقاتها، مقبلة على العبادة والطاعة بهمة عالية ولا غرو فهى المؤمنة التقية، العابدة الخاشعة.

نالت أم ورقة رضـى الله عنها كل التكريم من رسـول الله ﷺ، فكان يخصـها بالزيارة من حين لآخـر، وكان إذا أراد زيارتهـا اصطحب مـعه ثلة من صـحابتـه الكرام، قائلاً لهم: «انطلقوا بنا نزور الشـهيدة»(٢)، ويا له من شرف عظيم وفضل كريم حظيت به الشهيدة أم ورقة رضى الله عنها.

ولما لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى، ساهمت رضى الله عنها فى جمع القرآن الكريم فى عهد الصديق، وكـانت رضى الله عنها ممن اعتمد عليهـا الخليفة الراشد فى عمله العظيم(٣)، ثم تابعت رضى الله عنها حياة العبادة والإقبال على كتاب الله الكريم، وظلت مرتقبة لهذه البشارة العظيمة، متلهفة للشهادة..

---

(١) أحمد ٢/ ١٩٢، والترمذى فى أبواب فضائل القرآن ٤/ ٢٥٠ (٣٠٨١)، وقال: حسن صحيح، وأبو داود فى الصلاة، باب استحباب الترتيل فى القراءة ٢/ ٧٣ (١٤٦٤)، جميعًا عن عبد الله بن عمرو.

(٢) أسد الغابة ٥/ ٦٢٦، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٥٠٨.

(٣) قال الإمام السيوطـى فى الإتقان: فائدة: ظفرت بامرأة من الصحابيات جـمعت القرآن الكريم، لم يعدها أحدٌ ممن تكلم فى ذلك، ثم ذكر الحـديث، وأسنده إلى ابن سعد فى الطبقات، وفـيه: وكان رسول الله ﷺ يزورها ويسميها الشـهيدة، وكانت قد جمعت القرآن.. الإتقان فـى علوم القرآن، للإمام السيوطى ١٥٨/١.

مضت أعـوام وأم ورقة على قيد الحـياة وهى كما هى فى طاعـتها وعبـادتها، والصحابة يزورونها ويعرفون لها قدرها وفاءً منهم ونبلاً، إلى أن جاء الوقت الذى قدر الله عز وجل فـى علمه بأن تنال الشهادة فـيه، وذلك فى عهد عـمر الفاروق رضى الله عنه..

سبحان الله! ها هى نبوءة الصادق المصدوق تتـحقق، والبشارة تنالها، والشهادة تُهدى إليها، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

الشهيدة:

عاشت أم ورقة رضى الله عنها وحيـدة فى بيتها حيث لا زوج ولا ولد، ولكن كان مـعها غلام وجـارية، يقومان على خدمـتها، وكـانت تغدق عليهمـا وتحسن إليهما، ولكنهما غدرا بها وتعجلا موتها بأن سولت لهما أنفسهما شراً، فقاما إليها ليلا فـغمـياها ثم قتـلاها وهربا، ولما أصبح عـمر رضى الله عنه، قـال: والله ما سمعت قراءة خالتى أم ورقة البارحـة، وكان من عادته أن يسمع قراءتها كل ليلة، فتفـقدها فإذا هى ملفوفة فى قطيفـة لها فى جانب البيت، فقـام عمر فى الناس، وقال: إن أم ورقة رضى الله عنها غماها غلامها وجاريتها فقتلاها وهربا، ثم قال: علىَّ بهما، فلما أُتى بـهما، سألهما فأقرا أنـهما قتلاها، فأمر بهـما فصُلبا، فكانا أول مصلوبين فى المديـنة، عندها قال عمـر قولته الكريمة: صـدق رسول الله ﷺ حين كان يقول: «انطلقوا بنا نزور الشهيدة».

أسلمت أم ورقة روحـها إلى بارئها، وظفرت بما كـانت تتمناه وتترقـبه، فازت بالشهادة التى بشـرها بها الصادق المصدوق ﷺ، وانطلقت إلى الجنة تنعم فـيها بما أعده الله لعباده الصالحين...

***

فضل وكرامة

لقد كانت حياة أم ورقة رضى الله عنها حافلة بالفضائل والمناقب.. تدعونا لأن نتوقف عندها، فقد كانت رضى الله عنها من أصحاب الفطر السليمة النقية، فسبقت إلى الإسلام ومبايعة النبى ﷺ، وإذا كان الفضل لمن صدق، فإنها رضى الله عنها قد سبقت وصدقت.

وكانت رضى الله عنها تحمل بين جوانحها قلبًا فياضًا بالخير ونفسًا أبية وسريرة نقية، فجمعت بين نقاء الروح وصفاء النفس بالإقبال على العبادة والطاعة وتلاوة القرآن.. وبين الرغبة الصادقة والهمة العالية فى نصرة الدين والتضحية فى سبيله.

وكانت أم ورقة رضى الله عنها واحدة من نساء الصحابة اللائى حفظن القرآن الكريم وفهمن معانيه، ثم تفردت بكونها رضى الله عنها جمعت القرآن كله فى بيتها، وفى عهد أبى بكر رضى الله عنه كان لها دور جليل فى جمع القرآن.. فأعظم بها من فضيلة تحلت بها صحابيتنا الكريمة.

ولقد حظيت رضى الله عنها بحب النبى ﷺ وتقديره، فكان يكرمها ويزورها بل ويكثر من زيارتها بين الحين والحين، وكان الصحابة رضى الله عنهم يعرفون لأم ورقة رضى الله عنها قدرها فأجلوها، وكانت تعرف فيما بينهم بالشهيدة..

هذا ولقد جعل الله عز وجل استشهاد أم ورقة رضى الله عنها من دلائل صدق نبوة رسول الله ﷺ، فتحققت بشارته ﷺ لها، وظفرت بالشهادة حيث جنات الخلد، والنعيم المقيم، فهنيئًا لأم ورقة وطوبى لها وحسن مآب.

رضى الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مأواها..

***

أم شريك القرشية العامرية
رضى الله عنها
(٢٤)

نَسَبُها

أم شريك[(١)]:

هذه الصحابية الجليلة من اللاتى شرح الله صدورهن للإسلام مبكرًا، فأعلى الله قدرها ورفع ذكرها.. انطلقت على طريق الدعوة إلى الله، تدعو نساء قومها إلى الإسلام غير آبهة بما تلقاه من عقبات ومعوقات، فضربت أروع الأمثلة فى الصبر والثبات على الدين والدعوة إليه والتمسك به..

إنها أم شريك القرشية العامرية، غُزَيَّة[(٢)] بنت جابر بن حكيم، وهى من بنى معيص بن عامر بن لؤى، وقيل: هى دوسية من الأزد، وقيل فى نسبها: أم شريك بنت عوف بن جابر بن ضباب بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤى..

اختلف فى نسب أم شريك، فقيل: إنها قرشية من بنى عامر بن لؤى، وقيل: إنها أزدية من دوس، وقيل: إنها أنصارية من بنى النجار، وفى الجمع بين هذه الأقوال يقول ابن حجر فى الإصابة: والذى يظهر فى الجمع أن أم شريك واحدة اختلف فى نسبتها أنصارية، أو عامرية من قريش، أو أزدية من دوس، واجتماع هذه النسب الثلاثة ممكن، كأن يقول: قرشية تزوجت فى دوس فنسبت إليهم، ثم

(١) ابن سعد ٨/ ١١٠ - ١١٢، والإصابة ٨/٢٤٧ - ٢٤٩، وأسد الغابة ٥/ ٥٩٥، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٢٥٥، ٢٥٦، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٤٩٨ (٢٩٥٥)، وتاريخ الإسلام (السيرة النبوية)، ص ٥٩٨، (وعهد معاوية)، ص ٣٨٨، ٣٣٩، وأحمد ٣/ ٣٣٨، ٣٣٩، والطبرانى فى الكبير ٢٥/ ٩٦، ٩٧، والثقات ٣/ ٤٦٣، والبداية والنهاية ٨/ ٤٧، وحلية الأولياء ٢/ ٦٦، ٦٧، وتاريخ الطبرى ١١/ ١٢٥، وصفة الصفوة ٢/ ٣٧، ٣٨، والمعارف، ص ١٤١، والمقتنى فى سرد الكنى ٢/ ١٧٠ (٦٩٧٤)، والعقد الثمين ٨/ ٢٨٣ (٣٤٢٢)، ٣٤٣ (٣٥١٨)، والمستدرك ٤/ ٣٤، ٣٥، وتحفة الأشراف ١٣/ ٨٦، ٨٨، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٣٢٥ (٣٩٤٤)، والفتح الربانى ٢٢/ ٤٣٣، وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال ٣/ ٤٠٠ (٤٠)، وتقريب التهذيب ٢/ ٦٢٢ (٤٨)، والكاشف ٣/ ٤٤٢، والمغنى، ص ٣٠٠، والطبقات ١/ ٢١٣ (٥٣٧) والجرح والتعديل ٩/ ٤٦٤ (٢٣٧٧)، والرياض المستطابة، ص ٣٢٨، والاستيعاب ٤/ ٤٦٤ - ٤٦٧، وأعلام النساء ٢/ ٢٩٦، والمنتظم ٥/ ٢٣٦، ٢٣٧ (٣٥١)، وطبقات خليفة، ص ٣٣٥، والاشتقاق، ص ٥١٥، ومقدمة فتح البارى، ص ٢٩٠، والسمط الثمين، ص ٣٦٧.

(٢) غُزَيَّة: بضم ففتح، على وزن سمية.

تزوجت فى الأنصار فنسبت إليهم أو لم تتزوج، بل هى نسبت أنصارية بالمعنى الأعم(١).

روى ابن سعد قال: أسلم زوج أم شريك وهى غزية بنت جابر الدوسية من الأزد، وهو أبو العكر، فهاجر إلى رسول الله ﷺ مع أبى هريرة مع دوس حين هاجروا..(٢).

المؤمنة:

قال ابن سعد عن أم شريك رضى الله عنها: هى التى وهبت نفسها للنبى ﷺ، وهى من الأزد، فعرضت نفسها على النبى ﷺ وكانت جميلة وقد أسنت، فقالت: إنى أهب نفسى لك وأتصدق بها عليك، فقبلها النبى ﷺ، فقالت عائشة رضى الله عنها: ما فى امرأة حين تهب نفسها لرجل خير، قالت أم شريك: فأنا تلك، فسماها الله مؤمنة، فقال: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، فلما نزلت هذه الآية قالت عائشة: إن الله ليسرع لك فى هواك(٣)، (٤).

قال محمد بن عمر: رأيت من عندنا يقولون: إن هذه الآية نزلت فى أم شريك، وإن الثبت عندنا أنها امرأة من دوس من الأزد(٥).

وقيل: تزوجها رسول الله ﷺ ولم يدخل بها؛ لأنه كره غيرة نساء الأنصار(٦)، عن قتادة أن النبى ﷺ قال: «إنى أحب أن أتزوج فى الأنصار، ثم إنى أكره غيرتهن» قال: فلم يدخل بها(٧).

---

(١) الإصابة ٨/ ٢٤٩.

(٢) ابن سعد ٨/ ١١٠ وهو مقدمة حديث طويل.

(٣) قال ابن حجر: أى ما أرى الله إلا موجدًا لما تريد بلا تأخير، منزلاً لما تحب وتختار، وقال القرطبى: هذا قول أبرزه الدلال والغيرة، وهو من نوع قولها: ما أحمدكما ولا أحمد إلا الله، وإلا فإضافة الهوى إلى النبى ﷺ لا تحمل على ظاهره؛ لأنه لا ينطق عن الهوى ولا يفعل بالهوى، ولو قالت إلى مرضاتك لكان أليق، ولكن الغيرة يغتفر لأجلها إطلاق مثل ذلك، فتح البارى ٨/ ٥٢٦، ٩/ ١٦٥.

(٤) ابن سعد ٨/ ١١٢، وابن ماجة فى النكاح، باب التى وهبت نفسها للنبى ﷺ ١/ ٦٤٤ (٢٠٠٠).

(٥) المرجع السابق ٨/ ١١٢.

(٦) الاستيعاب ١٣/ ٢٤٣، طبعة المكتبات الأزهرية.

(٧) المستدرك ٤/ ٣٤، ٣٥، وانظر: سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٥٦.

وعن الشعبى فى قوله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ...﴾ [الأحزاب: ٥١] قال: كان نساء وهبن أنفسهن للنبى ﷺ فدخل ببعضهن، وأرجى بعضهن فلم يُنكحن بعده، منهن: أم شريك يعنى الدوسية(١).

وقال هشام بن عروة عن أبيه قال: كنا نتحدث أن أم شريك كانت وهبت نفسها للنبى ﷺ، وكانت امرأة صالحة(٢).

وهكذا كانت أم شريك رضى الله عنها ممن وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ فأرجأها، فنزلت فيها هذه الآية ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾، ولقد وصفت الآية أم شريك بأنها مؤمنة، وهذه الصفة الشريفة التى وصفها الله عز وجل بها، إنما تدل على صدق إيمانها وعظيم فضلها.. وإنه لشرف عظيم أن توصف أم شريك بهذه الصفة.. ومِنْ مَنْ.. إنها من الله رب العالمين.

لقد كان جُل همها وأسمى غاياتها أن تحظى بالقرب من النبى ﷺ، وتسعد بجواره، فلا شيء أسعد للنفس وأهنأ لها من مجاورة الحبيب ﷺ، والعيْش فى رحابه، والارتواء من معينه.. ذلك لأن النفوس الكبيرة لا تقنع إلا بكبار الأمور ومعاليها...

***

(١) ابن سعد ٨/ ١١٠.

(٢) ابن سعد ٨/ ٥٦.

أم شريك الداعية

لقد كانت المسلمة الأولى صاحبة رسالة تحمل هم هذا الدين، وتقوم بتبليغه والدعوة إليه، متحملة فى ذلك الصعوبات والمشاق والمخاطر، محتسبة وجه الله ورضوانه.

قال ابن عباس: وقع فى قلب أم شريك الإسلام وهى بمكة، فأسلمت، ثم جعلت تدخل على نساء قريش سرًا، فتدعوهن وترغبهن فى الإسلام حتى ظهر أمرها لأهل مكة فأخذوها، وقالوا لها: لولا قومُكِ لفعلنا بك وفعلنا، ولكنا سنردك إليهم، قالت: فحملونى على بعير ليس تحتىَ شىءٌ مُوَطَّأ ولا غيره، ثم تركونى ثلاثًا لا يطعمونى ولا يسقونى، قالت: فما أتت علىّ ثلاث حتى ما فى الأرض شىء أسمعه، وكانوا إذا نزلوا أوثقونى فى الشمس واستظلوا، وحبسوا عنى الطعام والشراب حتى يرتحلوا، فبينما أنا كذلك إذا أنا بأبرد شىء على صدرى، ثم رفع، ثم عاد فتناولته فإذا هو دلو ماء، فشربت منه قليلاً، ثم نزع منى ثم عاد فتناولته فشربت منه قليلاً، ثم رفع ثم عاد أيضًا، ثم رفع، فصنع ذلك مرارًا حتى رويت، ثم أفضت سائره على جسدى وثيابى، فلما استيقظوا فإذا هم بأثر الماء فرأونى حسنة الهيئة، فقالوا لى: انحللت فأخذت سقاءنا فشربت منه، فقلت: لا والله ما فعلت ذلك، كان من الأمر كذا وكذا، فقالوا: لئن كنت صادقة فدينك خير من ديننا، فنظروا إلى الأسقية فوجدوها كما تركوها وأسلموا بعد ذلك[1].

وروى ابن سعد قال: أسلم زوج أم شريك، فهاجر إلى رسول الله ﷺ مع أبى هريرة مع دوس حين هاجروا، قالت أم شريك: فجاءنى أهل أبى العكر، فقالوا: لعلك على دينه؟ قلت: أى والله إنى لعلى دينه، قالوا: لا جرم والله لنعذبنك عذابًا شديدًا، فارتحلوا بنا من دارنا ونحن بذى الخلصة[2]، وهو موضعنا، فساروا يريدون منزلاً وحملونى على جمل ثفال شر ركابهم وأغلظه، يَطعمون الخبز

(١) الإصابة ٨/٢٤٨، والحلية ٢/٦٦، ٦٧، والمنتظم ٥/٢٣٦، ٢٣٧.

(٢) ذو الخلصة: موضع يقال إنه بيت لخثعم كان يدعى كعبة اليمامة، وكان فيه صنم يُدعى الخلصة فهُدم، لسان العرب ٧/٢٩.

بالعسل ولا يسقونى قطرة من ماء، حتى إذا انتصف النهار وسخنت الشمس ونحن قائظون فنزلوا فضربوا أخبيتهم، وتركونى فى الشمس حتى ذهب عقلى وسمعى وبصرى، ففعلوا ذلك بى ثلاثة أيام، فقالوا لى فى اليوم الثالث: اتركى ما أنت عليه، قالت: فما دريت ما يقولون إلا الكلمة بعد الكلمة، فأشير بإصبعى إلى السماء بالتوحيد، قالت: فوالله إنى لعلى ذلك، وقد بلغنى الجهد إذ وجدت برد دلو على صدرى فأخذته فشربت منه نفسًا واحدًا ثم انتزع منى، فذهبت أنظر فإذا هو معلق بين السماء والأرض فلم أقدر عليه، ثم دُلى إلىّ ثانية فشربت منه نفسًا ثم رفع، فذهبت أنظر فإذا هو بين السماء والأرض، ثم دُلى إلىّ الثالثة فشربت منه حتى رويت وأهرقت على رأسى ووجهى وثيابى، قالت: فخرجوا فنظروا فقالوا: من أين لك هذا يا عدوة الله؟ قالت: فقلت لهم: إن عدوة الله غيرى مَنْ خالف دينه، وأما قولكم: من أين هذا؟ فمن عند الله رزقًا رزقنيه الله، قالت: فانطلقوا سراعًا إلى قربهم وأداواهم فوجدوها موكأة لم تحل، فقالوا: نشهد أن ربك هو ربنا، وأن الذى رزقك ما رزقك فى هذا الموضع بعد أن فعلنا بك ما فعلنا، هو الذى شرع الإسلام فأسلموا وهاجروا جميعًا إلى رسول الله ﷺ، وكانوا يعرفون فضلى عليهم وما صنع الله لى..(1).

دروس مستفادة:

إن فعل أم شريك رضى الله عنها يؤكد لنا صدق إيمانها، وعميق وعيها، وواسع إدراكها لرسالة المسلمة فى الحياة، وواجبها نحو ربها ودينها، وكانت دعوتها لنساء قومها ودخولها عليهن وترغيبهن فى الإسلام صورة صادقة من صور الإيمان الصادق الفاعل، والاستجابة لله ورسوله، صورة المؤمنة التى تجعل حياتها وقفًا لله تعالى.. إنه درس للمرأة المسلمة اليوم أن يكون النصح للدين والدعوة إليه هى التى تملأ عليها كيانها وحياتها ووجودها فتتحرك لهذا الدين وتحمل الراية مع زوجها، وتكون له عونًا وسندًا، لا عبئًا ثقيلاً عليه تضعفه أو تثبطه..

(لقد شهدت أم شريك شهادة الحق، فحملوا عليها حملة رجل واحد، وقذفوها متعطشة فى قاحلة جرداء، ولكنها تصلبت قائمة على الحق، فأنعم الله عليها من

(1) ابن سعد ٨/ ١١١، ١١٢.

فوق سبع سموات، وترققت لها قلوب قبيلتها، فعرفت الحق ونطقت بالشهادتين وآمنت بالله ورسوله على بكرة أبيها.

فالمرأة رغم وحدتها وغربتها تقدر أن تكون كالجبال الراسيات في استقامتها وثباتها على الحق، وفي تغييرها مجرى التاريخ وتيار الحياة، وفي إحداث ثورة عظيمة في المجتمع وإن كان هذا المجتمع قائمًا على الجاهلية العمياء)(١).

المرأة داعية:

(ومن هنا تحسّ المرأة المسلمة الصادقة بواجبها في دعوة مَنْ تستطيع من النساء إلى الحق الذي آمنت به، مبتغية بذلك الثواب الجزيل الذي وعد الله به الدعاة إلى الله، كما جاء في حديث النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: «.. فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم»(٢).

إن كلمة طيبة تلقيها المرأة المسلمة في مجتمع من النساء غافل، أو في أذن امرأة شاردة عن هَدْي الله، فتفعل فعلها في النفوس، تعود على الأخت الداعية بثواب جزل عظيم يفوق حُمْرَ النَّعَم أنفس الأموال التي كان يتطلع إليها العرب آنذاك، ويضاف إلى هذا الثواب مثل أجر المرأة التي اهتدت على يدها، كما أخبر بذلك الرسول الكريم ﷺ: «من دعا إلى هُدى كان له من الأجر مثل أجور من تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذلك من أجورهم شيئًا»(٣).

ولا تستصغر المرأة المسلمة الداعية بضاعتها من العلم حين تدعو النساء إلى الله، فحسبها أن تُبَلِّغَ ما حصلته من العلم، أو ما وصل إلى سمعها من الموعظة والهداية، ولو كان آية واحدة من كتاب الله، وهذا ما أوصى به النبي ﷺ أصحابه: «بلغوا عني ولو آية...»(٤)، فقد تصادف هذه الآية، أو الكلمة من كلمات

---

(١) المرأة ودورها عبر التاريخ، سماحة الشيخ عبد الله محمد الحسن الندوي، مقال بمجلة البعث الإسلامي، ندوة العلماء، لكهنؤ الهند، العدد (٥) محرم، صفر ١٤١٧هـ - يونيو، يوليو ١٩٩٦م.

(٢) البخاري في المغازي، باب غزوة خيبر ٧/٤٧٦ (٤٢١٠).

(٣) مسلم في العلم، باب مَنْ سنّ سنة حسنة ١٦/٢٢٧ (٢٦٧٤).

(٤) البخاري في أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٦/٤٩٦ (٣٤٦١)، قال ابن حجر: قال في الحديث: «ولو آية» أي واحدة ليسارع كل سامع إلى تبليغ ما وقع له من الآي ولو قلّ؛ ليتصل بذلك نقل جميع ما جاء به ﷺ، فتح الباري ٦/٤٩٨.

الداعيـة، مكمنًا من مكامن الإيمان، فـإذا شـرارة الهـداية تنقـدح فى نفس المرأة السامعة، فتقبل على الحق، وتستضئ حياتها كلها بنوره الوهّاج.

ومن هنا لا تألو المرأة المسـلمة الداعيـة جهـدًا فى دعوة الـنساء إلى الحق، ومـا أحوجهنّ فى هذا العصر إلى الدعوة إليه، مبتغية وجه الله، مُشيعةً الوعى فى صفوف النساء اللواتى لم يكتب لهن اكتساب الوعى والثقافة والتوجيه، مقدمة الدليل على أنها المؤمنة التى تحب لأختها ما تحب لنفسهـا، وهذه هى أخلاق الداعية المتميزة عن النساء العاديات، وإنها لأخلاق عالية ساميـة، نوه بها رسول الله ﷺ وأثنى عليها، ودعا لها بقوله: «نَضَّرَ الله امرأ سَمِعَ منا شيئًا فبَلَّغه كما سمعه، فَرُبَّ مُبَلَّغ أوعى من سامع»(١)، (٢).

هكذا كانت المرأة المسلمة، وهكذا ينبـغى أن تكون، فالمسلمة صاحبـة قضية لا تسكت عن باطل، ولا تقـعد عن بيان حق، وهى عطاءٌ وبذل وإيجـابية وتضحـية وحب للخير ودعوة للغير وصبر على الطريق..

سُنَّةٌ ماضية:

إن الابتلاء على طريق الدعوة سُنَّةٌ ماضية لابد منها، وقد نال الصحابة فى هذا الكثـير، وتحـملوا فى جنب الله رضى الله عنهم من التـعذيب والإيذاء مـا تنوء به الشم الرواسى، وبلغ بهم من الجهد والبلاء ما بلغ، ولـم تسلم أم شريك رضى الله عنها من التعذيب، بل نالها ما نال الصـحابة من تعذيب وحبس وتجويع وحرمان، فكانت رضى الله عنها مثلاً أعلى للنسـاء المسلمات فى عمق الإيمان، والصبر على الإيذاء، والثبات على دعوة الحق...

وفيـمـا أصاب أم شـريك عزاءٌ لدعاة الحق فـيما ينالهم فى سـبيل الله من أذى فى أبدانهـم وتقـيـيـد ومصـادرة لحـرياتهـم، أو قـضـاء على حـياتهـم بالأحكام الجـائرة الظالمـة، قال تعالـى: ﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

---

(١) التـرمذى فى العلم، باب مـا جاء فى الحث على تبليـغ السمـاع ٥/ ٣٣ (٢٦٥٧) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) شخصية المرأة المسلمة، د. محمد على الهاشمى، ص ٤٥٨، ٤٥٩.

خطب أحد الدعاة يومًا مدعويه قائلاً: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وهذه سنة الله تبارك وتعالى فى أصحاب الدعوات والمؤمنين بها والعاملين لها أن يبتليهم فى أنفسهم وأرزاقهم وأولادهم، وبالإيذاء والكيد والافتراء والكذب والاعتداء من منافسيهم وخصومهم والذين لا يعرفون حقيقة دعوتهم: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] ما بعث الله نبيًا من الأنبياء، ولا أرسل رسولاً من لدنه إلا بالخير والهداية والصراط المستقيم؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد؛ لهذا جاء نوح، وبهذا بُعث إبراهيم، ولهذا دعا موسى، وفى سبيله أرسل عيسى.. وبهذه الحقائق هتف محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

تلك سنة الله التى لا تتخلف ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]،(١).

إن التفاعل مع هذا الموقف يجعلنا نصبر على طبيعة الطريق، وأن نثبت على الدين مهما كانت التضحيات.. فإنه لا يصبر على البلاء إلا صادق الإيمان، متألق اليقين.. والأسوة فى هذا هو النبى ﷺ، فقد كانت حياته ﷺ مثلاً أعلى لدعاة الحق، (فكم لاقى فى سبيل الدعوة إلى الله من عنت وبلاء، وكم تحمل من صنوف الأذى وألوان الابتلاء.. لقد احتمل كل ذلك فى صبر المؤمن وإيمان الصابر، لم يضعف ولم يلن، ولم يهن ولم يستكن.

لقد كان ﷺ القدوة والأسوة لصحابته، فساروا على نهجه، واقتدوا به، فاحتملوا كما احتمل، وصبروا كما صبر، حتى أذل الله لهم خصومهم ومكن لهم من أعدائهم: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١])(٢).

(١) مشكلات الدعوة والداعية، فتحى يكن، ص٤١، ٤٢.

(٢) مفاهيم تربوية، أ. محمد عبدالله الخطيب ٥/ ٤٦.

ثبات المؤمنين:

(إن ثبات المؤمنين على عقيدتهم بعد أن يُنْزِلَ بهم الأشرار والضالون أنواع العذاب والاضطهاد، دليل على صدق إيمانهم، وإخلاصهم فى معتقداتهم، وسمو نفوسهم وأرواحهم، بحيث يرون ما هم عليه من راحة الضمير واطمئنان النفس والعقل، وما يأملونه من رضا الله جل شأنه أعظم بكثير مما ينال أجسادهم من تعذيب وحرمان واضطهاد؛ لأن السيطرة فى المؤمنين الصادقين والدعاة المخلصين، تكون دائمًا وأبدًا لأرواحهم لا لأجسامهم، وهم يسرعون إلى تلبية مطالب أرواحهم من حيث لا يبالون بما تتطلبه أجسامهم من راحة وشبع ولذة، وبهذا تنتصر الدعوات، وبهذا تتحرر الجماهير من الظلمات والجهالات)[1].

لقد ثبتت أم شريك ثبات الجبال، رغم تعرضها لأشد أنواع العذاب حتى ذهب عقلها وسمعها وبصرها، ولكنها أبت إلا الإيمان، لم تكترث بأحد ولم تعبأ بإنسان، فأى ثبات على المبدأ أعظم من هذا الثبات؟ وأى امتحان للإيمان أكبر من هذا الامتحان.. إننا سنذكر لأم شريك وهى المرأة الضعيفة هذا الموقف العظيم على مدى الزمان وتعاقب الأجيال، وكفاها بذلك فخرًا وشرفًا وخلودًا.

عـزة:

ونقف لحظة لنستمع إلى كلمات الإيمان والعزة والإباء والعلو، لما قالوا لها: من أين لك هذا يا عدوة الله؟ تُرى بماذا ترد عليهم أم شريك رضى الله عنها؟ لتسمع الدنيا كيف تكون العزة والشجاعة والقوة كيف يكون اليقين والثبات، وكيف يجب أن يكون دعاة الحق. قالت لهم بلسان المؤمنة المعتزة بدينها: إن عدوة الله غيرى مَنْ خالف دينه، وأما قولكم: من أين هذا؟ فمن عند الله رزقًا رزقنيه الله.. لقد كانت أم شريك رضى الله عنها ثابتة الجنان قوية الإيمان، تحمل نفسًا أبية عزيزة، تجهر بالحق ولا تخشى ظلم الظالمين ولا أذى المعاندين، بل وتقهرهم باعتزازها وثباتها..

(إن اعتزاز المرأة بشخصيتها المؤمنة، وهبها فى كل العصور القوة والصمود والثبات فى وجه المرغبات والمرهبات، ووقاها من السقوط فى حمأة الكفر،

(١) السيرة النبوية، دروس وعبر، د. مصطفى السباعى، ص ٥٦.

وصانها من الانحراف فى تيار الباطل مهما كـان قويًا منتفشًا متسلطًا بطّاشًا، وأوقد فى أعماق نفسها جمرة الإيمان التى لا تنطفئ. . فمرضاة الله فوق كل مُبْتَغَى، وإعلاء كلمته قبل كل هدف، وشرعة الله أهدى سبيل، والمرأة المسلمة الواعية لا تغيب عنها هذه الحقائق، ولا تزيدها على الأيام إلا اعتزازًا بشخصيتها المسلمة واستمساكًا بمنهج دينها الربانى الفريد)(١).

كرامة:

إن بعد كل محنة منحة، وما كان الله عز وجل ليتخلى عن عباده الصادقين وأوليائه الصالحين، فشملها بلطفه ورعايته وحاطها بكرامته ورحمته جزاء صبرها وثباتها، قال سبحانه: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

ولقد زادها الله عز وجل فضلاً وكرامة، فأقر عينها بإسلام قومها الذين آذوها بعدما رأوا ما حقق الله عز وجل على يديها من كرامة، هنالك علموا صدق إيمانها وأن ما تدين به هو الحق، فأذعنوا له وانقادوا إليه. . ثم كانوا يعرفون فضلها عليهم وقَدْرَها بينهم.

صفات كريمة:

تمتعت أم شريك رضى الله عنها بصفات كريمة وأخلاق حميدة، فقد كانت رضى الله عنها منفقة سخية، كريمة مضيافًا يأوى إليها صحابة النبى ﷺ ويكثرون من زيارتها والتردد على بيتها، ففى قصة فاطمة بنت قيس رضى الله عنها لما طلقها زوجها، أمرها النبى ﷺ أن تعتد فى بيت أم شريك، ثم قال لها: «تلك المرأة - أى أم شريك رضى الله عنها - يغشاها أصحابى»(٢)، وفى رواية قال ﷺ: «انتقلى إلى أم شريك، وأم شريك امرأة غنية من الأنصار، عظيمة النفقة فى سبيل الله ينزل عليها الضيفان»، فقالت: سأفعل، فقال ﷺ: «لا تفعلى، إن أم شريك امرأة كثيرة الضيفان

(١) شخصية المرأة المسلمة، د. محمد على الهاشمى، ص ٩٦، ٩٧، بتصرف.

(٢) من حديث رواه مسلم فى الطلاق، باب المطلقة البائن لا نفقة لها ١٠/٩٦ (١٤٨٠).

فإنى أكره أن يسقط عنك خمارك أو ينكشف الثوب عن ساقيك فيرى القوم منك بعض ما تكرهين، ولكن انتقلى إلى ابن عمك عبد الله بن عمرو بن أم مكتوم...»[١].

ويا لها من شهادة مباركة من رسول الله ﷺ تطوّق عنق أم شريك بقلادة من الفضائل والمكارم، تزيدها فضلاً وسمواً وكمالاً..

لقد عُرفت أم شريك رضى الله عنها بهذه الأخلاق الكريمة من سخاء وجود وكرم وبذل وإنفاق.. وسجل لها التاريخ ذلك بأحرف من نور، وما أعظم المسلمة حين تحذو حذو أم شريك رضى الله عنها وتنسج على منوالها وتتحلى بأخلاقها، فتكرم ضيفها وتجود بما فى يدها كلما دعا الداعى إلى البذل والإنفاق، حتى تكون قريبة من الناس محببة إليهم..

الراوية:

حفظت أم شريك رضى الله عنها عن النبى ﷺ، وسمعت منه وروت عنه، روى عن أم شريك جابر وابن المسيب رضى الله عنهما، وروى لها البخارى ومسلم، ومن مروياتها رضى الله عنها، ما حدثت به، قالت: سمعت النبى ﷺ يقول: «ليفرن الناس من الدجال فى الجبال» قالت أم شريك: يا رسول الله فأين العرب يومئذ؟ قال: «هم قليل»[٢].

وعنها أنها قالت: إن رسول الله ﷺ أمرها بقتل الوَزَغ[٣]، وقالت: أمرنا رسول الله ﷺ أن نقرأ على الجنازة بفاتحة الكتاب[٤].

---

(١) مسلم فى الفتن، باب قصة الجساسة ١٨/٧٨ - ٨٥ (٢٩٤٢)، قال الإمام النووى: ومعنى هذا الحديث: أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يزورون أم شريك ويكثرون التردد إليها لصلاحها، فرأى النبى ﷺ أن على فاطمة من الاعتداد عندها حرجًا من حيث أنه يلزمها التحفظ من نظرهم إليها ونظرها إليهم وانكشاف شىء منها، وفى التحفظ من هذا مع كثرة دخولهم وترددهم مشقة ظاهرة، فأمرها بالاعتداد عند ابن أم مكتوم؛ لأنه لا يبصرها ولا يتردد إلى بيته مَنْ يتردد إلى بيت أم شريك.
وقال النووى فى فوائد الحديث: استحباب زيارة النساء الصالحات للرجال، بحيث لا تقع خلوة محرمة؛ لقوله ﷺ فى أم شريك: «تلك امرأة يغشاها أصحابى»، انظر: النووى بشرح صحيح مسلم ١٠/٩٦، ١٠٦.

(٢) مسلم فى الفتن، باب فى بقية من أحاديث الدجال ١٨/٨٦ (٢٩٤٥).

(٣) البخارى فى الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٢٥] ٦/٣٨٩ (٣٣٥٩).

(٤) ابن ماجة فى الجنائز، باب ما جاء فى القراءة على الجنازة ٢/٤٧٩ (١٤٩٦)، وقال فى الزوائد: فى إسناده شهر بن حوشب، وثقه أحمد وابن معين وغيرهما، وتركه ابن عوف، وضعفه البيهقى، ولينه النسائى وحماد وغيرهما.

فضل ومكانة

لقد كانت أم شريك رضى الله عنها امرأة فاضلة، عاقلة داعية، ذات همة عالية ونفس سامية.. وكانت رضى الله عنها من النساء الداعيات فى صدر الإسلام، أجرى الله الخير على لسانها وثبت الإيمان فى قلبها، فنفع بها وهدى قومها على يديها، فنالت خيرًا عظيمًا وفضلاً كبيرًا وبابًا من الأجر لا يُغلق..

ومن فضائل أم شريك رضى الله عنها أن أكرمها الله بكرامات، منها غير ما سبق، عن يحيى بن سعيد قال: وكانت لها عكةٌ تعيرها من أتاها فاستامها رجل، فقالت: ما فيها رُبّ، فنفختها فعلقتها فى الشمس، فإذا هى مملوءة سمنًا، قال: فكان يقال: ومن آيات الله عكة أم شريك، وعن جابر عن أم شريك، أنها كانت عندها عكة تهدى فيها سمنًا لرسول الله ﷺ، قال: فطلبها صبيانها ذات يوم سمنًا فلم يكن، فقامت إلى العكة لتنظر فإذا هى تسيل، قال: فصبت لهم منه فأكلوا منه حينًا، ثم ذهبت تنظر ما بقى فصبته كله ففنى، ثم أتت رسول الله ﷺ فقال لها: أصبيته؟ أما إنك لو لم تصبيه لقام لك زمانًا»[(١)].

لقد كانت أم شريك رضى الله عنها من الصالحات العابدات، كما وصفها أبو نعيم فى الحلية: أم شريك الأسدية ذات الأحوال المرضية، والآيات المكرمة السنية[(٢)].

ومن فضائلها رضى الله عنها أن شهد الله عز وجل لها بالإيمان، ودعاها مؤمنة بنص القرآن: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾، والمؤمنة هنا أم شريك رضى الله عنها.

كما أنها رضى الله عنها تحلت بالأخلاق الكريمة واتصفت بالصفات الطيبة، التى جعلتها من صفوة النساء، فيا حبذا اقتداء النساء بها...

تلكم هى سيرة أم شريك الصحابية الداعية، المؤمنة الصابرة، الكريمة المضياف، رضى الله عنها وأرضاها وأحسن مثواها.

---

(١) ابن سعد ٨/ ١١٢.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ٦٦.

عاتكة بنت زيد القرشية
رضى الله عنها
(٢٥)

نَسَبُها

عاتكة بنت زيد[(١)]:

نعيش الآن مع صحابية جليلة القَدر، ذات خَلقٍ بارع وخُلُقٍ كريم، من أسرة كريمة آمنت بربها مع السابقين الأولين، إنها زوجة الشهداء، قال عنها عبد الله بن عمر: من أراد الشهادة فليتزوج بعاتكة، فمن تكون؟

أما أبوها: فهو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر.

كان زيد على دين إبراهيم، وكان يعيب على قريش ذبحهم لغير الله تعالى، وكان يحيى الموءودة يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها فأنا أكفيك مؤونتها. .[(٢)].

وأمها: أُمُّ كريز بنت الحضرمى، واسمه: عبد الله بن عماد بن مالك بن ربيعة ابن أكبر بن مالك بن حضرموت[(٣)].

وأخوها: سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة، وابنة عم أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنهما.

---

(١) ابن سعد ٨/ ١٩٣- ١٩٥، والثقات ٣/ ٣٢٤، ٣٢٥، ونسب قريش، ص ٢٧٧، ٣٦٥، ٣٦٦، والعقد الثمين ٨/ ٢٧٤- ٢٧٩ (٣٤١٦)، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٢٨٥ (٣٤٢٣)، والمعارف ص ٢٤٦، وجمهرة أنساب العرب ١٥١، ١٥٢، والمنتظم ٥/ ١٩٢، وخزانة الأدب ١٠/ ٣٧٨- ٣٨١، والتاريخ الصغير ١/ ٣٧، والاستيعاب ٤/ ٣٦٤- ٣٦٧، والإصابة ٨/ ١٣٦، ١٣٧ (٦٩٢)، وكنز العمال ١٣/ ٦٣٣، وأسد الغابة ٥/ ٤٩٧- ٤٩٩،، والأغانى ١٨/ ٥٨- ٦٢، وتاريخ الطبرى ٤/ ١٩٩، وتاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين) ص ٢٧٥، والأعلام ٣/ ٢٤٢، وأعلام النساء ٣/ ٢٠١- ٢٠٦، والبداية والنهاية ٨/ ٢٥، والطبرانى فى الكبير ٢٤/ ٣٤٨، ٣٤٩.

(٢) انظر ترجمته فى: نسب قريش، ص ٣٦٤، وخزانة الأدب ٦/ ٤١٦.

(٣) نسب قريش، ص ٣٦٦.

وخالهـا: العلاء بن الحـضرمى[١]، وخالـتها: الـصعبـة بنت الحضـرمى، أمُّ الصحابى الجليل طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة.

وأما زوجها فـهو عبدالله بن أبى بكر، قُتل عنها، ثم تزوجـها عمر بن الخطاب فقتل عنها، ثم تزوجـها الزبير بن العوام فقتل أيضًا، ثم أخيـرًا تزوجها الحسين بن على فقُتل. .

***

(١) الصحـابى الجليل الذى قال عنه أبو هريرة: رأيت من العلاء ثلاثة أشـياء لا أزال أحبه أبدًا: قطع البـحر على فرسه يوم دارين، وقدم يريد البحرين، فدعا الله بالدهناء، فنبع لهم ماء فارتووا، ونسى رجل منهم بعض متـاعه فردّ فلقـيه، ولم يجد الماء، ومـات ونحن على غير مـاء، فأبدى الله لنا سحـابة، فمطرنا فغسلناه، وحفرنا له بسيوفنا ودفنـاه، ولم نلحد له. انظر: سير أعلام النبلاء ١/ ٢٦٥، ٢٦٦، والمعارف ص ٢٨٣.

حياة حافلة

نشأت عـاتكة رضى الله عنها فى بيت طيب له سُـمعة شـريفة ومـجد عظيم، كانت رضى الله عنها على حظ وافر من الذكاء والجمـال والكمال، كما أنها كانت بليغة وفصيحة فى القول، شاعرة من شواعر العرب.

أسلمت رضى الله عنها وهاجرت مع أخيها وزوجته فاطمة(١).

زواجها من عبد الله بن أبى بكر:

تزوج عبد الله بن أبى بكر الصديق من عاتـكة وكانت حسناء جميلة ذات خَلق بارع، فغلبته على رأيه وشغلته عن مغازيه ومعاشه وتجارته(٢)، فأمره أبوه بطلاقها، وقال: إنها قد شغلتك عن مغازيك(٣)، فلم يخالف عبد الله أمر أبيه، فطلقها وهو كاره، وأنشد قائلاً:

يقـولون طلقـهـا وخـيِّم مكانهـا ... مـقيـمًـا تُمنّى النفس أحـلام نائم
وإنى فراقى أهل بيـت جمعـتهم ... على كـره منى لإحـدى العظائم

ويروى أن أبا بكر كان يصلى ذات ليلة على سطح داره، إذ سمعه وهو يقول:

أعـاتك لا أنسـاك مـاذرَّ شـارقٌ ... ومـا ناحَ قـمرى الحـمـام المطوق
أعـــاتك قلـبى كـل يوم وليـلة ... لديك بما تخـفـى النفـوس مـعلق
لهــا خلق جـزل ورأى ومـنطق ... وخلق مصـون فى حياء ومـصدق
فلم أر مــثلى طـلق مـثلـهـا ... ولا مـثلهـا فى غـيـر شىء تطلق

فسمع أبو بكر قوله فأشرف عليـه وقد رقّ له، فقال: يا عبد الله راجع عاتكة، فقال: أشهـدك أنى قد راجعتها، وأشرف على غـلام له يقال له أيمن فقال له: يا

---

(١) قال أبو عمر: كانت عاتكة رضى الله عنها من المهاجرات.

(٢) قيل: إن أبا بـكر مرّ على ابنه عبـد الله بعد أن صلى الجـمعـة، فوجده مع زوجـه، وسأله: يا عـبد الله أجمعت؟ قال: أو صلى الناس؟ قال: نعم، قال له أبو بكر: قد شغلتك عاتكة عن المعاش والتجارة وقد ألهتك عن فرائض الصلاة.. أعلام النساء ٣/ ٢٠١.

(٣) المنتظم ٥/ ١٩١.

أيمن أنت حر لوجه الله تعالى، أشهدك أنى راجعت عاتكة، ثم خرج إليها يجرى إلى مؤخر الدار وهو يقول:

أعاتك قد طُلِّقْتِ في غير ريبة ... وروجعت للأمر الذى هو كائنُ

كذلك أمرُ الله غادٍ ورائحُ ... على الناس فيه ألفةٌ وتباين

بعدما راجع عبد الله عاتكة عاشا حياة هانئة سعيدة، لم ينس عبد الله بعدها واجباته فى الغزو والجهاد، فقد اشترك رضى الله عنه فى فتح مكة، وكان مع النبى ﷺ فى حنين، ثم فى الطائف، وفيها أصيب بسهم فاستشهد، وكان رضى الله عنه أعطاها حديقة له حين راجعها على أن لا تتزوج بعده، فلما مات من السهم الذى أصابه، حزنت عاتكة عليه، وقالت ترثيه:

رُزئتُ بخير الناس بعد نبيهم ... وبعد أبى بكر وما كان قصرا

فآليتُ لا تنفكُّ عينى حزينة ... عليك ولا ينفك جلدى أغبرا

فللّه عينًا من رأى مثله فتى ... أكرمَ وأحمى فى الهياج وأصبرا (١)

إذا شرعت فيه الأسنّةُ خاضها ... إلى الموت حتى يترك الرمح أحمرا

وقفة:

وقبل أن نمضى مع عاتكة رضى الله عنها نتوقف فنقول: إن مما يدعو إليه الإسلام أن يكون بين الزوجين حسن المعاشرة والمحبة الصادقة، والمودة الحانية والمداعبة اللطيفة. . . غير أن هذا لا يشغل المسلم عن هدفه ورسالته وغايته، والمسلمة إن رأت فى زوجها ركونًا أو تثاقلاً ذكرته بربه، فإذا ذكر أعانته، إذ هى شريكته فى المسؤولية وحمل الرسالة، والمسلم مطالب بألا يضعف أمام فتنة الزوجة وجمالها، فهى إن كانت حبيبة إلى قلبه، فإن مرضاة الله أحب، وأن علاقة الزوج بزوجته ومودته لها مهما عظمت فهى دون حب الله ورسوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

(١) الهياج: الحرب.

إنه (لا عيب على الرجل فى محبته لأهله، وعشقه لها، إلا إذا شغله ذلك عن محبة ما هو أنفع له من محبة الله ورسوله، وزاحم حبه وحب رسوله، فإن كل محبة زاحمت محبة الله ورسوله، بحيث تضعفها وتنقصها فهى مذمومة، وإن أعانت على محبة الله ورسوله وكانت من أسباب قوتها فهى محمودة)(١).

إن بعض المسلمات يتساهلن فى هذا الأمر، فيعقن أزواجهن عن أداء رسالتهم، وهنا يسميهم الله -عز وجل- أعداء، ويطلب من الأزواج الحذر منهن فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، وقد نزلت هذه الآية فى عوف بن مالك الأشجعى، كان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه، قائلين له: إلى مَنْ تدعنا؟ فيرق فيقيم، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

يقول القاضى أبو بكر بن العربى: هذا يبين وجه العداوة، فإن العدو لم يكن عدوًا لذاته، وإنما كان عدوًا بفعله، فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدوًا، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة(٢).

وقد يكون الزوج هو الذى يتساهل فى هذا، ويعوق زوجته عن أن تنهض بواجبها أو تؤدى دورها، فيقف لها وربما يمنعها، فيكون بفعله هذا عدوًا أيضًا، يقول القرطبى -رحمه الله-: كما أن الرجل يكون له ولده وزَوْجُه عدوًا، كذلك المرأة يكون لها زوجها وولدها عدوًا بهذا المعنى بعينه، وعموم قوله: ﴿مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ [التغابن: ١٤] يدخل فيه الذكر والأنثى لدخولهما فى كل آية.

وقوله تعالى: ﴿فَاحْذَرُوهُم﴾ [التغابن: ١٤] معناه على أنفسكم، والحذر على النفس يكون بوجهين: إما لضرر فى البدن، وإما لضرر فى الدِّين، وضرر البدن يتعلق بالدنيا، وضرر الدين يتعلق بالآخرة، فحذر الله سبحانه العبد من ذلك وأنذره به(٣).

ونلحظ من موقف الصديق رضى الله عنه حرصه وغيرته على الدين، واستشعاره بالمسؤولية عن توجيه ابنه ونصحه وتربيته حتى بعد تزوجه، كما نرى

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن قيم الجوزية ٢/ ٤١٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبى ١٨/ ١٤٠، ١٤١.
(٣) المرجع السابق ١٨/ ١٤٢.

كمال الطاعة من الابن، فلم يعترض عليه ولم يتردد، وإنما سمع لأبيه وأطاع، وهذا من حُسن الأدب وكمال التربية فى بيت الصديق..

مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

ونمضى مع عاتكة رضى الله عنها، فقد روى ابن عبد البر فى التمهيد عن زيد ابن أسلم وعبد الرحمن بن القاسم عن أبيه قال: لما انقضت عدة عاتكة من عبد الله بن أبى بكر، زارت حفصة ابنة عمر، فدخل عمر على حفصة، فلما رأت عاتكة عمر، قامت فاستترت، فنظر إليها عمر، فإذا امرأة بارعة ذات خلق وجمال، فقال عمر لحفصة: من هذه؟ فقالت: هذه عاتكة ابنة زيد بن عمرو بن نفيل، فقال عمر: اخطبيها علىّ، قال: فذكرت حفصة لها ذلك، فقالت: إن عبد الله ابن أبى بكر جعل لى جعلاً على أن لا أتزوج بعده، فقالت ذلك حفصة لعمر، فقال لها عمر: مريها فلتردى ذلك على ورثته وتزوجى، قال: فذكرت ذلك لها حفصة، فقالت لها عاتكة: أنا أشترط عليه ثلاثًا: ألا يضربنى، ولا يمنعنى من الحق، ولا يمنعنى عن الصلاة فى مسجد رسول الله ﷺ العشاء الآخرة، فقالت حفصة لعمر ذلك، فتزوجها فلما دخل عليها أولم عليها ودعا أصحاب رسول الله ﷺ، وكان فيهم على بن أبى طالب، فلما فرغوا من الطعام وخرجوا، خرج على فوقف فقال: أههنا عاتكة؟ قالوا: نعم، فصارت خلف الستر، وقالت: ما تريد بأبى وأمى، فذكرها بقولها فى عبد الله بن أبى بكر:

فآليت لا تنفك عينى سخينة ... عليك ولا ينفكُّ جلدي أغبرا

وقال لها: هل تقولين الآن هذا؟ فبكت عاتكة، فسمع عمر البكاء، فقال: ما هذا؟ فأخبر فقال لعلى: ما دعاك إلى ذلك، غممتها وغممتنا؟ قال: فلبثْ عنده حتى أصيب..[1].

وفى رواية: قال: ما دعاك إلى هذا يا أبا الحسن؟ كل النساء يفعلن هذا، فقال علي: ولم أرادت أن تقول ما لا تفعل؟ وقد قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]، وهذا شيء كان فى نفسى أحببت أن يخرج، فقال عمر: ما حسَّن الله فهو حسن[2].

(١) التمهيد لابن عبد البر ٢١٣/ ٤٠٥، ٤٠٦.

(٢) العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ٨/ ٢٧٦.

إن عاتكة رضى عنها تعلم النساء المسلمات درسًا بالغًا في التأكيد على استقلال شخصية المرأة المسلمة وأهليتها لتحمل المسؤولية، فلقد اشترطت رضى الله عنها على عمر رضى الله عنه حين زواجه بها شروطًا تضمن لها الاستقرار فى الحياة الزوجية.

(لقد وصل عمر رضى الله عنه فى إعزاز المرأة وتمتعها بحريتها إلى أرقى مستوى رفيع فى احترام حرية الرأى وحرية الاختيار، يرعى مشاعرها ولا يرغمها على ما لا تريد فى حدود الشرع وأحكامه، بل يبيح لها أن تشترط على الخاطب ما تشاء ضمانًا لراحتها وسعادتها.

وخطب عمر عاتكة بنت زيد العزوف، فشرطت عليه ألا يمنعها من المسجد ولا يضربها، فأجابها على كره منه..

رئيس الدولة يتقدم خاطبًا، والمخطوبة تشترط من الشروط ما لا يعجبه فيرضى على كره منه، إذ ليس فيما اشترطت لنفسها ما ينكره الإسلام، إن المرأة فى الإسلام موفورة الكرامة، وافرة الحقوق، مستكملة كل الحريات)(١).

عاشت عاتكة مع عمر رضى الله عنه حياة سعيدة، وأنجبت له عياض بن عمر(٢)، وكان عمر رضى الله عنه وفيًا مع زوجته، فعن ابن عمر رضى الله عنه قال: كانت امرأة لعمر تشهد العشاء والصبح فى جماعة فى المسجد، فقيل لها: تخرجين وقد تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار؟ قالت: فما يمنعه أن ينهانى، قالوا: يمنعه قول رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله» (٣).

عاتكة والمسك:

قدم على عمر رضى الله عنه مسك وعنبر من البحرين، فقال عمر: والله لوددت أنى وجدت امرأة حسنة الوزن تَزِنُ لى هذا الطيب حتى أقسمه بين المسلمين، فقالت له امرأته عاتكة بنت زيد: أنا جيدة الوزن فهلمّ أزن لك، قال: لا، قالت: لم؟ قال: إنى أخشى أن تأخذيه فتجعليه هكذا -وأدخل أصابعه فى صدغيه- وتمسحى به عنقك، فأصيب فضلاً على المسلمين(٤).

(١) شهيد المحراب عمر بن الخطاب، الأستاذ عمر التلمسانى، ص ١٩٢، ١٩٣.

(٢) انظر: الرياض المستطابة، يحيى بن أبى بكر، ص ١٥٥.

(٣) التمهيد لابن عبد البر ٢٣/ ٣٩٧.

(٤) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لابن الجوزى، ص ١٥٩، عن سعيد بن أبى وقاص.

(فهذا مثل من ورع أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه واحتياطه البالغ لأمر دينه، فقد أبى على امرأته أن تتولى قسمة ذلك الطيب حتى لا تمسح عنقها فيكون قد أصاب شيئًا من مال المسلمين، وهذه دقة متناهية فى ملاحظة الاحتمالات لأوليائه السابقين إلى الخيرات، وفرقان يفرقون به بين الحلال والحرم والحق والباطل، بينما تفوت هذه الملاحظات على الذين لم يشغلوا تفكيرهم بحماية أنفسهم من المخالفات)[1].

زوجة الخليفة:

لقد أراد عمر رضى الله عنه أن يبدأ بأهل بيته، فيعطى المثل والقدوة فى زوجته عاتكة، إذ لو رتع الأمير رتعت الرعية، ولو عف عفوا؛ لذلك كان رضى الله عنه شديدًا فى محاسبة نفسه وأهله، يراقبهم فى تصرفاتهم، إن زوجة الأمير ليست كبقية النساء على حد قول الله تعالى فى شأن أمهات المؤمنين: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، لذلك كان عمر رضى الله عنه شديدًا مع زوجته كى يرتقى بها إلى أفقه الذى يعيش فيه، وتبقى معه تشاركه حياته، وتعيش معه كما يعيش عامة الناس وأقل..

فقهت عاتكة رضى الله عنها الدرس وتعلمت من مثل هذه المواقف، حتى صارت مثلاً وقدوة للمسلمات، إن مسؤولية المسلم الصادق مع الله -عز وجل- نحو زوجته أن يرتقى بها فى فهمها وحركتها وتصرفاتها حتى تكون على شاكلته وعلى مستوى المسؤولية، كما قيل: (زوجة المجاهد مجاهدة، وزوجة الداعى داعية لها مثل الصفات، ولها مثل الأفعال والأحوال التى يجب أن يكون عليها الداعية..)[2].

ظلت عاتكة رضى الله عنها مع عمر رضى الله عنه تحظى بالقرب منه وتسعد بالعيش معه، إلى أن جاء اليوم الذى قُتل فيه شهيدًا فى محرابه[3]، وهى تصلى معه فى المسجد، استشهد رضى الله عنه أمام عينيها فرثته قائلة:

(١) التاريخ الإسلامى مواقف وعبر، د. الحميدى ١٩/ ٣٠.

(٢) النساء الداعيات، د.وتوفيق الواعى، ص ١٣٥.

(٣) استشهد يوم الأربعاء لأربع أو ثلاث بقين من ذى الحجة، سنة ثلاث وعشرين من الهجرة، وهو ابن ثلاث وستين سنة، وكانت خلافته رضى الله عنه عشر سنين ونصفًا وأيامًا.

عين جودي بعبرة ونحيب ... لا تملي على الإمام النجيب
فجعتني المنون بالفارس المعـ ... ـلم يوم الهياج والتثويب(١)
قل لأهل الضراء والبؤس موتوا ... قد سقته المنونُ كأسَ شعوب(٢)

لقد كان هول الفاجعة عظيمًا على عاتكة رضى الله عنها وسائر المسلمين، حتى قيل: كأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ، ظلت عاتكة رضى الله عنها متألمة لما أصابها تكاد تتفطر حزنًا على فقيدها الحبيب، وأخرجت كل ذلك نفثات محزونة وأشعارًا صادقة:

مُنِعَ الرقاد فعاد عيني عودُ ... مما تَضَمَّن قلبي المعمود(٣)
يا ليلةً حُبِستْ علَيَّ نجومها ... فسهرتُها والشامتون هجود(٤)
قد كان يُسْهِرُني حذارك مرةً ... فاليوم حَقَّ لعينيَ التسهيدُ(٥)
أبكي أميرَ المؤمنين ودونَه ... للزائرين صفائحٌ وصَعيدُ(٦)

مع الزبير بن العوام:

وغضى مع عاتكة رضى الله عنها، فها هي رضى الله عنها بعد أن تخطت هذه المحنة وشدتها، وما إن انقضت عدتها، حتى تقدم لها الزبير رضى الله عنها لخطبتها، مروءة منه وإكرامًا لعمر رضى الله عنه بعد استشهاده.. دخل بها الزبير رضى الله عنه وعاشت معه حياة كريمة، وكانت رضى الله عنها تخرج إلى المسجد، وكان الزبير يكره خروجها ويحرج من منعها، فخرجت ليلة إلى المسجد وخرج الزبير فسبقها إلى مكان مظلم، فلما مرت به وضع يده على بعض جسدها، فرجعت تتشنج ثم لم تخرج بعد ذلك، فقال لها الزبير: مالك لا تخرجين إلى المسجد كما كنت تفعلين؟ فقالت: فسد الناس، فقال: أنا فعلت ذلك، فقالت: أليس يقدر غيرك أن يفعل مثله، ولم تخرج حتى قُتل عنها الزبير.

(١) التثويب: الدعاء للصلاة وغيرها، والمقصود: تكرار الدعاء.
(٢) شعوب: المنية، وسميت شعوب؛ لأنها تفرق.
(٣) المعمود: شديد الحزن.
(٤) هجود: نائمون مستغرقون. (٥) التسهيد: الأرق.
(٦) الصعيد: وجه الأرض ترابًا كان أو غيره.

جاءت أيام الفتنة واعتـزل رضى الله عنه القتال وابتعد عن المعركة، متجهًا إلى المدينة، تبعه عمرو بن جرموز ومعـه اثنان، فأخذوا على عاتقهم قتل الزبير، تقدم رضى الله عنه لكى يصلى بهم إمـامًا، واستدبره ابن جـرموز، فغـدر به من خلفه وضربه فى ظهره عدة ضربات فقتله.

قُتل الزبير رضى الله عنه عن سبع وستين سنة، تاركًا وراءه ثروة طائلة، ويرسل عبد الله بن الزبيـر لعاتكة ميراثهـا من زوجها، لكنها لم تتعلق بـه، وغلب عليها الحزن والبكاء إذ لم تدم حياتها معه طويلاً، وقالت ترثيه:

غـدر ابنُ جرمـوز بفـارس بُهمـة ... يومَ اللقـاءِ وكـان غـيرَ مُـعَـرِّدِ[1]

يا عـمـرو لو نبـهـتـه لوجـدتَهُ ... لا طائشًا رعش الجنانِ ولا اليَدِ[2]

شُلَّت يمينُك إن قـتـلت لمسلمًـا ... حَلَّت عليـك عـقـوبةُ المتـعـمِّـدِ

إن الزبيـــر لذو بـلاءٍ صـــادقٍ ... سَـمْحٌ سـجـيتُـه كـريمُ المشـهـدِ

كم غـمـرةٍ قد خـاضـهـا لم يثنِهِ ... عنهـا طِرادُك يابن فِقْعِ القَـدْفَدِ[3]

فـاذهب فـمـا ظفـرتْ يداك بمثله ... فيمن مـضى ممن يروحُ ويفتدى[4]

مع الحسين بن على:

بعد استشهاد الزبير أراد على بن أبى طالب رضى الله عنهما أن يكرم الزبير بعد مقتله، فأرسل على رضى الله عنه يخطبـها، فأبت وأرسلت إليه قائلة: إنى لأضن بك يا ابن عم رسـول الله ﷺ عن القـتل، فكان عـلى بن أبى طالب يقـول: من أحب الشهـادة الحاضرة فليـتزوج عاتكة، وكان عـبد الله بن عمـر يقول: من أراد الشهادة فليتزوج بعاتكة بنت زيد[5].

(١) عَرَّد الرجل إذا فر. وبُهمةٌ: الفارس الذى لا يُدرى من أين يُؤتى من شدة بأسه.
(٢) رعش: بكسـر العين المهملة، وصف مـن رعش كفـرح ومنع رعشًـا ورعشـانًا، أخذته الرعـدة، وطاش يطيش، إذا خف عقله من دهشة وخوف.
(٣) فَـقْع الفدفـد: الفِـقْع: نوع أبيض من ردىء الكمـأة، والفَدْفَـد: الأرض المسـتوية، وهو مـثل للذليل، والغمرة: الشدة.
(٤) معناه: لن تظفر فى حياتك بمثله بل فى البشر كلهم.
(٥) ابن سعد ٣/ ١١٢.

هنا تقدم الحسين رضى الله عنه لعاتكة ليتزوجها راغبًا فى الشهادة فى سبيل الله.. عاشت معه رضى الله عنه حياة الشدة، وكانت إلى جانبه فى كل أموره إلى أن حانت فاجعة كربلاء، واستشهاد الحسين فى العاشر من المحرم عام (٦١هـ)، ولم يكن مقتل الحسين رضى الله عنه بالحدث العادى، وإنما كان أمرًا جللاً ومشهدًا مؤلمًا لعاتكة رضى الله عنها، وكانت أول من رفع خده من التراب، ولعنت قاتله والراضى به يوم قُتل وقالت ترثيه:

وحسينًا فلا نسيتُ حسينًا أقصدتْه أسنة الأعداءِ

غادروه بكربلاء صريعًا جادَت المزنُ فى ذرى كربلاءِ

ثم تأيمت بعده، وقد تقدم لخطبتها رضى الله عنها كثيرون، لكنها بعد مقتل زوجها الحسين الشهيد أعرضت عن الزواج، وتفرغت للعبادة والطاعة إلى أن أسلمت روحها إلى الله عز وجل، راضية مرضية، كان ذلك فى أول خلافة يزيد ابن معاوية بن أبى سفيان، سنة إحدى وستين[(١)].

وداعًا زوجة الشهداء:

وهكذا كانت حياة عاتكة رضى الله عنها سلسلة متصلة من الشدائد والمحن، فما تكاد تخرج من ابتلاء إلا وتدخل فى آخر، وفى كل هذا تصبر وتحتسب، ولك أن تتصور امرأة تتعرض لهذا الابتلاء، وتبقى ثابتة صابرة متألقة اليقين بأن ما أصابها لم يكن ليخطئها، وما أخطأها لم يكن ليصيبها، وذلك شأن المسلم الصادق مع ربه عز وجل لا يفقد صفاء دينه إن فقد صفاء دنياه، ولا يضعف أمام مصيبة حلت به.

إن عظم المنزلة مع عظم البلاء، ولقد عظمت منزلة عاتكة رضى الله عنها وكبر فضلها لِما نزل بها من البلاء والمحن، وزاد فضلها وعلا شأنها بصبرها وثباتها وإيمانها.

---

(١) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزى ٥/ ١٩١.

رضى الله عن عاتكة فقد تمتعت بمآثر عديدة، جمعت رضى الله عنها بين جمال الظاهر والباطن، ووهبها الله عز وجل عقلاً راجحًا ولسانًا فصيحًا، فقد كانت تتمتع بعذوبة الشعر وفصاحة البيان، واقترنت رضى الله عنها بخيرة الصحابة، كلهم رُزقوا الشهادة، فكانت رضى الله عنها زوجة الشهداء.

سلام على عاتكة رضى الله عنها فى الأبرار الخالدين، وجعلها فى الأولين فى جنات النعيم.

***

أم سليط النجارية
رضى الله عنها
(٢٦)

نَسَبُها

أم سُلَيط(١):

منذ إشراقة الإسلام الأولى فى المدينة النبوية، كانت هنالك نسوة سابقات إلى إعلان إسلامهن، والتصديق بما جاء به النبى ﷺ، من هؤلاء المؤمنات، امرأة عظيمة الشأن، من أسرة كريمة آمنت بالله -عز وجل- مع الأولين السابقين.. إنها أم قيس بنت عبيد ابن زياد بن ثعلبة بن خنساء بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن بن النجار.

وأمها: أم عبد الله بنت شبل الحارث بن عوف.

وأما زوجها: فهو أبو سليط بن أبى حارثة، وهو عمرو بن قيس بن مالك بن عدى بن النجار.. ولدت له سليطًا وفاطمة ..

قال الحافظ ابن حجر: وأم سليط هى والدة أبى سعيد الخدرى، كانت زوجًا لأبى سليط فمات عنها قبل الهجرة، فتزوجها مالك بن سنان الخدرى، فولدت له أبا سعيد(٢).

إسلامها:

أسلمت أم سليط رضى الله عنها وبايعت رسول الله ﷺ، وشهدت خيبر وحنينًا، وقال ابن الأثير: حضرت مع النبى ﷺ يوم أحد، قال عمر بن الخطاب: كانت تزفر لنا القرب يوم أحد(٣).

قلت: وحضرت أيضًا رضى الله عنها بنى قريظة، قال الواقدى: وأحذى(٤) رسول الله ﷺ نساءً شهدن بنى قريظة ولم يسهم لهن: صفية بنت عبد المطلب، وأم عمارة، وأم سليط، وأم العلاء، والسميراء بنت قيس، وأم سعد بن معاذ(٥).

---

(١) ابن سعد ٨/ ٣٠٦، وأسد الغابة ٥/ ٥٩٠، وصفة الصفوة ٢/ ٤٦ (١٤٦)، والإصابة ٨/ ٢٤٢، والاستيعاب (ط الأزهرية) ١٣/ ٢٣٣ (٣٥٦١)، وفتح البارى ٦/ ٧٩، والمنتظم ٣/ ١٨٩ (١٨٣)، وكنز العمال ١٣/ ٦٢٢، ٦٢٣ (٣٧٥٨٤)، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٣٢٢ (٣٩١٤)، والمغازى ٢/ ٥٢٢، ٦٨٥، وحلية الأولياء ٢/ ٦٣ (١٤٢)، والأساس فى السنة (السيرة النبوية) ٤/ ٢١٨٨ (٩٢)، وحياة الصحابة ١/ ٥٩٤.

(٢) فتح البارى ٧/ ٣٦٧.

(٣) أسد الغابة ٥/ ٥٩٠.

(٤) أحذى الغنيمة: أى أعطى منها.

(٥) المغازى للواقدى ٢/ ٥٢٢.

المجاهدة

لقد كانت أم سليط واحدة من اللاتى شاركن مشاركة فعالة فى غزوات الرسول ﷺ، ودافعت عن الإسلام والمسلمين دفاعًا مستميتًا، وحمت النبى ﷺ فى أصعب لحظات مرت به وبالمسلمين، وجادت بنفسها ومالها، وضربت المثل فى التضحية والفداء.

روى البخارى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قسم مروطًا بين نساء من نساء أهل المدينة فبقى منها مُرط جيد، فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين أعط هذا بنت رسول الله ﷺ التى عندك، يريدون أم كلثوم بنت على، فقال عمر: أم سليط أحق به، وأم سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله ﷺ، قال عمر: فإنها كانت تزفِرُ لنا القِرَب يوم أحد، قال أبو عبد الله: تزفِرُ: تخيط[1]، وفى الإصابة: كانت ممن يغرفن لنا القِرب[2].

وفى خيبر كان لأم سليط حضور مشهود، قال الواقدى: وخرج مع رسول الله ﷺ من المدينة عشرون امرأة: أم سلمة زوجته، وصفية بنت عبد المطلب، وأم أيمن، وسَلْمَى امرأة أبى رافع مولاة النبى ﷺ، وامرأة عاصم بن عدى ولدت سهلة بنت عاصم بخيبر، وأم عمارة نسيبة بنت كعب، وأم منيع، وكعيبة بنت سعد الأسلمية، وأم مُتاع الأسلمية، وأم سليم بنت ملحان، وأم الضحاك بنت مسعود الحارثية، وهند بنت عمرو بن حرام، وأم العلاء الأنصارية، وأم عامر الأشهلية، وأم عطية الأنصارية، وأم سليط [3].

وكذلك كانت رضى الله عنها لها مشاركتها المحمودة فى حنين، قالت أم عمارة رضى الله عنها: لما كان يومئذ والناس منهزمون فى كل وجه، وأنا وأربع نسوة،

(١) قال ابن حجر: ونُعَقب بأن ذلك لا يُعرف فى اللغة، وإنما الزفر: الحمل، وهو بوزنه ومعناه، قال الخليل: زفر بالحمل زفرًا: نهض به، والزفر أيضًا القربة نفسها، وقيل إذا كانت مملوءة ماءً، ويقال للإماء إذا حملن القرب زوافر، والزفر أيضًا: البحر الفياض.. فتح البارى ٦/ ٧٩، والحديث رواه البخارى فى الجهاد والسير، باب حمل النساء القِرَب إلى الناس فى الغزو ٦/ ٧٩ (٢٨٨١)، وفى المغازى، باب ذكر أمّ سليط ٧/ ٣٣٦، ٣٦٧ (٤٠٧١).

(٢) الإصابة ٨/ ٢٤٢.

(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٦٨٥، ٣/ ٩٠٢.

فى يدى سيفٌ لى صارمٌ، وأم سليم معها خنجر قد حزمته على وسطها، وهى يومئذ حامل بعبد الله بن أبى طلحة، وأم سليط وأم الحارث[1].

على الخطى نسير:

لقد كانت أم سليط رضى الله عنها واحدة من نساء الصحابة اللاتى لم تسلط عليهن الأضواء أو يُكثر التاريخ فى الحديث عنهن، ولكنها رضى الله عنها كانت من أبرز النساء المجاهدات يوم أحد، حيث أبلت البلاء الحسن وجاهدت أروع الجهاد، وقامت بإعداد القرب وتجهيزها، وملْئِها بالماء ونقلها وسقى المجاهدين، ومعالجة الجرحى والقيام على شؤونهم... فأى عمل جليل هذا الذى كانت تقوم به أم سليط فى سقى المجاهدين وإروائهم، وهم فى ميدان المعركة، فى الجو الحار الملتهب، إذ كانت رضى الله عنها تقوم بهذا العمل الجليل مع المجاهدات غير آبهة لما يقع عليها من سهام المشركين أو سيوفهم.

إن فريقًا من النساء يحملن فى أنفسهن طاقات جهادية راقية وقدرات متميزة، مثل ما كان لأم عمارة، وأم سليط، وصفية، وأم سليم، وأم عطية، والرُّبيِّع، وعائشة.. وغيرهن رضى الله عنهن، فلقد شُهد لهن بقدرتهن القتالية والدفاعية فى أصعب الأوقات وأشد الأزمات، وعلى قادة الأمة ومسؤوليها ودعاتها استكشاف طاقات النساء وإبرازها، واستغلال جهودهن واستثمارها، فى مواجهة الأمة مع أعدائها ومناوئيها، ولا يحق بأى حال أن تدفن طاقاتهن وقدراتهن.

إن ما قامت به أم سليط رضى الله عنها مع أخواتها المؤمنات؛ لخير دليل على إسهامات المرأة المشرقة فى خير القرون فى سبيل دعوة الإسلام، وهو دليل على أمس حاجتنا اليوم إلى أن تتبوأ المسلمة اليوم مكانها من جديد، وتبنى كما بنت المسلمة الأولى، على حد قول الشاعر:

لسنا وإنْ أحسابنا كرمت ... يومًا على الآباء نتكلُ
نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ... ونفعل مثلما فعلوا

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٦٨٥، ٣/ ٩٠٢.

جهاد الدعوة:

والمرأة المسلمة اليوم تستطيع أن تقوم بواجبها الجهادى فى دعوتها إلى الله -عز وجل- (بأن تكون قدوة حسنة لغيرها، وأن تساهم فى تربية الأجيال، وأن تشارك فى إعداد الرجال، وأن تنافح عن مبادئ الإسلام وقيمه، وخاصة بعد أن أصبحت وسائل التعبير والاتصال متعددة وميسورة. . . وأن تعالج قضايا المرأة المعاصرة من وجهة النظر الشرعية، وهى أقدر على مقارعة ومحاورة المشركة أو الفاسقة من غيرها، إذ النساء أعرف بشؤونهن، وأخبر بأمورهن. .

فهل آن للمسلمة اليوم أن تواصل المسيرة الجهادية دفاعًا عن الإسلام وردًا للأعداء، وإعلاء لكلمة الله وحزبه، وإسقاطًا لراية الكفر وجنده. .)[1].

تقدير وتكريم:

ولقد نالت أم سليط رضى الله عنها من أمير المؤمنين عمر كل الرعاية والتقدير، فحفظ لها سابقتها، وأكبر فيها جهادها وبذلها وما قدمته فداء لهذا الدين، فقدمها وفضلها فى العطاء على زوجته التى هى أم كلثوم بنت على وبنت فاطمة الزهراء، وبَرَّرَ لذلك بقوله: أم سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله ﷺ وأنها كانت تزفر القرب يوم أحد.

إن عمر رضى الله عنه يريد أن يعلّم الأجيال اللاحقة قدر سابقيهم، ويعرفهم فضلهم وقدرهم. . (وما كانت رعاية عمر للعاملين وقفًا عليهم أحياء وأمواتًا، بل امتدت عطفًا وبرًا شمل من خلّف العاملون وراءهم، وإذا أحس الخلف بأنهم مكرمون لما قدم سلفهم، حرصوا بدورهم على أن يقتفوا أثر هذا السلف، ليظفر خلفهم بما لقوا هم من رعاية الدولة لهم تكريمًا لسلفهم، وهكذا يتوارث العمل الطيب جيل بعد جيل فتظل عجلة الإنتاج دائرة لا يعطلها توجس، ولا يوقف حركتها موت، لأن الدولة لا تجحد عمل العاملين ولا تنساه. .

---

(١) جهاد المرأة فى ضوء أحكام الشريعة الإسلامية، د. أحمد مصطفى على القضاة، بتصرف، بحث منشور فى مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، تصدر عن مجلس النشر العلمى، جامعة الكويت، العدد (٦٠) المحرم ١٤٢٦هـ - مارس ٢٠٠٥م.

إن التفاضل فى التقدير عند ولى الأمر يـجب أن يكون على قدر ما يقدمه الفرد من نفع لأمته، فهذا هو ميـدان التنافس النظيف الذى يدفع الناس قدمًا فى مدارج التقدير والإكبار وتتحقق به مصالح الأمة)[١].

لقد كانت أم سليط رضى الله عنها مجاهدة من الطراز الأول، شاركت مشاركة صادقة فى الغزوات والمعارك، تروى العطاش، وتأسو الجراح، وتجبر الكسر، وتثير الشجاعة والحـمية، وربما غشيت غمار المعركـة واصطلت بنارها، وصالت وجالت بين السيوف والقنا، وثبتت رضى الله عنهـا ثبات الأبطال حين فر بعض الأبطال، وكان لها مواقف صادقـة عبرت بها عن صدق الإيمان وقوة اليقـين، وجعلت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يذكرها لها ويقدر لها جهادها وثباتها وتضحياتها..

وذكرها أبو نعيم فى الحلية بقوله: ومنهن أم سليط الأنصارية، الكادحة الغازية، شهدت مع النبى ﷺ أحدًا، وكدحت فلم تخف دون الله أحدًا[٢].

***

(١) شهيد المحراب، فضيلة الأستاذ التلمسانى، ص ١٥١.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ٦٣.

الشفاء بنت عبد الله
رضى الله عنها
(٢٧)

نَسَبُها

الشفاء بنت عبد الله[1]:

صحابيتنا هذه من النسوة اللاتى حُزْنَ فضلا وعلمًا، وكانت ممن سبقن إلى الإسلام والبيعة والهجرة، وكانت إلى ذلك عالمة عاملة نافعة لغيرها، ومن فضليات النساء وعقلائهن. .

إنها: الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس بن خالد بن صدَّاد - ويقال: ضرار - ابن عبد الله بن قُرط بن رَزاح بن عدى بن كعب القرشية العدوية.

قال أحمد بن صالح المصرى: اسمها ليلى، وغلب عليها الشفاء.

وأمها: فاطمة بنت أبى وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم.

وزوجها: أبو حيثمة بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عبيد.

وابنها: سليمان بن أبى حيثمة، ولدته فى مكة قبل الهجرة، تعهدته رضى الله عنها بالتهذيب والتربية والتعليم، فعلمته القراءة والكتابة والشعر وكلام العرب، وحفظ القرآن حتى صار من القراء الكبار، وكان هو الذى يصلى بالناس زمن التحكيم.

إسلام الشفاء:

قال ابن سعد: أسلمت الشفاء قبل الهجرة قديمًا، وبايعت النبى ﷺ[2]، وعاشت الشفاء رضى الله عنها محنة المسلمين فى مكة بكل ما حفلت به من

(١) ابن سعد ٨/ ١٩٦، والإصابة ٨/ ١٢٠، ١٢١ (٦١٩) وتهذيب التهذيب ١٢/ ٤٥٧ (٢٨٢٤)، والاستيعاب ط الأزهرية ١٣/ ٥٦ - ٥٩ (٣٣٩٨)، والإكمال ٥/ ٧٦، ٧٧، والطبقات لمسلم ١/ ٢١٣ (٥٣٤)، وجمهرة أنساب العرب، ص ١٥٠، ١٥٦، وطبقات خليفة، ص ٣٣٤، وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال ٣/ ٣٨٤ (٩٠)، والمستدرك ٤/ ٥٦، ٥٧، ومقدمة مسند بقى بن مخلد، ص ٩٥ (١٧٣)، والعقد الثمين ٨/ ٢٥٢ - ٢٥٤ (٣٣٨٩)، والكاشف ٣/ ٤٢٨ (٨٢)، وأسد الغابة ٥/ ٤٨٦، ٤٨٧، وتبصير المنتبه ٢/ ٧٣٦، وتهذيب الكمال (المصورة) ص ١٦٨٦، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٢٨١ (٣٣٧٨)، والطبرانى فى الكبير ٢٤/ ٣١٢ - ٣١٧، والثقات ٣/ ١٦١، ١٦٢.

(٢) ابن سعد ٨/ ١٩٦.

تضحية وفداء وصبر وثبات، ومع ما رأته من تعذيب واضطهاد للمسلمين ما زادها ذلك إلا استمساكًا بدين الله عز وجل وثباتًا عليه، ومع إسلام الشفاء رضى الله عنها مبكرًا إلا أن زوجها لم يكن معها من المسلمين الأولين، غير أن اللافت للنظر أنه لم يقف لها حين أسلمت، كذلك لم يثنها عند هجرتها، وبقى فى مكة ليعلن إسلامه يوم الفتح، فسعدت زوجته بإسلامه آنذاك.

هجرة الشفاء:

ولما أذن الله عز وجل للرسول ﷺ وأصحابه بالهجرة إلى المدينة، كانت رضى الله عنها فى طليعة المهاجرين، مصطحبة معها ابنها سليمان، قال صاحب العقد الثمين: وهى من المهاجرات الأُول وبايعت النبى ﷺ وكانت من عقلاء النساء وفضلائهن، وتقديرًا من النبى ﷺ لإخلاصها ووفائها خصص لها دارًا تنزل فيها هى وابنها سليمان، قال أصحاب التراجم: وأقطعها رسول الله ﷺ دارها عند الحكّاكين، فنزلتها مع ابنها سليمان[1].

الشفاء المعلمة:

كانت الشفاء رضى الله عنها قارئة كاتبة لها قدرها ومكانتها فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، وكانت رضى الله عنها تقوم على تعليم النساء القراءة والكتابة، فقد ثبت من عدة طرق أنها رضى الله عنها علمت حفصة بنت عمر رضى الله عنها أم المؤمنين الكتابة.

قال لها رسول الله ﷺ: «علمى حفصة رُقية النملة[2] كما علمتيها الكتابة»[3].

لقد أمر الإسلام بتعليم المسلمة العلم النافع والثقافة المفيدة، وقد ثبت أن المرأة المسلمة فى ظل الإسلام قامت بدورها فى اقتباس العلم النافع، ووصلت إلى أرفع

---

(١) العقد الثمين ٨/ ٢٥٢، والإصابة ٨/ ١٢٠.

(٢) النملة: قروح تخرج من الجنب، ورقية النملة شيء كانت تستعمله النساء يعلم كل من سمعه أنه كلام لا يضر ولا ينفع، ورقية النملة التى كانت تعرف بينهن أن يقال: العروس تحتفل وتختضب وتكتحل، وكل شيء تفتعل غير ألا تعصى الرجل، وقيل: إن هذا من لغز الكلام ومزاحه.. النهاية لابن الأثير ٥/ ١٢٠.

(٣) أحمد ٦/ ٣٧٢، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٥/ ١١٥: ورجاله رجال الصحيح، ورواه أبو داود فى الطب، باب ما جاء فى الرقى ٤/ ١١ (٣٨٨٧).

الدرجات فى العلم، ونالت أكبر قدر من التربية والتعليم فى العصور الأولى، وبلغت كثيرات منهن منزلة علمية رفيعة، فكان منهن الراويات والفقيهات والكاتبات والأستاذات. .

(وقد بلغ من عناية محمد رسول الله ﷺ بتعليم النساء وتربيتهن، أن ذكر فيمن يؤتيهم الله تعالى أجرهم مرتين يوم القيامة - أى مضاعفًا - قوله: «أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها، وأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران»[1]، فقرن ثواب التعليم والتأديب بثواب العتق الذى كان يرغب فيه كثيرًا فوق ما شرعه الله تعالى فيه من أسباب تحريره وعتقه)[2].

(لقد كانت النساء المسلمات يعلمن الناس، ولم يكن دورهن فى الحياة الإسلامية أن يتعلمن فقط. . بل وأكثر من هذا أن بعض المسلمات كن يقمن بنشر الدعوة الإسلامية فى جد وحماسة أثارا خصوم الإسلام فأخرجوها من مكة؛ لأنها آثرت المضى فى الدعوة إلى الإسلام مهما لاقت على الإخلاد إلى الراحة والبقاء فى مكة بلدها، كانت أم شريك الدوسية تدخل على نساء قريش فتدعوهن سرًا وترغبهن فى الإسلام حتى ظهر أمرها بمكة، فأخذوها وسيروها إلى أهلها)[3].

دقة وتَحَرٍّ:

ولقد كانت الشفاء رضى الله عنها تتحرى الدقة واليقين فى أمورها، ولا تُقدم على عمل من غير تثبت أو تبين أو استيضاح، فقد روى أنها رضى الله عنها كانت ترقى برقى فى الجاهلية، وأنها لما هاجرت إلى النبى ﷺ، وكانت قد بايعته بمكة قبل أن يخرج، فقدمت عليه، فقالت: يا رسول الله إنى كنت أرقى برقى فى الجاهلية، وقد أردت أن أعرضها عليك، قال ﷺ: «اعرضيها علىّ» قالت: فعرضتها عليه، وكانت ترقى من النملة، فقال: «ارقى بها وعلميها حفصة»[4].

(١) البخارى فى العلم، باب تعليم الرجل أَمَتَهُ وأهله ١/ ٢٢٩ (٩٧).

(٢) نداء للجنس اللطيف، محمد رشيد رضا، ص٢٢.

(٣) شهيد المحراب عمر بن الخطاب، الأستاذ عمر التلمسانى، ص٢٠٢.

(٤) الإصابة ٨/ ١٢٠، والعقد الثمين ٨/ ٢٥٢، والاستيعاب (ط الأزهرية) ١٣/ ٥٨، وأسد الغابة ٥/ ٤٨٧.

وروى ابنها عنها قال: حدثتنى أمى أنها كانت ترقى برقية لها فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام قالت: لا أرقى بها حتى أستأذن رسول الله ﷺ، فأتيته فاستأمرته، فقال: «ارقى ما لم يكن فيها شرك»(١).

وهكذا ينبغى أن تكون المسلمة دقيقة فى أمورها، متحرية فى أحكامها، وإن الصدق والوفاء ليتجليان فى موقف الشفاء، فلم تنس رضى الله عنها بيعتها مع النبى ﷺ، إذ لم تفعل شيئًا يخالف منهج الإسلام وشرعه قبل أن ترجع إلى النبى ﷺ وتعرضه عليه وتستفتيه..

فهم عميق:

ومما يُحكى عنها رضى الله عنها، أنها رأت فتيانًا يقصدون فى المشى ويتكلمون رُوَيْدًا، فقالت: ما هؤلاء؟ قيل: نُسّاك، فقالت: كان عمر رضى الله عنه إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، هو والله الناسك حقًا(٢).

هذه هى نظرة المسلمة العميقة التى تفهم دينها فهمًا صحيحًا وتدعو إليه على بصيرة، إنها تريد أن تصحح نظرة الناس إلى مفهوم التنسك والزهادة، فالمسلم الحق صاحب إيمان عميق ويقين راسخ، يُقبل على عمله بجد وهمة وحركة، سريع الخطوة، بادى النشاط، وهو مع هذا يخشع ويخضع لله، وينقاد إليه..

من مكارم شخصيتها:

للشفاء رضى الله عنها مكانة عالية عند النبى ﷺ، فقد كان النبى ﷺ يكرمها ويأتيها، ويقيل عندها فى بيتها، وكانت هى رضى الله عنها تتحفه بطعامها وتتخذ له فِراشًا وإزارًا ينام فيه، فلم يزل ذلك عند ولدها حتى أخذه منهم مروان بن الحكَم(٣).

وكما حظيت الشفاء رضى الله عنها بالتقدير والتكريم من النبى ﷺ، عرف الصحابة لها قدرها وكرامتها، فكانت تحظى بالمكانة الكبيرة لدى أمير المؤمنين عمر

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه (١٤١٤)، والحاكم ٤/ ٥٧، وانظر: السلسلة الصحيحة للألبانى (١٧٨).
(٢) العقد الثمين ٨/ ٢٥٢، ٢٥٣، ومناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لابن الجوزى، ص٢٥٠.
(٣) الاستيعاب (ط الأزهرية) ١٣/ ٥٧، والإصابة ٨/ ١٢٠.

ابن الخطاب، فقد كـان رضى الله عنه يقدمها فى الرأى ويرضـاها ويفضلها، وربما ولاها شيئًا من أمر السوق[١].

لئن كـان علينا حق لفضليات الصحابيات من الرعيل الأول أن نعـرف لهن فضلهن وجهـادهن، فإن الشفاء رضى الله عنها فى هذه المكانة الأسنى، وحسبها رضى الله عنها فـخرًا وشـرفًا ورفعـة تكريم رسول الله ﷺ لها، وزيـارته لها بين الحين والحين، ومقيله عندها، وإن هذا لهو الشرف التالد شرف الصحبة والمعايشة، ومعلوم ما لهن رضى الله عنهن من الفضل الكبير..

ولعل من أبرز ما يلفت أنظار المتـأملين فى سيرة صـحابيتنا الجليلة تقـديم عمر رضى الله عنه للشفاء فى الرأى واستـشارتها وتوليتها الحسـبة على السوق؛ لترعى معايير العدل فى التجارات والأسـعار ومكاييل وموازين البيع والشراء؛ لأنها كانت قارئة كاتبة، وذات عـقل وحكمة وفضل وجودة فى الرأى والتفكير، فـجعل عمر بذلك للمرأة مكانًا فى ولايات الدولة الإسلامية، قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان.

(لقد كـانت المرأة المسلمة لها قـدرها ومكانتها فى عـصر الخلافـة الراشدة، إذ شاركت مشاركة فعالة وبناءة وإيجـابية فى العديد من مناحى الحياة الفكرية والأدبية والتجـارية، ولقد كان عـمر رضى الله عنه يعرف للمـرأة فضلها، وأنهـا مخلوق يحس ويشعر، وينظر ويفكر، وأنه كما كان يستشير الرجال فقد كان كذلك يستشير النساء، فقد كان يقدم الشفاء رضى الله عنها فى الرأى، فماذا بقى بعد ذلك للمرأة حتى تبحث عنه فى غير الإسلام إذا كان أميـر المؤمنين يستشيرها فى أعمال الدولة ويرضى رأيها؟ ما كان يعتبرها قضاء لبـانة، ولامأرب شهوة، كانت معاملته للمرأة تطبيقًا عمليًا لتعاليم الإسلام، يحمى ضـعفها ويحترم رأيها، لها مثل الذى عليها، يوجهها إلى ما فيه صلاحها فى غير ما انتقاص ولا هوان ولا ابتذال)[٢].

الراوية:

حفظت الشفاء رضى الله عنها عن النبى ﷺ وروت عنه، وعدت فيمن روى اثنى عشر حديثًا[٣]، روى عنها حفيداها أبو بكر وعثمان ابنا سليمان بن أبى حيثمة.

(١) تهذيب التهذيب ١٢/٤٥٧، والإصابة ٨/ ١٢٠، والعقد الثمين ٨/ ٢٥٣.
(٢) شهيد المحراب عمر بن الخطاب، الأستاذ عمر التلمسانى، ص١٨٧، ٢٠٥، بتصرف.
(٣) مقدمة مسند بقى بن مخلد، ص ٩٥ (١٧٣).

ومن مروياتها: روى أحمد فى مسنده عنها وكانت امرأة من المهاجرات، قالت: إن رسول الله ﷺ سئل عن أفضل الأعمال، فقال: «إيمان بالله، وجهاد فى سبيل الله عز وجل، وحج مبرور».

وقالت: دخل علينا النبى ﷺ وأنا عند حفصة، فقال لى: «ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة»(١).

ومن مروياتها، أن النبى ﷺ استسقى يوم الجمعة فى المسجد ورفع يديه، وقال: «استغفروا ربكم إنه كان غفارًا» وحول رداءه(٢)، وروى عنها ابنها قال: حدثتنى أمى أنها كانت ترقى برقية لها فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام، قالت: لا أرقى بها حتى استأذن رسول الله ﷺ، فأتيته فاستأمرته، فقال: «ارقى ما لم يكن فيها شرك»(٣).

فضل ومكانة:

لقد بلغت الشفاء رضى الله عنها شأوًا بعيدًا من المنزلة والتقدير من النبى ﷺ، وهو الوفى بأصحابه العارف بحقوقهم، وأما فى عهد الخلافة الراشدة، فقد كان الصديق رضى الله عنه يتعهدها بحسن الصحبة ويعرف لها حقها ويسأل عنها، أما أمير المؤمنين عمر فقد سبق أنه كان يقدمها فى الرأى ويرضاها ويفضلها ويستشيرها ويوليها بعض الأعمال... لقد فعل ذلك عمر رضى الله عنه وهو العارف بأقدار الناس، الجدير بالتقدير والتكريم، ولعل ما فعله عمر رضى الله عنه من تقدير للشفاء رضى الله عنها فيه دلالة واضحة على بر الخلفاء الراشدين برعيتهم، وبخاصة أصحاب الفضل والسبق اقتداء برسول الله ﷺ.

هذا ولقد أجمع أصحاب التراجم والسير على أن الشفاء رضى الله عنها كانت من عقلاء النساء وفضلائهن.. ومن المهاجرات المبايعات.. اللاتى أسهمن بحظ وافر فى خدمة دعوة الله عز وجل..

رضى الله عنها وأرضاها، وجعل سيرتها العطرة نبراسًا يضىء لنا طريق الإيمان.

(١) أحمد ٦/ ٣٧٢.

(٢) الطبرانى فى المعجم الكبير ٢٤/ ٣١٢ (٧٨٧).

(٣) ابن حبان فى صحيحه (١٤١٤)، والحاكم فى المستدرك ٤/ ٥٧.

فاطمة بنت قيس الفهرية
رضى الله عنها
(٢٨)

نَسَبُها

فاطمة بنت قيس[١]:

نحن الآن مع صحابية جليلة القدر عظيمة الشأن، كان لها حضور مشهود على ساحة الأحداث، من ذوات الرأى والحزم، صاحبة عقل وافر وجمال باهر..

إنها: فاطمة بنت قيس بن خالد الأكبر بن وَهْب بن ثعلبة بن واثلة بن عمرو بن شيبان بن محارب بن فهر القرشية الفهرية.

وأمها: أميمة بنت ربيعة بن حِذْيم بن عامر بن مبذول بن الأحمر بن الحارث بن عبد مناة بن كنانة.

وأخوها: الضحاك بن قيس رضى الله عنه الذى ولى العراق ليزيد بن معاوية، وقتل بمرج راهط وهو من صغار الصحابة، وهى رضى الله عنها أسن منه، وأختها: حَزْمةُ بنت قيس.

وزوجها: أبو عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومى، وهو ابن عم خالد بن الوليد بن المغيرة، خرج مع على لما بعثه النبى ﷺ إلى اليمن فبعث إليها بتطليقة ثالثة بقيت لها، وأمر ابنى عميه الحارث بن هشام وعياش بن أبى ربيعة أن يدفعا لها تمرًا وشعيرًا، فاستقلت ذلك وشكت إلى النبى ﷺ فقال لها: «ليس لك سكنى ولا نفقة»[٢].

---

(١) تهذيب الكمال (المصورة) ص ١٦٩٣، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٢٩٥ (٣٥٥٠)، وتاريخ الثقات، ص ٢٣ (٢١٠٨)، وأحمد ٦/ ٣٧٣، ٣٧٤، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٣١٩ (٦٠)، وجمهرة أنساب العرب، ص ١٧٨، والمعجم الكبير للطبرانى ٢٤/ ٣٦٥ - ٤٠٥، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٤٧١ (٢٨٦٥)، والإصابة ٨/ ١٦٤ (٨٤٧)، والكاشف ٣/ ٤٣٢ (١١٢)، وتحفة الأشراف ١٢/ ٤٦١ - ٤٧١ (٩٠٦)، والرياض المستطابة، ص ٣٢٠، وطبقات خليفة، ص ٣٣٥، وأسد الغابة ٥/ ٥٢٦، ٥٢٧، وفتح البارى ٩/ ٤٧٧، ٤٧٨، والعقد الثمين ٨/ ٣٠٤ (٣٤٥٥)، والمستدرك ٤/ ٥٥، والمعين فى طبقات المحدثين، ص ٣٠ (١٧٣)، ومقدمة مسند بقى بن مخلد، ص ٨٨ (٨٩)، طبقات مسلم ١/ ٢١٣ (٥٣٩)، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٥٣ (٧٥٦)، وتهذيب الكمال ٣/ ١٦٩٣، وابن سعد ٨/ ٢٧٣، والمعرفة والتاريخ ٢/ ٦٩٨، ٣/ ٢٣٦، وتقريب التهذيب ٢/ ٦٠٩ (٨)، وتاريخ الإسلام (عهد معاوية)، ص ٢٨٤، ٢٨٥، والثقات ٣/ ٣٣٦، ومعرفة الثقات ٢/ ٤٥٨ (٢٣٤٨).

(٢) فتح البارى ٩/ ٤٧٧.

ثم تزوجت رضى الله عنها أسامة بن زيد بمشورة النبى ﷺ واغتبطت به وشرفها الله به... [(١)].

زواجها الأول:

تزوجت فاطمة رضى الله عنها فى بداية حياتها بأبى عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومى، وانتهت حياتها بالطلاق، تتحدث فاطمة رضى الله عنها عن زواجها منه قائلة: نَكَحْتُ ابن المغيرة وهو من خيار شباب قريش يومئذ، فأصيب فى أول الجهاد مع رسول الله ﷺ.. [(٢)] كان ذلك حين خرج مع على رضى الله عنه لما بعثه النبى ﷺ إلى اليمن، فبعث إليها بتطليقة ثالثة بقيت لها، وأرسل إليها وكيله بشعير فسخطته، فقال: والله مالك علينا من شىء، فجاءت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له: فقال: «ليس لك عليه نفقة»، وفى رواية: «لا نفقة لك ولا سكنى»[(٣)].

قال ابن حجر رحمه الله: اتفقت الروايات عن فاطمة على كثرتها عنها أنها بانت بالطلاق[(٤)].

---

(١) الرياض المستطابة، ص ٣٢٠.

(٢) مسلم فى الفتن وأشراط الساعة، باب قصة الجساسة ١٨/ ٧٩ (٢٩٤٢)، قال النووى ومعنى قولها: أصيب، أى بجراحة أو أصيب فى ماله أو نحو ذلك، وتعقب ذلك ابن حجر رحمه الله بقوله: والذى يظهر أن المراد بقولها (أصيب) أى مات على ظاهره، وكان فى بعث علىّ إلى اليمن، فيصدق أنه أصيب فى الجهاد مع رسول الله ﷺ أى فى طاعة رسول الله ﷺ، ولا يلزم من ذلك أن تكون بينونتها منه بالموت بل بالطلاق السابق على الموت، فقد ذهب جمع جم إلى أنه مات مع على باليمن، وذلك بعد أن أرسل إليها بطلاقها، فإذا جمع بين الروايتين استقام هذا التأويل وارتفع الوهم.. فتح البارى ٩/ ٣٨٨، ومسلم بشرح النووى ١٨/ ٧٩.

(٣) مسلم فى الطلاق، باب المطلقة البائن لا نفقة لها ١٠/ ٩٤ (١٤٨٠).

(٤) فتح البارى ٩/ ٣٨٧، وقال ابن حجر: وقد اختلف السلف فى نفقة المطلقة البائن وسكناها، فقال الجمهور: لا نفقة لها ولها السكنى، واحتجوا لإثبات السكنى بقوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ ولإسقاط النفقة بمفهوم قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فإن مفهومه أن غير الحامل لا نفقة لها وإلا لم يكن لتخصيصها بالذكر معنى، والسياق يفهم أنها فى غير الرجعية؛ لأن نفقة الرجعية واجبة لو لم تكن حاملاً.

وذهب أحمد وإسحاق وأبو ثور إلى أنه لا نفقة لها ولا سكنى على ظاهر حديث فاطمة بنت قيس، ونازعوا فى تناول الآية الأولى المطلقة البائن، وقد احتجت فاطمة بنت قيس صاحبة القصة على مروان حين بلغها إنكاره بقوله: بينى وبينكم كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ﴾ -إلى قوله-=

الفقيهة الفاضلة[1]:

أرسل مروان قبيصة بن ذؤيب إلى فاطمة رضى الله عنها يسألها عن الحديث، فحدثته به، فقال مروان لم نسمع هذا الحديث إلا من امرأة، سنأخذ بالعصمة التى وجدنا الناس عليها، فقالت فاطمة حين بلغها قول مروان: فبينى وبينكم القرآن، قال الله عز وجل: ﴿لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١] قالت: هذا لمن كانت له مراجعة، فأى أمر يحدث بعد الثلاث، فكيف تقولون: لا نفقة لها إذا لم تكن حاملاً فعلام تحبسونها[2].

لقد ذهبت فاطمة رضى الله عنها إلى أن الأمر الذى يُرجى إحداثه فى الآية هو المراجعة.. وأن حكمة أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، اقتضته لعل الزوج أن يَنْدَم، ويزول الشر الذى نزغه الشيطان بينهما، فتتبعها نفسه فيراجعها.. إن النفقة تكون للزوجة إذا كان لزوجها عليها رجعة، فإذا بانت منه صارت أجنبية حكمها حكم سائر الأجنبيات، ولم يبق إلا مجرد اعتدادها منه، وذلك لا يوجب لها نفقة، كالموطوءة بشبهة أو زنى، ولأن النفقة إنما تجب فى مقابلة التمكن من الاستمتاع، وهذا لا يمكن استمتاعه بها بعد بينونتها، ولأن النفقة لو وجبت لها عليه لأجل عدتها لوجبت للمتوفى عنها من ماله ولا فرق بينهما ألبتة، فإن كل واحد منهما قد بانت عنه وهى معتدة منه قد تعذر منهما الاستمتاع، ولأنها لو وجبت لها السكنى لوجبت لها النفقة كما يقوله من يوجبها، فأما أن تجب لها السكنى دون النفقة فالنص والقياس يدفعه، وهذا قول عبد الله بن عباس وأصحابه،

= ﴿يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾. قالت: هذا لمن كانت له مراجعة، فأى أمر يحدث بعد الثلاث؟ وإذا لم يكن لها نفقة وليست حاملاً فعلام يحبسونها؟ وقد وافق فاطمة على أن المراد بقوله تعالى: ﴿يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ المراجعة قتادة والحسن والسدى والضحاك، أخرجه الطبرى عنهم.. انظر تحرير المسألة بتفاصيلها فى: فتح البارى ٩/ ٣٩٠، ٣٩١، ومسلم بشرح النووى ١٠/ ٩٤ - ٩٦، وزاد المعاد ٥/ ٥٢٢ - ٥٤٢، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٨/ ١٠٣، والتمهيد لابن عبد البر ١٩/ ١٨٥ - ٢٦٨.

(١) هكذا أسماها الإمام ابن القيم فى زاد المعاد فى معرض رده على الطعون التى وجهت إلى حديثها، انظره ٥/ ٥٣٧.

(٢) مسلم فى الطلاق، باب المطلقة البائن لا نفقة لها ٢٠/ ١٠١، ١٠٢ (١٤٨٠).

وجابر بن عبد الله، وفاطمة بنت قيس إحدى فقهاء نساء الصحابة، وكانت فاطمة تناظر عليه، وبه يقول أحمد بن حنبل وأصحابه وإسحاق بن راهويه وأصحابه وداود بن على وأصحابه، وسائر أهل الحديث[١].

ولقد رد الإمام ابن القيم على قول مروان الذى كان أميرًا على المدينة، لم نسمع هذا إلا من امرأة سنأخذ بالعصمة التى وجدنا الناس عليها ، قال رحمه الله: أما كون الراوى امرأة فمطعن باطلٌ بلا شك والعلماء قاطبة على خلافه.. فإنهم لا يختلفون فى أن السنن تُؤخذ عن المرأة كما تؤخذ عن الرجل، هذا وكم من سنة تلقاها الأئمة بالقبول عن امرأة واحدة من الصحابة، وهذه مسانيد نساء الصحابة بأيدى الناس لا تشاءُ أن ترى فيها سنةً تفردت بها امرأة منهن إلا رأيتها، فما ذنب فاطمة بنت قيس دون نساء العالمين، وقد أخذ الناس بحديث فريعة بنت مالك بن سنان أخت أبى سعيد فى اعتداد المتوفى عنها فى بيت زوجها، وليست فاطمة رضى الله عنها بدونها علمًا وجلالة وثقة وأمانة، بل هى أفقه منها بلاشك، فإن فُريعة لا تُعرف إلا فى هذا الخبر، وأما شهرة فاطمة، ودعاؤها من نازعها من الصحابة إلى كتاب الله، ومناظرتها على ذلك فأمرٌ مشهور، وكانت أسعد بهذه المناظرة ممن خالفها، وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يختلفون فى الشىء، فتروى لهم إحدى أمهات المؤمنين عن النبى ﷺ شيئًا فيأخذون به، ويرجعون إليه ويتركون ما عندهم له، وإنما فُضِّلْنَ على فاطمة بنت قيس بكونهن أزواج رسول الله ﷺ، وإلا فهى من المهاجرات الأُول، وقد رضيها رسول الله ﷺ لحِبِّه وابن حِبِّه أسامة بن زيد، وكان الذى خطبها له، وإذا شئت أن تعرف مقدار حفظها وعلمها، فاعرفه من حديث الدجال الطويل الذى حدث به رسول الله ﷺ على المنبر، فوعته فاطمة وحفظته وأدته كما سمعته[٢]..

فى بيت أم شريك:

بعد أن ذهبت فاطمة رضى الله عنها إلى النبى ﷺ وأخبرها بأن لا سكنى لها ولا نفقة، أمرها أن تعتد فى بيت أم شريك إذ أنها رضى الله عنها امرأة غنية من

(١) زاد المعاد ٥/ ٥٢٨.

(٢) زاد المعاد، للإمام ابن القيم ٥/ ٥٣٤، ٥٣٥.

الأنصار عظيمة النفقة فى سبيل الله ينزل عليها الضيفان، ثم بدا للنبى ﷺ ألا تنتقل إلى بيت أم شريك خوفًا من أن يسقط عنها خمارها أو ينكشف عنها ثوبها فيرى القوم منها بعض ما تكره. قال لها ﷺ: «ولكن انتقلى إلى ابن عمك عبد الله ابن عمرو بن أم مكتوم»، ثم أمرها ﷺ بقوله: «إذا حللت فآذنينى»[1].

زواجها الثانى:

قالت فاطمة رضى الله عنها: فلما تأيمت[2] خطبنى عبدالرحمن بن عوف فى نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، وخطبنى رسول الله ﷺ على مولاه أسامة بن زيد، وكنت قد حُدثت أن رسول الله ﷺ قال: «من أحبنى فليحب أسامة»، فلما كلمنى رسول الله ﷺ قلت: أمرى بيدك فأنكحنى مَنْ شئت[3].

وفى رواية أنها لما أعلمت النبى ﷺ بانتهاء عدتها، فخطبها معاوية وأبو جهم وأسامة بن زيد، فقال رسول الله ﷺ: «أما معاوية فرجل تَربٌ - فقير - لا مال له، وأما أبو جهم فرجل ضرَّابٌ للنساء، ولكن أسامة بن زيد، فقالت بيدها هكذا: أسامة أسامة![4] فقال لها رسول الله ﷺ: «طاعة الله وطاعة رسوله خيرٌ لك» قالت: فتزوجته فاغتبطت. وفى رواية قالت: . . . فتزوجته فشرفنى الله بابن زيد وكرمنى الله بابن زيد، وفى رواية أخرى: فنكحته فجعل الله فيه خيرًا واغتبطت به[5].

بركة الطاعة:

لقد اختار النبى ﷺ لفاطمة أسامة بن زيد، ورضيه لها لحبه إياه، ولكنها كرهت ذلك فى بادئ الأمر، فأجابها النبى ﷺ: «طاعة الله وطاعة رسوله خيرٌ لك» هنالك رضيت به زوجًا وسمعت وأطاعت لرسول الله ﷺ، فكان أن كافأها الله عز وجل بأن شرفها وكرمها به، وجعل فى زواجها من أسامة رضى الله عنه خيرًا وبركة، وسعدت معه أيما سعادة. .

---

(١) مسلم فى الطلاق، باب المطلقة البائن لا نفقة لها ١٠/ ٩٥، ٩٦، ومعنى آذنينى: أعلمينى.

(٢) معنى تأيمت: أى صارت بلا زوج.

(٣) مسلم فى الفتن وأشراط الساعة، باب قصة الجساسة، مقدمة الحديث ١٨/ ٧٨ - ٨٠ (٢٩٤٢).

(٤) أى أشارت بيدها إشارة تفيد كراهيتها الزواج من أسامة، ولعل ذلك أنها قرشية وهو من الموالى.

(٥) الحديث لمسلم فى الطلاق، باب المطلقة البائن لا نفقة لها، وقد سبق تخريجه.

هذه هى بركة الطاعة أن يجنى العبد منها الثمرة الحلوة المباركة، إنها ثمرة الخير والسعادة والراحة والطمأنينة..

وقال الإمام النووى: وفيه استحباب إرشاد الإنسان إلى مصلحته وإن كرهها، وتكرار ذلك عليه لقولها، قال: انكحى أسامة فكرهته، ثم قال: انكحى أسامة فنكحته، وفيه: قبول نصيحة أهل الفضل والانقياد إلى إشارتهم وأن عاقبتها محمودة، وفيه: جواز نكاح غير الكفء إذا رضيت به الزوجة والولى؛ لأن فاطمة قرشية، وأسامة مولى، وفيه: الحرص على مصاحبة أهل التقوى والفضل وإن دنت أنسابهم(١).

من مكارم شخصيتها:

لقد أشاد النبى الكريم ﷺ بالمرأة القرشية فى حنوها على أولادها وفى رعايتها لحق زوجها، فقال ﷺ: «خير نساء رَكِبْنَ الإبلَ نساءُ قُريش، أَحْنَاهُ على وَلَدٍ فى صِغَرِه، وأرعاهُ على زَوْجٍ فى ذات يده»(٢).

وإنها لشهادة طيبة مباركة من الرسول ﷺ تطوق أعناق نساء قريش بقلادة من الفضائل والمكارم التى تزيدهن فضلاً وجمالاً وكمالاً.

وفاطمة بنت قيس امرأة قرشية أخذت مكانتها بين نساء الصحابة.. نالت شرف الصحبة، وكانت ذات مكانة عالية عند النبى ﷺ فقد رضيها زوجًا لحِبِّه وابن حِبِّه أسامة بن زيد.

قال ابن حجر فى الفتح: كانت فاطمة رضى الله عنها من المهاجرات الأُول، وكان لها عقل وجمال(٣)، وقال صاحب الرياض: وكانت رضى الله عنها ذات عقل وافر وجمال باهر(٤)، وقال صاحب العقد الثمين: كانت رضى الله عنها من

(١) مسلم بشرح النووى ١٠/١٠٧.

(٢) البخارى فى الأنبياء، باب ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ [آل عمران: ٤٢] ٦/ ٤٧٠ (٣٤٣٢)، ومسلم فى الفضائل، باب فضائل نساء قريش ١٦/ ٨٠ (٢٥٢٧)، واللؤلؤ والمرجان ١/ ٧٨٠، ٧٨١ (١٦٤٣).

(٣) فتح البارى ٩/ ٣٨٧.

(٤) الرياض المستطابة، ص ٣٢٠.

المهاجرات الأُول، وكانت ذات جمال وعقل وكمال. قال الزبير: وكانت امرأة نَجُودًا، والنجود: النبيلة[١].

جود وكرم:

عن الشعبى قال: دخلنا على فاطمة بنت قيس فأتحفتنا[٢] برطب ابن طَابٍ[٣] وسقتنا سَويق سُلْت[٤]، فسألتها عن المطلقة ثلاثًا أين تعتد؟ قالت: طلقنى بعلى ثلاثًا فأذن لى النبى ﷺ أن أعتد فى أهلى[٥].

إن المسلمة الصادقة مع ربها عز وجل كريمة جواد، يدها مبسوطة بالخير على ضيفانها، قال الإمام النووى: وفيه استحباب الضيافة، واستحبابها من النساء لزوارهن من فضلاء الرجال وإكرام الزائر وإطعامه[٦].

ومن مكارم شخصية فاطمة رضى الله عنها اجتماع أصحاب الشورى فى بيتها عندما قتل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، قال الطبرى: ونزل فى قبره - يعنى فى قبر عمر - الخمسة، يعنى أهل الشورى، قال: ثم خرجوا يريدون بيوتهم، فناداهم عبد الرحمن: إلى أين؟ هلموا، فتبعوه، وخرج حتى دخل بيت فاطمة ابنة قيس الفهرية أخت الضحاك، قال بعض أهل العلم: بل كانت زوجته، وكانت نجوداً، يريد ذات رأى[٧].

(فى دور النساء كانت تُعقد أخطر المؤتمرات الفاصلة، احترامًا لها وتقديرًا، ولا نقص من قدر الاجتماع أن يعقد فى بيت امرأة.. أليس فى هذا مظهر كريم من مظاهر احترام المرأة المسلمة، وأنها لا تقل مكانة عن الرجل فى أخطر الأمور)[٨].

---

(١) العقد الثمين ٨/ ٣٠٤.

(٢) معنى أتحفتنا: ضيفتنا.

(٣) رُطب ابن طابٍ: نوع من الرطب الذى بالمدينة.

(٤) سَوِيقَ سُلْت: هو حب متردد بين الشعير والحنطة، قيل: طبعه طبع الشعير فى البرودة، ولونه قريب من لون الحنطة، وقيل عكسه.

(٥) إحدى روايات مسلم فى الطلاق، باب المطلقة البائن لا نفقة لها.. سبق تخريجه ١٠/ ٩٥، ٩٦، (١٤٨٠).

(٦) مسلم بشرح النووى ١٠/ ١٠٣.

(٧) تاريخ الطبرى ٤/ ٢٣٤.

(٨) شهيد المحراب، ص ٢٠٠.

حضور:

ولقد كان لفاطمة بنت قيس حضور مشهود على ساحة الأحداث على أعلى مستويات الحضور، حتى ليعقد فى بيتها مثل هذا الاجتماع، ثم اهتمامها بأمور المسلمين العامة، فعن عامر بن شراحيل الشعبى، أنه سأل فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس وكانت من المهاجرات الأُول، فقال: حدثينى حديثًا سمعتيه من رسول الله ﷺ لا تسنديه إلى أحد غيره فقالت: لئن شئت لأفْعَلَنَّ، فقال لها: أجل، حدثينى، فقالت: . . . فلما انقضت عدتى سمعت نداء المنادى، منادى رسول الله ﷺ ينادى الصلاة جامعة، فخرجت إلى المسجد فصليت مع رسول الله ﷺ، فكنت فى صف النساء التى تلى ظهور القوم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته جلس على المنبر وهو يضحك، فقال: «ليلزم كل إنسان مصلاه»، ثم قال: «أتدرون لم جمعتكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إنى والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة، ولكن جمعتكم؛ لأن تميمًا الدارى كان رجلاً نصرانيًا، فجاء فبايع وأسلم، وحدثنى حديثًا وافق الذى كنت أحدثكم عن مسيح الدجال» . . .(١).

وهكذا كان لفاطمة رضى الله عنها حضور فاعل، حملت مسؤولية نشر الدين الحق وإعلاء كلمته، وتحلت رضى الله عنها بإيمان راسخ ويقين ثابت وقلب لا يرتاب فى موعود الله عز وجل. .

الراوية:

كانت فاطمة رضى الله عنها من المكثرات فى الرواية عن النبى ﷺ، قال النووى فى التهذيب: رُوى لها عن رسول الله ﷺ أربعة وثلاثون حديثًا، وروى عنها جماعة من كبار التابعين أمثال: القاسم بن محمد بن أبى بكر، وأبو بكر بن أبى الجهم، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والأسود بن يزيد، وسليمان بن يسار، وعامرالشعبى. . وآخرين، ولها فى الصحيحين أربعة أحاديث أحدها متفق عليه، والباقى لمسلم وهى طوال كلها، وهى التى روت قصة الجساسة بطولها فانفردت بها مطولة، رواها عنها الشعبى لما قدمت الكوفة على أخيها وهو أميرها(٢).

(١) مسلم فى الفتن وأشراط الساعة، باب قصة الجساسة، وهو حديث طويل ١٨/ ٧٨ - ٨٥ (٢٩٤٢).

(٢) الرياض المستطابة، ص ٣٢٠، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٤٧١، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٥٣.

رجاحة عقل وسداد رأى:

ولقد عُرف عن فـاطمة رضى الله عنها رجاحة العـقل وسداد الرأى، فهى التى أشارت على زوجها أسامة رضى الله عنه بالتمهل فى الخروج للغزو، لما قال رسول الله ﷺ فى مرضه: «أنفذوا جيـش أسامة»، فسار حتى بلغ الجُـرْفَ، فأرسلت إليه امرأته فاطمة بنت قيس تقول: لا تَعْجَلْ فإن رسول الله ﷺ ثقيلٌ، فلم يبرح حتى قُبض رسول الله ﷺ. .(١).

(لم تقتـصر مسـاهمة المرأة المسلمـة فى الحياة العـامة على مـساندة الرجل فى الحرب، بل وقفت إلـى جانبه أيضًا فى السلم، تمده بالرأى السـديد، وتثبت جنانه وقت الشدة، وتشد عـضده فى الموقف العصيب. . ذلك أن المرأة المسلمـة الواعية الراشدة تدرك ضخامة المسؤولية التى ألقاهـا الإسلام على عاتقها، إذ كلفها بحسن تبعل زوجـها، وإحـاطته بكل مـا يرضى بشريتـه، ويغذى قلبه، ويمـتع وجدانه، ويجدد نشاطه، ويجعله قادرًا على أداء رسـالته فى الحياة، ومن هنا كانت لا تضن عليه برأى حين تـراه بحاجة إلى هذا الرأى، ولا تتـوانى عن الوقوف إلى جـانبه، تشجعه، وتثبته، وتواسيه، وتشير عليه.

إن المرأة المسلمة الراشدة لتُعْمِلُ عقلها، وتقدح زِنادَ فكرها، وتشير على زوجها فى أوقات ومواقف، قـد يكون فيها فى أمس الحاجة إلى من يشـير عليه، وبذلك تسدى إلى زوجها معروفًا كبيرًا، وتحسن إليه إحسانًا جميلاً)(٢).

وفاتها رضى الله عنها:

امتدت حياة فاطمة رضى الله عنها إلى عهد معاوية، وكانت زوجة مؤمنة ترعى حق زوجها، تطيعـه إذا أمر، وتحفظه إذا غاب عنها، وتقوم بواجبـها نحوه، وكان الصحابة والتابعون يعرفون لها قدرها. .

وهكذا انتهت حيـاة فاطمة لتترك وراءها دروسًا خـالدة ومواقف رائعة فى دور المرأة المسلمة وواجبـها نحـو دينها ومشـاركتهـا فى أهم الأحداث. رضى الله عن فاطمة بنت قيس فقد كانت قدوة فى إيمانها وتقواها وعلمها ومشاركتها. . .

(١) تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين)، ص ١٩.

(٢) شخصية المرأة المسلمة، د. الهاشمى، ص ١٩٠.

أم الدرداء
خيرة بنت أبى حدرد
رضى اللّه عنها
(٢٩)

نَسَبُها

أم الدرداء[١]:

نعيش الآن مع صحابيـة ذات منزلة عظيمة وقدر كبير، سـجلها التاريخ بأحرف من نور، وجعل منهـا قدوة طيبة للرجال والنسـاء على حد سواء، ملأت حـياتها بالعبادة والعلم والإيمان والتقوى..

إنها الصـحابية الفـاضلة خيرة بنت أبى حـدرد سلامة بن عـمير، الأسلمـية، صحابية بنت صحابى، وهى أخت عبد الله بن أبى حدرد رضى الله عنه.

وزوجها: الإمام القدوة والصحابى الزاهد القـارئ العابد عويمر بن زيد بن قيس الأنصارى الخزرجى.. كُنى رضى الله عنه بأبى الدرداء.

وأم الدرداء رضى الله عنها أم بلال بن أبى الدرداء.

أم الدرداء الكبرى:

قال الإمام النووى: واعلم أن لأبى الدرداء زوجتين كل واحدة منهـما كنيتها أم الدرداء، وهما كبرى وصغرى، فالكبرى صحابية، والصغرى تابعية، واسم الكبرى خيـرة بفتح الخاء المعـجمة، واسم الصـغرى هجيـمة بضم الهاء وفـتح الجيم[٢]، وماتت الكبرى فى حياة أبى الدرداء، وعاشت الصغرى بعده زمانًا طويلاً[٣].

كذا قال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وجماعة معهما بالتفريق بين أم الدرداء الكبرى والصغرى، ووهم ابن الأثير وغيره من ذهب إلى خلاف ذلك.

(١) الإصابة ٨/٧٣، ٧٤ (٣٨٤)، وتهذيب الكمال ٣/١٧٠٢، ١٧٠٣، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/٣٥٩ - ٣٦١ (٧٦٧)، وذيل الكاشف، ص ٣٧٨ (٢١٦٥)، وأسـد الغابة ٥/ ٥٨٠، ٥٨١، وتاريخ الطبـرى ١١/٦٧١، وتحفـة الأشراف ١٣/٧٨ (٩٣٢)، والاسـتيعـاب ط الأزهرية ١٣/٢١٦ - ٢١٩ (٢٥٥٠)، وثقـات ابن حـبان ٣/٣٥٨، وطبـقـات مـسلم ١/٢٢٣ (٦٠٦)، والجرح والتـعـديل ٩/٤٦٢، ٤٦٣ (٢٣٧١)، ومقدمة مسند بقى بن مخلد، ص ٢٥٦ (٣٠٨)، والمقتنى فى سرد الكنى ٢/١٦٩ (٦٩٦٧)، وجمهرة أنساب العرب، ص ٢٤١، ٢٤٢، وتجريد أسماء الصحابة ٢/٣١٩ (٣٨٦٢)، وتهذيب الكمال (المصورة) ص١٧٠٢، ١٧٠٣، وفتح البارى، المقدمة ص٢٥٩، ٤/٢٤٨، وتاريخ دمشق، ص٤٢٢.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ٢/٣٥٩.

(٣) فتح البارى ٢/١٦١.

واسم أم الدرداء الصغرى: هُجَيْمَةُ بنت حيى الأوصابية[١] الحميرية، كانت رضى الله عنها فقيهة عالمة عابدة مليحة جميلة واسعة العلم وافرة العقل، روت الكثير عن أبى الدرداء[٢]، وسنتعرض لبعضٍ من أخبارها فيما بعد إتمامًا للفائدة إن شاء الله.

دورها فى إسلام زوجها:

روى الذهبى فى سيره، قال: كان أبو الدرداء من آخر الأنصار إسلامًا، وكان يعبد صنمًا، فدخل ابن رواحة ومحمد بن مسلمة بيته، فكسرا صنمه، فرجع فجعل يجمع الصنم، ويقول: ويحك! هلا امتنعت! ألا دفعت عن نفسك، فقالت أم الدرداء: لو كان ينفع أو يدفع عن أحد، دفع عن نفسه ونفعها!

فقال أبو الدرداء: أعدِّى لى ماءً فى المغتسل، فاغتسل ولبس حُلَّتهُ، ثم ذهب إلى النبى ﷺ، فنظر إليه ابن رواحة مقبلاً، فقال: يا رسول الله هذا أبو الدرداء، وما أراه إلا جاء فى طلبنا؟ فقال: «إنما جاء لِيُسْلم، إن ربى وعدنى بأبى الدرداء أن يسلم»[٣].

لقد أدت أم الدرداء واجبها نحو زوجها خير قيام، وكانت سببًا فى إسلامه، حيث كانت حكيمة فى إقناعه، هادئة فقيهة فى كلامها معه، فأيقظت فى نفسه الحس الإيمانى، فأثمر هذا التصرف الحكيم إسلام أبى الدرداء، وحظيت رضى الله عنها بثواب من الله عز وجل، يفوق ما فى الدنيا من امتلاك حمر النعم..

حياة حافلة:

عاشت أم الدرداء رضى الله عنها مع زوجها حياة إيمان وتقوى، وتأثرت رضى الله عنها بزوجها، وتعلمت منه وقرأت عليه القرآن، وسماها الإمام الذهبى: العالمة[٤] ونقلت عنه من العلم الكثير.

زار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء مُتَبَذِّلَةً[٥]، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا فقال

---

(١) نسبة إلى وصَاب بطن من حمير.

(٢) تذكرة الحفاظ ١/٥٣.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٤٠، والمستدرك ٣/٣٣٦، ٣٣٧.

(٤) سير أعلام النبلاء ٢/٣٣٦.

(٥) متبذلة: أى لابسة ثياب البذلة وهى المهنة وزنًا ومعنى، والمراد أنها تاركة للبس ثياب الزينة، فتح البارى ٢٤٨/٤.

له: كُلْ، قال: فإنى صائم: قال: ما أنا بآكـل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقـوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب يقـوم، فقال: نَـمْ، فلما كان من آخـر الليل، قال سلمـان: قم الآن، فصليـا، فقال له سَلْـمَانُ: إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذى حق حقه، فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبى ﷺ: «صدق سلمان»(١).

لقد دخل سلمـان رضى الله عنه على امرأة أخيـه فى الله عز وجل أم الدرداء، ولما رأها متبـذلة تحرى منها السبـب، فصارحته رضى الله عنهـا دونما حرج، وهنا يأتى دور الجماعة فى حياة المسلم والمسلمة، إذ هى التى تساعده على التخلص من آفاته وعيوبه، وتهذبه وتقوم ما قد يكون فيه من قصور أو خلل..

من أخبارها:

لأم الدرداء أخبـارٌ ومواقف نقلتـها وحكتهـا عن أبى الدرداء تحمل فى طيـاتها معانى عظيمة ودروسًا مفيدة، جديرٌ بنا أن نتأملها ونتعلم منها..

منها ما رواه أبو نعـيم فى الحلية عن عون بن عبد الله بن عتـبة قال: سألت أم الدرداء رضى الله عنهـا: مـا كـان أفـضل عـمل لأبـى الدرداء؟ قـالت: التـفكر والاعتبار، وعـنده أيضًا عنه قال: قيل لأم الدرداء: ما كان أكـثر عمل أبى الدرداء رضى الله عنه؟ قالت: الاعتبار(٢).

وما رواه مـسلم عن أم الدرداء قالت: قال أبو الدرداء: خـرجنا مع رسول الله ﷺ فى شهر رمـضان فى حرٍ شديد حتى إن كان أحـدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر، وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة(٣).

---

(١) البخارى فـى الصوم، باب من أقسم على أخيـه ليفطر فى التطوع ٢٤٦/٤ (١٩٦٨)، وفى الأدب، باب صنع الطعـام والتكلف للضيف ١٠/ ٥٥٠، ٥٥١ (٦١٣٩)، وذكـر ابن حجر فـيه من الفـوائد، قوله: مشـروعية المؤاخاة فـى الله، وزيارة الإخوان والمبيت عندهم، وجـواز مخاطبة الأجنـبية، والسؤال عـما يترتب عليه المصلحة وإن كان فى الظاهر لا يتعلق بالسائل، وفـيه النصح للمسلم وتنبيه من أغفل، وفيه فضل قـيام آخـر الليل، وفيه مـشروعـية تزين المرأة لزوجـها، وثبوت حق المرأة على الـزوج فى حسن العشرة، وقد يؤخذ منه ثبوت حقها فى الوطء.. فتح البارى ٢٤٩/٤.

(٢) حلية الأولياء ٢٠٨/١.

(٣) مسلم فى الصيام، باب جواز الصوم والفطر فى شهر رمضان للمسافر ٢٣٨/٧ (١١٢٢).

وعن أم الدرداء رضى الله عنها قالت: كان لأبى الدرداء ستون وثلاثمائة خليل فى الله عز وجل يدعو لهم فى الصلاة، قالت: فقلت له فى ذلك، فقال: إنه ليس رجلٌ يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا وكل الله به ملكين يقولان: ولك بمثل، أفلا أرغب أن تدعو لى الملائكة(١).

وعنها رضى الله عنها قالت: كان أبو الدرداء يقول لى: يا أم الدرداء إن لله سلسلة لم تزل تغلى بها مراجل النار منذ خلق الله جهنم إلى يوم تلقى فى أعناق الناس، وقد نجانا الله من نصفها بإيماننا بالله العظيم، فحضى على طعام المسكين يا أم الدرداء(٢).

وروى ابن سعد عن أم الدرداء رضى الله عنها عن أبى الدرداء قال: تَفَكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من قيام ليلة(٣).

وعنها عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم، فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع الله تعالى له أموره، وجعل غناه فى قلبه، وما أقبل عبد بقلبه إلى الله تعالى إلا جعل الله عز وجل قلوب المؤمنين تفد عليه بالود والرحمة، وكان الله إليه بكل خير أسرع»(٤).

من فضلاء النساء:

عُرفت أم الدرداء رضى الله عنها بالخير والفضل منذ أشربت الإيمان بالله عز وجل، ومنذ أن لامست نسمات الإسلام نفسها الصافية، قال ابن حجر: كانت أم الدرداء الكبرى من فضلاء النساء وعقلائهن، وذوات الرأى فيهن مع العبادة والنسك، توفيت قبل أبى الدرداء وذلك بالشام فى خلافة عثمان، وكانت حفظت عن النبى ﷺ وعن زوجها، روى عنها جماعة من التابعين منهم: ميمون بن مهران، وصفوان بن عبد الله، وزيد بن أسلم..(٥).

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٥١، والمنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ٥/ ١٧.
(٢) الأموال لأبى عبيد القاسم بن سلام، ص ٣٥٠.
(٣) ابن سعد ٧/ ٣٩٢.
(٤) حلية الأولياء ١/ ٢٢٧.
(٥) الإصابة ٨/ ٧٣.

وهكذا كانت أم الدرداء الكبرى رضى الله عنها مثال المرأة الصالحة العاقلة العالمة، رضى الله عنها فقد كانت قدوة لكل مسلمة تريد لنفسها الخير والصلاح.

أم الدرداء الصغرى(١):

نتحدث الآن عن بعض من أخبار أم الدرداء الصغرى إتمامًا للفائدة كما ذكرنا آنفًا، قال الإمام الذهبى عنها: أم الدرداء الصغرى السيدة العالمة الفقيهة.. روت علمًا جمًا عن زوجها أبى الدرداء وعن سلمان الفارسى وكعب بن عاصم الأشعرى، وعائشة وأبى هريرة.. وطائفة، وعرضت القرآن وهى صغيرة على أبى الدرداء وطال عمرها، واشتهرت بالعلم والعمل والزهد..(٢).

ومما نقلته عن أبى الدرداء قولها: دخل علىّ أبو الدرداء وهو مُغْضبٌ، فقلتُ: ما أغضبك؟ فقال: والله ما أعرف من أمة محمد ﷺ شيئًا إلا أنهم يُصَلُّون جميعًا(٣).

قال الإمام النووى: وكانت أم الدرداء هذه فقيهة، واتفقوا على وصفها بالفقه والعقل والفهم والجلالة، سمعت أبا الدرداء وأبا هريرة وعائشة، وروى عنها خلائق من كبار التابعين(٤)، وقال الذهبى: كانت لأم الدرداء حُرْمةٌ وجلالةٌ عجيبة(٥).

---

(١) انظر ترجمتها فى: تهذيب التهذيب ١٢/ ٤٩٣ (٢٩٤٢)، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٢٧٧، ٢٧٨، والجرح والتعديل ٩/ ٤٦٣ (٢٣٧٢)، وتذكرة الحفاظ ١/ ٥٣، والاستيعاب (ط الأزهرية) ١٣/ ٢١٦ - ٢١٩ (٣٥٥٠)، والمقتنى فى سرد الكنى ٢/ ١٦٩ (٦٩٦٨)، وجمهرة أنساب العرب، ص ٤٣٧، والتاريخ الصغير ١/ ١٦٣، ١٧٩، ١٩٢، والمعين فى طبقات المحدثين، ص٣٦ (٢٥٢)، وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال ٣/ ٣٩٩ (٢٩)، والكاشف ٣/ ٤٤٠ (١٧٥)، والبداية والنهاية ٩/ ٥٠، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٦٠، ٣٦١، وأسد الغابة ٥/ ٤٤٨، والعبر ١/ ٩٣، والكاشف ٣/ ٤٤٠ (١٧٥)، وطبقات الحفاظ للسيوطى، ص٢٥ (٣٦)، وذيل الكاشف، ص٣٧٨ (٢١٦٦)، وتاريخ دمشق (تراجم النساء) ص ٤١٨ - ٤٣٥ (١٢٢)، والثقات لابن حبان ٥/ ٥١٧، وتقريب التهذيب ٢/ ٦٢١.

(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٧٧، وتاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٨١ - ١٠٠هـ)، ص ٢٣٣، ٢٣٤.

(٣) البخارى فى الأذان، باب فضل صلاة الفجر فى جماعة ٢/ ١٦١ (٦٥٠)، وقوله: (يصلون جميعًا) أى مجتمعين، وحذف المفعول وتقديره الصلاة أو الصلوات، ومراد أبى الدرداء أن أعمال المذكورين حصل فى جميعها النقص والتغيير إلا التجميع فى الصلاة، وهو أمر نسبى لأن حال الناس فى زمن النبوة كان أتم مما صار إليه بعدها، ثم كان فى زمن الشيخين أتم مما صار إليه بعدهما، وكأن ذلك صدر من أبى الدرداء فى أواخر عمره، وكان ذلك فى أواخر خلافة عثمان، فيا ليت شعرى إذا كان ذلك العصر الفاضل بالصفة المذكورة عند أبى الدرداء فكيف بمن جاء بعدهم من الطبقات إلى هذا الزمان؟ وفى هذا الحديث جواز الغضب عند تغيير شىء من أمور الدين، فتح البارى ٢/ ١٦٢.

(٤) تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٦٠، ٣٦١.

(٥) تاريخ الإسلام، (٨١ - ١٠٠هـ)، ٢٣٣.

وقال ابن كثير: اسمها هجيمة، ويقال: جهيمة تابعية عابدة عالمة فقيهة، كان الرجال يقرأون عليها، ويتفقهون فى الحائط الشمالى بجامع دمشق، وكان عبدالملك ابن مروان يجلس فى حلقتها مع المتفقهة يشتغل عليها وهو خليفة، رضى الله عنها[(١)].

ومما حُكى عنها ما رواه عوف بن عبد الله قال: جلسنا إلى أم الدرداء، فقلنا لها: أمللناك؟ فقالت: لقد طلبت العبادة فى كل شىء، فما أصبت لنفسى شيئًا أشفى من مجالسة العلماء ومذاكرتهم.. وعنها قالت: أفضل العلم: المعرفة، وعن عبد ربه بن سليمان بن عمر قال: كتبت لى أم الدرداء فى لوحى فيما تعلمنى: تعلموا الحكمة صغارًا، تعلمونها كبارًا، وإن كل زارع حاصد ما زرع من خير أو شر، وعن ميمون قال: ما دخلت على أم الدرداء فى ساعة الصلاة إلا وجدتها تصلى، وقالت رضى الله عنها فى قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] إن صليت فهو من ذكر الله عز وجل، وإن صمت فهو من ذكر الله عز وجل، وكل خير تعمله فهو من ذكر الله عز وجل، وكل شر تجتنبه فهو من ذكر الله عز وجل، وأفضل ذلك تسبيح الله عز وجل، وقالت لرجلٍ يصحبهم فى السفر: ما يمنعك أن تقرأ وتذكر الله عز وجل كما يصنع أصحابك، قال: ما معى من القرآن إلا سورة وقد رددتها حتى أدبرتها، فقالت: وإن القرآن ليدبر!! ما أنا بالتى أصحبك.. إن شئت أن تقوم وإن شئت تتأخر، فضرب دابته وانطلق رويته[(٢)].

ومن أخبارها أيضًا، أنها كانت رضى الله عنها تقوم بواجبها فى الدعوة إلى الله عز وجل، روى البخارى أن سليمان بن عامر حدثه عن جبير قال: أرسلتنى أم الدرداء: اذهب إلى أُنَيْف وَفُلان - قاصَّيْن بحمص - فليجعلا موعظتهما للناس فى أنفسهما[(٣)]، وعن عوف بن عبد الله قال: كنا نأتى أم الدرداء فنذكر الله عندها، وقال يونس بن ميسرة: كان النساء يتعبدن مع أم الدرداء، فإذا ضعفن عن القيام تعلقن بالحبال[(٤)].

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٥٠.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٣٥٩ - ٣٦١.

(٣) التاريخ الصغير للبخارى ١/ ١٦٣.

(٤) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٧٨، ولقد فعلت ذلك أم المؤمنين زينب بنت جحش فنهاها النبى ﷺ وأمر بحله، وقال: «ليصلِّ أحدكم نشاطه فإذا فتر فليقعد» مسلم فى صلاة المسافرين ٦/ ٧٢، ٧٣ (٧٨٤).

وقال عثمان بن حبان سمعت أم الدرداء تقول: إن أحدهم يقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن الله لا يمطر عليه ذهبًا ولا دراهم، وإنما يُرزق بعضهم من بعض، فمن أُعطى شيئًا فليقبل، فإن كان غنيًا، فليضعه في ذي الحاجة، وإن كان فقيرًا فليستعن به.

وقال إسماعيل بن عبيد الله: كان عبد الملك بنَ مروانِ جالسًا في صخرة بيت المقدس، وأم الدرداء معه جالسة حتى إذا نودي للمغرب قام وقامت تتوكأ على عبد الملك حتى يدخل بها المسجد، فتجلس مع النساء، ويمضي عبد الملك إلى المقام يصلي بالناس.

وروى ميمون بن مهران عنها قالت: قال لي أبو الدرداء: لا تسألي أحدًا شيئًا، فقلت: إن احتجت؟ قال: تتبعي الحصادين، فانظري ما يسقط منهم فخذيه فاخبطيه ثم اطحنيه وكليه[1].

وفي رواية: قالت أم الدرداء لأبي الدرداء: إن احتجت بعدك آكل الصدقة؟ قال: لا، اعملي وكلي، قالت: فإن ضعفت عن العمل؟ قال: التقطي السنبل ولا تأكلي الصدقة[2].

وعن جبير بن نفير عن أم الدرداء أنها قالت لأبي الدرداء عند الموت: إنك خطبتني إلى أبويَّ في الدنيا فأنكحوك، وأنا أخطبك إلى نفسك في الآخرة، قال: فلا تنكحين بعدي، فخطبها معاوية فأخبرته بالذي كان، فقال: عليك بالصيام[3].

وقالت رضي الله عنها: لما احتضر أبو الدرداء، جعل يقول: مَنْ يعمل لمثل يومي هذا؟ مَنْ يعمل لمثل مضجعي هذا[4].

وفاتها رضي الله عنها:

امتدت حياة أم الدرداء الصغرى، وعاشت حياة طويلة في طاعة الله وعبادته، ومعلمة ناصحة داعية، قال ابن حجر في التهذيب: قال ابن حبان: كانت تقيم

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٧٧.

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٥/ ١٧.

(٣) تهذيب التهذيب ١٢/ ٤٩٣، وحلية الأولياء ١/ ٢٢٤.

(٤) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٥١.

ستة أشهر ببيت المقدس، وستة أشهر بدمشق، وماتت بعد سنة إحدى وثمانين وكانت من العابدات[١].

ومع وداع سيرة أم الدرداء (الكبرى والصغرى) نتذكر أنهما رضى الله عنهما كانتا من العالمات العابدات الورعات المداومات على الأعمال الصالحات، والحافظات لكتاب الله عز وجل، الراويات للعلم.. إن المسلمة الصادقة إذ تقف أمام هذه السيرة الطيبة المباركة، لتزداد حبًا وإجلالاً لهما مقتدية بهما، مقبلة على الله عز وجل، مطيعة لأوامره مجتنبة لنواهيه، متمثلة معنى العبودية لله رب العالمين، عاملة على نصرة دين الله عز وجل والتمكين له..

رضى الله عنهما وأسكنهما فسيح الجنان..

***

(١) تهذيب التهذيب ١٢/ ٤٩٣.

هند بنت عمرو الأنصارية
رضى الله عنها
(٣٠)

نَسَبُها

هند بنت عمرو[1]:

لقد فرض الله عز وجل الجهاد على كل مسلم فريضة لازمة لا مناص منها ولا مفر معها، ورغب فيها أعظم الترغيب، وأجزل ثواب المجاهدين والشهداء، فلم يلحقهم فى مثوبتهم إلا من عمل بمثل عملهم ومن اقتدى بهم فى جهادهم، ومنحهم من الامتيازات الروحية والعملية فى الدنيا والآخرة ما لم يمنح سواهم، وجعل دماءهم الطاهرة الزكية عربون النصر فى الدنيا وعنوان الفوز والفلاح فى العقبى، وتوعد المخلفين القاعدين بأفظع العقوبات، ورماهم بأبشع النعوت والصفات..

ولستَ تجدُ نظامًا قديمًا أو حديثًا دينيًا أو مدنيًا، عنى بشأن الجهاد والجندية واستنفار الأمة، وحشدها كلها صفًا واحدًا للدفاع بكل قواها عن الحق كما تجد ذلك فى دين الإسلام وتعاليمه.

وإن الأمة التى تحسن صناعة الموت، وتعرف كيف تموت الموتة الشريفة، يهب لها الله الحياة العزيزة فى الدنيا والنعيم الخالد فى الآخرة..[2].

وها نحن نعيش الآن مع صحابية جليلة، ومجاهدة عظيمة، من فضليات النساء وعقلائهن، أحبت الجهاد وعشقته، وعاشت فى ظلال الشهادة فأبوها وأخوها وزوجها وابنها شهداء، وكانت لها رضى الله عنها مواقف ما يزال يذكرها التاريخ بكل فخر وإعجاب وإكبار واعتزاز..

إنها: هند بنت عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة.

(١) ابن سعد ٨/ ٢٨٧، ٢٨٨، وأسد الغابة ٥/ ٥٦٣، والاستيعاب ط الأزهرية ١٣/ ١٨٢ (٣٥١٥)، وتاريخ الإسلام (المغازى)، ص ٢١٥، وتاريخ المدينة ١/ ١٢٨، ووفاء الوفا ٢/ ١١٥، وتجريد أسماء الصحابة ٢/ ٣١٠ (٣٧٥٣)، والبداية والنهاية ٤/ ٤٢، ٤٣، والإصابة ٨/ ٢٠٦ (١١٠٢)، والاشتقاق، ص٤٦٧.

(٢) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، ص ٤٢١.

وأمها: هند بنت قيس بن القريم بن أمية بن سنان..

وزوجها: الصحابى الجليل والبطل الشهيد عمرو بن الجموح، من سادات الأنصار واستشهد بأحد، قال ابن إسحاق: كان عمرو بن الجموح سيدًا من سادات بنى سلمة وشريفًا من أشرافهم..

وأولادها منه: معاذ ومعوذ وخلاد، كلهم شهدوا بدرًا وأحدًا(١).

وأخوها: الشهيد عبدالله بن عمرو بن حرام، شهد بدرًا وأحدًا وقتل يومئذ شهيدًا فى شوال على رأس اثنين وثلاثين شهرًا من الهجرة، وكُفِّن فى كفن واحد مع عمرو بن الجموح وقبُرا معًا.

وهند رضى الله عنها عمة الصحابى الجليل والحافظ الفقيه جابر بن عبدالله الأنصارى..

إسلام هند:

كانت هند بنت عمرو رضى الله عنها من أشهر نساء الصحابة فى المدينة اللاتى حُزن قصب السَّبْقِ إلى الإيمان بالله عز وجل، وممن عرفن بالسبق إلى ساح الجهاد تغزو فى سبيل الله تسقى الماء وتداوى الجرحى وتقوم على المرضى، قال ابن سعد: وأسلمت هند رضى الله عنها وبايعت رسول الله ﷺ، وشهدت هند خيبر مع رسول الله ﷺ(٢)، حيث كان لها حضور مشهود، قال الواقدى: وخرج مع رسول الله ﷺ من المدينة عشرون امرأة، عدّ منهن: هند بنت عمرو بن حرام(٣).

زوجةٌ داعية:

لقد كان عمرو بن الجموح يفكر فى كل شيء إلا الإسلام، يعبد صنمًا له يُدعى مناة، شديد الحرص عليه والعناية به، لكن الذى غير لعمرو تاريخه، وقاده إلى النور هى زوجه هند التى كانت سببًا فى إسلامه وهدايته.

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٩٤.

(٢) ابن سعد ٨/ ٣٩٤.

(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٦٨٥.

(رأت هند زوجة عمرو بن الجموح، أن يثرب غلب على أهلها الإسلام، وأنه لم يبق من السادة الأشراف أحدٌ على الشرك سوى زوجها ونفر قليل معه. . .

وكانت رضى الله عنها تحبه وتُجِلُّهُ، وتشفق عليه من أن يموت على الكفر، فيصير إلى النار.

وكان هو فى الوقت نفسه يخشى على أبنائه أن يرتدوا عن دين آبائهم وأجدادهم، وأن يتّبعوا هذا الداعية مصعب بن عمير، الذى استطاع فى زمن قليلٍ أن يحول كثيرًا من الناس عن دينهم وأن يدخلهم فى دين الله عز وجل، فقال لزوجته: يا هند احذرى أن يلتقى أولادك بهذا الرجل - يعنى مصعب - حتى نرى رأينا فيه.

فبماذا ردت عليه هذه الزوجة الحكيمة اللبقة، قالت له: سمعًا وطاعة، ولكن هل لك أن تسمع من ابنك معاذ ما يرويه عن هذا الرجل، فقال: ويحك وهل صبأ معاذٌ عن دينه وأنا لا أعلم؟

فأشفقت المرأة الصالحة على الشيخ وقالت: كلا، ولكنه حضر بعض مجالس هذا الداعية، وحفظ شيئًا مما يقوله، فقال: ادعوه إلىَّ. . . فلم حضر بين يديه قال: أسمعنى شيئًا مما يقوله هذا الرجل، فقال: (بسم الله الرحمن الرحيم. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ...). سورة الفاتحة.. فقال: ما أحسن هذا الكلام وما أجمله؟!...)[1].

استبشرت زوجته خيرًا.. وبدأ شعاع الإيمان ينفذ إلى قلبه ثم ما لبث بعد أيام أن دخل فى دين الله عز وجل، وسعدت هند لإسلامه أيما سعادة.. هذه هى الزوجة المسلمة التى تحمل هم زوجها وتظل معه حتى تقوده وتأخذ بيده إلى الخير، ولا تيأس من استجابته.. بل تبقى وفية له صادقة معه حتى يسلم..

أم المجاهدين:

عرفت أسرة هند رضى الله عنها الإسلام منذ إشراقته الأولى فى المدينة، وأُشربت حب الجهاد فى سبيل الله، وكانت هند رضى الله عنها مثلاً عاليًا فى

(١) صور من حياة الصحابة، د. عبدالرحمن رأفت الباشا، ص٧٧، ٧٨.

الأمومة الحقة وما ينبغى أن تكون عليه الأم، إذ سرى حب الدعوة والجهاد فى دمها، ونقلت ذلك إلى أبنائها واقعًا ملموسًا، فلقنتهم الإسلام، وغرست فيهم حب الجهاد وطلب الشهادة فى سبيل الله، ودفعت بهم إلى ميادين الوغى والاستشهاد . .

روى البخارى عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قوله: بينا أنا واقف فى الصف يوم بدر، فنظرت عن يمينى وشمالى، فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثة أسنانهما تمنيت أن أكون بين أضلع منهما، فغمزنى أحدهما، فقال: يا عَمِّ هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم، ما حاجتك إليه يابن أخى؟ قال: أُخبرت أنَّهُ يسب رسول الله ﷺ، والذى نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده[١] حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك، فغمزنى الآخر فقال لى مثلها، فلم أنْشَبْ أن نظرت إلى أبى جهل يجول فى الناس فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما: فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه - وفى رواية: فأشرت لهما إليه، فشدا عليه مثل الصقرين[٢] حتى ضرباه - ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: «أيكما قَتَلَهُ؟» قال كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال: «هل مسحتما سيفيكما؟» قالا: لا، فنظر فى السيفين فقال: «كلاكما قَتَلَهُ، سَلَبَهُ لمعاذ بن عمرو بن الجموح»[٣]، وكانا معاذ بن عفراء ومعاذ بن عمرو بن الجموح[٤].

وعن معاذ بن عمرو قال: جعلت أبا جهل يوم بدر من شأنى، فلما أمكننى حملت عليه فضربته، فقطعت قدمه بنصف ساقه، وضربنى ابنه عكرمة بن أبى جهل على عاتقى، فطرح يدى وبقيت معلقة بجلدة بجنبى، وأجهضنى عنها القتال، فقاتلت عامة يومى وإنى لأسحبها خلفى، فلما آذتنى وضعت قدمى عليها، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها.

---

(١) سوادى سواده: شخصى شخصه.

(٢) الصقرين: تثنية صقر، وهو من سباع الطير وشبههما به لما اشتهر عنه من الشجاعة والشهامة والإقدام.

(٣) معناه: أن النبى ﷺ قضى بالسلب لمعاذ بن عمرو بن الجموح؛ لأنه السابق إلى إثخانه . . قال الجمهور: إن السياق دلالة على أن السلب يستحقه من أثخن فى القتل ولو شاركه غيره فى الضرب أو الطعن، انظر: فتح البارى ٦/ ٢٨٦.

(٤) البخارى فى فرض الخمس، باب مَنْ لَمْ يُخَمِّس الأسْلاَب ٦/ ٢٨٣، ٢٨٤ (٣١٤١).

يعلق الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء على قول معاذ فيقول: هذه والله الشجاعة، لا كآخر مِنْ خَدْشٍ بسهم ينقطع قلبه وتخور قواه.

قال ابن إسحاق: ثم عاش بعد ذلك حتى كان زمان عثمان(١).

لقد أثبتت هند رضى الله عنها أن للمرأة المسلمة دورًا كبيرًا فى خدمة دعوة الإسلام إلى جانب الرجل، كما أثبتت أن للمرأة طاقات عظيمة يمكن أن تسخرها فى بناء الجيل المسلم بالتربية الحقة والتنشئة الصالحة..

رفقاء الجنة:

كان عمرو بن الجموح زوج هند رجلاً أعرج، فلما كان يوم أحد، وكان له بنون أربعة يشهدون مع النبى ﷺ المشاهد أمثال الأُسد، أراد بنوه أن يحبسوه وقالوا: أنت رجلٌ أعرج ولا حرج عليك، وقد ذهب بنوك مع النبى ﷺ، قال: بخ! يذهبون إلى الجنة وأجلس أنا عندكم! فقالت هند زوجته: كأنى أنظر إليه مُوليًا، قد أخذ درقته، يقول: اللهم لا تردنى إلى أهلى خزيًا! فخرج ولحقه بنوه يكلمونه فى القعود، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن بنى يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه والخروج معك، والله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «أما أنت فقد عذرك الله تعالى ولا جهاد عليك» فأبى، فقال النبى ﷺ لبنيه: «لاعليكم أن تمنعوه، لعل الله يرزقه الشهادة»، فخلوا عنه فقُتل يومئذ شهيدًا.

فقال أبو طلحة: نظرت إلى عمرو بن الجموح حين انكشف المسلمون ثم ثابوا وهو فى الرعيل الأول - الجماعة المتقدمة من الخيل - لكأنى أنظر إلى ضَلَعه فى رحله، يقول: أنا والله مشتاق إلى الجنة! ثم أنظر إلى ابنه يعدو فى أثره حتى قتلا جميعًا.

وكانت عائشة رضى الله عنها زوج النبىﷺ خرجت فى نسوة تَسْتَروح الخبر - ولم يُضرب الحجاب يومئذ - حتى إذا كانت بمنقطع الحرة وهى هابطة من بنى حارثة إلى الوادى، لقيت هند بنت عمرو بن حرام تسوق بعيرًا لها، عليه زوجها

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٤٢، وسير أعلام النبلاء ١/ ٢٥١، ٢٥٢، وفتح البارى ٧/ ٣٤٥.

عمرو بن الجموح، وابنها خلاد بن عمرو، وأخوها عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر، فقالت عائشة: عندك الخبر، فما وراءك؟ فقالت هند: خيرًا، أما رسول الله ﷺ فصالح ودفع الله عنه، واتخذ الله من المؤمنين شهداء ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

قالت عائشة رضى الله عنها: مَنْ هؤلاء؟ قالت: أخى، وابنى خلاد، وزوجى عمرو بن الجموح، قالت: فأين تذهبين بهم؟ قالت: إلى المدينة أقبرهم فيها... حَلْ - تزجر بعيرها - ثم برك بعيرها، فقلت: لِما عليه! قالت: ما ذاك به، لربما حمل ما يحمل البعيران، ولكنى أراه لغير ذلك، فزجرته فقام، فلما وجهته إلى المدينة برك، فوجهته راجعة إلى أُحد فأسرع، فرجعت إلى النبى ﷺ وأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «فإن الجمل مأمور، هل قال شيئًا؟»، فأخبرته رضى الله عنها بدعاء زوجها قبل خروجه إلى أحد: «اللهم لا تردنى إلى أهلى خِزْيًا وارزقنى الشهادة»، فقال ﷺ: «فلذلك الجمل لا يمضى! إن منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبره، منهم عمرو بن الجموح، يا هند ما زالت الملائكة مُظلَّةً على أخيك من لدن قتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن» ثم مكث رسول الله ﷺ حتى قبرهم، ثم قال ﷺ: «يا هند قد ترافقوا فى الجنة جميعًا: عمرو بن الجموح، وابنك خلاد، وأخوك عبد الله»، قالت هند: يا رسول الله ادع الله عسى أن يجعلنى معهم[1].

الحب الصادق:

فى اللحظة التى تضعف فيها النفس أمام شدة الابتلاء وفقد الأحبة، نجد هند صابرة محتسبة صامدة، لم تشغلها أحزانها وآلامها وجرحها الغائر فى نفسها على فقد زوجها وابنها وأخيها.. فتقول هذه الكلمة التى ترددها الألسنة على مر الأجيال: أما رسول الله ﷺ فصالح وكل مصيبة بعده جلل - أى هينة صغيرة - إنه مع ما أصابها فى هذه الساعة العصيبة إلا أن الذى كان يشغلها هو سلامة رسول الله ﷺ.

(١) المغازى للواقدى ١/ ٢٦٤ - ٢٦٦، والبداية والنهاية ٤/ ٤٢، ٤٣.

أجل كل مصيبة بعدك يا رسول الله يسيرة هينة، هذا هو لسان الحال والمقال الذى تردده الصحابيات اللواتى أحببن قائد الدعوة وحرصن على سلامته، إنه سمو الحب الذى تقصر عنه همم ذوى الهمة، ولا يفسره إلا الإيمان الراسخ العميق. .

فياجلال الإيمان! ويالروعة الحب الصادق! لقد كانت هند رضى الله عنها تتمتع بهذا الحب الطاهر الذى إذا دخل شغاف القلب وامتزج باللحم والدم حوّل التراب تبرًا والطين إكسيرًا، هذا هو الحب الذى يجعل الضعيف قويًا، والقوى بطلاً مغوارًا باسلاً، ويجعل المرأة ليثًا ثائرًا وأسدًا مزيرًا، فكانت رضى الله عنها ضعيفة، ولكن قلبها كان عامرًا بذلك الحب الطاهر. . كانت ممتحنة ولكن صدرها كان منشرحًا برؤية محيا الحبيب ﷺ، حتى انطلق لسانها بذلك الكلام العجيب الذى يحمل كل المعانى اللطيفة للحب الصادق، كما يشير إلى ما يكنه صدرها من إجلال وتوقير لسيد المرسلين، ومن عواطف التضحية والفداء فى سبيله حتى بزوجها وابنها وأخيها.

الصبر الجميل:

على الرغم من استشهاد زوجها وولدها وأخيها، إلا أنها رضى الله عنها كانت متماسكة النفس قوية الإيمان، أكرمها الله عز وجل بالصبر الجميل وزينها بالرضا والتسليم بقضاء الله وقدره، بل وسرها استشهادهم وأسعدها بشارة النبى ﷺ لها بالرفقة الصالحة فى الجنة؛ لذلك طلبت من النبى ﷺ أن يلحقها بهم ويجعلها معهم. . وأعادت هند رضى الله عنها بموقفها هذا ما فعلته الخنساء من قبل حين استشهد أولادها. . ومازالت قافلة أمهات الشهداء وزوجات الشهداء تمضى إلى يومنا وإلى أن يشاء الله عز وجل. . إننا نذكر هنا بكل إجلال وتقدير أمهات شهدائنا فى فلسطين تلك الأرض المباركة. . نذكر لهن صبرهن واحتسابهن، ونذكر لهن صدق إيمانهن وحسن تربيتهن لأبنائهن المجاهدين.

مواصلة الجهاد:

شهدت هنـد رضى الله عنها خيبـر مع ثلة مؤمنة من الصحابيـات بلغ عددهن عـشرين، وهذا يثبت أنه كان للنسـاء المسلمـات دور كبـير فى غـزوات المسلمين وحروبهم، مما يدل على فضل نـساء الصحابة ومكانتهن، وعلى جـاهزية المجتمع المسلم كله فى وقت النفـير بنسـائه ورجاله، وليس غريبًـا أن تكون هند رضى الله عنها فى طليعة من شاركن فى هذه الغزوة المباركة، وهى من أسرة مجاهدة عُرفت بالفضل والخيـر وأسهمت بدورها فى خدمة الإسـلام، وكانت هى رضى الله عنها واحدة ممن وهبن أنفسهن وأولادهن للجهاد فى سبيل الله.

رضى الله عن هند وعن أسـرتها المبـاركة، وجعلنـا رفقاءهم فى الجنـة وحسن أولئك رفيقًا..

***

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- إتحاف الورى بأخبار أم القرى، للنجم عمر بن فهد محمد بن محمد بن فهد، بتحقيق فهيم محمد شلتوت، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، ط أولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.

٣- إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، محمد الخضري، تحقيق إبراهيم أمين، المكتبة التوفيقية، القاهرة، بدون تاريخ.

٤- آثار البلاد وأخبار العباد، للإمام زكريا بن محمد بن محمود القزويني، دار بيروت، بيروت، لبنان ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٥- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان: ترتيب الأمير علاء الدين علي بن يلبان الفارسي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ط ثانية ١٤١٤هـ.

٦- أحكام النساء لابن الجوزي، تحقيق عبد القادر أحمد عبد القادر، دار ابن قتيبة، ط أولى ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

٧- الأخوات المؤمنات، د. منير محمد الغضبان، المملكة العربية السعودية، الرئاسة العامة لتعليم البنات، ط رابعة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

٨- الأدب المفرد، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، خرّج أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط ثالثة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٩- إرواء الغليل للألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط ثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٠- الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط ثانية، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

١١- الأساس فى السنة (السيرة النبوية)، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط أولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

١٢- الاستيعاب (بهامش الإصابة) لابن عبد البر، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ط أولى ١٣٢٨هـ، وطبعة مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

١٣- أُسد الغابة فى معرفة الصحابة، لابن الأثير، دار إحياء التراث العربى، بيروت، بدون تاريخ.

١٤- أسماء بنت عميس، عبد الخالق حسن الشريف، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط أولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

١٥- الاشتقاق، لأبى بكر محمد بن الحسن بن دريد، بتحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجى، القاهرة، ط ثالثة، بدون تاريخ.

١٦- الإصابة فى تمييز الصحابة، للحافظ ابن حجر العسقلانى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ط أولى ١٣٢٨هـ، وطبعة دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

١٧- الأعلام، لخير الدين الزركلى، دار العلم للملايين، بيروت، ط سابعة ١٩٨٦م، وط ثانية عشرة ١٩٩٧م.

١٨- أعلام المسلمين، أم عمارة نسيبة بنت كعب، أمينة عمر الخراط، دار القلم، دمشق، ط أولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

١٩- أعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٢٠- أعلام النساء، لعمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط خامسة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٢١- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، للإمام شمس الدين أبى عبد الله بن قيم الجوزية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ط أولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٢٢- الإكمال فى رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف فى الأسماء والكنى والأنساب، للإمام الحافظ ابن ماكولا، اعتنى به عبد الرحمن بن يحيى اليمانى، دار الكتاب الإسلامى، القاهرة، ط ثانية ١٩٩٣م.

٢٣- الأمالى، لأبى على إسماعيل بن القاسم القالى البغدادى، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

٢٤- إمتاع الأسماع بما للنبى ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، للإمام تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد المقريزى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٢٥- أمهات المؤمنين، محمد فتحى مسعد، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط أولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٢٦- الأمومة ومكانتها فى الإسلام فى ضوء الكتاب والسنة، رسالة ماجستير، إعداد: مها عبد الله عمر الأبرش، المملكة العربية السعودية، وزارة التعليم العالى، جامعة أم القرى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٢٧- الأنباه على قبائل الرواة، لابن عبد البر أبى عمر يوسف بن عبد الله، بتحقيق إبراهيم الإبيارى، دار الكتاب العربى، ط أولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٢٨- أيسر التفاسير لكلام العلى الكبير، لأبى بكر جابر الجزائرى، ط أولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٢٩- الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ثامنة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، وط مؤسسة الرسالة، بيروت ط ثامنة عشرة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٣٠- البداية والنهاية، للحافظ أبى الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط خامسة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٣١- بطولات ومواقف فى الصبر والتحمل والتضحية، محمد حاتم الطيشى، دار القلم، دمشق، سوريا، ط أولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٣٢- بقى بن مخلد القرطبى ومقدمة مسنده (عدد لكل واحد من الصحابة من الحديث)، بتحقيق د. أكرم ضياء العمرى، ط أولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٣٣- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، السيد محمود شكرى الألوسى البغدادى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ثانية، بدون تاريخ.

٣٤- بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها، للإمام المحدث أبى محمد عبدالله بن أبى جمرة الأندلسى، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط ثالثة، بدون تاريخ.

٣٥- البيان والتبيين، لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح حسن السندوبى، دار إحياء العلوم، بيروت، ط أولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٣٦- تأملات فى السيرة النبوية، د. محمود محمد عمارة، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، ط ثالثة ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٣٧- تاريخ الثقات، للإمام الحافظ أحمد بن عبد الله بن صالح أبى الحسن العجلى، بترتيب الحافظ نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى، بتحقيق د. عبد المعطى قلعجى، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط أولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

٣٨- تاريخ الأدب العربى، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط ثالثة ١٩٧٨م.

٣٩- تاريخ الأدب العربى، أحمد حسن الزيات، ط ٢٤، بدون تاريخ.

٤٠- تاريخ الأدب العربى، كارل بروكلمان، أشرف على ترجمته، د. محمود فهمى حجازى، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ط ١٩٩٣م.

٤١- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمرى، دار الكتاب العربى، بيروت.

أ- السيرة النبوية، ط ثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

ب- المغازى، ط ثانية ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

جـ- عهد الخلفاء الراشدين، ط أولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

د- عهد معاوية بن أبى سفيان، ٤١هـ - ٦٠هـ، ط أولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

هـ- حوادث (٦١ - ٨٠هـ) ط أولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٤٢- التاريخ الإسلامى، للعلامة محمود شاكر، المكتب الإسلامى، بيروت: ط ثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٤٣- التاريخ الإسلامى، مواقف وعبر، د. عبد العزيز بن عبد الله الحميدى، دار الدعوة، الاسكندرية، مصر، ط أولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٤٤- تاريخ الأمم والملوك، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، بتحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

٤٥- تاريخ الأمم والملوك، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، مؤسسة عز الدين، بيروت، ط أولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م - وط دار سويدان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، بدون تاريخ.

٤٦- تاريخ بغداد، للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

٤٧- تاريخ الخلفاء، لأبى الفضل جلال الدين عبد الرحمن السيوطى، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط ثالثة ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٤٨- تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق د. أكرم ضياء العمرى، دار طيبة، الرياض، ط ثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٤٩- تاريخ الدعوة إلى الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين (الدعوة فى حياة الصديق)، د. يسرى محمد هانئ، المملكة العربية السعودية، وزارة التعليم العالى، جامعة أم القرى، ط ١٤١٨هـ.

٥٠- التاريخ الصغير، لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، تحقيق محمود إبراهيم زايد، فهرس أحاديثه د. يوسف المرعشلى، دار المعرفة، بيروت، ط أولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

٥١- التاريخ الصغير، للإمام الحافظ أمير المؤمنين فى الحديث أبى عبد الله محمد ابن إسماعيل البخارى، بتحقيق محمد إبراهيم زايد، دار الوعى، حلب، سوريا، ومكتبة دار التراث، القاهرة، ط أولى ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

٥٢- التاريخ الكبير، لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، دار الكتب العلمية بيروت.

٥٣- تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء)، للإمام الحافظ ابن عساكر، تحقيق سكينة الشهابى ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م.

٥٤- تاريخ المدينة المنورة لابن شبّة، أبو زيد عمر بن شبّة النميرى البصرى، بتحقيق فهيم محمد شلتوت، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٥٥- تاريخ يحيى بن معين، للإمام يحيى بن معين بن عوف بن زياد، دراسة وترتيب وتحقيق د. أحمد محمد نور سيف، المملكة العربية السعودية، جامعة الملك عبد العزيز، مركز البحث العلمى، ط أولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٥٦- تبصير المنتبه بتحرير المُشْتَبه، للإمام الحافظ ابن حجر العسقلانى، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

٥٧- تجريد أسماء الصحابة، للحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

٥٨- تحرير المرأة فى عصر الرسالة، عبد الحليم أبو شقة، دار القلم، الكويت، ط أولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٥٩- تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى، للمباركفورى، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، بدون تاريخ.

٦٠- تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، للحافظ جمال الدين أبى الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزّى، تحقيق عبد الصمد شرف الدين، الدار القيمة، بمباى، الهند، ط أولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م.

٦١- تذكرة الحفاظ، للحافظ أبى عبد الله شمس الدين الذهبى، دار إحياء التراث العربى، بدون تاريخ.

٦٢- تراجم سيدات بيت النبوة رضى الله عنهن، د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، دار الريان للتراث، القاهرة، ط أولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٦٣- تصحيفات المحدثين، لأبى أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى، بتحقيق د. محمود أحمد ميرة، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، ط أولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٦٤- تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة، للإمام الحافظ العلامة الشيخ أبى الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلانى، دار الكتاب العربى، بيروت لبنان، بدون تاريخ.

٦٥- تفسير التحرير والتنوير، لسماحة الأستاذ العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس ط ١٩٨٤م.

٦٦- تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، مكتبة التراث الإسلامى، حلب: سوريا ط ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٦٧- تفسير القرآن العظيم مسندًا عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين، لابن أبى حاتم الرازى، تحقيق د. أحمد عبد الله العمارى الزهرانى، دار طيبة بالرياض، ودار ابن القيم بالدمام، المملكة العربية السعودية، ط أولى ١٤٠٨هـ.

٦٨- تقريب التهذيب، للحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى، تحقيق عبدالوهاب عبد اللطيف، دار المعرفة، بيروت، ط ١٣٨٠هـ.

٦٩- تلقيح فهوم أهل الأثر فى عيون التاريخ والسير، للإمام عبد الرحمن بن الجوزى، إدارة إحياء السنة، باكستان، بدون تاريخ.

٧٠- التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد، للإمام الحافظ أبى عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبى، مكتبة السوادى، جدة السعودية، تحقيق مجموعة من العلماء، ط ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٧١- تهذيب الأسماء واللغات، للإمام أبى زكريا محيى الدين بن شرف النووى، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

٧٢- تهذيب تاريخ دمشق الكبير، للإمام الحافظ أبى القاسم على بن الحسن بن هبة الله الشافعى، المعروف بابن عساكر، دار المسيرة، بيروت، ط ثانية ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

٧٣- تهذيب التهذيب، للحافظ ابن حجر العسقلانى، دار الفكر، بيروت، ط أولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ودار صادر، بيروت، ط أولى بالهند ١٣٢٥هـ.

٧٤- تهذيب الكمال فى أسماء الرجال، للحافظ جمال الدين أبى الحجاج يوسف المزّى، (نسخة مصورة عن النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية)، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت ط أولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٧٥- تهذيب الكمال فى أسماء الرجال، للإمام المزى، بتحقيق د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٧٦- الثقات، للحافظ أبى حاتم محمد بن حبان البستى، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ط أولى ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

٧٧- جامع الأصول فى أحاديث الرسول، للإمام مجد الدين أبى السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزرى، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلوانى ودار البيان ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

٧٨- جامع البيان فى تأويل آى القرآن، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، دار المعرفة بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٧٩- الجامع الصحيح، للترمذى (سنن الترمذى) لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق أحمد محمد شاكر، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، بدون تاريخ، ودار إحياء التراث العربى، بيروت ط أولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٨٠- الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير، لأبى الفضل جلال الدين عبدالرحمن السيوطى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٨١- جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلى، تحقيق عامر الجزار، وأنور الباز، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط أولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٨٢- الجامع فى السنن والآداب والمغازى، لأبى محمد عبد الله بن أبى زيد القيروانى، تحقيق محمد أبو الأجفان، وعثمان بطيخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، والمكتبة العتيقة، تونس، ط ثالثة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.

٨٣- الجامع لأحكام القرآن، لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٨٤- الجامع لشعب الإيمان، للإمام الحافظ أبى بكر أحمد بن الحسين البيهقى، الدار السلفية، بومباى، الهند، بتحقيق مختار أحمد الندوى، ط أولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٨٥- الجرح والتعديل، للإمام الحافظ أبى محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم محمد ابن إدريس بن المنذر التميمى الرازى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، ودار إحياء التراث العربى بيروت، ط أولى ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م.

٨٦- جمهرة أنساب العرب، لأبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٨٧- جمهرة النسب، لأبى المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى، رواية السُكّرى عن ابن حبيب، بتحقيق د. ناجى حسن، عالم الكتب، ومكتبة النهضة العربية، بيروت لبنان، ط أولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

٨٨- جوامع السيرة النبوية، لابن حزم الأندلسى، راجعه وعلق عليه الشيخ نايف العباس، دار ابن كثير، دمشق، بيروت ط ثانية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٨٩- جـولة تاريخيـة فى عصـر الخلفاء الراشـدين، د. محـمد السيـد الوكيل، دار المجتمع، جدة، ط أولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٩٠- حاضر العالم الإسلامى وقضاياه المعاصرة، د. جميل عبد الله محمد المصرى، دار أم القرى، عمان، الأردن، ط ثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٩١- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبى نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهانى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٩٢- حماة الإسلام، مصطفى نجيب، الندوة العالمية للشباب الإسلامى، ط ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٩٣- الحماسة، لأبى عُبادة البُحترى، وضع حواشيه محمود رضوان دَيُّوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٩٤- حياة الصحابة، للعلامة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوى، تحقيق الشيخ نايف العباس، ومحمد على دولة، دار القلم، دمشق، ط خامسة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٩٥- خالد بن الوليد، صادق إبراهيم عرجون، دار الأندلس، بيروت، بدون تاريخ.

٩٦- خزانة الأدب ولب لُباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادى، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجى، القاهرة، ط ثالثة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٩٧- خطط الشام، محمد كرد على، مكتبة النورى، دمشق، ط ثالثة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٩٨- خلاصة تذهيب تهذيب الكمال فى أسماء الرجال، للإمام الحافظ صفى الدين أحمد بن عبد الله الخزرجى بتحقيق العلامة محمود عبدالوهاب بن فايد، مكتبة القاهرة، مصر ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

٩٩- خلق المسلم، فضيلة الشيخ محمد الغزالى، دار الدعوة، الاسكندرية، مصر، ط سادسة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٠٠- در السحابة فى مناقب القرابة والصحابة، للإمام محمد على الشوكانى، تحقيق د. حسن الغمرى، دار الفكر، دمشق، ط أولى ١٩٨٤م.

١٠١- دراسة فى السيرة، د. عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، دار النفائس، بيروت، بدون تاريخ.

١٠٢- الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور، للأديبة زينب بنت على بن حسين بن عبيد الله بن حسن بن إبراهيم بن محمد بن يوسف فواز العاملى، مكتبة ابن قتيبة، الكويت، بدون تاريخ.

١٠٣- دور المرأة فى حمل الدعوة، محمد حسين عيسى، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠هـ.

١٠٤- دلائل النبوة، لأبى القاسم إسماعيل بن محمد الفضل التيمى الأصبهانى، تحقيق محمد رواس قلعجى، دار ابن كثير، دمشق، ط ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

١٠٥- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، للحافظ أبى بكر أحمد بن الحسين البيهقى، تحقيق د. عبد المعطى قلعجى، دار الكتب العلمية، ط أولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٠٦- ديوان حسان بن ثابت الأنصارى، دار بيروت للطباعة والنشر، ط ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

١٠٧- ديوان الخنساء، تحقيق كرم البستانى، دار بيروت للطباعة والنشر، ط ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

١٠٨- ديوان الشعر العربي، على أحمد سعيد، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط أولى ١٩٦٤م.

١٠٩- ذات النطاقين (أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما)، محمد حسن بريغش، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط أولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

١١٠- الذرية الطاهرة النبوية، للإمام الحافظ أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابى، الدار السلفية، الصفاة، الكويت ط أولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

١١١- ذيل الأمالي والنوادر، لأبى إسماعيل بن القاسم القالى البغدادى، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

١١٢- ذيل الكاشف، للحافظ أبى زرعة أحمد بن عبد الرحمن العراقى، بتحقيق بوران الضناوى، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط أولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١١٣- رجال من التاريخ، الشيخ على الطنطاوى، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، ط ثامنة ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

١١٤- رجال ونساء حول الرسول، هانى الحاج، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ط أولى، بدون تاريخ.

١١٥- الرحيق المختوم، صفى الرحمن المباركفورى، دار الريان للتراث، ط سادسة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١١٦- الرواة من الإخوة والأخوات: للإمامين على بن المدينى، وأبى داود السجستانى، بتحقيق د. باسم فيصل الجوابره، دار الراية، الرياض، السعودية، ط أولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١١٧- الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية، لابن هشام، لأبى القاسم عبدالرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلى، تعليق طه عبد الرؤوف سعد، مؤسسة مختار، القاهرة، ط ١٩٧٢هـ.

١١٨- الرياض المستطابة فى جُملة من روى من الصحيحين من الصحابة، للإمام يحيى بن أبى بكر العامرى اليمنى، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط ثانية ١٩٧٩م.

١١٩- زاد المعاد فى هدى خير العباد، للإمام الحافظ شمس الدين محمد بن أبى بكر الزرعى المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب وعبدالقادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط خامسة عشرة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، وط الخامسة والعشرون ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

١٢٠- الزهد، للإمام وكيع بن الجراح، بتحقيق عبد الرحمن عبد الجبار، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط أولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

١٢١- زهر الآداب وثمر الألباب، لأبى إسحاق إبراهيم بن على الحُضْرى القيروانى، تحقيق على محمد البجاوى، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابى الحلبى)، ط ثانية ١٩٦٩م.

١٢٢- سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد، للإمام محمد بن يوسف الصالحى الشامى، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط أولى ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

١٢٣- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألبانى، المكتب الإسلامى، بيروت، ط رابعة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٢٤- السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين، للإمام محيى الدين الطبرى بتحقيق د. حمزة النشرتى، والشيخ عبد الحفيظ فرغلى، المكتبة القيمة، القاهرة، ط ١٩٩٦م.

١٢٥- سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى، للعلامة عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامى المكى، المكتبة السلفية، القاهرة، ط ١٣٨٠هـ.

١٢٦- سنن ابن ماجة، لأبى عبدالله محمد بن يزيد بن ماجة القزوينى، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، المكتبة العلمية، بيروت، بدون تاريخ، ودار إحياء التراث العربى، بيروت، ط أولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

١٢٧- السنن الإلهية فى الأمم والجماعات والأفراد، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ثالثة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

١٢٨- سنن أبى داود، للإمام أبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، ودار إحياء التراث العربى، بيروت، ط أولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

١٢٩- سنن الدارمى، لأبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

١٣٠- سنن سعيد بن منصور: للإمام الحافظ سعيد بن منصور بن شعبة الخراسانى المكى، تحقيق المحدث حبيب الرحمن الأعظمى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٣١- سنن النسائى ، للإمام أبى عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ط أولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

١٣٢- السنن الكبرى ، للبيهقى، للحافظ أبى بكر البيهقى، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

١٣٣- السنن الكبرى ، للإمام أبى عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى، تحقيق د. عبد الغفار سليمان البندارى، وسيد كسروى حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

١٣٤- سير أعلام النبلاء ، للحافظ الذهبى، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط رابعة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٣٥- السيرة الحلبية ، لعلى بن برهان الدين الحلبى، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

١٣٦- السيرة النبوية ، لأبى الحسن على الحسنى الندوى، دار الشروق، جدة، المملكة العربية السعودية، ط سادسة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

١٣٧- السيرة النبوية ، لأبى محمد عبد الملك بن هشام، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الإبيارى، وعبد الحفيظ شلبى، دار المعرفة بيروت، بدون تاريخ.

١٣٨- السيرة النبوية ، للحافظ أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشى، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٣٩- السيرة النبوية (تربية أمة وبناء دولة) ، صالح أحمد الشامى، المكتب الإسلامى، ط أولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

١٤٠- السيرة النبوية (دراسة تحليلية) د. محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمان، الأردن، ط أولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١٤١- السيرة النبوية دروس وعبر ، د. مصطفى السباعى، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة ١٩٨٨م.

١٤٢- السيرة النبوية الصحيحة ، د. أكرم ضياء العمرى، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط أولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

١٤٣- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، د. على محمد الصلابى، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط أولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

١٤٤- السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة، د. محمد بن محمد أبى شهبة، دار القلم، دمشق، ط أولى ١٤٠٩هـ - ١٩٩٨م.

١٤٥- السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية (دراسة تحليلية)، د. مهدى رزق الله أحمد، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط أولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

١٤٦- السير والمغازى، لمحمد بن إسحاق، تحقيق د. سُهَيْل زكار، دار الفكر، ط أولى ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

١٤٧- شاعرات العرب، جمع وتحقيق عبد البديع صقر، المكتب الإسلامى، بيروت، ط أولى ١٩٦٧م.

١٤٨- شخصية المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام فى الكتاب والسنة، د. محمد على الهاشمى، دار البشائر الإسلامية، ط سادسة ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٤٩- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، للمؤرخ الفقيه ابن العماد الحنبلى، دار الفكر، بيروت، ط ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

١٥٠- شرح السنة، للإمام أبى القاسم البغوى، تحقيق زهير الشاويش، وشعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامى، بيروت، ط ثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٥١- شرح النووى على صحيح مسلم، لأبى زكريا يحيى بن شرف النووى، مكتبة الغزالى، دمشق، ومؤسسة مناهل العرفان، بيروت، بدون تاريخ.

١٥٢- شعب الإيمان، للحافظ أبى بكر البيهقى، تحقيق أبى هاجر محمد السعيد بسيونى زغلول، دار الكتب العلمية، ط أولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

١٥٣- الشعر والشعراء أو طبقات الشعراء، لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى، بتحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط ثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٥٤- الشعر والشعراء، لابن قتيبة الدينورى، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط ثانية ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

١٥٥- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت بدون تاريخ.

١٥٦- صحيح ابن خزيمة، تحقيق محمد مصطفى الأعظمى، المكتب الإسلامى، بيروت، ط أولى ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

١٥٧- صحيح البخارى، للإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى مع شرحه فتح البارى بشرح صحيح البخارى، للحافظ ابن حجر العسقلانى، تحقيق محب الخطيب، دار الريان والمكتبة السلفية، القاهرة، ط ثالثة ١٤٠٧هـ، ودار المعرفة بيروت، بدون تاريخ.

١٥٨- صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألبانى، المكتب الإسلامى، بيروت، ط ثالثة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٥٩- صحيح مسلم، للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج النيسابورى، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابى الحلبى)، القاهرة، بدون تاريخ.

١٦٠- الصديق أبو بكر، محمد حسين هيكل، مكتبة النهضة المصرية، ط خامسة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م.

١٦١- صفة الصفوة، للإمام أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ودار المعرفة، بيروت، ط رابعة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٦٢- صور من حياة الرسول، أمين دويدار، دار المعارف، ط رابعة، ١٩٧٨م.

١٦٣- صور من حياة الصحابة، د. عبد الرحمن رأفت الباشا، دار الأدب الإسلامى، القاهرة، ط أولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١٦٤- صور من حياة الصحابيات، د. عبد الرحمن رأفت الباشا، دار الأدب الإسلامى، القاهرة، ط ثانية ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

١٦٥- صور وعبر من الجهاد النبوى فى المدينة ، د. محمد فوزى فيض الله، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط أولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

١٦٦- الطبقات ، للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج النيسابورى، بتحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن بن محمود بن سلمان، دار الهجرة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط أولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

١٦٧- الطبقات ، للإمام المحدث أبى عمرو خليفة بن خياط اللّيثى العصفرى، بتحقيق د. أكرم ضياء العمرى، دار طيبة، الرياض، السعودية، ط ثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

١٦٨- طبقات الحفاظ ، للإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط أولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٦٩- طبقات الشعراء ، لمحمد بن سلام الجمحى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٧٠- الطبقات الكبرى ، للإمام محمد بن سعد بن منيع البصرى، دار صادر بيروت، بدون تاريخ.

١٧١- الطريق إلى دمشق ، أحمد عادل كمال، دار النفائس، بيروت، ط ثالثة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٧٢- العبر فى خبر من غبر ، لمؤرخ الإسلام الحافظ الذهبى، تحقيق أبى هاجر محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٧٣- العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، تأليف الإمام أبى الطيب التقى الفاسى محمد بن أحمد الحسنى المكى، بتحقيق محمد حامد الفقى، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م.

١٧٤- العقد الفريد ، لابن عبد ربه الأندلسى، دار الأندلس، بيروت، ط أولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٧٥- العلل ومعرفة الرجال، للإمام أحمد بن حنبل، المكتبة الإسلامية، اسطنبول، تركيا، ط أولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٧٦- عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير (مختصر تفسير القرآن العظيم)، اختصار وتحقيق أحمد محمد شاكر، دار الوفاء، ط أولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٧٧- عمدة القارى شرح صحيح البخارى، للإمام بدر الدين العينى، دار إحياء التراث العربى، بدون تاريخ.

١٧٨- عون المعبود شرح سنن أبى داود، للعلامة أبى الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادى، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت، ط ثالثة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١٧٩- عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، لابن سيد الناس، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

١٨٠- عيون الأخبار، لابن قتيبة الدينورى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٨١- الفائق فى غريب الحديث، للعلامة جار الله محمود بن عمر الزمخشرى، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم، وعلى محمد البجاوى، دار الفكر، بيروت، ط ثالثة، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١٨٢- فاطمة بنت محمد ﷺ، عبد الخالق حسن الشريف، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط ثانية ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

١٨٣- فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير، للإمام محمد ابن على بن محمد الشوكانى، دار الفكر، بيروت، ط ثالثة ١٣٩٣هـ.

١٨٤- الفتح الربانى ترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيبانى، مع مختصر شرحه بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى، للإمام أحمد عبد الرحمن البنا (الشهير بالساعاتى)، دار الشهاب، القاهرة، ودار التراث العربى، بيروت، بدون تاريخ.

١٨٥- فتوح البلدان، لأبي الحسن أحمد بن يحيى البلاذرى، تحقيق د. عبدالله أنيس الطباع، د. عمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ط ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٨٦- الفصول فى سيرة الرسول ﷺ للحافظ الإمام إسماعيل بن عمر بن كثير، بتحقيق سيد بن عباس الجليمى، دار الصفا، القاهرة، ط أولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

١٨٧- فضائل الصحابة، للإمام أبى عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق وصى الله بن محمد عباس، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ومؤسسة الرسالة، بيروت، ط أولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٨٨- الفقه الإسلامى وأدلته، د. وهبة الزحيلى، دار الفكر، دمشق، سورية، ط ثالثة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

١٨٩- فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطى، دار السلام، القاهرة، ط أولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

١٩٠- فقه السيرة، فضيلة الشيخ محمد الغزالى، دار الدعوة، الاسكندرية، مصر، ط ثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

١٩١- فقه السيرة النبوية، د. منير محمد الغضبان، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط خامسة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

١٩٢- فى ظلال السيرة النبوية (الهجرة النبوية)، د. محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمّان، الأردن، ط ثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٩٣- فى السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية، د. إبراهيم على محمد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، (كتاب الأمة) العدد (٥٤) ط أولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

١٩٤- فى ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط تاسعة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

١٩٥- فى موكب الصبر وصحبة الصابرين، د. يحيى إسماعيل، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٩٦- القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٩٧- قراءة سياسية للسيرة النبوية، د. محمد رواس قلعجى، دار النفائس، بيروت، ط أولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

١٩٨- قواعد الدعوة إلى الله، د. همام عبد الرحيم سعيد، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط خامسة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

١٩٩- الكاشف فى معرفة من له رواية فى الكتب الستة، للإمام أبى عبد الله شمس الدين الذهبى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط أولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢٠٠- الكامل فى التاريخ، لابن الأثير، تحقيق أبى الفداء عبد الله القاضى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٢٠١- كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة، للإمام نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط أولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢٠٢- كشف الخفاء ومزيل الإلباس، للمحدث إسماعيل بن محمد العجلونى، مكتبة الغزالى، دمشق، ومؤسسة مناهل العرفان، بيروت، بدون تاريخ.

٢٠٣- كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، للعلامة علاء الدين على المتقى بن حسام الدين الهندى البرهان قورى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط خامسة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٢٠٤- لُباب النقول فى أسباب النزول، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سابق الخضيرى السيوطى، بهامش الجلالين، دار ابن كثير، دمشق، ط ثانية ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٢٠٥- لسان العرب، لأبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقى المصرى، دار صادر، بيروت، ط أولى ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.

٢٠٦- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقى، دار الفيحاء، دمشق، دار السلام، الرياض، ط أولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٢٠٧- مائة درس من السيرة النبوية، د. عبد الرب نواب الدين، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٢٠٨- المتجر الرابح فى ثواب العمل الصالح، للحافظ أبى محمد شرف الدين عبد المؤمن ابن خلف الدمياطى، تحقيق د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيس، ط خامسة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٢٠٩- المجتمع المدنى فى عهد النبوة، د. أكرم ضياء العمرى، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط أولى ١٤٠٣هـ.

٢١٠- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للإمام نور الدين الهيثمى، مؤسسة المعارف، بيروت، ط ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ودار الكتاب العربى، بيروت، ط ثالثة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٢١١- مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٢١٢- محمد رسول الله ﷺ، محمد الصادق عرجون، دار القلم، دمشق ط أولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٢١٣- مختصر سيرة الرسول: للشيخ العلامة محمد بن عبد الوهاب، تحقيق محمد حامد الفقى، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط ١٤١٠هـ.

٢١٤- المرأة صانعة الأبطال، د. نشأة محمد رضا ظبيان، دار الوثائق، السالمية، الكويت، ط أولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٢١٥- المرأة فى موكب الدعوة، مصطفى الطحان، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط أولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٢١٦- مروج الذهب ومعادن الجوهر، لأبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

٢١٧- المستدرك على الصحيحين، لأبى عبد الله محمد بن عبد الله النيسابورى الحاكم، وبحاشيته تلخيص الإمام الذهبى، دار المعرفة، بيروت، ط أولى ١٤٠٥هـ.

٢١٨- المستطرف فى كل فن مستظرف، للعلامة بهاء الدين محمد بن أحمد الأبشيهى، دار الفكر العربى، بيروت، ط أولى ١٩٩٧م.

٢١٩- المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط أولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٢٢٠- المستفاد من مبهمات المتن والإسناد، للإمام الحافظ ولى الدين أبى زرعة أحمد بن عبد الرحيم العراقى، تحقيق د. عبد الرحمن البر، دار الوقاد، المنصورة، ودار الأندلس الخضراء، جدة، ط أولى ١٤١٤هـ.

٢٢١- المسند، للإمام أبى عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى، المكتب الإسلامى، ط رابعة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢٢٢- مسند أبى داود الطيالسى، للحافظ سليمان بن داود بن الجارود الفارسى البصرى، الشهير بأبى داود الطيالسى، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

٢٢٣- مسند أبى يعلى، للإمام أبى يعلى أحمد بن على بن المثنى الموصلى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون، دمشق، ط أولى ١٩٨٦م.

٢٢٤- مشاهير علماء الأمصار، لمحمد بن حبان البستى، عنى بتصحيحه م. فلايشهمر.

٢٢٥- مشكلات الدعوة والداعية، فتحى يكن، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط سادسة عشر ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٢٢٦- المصنف، لأبى بكر عبد الرازق بن همام الصنعانى، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمى، منشورات المجلس العلمى، ط أولى ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

٢٢٧- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، للحافظ ابن حجر العسقلانى، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمى، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

٢٢٨- المعارف، لابن قتيبة الدينورى، أبى محمد عبد الله بن مسلم، تحقيق د. ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط سادسة ١٩٩٢م.

٢٢٩- معرفة الثقات من رجال أهل العلم والحديث ومن الضعفاء وذكر مذاهبهم وأخبارهم، للإمام أبى الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلى الكوفى، بترتيب الإمامين نور الدين الهيثمى، وتقى الدين السبكى، بتحقيق عبد العليم عبد العظيم البستوى، مكتبة الدار بالمدينة المنورة، ط أولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٢٣٠- المعلم بفوائد مسلم، للإمام أبى عبد الله محمد بن على بن عمر المازرى، بتحقيق الشيخ محمد الشاذلى النيفر، دار الغرب الإسلامى، بيروت، لبنان ط ثانية ١٩٩٢م.

٢٣١- معجم البلدان، للإمام شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبدالله الحموى، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٢٣٢- معجم الشعراء، للإمام أبى عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٢٣٣- معجم فقه السلف، د. محمد المنتصر الكتانى، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط ١٤٠٣هـ.

٢٣٤- معجم الشيوخ، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، بتحقيق د. محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، الطائف، المملكة العربية السعودية، ط أولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢٣٥- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت ط ثالثة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٢٣٦- المعجم الكبير، للحافظ أبى القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى، تحقيق حمدى عبد المجيد السلفى، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، بدون تاريخ.

٢٣٧- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى، وضع مجموعة من المستشرقين، ليدن ١٩٦٩م.

٢٣٨- المعرفة والتاريخ، لأبى يوسف يعقوب بن سفيان الفسوى، بتحقيق د. أكرم ضياء العمرى، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٢٣٩- المعين فى طبقات المحدثين، للعلامة شمس الدين الذهبى، بتحقيق د. همام عبد الرحيم سعيد، دار الفرقان، عمان، الأردن، ط أولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٢٤٠- المؤتمر العالمى الرابع للسيرة والسنة النبوية والمؤتمر العاشر لمجمع البحوث الإسلامية (قسم السيرة النبوية) ٨ - ٢٤ صفر ١٤٠٦هـ، ١ - ٧ نوفمبر ١٩٨٥م.

٢٤١- المغازى، محمد عمر الواقدى، تحقيق د. مارسدن جُونس، عالم الكتب، بيروت، ط ثالثة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٢٤٢- المغنى فى ضبط أسماء الرجال ومعرفة كُنى الرواة وألقابهم وأنسابهم، للعلامة المحدث محمد طاهر بن على الهندى، دار الكتاب العربى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢٤٣- مفاهيم تربوية، الجزء الخامس، للعلامة الشيخ محمد عبدالله الخطيب، دار المنار الحديثة، القاهرة، ط أولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٢٤٤- مقاصد القرآن الكريم، للإمام الشهيد حسن البنا، دار الوثيقة، الكويت، ط أولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٢٤٥- المقتنى فى سرد الكنى، للحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبى، تحقيق محمد صالح عبد العزيز المراد، المجلس العلمى لإحياء التراث الإسلامى، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط ١٤٠٨هـ.

٢٤٦- مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لأبى الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزى، دار المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، بتحقيق د. زينب إبراهيم القاروط، ط أولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٢٤٧- المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، لأبى الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٢٤٨- من أخلاق النصر فى جيل الصحابة، د. السيد محمد نوح، دار البشير، طنطا، مصر، ط أولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٢٤٩- المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب، للمنذرى، د. يوسف القرضاوى، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط أولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٢٥٠- المنفردات والوحدان، للإمام الحافظ سليم بن الحجاج القشيرى النيسابورى، بتحقيق د. عبد الغفار سليمان البندارى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط أولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢٥١- من معين السيرة، صالح أحمد الشامى، المكتب الإسلامى، بيروت ط ثانية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٢٥٢- المنهج التربوى للسيرة النبوية (التربية الجماعية)، د. منير محمد الغضبان، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط أولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٢٥٣- المنهج التربوى للسيرة النبوية (التربية الجهادية) د. منير محمد الغضبان، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط ثانية ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٢٥٤- المنهج التربوى للسيرة النبوية (التربية القيادية) د. منير محمد الغضبان، ط أولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٢٥٥- منهج التربية النبوية للطفل، محمد نور سويد، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط رابعة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٢٥٦- المنهج الحركى للسيرة النبوية، د. منير محمد الغضبان، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط سادسة ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٢٥٧- منهج الرسول ﷺ فى غرس الروح الجهادية فى نفوس أصحابه، د. السيد محمد نوح، دار المنار الحديثة، القاهرة، ط أولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

٢٥٨- المؤتلف والمختلف، للإمام الحافظ أبى الحسن على بن عمر الدارقطنى، تحقيق د. موفق بن عبد الله بن عبد القادر، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ط أولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٢٥٩- موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان: للهيثمى، تحقيق محمد عبد الرازق حمزة، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

٢٦٠- مواقف من حياة الصحابيات، د. على أحمد الخطيب، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، بدون تاريخ.

٢٦١- مواقف وعبر، د. محمد محمد داود، دار المنار، القاهرة، ط أولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٢٦٢- موسوعة أطراف الحديث، وضع أبى هاجر محمد السعيد بسيونى زغلول، عالم التراث، بيروت، ط أولى ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

٢٦٣- موسوعة الفداء فى الإسلام، د. أحمد الشرباصى، دار الجيل، بيروت، ط ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢٦٤- الموطأ، للإمام مالك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار الحديث، القاهرة، بدون تاريخ.

٢٦٥- نحو صحوة إسلامية فى مستوى العصر، فتحى يكن، مؤسسة الرسالة، ط ثانية ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٢٦٦- نساء حول الرسول ﷺ، محمد على قطب، دار الدعوة، الاسكندرية، ط أولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٢٦٧- النساء الداعيات، د. توفيق يوسف الواعى، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط ثالثة ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٢٦٨- نساء فاضلات، عبد البديع صقر، دار الاعتصام، ط ١٩٨٤م.

٢٦٩- نساء من عصر النبوة، أحمد خليل جمعة، جـ٢، دار ابن كثير، دمشق، ط أولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٢٧٠- نساء مؤمنات ، د. يوسف القرضاوى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ثالثة، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٢٧١- نسب قريش ، لأبى عبد الله المصعب بن عبد الله المصعب الزبيرى، دار المعارف، القاهرة، ط ثالثة، بدون تاريخ.

٢٧٢- نسيبة بنت كعب المازنية ، محمد حسن بريغش، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط ثالثة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٢٧٣- نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، لأبى العباس أحمد بن على بن أحمد بن عبد الله القلقشندى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

٢٧٤- النهاية فى غريب الحديث والأثر ، لأبى السعادات المبارك بن محمد المعروف بابن الأثير، تحقيق محمود الطناحى وآخرين، المكتبة الإسلامية، ط أولى ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.

٢٧٥- نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ، محمد الخضرى، تحقيق عدنان مولود المغربى، مكتبة الغزالى، دمشق، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، ط ثالثة، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٢٧٦- نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار ، شرح منتقى الأخبار، للإمام محمد ابن على الشوكانى، دار الكتب العلمية، ط أولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٢٧٧- الهدى النبوى للمرأة المسلمة ، د. محمد عبد الله عويضة، دار الفرقان، عمان، الأردن، ط أولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٢٧٨- الوافى بالوفيات ، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركى مصطفى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ط أولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠هـ.

٢٧٩- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، تأليف نور الدين على بن أحمد السمهودى، بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان، ط ثالثة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٢٨٠- والله ليتمن الله هذا الأمر (الثقة فى نصر الله)، جمعة أمين عبد العزيز، دار الدعوة، الاسكندرية، مصر، ط أولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٢٨١- الوفا بأحوال المصطفى، للإمام أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى، المؤسسة السعيدية، الرياض، صححه وعلق عليه محمد زهرى النجار، ط ١٣٩٦هـ.

٢٨٢- الوفيات، لأبى العباس أحمد بن حسن بن على بن الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطينى، بتحقيق عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط رابعة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

***

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
المقدمة	٧
تمهيد	١٣
(١) فاطمة الزهراء بنت النبى ﷺ رضى الله عنها	
النسب الشريف	٢١
المولد والنشأة	٢٢
إسلام فاطمة	٢٥
وفاة خديجة	٢٦
الهجرة إلى المدينة	٢٦
الزوجة	٢٨
خطبة فاطمة	٢٨
فى بيت الزوجية	٣٢
فى جوار أبيها	٣٢
بين على وفاطمة	٣٦
غضب النبى ﷺ لفاطمة	٣٧
خيرُ زوجة	٣٨
الأم	٤٠
فضلها	٤٢
مكانها من رسول الله ﷺ	٤٢
سيدة نساء العالمين	٤٤
الوداع	٤٨
وفاتها	٥٠

(٢) زينب بنت رسول الله ﷺ رضى الله عنها

نَسَبُها ٥٣
النشأة المباركة ٥٤
خطبة زينب ٥٥
محنة الحصار ٥٦
المهاجرة الصابرة ٦٠
ذرية مباركة ٦٥
فراق ٦٦

(٣) صفية بنت عبد المطلب عمة النبى ﷺ رضى الله عنها

نَسَبُها ٧١
نشأتها ٧٢
إسلامها وهجرتها ٧٢
أم الزبير ٧٤
مقتل حمزة ٧٧
طاعة وامتثال ٧٨
حامية الظهور ٨٠
حياء المسلمة ٨١
متى يُتعين القتال على المرأة؟ ٨١
صفية بعد النبى ﷺ ٨٣
صفية القدوة ٨٤

(٤) أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما

نَسَبُها ٨٧
أسماء وعائشة والنشأة الطيبة ٨٨
إسلامها ٨٨
الزوجة ٩٠

حُسن رعايتها لبيتها ٩١
المهاجرة ٩٥
بنت أبيها ٩٨
الأم ١٠٠
عبرة ١٠٣
علمها ١٠٦
فقهها فى الدين ١٠٧
ورع وتقوى ١٠٨
علمها بالطب ١٠٩
تعبيرها للرؤيا ١١٠
فصاحتها ١١٠
وفاتها ١١٢
وصيتها ١١٢
فضلها ١١٣
ذات النطاقين ١١٣
شجاعتها ١١٥
المجاهدة ١١٥
العابدة ١١٥
دعاء النبى ﷺ لها ١١٦

(٥) أم سليم بنت ملحان رضى الله عنها

نَسَبُها ١١٩
إسلامها ١٢٠
الزوجة ١٢٢
الأم ١٢٥
واجب عملى ١٢٩

فوائد جامعة ١٢٩
المجاهدة ١٣٤
درس وعبرة ١٣٧
رعايتها لرسول الله ﷺ ١٤٠
فقهها وعلمها ١٤٣
روايتها للحديث ١٤٦
وصية النبى ﷺ لأم سليم ١٤٦
فضلها ١٤٨
وفاء أم سليم وصدقها فى بيعتها ١٤٨
وفاتها ١٥١
(٦) أم حرام بنت ملحان رضى الله عنها
نَسَبُها ١٥٥
أسرة مجاهدة ١٥٥
فى رحاب الإيمان ١٥٧
الأثيرة ١٥٧
فوائد جامعة ١٦٤
فضائل أم حرام ١٦٥
البشارة بالجنة ١٦٥
الزوج الكريم ١٦٦
المحدثة المجاهدة ١٦٦
(٧) أسماء بنت عميس رضى الله عنها
نَسَبُها ١٦٩
إسلامها ١٧٠
الزوجة ١٧١
وفاء الزوجة ١٧٨

زواجها من أبى بكر ١٧٨
الوداع ١٨٠
فى بيت على رضى الله عنه ١٨١
علمها ١٨٣
روايتها للحديث ١٨٣
الوفاء والوفاة ١٨٤
فضلها ١٨٦
تقدير وتكريم ١٨٨
(٨) سلمى بنت عميس رضى الله عنها
نَسَبُها ١٩١
إسلامها ١٩١
الهجرة إلى المدينة ١٩٣
استشهاد حمزة ١٩٣
حياة جديدة ١٩٦
أم النجيب ١٩٧
فضلها ومكانتها ١٩٨
(٩) أمّ عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية رضى الله عنها
نَسَبُها ٢٠١
إسلامها ٢٠٢
الزوجة والأم ٢٠٣
زواجها ٢٠٣
أولادها ٢٠٣
بيعة ووفاء ٢٠٥
المجاهدة ٢٠٨
المقام الكريم ٢١٠

دعوة مباركة ٢١٣
مواصلة الجهاد ٢١٥
حفاوة النبى ﷺ بأم عمارة وزيارته لها ٢٢٢
روايتها للحديث ٢٢٢
نماذج من مروياتها ٢٢٣
فضلها ٢٢٤
طموحها ٢٢٤
كراماتها ٢٢٥
وبعد ٢٢٦

(١٠) أم الفضل بنت الحارث الهلالية رضى الله عنها

نَسَبُها ٢٢٩
إسلامها ٢٣١
الهجرة إلى المدينة ٢٣٩
فضائل أم الفضل ٢٤٥
الراوية ٢٤٦
الفقيهة ٢٤٧
العابدة ٢٤٧
المؤمنة ٢٤٨
وفاتها ٢٤٨

(١١) أم أيمن بركة بنت ثعلبة الحبشية رضى الله عنها

نَسَبُها ٢٥١
إسلامها ٢٥٢
مع رسول الله ﷺ ٢٥٣
مكانها من رسول الله ﷺ ٢٥٤
إكرام النبى ﷺ لها ٢٥٦

المجاهدة ٢٥٩
فضائل أم أيمن ٢٦٧
الراوية ٢٦٨
وفاتها ٢٦٩
(١٢) الخنساء بنت عمرو (تُماضر السُّلَمِيّة) رضى الله عنها
نَسَبُها ٢٧٣
حياتها قبل الإسلام ٢٧٣
الخنساء فى الإسلام ٢٧٩
أم الشهداء ٢٨١
ثبات حتى الممات ٢٨٢
درس فى الصبر ٢٨٣
فى مقعد صدق ٢٨٤
(١٣) سمية بنت خياط (أم عمار) رضى الله عنها
نَسَبُها ٢٨٩
بداية الرحلة ٢٨٩
فى رحاب الإيمان ٢٩١
أسرة مباركة ٢٩١
أُمٌّ وأُمٌّ ٢٩٢
البيت القدوة ٢٩٧
من أهل الجنة ٣٠٠
أمٌّ عمار ٣٠١
(١٤) أسماء بنت يزيد بن السكن رضى الله عنها
نَسَبُها ٣٠٥
بيعة صدق وإيمان ٣٠٦
نساءٌ أطهار ٣٠٦

المجاهدة الراوية ٣١٦
بطولات نسائية ٣١٧
دور بطولي ٣١٧
روايتها للحديث ٣١٨
فضائل ومكارم ٣٢٠
(١٥) أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها
نَسَبُها ٣٢٣
إسلام وبيعة ٣٢٤
أم كلثوم والهجرة المباركة ٣٢٥
أم كلثوم الزوجة ٣٣٠
روايتها للحديث ٣٣٢
فضل وسبق ٣٣٣
وفاتها ٣٣٤
(١٦) أم حكيم بنت الحارث رضي الله عنها
نَسَبُها ٣٣٧
زوجة الشهداء ٣٣٧
وفاءٌ وصدق ٣٣٩
المجاهدة ٣٤٢
وفاتها ٣٤٥
(١٧) هند بنت عتبة رضي الله عنها
نَسَبُها ٣٤٩
قبل الإسلام ٣٥٠
إسلام وبيعة ٣٥٥
دروس وعبر ٣٥٧
هند الأم ٣٦٢

المجاهدة ٣٦٥
مكانتها وفضلها ٣٦٧
وفاتها ٣٦٩

(١٨) خولة بنت ثعلبة رضى الله عنها

نَسَبُها ٣٧٣
حياتها ٣٧٤
قصة خولة مع زوجها ٣٧٤
دروس وعبر ٣٧٥
المجاهدة ٣٨٠
مكانتها وفضلها ٣٨١

(١٩) فاطمة بنت الخطاب رضى الله عنها

نَسَبُها ٣٨٥
فاطمة والدعوة إلى الله ٣٨٧
درسٌ نتعلمه ٣٨٨
فقه وفهم ٣٩٥
مكانتها وفضلها ٣٩٩

(٢٠) أم عطية الأنصارية رضى الله عنها

نَسَبُها ٤٠٣
بيعتها للنبى ﷺ ٤٠٤
وفاء والتزام ٤٠٥
الصابرة الصادقة ٤٠٦
الفقيهة العالمة ٤٠٧
رعايتها بيت النبى ﷺ ٤١٠
مكانتها وفضلها ٤١٢

(٢١) الرُّبيِّعُ بنت معوذ الأنصارية رضى الله عنها

نَسَبُها ٤١٥

أسرة مباركة ٤١٦
حياة حافلة ٤١٨
تربية حكيمة ٤٢٢
المجاهدة ٤٢٣
وداعًا ٤٢٦

(٢٢) أم رومان بنت عامر رضى الله عنها

نَسَبُها ٤٢٩
خطبة مباركة ٤٣١
الزوجة الصالحة ٤٣٢
أم رومان والهجرة المباركة ٤٣٣
فى المدينة المنورة ٤٣٥
حكيمة لبقة ٤٣٦
وداعًا أم رومان ٤٤٠
فضل وكرامة ٤٤١

(٢٣) أم ورقة الأنصارية رضى الله عنها

نَسَبُها ٤٤٥
العابدة الحافظة ٤٤٦
إن الله يرزقك الشهادة ٤٤٦
الشهيدة ٤٥١
فضل وكرامة ٤٥٢

(٢٤) أم شريك القرشية العامرية رضى الله عنه

نَسَبُها ٤٥٥
المؤمنة ٤٥٦
أم شريك الداعية ٤٥٨
دروس مستفادة ٤٥٩

صفات كريمة ٤٦٤
الراوية ٤٦٥
فضل ومكانة ٤٦٦
(٢٥) عاتكة بنت زيد القرشية رضى الله عنها
نَسَبُها ٤٦٩
وقفة ٤٧٢
مع عمر بن الخطاب ٤٧٤
زوجة الخليفة ٤٧٦
مع الزبير بن العوام ٤٧٧
وداعًا زوجة الشهداء ٤٧٩
(٢٦) أم سليط النجارية رضى الله عنها
نَسَبُها ٤٨٣
المجاهدة ٤٨٤
على الخطى نسير ٤٨٥
جهاد الدعوة ٤٨٦
تقدير وتكريم ٤٨٦
(٢٧) الشفاء بنت عبد الله رضى الله عنها
نَسَبُها ٤٩١
إسلام الشفاء ٤٩١
الشفاء المعلمة ٤٩٢
من مكارم شخصيتها ٤٩٤
الراوية ٤٩٥
فضل ومكانة ٤٩٦
(٢٨) فاطمة بنت قيس الفهرية رضى الله عنها
نَسَبُها ٤٩٩

زواجها الأول ٥٠٠
الفقيهة الفاضلة ٥٠١
فى بيت أم شريك ٥٠٢
زواجها الثانى ٥٠٣
من مكارم شخصيتها ٥٠٤
رجاحة عقل وسداد رأى ٥٠٧
وفاتها ٥٠٧

(٢٩) أم الدرداء خيرة بنت أبى حدرد رضى الله عنها

نَسَبُها ٥١١
دورها فى إسلام زوجها ٥١٢
حياة حافلة ٥١٢
من أخبارها ٥١٣
من فضلاء النساء ٥١٤
أم الدرداء الصغرى ٥١٥
وفاتها ٥١٧

(٣٠) هند بنت عمرو الأنصارية رضى الله عنها

نَسَبُها ٥٢١
إسلام هند ٥٢٢
زوجة داعية ٥٢٢
أم المجاهدين ٥٢٣
الصبر الجميل ٥٢٧
مواصلة الجهاد ٥٢٨
المصادر والمراجع ٥٢٩
الفهرس ٥٥٧


دار التوزيع والنشر الإسلامية
٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢


دار التوزيع والنشر الإسلامية
٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢

هذا الكتاب

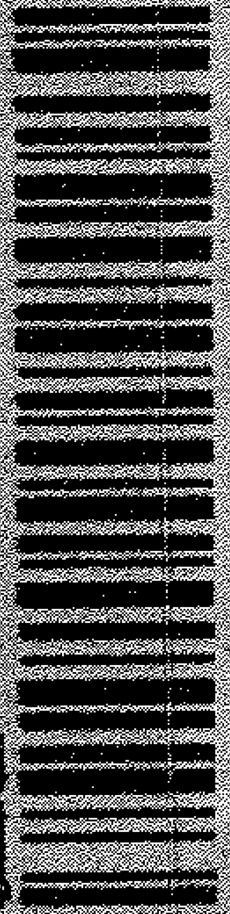
أرّخ فيه المؤلف الكريم لحياة ثلاثين صحابية ، حيث بدأ بالسيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، ثم زينب بنت رسول الله ﷺ ، ثم صفية بنت عبد المطلب عمة النبى ﷺ ، وختم بالسيدة هند بنت عمرو الأنصارية رضى الله عنهن ، وهؤلاء الصحابيات ضربن أروع الأمثلة فى الإيمان بالله عز وجل والتصديق به فى الحب والاتباع ، فى البذل والعطاء ، فى الجهاد ونصرة الدين ، فى البيعة والهجرة ، فى التطلع إلى الدار الآخرة ، فى الإخلاص والصدق ، فى الوفاء والاستقامة .

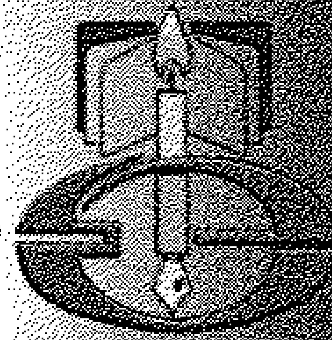
وقد وضّح المؤلف الكريم الهدف من الكتاب ، وهو تعرّف المسلمات المعاصرات على سيرة سلفهن الصالح من الصحابيات السابقات ؛ ليقتدين بهن فى حياتهن ، وارتفاع هممهن وطموح نفوسهن ، وتحرك عزائمهن نحو المعالى .

وقد انتهج المؤلف الكريم منهجا اهتم فيه باستخراج العبر والعظات ، واستنباط الفوائد النافعة ، فى صورة سهلة ميسرة .

والله نسأل أن ينفع به قارئه ، وكاتبه ، وناشره ،

وهو الهادى ، والموفق إلى صراطه المستقيم ،،،





دار التوزيع والنشر الإسلامية
٢٥١ ش بورسعيد ت: ٣٩٠٠٥٧٢ فاكس: ٣٩٣١٤٧٥
email:info@eldaawa.com www.eldaawa.com